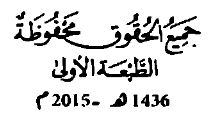
نهج البيان في تفسير القرآن

سماحة الشيخ محمد المختار السلامي

مفتي الجمهورية التونسية سابقا

الجزء الثالث



1436 هـ -2015 م



ISBN: 978-9938-14-190-0



مطبعة التسفير الفني
Imprimerie Reliure d'Art

الهاتف: 030 432 74 216+
الفاكس: 248 432 74 216+
البريد الالكتروني
reliure.dart@tunet.tn

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

بيان معنى الألفاظ :

انقلبتم : رجعتم من الغزو.

رجس : خبث.

بيان المعنى الإجمالي :

يكرر المنافقون تقديم أعذارهم عند رجوع المؤمنين من غزوة تبوك، أسكتهم بمصارحتهم بالنهي عن معاودة الاعتذار وأنك لا تصدقهم، قائلين : إن الله قد أطلعنا على جلية أمركم. والله يعلم حقيقة ما أنتم عليه في الحاضر والمستقبل، فمن الخير لكم أن تتوبوا، بإقلاعكم عن النفاق الذي أنتم عليه .إنكم سوف ترجعون إلى ربكم فيوقفكم على ما فعلتم ثم يجازيكم عن أعمالكم.

أعلم الله المؤمنين أن المنافقين سيعملون على إعراضكم عن لومهم وتقريعهم، فحققوا لهم الإعراض. لكنه إعراض قاطع للصلات بهم. إن دناءة نفوسهم جعلتهم كالخبث الذي يبتعد الناس عنه. ونهايتهم ستكون في جهنم جزاء بما اكتسبوه .

يقابلونكم بالأيمان ليتمكنوا من خداعكم فترضون عنهم. وهم فسقة، والله لا يرضى عن الفسقة، والمؤمن لا يرضى بما لا يرضى الله عنه .

بيان المعنى العام :

93- إنما السبيل ...فهم لا يعلمون.

ثم قابل القرآن بين الأصناف الذين عذرهم لصدقهم وإخلاصهم، قابل ذلك بالذين يطلبون منك الإذن ليبقوا في المدينة حتى لا يشاركوا في الغزو، ولا عذر لهم

يمنعهم، فهم أغنياء يملكون الرواحل والسلاح والـزاد، وليسـت بهـم علـة تقعـدهم عـن الغزو، ولكن فقدوا الشهامة وتأملوا وقلبـوا أوجـه النظـر، فـانتهوا إلـى الرضـا بـأن يبقوا مع النساء والعجزة .وتبع اختيـارهم هـذا أن طبـع الله علـى قلـوبهم فهـي مقفلـة كالرسالة التي أغلقت، ثم أضيف الطبع عليها بطابع على الشـمع يبقـى أثـره فـلا تفـتح إلا بإفساده، والطبع مـن الله فـلا تتصـور إزالتـه . واختيـارهم للإعـراض وخَـتْمُ الله على قلوبهم انتهى بهم إلى جهل ظلامي لا يخرجون منه .

94- يعتذرون إليكم...بما كنتم تعملون.

الذي فهمته أن شأن المنافقين شأن المعتـذرين الكـاذبين الـذين يحسـون فـي بـاطنهم أن الناس لا يصدقونهم، وهم لذلك يعيـدون علـى أسـماع النـاس أعـذارهم لعلهـم ينتهـون إلى إقناعهم. فكان المنافقون بعد رجوع المؤمنين من غـزوة تبـوك يعيـدون مـا قـدموه من كاذب المعاذير . ويقمعهم القـرآن بإرشـاد المـؤمنين إلـى مـا يجيبـونهم بـه؛ قـل، الخطاب للنبي وللمؤمنين: لن نصدقكم أبدا، ولو كـررتم إلـى مـا لانهايـة. ملكنـا حقيقـة أمركم، فقد أعلمنا الله بما أنتم عليه وأخبرنا بـه. وأنـتم مفضـوحون عنـد الله ورسـوله. ويحتمل معناه: دعوتهم إلى التوبة التـي سـيطلع عليهـا الله ورسـوله فيقبـل تحـولكم إن صدقتم.

ثم حذرتهم الآية بانكشاف أمرهم، يوم يرجعـون إلـى الله يـوم القيامـة، فـلا يسـتطيعون ستر كذبهم بالمعاذير. وفي ذلك تحذير من تمـاديهم علـى النفـاق وترغيـب فـي التوبـة فإن الله يعلم ما غاب عن البشر ومنه ما تنطوي عليه الضـمائر، كمـا يعلـم مـا يصـدر من أفعال لكل إنسان.

95- سيحلفون لكم ...عن القوم الفاسقين .

أعلـم الله المـؤمنين أن المنـافقين سـيلقونهم علـى طـريقتهم فـي الكـذب والخـداع والاستخفاف بالأيمان عند رجوعهم من تبوك، يهدفون إلى قبـول مـا بـرروا بـه تخلفهـم فتُعْرِضوا عن لومهم وتقريعهم .فأمروا أن يقـاطعوهم مـرة واحـدة فيحققـوا الإعـراض لكن لا على النحو الذي يريده المنافقون من بقاء التعامـل والصـلات علـى النحـو الـذي كان قبل الخروج إلى الغـزو، بـل يهملـونهم فيعتبـرونهم كـأنهم غيـر موجـودين فـي المجتمع نكاية بهم واحتقارا لهم .إنهم لكـذبهم ولأيمـانهم الفـاجرة تدنسـت نفوسـهم فهـم كالخبث الذي يبتعد الإنسان عنه ويتحاشى أن يتلطخ به. وحقـق الله مـا ذكـره مـن قبـل: أن مآلهم الخزي يـوم القيامـة فـي جهـنم. وذلـك جـزاء لمـا عقـدوا عـزمهم عليـه وأنجزوه.

إنهم يريدون أن يخدعوكم بالأيمان الفــاجرة فترضــون عــنهم ويســتلون نقمــتكم علــيهم. اعلموا أن الله لا يرضى عن القــوم الفاســقين. والمؤمنــون لا يرضــون بمــا لا يرضـــى الله عنه. وذلك لفسقهم المتضمن كما قدمنا الجمع بين فساد العقيدة وسوء السلوك.

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝

بيان معنى الألفاظ :

أجدر : أحق وأولى .

الحدود : الفواصل المميزة.

المغرم : ما يدفع من المال ظلما وقهرا.

يتربص : ينتظر.

الدوائر : المصائب التي لا مخلص منها.

دائرة السوء : مصيبة السوء.

قربات : جمع قربة ما يتقرب به إلى الله .

السابقون الأولون : الأولون الذين سبقوا إلى الإيمان .

الأنصار : جمع نصــير وهــم الأوس والخــزرج الــذين آمنــون برســول الله صــلى الله عليهم وسلم، كما يطلق على ذرياتهم من بعدهم.

أعد : هيأ .

بيان المعنى الإجمالي :

عني القرآن بتفصيل ملامح الفئات التي يتركب منها المجتمــع، فزيــادة عمــا قدمــه فــي الآيات السابقة، تعرض لصنف آخــر ممــن يتعامــل معهــم المســلمون، فنــبههم إلــى أن الأعراب سكان البادية تأثروا بقســوة الطبيعــة التــي يعيشــون فيهــا، فــأورثتهم غلظــة

وجفاء، لذا كان كفرهم أشد وكذلك نفاقهم، وهم أحـــرى بـــأن لا يميـــزوا بـــين حـــدود مـــا أنزل الله على رسوله . أعلمكم الله بخصائصـــهم لأنـــه هـــو العلـــيم، وأرشـــدكم بحكمتـــه لأنه هو الحكيم.

ونمط آخر من الأعراب ينافق، فيقصد من النفقـــات التـــي يقـــدمها التفصـــي علـــى أنهـــا إتاوة. ثم ينطوي على بغض لكم ينتظـــر حلـــول كارثـــة بكـــم . دعـــا القـــرآن علـــيهم أن تحل بهم الكارثة، على معنى أنها ستحل بهـــم قطعـــا . والله يســـمع ويعلـــم مـــا يتحـــدثون به سرا في مجالسهم وما تنطوي عليه صدورهم لأنه هو السميع العليم.

ونمط آخر من الأعراب، يؤمن بالله ويؤمن باليوم الآخـــر، يقصـــد مـــن نفقاتـــه أن تكـــون له قربة إلى منازل مدخرة عنـــد الله، يقصـــد أن يـــدعو لهـــم الرســـول. بشـــرهم الله بأنـــه حقق لهم ما يقصدون وكتبها قربات لهـــم، وســـيدخلهم فـــي واســـع رحمتـــه ويعفـــو عـــن زلاتهم . إن الله غفور لعباده الصالحين رحيم بهم .

والقسم الممتاز هم الـــذين ســـبقوا للـــدخول فـــي الإســـلام، مـــن المهـــاجرين أهـــل مكـــة والأنصار أهل المدينة، ويلتحق بهم من الـــذين ســـاروا علـــى مـــنهجهم وكـــانوا محســـنين في عقيدتهم وسلوكهم. أولئـــك جـــزاؤهم تحقيـــق أن الله راض عـــنهم، وأنـــه ســـيجازيهم بما يبلغ بهم درجة الرضا عما هم فيه فلا يطمحون لنيل أي شـــيء آخـــر، وقـــد هيـــأ لهـــم جنات تتخللها الأنهار. لقد فازوا الفوز الأعظم الذي ليس فوقه فوز.

بيان المعنى العام :

97–99: الأعراب أشد كفرا...إن الله غفور رحيم .

الأعراب سكان البادية غلظت طباعهم تبعا للبيئـــة التـــي يعشـــون فيهـــا. ولـــزمتهم الشـــدة في حياتهم متأثرين بقسوة الطبيعـــة المحيطـــة بهـــم. فنبهـــت الآيـــة ســـكان المدينـــة عـــن طبائعهم، لقلة الاختلاط بهم حتـــى لا يظنـــوا بجمـــيعهم خيـــرا. بينـــت أن كفـــارهم أشـــد كفرا من كفار المدينة يتمسكون بـــالكفر أشـــد التمســـك، وكـــذلك نفـــاق المنـــافقين مـــنهم. سكان المدينة تُلزمهم الحضارة على التنازل عـــن بعـــض الأمـــور ليتمكنـــوا مـــن العـــيش مع الآخرين، أما البدوي الأعرابي فهم عصـــيٌّ عـــن التراجـــع عمـــا ارتســـم فـــي ذهنـــه. كما أن الفرص التي يتحاور فيها الحضري مـــع مـــن هـــو أســـمى منـــه معرفـــة وأعمـــق تفكيرا متكررة في المدينة، فتتفتح مداركه وتسمو، بينمـــا اقتبـــاس البـــدوي مـــن غيـــره لا يتأتى إلا في أحوال قليلة. وفوق ذلك، إن سكان المدينـــة علـــى صـــلة دائمـــة برســـول الله الأسوة الحسنة في كل شيء، يتلقون منه مـــا يصـــقل عقـــولهم ويهـــذب أرواحهـــم، ومـــا يزالون يرتقون من مرتبة إلى مرتبة أعلـــى منهـــا حتـــى اســـتنارت عقـــولهم ومشـــاعرهم

بما لم يحصل لغيرهم على مر التاريخ. ولذا كـان أهـل المدينـة أطـوع لتقبـل الأحكـام والتأدب بالأدب الإسلامي، علـى عكـس أهـل الباديـة فهـم أحـق أن لا يميـزوا بـين المتشابهات، وقد لا يدركون الفواصل بـين الأشـياء. والله علـيم حكـيم لا يفوتـه شـيء وقدر كل شيء تقديرا على أتم وجه وأكمله.

ثم تثنى القرآن بالكشف عن نفاق المنافقين مـن الأعـراب الـذين يجعلـون مـا ينفقونـه من زكاة أو من إسهامات في المصـالح العامـة، القصـد منـه التفصـي مـن المطالبـة على أنه إتاوة من الإتـاوات، أي ضـريبة ظلـم، يضـمرون انتظـار الـتخلص منهـا . وامتنعوا من أداء الزكاة، بمجرد ما انتقل الرسـول إلـى الرفيـق الأعلـى، لخليفتـه أبـي بكر ﷺ، فحاربهم وغلبهم. ومن ناحية أخرى هم لا يُقـدِّرُون لكـم فـي المسـتقبل إلا أنـه ستحيق بكم كارثة، هـم ينتظـرون حلولهـا علـيكم. وعلـق الله علـى أسـانيهم بالـدعاء عليهم أن تحل كارثة السوء علـيهم. والـدعاء مـن الله لا يقصـد منـه تمنـي الحصـول ولكن تحقيق ما تضمنته صيغة الـدعاء. سـتحل بهـم كارثـة الهـلاك. والله يسـمع مـا يتناجون به عليم بمقاصدهم ونياتهم.

من شأن القرآن الإنصاف كما أشرنا إليـه فـي مناسـبات عديـدة. وقـد أنصـف القـرآن الأعراب فإنه إن كـان قـد شـنع علـى الفـريقين اللـذين كشـف عنهمـا فـي الآيتـين السابقتين، فإنه في هذه الآية أثنى علـى بعـض الأعـراب بـأنهم يؤمنـون بـالله إيمانـا صادقا يعطيهم تصورا للكون ونظامه وعلاقـة كـل مـا يحويـه بخالقـه، ويؤمنـون بمـا أنزله الله على محمد ﷺ، ويؤمنون بصفة خاصـة بيـوم الأخـر فهـم يراقبـون أعمـالهم مراقبة من يعلم أنه محاسب على ما قدم بـين يـدي ربـه. وانبنـى علـى ذلكـم الإيمـان أنهم يقصدون بما ينفقون التقرب إلى الله ليـدخره لهـم عنـده ويجـزيهم بـه، ويقصـدون أن يدعو لهم الرسول، إذ من عـادة رسـول الله أن يصـلي علـى المتصـدقين المسـهمين في بناء الدولة الإسلامية، كما سـيأتينا فـي الآيـة 103 مـن هـذه السـورة:(خُذْ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم)

وبشرتهم الآية بأن ما يتقربون بـه مـدخر عنـد الله، متأكـد ذلـك بصـلوات الرسـول، سيدخلهم به في رحمته، ورحمـة الله إذا حلـت تبعهـا كـل خيـر وانتفـى عنـدها كـل مكروه. مما يدل على أنهم سيلقون جزاءهم في الجنـة. ومـن المؤكـد أن الله غفـور فمـا سبق تـوبتهم ودخـولهم للإسـلام سـيمحوه، وسـيرحمهم كـأنهم لـم يفعلـوا إلا الخيـر الخالص.

100- والسابقون الأولون...ذلك الفوز العظيم.

أتم القرآن تفصيل وضع المجموعات التي تُكَـوّنْ المجتمــع العربـي فــي عهـد الرســالة وموقفهم من الدعوة، ومآل كل نوع مــنهم، بالتنويــه بأكملهــا وأفضـــلها علـــى الإطــلاق، وهم الذين سبقوا إلى الإيمان برســول الله وفتحــوا قلــوبهم وعقــولهم للــدعوة وأســهموا بأموالهم وأنفسهم في سبيل نشــر الإســلام: أعظــم ســعادتهم أن يكونــوا المبشــرين بــه الرافعين للوائه على ما يصيبهم من ضر. واللفظ لــم يضــبط مــن هــم الســابقون، وقــد اختلف المفسرون تبعــا لاخــتلاف الروايــات ولتحمــل الــنص التــأويلات فــي تعيــين السابقين الأولين . فرأى بعضهم أنهم الــذين آمنــوا برســول الله قبــل فــتح مكــة مــن المهاجرين، ومن الأنصار. وقيل من آمن قبل بدر، وقيــل مــن صــلى إلــى القبلتــين أي بعد بدر بشهرين . وغير ذلــك مــن الاحتمــالات والــذي يتــرجح عنــدي هــو التأويــل الأول لأن لقب المهاجر لا يطلق على من هاجر بعــد الفــتح لقولــه ﷺ : لا هجــرة بعــد الفتح ولكن جهاد ونية. ولقوله تعالى: (لا يسـتوي مـنكم مـن أنفـق مـن قبـل الفـتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا)[1] .

وعطف عليهم في رقيهم إلى المنزلــة الرفيعــة الــذين ســاروا علــى هــديهم، والتزمــوا طريقتهم، وبلغوا درجة الإحسان في حيــاتهم الباطنيــة والســلوكية. هيــأ الله لهــم جميعــا جنات تتخللها الأنهار، وحل عليهم رضــا ربهــم، فبلغــوا بمــا تجمــع لــديهم مــن نعــيم نفسي وروحي وبدني مرتبة الرضا التي لا يسأل صــاحبها شــيئا آخــر بعــد مــا أوتيــه من فضل إلهي .وذلك هو النجاح الــذي لــيس بعــد نجــاح، والفــوز الــذي لا يمكــن أن يوصف بوصف أبلغ من كونه عظيما .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى

---

[1] سورة الحديد آية10

ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

بيان معنى الألفاظ :

مردوا على النفاق :تدربوا وتمرنوا عليه حتى حذقوه.

اعترفوا : أقروا بذنوبهم وأعلنوا التوبة منها.

تزكيهم بها: تنمي خيراتهم.

السكن : الاطمئنان والراحة.

بيان المعنى الاجمالي:

حذر القرآن المؤمنين من الأعراب المنافقين المتخفين حول المدينة الذين لم يشعروا بهم، وكذلك من المنافقين في المدينة المبالغين في التستر الذين تدربوا على النفاق، حتى إنك يا محمد لا تعلمهم بأعيانهم، ولكن الله يعلمهم لا يخفون عليه سيعذبهم مرتين في الدنيا، ثم يكون عذابهم يوم القيامة عذابا عظيما.

ونوع آخر هم من المؤمنين الذين يعيشون معك في المدينة خلطوا بين العمل الصالح، وبين القعود عن الغزو بدون عذر. إنه يرجى أن يتوب الله عليهم إن الله غفور رحيم بعباده.

اقبل من التائبين ما يقدمونه من الصدقات، فالصدقات تطهر النفس من الإثم، وتنمي الفضائل والخيرات، وزدهم فضل عليهم بمعنى ادع لهم، فإن دعاءك لهم يحل به في قلوبهم الطمأنينة وصلاح المعتقد . يؤكد القرآن قبول التوبة وقبول الصدقات لأنه هو الذي يقبل التوبة عن عباده وهو الذي يقبل الصدقات والله تواب فيعظم الرجاء عند التائب وكذلك يعظم قبول الصدقة بالنسبة للمتصدق .

وقل لهم يا محمد اجتهدوا في العمل الصالح، لتعوضوا ما فاتكم ولتلحقوا بالسابقين. واحرصوا أن يكون عملكم خالصا نقيا مرضيا، فأنتم مراقبون من الله، ومطلوبون أن تعملوا وفق ما سنه رسوله، وأن تتحروا ما يرضي الجماعة. وفوق كل ذلك فستعرض عليكم أعمالكم وتحاسبون عليها يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

101 - وممن حولكم من الأعراب ...إلى عذاب عظيم.

أسلمت قبائل بدوية كانت مستقرة حول المدينة، وأظهروا الطاعة الكاملة، منهم جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، ولحيان، وعصية . ولم يستقر الإيمان في قلوب

جميع أعضاء تلك القبائل، بل بقي منهم من كان يظهــر الإيمـــان ويـبطن الكفــر. وكــذلك بعض سكان المدينة تدربوا أيضا على النفــاق ومرنــوا عليــه حتــى حــذقوه، يظهــرون انتسابهم للإسلام والمسلمين حتى ليخـــالهم مـــن لا يعــرف حقيقــتهم أنهــم مــن فضـــلاء هذه الأمة، وهم إذا أمنوا من الأعين التــي تــرقبهم ظهــروا علــى حقيقــتهم مــن الكيــد للإسلام. إن هذه المجموعة بلغت مــن التخفــي أنــك لا تعلمهــم ولكــن علــم الله محــيط بهم، يترصدهم لينزل عليهم عذابه الذي وصــفه بأنــه مــرتين. واختلــف المفســرون فــي تعيين المرتين فحملوه على نوعين مــن العــذاب، وحملــه الشــيخ محمــد الطــاهر ابــن عاشور على أن العذاب يضاعف ويتكــرر علــيهم، وهــو أولــى مــا حمــل عليــه لفــظ التكرر، ولكنه جعل المضاعفة لا تقف عنــد حــد .والــذي تــرجح عنــدي والله أعلــم: أن الله كما أخفى أسماءهم، أخفى كذلك نوع عذابهم، واقتصــرت الآيــة علــى تأكيــد أن كــل واحد منهم سيعذب في الــدنيا مــرتين، لا تخصصــهما بنــوعين مــن العــذاب ينسـحبان على الجميع، بل كل واحد منهم يعذب، ثم يعاد تعذيبــه .ثــم يــردون إلــى عــذاب واحــد يوم القيامة هو عذاب جهنم.

102 - وآخرون اعترفوا...غفور رحيم.

وفريق آخر تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين المبــرئين مــن النفــاق، ولكــن ضــعفوا في لحظة خروج الجيش واعتذروا، فهم قد خلطوا مــا ســبق أن فعلــوه مــن الصــالحات، خلطوا بين تلك الأعمال الصــالحة والأعمــال الســيئة؛ ثــم اســتيقظوا فتــابوا. يقــول الله تعالى: يرجى أن يقبل الله توبتهم فيتــوب علــيهم. إن الله غفــور رحــيم ترشــيح لقبــول توبتهم التي صيغت في قالب الرجاء للإشارة إلــى عظــم الــذنب مــن ناحيــة، ولأن الله غير ملزم بقبول توبة التائب المُخلصة له من العــذاب، ولأن التوبــة تقــع فــي وقــت مــا يزال فيه التائب يباشــر الحيــاة، وربمــا يمــتحن مــن نــوع المعصــية التــي عصــاها فيضعف مرة أخرى .

103-خذ من أموالهم ...والله سميع عليم .

الآية تحتمل أن يكون المراد بها لا ترد مــا قــدموه لــك مــن الصــدقات، وتحتمــل أنــه مأمور بأن يرشدهم إلى ما يمكن توبتهم من القبــول وهــو الصــدقة. فالآيــة تــدل علــى أن مما يساعد المذنب على الخروج مــن تبعــات ذنبــه أن يقــرن التوبــة بالصــدقة مــن ماله، وليس كل ماله، لما تدل عليه كلمــة (مــن أمــوالهم- مــن إفــادة التبعــيض) هــذه الصدقة التــي تطهــرهم بهــا مــن دنــس الإثــم. وتنمــي خيــراتهم النفســية بالفضــائل والحسنات، وصل عليهم؛ والصلاة مــن الرســول ﷺ للمــؤمنين دعــاء لهــم، يعمــر بهــا

قلب المصلى عليهم بالرحمة والطمأنينة والأنس وصلاح المعتقد؛ ويذهب عنهم القلق والاضطراب والحيرة.

والله يسمع دعاءك ويجيبك، أرشدك للدعاء لهم وهو العليم بما يصلحهم.

104- ألم يعلموا...هو التواب الرحيم.

ثم حثهم على التوبة والصدقات بصيغة التعجب كأن الكلام على معنى مالهم لم يعلموا حقيقة ما كان ينبغي أن تخفى عليهم؛ أن الله يقبل ....ذلك أن الآيتين السابقتين تضمنتا الرجاء في قبول التوبة وأمر الرسول بأخذ الصدقات وأن لا يردها عليهم. فكان الحث في هذه الآية بتقرير أن الذي يقبل التوبة هو الله، وأن الذي يقبل الصدقات هو الله. والله موصوف بأنه التواب الرحيم . وذلك ما يشجع على الإسراع بالتوبة وعلى التقدم بالصدقات، مما يرجح عند التائب أن الله يقبل توبته لأن الله هو التواب، وكذلك عند المتصدق أن الله يقبل صدقته لأن الله رحيم بعباده لا يردهم خائبين عن بابه.

105-وقل اعملوا...بما كنتم تعملون.

هذا أمر من الله لنبيه أن يطلب من المؤمنين الذين تابوا وقدموا الصدقات، أمر لهم بأن يجتهدوا في العمل. ذلك أن الله وقد تفضل عليهم فوعدهم بقبول توبتهم بما يمحو ما كان منهم من تقصير وخاصة قعودهم عن الغزو، حتى يجبروا ما فاتهم ويرقوا بصالح الأعمال إلى مرتبة السابقين.

وحرضهم أن يكون عملهم صالحا خالصا لله، وأن يجتنبوا ما نهى الله عنه، وذلك لأن الله مطلع على مقاصدهم وما ظهر وما خفي من أعمالهم، ويرقبوا رضا رسول الله عنهم، فميزان الصلاح مأخوذ من سنته التي بينت الطريق الراشد. وأن يقدروا أنهم منتسبون إلى المجتمع الإسلامي يعيشون معهم ويتبادلون معهم المنافع فيجتهدوا ليكون عملهم يُمكّن للتلاحم الاجتماعي، فلا يعملون عملا يسيء إلى الجماعة وترفضه . وفوق ذلك أن يكونوا مستحضرين دوما أنهم سيعودون إلى ربهم الذي دفع بهم إلى الوجود، سيعودون إليه يوم القيامة وسيحاسبهم عما عملوا من خير أو شر، فيُكشَف يوم القيامة كل ما قدموه.

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

بيان معنى الألفاظ :

مرجون : مؤخرون ينتظرون.

ضرارا : مبالغة في الضر .

الإرصاد : التهيئة .

لا تقم فيه : لا تصل فيه .

الشفا: الحاشية والطرف للهوة.

جرف : الحفير من واد أو مهواة.

هار : متهدم .

أسس: بنى أساسه وهو قاعدة الجدار .

بيان المعنى الاجمالي :

تحدثت الآية 107 عن ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن غزوة تبوك بدون عذر، ولا نفاق، ولكنهم تباطؤوا حتى فاتهم الجيش .سأل عنهم النبي ﷺ في تبوك . ولما رجع أتوه وصدقوه، فلم يكلمهم وأمر المؤمنين بمقاطعتهم، أخبرت الآية أنه سينزل فيهم حكمه إما بتعذيبهم وإما بقبول توبتهم. والله عليم بأمرهم حكيم فيما سيسلطه عليهم.

ثم عرضت سورة التوبة أمرا آخر من شأن المنافقين حول المدينة. فشنعت بالمنافقين الذين بنوا مسجدا قريبا من مسجد قباء وطلبوا من رسول الله أن يصلي فيه، وكان قصدهم أن يفرقوا كلمة المسلمين لينفردوا بالصلاة فيه بناء على ما طلب منهم عبد بن عمرو الراهب المتنصر والمقيم في بلاد الروم، ليقبلوه فيه عندما يأتي بجيش من الروم يقضي به على الإسلام من المدينة. وحلفوا ليستحثوا الرسول على الصلاة فيه بأن قصدهم أحسن القصد، يساعدون من يشق عليه الصلاة في مسجد قباء، على حضور صلاة الجماعة. ونزلت هذه الآية تنهى الرسول ﷺ من الصلاة فيه وتفضح نواياهم، مبينة أن المسجد الذي أقيم من أول يوم بقصد الإخلاص

والتقوى أحق أن تعبد الله فيه، خاصـــة وهـــذا المســـجد يعمـــره رجـــال يحبـــون الطهـــارة حتى أصـــبحت خلقـــا لهـــم، فـــأحبهم الله لـــذلك، والله يحـــب المتطهـــرين فـــي ســـلوكهم والمواظبين على التطهر المادي.

يعلو المسجد الذي بني مع قصد التقوى وتحصـــيل رضـــوان الله، ويكـــون جامعـــا للخيـــر كله في الحاضر والمآل، وينـــزل إلـــى أســـفل الـــدركات مـــن صـــاحب تأســـيس بنيانـــه القصد الخبيث، فهو كالبنيان على طـــرف حفيـــر متصـــدع، فمـــا إن يعلـــو قلـــيلا حتـــى يتلاشى في القاع ركاما ينتهي إلى نار جهنم. والله يمنع هدايته عن القوم الظالمين.

إنه وإن بعث النبـــي ﷺ مـــن هـــدم البنـــاء وأحرقـــه، وتحـــول إلـــى مجمـــع للقـــاذورات والفضـــلات، إلا أن قلـــوب بناتـــه سيصـــحبها التلـــوث بمـــا صـــنعوه إلا إذا تمزقـــت وتلاشت، على معنـــى أن التلـــوث مـــرتبط بهـــم دائمـــا . إن الله علـــيم بـــدقائق الأمـــور وخفاياها، يقرر في كل أمر ما يدل على كمال حكمته.

بيان المعنى العام:

106- وآخرون مرجون ...عليم حكيم.

تتابع هذه السورة ما يتعلق بغزو تبـــوك . فتـــذكر هـــذه الآيـــة أن بعضـــا مـــن المطـــالبين بالخروج للجهاد تخلفوا عنه، وهم ليسوا مـــن ذوي الأعـــذار ولا مـــن المنـــافقين ولا مـــن الكارهين للجهاد. ولكن اشـــتغلوا بـــدواعي خاصـــة فـــي حيـــاتهم حتـــى خـــرج الجـــيش، وأيسوا من اللحاق به . فبقوا في المدينـــة أســـفين . وســـأل عـــنهم النبـــي ﷺ وهـــو فـــي تبوك. وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أميـــة، ومُـــرارة بـــن الربيـــع. ولمـــا رجـــع إلـــى المدينة، أتوه وصـــدقوه، فلـــم يكلمهـــم، ونهـــى المســـلمين عـــن كلامهـــم، وأمـــرهم أن لا يقربوا نساءهم حتى يحكم الله فيهم. فهم ينتظـــرون نـــزول حكـــم الله فـــيهم؛ هـــذا الحكـــم المنتظر، إمـــا رفـــض تـــوبتهم وتعـــذيبهم، وإمـــا توبتـــه علـــيهم وغفـــران ذنـــبهم. والله يتصرف تصرفا يمثل العلـــم الكامـــل، والحكمـــة. فهـــو العلـــيم بصـــدق تـــوبتهم، وهـــو الحكيم في الحكم الذي سيظهره.

107-108، الذين اتخذوا مسجدا...المطهرين.

تعرض هذه الآيات نوعا آخر مـــن مخـــازي المنـــافقين حصـــل قـــرب الخـــروج لغـــزوة تبوك. ذلك أن جماعة من المنافقين من بني غـــنم بـــن عـــوف بتـــدبير مـــن عبـــد عمـــرو الراهب الذي كان قلبه يغلي حقدا علـــى الإســـلام، فقـــد أعـــان الأحـــزاب عنـــد غـــزوهم للمدينة، ثم فر إلى مكة، فلما فتحهـــا المســـلون احتمـــى بثقيـــف، فلمـــا دخـــل أهلهـــا فـــي الإسلام فر إلى أرض الروم. وقد أمـــرهم أن يبنـــوا مســـجدا قريبـــا مـــن مســـجد قبـــاء،

ينفردون بالصلاة فيه عــن الجماعــة. فبنــوا مســجدهم وطلبــوا مــن رســول الله أيــام استعداده للخروج إلى تبوك أن يأتيهم ويصــلي فيــه تمويهــا وتغريــرا، فــأنزل الله هــذه الآيات التي سنتابعها بالبيان .

يعرفهم القرآن بالصفة الغالبة عليهم التــي فضــحتهم: أنهــم بنــوا مســجدا قصــدهم منــه إدخال الضر على المؤمنين من أهل قبــاء، ليفرقــوا كلمــة المســلمين، ويتعــزل أتبــاعهم المنافقون عن جماعة المؤمنين، ولتحدث الفرقــة بيــنهم بعــد مــا وحــد الإســلام بيــنهم. وكان مما كاتبهم به الراهب أن يتهيأوا بالمبنى، ليكــون إمــامهم فيــه حــين يقــدم علــيهم في جيش من الروم للقضاء على الإسلام في المدينة.

ثم كان شأنهم كشأن المنافقين، في الإســراع للحلــف بالأيمــان الفــاجرة، حلفــوا لرســول الله: أنهم ما أرادوا بمسجدهم الــذي بنــوه إلا النيــة الحســنى، إذ يــتمكن الضــعيف وذو الحاجة الذي يعسر عليه الذهاب إلــى مســجد قبــاء، أن يصــلي فيــه ولا تفوتــه صــلاة الجماعة. ويعلق الله العليم بما في الصدور، أنهم كــذبوا فــي يمينــهم، فمــا كــان قصــدهم ما عرضوه ولكن ما سجلته الآية من الضرار والتفريق .

وإذ تبين القصد الخبيث، صرح القرآن بنهيه ﷺ أن يصلي فيه .

فنزلت الآية عند رجوعه ﷺ من تبــوك، ودعــوة المنــافقين لــه للصــلاة فيــه . وعنــدها أمر ﷺ بعضا من الصحابة أن يذهبوا إليه ليهدموه ويحرقــوا عمــده وأبوابــه. وتــم ذلــك وانقلب مجمعا للفضلات والزبل. ثم بين القرآن البــون الشاســع بــين مســجد الضــرار، وبين المسجد الذي أسس على التقوى، (لمسجد أسّس علــى التقــوى مــن أول يــوم) قيــل :هو مسجد المدينة. وهذا ما يؤيده الحديث الذي أخرجه مســلم وغيــره عــن أبــي ســعيد الخدري أن رجلين من الصحابة اختلفــا فــي تعيــين أول مســجد أهــو مســجد قبــاء أم مسجد الرسول ﷺ ؟ فأتيا ﷺ فسألاه فقال: (هو مسجدي هــذا، وفــي الآخــر خيــر كثيــر) وقيل هو مسجد قباء . ولولا الحديث لكان نسق الآية يرجح أنه مسجد قباء.

ثم أضافت الآية مزية أخرى لمسجد قبــاء زيــادة علــى كونــه المســجد الــذي صــحب الإخلاص بناءه، أن الــذين يقيمــون الصــلاة فيــه، وهــم الأنصــار، يجــدون لــذة فــي الطهارة جعلتهم يحبونها فأكرمهم الله بإعلانه عن محبــتهم لهــذه المزيــة التــي اختصــوا بها. فالطهارة وإن كانت فرضــا واجبــا، إلا أن الأنصــار اختصــوا بحــبهم لهــا حتــى صارت خلقا لازما لهم، فكانوا جديرين بثناء الله عليهم.

ثم أكد وفصل ما ذكرته الآية (108) إن المسجد الــذي يشــهد الله بأنــه أســس مــن يــوم تخطيطه الأول والشروع في بنائه، وقد تحققــت إرادة التقــوى مــن إقامتــه، يكــون أحــق

الأمكنة بأن تقـوم فيــه بالعبــادة. وتنطبـق هــذه الشــهادة علــى مســجد رسـول الله ﷺ بالمدينة، ومسجد قباء. فكلاهما أسس من أول يوم على التقوى والإخلاص لله.

ملحظ نفيس:

ذكر السهيلي في شـرحه لسـيرة ابـن هشـام، أن هـذه الأيــة حجــة لـرأي الصــحابة رضوان الله عليهم في اتخاذ عام الهجـرة مبـدأ للتـاريخ الإسـلامي،إذ بنـاء المسـجدين قباء ومسجد المدينة كانا إثر الهجرة، وقد عبر القرآن عـن ذلـك التـاريخ بقولـه : مـن أول يوم .

109-110، أفمن أسس بنيانه على تقوى...والله عليم حكيم .

ثم جسمت الآيــة، مــع المقارنــة بــين مسـجد الضــرار والمسـجد الأول . فـذكرت أن المسجد الأول صاحب إقامة أساسه الذي ارتفـع عليــه البنــاء قصـد رفيــع مــن التقـوى والتقرب إلى الله، فكأن القصد الصالح اخـتلط بالبنــاء فقـوّى تماسـكه، وجـرى بــه فــي المنهج الذي أريد به. وأن مسـجد الضــرار لسـوء قصـد أصـحابه، كأنــه فقـد القـوة والالتحام والثبات بما خالط بناءه من القصـد الخبيـث، فهـو كإقامـة بنـاء علـى طـرف حفرة متصدعة، فلا يتصور منه إلا أن ينهار سـريعا ليبتلعــه القــاع وقـد تلاشــى إلــى ركام .وتكون النهاية القرار في قاع نار جهنم للبناة عذابا علــى مــا حــاولوه مــن تفريـق الكلمة، وكذل للمبنى الذي أقاموه إهانة لهم . والله يحجــب هدايتــه عــن القـوم الظــالمين فلا يفتح لهم منها بوارق تضيء لهم معالم الطريق .

الآية -111- إن مسجد الضرار وإن بينا أنه قد هدم وأحرق ولـم يبـق لــه أثـر مــادي، ولكن الآية أثبتت أن أثره العقدي لم يذهب بذهابــه، فقـد قـدر الله تقـديرا لا انفكــاك لــه أن البناء الذي بنوه سيبقى مزعزعا لقلـوبهم تقـيم بــه الحيـرة والتـردد فــي عقـولهم، سيصحبهم الخوف من المصـير الـذي سيصـيرون إليــه، لا ينفـك ذلـك عـنهم إلا إذا تمزقت قلوبهم وفارقوا الحياة . والله علـيم لا تخفــى عليــه خافيــة مــن نوايــاهم، وهـو الحكيم في تناوله لأمرهم وإحلال النهاية التي أحلها بهم.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ

ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

اشترى : وعد وعدا مؤكدا .

استبشروا: أبشروا.

بيان المعنى الإجمالي :

ذكرت الآية أن الله، وهو الذي مكن كل إنسان من حياتـه ورزقـه، ميـز المـؤمنين بأنـه اشترى منهم ما مكنهم منـه، وأن الـثمن الـذي يبذلـه لهـم: الجنـة . ووضـح طريقـة بلوغهم إياها :أنهم يقاتلون في سبيل إعـلاء كلمـة عـالمين مقـدما، أنهـم إمـا أن يقتلـوا أعداءهم، أو يقتلهم أعداؤهم. تأكد هذا الوعد من الخـالق فـي الكتـب السـماوية السـابقة التوراة والإنجيل .كما يؤكده أنه لا يتصور واعد يفي بوعده كما يفي الله بوعده.

ونوه بالمؤمنين الـذين جمعـوا بـين ثمانيـة مزايـا: الإسـراع للتوبـة، الإقبـال علـى العبادة، الحامدون لله على نعمـه التـي تفـوق الحصـر، السـياحة فـي أرض الله للقيـام بدورهم في عمارتها، المقيمون للصـلاة بـأداء أركانهـا مـن ركـوع وسـجود، الـذين يعملون على صـلاح المجتمـع، ونظافتـه بـالأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر، والمنفذون لكل ما ورد عليهم من تشـريع أمـرا كـان أو نهيـا. ويحـق لهـم أن يتقبلـوا البشارة من ربهم بسبب صدقهم في الإيمان .

بيان المعنى العام :

111-112، إن الله اشترى من المؤمنين ..وبشر المؤمنين.

هذا وعد من الله موثق ومثبت ومؤكد صيغ في صيغة عقد بيع تمت جميع مقوماته واكتملت أركانه الأربعة: المشتري، والبائع، والثمن، والمثمن. ثابت في الماضي والحاضر والمستقبل، لا يأتيه ما ينقضه، ولا يلحقه ما يبطله. فلنتأمل في هذه الأركان حسب الصياغة البليغة في الآية:

المشتري : هو الله رب العالمين، وفي البداية بإسناد الشراء إلى الله ما يؤكد ثبات العقد لأنه عبر عنه بالفعل الماضي (اشترى) واستمراره لأن ما هو ملك له لا يأخذه منه أحد.

البائع :المؤمنون. يتناول المؤمنين من هذه الأمـة تنـاولا أوليـا مـن كـان فـي حاضـرا وقت نزولها ومن يأتي بعدهم إلـى يـوم القيامـة، كمـا يتنـاول المـؤمنين فـي تـاريخ البشرية الطويل الذي تحقق فيهم ما حددته الآية.

الثمن : هو الجنـــة .ولا أنفـس ولا أجـل ثمـن ولا غايـة وراء الجنـة، يقـول تعـالى : (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)[1] .

المبيع المثمن : الحياة والأموال. وهبهم الحياة، ووهبهم المـال، فكلاهمـا ملـك لـه، ومـع ذلك فإن حيازتهما من طرف المؤمنين حيازة لا ينفصل عنهـا أنهـم يبـذلون مـا وهـبهم في مرضاته . فهم يخرجون لنصر دينه ونشر الحـق فـي العـالم، وهـم يعلمـون مقـدما أنهم لا يخرجون عن احتمالين:

1) المقدم عندهم أن ينصروا الدين ويهزموا الأعداء فيقتلـونهم بسـبب مـا منعـوهم مـن حرية نشر الحق.

2) أن يثبتوا ثباتا يصحبهم إلى آخر لحظة من حيـاتهم فيموتـون فـي سـاحة الشـرف، ساحة الجهاد.

ثم يؤكد القرآن ما تضمنه المقطع الأول من الآية، بأن هـذا وعـد مـن الله حـق ثابـت، وثقه في كتبه التي أنزلها على رسله، ذكـر منهـا الكتـب التـي بقيـت البشـرية تحـتفظ بشيء منها، وهي التوراة والإنجيل، والكتاب الباقي المحفوظ أبد الدهر : القرآن.

ثم يستفهم استفهاما تقريريـا مثبتـا، أنـه لا يمكـن أن يتصـور أن يبلـغ أي عهـد مـن التحقيق ما يبلغه الوعد من الله. لأن كل واعد سوى الله، قـد يحـول بينـه وبـين تحقيـق وعده معوقات تخرج عن سـلطانه، والله مالـك الأمـور لا يخـرج عـن سـلطانه شـيء ولا ينقص من ملكه شيء.

ثم يكرم المؤمنين الذين عقدوا هذه الصفقة، فيتوجـه إلـيهم رب العـزة بالخطـاب بقولـه: أبشروا بربح الصفقة التي نفذتموها. ولا صاحب صـفقة يبلـغ مـن الفـوز والنجـاح مـا بلغتم. يروي ابن عطية عن والده أنه سمع الـواعظ أبـا الفضـل ابـن الجـوهري يقـول على المنبر بمصر : ناهيك من صفقة ، البائع فيهـا رب العـلا، والـثمن جنـة المـأوى، والواسطة محمد المصطفى . هكذا هو مثبت فـي النسـخة، ولعـل: المشـتري فيهـا رب العلا، لا البائع. والله أعلم.

ثم أخرج القرآن المؤمنين في إطار ينوه بمزايـاهم ويتابعهـا فـي تسلسـل بـديع فأثبـت لهم ما يأتي:

التائبون : التوبة تنطلق بالنسبة للمـؤمنين الأولـين ، مـن التوبـة مـن الكفـر واطـراح الشرك، ثم تسمو في يقظة رابطة بين المؤمن وربه، فكلمـا مسـه طـائف مـن الشـيطان

---

[1] سورة آل عمران 185

تذكر، فإذا بصيرته تجذبه جذبا قويا إلى طريق الهدى طريق الله .وكلما قارف ذنبا أسرع إلى التوبة .

العابدون : العبادة رشح شعور مرهف، بصلة الإنسان بربه، يجد طمأنينته ورضاه النفسي عندما يتصل به عابدا حسب ما تلقاه منه، ثم هو يرتبط بالكون كله في موكب سائر إليه فيجد في كل نشاط عبادة للخالق سبحانه .

الحامدون : هي النعم تتابع على الإنسان، وقد يكون لتتابعها ذلك ما يغفل به الإنسان عن قيمتها، فإذا توقد الإيمان في القلب استيقظ إلى تلكم النعم فانطلق لسانه وقلبه بالحمد للواهب الكريم. خذ لذلك مثلا: أنفاسك التي تجري فيك بيسر نعمة من أجل النعم، لو ضاق تنفسك قليلا لوجدت الدنيا كلها لا تعدل تلك النعمة.

السائحون: الذين يشعرون بوظيفتهم في عمارة الكون، بما يقترن بالسياحة من نشر للفضيلة، والمعرفة التي هي أول خطوة في الفعل الصالح، وتأكيد العلاقة مع البشرية. إننا إذا تذكرنا أن الصحابة رضوان الله عليهم بلغوا الحدود الغربية لإفريقيا، وأن المسلمين وصلوا إلى أراضي الشرق الأقصى فنشروا الإسلام في جزر أندونيسيا وماليزيا وتايلندا، ينكشف لك قيمة السياحة الإيجابية التي وصف الله بها المؤمنين .

الراكعون الساجدون : هو تعبير عن إقامة الصلاة عمود الدين وأعظم صلة بين المؤمنين وربهم، وبإقامتها يجتمعون ويتعارفون في الحي والمدينة . وبها يكون الإيمان حيا نابضا في أرواحهم، نافذا إلى سلوكهم قال تعالى : **(إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)**[1] .

الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر: هذا الوصف يمثل الحرص العام على أن تشيع الفضيلة في المجتمع، فالمؤمنون المنوه بهم لا يقنعون بصلاحهم، لكنهم يعملون بصفة مستمرة على نشر الخير، كما يحرصون على نظافة المجتمع من كل انحراف، واستنكار أي نابتة تظهر، والعمل على اجتثاثها.

الحافظون لحدود الله: هذا وصف جامع يمثل الالتزام بكل ما شرعه الله، فهم يحافظون على تطبيق الأوامر، وعلى اجتناب ما نهى عنه.

وتؤكد خاتمة الآية خاتمة الآية السابقة، وذلك الفوز العظيم، بأن الله يبشرهم بأنهم سيحظون بذلك الفوز العظيم .

---

[1] سورة العنكبوت آية 45

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (116)

بيان معنى الألفاظ :

الموعدة : الوعد .

تبرأ : تنزه بقطع صلته .

أواه: المكثر من قول : أوه . وله معان ترجع إلى رقة القلب والرأفة والتضرع.

ملك : التصرف والتدبير.

بيان المعنى الإجمالي :

لما كان الكفر والإيمان اتجاهين متعاكسين، فلا يتصور حسب المنطق السليم أن يتقدم النبي والذين آمنوا بطلب المغفرة للمشركين ولو كانت تربطهم بهم رابطة القرابة، إذا ما تبين لهم أنهم هالكون آئلون إلى النار . ولا تظنوا أن إبراهيم عليه السلام خرج عن هذا المنهج لما استغفر لأبيه المشرك، لأن أبا إبراهيم وعده بأنه سيتدبر أمره في الإيمان بالله، ففهم منه أنه أخذ في الطريق الصحيح، فاستغفر له طلبا من الله أن يسعده بعونه، فلما تبين له أنه مصر على الكفر قطع ما بينه وبينه. وإبراهيم عليه السلام رؤوف رقيق القلب متضرع، رزق عقلا راجحا .

واعلموا أن الله لا يعذب المؤمن بعد أن هداه، إذا ما أقدم على أمر منهي عنه قبل أن ينزل الحكم واضحا، فلا تنزعجوا من استغفاركم لبعض من تحبونهم قبل النهي. إن الله عليم بكل شيء. كيف لا وهو المدبر للسموات والأرض، المتصرف في الحياة والموت. فاعتمدوا على ربكم فليس لكم ولي ولا ناصر سواه.

بيان المعنى العام :

113-ما كان للنبي...أصحاب الجحيم.

العلاقة التي يعتبرها الإسلام ويرتب عليها حقوقها تقوم أولا على الإيمان، فإذا لم يجمع الإيمان لم تبق إلا علاقة إنسانية يتبعها عدم الظلم، أو التعاون فيما يتصل

بالحياة الدنيا. ذلك أن التصور الإيماني والتصور الكافر يذهب كل واحد منهما في اتجاه معاكس للآخر. يقوم الإيمان على ربط الإنسان عقله وروحه ومشاعره وانتظامه في الكون، على أن الكل موكب واحد صدر عن الله وهو سائر إليه حسبما قدره. ويقوم الكفر على قطع العلاقة بين الخالق والمخلوق، بين الإنسان وربه، وبين الكون والله. ويتبع ذلك أن النهاية متعاكسة طبعا. فالمؤمنون يعتقدون ويسعون إلى الفوز بالجنة، والكافرون لا ينظرون إلى اليوم الآخر، فهم إلى النار. وهذا أمر مقطوع به ثبت بالنصوص القرآنية العديدة وبالسنة حتى أصبح ضروريا من ضروريات الدين.

إن ضعف الإنسان قد يحجب على بريق إيمانه حجاب، فيذهل في لحظة من لحظات حياته ويقع في الخطيئة، ومن رحمة الله أن فتح لعباده المؤمنين باب التوبة والالتجاء إلى الله بطلب المغفرة ليمحو الذنب ويعفو قال تعالى : (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما)[1] وأذن لنبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات فقال تعالى : واستغفر لهم [2]– واستغفر لهم الله [3]. فبايعهن واستغفر لهن الله [4]. وأخبرنا القرآن أن حملة عرشه يستغفرون للذين آمنوا[5]. فاستغفار المؤمنين واستغفار الرسول لهم واستغفار حملة العرش ؛ كل ذلك محقق لما خص به رب العزة المؤمنين من جزاء الجنة. وأما طلب المغفرة لمن كفر فإنه يسير في اتجاه معاكس لما كتبه الله لهم من دخول النار. فحري بالرسول وبالمؤمنين أن لا يقدموا على طلب المغفرة للمشركين، وقد تبين لهم أن مآلهم الجحيم . وحذرهم أن يضعفوا لعوامل الرحمة أو القرابة .

114- وما كان استغفار...لأواه حليم.

ولما ورد في القرآن أن إبراهيم استغفر لأبيه وكان كافرا، قال تعالى: (قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا)[6] . وما شرحنا به الآية لا يعطي لإبراهيم العذر في الاستغفار؛ فأزال القرآن موجب هذا التوقف، بأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه مع كفره لأنه فهم من كلامه، وعدا منه بالإيمان، فكان دعاؤه طلبا من الله أن

1 سورة النساء، آية110
2 آل عمران159
3 سورة النور آية62
4 سورة الممتحنةآية12
5 سورة غافر آية7
6 سورة مريم آية 47

يسعده بتأييده ليتم ما وعد به. ولذا فإنه بمجرد ما تحقق أنــه مصــر علــى الكفــر قطــع صلته به وانقطع عن الاســتغفار. ثــم أثنــى علــى إبــراهيم عليــه الســلام بأنــه رؤوف رقيق القلب متضرع إلى الله، ذكي الفؤاد راجح العقل .

115- وما كان الله ليضل ...بكل شيء عليم.

ثم طمأن القرآن المؤمنين الذين حملــتهم رقــة عــاطفتهم، ونبــل مشــاعرهم، فاســتغفروا للمشركين قبل نزول الآية القاطعة في هذا بتسجيل قاعدة هــي مــن الثوابــت فــي معاملــة الله للناس: أنه لا يكتب الضلال (المعصــية) علــى أحــد بعــد أن اهتــدى إلــى الإيمــان والعمل به، حتى يبين ما ينهى عنــه ويحرمــه ويلــزم بالابتعــاد عنــه فيؤاخــذهم بعــد ذلك. إن الله عليم بكل شيء ومنه ما يصلح البشر وحقيقة ما يصدر عنهم.

116- إن الله له ملك...ولا نصير.

ثم أكد مفصلا ما يــدل عليــه قولــه : إن الله بكــل شــيء علــيم، بلفــت الأنظــار إلــى التصرف في السماوات والأرض وتســييرها بدقــة ونظــام لا اخــتلال فيــه ممــا يقــوم شاهدا على علمــه الكامــل، وبتصــرفه فــي الحيــاة والمــوت، وكلاهمــا أقــرب شــيء للإنسان ؛ومع ذلك لا يعلم أحد متى تبعث فيه الروح ولا متى تنزع منه.

توكلوا على ربكم وثقوا أنكم لا تجدون مــن يرعــاكم ويتــولى أمــوركم وينصــركم علــى أعدائكم غيره.

لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ

نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

بيان معنى الألفاظ :

التوبة : رجوع الله بعبده من حالة إلى حالة أرفع منها.

اتبعوه : أطاعوه.

العسرة : الشدة وضيق الحال.

الزيغ : الميل عن الطريق المقصود .

خلفوا: تأخر قبول عذرهم.

ضاقت عليهم الأرض : أحسوا كأن الأرض ضاقت عليهم.

بما رحبت : على سعتها.

ضاقت عليهم أنفسهم : ثقل عليهم الغم والحزن.

يقطعون واديا : يجتازون واديا.

بيان المعنى الإجمالي :

نوه القرآن بالمهاجرين والأنصار الذين أسرعوا بتلبية الدعوة إلى الخروج للجهاد في غزوة تبوك. وأعلمهم أنه قد تاب عليهم توبة تتمثل في رفع درجاتهم عنده. نوه بهم لأنهم اتبعوه في وقت فيه ضيق وعسر. وألحق بهم الذين رجحوا الخروج بعد تردد قليل وتاب عليهم، إن الله رؤوف بعباده يرعى ضعفهم، رحيم بهم .

وتاب الله على الثلاثة المعلومين عند الصحابة وقت نزول الآية وهم : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، الذي تخلفوا عن المشاركة في الغزو، ولما سألهم الرسول عند عودته من تبوك، صدقوا رسول الله أنه لا عذر لهم، وعرضوا توبتهم. فلم يكلمهم النبي ﷺ ونهى الصحابة عن الاختلاط بهم، ونهاهم عن قربان زوجاتهم، فكان حصار اجتماعيا خانقا، حتى أصبحت الأرض الواسعة في نظرهم تضيق بهم، وغمهم الكمد والحزن فضاقت عليهم أنفسهم، لم يبق لهم أي رجاء إلا أن يشملهم الله بعفوه فهو الملجأ الوحيد . وبعد خمسين يوما تاب الله عليهم لأنه التواب الرحيم .

وبعد تبين مآل الصدق في غزوة تبوك، حرض القرآن المؤمنين أن يلتزموا تقوى الله وأن يكون مجتمعهم مجتمع الصدق .

إن الذين تلقوا أنوار النبوة مباشرة من سكان المدينة لا يتصور منهم أن يتخلفوا عن رسول الله إذا دعاهم للجهاد، ولا يتصور منهم أن يحموا أنفسهم مقدمين لها على

نفس رسول الله. ووعدهم الله مقابل هذا السبق لنصرة رسوله أنــه يوثــق لهــم جميــع مــا يقومون به في الجهاد ما قصدوه ومــا لــم يقصــدوه. قلــيلا كــان أو عظيمــا، فعطشــهم، وتعبهم، وجوعهم، ودخولهم في أرض الأعــداء بخيــولهم أو رواحلهــم أو أقــدامهم ممــا يذل الكفر ويغيظه، ولا يستحوذون على شيء من الكفــار ولــو قــل؛ الكــل موثــق لهــم عند الله على أنه عمل صــالح. وهــم محســنون فــي ميــزان الله . والله لا يهمــل أجــر المحسنين. وكذلك جميع نفقاتهم ما قل منهــا ومــا كثــر، ومــا يقطعونــه مــن المســافات يُوثّق في ميزان حسناتهم، ويجزيهم الله عن كــل تلــك باعتبــار أن كــل مــا قــاموا فــي الجهاد هو من أحسن أعمالهم، فيجزون عنه بناء على ذلكم الاعتبار.

بيان المعنى العام :

117-لقد تاب الله ...رؤوف رحيم.

تهيئ هذه الآية لما سيأتي بعدها. ومضمونها أن مــا كــان مــن المــؤمنين بعــد دعــوتهم إلى التهيؤ لغزو الروم قد اختلف اختلافا غير جذري .

نجد في قمة المواقف الشريفة النبيلة موقف النبي ﷺ وموقف المهاجرين والأنصار، الذين أطاعوه بمجرد ما دعاهم، فتهيأوا للقتال وسمحوا بالعون السخي من أموالهم في وقت ما كان فيه أهل المدينة في سعة من الرزق بل كانوا في ضيق وعسر. يروى أن سيدنا عثمان ﷺ أعطى ألف جمل وألف دينار وتسابق كثير منهم للبذل. هؤلاء تاب الله عليهم توبة رفعتهم من الوضع الذي كانوا فيه قبل الغزو إلى مرتبة أعلى وأسمى. كما أن فريقا آخر تجاذبه عاملان: عامل مثبط من شدة الحر وطيب الثمار وبعد الشقة للبلاد المقصودة، وعامل الاستجابة لدعاء الرسول ﷺ، وأخيرا تغلب نداء الطاعة وخرجوا مع الجيش، وأخبر الله أنه تاب عليهم من النقص الذي علق بهم وعفا عنهم .هذه الآية بما أكدته من التوبة المبنية على ما اتصف به الله من الرأفة والرحمة، كانت فاتحة لتسجيل ما تم في قضية ثلاثة من الأنصار كانوا معروفين بصدق إيمانهم، وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. تخلف هؤلاء الثلاثة عن الانضمام إلى الجيش القاصد تبوك. توجه إليهم الطلب مع بقية سكان المدينة، وما اعتذروا لرسول الله بأي عذر، ولم يأذن لهم النبي ﷺ في البقاء بها.

ولما رجع رسول الله إلى المدينة منتصرا من تبــوك، ســألهم فمــا اعتــذروا عــن كــذب، لكنهم اعترفوا بذنبهم وبدا عليهم الحزن لتثاقلهم عن الخروج .

أعرض عنهم رسول الله، وأمرهم أن يعتزلــوا نســاءهم، ونهــى الصــحابة عــن التعامــل معهم، فضرب عليهم حصارا اجتماعيا ذاقوا منه الأمــرين مــدة خمســين يومــا، وصــفته الآية أنه خيل إليهم أنهم يعيشون فــي ســجن مضــيق، فــالأرض التــي لا يجــدون فيهــا

تجاوبا لا من زوجاتهم ولا من أصـــدقائهم وإخـــوانهم، بـــدت لهـــم علـــى ســـعتها ضـــيقة كأشد ما يكون الضيق .بل إن أنفسهم ضغط عليها الكمـــد والحـــزن حتـــى كـــادت تنفجـــر من ثقل ما تحس به من الذنب ومن الوحدة .وبقي مع ذلك لهـــم خـــيط مـــن الرجـــاء هـــو الوحيد الذي أبقى عليهم، هو اعتقادهم أنـــه لا ملجـــأ يحمـــيهم مـــن غضـــب الله ومقتـــه إلا العفو الذي لا يملكه أحد غيره.

ثم بعد الخمسين يوما نـــزل علـــى رســـول الله ﷺ مـــا يقـــرر أن الله قبـــل تـــوبتهم وعفـــا عنهم، ليكون هذا الفضل الإلهي دافعا لهـــم للثبـــات علـــى العمـــل الصـــالح فيمـــا يســـتقبل ويحصنوا أنفسهم من المعاصـــي. وهـــو معنـــى: تـــاب علـــيهم ليتوبـــوا، ليـــدوموا علـــى وضعهم الذي من الله به عليهم بعد توبتهم فـــلا يدنســـوا أنفســـهم بالآثـــام بعـــد أن طهرهـــا فضل الله عليهم.

ملحظ جيد :

يقول ابن عطية في هذا ما يقتضـــي أن الرجـــل العـــالم والمقتـــدى بـــه أقـــل عـــذرا فـــي السقوط من سواه. وكتب الأوزاعـــي إلـــى المنصـــور أبـــي جعفـــر فـــي آخـــر رســـالة: (واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لـــن تزيـــد عليـــك حـــق الله إلا عظمـــا، ولا طاعتـــه إلا وجوبا، ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلا إنكارا)[1] .

120- ما كان لأهل...لا يضيع أجر المحسنين.

هذه الآية تمثل ما ينبغي أن يستقر في عقول المؤمنين، بعـــد مـــا قررتـــه الآيـــات الســـابقة من أن الله رضي على المؤمنين الصادقين، ورضـــي عـــن الـــذين تـــرددوا ثـــم صـــدقوا، ورضي عن الذين تخلفوا وصـــدقوا معتـــرفين بالـــذنب. فتنويهـــا بالصـــدق وحثـــا عليـــه، أمر الله المؤمنين أن يثبتوا على التقـــوى، وأن يمثلـــوا فـــي المجتمـــع الإنســـاني المجتمـــع الذي يشيع الصدق فيه في كل مظاهر الحياة الروحية والاجتماعية.

تلقينا أنوار الهداية الإسلامية مـــن القـــرآن ومـــن الســـنة المطهـــرة، ووصـــلتنا بواســـطة النقل الصحيح، وما يتلو المؤمن القرآن بفكـــر وتأمـــل إلا ويجـــد نفســـه تســـمو وتشـــف، وتحل في روحه الطمأنينة الراضـــية . وإذا قارنـــا هـــذا بالإشـــعاع الربـــاني الـــذي كـــان ينفذ إلـــى أرواح الصـــحابة رضـــوان الله علـــيهم مباشـــرة، وهـــم يرقبـــون ويســـتمعون ويجلسون إلى رسول الله ﷺ .نجد منـــازل مـــن الفيـــوض التـــي تعجـــز عـــن تصـــويرها الكلمات، تجعلهم فوق بقيـــة المـــؤمنين الـــذي لـــم يحضـــروا مجـــالس الـــوحي والتـــذكير

---

[1] المحرر الوجيز ج7 ص73/74

النبوي . فوجب أن يكون حبهم للرسول أعظم من حبهم لأنفسهم وذرياتهم والدنيا وما فيها .

لذا كان من غير المتصور من سكان المدينة، ومن الأعراب الذين ضربوا خيامهم حولها، أن يدعوهم الرسول للخروج معه للجهاد، ولا يخرجون معه ويرضون بالبقاء بعده في المدينة. كما لا يتصور منهم أن يقدموا سلامة أنفسهم على سلامة الرسول، فيتركوه معرضا وحده للأعداء. إذ أنه بمقدار ما يقل عدد الجيش يكون تعرضه للأذى أقرب وقوعا.

إن انتفاء ذلك التصور مبناه يقينهم أن الأجر الذي يكتب لهم بالوقوف معه في الجهاد أجر عظيم. ثم فصل هذا الأجر: هو يتمثل في كل ما يلحقهم من أذى ولو كان ضئيلا، حتى العطش، والتعب والإرهاق، و الجوع، مما يلقونه في سبيل إعلاء كلمة الله بالجهاد، وكذلك وطأهم أرض العدو بسنابك خيولهم أو بأخفاف رواحلهم أو بأقدامهم، بما يذل الكفار ويوقد في نفوسهم الغيظ، وكذلك ما يرزؤون به الأعداء في أنفسهم أو في أموالهم بالسبي والقتل والغنيمة، كل ذلك يحصيه الله ويكتب لهم أجر العمل الصالح. إنه إحصاء من لا يغيب عن علمه شيء وإن غفل عنه صاحبه، أو ذهل عما فيه من نكاية بالأعداء. وختمت الآية بما يشير إلى أنهم من المحسنين في سلوكهم، والله لا يهمل أي شيء من أجر المحسنين .

121-ولا ينفقون ...ما كانوا يعملون.

تواصل هذه الآية تفصيل الأجر العظيم المكتوب للمجاهدين مع رسول الله ﷺ. فكل ما ينفقونه عظمت قيمته أو قلت حتى خطام الناقة وشراك النعل، وسيرهم وهم يجتازون الأودية، كل ذلك موثق لهم عند الله، وذلك ليجزيهم عن تلك الأعمال التي هي أحسن الأعمال قيمة عند الله .

۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟
فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ

يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

بيان معنى الألفاظ :

الفرقة : الجماعة من الناس الذين تربطهم رابطة توحد بينهم .

الطائفة : جماعة غير محصورة بعدد.

التفقه : بذل الجهد لتحصيل الفقه الذي هو فهم دقائق العلم.

الإنذار : الإخبار بما يتوقع شرمنه.

الغلظة: الشدة . بالجمع بين الجرأة والصبر على القتال،والعنف في القتل والأسر.

الاستبشار :أثر البشرى في النفس .

بيان المعنى الاجمالي :

كما حرض القرآن المؤمنين على الجهاد، حرضـــهم علـــى التعمـــق فـــي الـــدين بـــإدراك أسراره ومعرفة أحكامه من الحلال والحرام، تتخصـــص فـــي كـــل فرقـــة طائفـــة ممـــن لهم استعداد لذلك، يتلون إنذار قومهم ليحذروا الخروج عـــن حـــدود الـــدين مـــن الأوامـــر والنواهي .

وكما ينتشر الإسلام بالعلم فكذلك ينتشـــر بالجهـــاد، فـــالمؤمنون مـــأمورون بـــأن يوســـعوا في أرض الإسلام في الأراضي المجاورة لهم، وليتـــدربوا علـــى القتـــال مـــا يُفْـــرِغُ فـــي قلوبهم الشجاعة والثبـــات، ومواجهـــة الكفـــار بحـــزم وثبـــات يرهـــب العـــدو .وليتقـــوا بتقوى الله فالله يساعد المتقين وينصرهم.

ومما فضحته هذه السورة من أمـــر المنـــافقين، أنـــه إذا أنزلـــت ســـورة، التفـــت بعضـــهم إلى بعض متوجها في ســـخرية : هـــل زادت هـــذه الســـورة فـــي إيمـــانكم كمـــا يتحـــدث القرآن عن ازدياد الإيمان بما ينزل من سوره ؟

رد القرآن عليهم بأن كل سورة من ســـور القـــرآن تنـــزل تتبعهـــا زيـــادة، لكـــن الزيـــادة بالنسبة للمؤمنين تعميق لإيمانهم وزيادة في الوحي الذي آمنـــوا بـــه، وتنتشـــر فـــي قلـــوبهم البشر، والزيادة بالنسبة للـــذين فســـد ت عقيـــدتهم ومرضـــت قلـــوبهم بالنفـــاق تضـــاعف كفرهم وانحرافهم وتضم إلى ما امتلأت به نفوسهم من خبث خبثا جديدا.

ما لهم لا يتعظون بما يلحقهم كل عام من نكـــال؟ ومـــن عنـــادهم أنهـــم لا يتـــدبرون بمـــا يسلط عليهم.

وإذا أنزلت سورة تفضح ما تحدثوا به فــي ســر، رأيــت بعضـــهم ينظـــر إلـــى الـــبعض الآخر، مستفسرا هل رآكم أحد لـــيس مـــنكم فنقـــل أخبـــاركم ؟ ثـــم انصـــرفوا حـــائرين. صرف الله قلوبهم عن الحق ولـــم يســـعفهم بـــالعون للاهتـــداء إليـــه، وذلـــك لأن عقـــولهم واقفة عند الظواهر القريبة لا تتأمل في بواطن الأمور .

بيان المعنى العام :

122- وما كان المؤمنون...لعلهم يحذرون.

حرض القـــرآن فيمـــا ســـبق مـــن الآيـــات المـــؤمنين علـــى القتـــال، وكشـــف المنـــافقين وأوعدهم، ونعى على المتخلفـــين تخلفهـــم وإن كـــانوا مـــؤمنين . وكانـــت تلكـــم الآيـــات تتوجه إلى الذين دعوا للخروج للغزو مـــع رســـول الله ﷺ. والحكمـــة فـــي تربيـــة الأمـــة أن تكون الطاعة أساسا فـــي تنظيمهـــا وفـــي علاقـــة الأفـــراد بالدولـــة. كمـــا أن الحكمـــة تقتضي أن تتحصن الأمة بالعلم كما تتحصن بالقوة العسكرية.

وإذا كان دور الجند في الدولة الإسلامية الدفاع عن الأمة وعن الدين، وتمكين دعاته من نشره في العالمين، فإن التعمق في معرفة الدين وإدراك أسراره وفهمه الفهم الصحيح، هو الذي يوحد الأمة ويفتح بصيرتها على الحق، ويعطي للجيش التصور الصحيح للمفاهيم التي يجاهد في سبيلها، مما يجعل ثباته وشجاعته أتم وأكمل . فهما أساسان لبقاء الدولة: الجهاد، والعلم .و كلما انخرم أحدهما ضعفت الدولة وأسرع إليها الزوال.

وجمعا بين هذين الركنين بينـــت الآيـــة : أنـــه لا يعقـــل أن يـــتمحض المؤمنـــون للجهـــاد جميعا . فتحرض الآية كل فريق مـــن المـــؤمنين أن تنصـــرف جماعـــة مـــنهم ليدرســـوا الدين دراسة تمكـــنهم مـــن الاطـــلاع علـــى مراميـــه البعيـــدة وعلـــى مقاصـــده، وعلـــى تنظيماته وأحكامه. ليتولوا نشر المعرفة الإسلامية فـــي أقـــوامهم عنـــدما يعـــودون إليهـــا، ويتولون القيام على تعليمهم وتثقيفهم. ويكشفوا لهـــم عـــن الحـــرام والحـــلال، وينـــذرونهم عاقبة إثم ارتكاب المحرمات. رجـــاء أن يحـــذروا ملابســـة مـــا حرمـــه الله، وأن يهتمـــوا بالقيام بما أوجبه عليهم.

إن تخصص طائفة في العلوم الإســـلامية، ثـــم قيـــامهم بتبصـــير إخـــوانهم بعـــد بلـــوغهم مستوى القدرة على الإفادة والتعليم، كلاهما فـــرض كفـــائي تـــأثم الأمـــة إذا فرطـــت فـــي ذلك. لقد زرت ولاية سيان في الصين وحضرت صـــلاة الجمعـــة فـــي مســـجدها الجـــامع، وهو مسجد كبير يبلغ مع ساحاته أكثـــر مـــن عشـــرة آلاف متـــر مربـــع، وتقـــدم الإمـــام ليصلي بالناس فكان ما قام به تمثيلية ليس فيهـــا شـــيء مـــن صـــلاة الجمعـــة ولا حتـــى من الصلاة . نتيجة للجهل، لما حالت الأنظمـــة بـــين الشـــعب وبـــين تخصـــص جماعـــة

منه للتفقه في الدين، فنسوا كل شيء، ولم يبق في قلوبهم وفي معارفهم إلا انتساب يحرصون عليه.

123- يا أيها الذين آمنوا...مع المتقين.

لما كان الإسلام في جوهره دينا عالميا، ولما كانت الحكمة في انتشاره تقتضي أن يتوسع شيئا فشيئا، إذ تتمكن قوته ويتسع سلطانه كلما اقتربت أقطاره. ولذلك اهتم النبي ﷺ أولا بتخليص الجزيرة العربية من الشرك. ثم كانت غزوة تبوك امتدادا للإسلام إلى أطراف الجزيرة من ناحية الشام. وصرحت الآية بهذه السياسة التي توخاها النبي ﷺ، وحمّل المؤمنين أن يقاتلوا الأطراف القريبة منهم، وهكذا كلما نشروا الدين في طرف، توجه الأمر لنشر الإسلام فيما يتلوه من الأرض. وبجانب هذه السياسة في أولوية الانتشار، دعاهم إلى التدرب على القتال تدربا يبلغوا به درجة القوة على الأعداء، ينفي عنهم الخوف والضعف ويمكن فيهم الجرأة والصبر والشدة في حملاتهم، شدة ترهب أعداءهم .ثم هزهم ليتلقوا الوصية التالية بعقول متفتحة، بقوله: واعلموا: أن الله يساعد المتقين، ويفتح لهم أبواب النصر، ويزيدهم في جهادهم، ولا يتركهم لقدراتهم فقط . فليحرصوا على التمسك بالتقوى.

124-125، وإذا ما أنزلت سورة...وهم كافرون.

تتابع هذه السورة كشف أحوال المنافقين، وفساد دخيلتهم، ذلك أنهم إذا أنزلت على رسول الله ﷺ سورة من القرآن، رأيت أعين المنافقين ينظر بعضها إلى بعض ؛ وبعضهم يهمس إلى من كان في جواره قائلا: أيكم زادته هذه السورة إيمانا ؟ استهزاء منهم بما أثبته القرآن أن المؤمنين يزداد إيمانهم وضوحا، كما يزداد بالوحدات التي يؤمنون بها، كما يزداد تيقظهم بآيات الله المتلوة عليهم، قال تعالى: (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا)[1] .

ثم تولى القرآن الرد عليهم مبرزا جهلهم .نعم، إن السور تزيد في قلوب البشر ما يتناسب مع ما استعدوا إليه زيادة متعاكسة. أما الذين تفتحت أرواحهم بالإيمان فتزيدهم إيمانا على حسب ما أوضحناه، ويصحب هذه الزيادة أن يعم البشر كيانهم.

وأما الذين انحرفت عقولهم وساءت دخيلتهم وفقدوا الصحة العقلية وتمكن منهم المرض الروحي، فزادتهم كفرا إلى كفرهم وتراكمت القذارة في كيانهم، وصحبهم ذلك الفساد والكفر إلى آخر لحظة من حياتهم .

---

[1] سورة الأنفال آية 2

126- أولا يرون ...يذكرون.

ما لهم عموا ولم يتعظوا، فقد توالت النذر عليهم، فالله يسلط علـيهم كـل عـام الفـتن فـي الأنفس والأموال. مصائب من الأمراض والجـوائح ونقـص الذريـة، وانكشـاف أمـرهم بما يظهره القرآن مما يبالغون في كتمه والظهـور بخلاقـه، وكـل ذلـك يوجـب اليقظـة ثم التوبة، لو كانوا يذكرون وتفيدهم المواعظ.

127- وإذا ما أنزلت سورة...لا يفقهون.

هذه آخر آية في سورة التوبة تفضح المنـافقين وتهتـك مـا سـتروه، وتقمعهـم بـأن الله مطلع عليهم. فإذا أنزل الله سورة تكشفهم وتعلـن شـيئا ممـا تحـدثوا بـه فـي خلـواتهم ودبروه فيما بينهم، وأطلع القرآن عليـه الرسـول والمـؤمنين . تحيـروا وأخـذ بعضـهم ينظر إلى بعض مما تنبئ عنه خائنة الأعين مـن العجـب، كيـف انكشـف سـرهم، مـن الذي كشفه، وأخذ كل فرد يسأل المنافق الآخر هل يـراكم أي شـخص لـيس مـنكم فبلـغ عنكم ؟ ثم انصرفوا عن المجلس وحيرتهم مصاحبة لهـم .لقـد صـرف الله قلـوبهم فلـم يعنها بالتوفيق ولا بمنع ما يحول بينها وبين الاهتـداء، وذلـك لكـون عقـولهم محـدودة النظر، قصيرة التأمل، لا تنفذ إلى ما وراء الظواهر، فاقدة للفقه.

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

بيان معنى الألفاظ :

جاءكم :توجهت إليكم الدعوة.

من أنفسكم : تعرفون نسبه فيكم، ليس غريبا عنكم ولا لصيقا.

عزيز عليه: يجد شدة على نفسه وثقلا.

ما عنتم :وقوعكم في الشدة والتعب.

حريص : شديد الرغبة في إيمانكم.

رؤوف : رقة في القلب

رحيم : يحسن للمرحوم.

التولي : الإعراض.

حسبي الله : الله يكفيني شركم .

بيان المعنى الاجمالي :

ثناء من الله على نبيه وتنويه به، وإيقاظ للبشرية للمنــة ببعثتــه، فهــو رسـوله معــروف نسبه، جربتموه فما رأيتم إلا كمــالا. قلبــه الكبيــر يسـعكم جميعــا، ويأسـف لكـل مــا يلحقكم من تعب وأذى .لا يألو جهدا لهدايتكم، يــرأف بكــم ويشــاركم أســاكم، ويحمــل قلبه الرحيم حب الخير لكم .

فإن أعرضوا عنك وثبتوا علــى مــا كــانوا عليــه مــن الشــرك، وأخــذوا يــديرون لــك المكائد، فقل لهم : الله يكفينـــي أمــري ويكفينـــي مكائــدكم، فأنــا متوكـل عليــه، ومــن يتوكل عليه لا يضره مكركم، فهــو رب العــرش العظــيم، ولا يوجــد فــي الكــون ممــا حوته السماوات والأرض ما يقارن بالعرش العظيم .

بيان المعنى العام :

128-129 : لقد جاءكم رسول...وهو رب العرش العظيم .

ختمت سورة براءة بهاتين الآيتين. وتضمنتا :

أولا: شهادة من الله بما جمعه رسـوله ﷺ مــن صــفات الكمــال الإنســاني، يحــق علــى تاليها أن يقف متأملا في كل صــفة مــن صــفاته، ليــرى مثــالا مــن الســمو الإنســاني اجتمع فيه ما تفرق في غيره ولم يبلغ أي بشر مبلغه .

1) منة الله على العرب، ثم على البشــرية جميعهــا، أنــه بلغــتهم دعوتــه التــي بينــت الحق وهدت الناس، ورفعــت الحيــرة، وأخرجــت النــاس مــن الظلمــات إلــى النــور. وصلتهم فضلا من الله دون أن يبذلوا فيها جهدا .

2) من أنفسكم : ليس غريبا عنكم تتوقفــون فــي مقامــه وفــي أخلاقــه وفــي ســلوكه، عرفتموه فانكشف لكم عن صدق وعن فضل وعن أمانــة، وعــن اســتقامة، وعــن ترفــع عن السفاسف. فهو من خياركم نسبا. ويساير هذا المعنى قراءة (أَنْفَسِكُمْ)

3) عزيز عليه ما عنتم : يؤلمه ويثقل عليــه، أن تحــل بكــم مشــقة أو يلحقكــم تعــب، فهو لا يدعوكم إلى ما فيه مشقة وعسر، بل كــل مــا جــاءكم بــه ودعــاكم إليــه ميســر تحقيقه يزيد حياتكم رخاء وفضلا .

4) حريص عليكم: هو لا يكتفي بأن يبلغكم ما أوحــي إليــه ثــم يتــرككم، ولكنــه يتــابع بالتوضيح والبيان، وتكــرار الــدعوة ليــوقظكم إلــى ملازمــة الهــدى، ويتــابع أحــوالكم المعيشية وينال من كرمه وسخائه المحاويج، ويرعى ضعفاءكم .

5) رؤوف : يرق قلبه لأي ألم يحل بكم، فيجد كل من يتصــل بــه مــن معــالي أخلاقــه ورقة قلبه تلطيفا لما حل به. وفي الرأفة شعور الطرف الآخر بمشاركة وجدانية.

6) رحيم :وصف أعم مـن الرأفـة، فالرحمـة تشـمل القريـب والبعيـد، وتـدل علـى اشمئزاز من العنف ورفض له.

ثانيا : إعلان التأييد الكامل لرسوله : إنه بعـد هـذا الثنـاء مـن الله العلـيم، وتبعـا لمـا يستقر في النفس وهو يتابع الأوصاف النبيلة تترى، فإنـه يحـق ويجـب علـى كـل مـن شاهد هذا المثل الأعلى مجسما في محمـد، أن يـؤمن بـه وأن يـدخل فـي الـدين الـذي يدعو له وأن ينصره.

وتوجه القرآن إلى النبي ﷺ : لا يضرك أمرهم إن تولـوا وتمـادوا علـى الكفـر، وكـن واثقا من رفيع مقامك وصدق ما جئت به، وقـل لهـم كلمـة فاصـلة: حسـبي الله . هـو ربي يكفيني كيدكم وما يدفعكم إليـه الحسـد، لا أتوكـل إلا عليـه فهـو الـذي يسـعدني بالتوفيق لنشر الدعوة، ودحر الشرك والنجاح في مهمتي، ممـا يعبـر عـن سـعة أملـك، وذلك يزيد فـي كمـدهم ويشـد أزرك، فإنـك تسـتند إلـى الله المتفـرد بالألوهيـة، رب العرش العظيم، وفي التـذكير بكونـه رب العـرش العظـيم مـا يفيـد الاسـتهانة بمـا يدبرون، فما هم إلا شيء تافه أمام العرش العظيم الذي هو أعظم مخلوق.

22جمادى 1432-2011/4/26

سـورة يــونس

اتفقت المصاحف وكتب السنة على تسمية هذه السورة بسورة (يونس) الرسول ا لذي كذبه قومه ثم آمنوا قبل أن يعاجلهم الله بالعقوبة فعفا عنهم كما سنتبينه عند قوله تعالى:(إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي) آية98

وهي سورة مكية في مجموعها واختلف في بعض الآي فروي ما يفيد أنها نزلت بالمدينة وعـدد آياتها : 109 آية. رتبتها في النزول الحادية والخمسون. نزلت بعد سورة بني إسـرائيل وقبـل سورة هود. وهي العاشرة حسب ترتيب المصحف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

بيان معنى الألفاظ :

الكتاب : القرآن.

عجبا : خارجا عن المألوف يثير الذهن بحثا عن حقيقته.

صدق : أصل الصدق موافقة الشيء للواقع، ويراد منه مصادفته المأمول منه المرضي.

السحر : تخيل ما هو غير واقع واقعا.

يدبر : التدبير هو النظر في عواقب الأمور وما يحف بها من مؤيدات أو معوقات.

التذكر : التأمل في الحاصل الذهني سابقا ليرتقي به إلى ما يلزم عنه.

القسط : العدل.

حميم : شديد الحرارة.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت بثلاثة أحرف – ألف – لام – ر : تنبهوا إلى آيــات الكتــاب الــذي يغــرس فــي قلوبكم الحكمة. لقد عجب المشركون أن يتخير الله من بــين البشــر رســولا أوحــى إليــه لينبه الضالين من سوء العاقبــة، وليبشــر المــؤمنين الصــالحين أن الله كتــب لهــم فــي اللوح المحفوظ مكانة رفيعة ثابتة عند ربهم الذي اعتنــى بهــم فــوفقهم. تحيــر الكــافرون من اختصاص الرسول، البشر بتبليغ وحي الله، فرموه بالسحر .

ا علموا أن الله ربكم لا إله غيره، هو الذي خلق الســماوات والأرض فــي ســتة أيــام ثــم استوى على العرش متصــرفا فــي خلقــه، يــدبر شــؤون العــالم كبيــره وصــغيره. لا يستطيع أن يتقدم أحد بين يديــه بالشــفاعة فــي مقصّــر إلا بعــد أن يصــدر لــه الإذن بالشفاعة. المتعالي العظيم هو ربكم لا إله غيره خصوه بالعبــادة التــي هــو حقيــق بهــا. ما لكم لا تتعمقون فيما تناديكم به فطرتكم من حقائق كامنة في بنائكم العقلي.

إنكم ستعودون إليه جميعا لا يفلت أحد مــن هــذا المصــير. هــو وعــده الحــق الــذي لا يتخلف. من حكمته أنه بدأ الخلق وأظهره للوجود، ثــم يعيــده إليــه كمــا خلقــه. إن ذلــك هو مقتضى الحكمة حتى لا يكون الخلق عبثــا لا يســير إلــى غايــة. بــل هــو يجــزي الذين تطهرت بواطنهم بالإيمان وعملوا بمــا يقتضــيه إيمــانهم مــن تطبيــق لأحكــام الله، سيوفيهم أجورهم بالعدل. وأما الذين كفروا فقد أعد لهــم شــرابا يغلــي كأشــد مــا تكــون الحرارة، ويصحبه عذاب نفسي وجسمي يبلغ غاية حدود الألم.

بيان المعنى العام :

-1-الر تلك آيات الكتاب الحكيم.

افتتحت السورة بالحروف المقطعة كما افتتحت سورة البقــرة. ومــا ذكــر هنــاك ينطبــق هنا. وتُنطَقُ هكذا: ألفْ – لامْ– رَ– مفتوحة بدون مد.

تتابع هذه الحروف فيه إشارة دالــة علــى كــون القــرآن المركــب مــن هــذه الحــروف معجز. هي الحروف التي تتصــرفون فيهــا، وأنــتم الأمــة التــي مــن أعظــم مزاياهــا قدرتها على البيان، ونسج الكلام الفصيح الممتــع. إنــه إذا رفعــتم عــنكم العنــاد تــذعنون ولا شك بأن هذا الكتاب من عند الله، وقد تحداكم، ولــم تســتطيعوا أن تــأتوا بســورة مــن الطراز الرفيع الذي جاء عليه.كمــا يــدل قولــه: تلــك آيــات الكتــاب الحكــيم -مــع أن القرآن تضمن من المعاني والحكم والتشريع ومن الحقائق مــا يــدل علــى أنــه مــن عنــد الله، إذ لا يتأتى لرجل أمي أن يأتي بذلك من عنده. وهو كتــاب حكــيم بــالنظر إلــى أنــه حاكم على ما سبقه من الكتب يقر مــا أراد الله إقــراره بواســطته، ويصــحح مــا دخــل

فيها من تحريف، وينسخ ما أراد الله توقيف العمـل بـه. كمـا أنـه يُكسـب مـن تـدبره وتأمل في مضامينه، حكمة وسدادا في النظر.

2-أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم ...إن هذا لسحر مبين.

لماذا تمكن العجب من المشركين؟ ألأنهـم وجـدوا أن الله القـادر علـى كـل شـيء، قـد أوحى إلى رجل غير غريب عـنهم يعرفونـه معرفـة تامـة، خبـروه فرضـوا أخلاقـه واستقامته ؟ وما الذي أوحى به رب العزة لهذا الرجل ؟ أوحى إليه أمرين

1) أوحى إليه ما يدل على عناية الله بالبشـرية بمـا يشـمل إنـذارهم بتنبـيههم إلـى مـا يترصدهم من خسارة وسوء منقلب، إن هم سلكوا طريق الضلال.

2) وأوحى إليه أن بشّرْ الذين آمنوا بك وصـدقوك واتبعـوا النـور الـذي أنـزل معـك، أن الله قد كتب لهم عنده، فتحقق ما قدم لهم في سابق علمـه مـن الخيـر والسـعادة، فـي اللوح المحفوظ.

بلغ بالكافرين العجب فتحيروا فـي إدراك سـر الـوحي، ونظـروا مـن زاويـة الـرفض والعناد فقالوا: إن ما جاء به سحر بين لا شـك فيـه. وذلـك أنهـم قـد عـاينوا أن هـذا الوحي الذي أوتيه قد نفذ إلى العقول فأقامها علـى طريقـة جديـدة، وحولهـا مـن مـنهج الأسطورة إلى منهج يرفض الأسـطورة، ونفـذ إلـى العواطـف والميـول فربطهـا بقـيم خلقية جعلها تتنكر لما كانت تقيم عليه حياتها وتعودت عليـه مـن قبـل. إن هـذا الـوحي الذي خلق من الإنسان الجاهلي إنسانا مختلفـا عمـا كـان عليـه مـن قبـل، لا يكـون إلا سحرا. زعما منهم أن السحر يؤثر في عقل المسحور ويقلـب مـا كـان ثابتـا فـي نفسـه قبل تدخله. ومن ضلالهم: أن السحر يهدف إلـى الإفسـاد وتمزيـق الأواصـر الجامعـة، وهذا الدين يدعوهم إلـى الخيـر والاسـتقامة، وإلـى مـا يوحـد بيـنهم، ويحمـيهم مـن عاديات الاختلاف الممزق.

3- إن ربكم الله الذي خلق....أفلا تذكرون.

تأكدوا أن الذي تولّاكم بالإيجاد والإمداد، هـو الله لا إلـه غيـره المتفـرد بـالخلق. خلـق السماوات والأرض وهذه حقيقة لا يستطيع المشـركون أن يجعلـوا لآلهـتهم دخـلا فيهـا. وما عقب خلق السماوات والأرض: (في ستة أيـام ثـم اسـتوى علـى العـرش) تقـدم بيانه في تفسير الآية -54- من سورة الأعراف.

أثبت القرآن عقـب خلـق السـماوات والأرض والأكـوان أنـه هـو المتـولي لتسـييرها وتدبير ما حوته وما بث فيها من دابة. وهو مـا يبطـل ويـرد علـى الـذين يزعمـون أن

الله خلق الكون، وأعطاه نواميس سيره، ثم تركــه يســير ويتقلــب فــي أحوالــه منفصــلا عن التأثير المباشر لعزته.
كما أبطلت الآية أيضــا مــا يعتقــده المشــركون: أنهــم لا يخشــون العاقبــة لأن آلهــتهم سيتولون الدفاع عنهم ويشفعون لهم فــي تقصــيرهم عنــد الله فيسْــلمُون، فنفــت الآيــة أن يتقدم أيٌّ كان للشفاعة بين يدي الله، واستثنت ما أخبــر بــه الله مــن الشــفاعة لمــن يــأذن له في الشفاعة، وقد اختص محمد ﷺ بالشفاعة العظمــى فــي أهــل المحشــر، والشــفاعة الخاصة لأمته.

إن الله الذي هو ربكــم، وتــولاكم فخلقكــم، ويســر لكــم الهدايــة علــى لســان رســوله، ورزقكم، هو الحقيق بأن تفردوه بالعبادة، فاعبــدوه. انظــروا فــي الحقــائق الكامنــة فــي نفوسكم وتأملوا فيها، فسوف تهديكم إلى إفــراده بالعبــادة ســبحانه. ففطــرتكم تنــادي بــأن الله هو المستحق أن يتقرب إليه وأن يعبد.

4- إليه مرجعكم جميعا...وعذاب أليم بما كانوا يكفرون.

إن الكمال الإلهي يقتضي أنه مــا خلــق الســماوات والأرض ومــا فيهــا عبثــا وبــاطلا، ولكن هذا الخلق سينتهي إلى أمده الذي قدره له فتظهر حكمتــه. وصــرح فــي هــذه الآيــة بهذا المعنى .ستعودون إلى الله وحده، لا شريك له، فكمــا أنشــأ كــل فــرد مــنكم ومكنــه من مقومات الحياة الجسمية والعقلية والروحيــة، ثــم ســلب مــا أعطــاكم عنــد مــا أراد، فكذلك سيرجعكم إليه لا يفلت من هذا التقدير أي كائن. تأكــدوا مــن هــذا المصــير فإنــه وعد الله الحق الذي لا يتخلف.
من مقتضيات حكمته في الخلق، عندما أحدثه أنــه ســيعود إليــه. هــذه الحكمــة التــي أفصحت عنها الآية تضمنت جزاء البشر المخلوقين وسيكون الجزاء على قسمين:
أولا: الذين جمعوا بين صفاء العقيدة، فآمنوا بالحقائق التــي يقتضــيها قــانون العقــل فــي الخلق والتصرف وما يقتضيه ذلك من صفات الكمال، ومــن بعثــة الرســل ومــا أخبــروا به من المغيبات التــي لا تتــاقض العقــل ولكــن لا يســتطيع أن يصــل إليهــا بإمكاناتــه .وبين التطبيق العملي الصالح لما تلقــوه عــن رســل الله مــن الســلوك الرضــي. إن الله سيجزيهم بإيمانهم وبصــالح أعمــالهم جــزاء عــادلا لا يهمــل أي خيــر صــدر عــنهم صــغيرا كــان أو كبيــرا. وفــي الإشــارة بالقســط: العــدل، زيــادة تكــريم للمــؤمنين الصالحين، إذ الشعور بالنعمة تكون أتــم عنــدما يجــد المجــزي أنــه كــان فــي حياتــه محفوفا بعناية ربه الذي يحسب له كل أعمالــه ويجزيــه عنهــا يــوم القيامــة، وأن حظــه في الجزاء مع الكرم الإلهي موفور.

ثانيا: الذين كفروا بربهم ولم يذعنوا لما مكنهم مـن الآيـات الظـاهرة فـي الكـون ومـن الهداية عن طريق رسله، جزاؤهم شراب يغلـي فـي بطـونهم. وقـد تقـدم نظيـره فـي الآية (70) من سورة الأنعام. ويصحب ذلكم الشراب عـذاب خاصـته: أنـه يـؤلم أشـد الألم وأقساه بما يشمل الألم النفسي والحسي . ذلـك جـزاؤهم بمـا اسـتمروا عليـه مـن الكفر كامل حياتهم.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الضياء : النور الساطع القوي.

المنازل : مواقع القمر التي يبدو فيها كل ليلة من كونه هلالا إلى المحاق.

لا يرجون : لا يتوقعون.

اطمأنوا بها : سكنت نفوسهم لها فلا تتطلب شيئا وراءها.

مأواهم : المأوى مكان الرجوع، المصير.

يهديهم : يخلق فيهم ميلا إلى الخير.

الدعوى : الدعاء.

بيان المعنى الإجمالي :

من تدبير لله لأمر الكون، أن خص الشـمس بجعلهـا ضـياء تنفـذ أشـعتها سـاطعة فـي الأرض وما حوته، مما يبعث علـى النشـاط، وجعـل القمـر ضـياء لا يـزعج الإنسـان عندما يميل إلى السكون. وقد سيره في منـازل ثابتـة لا تتغيـر بمضـي الآمـاد. وألهـم البشرية الاستفادة من هذا الضبط المحكم، فهـداهم بـذلك إلـى اسـتنباط معرفـة التـاريخ

في علاقاتهم. وتمكنوا من معرفة الحساب بواسطة هذا المرجع الدقيق. وكل ذلك يدل على أن الله هو الخالق المحكم لما صنع. صنعُهما ملتبسٌ بالحق الذي لا يدخله الباطل ولا العبث. مما ينبه المتقين إلى ما أودع من آيات في هذا التسيير .

إن الكفرة الذين لا يتوقعون أن يعودوا إلى ربهم ليحاسبهم، وجعلوا كل همهم في الحياة الدنيا وقصروا نظرهم عليها فلا يبغون شيئا وراءها، وأضافوا إلى ذلك أنهم غفلوا ولم يتأملوا في الآيات المثبتة للخلق، إن مصيرهم إلى النار جزاء بما تواصل منهم من عقيدة فاسدة وعمل خبيث.

وفي المقابل فإن الله يمن على المؤمنين الذين عملوا بما يرضي الله عنه، فجعل في عقولهم حبا للخير والعمل الصالح، ينصرفوا إليه تلقائيا. ويجزيهم جنات تتخللها الأنهار. جمعت كل ما يطمحون إليه، فلم يبق لهم إلا التنعم بدعاء ربهم مسبحين. يشيع السلام بينهم، ويختمون بالثناء على فضل ربّ العالمين وعلى جلاله.

بيان المعنى العام :

5-هو الذي جعل الشمس ضياء .....نفصل الآيات لقوم يعلمون.

لفت القرآن في الآية الثالثة من هذه السورة إلى حقيقة؛ هي أن الله يدبر الأمر في هذا الكون الذي خلقه. وصرحت هذه الآية بمظاهر التدبير المحكم في الكون الذي خلقه يتمثل ذلك في تقديره أن جعل الشمس ضياء، وجعل القمر نورا، يتعاقبان على الكون بدقة تامة. وهما ظاهرتان متكررتان على الناس في تتابع تكاد رتابته تجعل الإنسان غافلا عما في ذلك من دلالة على الخالق وعلى إحكامه.

ترتبط بضياء الشمس الحياة كلها من الحرارة المناسبة للتكوين والنشاط الإنساني، إلى ما تنتجه الأرض، إلى تعقيم المحيط من التلوث، إلى ما يرقبه العالم من الانتفاع بهذه الطاقة المتجددة النظيفة المنبعثة من الشمس. وتجد في المقابل القمر فيه ضياء متغير لا يزعج الإنسان فيحرمه الهدوء والراحة. وظاهرة أخرى، أن الله قدر سير القمر منتظما في منازل، يبدو كل ليلة من ليالي الشهر في منزلة ثم ينتقل منها إلى منزلة أخرى إلى أن يبلغ تمام مسيرته، ليعود للظهور من جديد، وبذلك يتم الشهر القمري. وتحل الشمس في بداية كل شهر من السنة في برج، تنبه لها الإنسان فوجدها لا تتغير، وعلم منها بداية السنة الشمسية ونهايتها والفصول وما يرتبط بها، وخاصة في النواحي الفلاحية. وكان لهذه الحركة في كوكبي الشمس والقمر تأثير على الفكر الإنساني وعلى الحضارة كلها، إذ ضبط بتلك الحركة حياته وعلاقاته في عقوده وفي نشاطه في الأرض، وضبط التاريخ الماضي والمستقبل. وكان ذلك ملهما له لضبط تقديره الذهني والمعرفي بالحساب.

هاتان الظاهرتان تمران بالإنسان في رتابة جعلته قد يغفل عما في ذلك من التدبير والحكمة. ولذلك أيقظت الآية الإنسان ليتدبر في الحكمة الإلهية في الخلق، وأن يتأمل ولا يمر في غفلته سادرا، وأن الباطل والزيف والمصادفة لا مدخل لها في هذا النظام. وبهذا اللفت فصّل وبيّن ما في ذلك من الآيات الدالة على أن كل أمر قدّره تقديرا في سابق علمه، ونفّذه على ما اقتضته تلكم الحكمة، وهو ما يؤكد الأمر السابق: [فاعبدوه] وهذا التفصيل لا يستفيد منه إلا الذين رفعوا عن بصائرهم حجاب الغفلة فساروا في الحياة متأملين في كل مظهر من مظاهرها، متعمقين في الأسباب ومسبباها؛ وبذلك يتجدد لهم العلم وينمو، ويتعمق الإيمان ويزكو.

6-إن في اختلاف الليل والنهار.....لقوم يتقون.

يتعاقب الليل والنهار على الكون، ويتكرر ذلك كل أربع وعشرين ساعة في انتظام لا يختل، الليل والنهار. ويمر الإنسان بهما غافلا عما في ذلك من التقدير والإحكام البالغ الغاية. فأدق ساعة صنعها الإنسان وكانت نتيجة مجهود علماء كبار، وفنيين مهرة، لا تنتظم بصفة دائمة بل يلحقها التعطل، وتفقد الضبط. والليل والنهار مضبوطان بأربع وعشرين ساعة لا ينقص أمدها ولا يزداد حتى أقل ما يتصور من أجزاء الثانية. ملايين السنين في الماضي والمستقبل إلى أن يقدر الله زوالهما. وفي ذلك آية من آيات الخلق الإلهي والتصرف الحكيم. وبجانب هاتين الظاهرتين مخلوقات لا يحصيها إلا خالقها سبحانه، تتأثر بالليل والنهار وتنفعل بما يحيط بها وتسير في طريقها المرسوم لها حسب السُّنن التي أعطاها. عرف الإنسان بعضًا منها وما هو محجوب عنه كثير. وهو مُمكّن من ضبط ما أجراها عليه خالقها من قوانين. والتقوى تجعل الإدراك لهذه الآيات يتعمق بالشعور الموصول باستحضار أن يد القدرة الإلهية تخلق وترتب وتنظم.

7-←8، إن الذين لا يرجون لقاءنا....بما كانوا يكسبون.

صرحت الآية بالنتيجة التي تعقب موقف المعرضين عن التدبر في الآيات المنتشرة في كون الله القريبة من كل ناظر، والكامنة في أجزائه. أبرزتهم وقد التصقت بهم خصائصهم التي دمروا بها أنفسهم وهي تشمل:

1)أنهم لا يتوقعون أن يعيدهم الله بعد موتهم ليلقوا جزاءهم عنده، فهم لذلك لا يلتفتون إلى ما وراء الظواهر الكونية من تدبير حكيم، وخالق عظيم.

2) أنهم رضوا بالحياة الدنيا فكانت آخر همهم ومنتهى غرضهم، فوقفوا نظرهم عليها، وحسبوا أنها البداية والنهاية. فسكنوا لها. وقصُر تفكيرهم وعملهم عما وراءها فلم يفرزوا له

حسابا. إذا أصابتهم حسنة طاروا لها طربا، وإذا أصابتهم سيئة قادهم حزنهم إلى اليأس، إذ لا وراء حياتهم حياة أخرى. أرواحهم قاحلة فلا تتسامى إلى ما وراء المادة. ومن العجيب أنهم رغم انغماسهم في الحياة الدنيا وقصْرِ تفكيرهم عليها هم غافلون عما فيها من آيات تنادي بوجود الخالق وبنعمه وفضله.

إنه إذ تحقق فيهم هذا الفساد، وساروا عليه إلى النهايـــة، فـــإن مصـــيرهم الـــذي يعـــودون إليه، هو النار جزاءً بما عملوا عن إرادة وإصرار.

9—10، إن الذين وعملوا الصالحات...أن الحمد لله رب العالمين.

في المقابل لأولئك الكفرة الغافلين، مَـــنَّ الله علـــى الـــذين آمنـــوا إيمانـــا صـــادقا وقرنـــوا إيمانهم بفعل الخير، مَنَّ عليهم بأن جعل ما كســـبوه مـــن صـــلاح فـــي العقيـــدة والعمـــل، يشعُ في عقولهم بما يميل بهم إلى الطريـــق الســـليم فـــي عواقبـــه، حتـــى يـــبلغهم ربهـــم المتولي لأمرهم، بتلك الهدايـــة والإيمـــان إلـــى المصـــير الســـعيد. هـــو جنـــات تتخللهـــا الأنهار الجارية. وإذ يصل بهم النعيم إلى تحقيـــق كـــل طموحـــاتهم فـــلا يشـــعرون بـــأي حاجة يسألونها، لا يبقى لهم إلا أن يكرروا بألسنتهم المناجـــاة الروحيـــة التـــي هـــي أكمـــل أنوا ع الكرامة عندهم فيدعون ربهم: سبحانك يـــا الله. ويحيـــي بعضـــهم بعضـــا بالســـلام الذي ألفوه في حياتهم الدنيا. ويختمـــون لقـــاءاتهم بالتوجـــه إلـــى الله حامـــدين كمالاتـــه، مستشعرين الغبطة بما استقر في قلوبهم من كونه رب العالمين.

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾

بيان معنى الألفاظ :

استعجالهم : تعجلهم الشديد.

الأجل : المدة المقررة للبقاء.

العمه : الخبط في ضلال.

كشفنا : أزلنا.

مر : مضى في طريقه غير ملتفت إلى ما سبق منه.

الإسراف : الإكثار في شيء غير محمود.

الإهلاك: الإفناء.

القرون : جمع قرن القوم المقترنون في زمن واحد.

البينات : جمع بينة وهي الحجة الواضحة على الصدق.

لننظر : لنعلم علما يتطابق فيه العلم الأزلي بالعلم التنجيزي.

بيان المعنى الاجمالي :

أمهل الله الكافرين ولم يعاجلهم بالعقوبة، فصرحوا: (بأنه لو كان الإسلام من عند الله، ونحن قد كفرنا به) لعجل لنا العقوبة. فعدم تعجيل العقوبة دليل على أنه ليس من عند الله حسب زعمهم. كما أن المؤمنين استبطأوا إمهال الكافرين وعدم معاجلتهم بالاستئصال .فكان الجواب في الآية واضحا: إن الله قد رتب أمر الخليقة على نظام أحكمه في سابق علمه، ولم يبن أمر الحياة الدنيا على المبادلة السريعة، بل على ألطافه وفضله وإمهال المسرف للتوبة والرجوع إلى الحق. وهذا ما تشاهدونه، فلو كان الأمر على ما تتصورون لخرب الكون. ولكن حكمته تعالى اقتضت إمهال الذين لا يتوقعون البعث فتركهم يسيرون في طغيانهم متحيرين.

ومن شأن الإنسان أن يشعر بالحاجة إلى العون الإلهي بمجرد ما يمسه ضر بدني أو نفسي، فيدعو ربه سواء أكان الضر ثقيلا ألزمه الفراش، أو خفيفا بقي معه جالسا أو منتصبا قائما، فإذا لطف الله به وشفاه نسي ضعفه السابق. وعلى هذا النحو يزين الشيطان للكافرين أعمالهم.

والله قد استأصل شعوبا من قبلكم، بسبب ظلمهم، بلغتكم أخبارهم. وبعد أن أرسلت إليهم رسلي مؤيدين بالآيات البينات الواضحة على صدقهم، لم يؤمنوا. وعلى ذلكم النحو نجزي القوم الذين تأصل الإجرام في نفوسهم. وانتبهوا فقد مننّا عليكم بأن مكناكم فجعلناكم خلفاء لهم في الأراضي التي كانوا يعمرونها، وسنُقوِّم ما تقومون به لتجزون عنه جزاء عادلا، لا يستوي فيه الخبيث والطيب.

بيان المعنى العام :

11 ولو يعجل الله للناس الشر...في طغيانهم يعمهون.

دعوة بينة ربطت الإنسان والكون بالله، نادى بها رسول الله ﷺ في فم الدنيا، وما تزال تتردد أصداؤها تسير مع الحق ويسير الحق معها. ولو رفع البشر عن عقولهم الكبر والعناد، لما بقي فرد يعادي ذلكم النداء المستجيب للفطرة، الفاتح للبشرية

منافذ الرقي والسلام. قابل المشركون تلكم الدعوة بالرفض والتحدي، وحجبهم عن الحق تصور ساذج: أنه لو كان الدين الإسلامي حقا من عند الله، وهم قد كفروا به، لعجل الله عليهم عذابه واستأصلهم. كما جاء في قوله تعالى :(وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ...)[1].

كما أن المؤمنين لاحظوا أن كثيرا من الكافرين ينعمون مترفهين في الحياة الدنيا، سلمت لهم أبدانهم وذرياتهم وأموالهم، فاستبطأوا نزول العذاب عليهم. فعرفت هذه الآية الفريقين بقانون الله في الكون: أن الله لم يبن الكون على تقابل سريع بين الشر والعذاب، وأن رحمته وألطافه هي الظاهرة الغالبة في الكون، وأن ما سبق لتصور الفريقين مناقض لتدبير الله في الخلق. فسجل القرآن، أنه لو يعجل الله للناس الشر الذي طلبوه تعجلهم الشديد لتحقيق الخير الكثير في تقدير الله، لانتهوا من الوجود، أي بمجرد ما يرتكبون الشر. ولكن الله قدر أن يبقى الكون والبشر إلى آجالهم المقدرة لهم. وبناء على أنه لا يتحقق في الكون إلا ما قدرته في سابق علمي، فإني أنا الله أبقي الذين لا يتوقعون أن يعودوا إلينا لحسابهم على ما قدموه، أبقيهم في ضلالهم وكفرهم سادرين يتخبطون لا يتبينون طريقا ينجيهم.

12 -وإذا مس الإنسان الضر دعانا...ما كانوا يعملون.

كشفت الآية عن طبيعة من طبائع الإنسان إذا أطبق عليه الكفر. إن الإنسان الكافر إذا مسه ضر مما يؤلمه نفسيا أو جسديا، أسرع بدعاء الله ليتقوى على الحدث المؤلم، كيفما كان حاله عند نزول البلاء، سواء أكان على جنبه، أو جالسا، أو منتصبا قائما. هذا ما فهمه معظم المفسرين .

والذي ترجح عندي أن قوله تعالى: دعانا لجنبه يشمل معنيين: أحدهما أن يكون بمعنى قريبا منه، دعانا لنكون عنده نمده بالعون والرعاية والتلطيف. وثانيهما أن يكون القصد منه وهو على جنبه الحالة التي هي إحدى حالات الإنسان الثلاث.

ثم إن هذا الإنسان الكافر، إذا تعلقت إرادتنا وقدرتنا بإزالة ما به من ضر، وعوفي بعد ما كان يشعر بالضعف، يتحول كأنه ما لقي ضرا ولا ألما، وكأنه ما كان محتاجا ضارعا. وعلى هذا النحو من التسلط الشيطاني على النفوس التي بعدت عن الاعتدال ومالت إلى الإسراف، يتسلط عليها بإضلالها وإغوائها وطمس الحقيقة عنها، فيفقدون سلم القيم، وينقلب القبيح حسنا تألفه نفوسهم، والحسن قبيحا تنفر منه .

---

[1] سورة الأنفال آية32

13- ولقد أهلكنا القرون من قبلكم ...نجزي القوم المجرمين.

سنة من سنن الله في تنكيلــه بــالقوم الظــالمين، تقــوم شــاهدا علــى مــا ذكرتــه الآيــة السابقة: (ولو يعجل الله للناس....) إذ من الأخبار التــي كانــت شــائعة عنــد المشــركين من أهل مكة: أن الله أهلك أمما في فتــرات ســابقة، تقــدمت فــي تــاريخ الإنســانية، وأن استئصالهم وإفناءهم كان بسبب ظلمهم، والشرك ظلم عظــيم. ومــا ســلط علــيهم عقوبتــه إلا بعد أن بعث لهم رسلا من عنده، قــوّى جــانبهم ورفــع المعــاذير عــن قــومهم، بمــا أيدهم به من حجج واضحة بينة قامت شاهدة علــى صــدقهم. ومــع ذلــك كــابروا عنــادا ولم يؤمنوا، فكان استئصالهم جاريا على ســنن الله فــي إهــلاك القــوم المجــرمين. وفــي ذلك إنذار للمشركين أنه سيحل بهم من العذاب ما حل بالمكذبين الذين سبقوهم.

14-ثم جعلناكم خلائف ....كيف تعملون.

ثم بعد استئصال القوم المجرمين من الأمم التي أهلكــت فــي جزيــرة العــرب، مكنــاكم من أن تخلفوهم في ديارهم ومساكنهم، ليكون ما تقومون بــه مــن أعمــال مفضــيا بكــم إلى النتيجة العادلة. إن علمه ســبحانه لا يتغيــر، فمــن كــان مــنكم فاضــلا فــي علمــه الأزلي، وعمل صالحا إذ لا يقع إلا ما تقرر في علمه القــديم، يجــزى حســب مــا قــدم من الخير كما هو في سابق علمه، ومن ضل ولم ينظر فــي مــآل القــوم الكــافرين مــن قبله، وسار على طريقهم الضال، فإنه يعاقب عقوبة عادلة.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ (17) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (18)

بيان معنى الألفاظ :

بدله : غيره.

من تلقاء نفسي: من جهة نفسي.
أتبع : لا أتصرف فيه بأي تغيير .
التلاوة : قراءة المكتوب أو استعراض المحفوظ.
أدراكم : عرفكم.
أتنبئون : أتعلمون .

بيان المعنى الإجمالي :

صورة من صور معاناة الرسول ﷺ من المشـركين الـذين لا يؤمنـون بالبعـث، إنهـم إذا يتلى عليهم القرآن، يكون ردهم ائت بقرآن آخر غيـر هـذا الـذي نسـمعه منـك، يقـص علينا مثل ما هو موجود في كتب الفرس، أو بدل مـا تواجهنـا بـه مـن إبطـال آلهتنـا، ومن إنذارنا سوء المصير. قل لهم إن القرآن الـذي أبلغكـم هدايتـه لـيس لـي أن أغيـر منه شيئا، فأنا لا أتصرف فيه وإنما أتابع ما أتلقـاه مـن وحـي ربـي. إنـي مستحضـر عظمة الخالق، فمن يكذب عليه ويعصيه لا يفلت مـن عقابـه العظـيم يـوم القيامـة. ثـم أضف إلى ذلك إن التصرف بيد الله، فلو شاء الله أن يحرمنـي وحيـه مـا تلـوت علـيكم القرآن، ولو شاء الله أن يحرمكم لحرمكم معارفه.

ثم إنكم قد عرفتموني أربعين سنة، فما كنـت أبـاري الفصـحاء، وتعلمـون أنـي أمـي لا علم لي بتفاصيل الماضين، ولا بحقائق الكون. وهـذا القـرآن أسـامكم معجـز فـي لفظـه وفي مضامينه، أليس لكم عقل يهديكم! إنه لا يوجد ظلم أسـوأ مـن ظلـم الـذين يكـذبون على الله، أو الـذين تصـلهم آياتـه البينـة فيرفضـونها، إن هـؤلاء مجرمـون. ومـآل المجرمين الخسارة الكاملة في الدنيا والآخرة.

إنه من فساد ملكاتهم، وسـوء تفكيـرهم أنهـم يعبـدون مـن دون الله أصـناما عـاجزة لا تضر ولا تنفع، تبعا لما أوهمهم به سدنتها أنهـا تشـفع لهـم يـوم القيامـة، فـلا يلحقهـم بشفاعتها عذاب. فاعترفوا بأن بيد الله أمـر الآخـرة وعبـدوا الأصـنام. إن أوهـامهم لا حقيقة لها ولا أصل، وعلم الله الذي يضبط كـل شـيء ضـبطا محكمـا، ولا يغيـب عـن علمه شيء في السماوات ولا في الأرض يشهد بأن مـا أثبتمـوه مـن شـفاعة آلهـتهم لا أصل له. تنزه ربنا وتعالى عن شركهم.

بيان المعنى العام :

15-وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات. ..عذاب يوم عظيم.

تعرض هذه الآية تلـدد المشـركين، ونمـاذج ممـا عانـاه النبـي ﷺ مـنهم. فكـانوا إذا عرض عليهم ما أوحى الله لـه مـن آيـات القـرآن البينـة الواضـحة، اللافتـة للعقـول

المحيية للأرواح، قال الكافرون الـذين لا يتوقعـون حيـاة أخـرى غيـر الحيـاة الـدنيا، وينكرون البعث، قالوا: إذا كنت ترغب أن نستمع إليك فائـت بقـرآن غيـر هـذا القـرآن الذي تتلوه على مسامعنا، تكون مضـامينه مغـايرة لـه، يُومنـون إلـى أن يكـون شـبيها بما يسمعونه من قصص الفرس وملاحمهم. أو بدل ما تقرع بـه أسـماعنا مـن تـرك مـا نعبده ونقدسه، فتُثني عليهم. ومن تحذيرنا سوء المصـير بالبشـارة وفـتح الآمـال. وفـي كلامهم إنكار واضح لكون القرآن من عند الله.

كان الجواب قاطعا رافعا لتوهمهم الذي بنوا عليـه سـؤالهم. مضـمونه: إن هـذا القـرآن هو كلام الله وليس لي أي دخل فيه. فأنـا غيـر مخـول أن أتصـرف فيـه أي تصـرف. أتلقاه من ربي، وأبلغه كما أوحـي إلـي، دون أن أزيـد فيـه أو أنقـص منـه، أو أحـول لفظا من ألفاظه أو معنى من معانيه. فأنا متّبـع أمـين علـى مـا أوحـي إلـي. ارفعـوا عنكم هذه الأوهام، ذلك أني أخاف إن تجاوزت ما أنا مكلـف بـه مـن التبليـغ الصـادق، أن يسلط علي عذابه يوم القيامة الذي يكون عـذابُ الكذبـة علـى الله فيـه عظيمـا يفـوق الوصف. إنه لايفلت الكاذب على الله من العقوبة.

16-قل لوشاء الله ما تلوته.....أفلا تعقلون.

أردفـت الآيـة حجـة أخـرى تـدفع شـبهات الكـافرين المعانـدين. مضـمونها: أن الله المتصرف في الكون هو الذي يسر لي المقام الـذي انتخبنـي لـه، ومكننـي مـن تـلاوة آيات كتابه عليكم. ولو تعلقت إرادته ومشيئته أن لا أتلـو علـيكم هـذا القـرآن لاسـتحال علي تلاوته، ولو تعلقت مشيئته بإبقائكم علـى ضـلالكم لمـا أوحـى إلـي مـا فـتح بـه العقول ولا عرفكم به (ولا أدراكم به) بل لمـا أرسـلني وواصـلت حيـاتي علـى النحـو الذي تعرفونه مني طيلة عمري الذي أقمته بينكم وأنتم ترقبـونني. فمـا كنـت يومـا فـي الأربعين سنة التي قضيتها بيـنكم مـن المتبـارين فـي القـول والبيـان، ولا مـن دعـاة الإصلاح وعرض الدعوة إلى الله. ما لكـم لا تتـدبرون ولا تتـأملون بمـا يفـتح عقـولكم فتحا يوجب عليكم أن تصدقوني، لأن ما أيدني به كـلام معجـز، فـي مضـامينه الكاشـفة عن الحقائق التي لا تتأتى لرجل أمي، ومعجز في صـياغته، مـا كـان لـي سـابقة بهـذا المستوى قبل الوحي الذي تلقيته من ربي.

17- فمن أظلم ممن افترى على الله ...لا يفلح المجرمون.

يواصل القرآن الاحتجاج على المشـركين ودحـض شـبهاتهم بطـرق متنوعـة، تقمعهـم وتكشف أنهم ما رفضوا الإسلام إلا بنـاء علـى العنـاد . فـذكرتهم الآيـة فـي طالعتهـا بأنه لا يتصور أن يبلغ الظلم بالإنسان مبلغا يسـاوي ظُلْـمَ مـن اختلـق مـن عنـده مـا

نسبه إلى الله كذبا وبهتانا. فالنبي ﷺ شاعر بمقام ربه مقدر لعاقبة ذلك الظلم، فلا يتصور منه أن يقدم عليه وشعوره بالغ هذا الحد. وفي المقابل تلقي على المشركين عباءة هذا الظلم الفاحش بسبب أنهم كذبوا بالآيات البينة الواضحة. وتختم الآية بالتهديد بأن هؤلاء الظلمة، بالشرك والتكذيب، هم مجرمون مآلهم الخيبة في الدارين.

18- ويعبدون من دون الله .....وتعالى عما يشركون.

ثم إن القرآن يشهر بالمشركين، ويكشف فساد تفكيرهم وعقيدتهم، إذ أنهم يعرضون عن عبادة الله خالق الكون، ويتقربون إلى أصنام لا تضر ولا تنفع، تمثل العجز الكامل، متأولين بأنها تنفعهم عند الله وتشفع لهم. فما أشد غباءهم يعبدون الأصنام، ويعترفون بأنها وسائل تشفع لهم عند الله. فقد اعترفوا بالله وأعرضوا عن عبادته.

إن هذه الأصنام لا تأثير ولا قيمة لها. ومن تطاولكم أيها الكافرون على الحق، أنكم تريدون أن تعرفوا الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وأحاط بكل شيء علما، تريدون أن تعرفوه بوجود ما لا وجود له في السماوات ولا في الأرض. تنزه ربنا وتعالى عن سفالة الشرك.

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

بيان معنى الألفاظ :

آية من ربه :علامة على صدقه حسبما يقترحونه.

الغيب : ما غاب عن الحواس . والمراد به الأيات المقترحة منهم.

أذاق : مكن من الإدراك.

الرحمة : نعمة.

المكر : الاستهزاء والطعن فيها لتوهين شأنها.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن أن الناس كـانوا موحـدين لا خـلاف بيـنهم فـي ذلـك. ثـم إن الشـياطين أغوتهم، والشهوات أضلتهم. ولو كان الله يؤاخذ الخارج عـن الإيمـان بمجـرد مـا يبـدر منه الكفر، لعجل العقوبة وأبان الحق ناصعا، فينتهـي التكليـف تبعـا لـذلك. ولكـن إرادة الله كانت غير ذلك.

ومن شغب المشـركين أنهـم يقترحـون ملحـين، أن ينـزل الله علـى رسـوله معجـزة تصدقه، على المقياس الذي يتصورونه. قل لهم إن ما سـيأتي بـه المسـتقبل هـو غيـب، والغيب بيد الله يظهر منه ما يشاء حسب حكمتـه لا حسـب مقترحـاتكم. فـانتظروا مـا سيأتي من عنده.

عجبٌ أمر البشر، فإذا أدركتهم نعمة من النعم بعد أن مسـهم الضـر، قـابلوا الفـرج مـن الكرب بإنكار الفضل الإلهي وشككوا. هددهم القرآن بأن مـا يمكـرون بـه ومـا يقلبـون به الأوضاع، سينالون جزاءه من الله المالك الـذي سـينتقم مـنهم ويقلـب أوضـاعهم. ولا يضيع شيء من مقاصدهم السيئة وأعمالهم الخبيثة، فـإن الله أوكـل بهـم ملائكتـه الـذين أرسلهم لإحصاء أعمالهم فلا يفلتون من العقاب.

بيان المعنى العام :

19 -وما كان الناس إلا أمة واحدة ....فيما فيه يختلفون.

هذه الآية هي قرينة الآيـة "213" مـن سـورة البقـرة. وإن كـان لكـل واحـدة منهمـا خصائص تركيبية تتناسب مع مـا سـبق كلامهمـا، إلا أن المعنـى الأسـاس لهمـا يكـاد يكون واحدا.

تؤكد الآية على أن الإسلام دين الفطرة، على معنـى أن العقـل البشـري إذا لـم ينحـرف بمعطيات دخيلة عليه، فإنه لا يكون إلا مؤمنا بـالله الواحـد الأحـد لا شـريك لـه. إذ أن الاستقامة في التفكير لا يمكن أن تصل إلا لهـذه النتيجـة الصـادقة. وقـد فصـلنا القـول في ذلك عند تفسيرنا للآية " 213" من سـورة البقـرة. وبنـاء علـى ذلـك فإنـه مضـى زمن من عمر البشرية وهم متفقون فـي التصـور: أن الله خـالق العـالم وأنـه متصـف بصفات الكمال. اهتدوا إلى ذلك فطريا ولم يحـدث بيـنهم خـلاف فيـه. ثـم حـدث بعـد ذلك أن تدخلَ الشيطان بوسوسته، والغرائـز بعنفهـا، والأنانيـة بطغيانهـا، ففرقـت بـين البشر، فمنهم من حماه الله فبقي مؤمنا، ومنهم مـن اتبـع هـواه وغـرّه الشـيطان فكفـر. ويبعث الله تفضلا منه أنبياءه ليبينوا الحق وليقيموا الدين كلما انتشر الكفر.

وإنه من سنن الله في الخليقة أنه لا يعجّل نقمته فيستأصل الكافرين، ويظهر الحق منتصرا وحده في العالم. ولكنه سبحانه يمهلهم لينجو المهتدي، ويخسر المبطل.

20-و يقولون لولا أنزل عليه آية....من المنتظرين.

من الشغب المتتابع من المشركين ما تضمنته الآيةَ: أن المشركين اقترحوا نظير ما تقدم في الآية "15" وفي غيرها من سور القرآن، أن ينزل الله على رسوله دليلا ماديا يشهد بصدقه حسبما اقترحوه. وبنوا على ذلك أنه إذا لم يأتهم بمقترحهم فذلك دليل على عدم صدقه وأن الله لا يؤيده. وهو من باطل أوهامهم إذ قدّروا أن الله ينتظر ما يقترحونه فيسرع بتنفيذه ليلجئهم إلى الإيمان. بل إن ما تأيد به رسول الله كاف لهداية من تدبر ولم يعاند.

أمر الله رسوله أن يرد عليهم، بأن كل أمر لم يقع بعد في الوجود، هو من الغيب الذي يتصرف فيه الله وحده، فيتحقق في الوجود إذا تعلقت الإرادة بإبرازه، ولا يظهر إذا أراد الله عدم حدوثه. وإني منتظر ما يأتي به الله المتصرف وحده في الكون حسب حكمته لا حسب رغبتكم ومقترحاتكم. وبما أنكم لا تملكون أي تأثير على اختيارات الله فانتظروا، وليس لكم إلا الانتظار الذي يبقي عليكم في حيرتكم. ففرق بين انتظار الرسول لما يأتيه من ربه فيؤمن به، وبين انتظارهم الذي لا يستجاب له فيستمرون على ضلالهم، ولا يترقبون إلا شرا عليهم في الحاضر والمعاد.

21- وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء....تمكرون.

هذه الآية تسجل على الكافرين وتوبخهم في آن واحد. ذلك أن الله يتفضل عليهم فيغدق عليهم نعمه، التي هي رحمته التي تعم العالمين، ويفرج كروبهم ويبدل ما يصيبهم من ضر إلى شفاء بعد السقم، وخصب بعد الجدب، وأمن بعد الخوف. فإذا أدركوا هذه النعم قابلوها بنكران أن تكون لله يد في ذلك، وإذا ذُكروا بها استهزأوا وهوّنوا من شأنها. يقصدون من وراء ذلك أن لا يجعلوا لتلك النعم أثرا يؤكد الإيمان . تهددهم الآية بأن رسل الله يكتبون ما يمكرون به ويُحْصُونَهُ عليهم، ليسلط عليهم، عندما يريد، في سرعة خاطفة، ما ينتقم به منهم انتقاما لا يجدون له مردًّا.

هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا

أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

بيان معنى الألفاظ :

الفلك: السفينة.

الجري : السير السريع.

طيبة: ملائمة.

عاصفة : شديدة السرعة.

من كل مكان : من جميع جهات السفينة.

أحيط بهم : أهلكوا.

البغي : الاعتداء.

المتاع : ما ينتفع به الإنسان انتفاعا غير دائم.

بيان المعنى الإجمالي :

الله الذي بنى الكون على نظام مكن به الإنسان من التنقل في البر والبحر. ويعطي القرآن صورة لإبراز أن التصرف لله وحده: مسافرون في سفينة خرجت من المرفأ والبحر هادئ جميل، والريح مواتية تسير بهم في الاتجاه المناسب. وفي لحظة تكفهر السماء وتشتد الرياح عاصفة، وتعلو الأمواج من كل الجوانب، أشفقوا على أنفسهم وعلا الموج حتى إن كل واحدة ستطغى فتسحب السفينة إلى القاع. وابتهلوا إلى الله أن ينجيهم معترفين بتقصيرهم معلنين عزمهم على الطاعة والشكر له إذا هو أنجاهم.

ويتفضل الله عليهم فيبلغهم ساحل النجاة. فارتد المفسدون إلى ما كانوا عليه مشركين بالله، سادرين في التمتع بما تقدمه لهم الحياة، لا يحترمون قيمة ولا أمرا، ولا يقفون عن اقتحام منكر. إنه إذا قطع الإنسان صلته بالله ضل في سلوكه وظلم غير ملتزم بالحق. وما يحصل عليه لا يعدو ما يتمتع به الإنسان في الحياة الدنيا المتاع القصير، ثم يكون مصيره إلى الله فيكشف له ما كان عليه من ظلم.

بيان المعنى العام:

22-هو الذي يسيركم في البر والبحر.....لتكونن من الشاكرين.

تضمنت الآية دليلا على تفرد الله بالتقدير في تقلبات الكون، وعجز الإنسان عن التأثير، ومقابلة المشركين نعمته بالكفران .

بُني العالم على قوانين لا دخل للإنسان فيهـا، رغـم أن حياتـه لا تنـتظم إلا بهـا، فتنقـل الإنسان في البر والبحر، ما كان ليتيسـر لـولا تلكـم القـوانين التـي بنـي عليهـا أمـر الخليقة. فلو كانت جاذبية الأرض أقوى ممـا هـي عليهـا لتسـمر الإنسـان فـي مكانـه، ولولا أن الماء يدفع الفلك إلـى السـطح لغرقـت السـفن وهـي علـى الشـاطئ قبـل أن تبحر. فالتسيير في البر والبحر هو بتقدير إلهي عجيب؛ اختص به ربنا سبحانه.

ثم إن القرآن اقتطع صورة من صور السـير فـي البحـر فعرضـها بمـا لابسـها مـن معطيات. جماعة ركبوا سفينة وسارت بهـم فـي بحـر هـادئ جميـل، رقـت نسـماته، وامتد فيه النظر إلى آفاق بعيدة، وتعكس صـفحته زرقـة السـماء، والمبحـرون فرحـون بما توفر لهم من حـظ. وفـي لحظـة تعصـف الـريح فتعلـو أمـواج البحـر، وتحـيط بالسفينة من كل جهاتها، ويخيل للراكبين أن كل موجـة سـتطغى علـى السـفينة لتأخـذها إلى قاع البحر. لا تسـأل عـن القلـوب وقـد اضـطربت، وعـن الخـوف وقـد اسـتبد بالنفوس، وعن الشعور بالضعف الذي عقبه الاستسلام إلى القدر.

إن الإنسان حتى من كان إيمانه واهيـا، يثـور فـي باطنـه شـعور بأنـه فـي سـاعات الحرج الكبرى لا ملاذ له إلا رحمـة إلهيـة تنقـذه مـن بـراثن الهـلاك. ولـذا توجـه راكبوها مؤمنهم وكافرهم إلى الله مبتهلين: أنه إن عطـف علـيهم فأنجـاهم مـن الكـرُب الذي هم فيه، فإنهم يقابلون نعمته بالشكران والثبات على الإيمان.

23- فلما أنجاهم إذا هم يبغون ...بما كنتم تعملون.

استجاب الله دعاءهم، ونجوا من العاصفة، وبلغوا شـاطئ السـلامة. كـان مـن الواجـب عليهم أن يوفوا بعهـدهم، وأن يسـتقيموا فـي حيـاتهم، وأن يتـذكروا ضـعفهم وأن مـا يحسون به من قوة إن هو إلا خيال يتبدد عند مباشرة الواقـع بمـا يحملـه مـن مفاجـآت. ولكن طائفة منهم تنكرت لما عاهدت عليه، وأعلنـت فـي وقاحـة عـن ظلمهـا، وأعظـم ظلم هو الشرك بالله. فقوله تعالى(إذا هم يبغـون) لا يشـمل كـل ركـاب السـفينة وإنمـا ينسحب على المشركين منهم المواصـلين للشـرك. رجعـوا إلـى عبـادة آلهـتهم، ومـا تتطبع به قلوبهم تبعا لذلك من غلظة واستبداد.

يخاطبهم القرآن مهددا: إن استبدادهم وظلمهم يعود علـيهم بالوبـال فـي الـدنيا والآخـرة. إنهم إن استمتعوا بما يجنونه من ظلمهم، وبتحررهم مـن القـيم الخلقيـة وانغمسـوا فـي الرذيلة، وأشبعوا شهواتهم، فإن ذلك متاع وقتي فـي الحيـاة الـدنيا. هـم خاسـرون للـذة الشـعور بالسـمو، وخاسـرون لسـلامة أبـدانهم وملكـاتهم. والعجـب أن المسـتبدين لا يتعظون بما جرت عليه سنن الله فـي الكـون. إذ كـل مسـتبد ظـالم جبـار يتـوهم أنـه

أذكى ممن سبقه، وأن سنة الله لا تجري عليه. ويمهله الله لأجل قدّره في علمه حتى إذا حل عليه، ذاب ما بناه كما يذوب الجليد تحت وهج الشمس. ولعذاب الآخرة أخزى .وسوف يعرض عليه يوم القيامة جميع ما كان يعمله من سوء، وظلمه وإفساده في الكون، ليكون ذلك مقدمة للعذاب الأكبر.

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

بيان معنى الألفاظ :

الزخرف : ما يتزين به.

ازينت : ظهرت زينتها.

أمرنا: ما يسلطه من الجوائح كالريح الشديدة البرودة أو الحرارة(السموم).

حصيدا : تالفة . أصله الزرع المقطوع من منابته.

لم تغن : لم تعمّر.

التفكر : التأمل المتعمق.

يدعو: يطلب بما حتّمهُ من التكليف بالفعل أو بالترك.

دار السلام: الجنة.

يهدي : يمكن بألطافه من الاهتداء.

الحسنى : الجنة.

يرهق : يغشى.

قتر : لون فيه ظلمة وكآبة من البؤس والشقاء.

عاصم : مانع.

أغشيت : غطّيت.

بيان المعنى الإجمالي :

قرّب الله للناس حقيقة الحياة الدنيا، بالمقارنة بينها وبـين مـا يحصـل فـي الأرض عقـب نزول الغيث، من جمال وخضرة وثمار. ومالكوهـا يتوقّعـون إنتاجـا طيبـا وافـرا. ثـم يسلط عليها الجوائح الماحقة في لحظة لا يتوقعهـا أحـد، فـإذا الأرض جـرداء كـأن لـم تنبت نباتا ولا امتلأت أشجارها بثمار. وهكـذا الـدنيا بعـد أن تغـري النـاس بمباهجهـا يفنيها خالقها في لحظة لا يعلم أحد زمن وقوعها. وفي هـذا المثـل موعظـة لمـن يُعمـل فكره ويتأمل.

والله يدعو البشر جميعا لامتثال شرعه حتـى يـدخلوا الجنـة، ويجـود بألطافـه وعونـه فيمكن من أراد له الخير من اتباع طريق الهدى.

وعلى العكس، فإن الذين محضوا خيارتهم للشر والرذيلـة، فـإنهم يجـزون جـزاء يعـادل سيئاتهم، وتغشاهم ذلة اليائس الـذي لا يجـد مـن يمنعـه مـن عقـاب الله. تنظـر إلـى وجوههم مسودة، كأن قطعا من ظـلام الليـل متراكمـة عليهـا. هـم ملازمـون للنـار لا يخرجون منها أبدا.

بيان المعنى العام :

24-إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه...لقوم يتفكرون.

تشبيه يجسم مقربا حالة الحياة الدنيا في سـرعة زوالهـا بعـد البهجـة المغريـة بجمالهـا، بحال النبات الذي يكون خضرا نضرا في شبابه بعد نـزول الغيـث، ثـم ييـبس ويصـير حطاما.

تعلّق البشر بالدنيا تعلقا كبيرا ذُهلوا معه عن التأمل فـي نعيمهـا، حتـى بلـغ بهـم الأمـر أن غفلوا عن سرعة زوال ما تغري بـه مـن نعـيم. نـبههم القـرآن بهـذا المثـل الـذي ضربه حتى لا تخدعهم مباهجها ولـذاتها. هـو مثـل ملحـوظ لا يسـتدعي قـدْح الفكـر لإدراكه، ولكن الكافرين يغفلون عنه. يقدّر البـاري سـبحانه إنـزال المـاء مـن السـماء، فيسري في باطن الأرض ويختلط هذا الماء بمقومات النمـو المخزونـة فيهـا، لينفـذ إلـى عروق النبات، فيمتص كل نبات ما هو في حاجة إليه ممـا حملـه المـاء معـه. ويتنـوع إلى ما يتحول إلى قوت للناس، وإلـى مـا يتحـول إلـى قـوت للأنعـام. وتنظـر إلـى المزارع والأشجار فإذا هي تمـلأ العـين إعجابـا بجمالهـا: بسـاط مـزركش الألـوان، وأشجار تحمل من الغلال المختلفة الأشـكال والأحجـام والمنـاظر. وأصـحاب المـزارع يترقبون عطاء وافرا، ومضاعفة لثرواتهم، وتعظم آمـالهم كلمـا اقتـرب موعـد الحصـاد

للزروع والقطاف للثمار. وهي في هذه الحال كحال الحياة الدنيا بما تغري به من مباهج الحياة. تعرضها على البشر فينعمون بها وتغريهم لذائذها ليعظم تعلقهم بها، وتنطلق آمالهم إلى المستقبل لا يتوقعون انقطاعا لما هم فيه من خير ونعيم.

ويتحول المشهد في لحظة لا يتوقعها أحد ولا هي محددة بزمن، تأتي في الليل والناس نيام، أو في وضح النهار والناس في يقظة وجد. في هذه اللحظة يفجأ البشرية نوعٌ من أنواع الجوائح المهلكة، التي تدمر كل ما كان بهجة للأنظار، ومحطا للآمال. تسحقه حتى كأنه ما عمّر سطح الأرض ولا كان له وجود. وكذلك الحياة الدنيا، يأتيها في لحظة غير متوقعة ولا معروفة ما ينهيها، يستوي في ذلك الأفراد، والحياة الدنيا وما تحويه بصفة عامة وشاملة.

وعلى هذا النحو من البيان يعرض القرآن بصفة مفصلة لا مجملة، ما يغيب عن الإنسان، فيوقظ من كان له فكر ليحركه، فتتبين له الحقائق التي كانت خافية، فيجد في اختلاطه بالقرآن نورا يكشف له ما استتر، ويقدم له الموعظة الحسنة.

25-والله يدعو إلى دار السلام.....إلى صراط مستقيم.

هذا شأن من شؤون الخالق كشفت عنه الآية جمع بين أمرين:

أولهما: أن الله يدعو البشر المكلفين جميعا إلى اتباع طريق الصلاح بتطبيق أوامره واجتناب ما نهى عنه.

ثانيهما: أنه يختص بالمساعدة، من يشاء على الاستجابة والقيام فعلا بما تضمنته الدعوة العامة.

فالدعوة إلى الخير واجتناب الشر تشمل كل فرد من الناس، وبيان طريق الصلاح وطريق الفساد قام عليه دليلان من الوحي والعقل. وأما الاهتداء فعلا فذلك يحققه فضل الله، بعون من يشاء فيشرح له قلبهُ الخير، ويزيح عنه المعوقات.

26- للذين أحسنوا الحسنى وزيادة...هم فيها خالدون.

إن الذين تأملوا في آيات الله، وتفكروا فيها، ثم اهتدوا إلى فعل الخير فأحسنوا في نواياهم، وضبطوا أفعالهم على الوجه الذي هدت إليه الشريعة، وكانوا محسنين في سلوكهم وفي علاقاتهم بإخوانهم في الإنسانية، أعد الله الجنة جزاء لهم، ويكرمهم إكراما فوق ذلك. يحتمل أن الله يتجلى لهم فيشعرون أنهم في حضرته بدون حجاب، ولا توجد نعمة تفوق تلكم النعمة. ويحتمل أن تكون الزيادة شعورهم برضوان الله عليهم.

وحقق القرآن انشراح وجوههم وصفاءها، فلا تعلوها كآبة ولا ظلمة، وميزهم بأنه ملكوا الجنة ملكا لا يزول أبدا.

27-والذين كسبوا السيئات جزا سيئة...هم فيها خالدون.

ذكر القرآن في المقابل الذين اختاروا طريق الضلال، ومحضوا نشاطهم لفعل السيئات، بترك المأمور به، وفعل المنهي عنه، وتفضيلهم المنكرات على المعروف. يظهر العدل الإلهي الذي لا يظلم أحدا في مقابلة ما كسبوا، فيجازي كل سيئة بجزاء يناسبها. ويشرح هذا التماثل بأن تغشاهم ذلة وصغار، هي الكآبة التي تراها على وجوه المكروبين في حال اليأس. رؤوسهم منكسة وهم في ذهول، إذ لا يمنعهم مانع من عذاب الله ومقته. ثم جسمت الآية الهوان البادي على الوجوه، بتشبيه وجوههم، كأنها ألبست قطعا متراكمة من الليل الشديد الظلام، لم ينفذ لها أي نور. والخاتمة أنهم يميزون بتملكهم لجهنم تملكا يصحبهم أبد الأبدين.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

نحشرهم : نجمعهم.

مكانكم : قفوا حيث أنتم.

شركاؤكم : الأصنام التي كانوا يعبدونها.

زيلنا: فرقنا بينهم تفريقا قويا.

كفى: أجزأ وأغنى عن غيره.

تبلو : تختبر كل نفس ثمرة ما قدمت.

ضل عنهم : ضاع عنهم فلم يجدوه.

بيان المعنى الإجمالي :

يجمع الله البشر جميعا يوم القيامة، ويجمع مع المشركين الأصنام التي كانوا يعبدونها. ويفرض على المشركين وعلى أصنامهم أن لا يتحركوا من أمكنتهم، ويقطع الجامع الذي كان بينهما. ويواجه الأصنام بقوة يخلقها الله فيهم المشركين بقولهم: ما كنتم تعبدوننا، ويشهد الله عالم كل شيء أننا ما رضينا عبادتكم لنا، وما كنا عالمين بها. وفي هذا اليوم تعلم كل نفس حقيقة ما قدمته من خير أو شر وما

سنلقاه من الجزاء، وقد رجعوا إلى الله الذي هو مولاهم الحق، وضـــاع فـــلا أثـــر لـــه مـــا كانوا يعبدونه، مما كان كذبا مولدا من خيالاتهم.

بيان المعنى العام :

28--30 ويوم نحشرهم جميعا....على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون.

مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة فصلته الآيات الثلاث نتتبعه فيما يلي:

أولا: يوم القيامة يجمع الله البشر جميعا مـــن مـــواقعهم المختلفـــة، وتصـــوّر البشـــر مـــن لدن آدم إلى يوم انتهاء الحياة على الأرض، وقد أقبل كل واحـــد مـــنهم مـــن مكانـــه الـــذي استودع فيه، ليتم جمعهم بقدرة الخالق العظيم.

ثانيا: ثم بعد اجتماعهم يصدر الأمر الذي يخضـــع لـــه كـــل المحشـــورين، يصـــدر الأمـــر للمشركين ولأصنامهم: أن يلزموا مكـــانهم ولا يتحركـــوا. ويشـــير الأمـــر بـــالتوقف عـــن الحركة، يشير إلى أنهم مسؤولون عن جريمة اشتركوا فيها.

ثالثا: تنفذ القدرة الإلهية فتفرق بـــين المشـــركين وأصـــنامهم تفرقـــة كاملـــة، فيظهـــر مـــن هنا أن الرابطة التي كانت تجمعهم في الدنيا قد تمزقت ولم يبق لها أثر.

رابعا: ينطق الله الأصنام التي ادعـــى الكـــافرون أنهـــم شـــركاء لله، فيواجهـــون عابـــديهم المحشورين في صعيد واحد معهم بقولهم قولا صـــريحا: مـــا كنـــتم تعبـــدوننا فـــي الـــدنيا. وهذا التبرؤ الكامل منهم يوضحه ما يرد بعد. إذ الواقع أنهم كانوا يعبدونهم.

خامسا: لا يقصدون من نفـــي عبـــادتهم نفيهـــا أصـــلا، فـــإنهم عبـــدوهم وتقربـــوا إلـــيهم وذبحوا لهم القرابين، وادعوا أنهم يشفعون لهـــم عنـــد الله. ولـــذلك أكـــدوا نفـــي العبـــادة بالقسم عليها وقالوا: كفانا دليلا على ذلـــك أنـــا نشـــهد الله العلـــيم بكـــل مـــا يجـــري فـــي الكون كبيره وصغيره، أنا ما كنا راضـــين عـــن عبـــادتكم لنـــا، ولا أمرنـــاكم بـــذلك، ولا كنا شاعرين بأنكم تتوجهون إلينـــا بالعبـــادة. فـــأنتم تتحملـــون وزركـــم وجـــراءتكم علـــى الله.

سادسا: في هذا المشهد تنكشف لكل نفـــس انكشـــافا تامـــا مـــا قدمتـــه فـــي الـــدنيا، كأنهـــا تختبره فيصل بها الاختبار إلى إدراك يقيني لنتائج مـــا قدمتـــه فـــي الـــدنيا، ينكشـــف لهـــا الخير الذي هديت إليه، أو الشر الذي اقتحمته، وآثار ذلك من الكرامة أو المهانة.

سابعا: ينطق المشهد معلنا الحقيقة التي كـــانوا يجحـــدونها فـــي الـــدنيا ويكـــابرون فيهـــا: لقد رجعوا إلى الله متولي أمـــورهم وهـــو الحـــق، لا الزائـــف الـــذي تولـــد مـــن خيـــالهم الباطل. وذهبت ضياعا كل أكاذيبهم وصدع الحق وخابوا فواجهوا جزاءهم.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (32) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (34) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (36)

بيان معاني الألفاظ :

فسقوا : خرجوا عن طريق الهدى والحق.

تؤفكون : تصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل .

يهدي : يبين طرق الصواب ويدعو إلى العدل.

لا يتبعون إلا الظن : اقتصروا على الأخذ بالظن الواهي الذي لا أساس له.

الحق : الثابت، وهو معرفة الله.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه أسئلة ملجئة لكل من انصرف عن الاعتقاد في الله، تبرز تفرده بخصائص الألوهية، وعجز كل ما تصوره البشر من القوى التي عبدوها.

السؤال الأول: يلفت فيه القرآن النظر إلى أن الرزق الذي يأتي من السماء أو من الأرض هو من فضل الله، ولا أحد غيره يمكن الإنسان من رزقه. وكذلك حواس الإنسان هي ملكه سبحانه. وهو الذي يخرج الحي من الميت، والميت من الحي بقدرة عجيبة. ومن يرعى أمر العوالم فيسيِّرها على نظامها المحكم؟ لا أحد غيره. ألق عليهم هذه الأسئلة فإنهم لا يجدون إلا جوابا واحدا: الله فاعل كل ذلك. فقل لهم إذن ما لكم لا تتّقون ربكم وتدعون أن له شركاء.

ذلكم هو الله الحق الذي خلقكم وأحاطكم بألطافه؛ وهو الحق وحده، وإذا ثبت أنه هو الحق فكل تصور لرب سواه باطل، فإلى أي جهة تتجهون ولا تكون إلا ضياعا؟

ومن سنن الله أن الإنسان إذا ألف ارتكاب المعاصي فإنه يحجب قلبه عن الإيمان.

قل لهم يا محمد: هل يمكن لأحد من شركائكم أن يخلــق الكــون ثــم يعيــده بعــد فنائـــه؟ ولا جــواب لهــم. فعــاجلهم بـــالجواب الصـــحيح الواحـــد: إن الله هـــو المتفـــرد بالبـــدء والإعادة، فإلى أي جهة تنصرفون عن الحق فتتيهون في الباطل.

أقم عليهم الحجة وأسألهم، هل لأي واحد من شركائهم التمكُّن من هداية غيره ليسمو به إلى إدراك الحق والتزامه، وعجّل إليهم الجواب. هم أصنام لا يعقلون، والله هو المتفرد بالهداية.

وعجب كيف يعرضون عن اتباع المتفرد بالهداية ويتبعون من لا يملك اهتداء، إلا أن ينقل من مكان إلى مكان آخر، ما كان يدري مقدما إلى أين يسير.

عجب لكم كيف تحكمون بهواكم، على ما هو صحيح عقديا وما هو فاسد.

ولكن أكثرهم إنما يعتمدون علـــى ظنـــون لا أســـاس لهـــا، والـــبعض الآخـــر وإن عـــرف ضلاله إلا أنه لم يرفضه تغليبا لحظوظ ماديـــة عاجلـــة. والظـــن الزائـــف لا يقـــوم بـــديلا عن الحق الثابت. وسيجزون يوم القيامة جزاء عادلا تابعا لما علمه الله منهم.

بيان المعنى العام :

31- قل من يرزقكم من السماء والأرض ...أفلا تتقون.

يثير القرآن العقل الإنساني للتأمل فيما حولـــه. فيعـــرض فـــي هـــذه الآيـــة ومـــا يتلوهـــا توجيه الرسول الله ﷺ لإثارة أسئلة متلاحقة للمشـــركين. مـــا يجـــري حـــولهم، بـــل فـــي ذواتهم وهم يقفون عند ظواهرها ولا يتعمقون فيما وراء ذلك.

السؤال الأول: من يرزقكم من السماء والأرض؟

الرزق النازل من السماء ينال كل إنسان حظه منه، ويغفل معظم البشر عن أهميته، فلنتأمل فيه قليلا ليبدو لنا عظمته. ولنقف أولا أمام كوكب الشمس، والأرض واحدة من المجموعة الشمسية، نجد أن النبات ما كان لينمو لولا الشمس ولولاها لتجمد كل شيء على سطح الأرض، ومنها تستمد الطبقة الظاهرة منها القوة المتجددة، وتقوم الأشجار بالتفاعل مع أشعتها بتصفية الهواء، وتتبخر مياه البحار بواسطة حرارتها لتتكون منها السحب وتنزل الأمطار، وهي خزان لا يحد من الطاقة، تنتظر من الإنسان أن يسمو في معارفه ليستمد منها ما هو في حاجة إليه من الطاقة النظيفة. وبضيائها عرف الإنسان الكون وما يحويه من إنسان وحيوان وجماد، ولكل فرد حظه من نعمة الشمس، ولا يمكن له أن يحيا على وجه الأرض بدون رزقه وأخذ حظه من الشمس.

و من السماء تنزل الأمطار التي تقوم عليهـــا الحيـــاة، وبـــدونها تكـــون الأرض قاحلـــة لا تنبت زرعا ولا ثمارا ولا كلأ، ولا تعيش ماشـــية ولا حيـــوان. وكـــل فـــرد ينالـــه رزقـــه المقدر له من السماء.

و تفاعلُ الأرض مع السماء، كما أشرنا إليه قريبا، مقـوِّم حيـاة كـل إنسـان فـي قوتـه وسكنه ولباسه، وكل ما يساعده على الاستخلاف في الأرض.

السؤال الثاني: أم من يملك السمع والأبصار؟

ينتقل القرآن من العالم الخارجي إلى الإنسـان ذاتـه، فينصـب السـؤال علـى الحـواس الظاهرة التي يظن الإنسان أنـه ينفـرد بملكهـا، ويخـص منهـا السـمع والبصـر لقـوة ظهورهما. والحاستان لا يملكهما إلا الله، فهـو الـذي يوجـدهما ويحفظهمـا إلـى الأمـد الذي قدّره. ومن يحرمه السمع يولد أصم، ومن يحرمه البصـر يولـد أعمـى. بـل أبلـغ من هذا فكثيرا ما يصطدم شخص بغيره أو يسقط في حفـرة أمامـه، ويخبـر عـن نفسـه أنه لم ير ذلك مع سلامة بصره وتـوفر الضـياء. وكـذلك كثيـرا مـا تختـرق تموجـات الهواء المحيط، وبعض الحاضرين لا يسمع الصوت رغم عنفه، فإذا نبه أدرك.

السؤال الثالث: من يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟

الظاهرة المحيرة التي تفعل فـي كـل إنسـان وحيـوان ونبـات، هـي ظـاهرة المـوت والحياة، تتعاقبان عليها جميعا. يطعم الإنسان ممـا تنبتـه الأرض ومـن اللحـوم والألبـان بعد طهيها، فتدخل في جهازه الهضمي ولا حياة فيها، فينمـو بهـا، وتـدخل فـي تركيـب كل خلية من خلاياه فيتوالد من كل نوع منها خلايـا حيـة. ثـم يفـرز مـا لا حيـاة فيـه من الإفرازات والخلايا الميتة، وفـي كـل لحظـة مـن لحظـات حياتنـا يجـري علينـا الموت والحياة فتموت خلايا وتنشأ أخرى إلى الأجل المقدر.

السؤال الرابع : من يدبر الأمر ؟

يسير الكون على نظام دقيق محكم. فـي مكوّناتـه العظمـى كالكواكـب، وفـي جزئياتـه الصغرى التي لا ترى إلا بالمجاهر الإلكترونية، فمن يدبر أمـر هـذا الكـون فـلا يحيـد عن مساره لحظة ؟

اسألهم يا محمد عن هذه الظـواهر الأربعـة، وألجـئهم إلـى الجـواب عنهـا. إنهـم لا يملكون إلا أن يقولـوا هـي مـن خلـق الله. ثـم عقّـب تلـك الأسـئلة بسـؤال تعجـب واستغراب، إنه إذا كانت لا مندوحة لكم عـن الاعتـراف بـأن الله هـو الـذي يـرزقكم من السماء والأرض، وهو المتصرف في أنفسكم، وفـي المـوت والحيـاة، وهـو المـدبر للكون كله، فما لكم لا تتقونه بتنزيهه عن الشرك !

والعلمانيون في عصرنا يجيبون هـي الطبيعـة، ولـو سـألتهم مـا هـي هـذه الطبيعـة المختارة الفاعلة التي تنتظم العالم كلّه، وتعجـز عقـولكم وعقـول البشـرية جميعـا مـن أول تاريخها إلى الآن أن تجيب عن تلكم الأسئلة؟ يرددون الطبيعة ببغائيا.

32- فذلكم الله ربكم ....فأنى تصرفون.

ذلكم الجامع للقدرة التي لا تحد، المتصرف التصرف الحكيم العام، الذي لا يستغني عنه أحد منكم، هو الله، هو الذي تولاكم فأنشأكم ويسر لكم أسباب النمو والحفظ حتى بلغتم ما بلغتم وما يزال يحيطكم بعنايته (ربكم) وهو ربكم الحق لا ما تقيمه أخيلتكم من آلهة زائفة وباطلة. ويتقابل حسب القسمة العقلية الحاصرة، إما الحق وإما الضلال، فثبوت أن الله هو الرب الحق، فيكون كل إله عبد من دونه باطلا. ويتبع ذلك أن الحق لما كان واحدا، فمن انصرف عن طريق الحق لا يكون إلا ضالا. ذلك أن الحق واحد، والباطل متعدد. فمن كان مثلا في مفترق طرق قاصدا جهة معينة، فالطريق السالك به إلى قصده واحد، وكل الطرق الأخرى تشترك في أنها ضلال كلما أوغل فيها السائر ازداد بعدا عن القصد.

33-كذلك حقت كلمت ربك ....أنهم لا يؤمنون.

هذه سنة من سنن الله في مآل البشر المرتبط باستمرارهم على الخروج عن الطاعة وإيثارهم هواهم. يتأكد لكم بالمشاهدة ومتابعة أحوال المجرمين، أن الذين ألفوا المعاصي، والخروج عن حدود الله، أن قلوبهم تحجب بالمعاصي، وما تزال المعاصي تتراكم على بصائرهم وعقولهم حتى يضرب بينها وبين أنوار الهداية بحجاب صفيق، تنفصل به انفصالا كاملا عن الحق، فلا ينفذ من الإيمان أي شعاع من نور إلى قلوبهم. وهذه سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير: في إتباع الإقامة على المعاصي بالصرف الكامل عن الإيمان.

34-قل هل من شركائكم من يبدأ ..فأنى تؤفكون.

يواصل القرآن تلقين النبي ﷺ بالحجج الملجئة للمشركين إلى الاعتراف بفساد عقيدتهم، وإبراز تناقضهم. فيؤمر أن يسألهم سؤال إنكار مع تقرير، هل يوجد واحد من شركائكم الذين تعبدونهم وتعتمدون عليهم، من يدعي أنه بدأ خلق الكون، وأنه سيعيده بعد فنائه إلى ما كان عليه ؟وهذا سؤال ليس له إلا جواب واحد، فلذا عاجلهم بالجواب: وهو أنه لا أحد منهم يدعي هذه القدرة، وإنما هي لله وحده. ويعاجلهم بالاستغراب والإنكار: إلى أي جهة تتصرفون فإنكم تنغمسون في الباطل.

35-قل هل من شركائكم من يهدي ...فما لكم كيف تحكمون.

يتابع القرآن الاحتجاج على المشركين، وكشف قصر نظرهم، فيوجه النبي ﷺ إلى تبكيتهم بسؤالهم: هل يوجد واحد من الشركاء الذين تعبدونهم، له قدرة على توجيهكم إلى طريق الصلاح والخير ؟ فبعد أن أثبت عجز شركائهم عن التصرف بالإيجاد

والخلق المادي لأي شيء في الكون، أعقبه بعجزهم عما هـو أعلـى منزلـة وأكمـل فـي العلم والحكمة، وهو التفضل بهداية البشـر إلـى طريـق الهـدى والصـلاح، الـذي بـه يتمكن الإنسان من احتلال المكانة التـي تليـق بـه مـن الخلافـة فـي الأرض. ويتـولى القرآن الجواب لأنه لا جواب غيره، فيثبت هـذا الفضـل لله وحـده وينفيـه نفيـا قاطعـا عن الشركاء.

ثم يرتب على هذه الحقيقة، أن ما يجب على العقـلاء أن يتمسـكوا بـه هـو عبـادة مـن يهديهم إلى الحق وطاعته فيسمو بمداركهم، ويهـذب أرواحهـم. وهـو وحـده العلـيم بمـا يصلح أمرهم في العاجل والمآل.

أما الأصنام فإنها لا عقل لها تهتدي به، وليس لها جانـب روحـاني تسـمو بـه عـن درك المادة. وغاية ما يتحقق لها أن يأخذها المتحكم فيها فينقلها مـن مكـان إلـى مكـان آخـر، (إلا أن يهدى) وذلك الدرك السافل من العجز والبعد عن الهداية الروحانية.

ويتبع هذا البيان بالتعجب من مسـتواهم الفكـري والعقـدي، مـالكم ؟ أي شـيء تملكونـه من العقل حتى تنحـدروا لهـذا المسـتوى السـافل مـن التفكيـر الـذي هـداكم لعبـادة الأصنام! ثم أضاف إلى ذلك التعجب تعجبـا آخـر يؤكـده، كيـف تصـدرون الأحكـام التي تقتنعون بها، مع وضوح عجز وتبعية الذين اتخذتموهم آلهة.

36-وما يتبع أكثرهم إلا ظنا...عليم بما يفعلون.

و بعد أن أبرز التعجب من ضلالهم، أبان سبب ذلـك، أن أكثـرهم إنمـا يعتمـدون علـى أوهام لا أساس لها وخيالات لا تمت إلـى الواقـع والحـق بسـبب. وأثبـت القـرآن هـذا السلوك لأكثرهم، على طريقة القرآن في الإنصاف والضـبط فـي تسـجيل الواقـع، فـإن بعض المشركين متميزون بعقول راجحة وذكاء وفطنـة، لكـنهم عبـدوا الأصـنام لا عـن اعتقاد بألوهيتها، ولكن حرصا منهم على استبقاء مكـانتهم فـي القيـادة والزعامـة. وفـي ذلك إيقاظ للأتباع حتى لا يواصلوا الاغترار بهم.

وتختم الآية بقاعدة في التفكير: إن الظن الذي يسـتند إلـى الأوهـام والخيـالات لا يكـون بديلا عن الحق وعوضا عنه لا في قليل ولا في كثير.

ويهددهم القرآن بأن الله عليم بمن أشـرك عـن عمايـة وتقليـد، ومـن أشـرك لحظـوظ مادية وزعامة، تغليبا لذلك على إظهار الحـق والإيمـان بـه. والله يجـزي كـل واحـد منهم جزاء عادلا حسب ما أحاط به علمه سبحانه.

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ
مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (38) بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ
يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (39) وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُفْسِدِينَ (40) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ
وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (41) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟
لَا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا
يُبْصِرُونَ (43) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)

بيان معنى الألفاظ:

الافتراء : الكذب.

بين يديه : الكتب التي نزلت قبله.

التفصيل : التبيين بمختلف أنواعه.

لم يحيطوا بعلمه : لم يعلموه علما دقيقا.

التأويل : يطلق ويراد منه تفسير المعنى، ويطلق على اتضاح ما خفي من المعاني البعيدة أو الإشارة.

أنا بريء : لا تبعة علي، ولا مؤاخذة.

بيان المعنى الاجمالي:

إن هذا القرآن المعجز في نصه وفي مضمونه، لا يمكن أن يصدر عن بشر، فيكذب مدعيا أنه من إنشائه وينفيه عن الله. ولكن هذا القرآن متصل بالكتب السابقة، يصدق ما فيها من حقائق ويحقق البشارة التي وردت فيها بمجيء محمد ﷺ ويبقي ما الحقّ إبقاؤه وينسخ ما الحقّ نسخه. لا شك في أنه من عند الله.

إن الكفرة يقولون: إن محمدا افترى القرآن. قل لهم: إذا كان هذا الكتاب من طوق البشر فأتوا بسورة تساوي سورة من سوره، واستعينوا بمن شئتم من الفصحاء والأذكياء، ولكنكم عاجزون فأنتم كاذبون فيما تدعون .

هم رفضوا قبول القرآن قبل أن يتجمع لديهم ما يمكنهم من علـم مـا جـاء فيـه، وكـذبوه قبل أن يتابعوا ما نزل في شرحه والكشف عن فلسـفته، شـأنهم فـي ذلـك شـأن الـذين كذبوا من الأمم السابقة؛ فانظر حقيقة مآلهم بسبب ظلمهم.

ومن هؤلاء الكفرة من وصل في باطنـه إلـى الاقتنـاع بـالقرآن، ولكـن العنـاد حرمـه اتباعه. ومنهم من أعرض عنـه مـن البدايـة. وكلاهمـا مفسـد فـي عقيدتـه وسـلوكه، وربك لا يخفى عليه شيء من فسادهم وسيجازيهم بما قدموا.

وإن واصلوا تكذيبك فقل لهم: إني ماض في سبيلي سـألقى جـزاء مـا عملتـه، وسـتلقون جزاء عملكم. وأنا غير مؤاخذ بما تعملونه مـن شـر، وأنـتم لا تحصـلون علـى شـيء مما أعمل من خير.

ثم إن الكفرة يستمعون إلى ما تبلغهم إياه من الـوحي، ولكـنهم لعنـادهم لـم ينتفعـوا بـه شأنهم شأن من كان أصم لا يسمع، ومـع ذلـك فقـد العقـل فـلا تتفـتح ملكاتـه ليـدرك بنباهته ما تقوله له. ومنهم من ينظر في مسـيرتك فـي الحيـاة البالغـة درجـة الكمـال، ولكنه لم يحس بشيء فهو قد جمع بين عمى البصر وعمى البصيرة.

وسيجازيهم الله بما قدموا، وهو ما يؤكد أن الله لا يظلمهـم، ولكـنهم هـم الـذين ظلمـوا أنفسهم إذ أغلقوا عقولهم وحواسهم وقـدموا شـهواتهم، فخسـروا الطمأنينـة فـي الـدنيا والعاقبة الحسنة يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

37-وما كان هذا القرآن أن يفترى...لاريب فيه من رب العالمين.

يواصل القرآن الرد على المشركين المشككين في القرآن. وقد تضمنت الآيات السابقة في هذه السورة تفنيد مزاعمهم، والكشف عن الشبهات التي أضلتهم وحرمتهم توجيه العقل إلى طريق الهدى. وجاءت هذه الآية مؤكدة لتلكم المضامين بطريقة جديدة. فأثبتت مستحضرة القرآن أمام الناظر بالإشارة إليه (هذا) أنه إذا تأمل فيه المتأمل وتعمق فيما تضمنه، وتتبع أحكامه وآدابه، وما قصّه من أخبار الماضين وما أدمج فيها من حكم وعبر، وما تأسس به من منهج فكري متكامل، وطريقة صياغة ذلك كله صياغة تميزت بأنها معجزة :

أولا: بأن جعلته صادقا في زمن نزوله حسـب المسـتوى الـذهني للبشـر وقـت نزولـه، وصادقا كلما تقدمت المعرفة الإنسانية ليتجدد الفهم تبعا لذلك.

وثانيا: من حيث المستوى التعبيري السـامي إلـى مرتبـة معجـزة، لا يسـتطيع أحـد لا في زمن الوحي ولا فيما تلاه من أزمان أن يـأتي بكـلام يسـاويه أو يدانيـه فـي الدقـة والفصاحة والجمال.

إن ما جمعه القرآن يقوم شاهدا من ذاته، علـــى أنـــه منـــزل مـــن عنـــد الله، ولا يعقـــل أن يؤلفه أحد سواه، أو أن يدعي كاذب أنه كلام أحد غير الله .

وإذ انتفى أن يكون مفترى من دون الله فما هو إذن هذا الكتاب؟

هو أولا: يصدق الكتب السابقة التي أوحى الله بهـــا إلـــى رسلـــه، فيثبـــت مـــا هـــو حـــق منها، وينفي ما أضـــافه النـــاس مـــن أســـاطير، ومـــا حرفـــوا مـــن أحكامـــه أو عقائـــده. ويصدق ما أخبرت به من البشارة به، وينبّهُ الأتباع على وجوب الإيمان به.

وثانيا: هو يفصل ما تضمنته الكتب الســـابقة تفصـــيلا يثبـــت مـــا أراد الله بقـــاءه، ونســـخ ما اراد الله نسخه، ويبين ما أجمل فيها، ويهدي للفهـــم الســـليم فيمـــا كـــان متشـــابها فيهـــا. كما قال تعالى: (وأنزلنا إليك الكتـــاب بـــالحق مصـــدقا لمـــا بـــين يديـــه مـــن الكتـــاب ومهيمنا عليه)[1] -

وإذ وضحت طبيعة هذا الكتاب وخصائصه، فالنتيجـــة الحتميـــة لـــذلك أنـــه لاشـــك فـــي أنه منزل من عند الله رب العالمين، القادر على كـــل شـــيء، لا يرتـــاب فـــي ذلـــك مـــن كان سليم العقل والإدراك.

38- أم يقولون افتراه .....إن كنتم صادقين.

ارتقى القرآن في إبطال ما يدعيه الكافرون .وكانت طريقته في ذلك:

أولا: أن كشف عن دعواهم الباطلـــة دالا علـــى انتفـــاء أن يكـــون لهـــا أي نصـــيب مـــن الواقع، متعجبا من مستواهم الفكري الذي انحـــط بهـــم إلـــى ادعـــاء أن النبـــيﷺ افتـــراه من عنده ناسبا له إلى الله.

وثانيا: بتحدّيهم أن يأتوا بسورة مثـــل ســـور القـــرآن، وأن يتأيـــدوا بمـــن شـــاؤوا لتحقيـــق ذلك، ولهم أن يســـتعينوا بالبلغـــاء والفصـــحاء، والأذكيـــاء والحكمـــاء مـــن كـــل القبائـــل والمقدمين في البيان، ليأتوا بسورة تســـاوي نظمـــه ومحتـــواه، إن كـــانوا صـــادقين فيمـــا زعموه أنه مفترى. فعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله يقـــوم حجـــة مقحمـــة علـــى أنـــه من عند الله لا دخل لمحمد فيه، وهو معجزته المثبتة لصدقه.

39 -بل كذبوا بما لم يحيطوا...عاقبة الظالمين.

ترقت الآية مشنّعة على الكافرين، بالكشف عن جهلهم وعجلتهم وتنظيرهم.

أولا: بادروا بالتكذيب دون تبين وإعمال نظر، وتعمـــق فيمـــا جـــاءهم بـــه رســـول الله ﷺ، فإن ما أنزل عليه يتضمن صلاح الدنيا والآخـــرة، ويقتضـــي تغييـــر سلـــم القـــيم الـــذي

---

[1] سورة المائدة آية 48

كان قدرا مشتركا بينهم إلى سلم قيم جديد تبني الحياة عليه. وهذا أمر ليس بسيطا، ولكنهم لعنادهم بادروا بالتكذيب قبل أن يعلموا بدقة مضامين القرآن.

ثانيا: استعجلوا فلم ينتظروا ما يرد من بيان لمتشابهه، وكشف عن الأغوار البعيدة لفلسفته، وتوضيح لما أشكل عليهم فهمه.

ثالثا: هم بهاتين الصفتين كغيرهم من الأمم السابقة الذين كذبوا بالحق لما جاءهم، فسلّط الله عليهم عقابه. وفي ذلك وعيد بالعذاب للمكذبين، وأنه سيحل بهم ما حل بالأمم السابقة، إمضاء لسنته سبحانه في جزاء المكذبين. وفي ذلك أيضا تسلية للنبي ﷺ بأن ما يلقاه قد لقيه إخوانه المرسلون من أممهم. وبناء على ذلك فانظر يا محمد في آثار المكذبين الذين خلت ديارهم وتشتّت شملهم وساءت عاقبتهم .

40- ومنهم من يؤمن به...بالمفسدين.

وحقّق القرآن أن المكذبين ليسوا نمطا واحدا، فمنهم الدهماء الذين رفضوه بمجرد ما سمعوه، ومنهم من غلب ما في القرآن من حق عقله فصدّقه في الباطن، لكنه لتغليبه حظوظ نفسه العاجلة، وإيثاره لشهواته على الاستقامة التي يدعو إليها القرآن انحاز إلى المكذبين، فكلا الفريقين مفسد بتكثيره للكافرين، مفسد لعدم انضباطه في سلوكه بالفضيلة. والله يعلم كفرهم كما يعلم ما قاموا به من فساد في الكون، وسوف يجزيهم، فكان ختام الآية يُبْطِنُ تهديدا.

41- وإن كذبوك فقل لي عملي...مما تعملون.

بعد هذا البيان والإلجاء والكشف عن دخائل نفوسهم فإن واصلوا تكذيبك فأعلن مفاصلتك عنهم مفاصلة يتحمل بها كل فريق نتائج أعماله. إنها مصارحة بأنه ﷺ مطمئن إلى نتائج أعماله وجزاء ما قدم. وأنذرهم بأنهم سيلقون أيضا نتائج أعمالهم. وأنكم لا تؤاخذون بما أعمل، وكذلك من الإنصاف أنه لا تبعة علي من أعمالكم، فأنا بريء من كل مفاسدكم لا يؤاخذني ربي بما تفعلون.

42-43، ومنهم من يستمعون إليك...لا يبصرون.

تتبعت الآيتان أحوال الكافرين في مقابلة ما يأتيهم من الوحي فقسمتهم إلى قسمين:

أولا: الذين يقبلون عليك فيستمعون ما أنزل من القرآن والهدى، ولكنهم لعزمهم على الرفض لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينفذ شيء من كلامك إلى قلوبهم التي قصدوا إلى إقفالها، فهم بذلك قد استووا مع من كان أصم لا يسمع، وعجب منهم إذ أعماهم التعصب إلى هذا الحد. وبالغ على عدم انتفاعهم، بأنه وإن كانوا بإعراضهم

كفاقدي السمع، فإنه أيضا ليست لهـم عقـول، ذلـك أن الأصـم إذا كـان ذا فطنـة فإنـه كثيرا ما يفهم من قرائن الكلام ما يتأثر به فيعلق بذهنه مراد المتكلم.

ثانيا: الذين يعيشون معك ويشاهدون سمو أخلاقك، وكمال أدبك، وحسن معاملتك، وبصفة عامة طريقتك في الحياة، ينظرون إلى كل ذلك ولكنه لا يفضي بهم إلى الإيمان بك، والاهتداء بهديك والتأسي بك، وبذلك فهم ومن فقد بصره سواء، بل هم مغرقون في الضلالة، لأن بصيرتهم بسبب عنادهم قد غلفت بحجاب فلا ينفذ إليها نور الحق.

44- إن الله لا يظلم الناس ...أنفسهم يظلمون.

ما قدّره الله للنـاس الـذين أعرضـوا عـن الهـدى وكـذبوا الرسـل، وأقفلـوا عقـولهم وأسماعهم، ولم يستفيدوا مما نقلته إليهم أبصارهم، فتـراكم علـى بصـائرهم مـن العنـاد والفساد حجابا صفيقا، أولئك سينالهم نصيبهم من العـذاب. ومـا ظلمهـم الله إذ قـدر لهـم المصير الخاسر في جهنم. ولكنهم هم الـذين ظلمـوا أنفسـهم، إذ رزقـوا العقـول التـي بها يدركون الحقيقة ورزقوا الحواس التـي بهـا يهتـدون، ولكـنهم آثـروا متـاع الحيـاة الدنيا من الرئاسة أو التقليد والشهوات فعطلوها، فهم الذين ظلموا أنفسهم.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

يتعارفون بينهم : يعرف كل واحد الآخر.

شهيد : عالم علم تحقيق.

لا أملك : لا أستطيع تحصيل نفع أو إبعاد ضر.

بيان المعنى الإجمالي :

عرف القرآن أن مما يشعر به الكافرون يوم البعث، ظنهم أنهـم مـا مكثـوا فـي قبـورهم إلا وقتا قصيرا، وأنه يعرف بعضـهم الـبعض فيـرون سـوء حـالهم جميعـا. ويوقنـون بأنهم خسروا آخرتهم بتكذيبهم بالوحي، وأنهم ساروا في حياتهم على غير هدى.

و سيحل بهم العذاب، إما في حياتــك فــي الــدنيا كمــا حــرمهم الغيــث ســبع ســنوات متوالية، وكما انهزموا في بــدر؛ وإن الله لا يفلــتهم. فــإذا توفــاك الله، فــإنهم لا ينفلتــون من قبضة الله. وهم راجعون إليه جميعا يــوم القيامــة، ليــوفيهم حســابهم؛ والله لا يخفــى عليه شيء من أعمالهم.

و سنة الله أن يبعث في كل أمة أراد هدايتها رسولا؛ فــإذا جــاء الرســول، كــان حســابهم على موقفهم من هدايته حسابا عادلا، يُجــزى فيــه الصــالحون الجــزاء الحســن ويهــان فيه الكافرون بسوء ما قدموا، دون أن يُظلم أي فرد من المبعوث إليهم.

ويتوجه المشركون بسؤال يرددونه بــين الفينــة والأخــرى يقولــون: متــى هــذا الوعــد الذي تهددنا فيه ؟ويُعلم الله رسوله الجواب: أن الله قدر الكــون ومــا يجــري فيــه. وهــذه العقيدة مستقرة في نفسي، فأنا موقن بــأني لا اســتطيع جلــب مصــلحة لنفســي ولا دفــع ضر عنها، وأنا لا أعلم إلا ما علمني ويسره لي، فمــن بــاب أولــى وأحــرى أن لا أعلــم متى ستحل عليكم نقمه. وكل أمــة لهــا أجلهــا الــذي ســيظهر فيــه مــا قُــدّر لهــا، ولا تستطيع أن تؤخر الأجل عن موعده ولا أن تقدمه.

بيان المعنى العام :

45- ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا...وما كانوا مهتدين.

من أهم ما هدد به القرآن الكافرين أنهم سيبعثون يوم القيامــة بعــد المــوت. فكــانوا تــارة ينكرونه مستبعدين أن تعود الأجســام بعــد تحللهــا إلــى الحيــاة، وتــارة يســألون عــن ميعاده. وهذا التهديد يترك أثرا فــي نفوســهم ويــدخل عليهــا الحيــرة. وفصــل القــرآن كثيرا مما سيجري يوم القيامة. ومن ذلك مــا جــا فــي هــذه الآيــة التــي أثبتــت أن الله سيحشر المكذبين يوم القيامة، وأنهــم يشــعرون كأنــه لــم يمــض علــى مقــامهم فــي قبورهم سوى ساعة من النهار، وأنه يعرف بعضــهم بعضــا، ويــذكر كــل واحــد مــنهم مخازيه ومخازي قرينه. وتعلق الآية على مآل الــذين كــذبوا بيــوم البعــث بأنــه خســارة تامة إذ لم يستعدوا له، وأنهم انحرفوا عن الهدى وسلكوا مسالك الضلال.

46- وإما نرينك ...على ما يفعلون.

توجه القرآن بالخطاب للرسول ليؤكد له أن الله لا يفلــت الــذين أعرضــوا عــن الإســلام، وأن هذا الوعيد بالانتقام له حالتان:

الحالة الأولى: .أن الله يسلط عليهم أنواعا من العذاب فــي الــدنيا، فيــرى النبــي ﷺ مــا يحل بهم من المقت والتنكيل، كمــا ســلط علــيهم القحــط ســبع ســنين متواليــة، وكمــا

هزمهم شر هزيمة يوم بدر، وقتل صناديدهم وسبى مـنهم مـن سـبى وغـنم مـا غـنم، وشاع انكسارهم في القبائل العربية.

الحالة الثانية: أن يواصل التنكيل بهـم بعـد أن يتوفـاه الله، فـلا يشـهد مـا يحـل بهـم، فالآية تطمئنه على أن ملاحقة العذاب بهم موصـولة بعـد انتقالـه إلـى الرفيـق الأعلـى. وأن الدين برعاية الله محميٌّ من أعدائه. وأنهم إن أفلتـوا مـن العـذاب فـي الـدنيا فـإنهم صائرون إلى العرض على الله يوم القيامة، والله عليم العلـم الـدقيق الشـامل بمـا كـانوا يفعلون في الدنيا، وهو وعيد بأنه سيسلط عليهم الجزاء العادل.

47-ولكل أمة رسول...وهم لا يظلمون.

جرت سنته سبحانه أن يبعث في الوقت الـذي يريـد، فـي الأمـة التـي تتعلـق إرادتـه بهدايتها، أن يبعث فيها رسولا، فيتحولون من عدم المؤاخـذة علـى أعمـالهم، إلـى حالـة الرشد الإنساني بمعرفة الحـق مـن لسـان الرسـول، والمحاسـبة علـى العمـل حسـب الأحكام التي يبينها ويفصلها. ويتبع ذلك أن الناس ينقسمون إلى قسمين:

قسم: يؤمن بالرسول ويتبع ما جاء به فتكتب له النجاة والفوز برضوان الله والكرامة.

وقسم: يرفض ما جاء به الرسول ويكابر في الحق فيخسر دنياه وآخرته.

وهذا هو القضاء بالعدل بين الرسول وبين الأمة التي يبعث فيها. وقد تحقق انتفاء الظلم عن المبعوث إليهم؛ فالمؤمنون حسْنُ جزائهم على صالح أعمالهم ونقاء عقيدتهم موفور، وما يلقاه الكافرون من العذاب لا ظلم فيه، لأنهم لم يؤاخذوا إلا بعد البيان وإقامة الحجة.

48—49، ويقولون متى ..ولا يستقدمون.

يسجل القرآن بعض ما كان يدور بين الكفرة وبين الرسول ﷺ، فيعرض شبهاتهم وحاصل ما كذبوا به. يقولون لرسول الله ﷺ: متى سيحصل ما تعدنا به من العذاب في الدنيا ؟ ومتى يكون عذاب يوم القيامة، أي متى يأتي هذا الميعاد ؟ ويقرنون سؤالهم بإنكار حقيقة ذلك الوعد المذكور في الآية السابقة بإلحاقهم: إن كنتم صادقين فيما سيحل بنا. ويلقن الله رسوله الجواب المعبر عن النظرة الشاملة للكون، وما استقر في قلبه تبعا لذلك، فيأمره أن يقول لهم: إني لا أستطيع أن أدفع ضرا عن نفسي، ولا أن أجلب لها نفعا، إلا إذا شاء الله وتعلقت إرادته بمساعدتي على ذلك. ففي الحقيقة الجالب هو الله والمانع هو الله. وإذا كنت عاجزا عن الاستعداد بما ينفي عني يقينا الضر في المستقبل، أو أن يجلب لي النفع والرفاه ؛ فإن الحقيقة النابعة من ذلك أن الأمر كله بيده. وأنه هو وحده العليم بما سيحل بكم ومتى سيحل بكم. وإذا كان سبحانه لم يطلعني عليه، فجواب سؤالكم افتيات على الله، وسوء أدب منكم بسؤالكم عنه.

ويتبع هذه الحقيقة أن الله قدر لكل أمة أجلا، سيأتيها في هذا الأجل ما قدره لها من نفع أوضر. وأنه إذا حان الأجل المكتوب في علمه تحقق ما قدره وسطره. وإنه كما لا يمكن للإنسان أن يؤخر ما قدر له عن أجله، فكذلك لا يستطيع أن يقدمه عن أجله، سواء أكان تكريما أم عقابا. إذ كل ذلك هو مقتضى الحكمة الكاملة.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

بيان معنى الألفاظ :

بياتا: باغتهم بالليل .

الذوق : الإحساس.

أحق هو : هل هو ثابت لا شك فيه.

إي : حرف جواب لتحقيق ما تضمنه سؤال سائل.

المعجزون : الغالبون.

افتدت : تكلفت فداء نفسها.

بيان المعنى الإجمالي :

ما ذا تظنون إذا وقع عليكم عذاب الله الموعود به بغتة بالليل أو النهار؟ ما ذا يفيدكم استعجالكم؟ وفوق هذا عند وقوعه فعلا يقال لكم أتؤمنون به الآن وقد كنتم به تكذبون، لأن استعجالهم للعذاب مظهر تكذيب.

ثم يواجه الذين ظلموا بالشرك والعناد يوم القيامة بهذا الخطاب الدال على التنكيل بهم: ليكن إحساسكم بالعذاب على أشد ما يكون الإحساس، هو العذاب الذي لا تخرجون منه. وهو جزاء عدل لما كسبتم في حياتكم الدنيا من الفساد.

ويسألونك مظهرين البله، هل إن وقوع عذاب الخلد ثابت؟ أجبهم إي! نعم. هو ثابت ولا تستطيعون الانفلات منه.

ويوم القيامة تكون الحالة النفسية حالة اليـأس، يـودُّ كـل مشـرك لـو أمكنـه أن يفـدي نفسه من العذاب بتقديم مـا حوتـه الأرض مـن خيـرات، وإن ذلـك لا يفيـده لـو كـان يملكها. ويصحب حالة اليأس هذه كبـت لأحاسيسـه، فيأكلـه النـدم الـذي لا يسـتطيع أن يصرح به. ويصدر الحكم العادل على كل مشرك بدون ظلم.

ويؤكد القرآن ما اهتم به أعظم اهتمـام، فيـذكِّر البشـر بأنـه وحـده مالـك مـا تحويـه السماوات والأرض. وملكه العظيم هذا يحقق أن مـا وعـد بـه مـن الحشـر والجـزاء لا ريب فيه. ولكن الذي أعمى بصائر المشركين هـو الجهـل. إن مـن علـم بالتأمـل فـي هذه الأكوان، النظام الدقيق الذي بنيت عليـه، لا يمكنـه أن ينسـب لله شـريكا أو يكـذب بما أخبر به. وأقرب شيء من الإنسان هو حياتـه وموتـه، فـلا أحـد يـدعي التصـرف فيهما، إذ هما له وحده سبحانه.

بيان المعنى العام :

50←51- قل أرأيتم... كنتم به تستعجلون.

سأل الكافرون عن موعد العذاب في الآيـة (49) وهـو سـؤال يتضـمن أنهـم سـيؤمنون يوم تحقق العذاب الموعود بـه. وبنـاء علـى ذلـك فهـم يسـتعجلون حصـول العـذاب ليؤمنوا. وتنبههم هذه الآية إلى شدة غبـائهم، فإنـه إذا وقـع العـذاب فإنـه لا يكـون إلا عذابا ماحقا يستأصلهم ولا يمهلهم حتى يؤمنوا. وأدمـج فـي الجـواب مـا يفيـد تحقـق وقوع العذاب بغتة إذ أنه سيأتيهم إما بالليل وإمـا بالنهـار. ومعنـى مـا ذا يسـتعجل منـه المجرمون ؟ أي إنه لا شيء يصـلح لاسـتعجال المجـرمين للعـذاب، لأن مثـل هـذا لا يستعجل بل يطلب تأخيره، وفي التعبير عـنهم بـالمجرمين مـا يفيـد اسـتحقاقهم للعـذاب لإجرامهم بالشرك.

ثم إنه فوق ذلك إذا وقع العذاب أتؤمنون به ؟ ويبرز مـن المشـهد مخاطـب يقـول لهـم سؤال إنكار عليهم: أتؤمنون به الآن، وقد كنـتم بـه مكـذبين تسـتعجلونه؟ فيجمـع بـين العذاب وبين التقريع على العناد والمكابرة.

52- ثم قيل للذين ظلموا..تكسبون.

وعذاب آخر أشد؛ يوم يواجه الـذين ظلمـوا بالشـرك والمكـابرة والعنـاد، وهـذا مشـهد من مشاهد يوم القيامة، ولعذاب الآخرة أشد، فيقـال لهـم تنكـيلا بهـم: لـيكن إحساسـكم بالعذاب إحساسا بليغا، وإنكم لا تجزون إلا جزاء وفاقا لمـا كسـبتم مـن الفسـاد، فكـرتم فيه ونفذتموه فأقمتم على الباطل بإرادة وإصرار.

53 - ويستنبؤونك أحق...وما أنتم بمعجزين.

تسجل هذه الآية صورة أخرى من مواقف المشـــركين. حاصـــلها أنهـــم تقـــدموا لرســـول الله ﷺ سائلين ليعرفهم: هل إن وقوع عـــذاب الخلـــد الـــوارد فـــي الآيـــة الســـابقة حـــق لاشك فيه؟

عرف القرآن الرسول بالجواب الذي يرد عليهم ما تظـــاهروا بـــه مـــن البَلَـــه، قـــل لهـــم: إي ! نعم – إنه حق لا شك فيه، وأُقسِمُ على هذا بربي ســـبحانه الـــذي لا يقســـم بـــه بـــار إلا علـــى مـــا كـــان حقـــا .وردا علـــى مظهـــر بلههـــم : إنكـــم مقهـــورون مغلوبـــون لا تستطيعون إعجاز القدرة الإلهية عن تنفيذ ما تعلقت به الإرادة القديمة.

54- ولو أن لكل نفس ظلمت...وهم لا يظلمون.

هذا تحذير يحذر به القرآن المشركين، لعلهم يحـــذرون المـــآل الصـــعب الـــذي ينتظـــرهم. إنه لو ملكت كل نفس، رفضت الإيمان واختارت الشـــرك، لـــو ملكـــت مـــا فـــي الأرض جميعا من خيرات وثروات، لو تحقق لها ذلك فإنهـــا تـــودّ أن تقدمـــه لتفـــدي نفســـها مـــن العذاب، وهذا وإن كان فرضا كما يفـــرض المحـــال، إلا أنـــه لا يقبـــل منهـــا ولا يخفـــف من عذابها شيء. وفوق ذلك هم لا يستطيعون الجهـــر بمـــا يحصـــل فـــي نفوســـهم مـــن الندم عندما يرون العذاب، هم مكبوتون عاجزون عـــن التنفـــيس عمـــا يحســـون بـــه مـــن الأسى عندما يشاهدون الأهوال. ويصدر الحكم البـــات الـــذي لا مثنويـــة فيـــه علـــى كـــل منهم، الحكم العادل الذي لا ظلم فيه.

55 –56، ألا إن لله ...وإليه ترجعون.

هاتان الآيتان تثبتان وتؤكدان كل ما جاء في الآيات السابقة. فما سبق من وعيد للمشركين، وبعثهم يوم القيامة وحسابهم، وكشف ما أراد كشفه مما سيقع في ذلك اليوم، يقوم دليلا على ذلك مبعدا كل شك فيه: أن الله مالك السماوات والأرض، فمن تصرف في هذا الكون العظيم الذي يظهر الإنسان فيه ضئيلا ضعيفا، يكون قادرا على تنفيذ كل ما ورد في الآيات السابقة. وأن ما أخبر به هو حق ثابت غير قابل للنفي. وما ارتياب أكثر المشركين في صدقه إلا أثر من آثار الجهل بحقائق الأمور. وتعلق الحكم بالأكثر لأن بعض المشركين في الظاهر، المندمجين مع بقية المشركين، يعلمون الحقيقة ولكن لا يظهرون بمظهر التصديق تغليبا لحظوظ الدنيا التي يخشون ذهابها لو أعلنوا إيمانهم.

و أكد ما سيلقاه المشركون باســـتفتاح الجملـــة ب (ألا) المنبهـــة: إن وعـــده بحشـــرهم ثـــم بعذابهم حق لا شك فيـــه. ويـــدخل البشـــر تحـــت ســـلطانه بتفـــرده بالإحيـــاء والإماتـــة، يجريهما بإرادته وقدرته على كل إنســـان، ولا يســـتطيع أي كـــائن أن يتـــدخل فـــي بعثـــه للوجود ولا في بقاء وجوده.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

جاءتكم : بلغتكم.

الموعظة : النصح والتحذير مما يضر.

الصدور : جمع صدر والمراد به النفس.

الفرح : السرور الشديد.

يجمعون : يحصلون من المال.

بيان المعنى الإجمالي :

يوقظ الله البشر جميعا ليقدروا ما أنزل عليهم، المحرك لقلوبهم فكشف لها عن الخير ليفعلوه وعن الشر ليبتعدوا منه. والمحصّن لعقولهم وملكاتهم من الزيغ والضلال، والمعرّف بطريق السلامة في الدارين، والمساعد على السير فيه.

إن جميع ذلك هو من فضل الله ورحمتـه بكم، فكونوا مسرورين أتم السرور بما جاءكم. وإن ذلك أفضل مما يجمعه المشركون من الأموال.

إن تحكم المشركين في ما يجمعونه من الأموال، التي أنزلها الله وحده عليهم، ولا دخل لآلهتهم ولا لقدراتهم في قليل ولا كثير فيما حصلوا عليه من الرزق، قابلوه بالتحكم التعسفي فحرّموا ماشاؤوا وأحلّوا ماشاؤوا. قل لهم ملجئا هل اعتمدتم في التحليل والتحريم على إذن وصل إليكم من الله، أم أنتم تكذبون على الله! وإذا كان الله لم يأذن لهم، فهم كذبة مفترون.

وما هو المصير الذي يظن الكاذبون أنهم مقبلون عليه يوم القيامة ؟ إن الله هو المتفضل على العباد وفضله لا يحد، ولكن أكثر الناس ينكرون فضله ولا يشكرون نعمه، والمؤمنون يقدرون نعم الله عليهم فيشكرونها معترفين بالفضل.

بيان المعنى العام :

57- يا أيها الناس ...ورحمة للمؤمنين.

هذا نداء للبشرية في جميـــع الأعصـــار ومتتـــابع الأزمـــان، يلفـــت فيـــه أنظـــارهم إلـــى النعمة التي أنعم بها عليهم بإنزال القرآن الذي بلّغهـــم إيـــاه رســـول الله ﷺ. وفصّـــل هـــذه النعمة في المقومات التالية التي اختص بها:

أولا: هو موعظة، والموعظة تقوم على النصح العام والخاص لمن يتوجه المخاطب بها. وبذلك فهي تشمل بيان ما يُمكنُ من النجاة والفوز والطريق السالك لبلوغ ذلك، وتشمل أيضا التنبيه على ما يعترض السالك من المهالك التي تنحرف به عن بلوغ قصده. فهي بذلك بيان للحقائق وأوامر ونواه. وهذه الموعظة متميزة بأن الذي يعظ بها هو من يعلم عواقب الأمور كعلمه بحاضرها، فأمن المستجيب لها على تحقيق غايته أمر لا شك فيه. مسديها هو الذي أحاطكم بألطافه بما تشير إليه كلمة الرب من معاني الألطاف والعناية.

ثانيا: شفاء لما في الصدور. والمراد بالصدور الملكات التـــي تســـيِّر الإنســـان فـــي حياتـــه من روح وعقل وعواطف وغرائز. وكـــل واحـــدة مـــن هـــذه الأربعـــة معرضـــة للســـقام والانحراف. والعلاقة بينها علـــى التغالـــب الـــذي يحـــرم الـــنفس الســـكينة. فـــالعواطف والغرائز تدفع بقوة إلى الأثرة والضلال والشر، والعقـــل قـــد تبـــرق لـــه مســـالك الخيـــر فيستقيم في تفكيره، وقد تحجبه العوائد المنحرفـــة والمجتمـــع وغوايـــة الشـــيطان فيضـــل، والروح تصفو بمقدار ما ينغمس صاحبها في الخير والطهر، وتظلم في عكس ذلك.

إن هذه الأسقام التي تتعرض لها الملكات الإنسانية تجد شـــفاءها فيمـــا جـــاء بـــه القـــرآن، فهو حصانة من الاختلال المهدد لنظام تلكم القوى وتوازنهـــا. ومـــن ناحيـــة أخـــرى فهـــو الذي ينبه إلى المرض، ويصف الدواء الشافي، ويصف للمـــريض مـــا يجـــب عليـــه فعلـــه وما يجب أن يمتنع منه حتى يشفى.

ثالثا: هو هدى .والإنسان في الحياة كسائر بلـــغ مفتـــرق طـــرق متســـاوية فـــي الظـــاهر، كلها تضله إلا اتجاه واحد يبلغ به قصده إن هو اتبعه. ولمـــا كانـــت الغايـــة التـــي ينشـــدها السائر في حياته هي السعادة، وحصولها أو ضياعها أمـــر لا يعلمـــه إلا مـــن تمكـــن مـــن معرفة الغيب، ومعرفة الغيب لله وحده، فليطمئن الإنسان إلـــى أنـــه إن طبـــق فـــي حياتـــه المنهج القرآني أنه سيحقق سعادته.

رابعا: هو رحمة. وقد بينا في سورة الفاتحة هـــذه الرحمـــة العامـــة الشـــاملة. ولكـــن لا يعيش في ظلالها الوارفة وفي أمنها إلا المؤمنون.

58-قل بفضل الله...مما يجمعون.

اهتم القرآن بمضمون هذه الآية اهتماما خاصا، فافتتحهـــا بـــأمر النبـــي ﷺ أن يقـــول مـــا ورد فيها ويبلغه. والنبي ﷺ لا يكتم شيئا مما يأتيـــه مـــن الـــوحي، فكـــان الأمـــر بـــالقول

مبرزا للاهتمام بما جاء فيها. فما الـذي أمـر بـه ؟ قـل للمـؤمنين: إن مـا لفـتُ إليـه الأنظار في الآية السابقة: موعظـة مـن ربكـم، وشـفاء لمـا فـي الصـدور، وهـدى، ورحمة؛ العناصر الأربعة التي بيناها هي جمـاع الخيـر، وبهـا تكمـل سـعادة المـؤمن. فعلى المؤمنين أن يـدركوا هـذه النعمـة التـي خصـهم بهـا رب العـالمين، ولتنشـرح قلوبهم لنزول القرآن عليهم بما يحويـه، وليعلمـوا أن مـا خصـهم بـه هـو بفضـل الله ورحمته، وأن عليهم أن يشـعروا بالغبطـة والسـرور للخيـر الـذي وصـلهم. وأنّ هـذا الفضل بما أنزله عليهم في القـرآن مـن الهدايـة، والرحمـة التـي حلـت فـي قلـوبهم فاتبعوا تلكم الهدى، هو لا يقـاس بمـا يجمعـه البشـر مـن متـاع الحيـاة الـدنيا. إذ أن هداية القرآن والتوفيق لاتّباع ما جـاء فيـه، يجعـل قلـوبهم مطمئنـة راضـية، وهممهـم عالية، وعقيدتهم واضحة صحيحة، وحبهم للخيـر والفضـيلة يرفـع مكـانتهم الاجتماعيـة في الدنيا، ويمتّن الروابط بينهم. فما حرموه فـي أول أمـر البعثـة، ومـا عليـه بعضـهم من الفقر خاصة بعد استيلاء المشركين علـى أمـوالهم، سـيعقب ذلـك فـيض الأمـوال عليهم في الدنيا، ويصل بهم إلى جنات النعيم في الآخرة.

59-قل أرأيتم ....على الله تفترون.

هذه الآية نظير الآية السابقة افتتحت بكلمة (قل) والموجه له الخطاب بهاهم المشركون. قل لهم يا محمد، إظهارا لخلل تفكيرهم، وتحكيمهم لأهوائهم، وإلجاء لهم ليذعنوا: ما هو رأيكم وما هي عقيدتكم فيما أنزل الله لكم من الرزق، فحكّمتم فيه أهواءكم، بجعل بعضه حلالا وبعضه حراما. تقرر الآية ما لا يستطيعون نكرانه، أن ما وصلهم من رزق مما تنبته الأرض، أو من الأنعام الراعية، هو من عند الله بما أنزله من بركات السماء المنبتة للأعشاب والمرعى، والزروع والثمار. إنه لا مدخل لهم ولا لأحد من آلهتهم في بلوغ ذلك إليهم، وإذا كان المالك المعطي هو الله، فكيف حكموا فيما لا يملكون ؟ حكموا فيه حكما تعسفيا. حكموا على بعضه فجعلوه حلالا، وحكموا على البعض الآخر بالحرمة. كما تقدم لنا في سورة الأنعام الآيات (119/121/136/138←144) وألجأهم القرآن بسؤالهم عن سندهم في أحكامهم تلك، فقسم ما يفترض من السند إلى قسمين لا ثالث لهما، إذا انتفى أحد الشقين ثبت الآخر.

هل إن مستندكم في التحريم والتحليل إذن صـدر عـن الله، إذ هـو المالـك وبالتـالي هـو المحلل أو المحرم ؟ أم أنتم تكذبون علـى الله فتـوليتم التحليـل والتحـريم ولـيس ذلـك لكم، فاتبعتم دينا لا أساس له، فما اعتراضكم ونكـرانكم للـدين الثابـت بالأدلـة اليقينيـة؟ وإذ انتفى أن يكون الله أذن لكم، فلم يبق إلا أنكم مفترون كاذبون.

60- وما ظن الذي يفترون...أكثرهم لا يشكرون.

عجب لأولئك الكذبة المفترين، ما يظنون أنهم سيلقونه، ما ذا ستكون مكانتهم وما هو حالهم !هم سيقدمون مجردين من كل حول وقوة يوم القيامة، وقد كانوا ثابتين مواصلين للكذب على الله، فيصحبهم خزي الكذب وكآبة المنظر. إنهم أوقعوا أنفسهم في الخسران المبين. ذلك أن الله تفضل على البشر جميعا ببيان طريق الهداية والنجاة، ومنحهم العقل المميز بين الحق والباطل، ولكن أكثر الناس لا يشكرون نعمة ربهم، فعطلوا عقولهم عن النظر، وقابلوا النعم بكفرانها. وقابل المؤمنون نعم الله عليهم بالاعتراف بها والشكر لله على ما تفضل به عليهم، والاجتهاد في القيام بما يرضيه.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الشأن: العمل، والحال الهام.

شهودا : جمع شاهد، بمعنى العالم علم المشاهدة.

تفيضون : الإفاضة في العمل الاندفاع فيه.

يعزب : يخفى.

مثقال : معيار يعرف به الوزن.

الذرة : أصغر الأجسام حجما ووزنا. وتطلق ويراد منها النملة الصغيرة التي هي أصغر حيوان مدرك وقت نزول الآية.

كتاب : علم الله.

أولياء الله : المقربون منه باستحضارهم القرب منه والأنس به، وهم الذين يقربهم إليه برعايته لهم الرعاية الخاصة، ويوفقهم لما يرضيه.

لا تبديل : لا إبطال.

يخرصون : يقولون قولا يستندون فيه إلى التخمين معرضين عن المعطيات الهادية.

بيان المعنى الإجمالي :

يكرم الله نبيه بإعلامه بأنه يرعاه في كل أمر هام يقوم به، وكلما تلا على البشر ما أنزل عليه من قرآن، وأنه يرعى كذلك المؤمنين وهم يكافحون في الحياة ويندفعون. وعلم الله شامل للكون كله، فلا يحجب عنه أي كائن مهما ضؤل وزنه كالنملة الصغيرة ولا ما عظم كالمجرات. سواء أكان حالا في الأرض أم في السماء. كل ما يجري على الحوادث مثبت في سابق علمه، موثّق في اللوح المحفوظ.

ويتميز من بين المرضيّ عنهم أولياء الله المقربون منه، الذين يرعاهم رعاية الرضا، وهم الذي صدقوا في إيمانهم، وصدقوا في أفعالهم، فبينهم وبين الخير سبب قوي ونسب. يلتزمون بالطاعة ويحضر في عقولهم صلتهم بربهم على جميع الأحوال. جزاؤهم أن الله كتب لهم البشارة بالخير في الدنيا والآخرة ووكل ملائكته بتنفيذ ذلك، وما قرره سبحانه ثابت لا يتغير. وما نالوه هو الفوز الأكبر الذي ليس وراءه مرتبة.

ولا تأبهْ يا محمد لقبيح أقوالهم، ولا تتأثر لها تأثرا يدخل الحزن على قلبك، فهي أقوال لا قيمة لها. والله أعلى وأجل من أن يتأثر بأقوالهم. إن الله متفرد بالعزة ولا عزة لغيره؛ إنه يسمع أقوالهم ويعلم نواياهم، وسيجازيهم عنها.

ومن مظاهر عزته، أن كل من يحل في السماوات ومن يسكن في الأرض، مملوك لله. والذين يعتقدون في قدرة الأصنام فيدعونهم من دون الله، على أنهم شركاء له، هم قد حجبوا عقولهم عن النظر واتبعوا ظنونا لا أساس لها وتمسكوا بخيالات كاذبة.

بيان المعنى العام :

61 -وما تكون في شأن...في كتاب مبين.

الذي فهمته من هذه الآية أنها حققت غرضين:

الغرض الأول: أن الله يرعى رسوله ويرعى أمته في جميع الأحوال، ويشير ذلك إلى ما لرسوله بين البشر من المكانة والعزة، وما لأمته من الكرامة عند ربها.

الغرض الثاني: التنبيه التفصيلي على شمول علم الله لكل ما يحدث في الكون.

ولنتتبع بعد ذلك نسق الآية في تفاصيلها.

1) يخاطب الله نبيه معلما له أنه لا يكون في حال من أحواله التي يقوم فيها بأداء مهمات الرسالة، بما يشمل التبليغ والقيام على تدبير أمور المؤمنين، وتنظيم

علاقاتهم، ورفع معنوياتهم، وبما يشمل إقبالـه علـى العبـادة وقيـام الليـل؛ لايكـون فـي حال من هذه الأحوال إلا والله شهيد عليه يرقبـه ويؤيـده، ويوفقـه لمـا يرضـيه. وفـي ذلك إشاعة للطمأنينة في قلبه بعناية الله به، وفيـه تسـلية عمـا يلقـاه مـن الكفـرة مـن الإذاية لأن الله معه في جميع أحواله.

2) ما تتلو: من الأمر الهام الذي أنت قائم به خير قيام، مـن نشـر القـرآن وإذاعتـه بـين البشر، القرآن الذي يوضح المنهج ويبـين القصـد، ويـؤمن الطريـق، كـن واثقـا أن الله شهيد عليك، يوفقك لتثبيت الصالح، ويقمع الجاحد.

3) ولا تعملون عملا أيها المؤمنون مما توجهـون لـه جهـدكم، وتنـدفعون لإنجـازه، إلا والله معكم يرعاكم ويسدد خطاكم. وعبر سبحانه عن ذاتـه العليـة بضـمير الجمـع **(كنـا)** إظهارا لعظمته سبحانه.

يستند كل ذلك إلى أن علم الله هو علم شامل لكل مـا يجـري فـي الكـون، فـلا يغيـب عن علمه أي كائن مهما ضؤل وزنه، ولو كان نملـة صـغيرة أو هبـاءة، ممـا لا يدركـه البصر إلا في الحزمة الضوئية فـي محـيط قليـل ضـوؤه. وكـذلك مهمـا عظـم، إذ عظمه لا يحجب علم الله عن الإحاطة به وبتقلباتـه. وسـواء أكـان مسـتقره فـي الأرض فوق أديمها، أو في محيطهـا، أو فـي باطنهـا، أو فـي السـماء فـي مترامـي أبعادهـا الهائلة. كل ما يجري علـى الكائنـات هـو مثبـت فـي علـم الله المعبـر عنـه بـاللوح المحفوظ. فعلمه لا يتغير بحدوث الحادث إذ هو سابق على الحدوث.

62--63، ألا إن أولياء الله...يتقون.

هذه الآية مفتتحة بما يدل على الاهتمام بمضـمونها وتحققـه، وذلـك مـأخوذ مـن كلمـة (ألا) مضـمونها: أن أوليـاء الله لا خـوف علـيهم ولا هـم يحزنـون. وأوليـاء الله هـم الموفقون من عباده توفيقا بلغ درجات من السمو والنقـاء، أهلـتهم ليحملـوا هـذه الصـفة المرتبطة برب العزة ارتباطا من الجهتين، من الله ومنهم.

فولي الله هو من جمع بين أمرين:

1) الإيمان الذي لا يداخله شرك ولاشك، والذي يجد به المـؤمن نفسـه فـي كـل لحظـة من لحظات حياته، قريبا من ربـه، يخشـى أن يطلـع عليـه فـي موقـف أو مكـان لا يرضاه، كما يخشى أن يغيب عن موقف يتحتم وجـوده فيـه. فهـو لـيس المـؤمن إيمانـا منوّما في ساعات كثيرة ومغفولا عنه. ولكنه الإيمان المتـيقظ صـاحبه إلـى مـا يحملـه من عقيدة فاعلة في وجوده.

2) المتقي لله .تقوى الله تفتح بصيرة المؤمن علـى الخيـر فتحببـه إليـه، وتردعـه عـن الشر فيكرهه ويمقته. وتكون التقوى ملازمـة لـه، فكلمـا حضـره اختيـار لعمـل مـا، قادته تقواه إلى الخير وأبعدته عن الشر.

64 – لهم البشرى في الحياة...الفوز العظيم.

تذكر الآية ما خص الله بـه أوليـاءه مـن تكـريم فـي الـدنيا والآخـرة، ذكـرا يعطـي للتصور أن يذهب فيه كل مذهب، إن لهـم وحـدهم البشـرى، بمـا يفيـد الثقـة الكاملـة والرضا بما خصوا به من فضل. وإذا أخـذت الـنفس حظهـا بمسـتوى لا تطلـب بعـده المزيد فتلك هي السعادة الكاملة. إذ المبشَّرون واثقـون فـي المسـتقبل آملـون فـي أنهـم بمنزلة من رعاية الله وحبه.

وبعض العامة والدهماء يخصون أولياء الله، بـأفراد ضـعفت مـداركهم العقليـة، وربمـا سال لعابهم على أذقانهم، لا يعتنـون بلباسـهم ولا بنظافـة أجسـادهم، ويكـادون يكونـون عالة على غيرهم في جميع شؤونهم. وهذا الفهم باطـل وغيـر صـحيح. ذلـك أن أفضـل المؤمنين في هذه الأمة محمـد رسـول الله ﷺ، وصـحابته الـذين أكـرمهم الله بالسـبق للإيمان به، وبالجلوس إليه والأخذ المباشر من هديه، هـم كـانوا حملـة الـدين إلـى مـن أتى من بعدهم، وهم الذين جاهدوا فـي الله حـق جهـاده، وكـانوا مـع رسـول الله فـي غزواته، وبذلوا أنفسهم وأموالهم لتكون كلمة الله هـي العليـا. وكـانوا علـى حـظ عظـيم من رجاحة العقل وحسن السمت والأخذ من الدنيا فـي غيـر سـرف، لبسـوا الجيـد مـن الثياب وأخذوا زينتهم عند كل مسجد. وما أعرضـوا عـن الـدنيا ولكـن أخـذوها علـى أنها مطية للآخرة. وقد فتح الله لهم أبواب الرزق، وما حفظتـه كتـب السـيرة مـن بـذل سخي لأبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بـن عـوف وغيـرهم يقـوم شـاهدا علـى أن التقوى محلها القلب، وليس بينها وبين الإعـراض عـن الـدنيا الإعـراض الكامـل أي صلة.

وقال معظم المفسرين إن هذه البشرى هي الفوز بالجنة يـوم القيامـة، وأمـا فـي الـدنيا فروي أنها هي الرؤيا الصالحة، وقيل هي المنزلة التي يبشر بها المؤمن عند موته.

والذي أرجحه هو ما ذكرته من ثقتهم بالمستقبل الذي تأكد بقوله تعالى: لا تبديل لكلمات الله. فقد كتب الله هذه العناية بهم ووكل بها من يرعاها من ملائكته. ثم ختم كل ذلك بإبراز التنويه بما أوتوه: أنهم حازوا الفضل العظيم، وكفى بذلك تقديرا إذ هي شهادة الله العظيم سلطانه الذي لا يحد ملكه، فهو يشهد بأنهم أوتوا الفوز العظيم. وهذا يناسب ما رجحناه من أن البشرى لا تختص بأمر واحد، وما ذكر هو عرض لبعض ما يصح أن يتناوله النص.

65- ولا يحزنك قولهم...وهو السميع العليم.

وإذ انتفى الحزن عن أولياء الله، فإن الرسول ﷺ كـان يشـتد عليـه مـا يسـمعه مـن المشركين من تمجيدٍ لآلهتهم، ومن التطاول على مقـام الجلالـة سـبحانه، ومـا يصـحب ذلك من إذاية المؤمنين، وتفننهم فـي الاسـتهزاء والسـخرية بالمقدسـات . فلـذلك أمـر رسوله أن لا يتأثر بما يقولونـه، ولا لتطـاولهم بمـا اسـتدرجوا بـه مـن قـوة وأمـوال وعصبية؛ إيماء إلى أنهـا جميعهـا أعـراض زائلـة، وقـوة يعقبهـا ضـعف وانحـلال. والعاقبة للمؤمنين. فإن الله سينصـر دينـه ويمحـق الشـرك ويظهـرك علـى أعـدائك. فالقوة التي لا تغلب، والإرادة التي لا تقهر هـي لله وحـده. ويحسـن بقـارئ القـرآن أن يسكت سكتة خفيفة عند تلاوته الآية عند إتمام كلمـة (قـولهم) ثـم يسـتأنف: إن القـوة لله جميعا.

ثم يؤكد القرآن النهاية الظـافرة : أن العـزة والغلبـة لله وحـده. فهـم آيلـون إلـى ذلـة ونكال. يثبتُ هذا: أن الله سميع لما يقولونه فـي الجهـر فيعـذبهم بمقـدار مـا أجرمـوا، ويسمع همساتهم فيما بينهم ومـا يعدونـه مـن مكـر، وهـو يعلـم مـا تنطـوي عليـه ضمائرهم من بغض للحق، وإعـداد للمكـر بالـدين. وهـذا الإعـلان باطلاعـه الـدقيق على خبثهم الباطن والظاهر، هو وعيد لهم.

66-ألا إن لله ...وإن هم إلا يخرصون.

ويقوم شاهدا على أن العـزة لله جميعـا، هـو أن مـا تحويـه السـماوات والأرض ممـا يعقل ومما لا يعقل ملك لله. والعـزة الحقيقيـة هـي للمالـك الواحـد. ومـا يتبـع الـذين انحرفت عقولهم وفسدت فطرهم، فـادعوا آلهـة مـن دون الله وأشـركوهم معـه سـبحانه في الملك، هم لا يتبعون إلا ظنونا كاذبة لا سند لها؛ فهـم فـي الحقيقـة يغلقـون عقـولهم عن كل المعطيات التي تساعد الإنسان علـى المعرفـة، ويسـتندون إلـى تخمينـات مـن الأوهام الباطلة.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِى ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

اتخذ : الاتخاذ أخذ شيء موجود للاستئثار به. أو إيجاد شيء للاختصاص به.

السلطان : البرهان والحجة.

الفلاح : حصول المبتغى من العمل مع سلامة العاقبة.

المتاع : المنفعة الآئلة إلى الزوال في الدنيا.

بيان المعنى الإجمالي :

تفرد الله بجعل الليل للنــاس فــي هــذه الحيــاة وقتــا يسـكنون فيــه، يجـددون نشــاطهم ويريحون أبدانهم وعقولهم من عناء العمــل اليــومي. وجعــل النهــار ضـياء يبصــرون فيه ما حولهم فتتعمق معــارفهم فيمــا يحويــه الكــون، ويعقــدون صــلاتهم ببعضــهم. إن في سماع القرآن ما يوقظ العقل ليدرك ما في هذا التنظـيم مــن الــدلائل علــى تفــرد الله بالتنظيم المُحكم.

قال الكفرة إن الله اتخذ ولدا. والله منــزه أن يكــون لــه ولــد. وكلامهــم باطــل. وذلــك لأنه هو الغني الذي لا يتصور أن يكــون محتاجــا لاتخــاذ ولــد. وهــو مالــك مــا فــي السماوات وما في الأرض، ومن التناقض أن يكــون لــه ولــد وهــو مملــوك لــه. ولمــا أطلقوا كلاما غير مستند إلى دليل يصــدقه، كــان كلامــا بــاطلا. واســتحقوا أن يوبخــوا لتطاولهم بالقول على الله بغير علم.

إن الذين تبلغ بهم وقاحتهم أن يكذبوا على الله هم خاسرون فــي الــدنيا، فــلا يحقــق لهــم كذبهم أي نفع. وما يحصلون عليه مــن مظــاهر تلفــت النظــر فــي الحيــاة الــدنيا مــن رئاسة أو مال، هو مما لا قيمة له لسرعة زوالــه، ثــم يسـلط الله علـيهم عذابــه الشــديد الذي يحسونه أشد الإحساس بسبب كفرهم.

بيان المعنى العام :

67 –هو الذي جعل لكم...لقوم يسمعون.

من مزايا القرآن أنه يجعل الإنسان يقظا لما يجــري حولــه، لا تسْــحبُ منــه الرتابــة ولا التكرار ما وراءهما من حقائق عميقــة. فهــذه الآيــة ترفــع الغفلــة عمــا يتتــابع بصــفة منتظمة على الإنسان من تبادل بين الليل والنهــار. وتجــاوزت الآيــة الظــاهرة إلــى مــا وراءها من ارتباط الإنسان بهذا التحول، الذي يعطيه ما تــتم بــه حياتــه. فالليــل والنهــار يتعاقبان بصفة منتظمة. يأتي الليل فيسـكن الإنســان إلــى الراحــة ليجــدد مــا فقــد مــن طاقات، ولينعم في سكون الليل بعلاقــات محببــة للــنفس ممتعــة وصــلات عائليــة بهــا تتمكن الرابطة الأسرية. والظلام يساعد على تحقــق ذلــك. ويــأتي النهــار مضــيئا فينفــذ

إشراقه إلى الكائنات بما يُمكّن الإنسان من التعرف عليها، ثم النشاط وعقد صلات بها فيتكون المجتمع ويتقدم العلم، ويستطيع القيام بما أوكل إليه من الخلافة في الأرض لتعميرها.

إن في هذا التنظيم الدقيق ما يقوم شاهدا ودليلا على تفرد الله بالقدرة الشاملة والحكمة البالغة. إن من يسمع كلام الله سماع المقبل عليه ينتفع من عرض القرآن، فيستيقظ إلى ما في نظام الكون من دلالة على تفرد الله بالخلق والتدبير، فيتعمق إيمانه.

68-قالوا اتخذ الله ولدا ...ما لا تعلمون.

من أقوال المشركين الفاسدة والباطلة، قولهم إن الله قد اصطفى من خلقه من اتخذه ولدا، فنسبوا له سبحانه بعض الملائكة أولادا، وقال آخرون إنه تولد من الله ما هو ولد له، وهذا غير ما تعتقده النصارى من بنوة عيسى.

نفى القرآن أن يكون لله ولد بأمور:

1) أن هذا مخالف لتنزيه الله عن النقص، وهو معنى: سبحانه، إذ يتناقض القول بألوهيته مع نسبة ولد له.

2) أنه الغني لكماله فلا يتصور أن يكون محتاجا لما يكمل به ذاته. وطلب الولد إنما هو لنقص في الأصل يتمثل في أن الأصل مدرك لفنائه، فهو يرغب في الولد ليكون امتداده في الوجود، أو يرغب في الولد ليساعده عند الحاجة. فاعتقاد كمال الله بغناه، ونسبة الولد له تناقض مرفوض.

3) يدخل تحت ملك الله كل ما تحويه السماوات والأرض، بما يشمل جميع المخلوقات، والملك والبنوة متنافيان، ولذا كان من أحكام الشريعة أن الولد إذا دخل في ملك أصله خرج حرا في الحال.

4) إن كل قول لا قيمة له إذا لم يستند إلى دليل يثبت صحته، والدعاوى الفاقدة لسند، لا يحتج بها، وليس لهم دليل على ما ادعوه من اتخاذ الله ولدا، فتكون دعواهم أن لله ولدا دعوى مرفوضة من أساسها.

ثم وبخهم على التجني على الله، منكرا عليهم أن يقولوا على الله ما لا علم لهم به ولا سند من عقل أو كتاب.

69-،70- قل إن الذين يفترون...بما كانوا يكفرون.

واجهْهُمْ يا محمد بالحقيقة التي لا مفر لهم منها: قل لهم: إن الذين ينشئون من خيالهم مما لا أصل له، فيكذبون على الله وينسبون له الباطل مآلهم الخسران المبين

في الدنيا، ولا يجنون من اقترانهم على الله أي نفع دائم. ومظاهر النعمة التي نمكنهم منها، ما هي إلا نعمة زائلة مؤقتة. ثم نسلط عليهم العذاب الشديد يوم القيامة، فيحسون ألمه أشد الإحساس، وما ذلك إلا بسبب استمرارهم على الكفر.

• وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

بيان معنى الألفاظ :

كبر عليكم : شق عليكم وأوقعكم في الحرج.

مقامي : حالي وشأني.

توكلت : عولت.

أجمعوا أمركم: اعزموا على الفعل بعد التردد.

لا يكن أمركم عليكم غمة : لا يكن ما تقصدون فعله غير واضح.

اقضوا إلي : نفذوا ما عزمتم عليه.

الأجر : العوض الذي يأخذه العامل.

نطبع: نختم ختما لا يحصل بعده الفتح.

بيان المعنى الاجمالي :

اتل يا محمد الخبر الذي فصله القرآن عن نوح. حاصل هذا الخبر الهام: أن نوحا بعد أن والى دعوة قومه انتهى إلى اليأس من استجابتهم؛ فقال لهم يا قومي إن وصل بكم الحد إلى استثقال وجودي بينكم وتحرجكم من تذكيري لكم بالآيات البينات والنعم التي تنعمون بها، فاعلموا أني معول على ما يسندني به ربي من العون. وهذا يجعلني لا أخاف شيئا، فاتفقوا مع شركائكم على الأمر الذي ترونه، وليكن ما تجمعون عليه واضحا بينا، ثم نفذوه ولا تتراخوا. فإن واصلتم الإعراض

وتوليتم مستمسكين بالكفر، فإني أذكركم أني ما طلبت منكم أجـرا علـى مـا بلغـتكم إيـاه من الحق؛ وذلك لأن أجـري علـى الله الـذي أمرنـي أن أكـون موحـدا لـه، مخلصـا لجلاله في جميع شؤون حياتي. فواصـلوا تكذيبـه ولـم يقلعـوا عـن الكفـر، فنجـاه الله ومن كان مؤمنا معه في الفلك، وأهلك المكـذبين بآيـات الله بـإغراقهم، وكانـت عـاقبتهم واضحة هي الاستئصال لأنهم أنذروا فلم يفد فيهم الإنذار.

ثم إن الله تولى البشر بألطافه فأرسل إلـى الأقـوام الـذين حـادوا عـن طريـق الهدايـة رسلا، فكذبوهم رغم ما كانوا مؤيـدين بـه مـن المعجـزات، وواصـلوا التكـذيب. لقـد طبع الله على قلوبهم فلا ينفذ إليها مـن نـور الرسـالة شـيء بسـبب عـدوانهم بالشـرك ورفض النظر في الحق.

بيان المعنى العام :

71-واتل عليهم نبأ نوح...ولا تنظرون.

بعد أن أقام القرآن الحجة على المشـركين، وبعـد أن ذكـرهم بنعمـه، وبعـد أن هـددهم ليقلعوا عن الكفر والعناد، تولى تذكيرهم بما حصل لقوم نـوح الـذين كـان مـوقفهم مـن رسولهم نوح ﷺ كموقفهم من محمد ﷺ.

اتْلُ على المشركين خبر نوح ﷺ مع قومـه ليعتبـروا بمـا سـلط علـيهم مـن عـذاب فيقلعوا عن العناد. فيكون هذا النبأ نوعا آخر من أنواع التأثير الداعي إلى الإيمان.

خاطب نوح المرسل إليهم متحببا إليهم متلطفا معهـم، نـاداهم بقولـه يـا قـومي، وشـأن الإنسان أن يكون محبا لقومه ناصحا لهم يسـعى لمـا فيـه خيـرهم. وهـذا هـو شـأن المرسلين، وما ينبغي أن يكون عليه الـدعاة إلـى الخيـر والصـلاح، مـن اللطـف فـي الخطاب، وإثارة الروابط المحركة لنبيل العواطف، حتى يقتـرن مـا يقتضـيه العقـل بمـا تدعو إليه العاطفة. وعرض عليهم أنهم إن شـق علـيهم مقامـه بيـنهم وسـئموا طريقتـه التي يدعوهم بها، التـي هـي التـذكير بالأدلـة البينـة علـى التصـور الحـق والعقيـدة الصحيحة في خالق الكون وكمالاته، وما أفاضـه علـيهم مـن خيـرات، فـاعزموا علـى تنفيذ ما دبرتموه، وأشركوا معكم شـركاءكم الـذين تعتقـدون بـأن لهـم قـدرات تفـوق قدراتكم. إني لا أبالي بما استعددتم له مـن الإضـرار بـي ولا أخشـاكم. اجتهـدوا فـي تدبير أمركم حتى يكون ما تقصدون إيقاعه واضـحا بينـا لا تـردد فيـه ولا غـبش .ثـم قوموا بتنفيذ ما صممتم عليه، ولا تتأخروا بي لإيقاع ما عزمتم عليه.

72-فإن توليتم...أن أكون من المسلمين.

فإن أعرضتم عما دعوتكم إليه، فتذكروا أني ما سألتكم من جــزاء علـــى مـــا قدمتـــه لكـــم من هداية، وما بينته لكم من الحق. لا أنتظر أجرا على مـــا قمـــت بـــه إلا مـــن الله، الـــذي أمرنـــي، وأمـــره واجـــب الطاعـــة والتطبيـــق، أن أكـــون مـــن المســـلمين الموحـــدين لله المخلصين له في العبادة.

73 -فكذبوه فنجيناه....كان عاقبة المنذرين.

قابل قوم نوح رسولهم في النهاية بالتمادي على التكـذيب. وترتـب علـى هـذا الموقـف الرافض المتمسك بالتكذيب، ويأس نـوح مـن إيمـان أي واحـد مـن المصـممين علـى الكفر، أن نجاه الله والذين آمنوا معـه فـي السـفينة، وأن بـارك فـيهم فجعـل أعقـابهم خلفاء في الأرض بعد إغراق المكذبين واستئصالهم .

وإذ تمت الصورة حتى كأنها حاضـرة، ورد الأمـر بـالنظر إليهـا تحقيقـا للنبـأ الـذي افتتحت به القصة .شاهد الوضعية التي كانـت عليهـا عاقبـة المكـذبين، ومـا كانـت إلا جثثا طافية على سطح المياه تتقاذفها الأمواج. وفـي ذلـك تهديـد لمشـركي مكـة إن هـم واصلوا رفضهم وعنادهم.

74 -ثم بعثنا من بعده...على قلوب المعتدين.

عناية الله بالبشرية مسترسلة، فبعد أن أغرق المكذبين مـن قـوم نـوح، توالـت رسـالاته للبشر، كلما حادوا عن الطريق الصحيح في الإيمان. ولـم تعـين الآيـة المرسـلين كمـا وقع في مناسبات قرآنيـة أخـرى، وهـي معلومـة مـن مواقعهـا فـي القـرآن. ومـن الألطاف الإلهية أن كل رسول يبعث في قومـه معـروف عنـدهم غيـر غريـب عـنهم، جربوا صدقه وأمانته قبل تحمله مهمة التبليغ والهدايـة. فكـان كـل رسـول يقـدم لقومـه المعجزات التي تأيد بهـا ليـتمكن مـن هـدايتهم. وقـابلوا تلكـم البـراهين والمعجـزات بالتكذيب، وواصل الرسـل الـدعوة وطـرد الأوهـام والكشـف عـن المـنهج المعقـول، واستمر المكذبون على التكذيب الذي أعلنوه من قبـل. وعلـى هـذا النحـو مـن إغـلاق منافذ الحق إلى عقولهم يـتم الطبـع علـى قلـوب المعتـدين بالشـرك والعنـاد. والطبـع أصله ختم ينقش بالشمع على الرسالة حتى لا تفتح.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟

أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الملأ: خاصة الناس، وسادتهم.

الاستكبار : المبالغة في التكبر.

مجرمين : مرتكبين لعظيم الذنوب.

لتلفتنا: لتلوينا وتصرفنا.

الكبرياء : التفوق على الناس.

الإلقاء : رمي الشيء إلى الأرض.

جئتم به : أظهرتموه.

سيبطله : يظهر عدم تأثيره في عيون الناس.

لا يصلح عمل المفسدين : لا يؤيد عمل المفسدين .

يحق الحق : يثبت الحق.

بكلماته: بواسطة أمره الذي يقول فيه للشيء كن فيكون .

بيان المعنى الاجمالي :

بعد موكب المرسلين الذين تتابعوا لهداية البشرية، بعث الله سيدنا موسى وهارون إلى فرعون وأصحاب الجاه والتقدم من قومه. ودهماء ذلك العصر كانوا تبعا لهم ليس لهم رأي. وقد أيدهما بالمعجزات الواضحة، فحملهم الكبر المتمكن منهم وما ألفوه من العصيان والإجرام على رفض الدعوة. بل تجاوزوا ذلك إلى رمي الحق الذي جاءهم بأنه سحر واضح لا شك فيه.

رد عليهم موسى منكرا: أتقولون للحق إنه سحر، مع أن مآل السحرة الفشل ؟

ردوا عليه قائلين: أنت تعرض علينا ما يقطع بيننا وبين ما التزمه آباؤنا في حياتهم، بل إن قصدك أن يكون لك المقام المقدم في أرض مصر لتحكم أهلها. ولذا فإنا لا نؤمن بك.

قال فرعون: رادا دعوتهما: علينا أن نبين للنــاس أن مــا جــاؤوا بــه، هــو ســحر لا حق. ولذا أمر حاشيته أن يجمعوا له مــن أقــاليم مصــر النــابهين مــن الســحرة. وفعــلا حضر السحرة ومعهم آلاتهم، وحضر موسى.

قال موسى للسحرة قوموا بعرض ما عندكم. فلما ألقوا مــا هيــأوه قــال لهــم موســى: إن ما قدمتموه هو سحر وإن الله ســيمحو آثــاره، لأن الله لا يؤيــد عمــل المجــرمين. وهــم مجرمون لأن غرضهم صد الناس عــن الإيمــان بموســى. وأن الله يثبــت الحــق أحــب المجرمون الآثمون أو كرهوا.

بيان المعنى العام :

75- ثم بعثنا من بعدهم ...مجرمين.

بعد موكب المرسلين المذكورين في الآية الســابقة، ذكــر القــرآن بعثــة ســيدنا موســى مؤيدا بأخيه هارون. بعثه الله لحاكم مصر فرعــون، وللأعيــان والوجهــاء مــن حاشــيته. وقد أيدهم الله بالمعجزات التــي هــي أولا، غيــر خارقــة لقضــايا العقــل، وثانيــا هــي خارقة للعادة لكونها تفوق طاقة البشر. فظهورها علــى أيــديهم مصــاحبة لــدعوة النــاس لاتباعهم تقوم الدليل على صدقهم.

فرعون كان طاغيــة مســتبدا يــذل شــعب مصــر ويعتــدي علــيهم ويســلبهم حقــوقهم الإنسانية، ويعتقد أنه مخول بأن يجري على سلوكه هــذا. فمقــاييس الحــق مفقــودة مــن حسابه، يرى نفسه أكبر من أن يراعيها ويخضع لها. وعلــى نهجــه كــان المقربــون مــن حاشيته. ويتبع الانتفاخ بالكبر التعدي علــى النــاس، والاســتيلاء الظــالم علــى حقــوقهم، والاستهانة بالقيم الخلقية. ولذا عبر القرآن عن وضــعهم بــأنهم كــانوا قومــا مجــرمين، تأصل فيهم الإجرام، إذ لا يحسون عند اقتحام الآثــام بفســاد ارتكــاب الإثــم، ولا تتحــرك أرواحهم فتهتز لارتكاب الخطيئــة. ومضــى التــاريخ علــى ظهــور مســتبدين يقربــون كثيرا أو قليلا من الفراعنة الذين بعث فــيهم موســى، لا ينتصــحون ولا يخشــون عاقبــة. ومعظمهم حصدوا ما قدموا في الدنيا من ذل وصغار. ولعذاب الآخرة أكبر.

76- فلما جاءهم الحق ...سحر مبين.

بعد أن عرض عليهم موسى ﷺ دعوته، وأظهر لهــم المعجــزات الدالــة علــى صــدقه وأنه مرسل من عند الله، أخذت المحــاورة تجــري بينــه وبيــنهم: كــذبوه ورفضــوا مــا جاء به، ورموه بأن ما قدمه دليلا على صدقه فــي أنــه مبعــوث مــن خــالق الكــون، لا يعدو أن يكون سحرا يخيل للناس ما يموه به أنه حــق، وهــو فــي الواقــع تخــيلات مــن مهرة في اللعب بحواس الناس.

77 -قال موسى أتقولون...لا يفلح الساحرون.

رد عليهم موسى منكرا: عجب لكم كيف تطلقون على الحق الذي عاينتموه، أنه سحر، مع أنكم رأيتم رأي العين أنه حق لا باطل ولا تمويه فيه. وكيف آتيكم بسحر وأنا أعلم أن السحرة مآلهم افتضاح أمرهم وخسرانهم.

دفعهم الاستكبار إلى المضي في دفع ماجاء به بإظهار أنهم من الذكاء والتجربة بمحل لا يروج عليهم ما خفي من قصده. اتهموه بأنه يرمي بما جاءهم به إلى تحويلهم عن المنهج الذي تمت تجربته، وسار عليه آباؤهم من قبلهم. وشأن كبراء القوم أن يتمسكوا بعادات أصولهم لما فيها من تأكيد لمقامهم الاجتماعي. وبصرفهم عن عادات وتقاليد آبائهم تنزل مقاماتهم، ويضعف تأثيرهم في المجتمع، فيتخذ موسى وهارون ذلك سبيلا ليظهرا تفوقهما وعظمتهما في عقول الناس، فتكون لهما بذلك الرئاسة ويستوليان عليهم ويقودانهم. فما دعوتهما إلا طمع في الرئاسة والاستيلاء على أرض مصر وشعبها.

وإنه نتيجة لذلك، بتفطننا إلى ما ترميان إليه، فنحن مصممون على رفض الإيمان بما قدمتماه لنا.

79 --82، وقال فرعون ائتوني...كره المجرمون.

بعد انطلاق المحاورة كما جاء في آية 75 تحول الأمر إلى مقارنة تطبيقية بين ما عرضه موسى على أنه حق، وبين ما رمي به من السحر. فكان المشهد يتمثل في تسجيل الوقائع الآتية :

أولا : فرعون وقد انتفخت أوداجه، يأمر الملأ من حوله أمرا جازما، أن يجمعوا له مهرة السحرة من جميع أنحاء ممالكه.

ثانيا: تنفيذا لهذا الأمر انطلقوا في أنحاء مصر يبحثون عن المتميزين في علم السحر، وأتوا بهم لفرعون.

ثالثا: حضر موسى المقابلة بينه وبينه السحرة وبادرهم بقوله: ألقوا إلى الأرض ما هو معكم من الآلات التي أعددتموها، وحركوها وأظهروا ما عندكم من السحر.

رابعا: قدم السحرة أمام الجمع ما استطاعوا أن يخدعوا به عيون المشاهدين، وكان مشهدا يجذب الأنظار، أبهر جميع المشاهدين إلا موسى ﷺ، فإنه توجه إليهم وهم معتزون بما قدموه قائلا: إن هذا المشهد لا يعدو أن يكون خيالات لا حقيقة لها، وسيظهر ربي بطلانها ويفضح أسرارها. والله لا يؤيد عمل المفسدين، الذين يقصدون تضليل الناس واللعب بعقولهم حتى يستولوا على مداركهم وينقادوا إليهم .

وفسادهم في هذه المقابلة أوضح، لأنهم كانوا يرمــون مــن وراء مــا قــدموه أن يصــرفوا الناس عما جاء به موسى وأخوه من الحق. ويثبت الله الحــق الــذي أتيــت بــه، ويظهــر زيف ما أتيتم به مــن الباطــل بكلماتــه التــي تعبــر عمــا تعلقــت بــه الإرادة والقــدرة النافذتان. قال تعالى: (إنما أمره إذا أراد شــيئا أن يقــول لــه كــن فيكــون) [1]-والحــق بكلامه ما يفيد عجزهم وأن إرادتهم غيــر مــؤثرة، وأن الفعــل لله وحــده، الــذي ينجــز في الوجود ما تعلقت به إرادته ولا أثر لحب المجرمين أو بغضهم.

فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

بيان معنى الألفاظ :

يفتنهم: التسلط على الملكات العقلية بالقهر حتى تنصاع .

عال: مستبد.

الإسراف : تجاوز حد الاعتدال.

بيان المعنى الاجمالي :

انهزم السحرة وتبين للحاضرين أن موسى لــيس بســاحر، وأنــه رســول وأن مــا قدمــه ليس من عمل البشر، ولكن رغم ذلك لم يؤمن برسالته إلا قليــل مــن الشــباب مــن قــوم فرعون، كانوا حذرين مــن أن يعــذبهم مــع ملئــه ليرتــدوا. وذلــك لأن فرعــون حــاكم مستبد متعال، مسرف في غضبه كإسرافه في ملذاته .

ثم توجه موسى لقومه يحضهم علــى الثبــات، وأن يحســنوا التوكــل علــى الله إن كــانوا حقا مؤمنين مسلمين. والإيمان محله القلب، والإســلام تصــديق لمــا اســتقر فــي القلــب بالعمل الظاهر بالجوارح.

أجابه قومه بأنهم متوكلون على الله، ثم توجهوا مظهــرين لحســن تــوكلهم، مبتهلــين إلــى الله أن لا يجعلهم سببا لافتتــان المــؤمنين الآخــرين، بمــا يســلط علــيهم مــن عــذاب وتنكيل، حذرا منهم أن يكون عذاب فرعون وملئــه ســببا لارتــداد المــؤمنين الــذين لــم

---

[1] سورة يــس آية 82

يكن إيمانهم بالقوة التي يصمدون بها عندما يشاهدون تعذيب المؤمنين. وأن ينجيهم برحمته الواسعة من القوم الكافرين.

بيان المعنى العام :

83 -فما آمن لموسى إلا ذرية...وإنه لمن المسرفين.

المشهد التالي الذي أظهرت الآية وجها منه، هو الوضع الجديد بعد أن ظهر موسى على السحرة الذين أعلنوا في الحين إيمانهم بموسى، متحدين فرعون كما هو مفصل في قصة موسى في غير هذه السورة.

الذي يتصور من القصة كما جاء في قوله تعالى: **(وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين)**[1] - أن الناس توافدوا على الساحة التي جرت فيها المقابلة، تبعا للدعوة العامة، ولما في المشهد من غرابة تدعو إلى الحضور. وأنه بعد ظهور الحق ظهورا اعترف به السحرة أنفسهم، وتغلغل في قلوب المشاهدين أثره، اندفع شباب من قوم فرعون، وإن كان عددهم قليلا، إلى الإعلان عن إيمانهم ملتحقين بالسحرة؛ وهذا هو شأن الشباب في اندفاعهم، وتحديهم للتسلط، لكون قواهم بقيت سليمة من الذل.

وإبرازا للعلاقة التسلطية من فرعون على قومه، كان هؤلاء الشباب خائفين من الفتنة التي من عادة الجبارين العتاة إنزالها بمن لا يخضع لهم، فيخرج عن إرادتهم، والتي يتسابق المتملقون من الحاشية لإيقاعها على من لا ينقاد انقياد الذليل الأعمى للتعسف؛ وذلك بالتعذيب النفسي والجسدي الذي يتجاوز حد التحمل. وأبانت الآية عذرهم في هذا الخوف بكشف طبيعة فرعون: إنه مستبد قاس يحتقر من هم تحت نظره، وهو مسرف متجاوز للحدود في التنكيل، وفي مباشرته للحياة، وأقل مظاهره الإسراف في الملذات الذي يطبع على النفس ويغشيها بظلام المادة الهابطة. وهذا من طبائع الاستبداد.

84—86، وقال موسى يا قوم...ونجنا برحمتك من القوم الكافرين.

يتحول بعد ذلك موسى لقومه، ليثبتهم بعد انتصاره على السحرة، بما يشحن عزائمهم حتى يكونوا أقدر على تحمل الأذى والثبات. يدعوهم أن يحسنوا التوكل على الله في مجابهة ما يوجبه الكفاح للانتصار على ظلم فرعون. وأن هذا التوكل هو من موجبات الإيمان، لا خيرة لهم فيه. إذ الإيمان الصادق هو الذي يكون به

---

[1] سورة الشعراء آية ٤٠

المؤمن مستشعرا دائما اعتماده علــى عــون الله الــذي مــلأ قلبــه وحســه وتغلغــل فــي أعماقه، وبدون هذا الشعور لا يكون الإنسان مؤمنا. ثم أكــد هــذا الارتبــاط بيــنهم الــذي يلزمهم بالتوكل بشرط آخر، وهــو قولــه: إن كنــتم مســلمين. وإذا كــان الإيمــان محلــه القلب والمشاعر، فإن الإسلام مظهره فــي العمــل والتطبيــق. فهمــا شــرطان متكــاملان الإيمان بالعقيدة الصــالحة، والإســلام بالثبــات علــى العمــل حســبما يقــرره الــدين. إن الإيمان نور يحل بالقلب، والإسلام هو ظهــور أثــر ذلــك النــور فــي الســلوك العملــي. والتوكل شعور بالاستناد إلى العون الإلهي ومحلــه القلــب، والســير العملــي فــي الحيــاة على وفق العقيدة هو الإســلام. ولا قيمــة لأحــدهما دون الآخــر وأكــد علــيهم موســى حسن التوكل بجمعه فــي التعليــق بــين الإيمــان والإســلام: توكلــوا علــى الله إن كنــتم مؤمنين إن كنتم مسلمين.

و استجاب قومه لندائه، وأعلنوا ذلــك بقــولهم: علــى الله توكلنــا واســتندنا إليــه وحــده، نستمد منه القوة لمواجهة بطش فرعــون وفتنتــه. فالإيمــان طاقــة تــدفعهم إلــى الصــبر والطمأنينة، والرضا بالمقــدور، وعــدم التــردد، والإســلام طاقــة يــرتبط فيهــا العمــل بالعقيدة، فيحسنون الاســتعداد، ويتضــامنون فيمــا بيــنهم للتغلــب علــى مكــر فرعــون وملئه.

ثم تسجل الآية أنهم جمعوا بين الإيمان والإسلام فــي ابتهــالهم إلــى الله أن يحمــيهم مــن أن يتغلب عليهم فرعون فيفتتن بقية النــاس بمــا أصــابهم ويكفــرون. وأن يــدخلهم فــي رحمته، الرحمة التي تنجيهم من بطش القوم الذين تمالأوا على الظلم.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (89)

بيان معنى الألفاظ :

تبوأ : اتخذ مكانا لسكناه.

قبلة : يحتمل أن يكون المراد إلى جهة القبلة كما يحتمل أن تكون البيوت متقابلة.

الزينة : ما يُحسّن به الناس مظاهرهم أو محيطهم.

الطمس : المحو والإزالة.
اشدد :من الشدة بمعنى العسر والحرج .
الاستقامة : مفهوم جامع لخصال الخير والصلاح.

بيان المعنى الإجمالي :

أوحى الله إلى موسى وأخيه بعد أن ظهرا على السحرة، وآمن بهما من آمن، أمرهما أن يرشدا المؤمنين إلى طريقة بنائهم الحضاري، وذلك بأن يجتمعوا في حي يبنون فيه مساكنهم على هيئة هندسية واحدة، مشرعة أبوابها إلى القبلة، وهو الاتجاه نحو الكعبة، التي هي ما بين المشرق والمغرب بالنسبة لأرض مصر. كما أمرهم أن يؤدوا الصلاة على أكمل الوجوه لتكون أرواحهم نقية متآلفة. وأعلمهم بأن الله يبشرهم بالتأييد والعاقبة الطيبة.

كان موسى عليه السلام يجد في نفسه الحرج الشديد، لأن فرعون والمقدمين من قومه ثبتوا على الكفر، ورأى أن سبب ذلك هو السعة والنعمة التي توفرت لهم من زينة الحياة ومباهجها، ومن كثرة الأموال التي آتاهم الله، فتوجه إلى الله أن يسلب الخيرات التي مكنهم منها، وأن يسلط عليهم من الكروب والدواهي ما يجعل قلوبهم في حرج شديد حتى يرتدعوا عن غيهم ويشعروا بضعفهم فيؤمنوا؛ إنهم لتمردهم بسبب النعم التي يعيشون فيها لا يؤمنون حتى يذوقوا العذاب الأليم الذي يفتح بصائرهم التي حجبها الترف.

قال الله: قد استجبت لدعائكما. وليتواصل تنفيذ استجابتي لكما، عليكما بالاستقامة على الطريق الصالح عقيدة وعبادة وسلوكا، وإياكم أن تتبعوا سبيل الجهلة الذين ضلوا عن الحق.

بيان المعنى العام :

87- وأوحينا إلى موسى وأخيه...وبشر المؤمنين.

بتبليغ موسى الرسالة، وإظهار المعجزات المؤيدة، وإيمان قومه مع جماعة من القبط معظمهم من الشباب، تحقق عامل الوحدة العقدية المكونة للأمة. وحسب سنن الله في الكون لا غنى للوحدة العقدية عن جوامع مادية تحفظ تلكم الوحدة، وتمكن لها من التواصل والاستمرار.

أوحى الله لموسى ولأخيه عليهما السلام ليقوما بما يحقق ذلكم التوحد للمؤمنين في الحياة لبناء حضارة مقامة على توحيد الله وعبادته. وإن شرط البناء الحضاري الذي كان الدين المقوم الأول فيه، هو الاستقرار الممكن لمتابعة التكوين الفكري

والعقدي، وتمتين الامتزاج بين أعضاء الأمة. لذلك أوحى الله لهما أن يوجها المؤمنين لبناء أحياء سكنية خاصة بهم، وأن لا يبقوا على حالة التشتت التي كانوا عليها. وأن تكون أحياؤهم مطبوعة بطابع مميز إبرازا للاستقلال الحضاري. فأمروا أن تكون هندسة بناء مساكنهم على نمط واحد متجهة إلى القبلة. وهل القبلة هي جهة مكة الجنوبية، أو أن تكون البيوت متقابلة ؟ ونرجح الاحتمال الأول، لأن ما بين المشرق والمغرب هو جهة القبلة (الكعبة) وهو ما يجعل الدور معرضة لدخول أشعة الشمس غالبا، فتكون أنقى هواء وأكثر ملاءمة للإقامة فيها. وينتظم شكل البناء الظاهري الذي هو مظهر توحد.

ومع ذلك يبرز التأكيد على العناية بالمقوم الديني، فأمرهم بالمواظبة على أداء الصلاة على أتم وجه وأكمله، لتكون أرواحهم صافية متعهدة بالصقل مستحضرة بواسطة الصلاة ارتباطها بالله وارتباط بعضهم ببعض.

إنه بالتكامل بين النواحي المادية الموحدة، وبين النواحي الروحية المقومة، تتحقق أسباب النجاح، تلكم الأسباب التي لا تفعل فعلها إلا بتيسير من العزيز الحكيم، فلذلك أمرهما، أن يبشرا الأمة برعاية الله لها وأنها بذلك سيكتب لها الفوز.

88- وقال موسى ربنا...العذاب الأليم.

لاقى موسى من فرعون ما لاقاه من العناد والإصرار والمكر، وفي حالة من حالات تأملاته في الوضع الذي عليه قومه، وما يرجو لهم من الهداية والمنعة، توجه مع أخيه إلى الله بهذا الدعاء المؤذن بأنه نتيجة تأملات في وضع فرعون وطريقته في الحياة. مضمون هذا التوجه: افتتحه بإبراز الصلة الضارعة بينهما وبين الله، فهو ربهما الذي والى عنايته بهما؛ إنهما يواجهان كافرا عنيدا، يتقوى مع حاشيته وأتباعه ووجهاء قومه بما آتاهم الله من السعة في الرزق، تبعا للتقدم الحضاري الذي كان عليه أهل مصر في زمن موسى، وبذلك تمكنوا به من التفنن في مظاهر الزينة في لباسهم وأجسامهم ومحيطهم، فألهى ذلك الناس عن النظر إلى ما ينطوون عليه من شر وفساد، وتملكهم الإعجاب بذلك وطوعهم للانقياد لهم.

رزقتهم ربنا سعة في المال، إذ أن الحضارة يتبعها الرخاء المادي، وكثرة الأموال تطوع الدهماء للانقياد والتبعية، فاستعملوا ذلك للإضلال وانحرفوا بهم عن الطريق المستقيم طريق الله.

هذا كان حاصل تأملات موسى، وما توصل إليه من الأسباب التي جعلت شعب مصر على الحالة التي هو عليها. وإنه ليرغب رغبة أكيدة، كشأن كل المرسلين، أن

يتحولوا عن طريق الضلال إلى طريق الهداية. فأعاد ضراعته بقوله: (ربنا) أخذ في الدعاء الذي يظن أنه باستجابته ينتصر الإيمان على الكفر.

طلبا من ربهما أن يزيل ما يتقوّوْن به من الأموال، وأن يخرجهم من حالة الرفاه والأمن والراحة، إلى حالة من الشدة والعسر فتتوالى عليه الأنكاد، وتتابع القوارع والأحزان، فتضيق قلوبهم عن تحمل المصائب، حتى يفيقوا إلى ضعفهم وعجزهم فيؤمنوا .إنهم ربنا لغلظ أكبادهم وما استدرجوا به من أنواع النعيم، لا يؤمنون إلا إذا نفذ فيهم العذاب الشديد الإيلام وأحسوا به بالغ الإحساس.

89- قال قد أجيبت ...لا يعلمون.

أظهرت هذه الآية سنة من سنن الله في استبقاء الخير، واستدامة النعمة. على المؤمنين أن يواصلوا ما هم عليه من التقوى والالتزام بشرع ربهم.

أعلم الله موسى وأخاه أنه حقق لهما ما طلباه، واستجاب لدعائهما في فرعون وملئه. وأمرهما أن يواصلا السير على الطريق المستقيم بتطبيق ما شرعه الله لهما من الأحكام في المعاملات والنظافة في الأخلاق والسلوك لينفذ الوعيد في فرعون وقومه ويتواصل. وتأكيدا لهذا الأمر صرح بالنهي عن ضده، وهو إتباع طريق الجهلة الذين حجبهم جهلهم عن معرفة الحق فاتبعوا طريق الضلال.

• وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

بيان معنى الألفاظ :

أتبعهم : لحقهم.

بغيا: ظلما.

العدو : الظلم الشديد.

الإدراك : اللحاق.

خلفك : الذين يأتون من بعدك.

بوأناهم : أسكناهم.

بيان المعنى الإجمالي :

يسر الله لبني إسرائيل أن يخرجوا من أرض مصــر دون أن يــتفطن لهــم فرعــون فــي أول الأمر. فاتبع أثرهم يريد أن يبطش بهم على عادته فــي الظلــم والقســوة. فلحــق بهــم وهم قريبون من البحر، فسلكوه علــى مــرأى منــه، فــاتبع طــريقهم فيــه مــع جنــوده، فأطبق عليه البحر وأخذ يهبط ويطفو حتى إذا خــارت قــواه أعلــن قــائلا: آمنــت بالــذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين. ويدخل ســمعه هــاتف الحــق منكــرا أن يفيــده إقراره في ذلك الظرف شيئا. ثم يؤنبــه بمــا كــان عليــه طيلــة حياتــه مــن العصــيان والتمرد، من الفساد بالظلم ومنــع النــاس مــن حقــوقهم والكفــر والإســراف. وأن مــا رجاه من النجاة قد تحقق، لكن لجثتــه فقــط. وفعــلا قــذفها البحــر ســليمة مــن نهــش الأسماك، ليكون على وضعه وهو ملقى على الشــاطئ ميتــا لا حــراك بــه، آيــة ودلــيلا للذين يأتون من بعده، من الفراعنة ومــن الحاشــية ومــن النــاس، علــى أن قــدرة الله لا تغالب. إن ما يقيمه الله من الآيات يهدي لمعرفة الحــق، ولكــن غفلــة النــاس عمــا فــي الآيات من دلالات هو الذي يجعلهم لا يتعظون. أنعــم الله علــى بنــي إســرائيل فأســكنهم في أرض مباركة بعد أن اجتازوا البحر، كمــا أنعــم علــيهم بتوســعة الــرزق. الطيــب. ومضوا على تلك الحال إلــى أن أنــزل الله علــيهم التكــاليف، فــاختلفوا اختلافــا فــرق كلمتهم، وسيحكم الله بين المتخالفين فيظهر الحــق ويجــازي كــلا حســب قصــده عنــد الاختلاف.

بيان المعنى العام :

90-وجاوزنا ببني إسرائيل...وأنا من المسلمين.

ينتقل القرآن متحدثا عن بني إسرائيل، طاويــا الفتــرة بــين مفــاد الآيــة الســابقة وهــذه الآية. إن ما قدمه موسى من جمع قومه في حــي واحــد مميــز ســهّل الاتصــال بيــنهم، كان لحكمــة أظهرهــا الله فــي الوقــت المناســب، الــذي أذن فيــه لموســى وقومــه أن يغادروا أرض مصر، مجتازين اليابسة والبحــر إلــى الضــفة الأخــرى، دون أن يــتفطن فرعون وزبانيته لخروجهم. والظلمة المســتبدون يعتبــرون هــذا تحــديا غيــر مقبــول. ولذلك جمع جنــوده مصــمما علــى اقتفــاء أثــرهم واللحــاق بهــم وتطــويقهم ليــردهم صاغرين، لينفذ فيهم ما هو شأنه مــن الظلــم والتعــذيب. إذن كــان يدفعــه لــذلك ظلمــه واستبداده (بغيا وعدوا). إنــه مــن حقهــم الإنســاني أن يقيمــوا فــي أرض مصــر أو أن

يخرجوا منها؛ فاقتفاء آثارهم لردهم قسرا تعد علـى الحريـة الإنسـانية وهـو ظلـم، بـل هو من أشد الظلم.

إذن تفطن فرعون مؤخرا لخروج بنـي إسـرائيل بـدون اسـتئذان، أسـرع فـي اللحـاق بهم، ووجدهم قد دخلوا في البحـر يقطعـون مـا بـين الضـفتين، فأخـذ الطريـق الـذي سلكوه، فلما كان في وسطه أطبقت عليه أمواج البحر هادرة فغرق.

أيقن بالهلاك وهو يهوي ويطفو، فأعلن إيمانـه بالـذي آمنـت بـه بنـو إسـرائيل. وتفيـد الآية أنه لعناده ما كان يتأمل، وهو في سلطانه وعتوه، الهدايـة التـي جـاء بهـا موسـى، والتي تقوم على أن خالق الكون واحد أحد هو إله الكون كلـه. فلـذلك عـرف الإلـه بأنـه إله بني إسرائيل. مع أن الله سبحانه هو إلـه السـماوات والأرض وبينهمـا، وإلـه البشـر جميعا.

91←92، «الآن وقد عصيت...عن آياتنا لغافلون».

تفصل الآية مآل فرعون بعد أن أخذ البحر يبتلعه، وهـو فـي آخـر لحظـة ينـادي: إنـي آمنت بإله بني إسرائيل وأنا من المسلمين. وعندها يتوجـه لفرعـون نـداء صـادق كـان آخر ما طرق سمعه. استفهام إنكاري عمـا صـرح بـه. أفـي هـذا الظـرف الحاضـر تعلن إيمانك ؟ إنكار أن يكون ما صرح به ينقذه مـن الغـرق، أو يكتـب لـه بـه النجـاة. ذلك أن الإيمان لا تترتب عليه آثاره ولا ينفـع صـاحبه، إلا إذا كـان عـن اختيـار. بـل إن كل ما يصدر عن الإنسان في الحياة من أفعـال لا ترقـى إلـى درجـة القبـول إلا إذا صدرت عن صاحبها وهو مختار لا مضـطر. وبالجملـة فالاضـطرار وسـلب الاختيـار هو خروج بالإنسان عن دائرة التكليف في الخير أو فـي الشـر، وتتكـر إذا كـان بـالقوة القاهرة، لما أراده الله من استخلاف الإنسان فـي الأرض. وأضـاف الصـوت الـذي بلـغ دخائل سمعه، وما بقي من وعيه، مؤنبا له عما قدم يـوم كـان بيـده الحكـم، لقـد سـرت على العصيان قبل هذه اللحظـة، وأضـفت إلـى عصـيانك أنـك كنـت تمكـن للفسـاد بالسيطرة مع الملأ الذين كانوا حولـك. ظلمـت النـاس، وحلـت بيـنهم وبـين الإيمـان، وقويت السحر والتمويه بما أفسد عقول شعبك. إنك إن كنـت تهـدف مـن إقـرارك هـذا النجاة، فقدتم لك ذلك، ولكـن ننجيـك ببـدنك، ونحـتفظ بجثتـك،و نسـلمها مـن نهـش الأسماك، وندفعها إلى الشاطئ لتكون لمن يأتي من بعـدك مـن الفراعنـة والأتبـاع وكـل من يعلم بمصيرك، دليلا على أن قدرة الله لا تغلـب، وأن مـآل الجبـابرة إلـى الهـلاك والخزي، وأن ما يدعيه الناس لفرعون من كونـه مـن نسـل الآلهـة وأنـه مخلـد، وأن روحه تعود إلى جسمه لتستمتع بما كان يفضـله فـي حياتـه، ممـا تـدل عليـه الآثـار

الفرعونية في الأهرام التي بنوها على هذا التصور؛ كل ذلك أوهام يقوم إلقاء البحر لجثتك، على زيفها. إن آيات الله الداعية للتأمل فيها والاتعاظ بها محققة للمراد منها، إذا نظر فيها الإنسان وتعمق فيما تدل عليه، ولكن التقصير من كثير من الناس بالغفلة عنها، هو الذي حجبهم عن الإفادة منها.

93 -ولقد بوأنا بني إسرائيل...فيه يختلفون.

بكل تأكيد أنعم الله على بني إسرائيل بعد أن اجتازوا البحر، ونجوا من فرعون وملئه، فأسكنهم في مساكن آمنة بعيدة عن الاضطراب والخوف. وزادهم نعمة بتوسيع الأرزاق، ومكنهم من طيبات الأطعمة، فهم لم يخشوا جوعا ولم يضطروا إلى شظف العيش والمنكر من الغذاء.

ثم مضوا على هذا الحال مدة، كلمتهم واحدة وحياتهم رخية آمنة. إلى أن توالت عليهم التكاليف التي حددت لهم ما يقبلون عليه، وما ينصرفون عنه. فجاءهم التشريع المفصل لعلاقة الإنسان بمتنوع مظاهر الحياة المدنية، وعندها اختلفوا. لم يفصل القرآن ما اختلفوا فيه وما تفرقت عليه كلمتهم، ولكنه نبه المؤمنين أن عليهم أن يتخذوا من التشريع ما يوحد الكلمة ويقوي أواصر الاتصال بين المخاطبين به. كما نبه إلى أن الاختلاف إذا تمكن فإنه سيستمر، ومن الاختلاف البسيط يدخل الشيطان ليفرق ويقوي التحزب، ويصرف عن إتباع الحق والرضوخ له إلى محاولة الغلبة والانغماس في التأويل. وقرر القرآن أن الله سيحكم بينهم فيما اختلفوا فيه يوم القيامة، فيجازي من كان همه إتباع ما يظنه الطريق الذي يرضي الله جزاء مضاعفا إن هو وصل إلى الحق، ويجزيه عن اجتهاده إن هو صدق في اجتهاده ولم يوفق إلى الحق المقرر عند الله. ويعاقب من عرف الحق وكتمه وحاد عنه، أو من كان جاهلا معاندا متظاهرا بالعلم.

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

الامتراء : هو الشك فيما لا شبهة تبرر الشك فيه.

حقت: ثبتت.

كل آية : آيات كثيرة.

بيان المعنى الإجمالي :

إذا كنت تعجبت من اتباع فرعون وجنوده لموســـى حتـــى دخلــوا الطريـــق الـــذي ســـلكه وسط البحر، وأخذت تتساءل كيف يصـــل بـــه الغبـــاء إلـــى هـــذا الحـــد، فاســـأل الـــذين يقرأون التوراة، فإن القصة معلومة عندهم. فاهنأ بما يســـره الله لـــك مـــن معرفـــة الحـــق. ثم توجه الخطاب لكل فرد ممن يبلغه كـــلام الله أن لا يكـــون مـــن الـــواقفين عـــن تقبـــل حقائق الوحي. وثنى بالنهي عن التكذيب بالأدلة الآتية مـــن ربـــك، فـــإن مـــن كـــذب بهـــا يكون من الخاسرين الذين ذهب كل ما عملوا من خير هباء.

إن الذين علم الله تصميمهم على الكفـــر وأنهـــم لا ينظـــرون فـــي الآيـــات التـــي تـــبلغهم، ويعرضون عن كل تعليم أو تذكير، هـــم الـــذين ثبـــت مـــا ســـبق فـــي علـــم الله، أنهـــم لا ينفتحون للإيمان، ولو توالت علـــيهم الآيـــات المتتابعـــة الكثيـــرة. ولا يـــؤثر فـــيهم ذلـــك، ولا ينقادون للحق إلا بعد أن يذيقهم الله العذاب الأليم.

بيان المعنى العام :

94-95، فإن كنت في شك...فلا تكونن من الممترين.

هذه الآية إن فهمت على ما يقتضيه ظاهرها كانت مشكلة.

أولا: لأنه ثبت يقينا بأدلة العقل والنقل أن النبـــي ﷺ بلـــغ إيمانـــه درجـــة مـــن الوضـــوح واليقين والحضور في الروح والمشاعر بصفة دائمـــة، مـــا لـــم يصـــل إلـــى مســـتواه أي فرد من البشر. وهذا أمر لازمه ولم يفارقـــه لا فـــي يقظـــة ولا فـــي منـــام. وفـــي آخـــر لحظة من حياته كما روته عائشة رضي الله عنها قال: مع الرفيق الأعلى.

ثانيا: صياغة الآية جاءت بشكل الخطـــاب للنبـــي ﷺ إن كـــنت فـــي شـــك، ممـــا أنزلنـــا **إليك، فاسأل**، من قبلك، جاءك. ممـــا يقتضـــي ظـــاهره أنـــه خوطـــب بتعريفـــه بالطريقـــة التي يزيل بها شكه إن وقع.

وبناء على ذلك فزع المفسرون إلى الخروج بالكلام عـــن ظـــاهره، دفعـــا للتنـــاقض الـــذي يقتضيه ذلكم الظاهر. وقد اعتنى الإمام الرازي فخرجه على طريقتين:

الطريقة الأولى: أن الضمائر موجهـــة إلـــى النبـــي ﷺ والمقصـــود غيـــره. وهـــذا نظيـــر قوله تعالى لمحمد: لئن أشركت ليحـــبطن عملـــك، وقولـــه لعيســـى: أأنـــت قلـــت للنـــاس اتخذوني وأمي إلهين. ومن الأمثلة المشهورة: إيـــاك أعنـــي واســـمعي يـــا جـــارة. وهـــذا من باب التعريض.

ووجه الخروج عن الأصل إلى الخطاب بسبعة أوجه. في كثير منها مظاهر تكلّف وتمحل، وفي تتبعها ما يخرجنا عن المنهج الذي التزمناه.

الطريقة الثانية: الخطاب ليس مع الرسول، ولكن مع الشاكين: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلناه إليك.[1]

و خرج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور على احتمالين:

الأول: أطلق الشك وأريد به أصحاب الشك، أي فإن كنت في قوم أهل شك مما أنزلناه إليك، فاسأل اليهود يخبروك عما عندهم وهو عين ما أخبرتهم به. فتكون الآية ملجئة للمشركين ليعترفوا بصدق الرسول. باعتبار أن التوافق بين ما أنزل عليك وما هو موجود في التوراة بشهادة أهل الكتاب قاطع لمعذرتهم. إذ لا يشهد اليهود بما يصدقك وهم لا يؤمنون بك.

الثاني: أن يكون الكلام صيغ صياغة التعريض، فالمقصود هم المشركون في الحقيقة، وظاهر الكلام موجه إلى النبي ﷺ.

والذي فهمته من الآية أن الآية السابقة أثبتت أن فرعون وجنده اتبعوا موسى وقومه، ودخلوا من المسلك الذي سلكه بنو إسرائيل، وهو مسلك يعرف فرعون ومن معه أنه في وسط البحر المتلاطم الأمواج. وكيف أن فرعون الذي كان يدبر ملك مصر بدهاء واستبداد، كيف يسلك هذا المسلك الذي لا يرمي بنفسه فيه حتى أشد الناس غباء ؟ أخذ النبي ﷺ يتدبر فيما أنزل إليه، ويعجب من الحادثة، إذ أن الذين سحقوا بالعذاب العاجل من المشركين في تاريخ البشرية، من الذين قص علينا القرآن مآلاتهم، كان العذاب مسلطا عليهم بقوة قاهرة، أما فرعون وقومه فقد هلكوا باختيارهم ما لا يختاره من له مسكة من العقل، ففي هذا التدبر الذي يفرض الفروض لتصور الحادثة، والذي يرقى به الإيمان ببحثه عما يزيل العجب، جاءه الوحي ينير له ما ينفي تعجبه، باعتبار أن ذلك أمر معروف عند الذين يقرأون التوراة. ويثبت أن ما نزل عليه في هذه القصة من الحق الذي بلغه من ربه، وأنه حق لا شك فيه. فالمقصود والله أعلم أن هذه الآية متعلقة فقط بقصة غرق فرعون، لا بكل ما أنزله الله عليه من القرآن.

وعلى هذا النسق من الحق الثابت في كل ما أوتيه النبي ﷺ من الوحي، يترتب عليه أن على كل مخاطب أن لا يكون شاكا في أي مما عرضه. وثنى بالنهي نهيا عاما

---

[1] التفسير الكبير ج 5 ص 28/26

عن التكذيب بآيات الله، ذلك أن المكذب بآيات الله ليس له إلا مال واحد وهو أنه سيكون مقرونا لزمرة القوم المفلسين من الخير الذين خسروا كل شيء، فلا ينتفعون بأي عمل من أعمالهم ولو ترتب عليه نفع في الظاهر، إذ هو عمل محبط.

96←97 : إن الذين حقت عليهم ...العذاب الأليم.

من الناس من إذا جاءه أمر جديد تأمل فيه ووزنه بميزان عقله وتجاربه، ومنهم من يقوم في عقله سد يمنعه من النظر، ويحجبه عن التدبر. إن النوع الثاني هم الذين تمسكوا بالرفض لكل ما جاء به النبي ﷺ، ولو تكاثر ورود الآيات الواضحة الدلالة على عقولهم ما انتفعوا. لقد سبق في علم الله اختيار هؤلاء لهذا المنهج في حياتهم ؛ فهم لا يؤمنون حتى يسلط الله عليهم عذابه الأليم كما وقع لفرعون عند غرقه.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَٰنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْءَايَٰتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

كشفنا عنهم : رفعنا عنهم فلم نصبهم.

الخزي : المهانة والذل.

الإكراه :الإلجاء وفرض إرادة الشخص على غيره.

الرجس : الخبث والفساد، وهو الكفر في الآية.

الأيام : ما يقع فيها من الأحداث العظيمة القاهرة.

بيان المعنى الإجمالي :

تسجل الآية اللوم والتخطئة لكل قرية من القرى السابقة التي دعاها رسولها إلى طريق الله، لتنتفع بإيمانها، وواصلت العناد إلى أن حل عليها العذاب، إلا قوم

يونس من الذين تابوا وآمنوا قبل أن تحل عليهم النقمة. فرفع الله عنهم العذاب بعد أن تهيأوا له، ومتعهم بنوافل فضله في الحياة الدنيا.

هذا قانون الله الذي أجرى عليه خلق البشر، أن كل فرد ممكن من الخير والشر والإيمان والكفر، ولو شاء الله أن يؤمنوا كلهم لآمنوا ولما وجدت كافرا. فهون عليك فإنك لا تستطيع أن تجعل الناس كلهم مؤمنين.

إنه لا يستطيع أي فرد أن ينفتح للإيمان إلا بإذن الله، فيطوع عقله للإيمان تبعا لما يحيطه به من العون ويصرفه عنه من الصوارف. ويسلب الله العون عن الذين اختاروا الكفر فأقفلوا عقولهم حتى استووا مع غير العقلاء.

كتاب الكون أمامكم فانظروا ما تحويه السماوات والأرض من دلائل تنادي بأنها مخلوقة لله، وأن الله هو المتصرف فيها. ولكن الأدلة الناطقة لا تفيد من أطبق الكفر على عقله، كما لا تفيدهم الزواجر ولا الوعيد.

بعد هذا الإيقاظ لما يقتضيه العقل، ولما تقوم عليه شواهد النظام في الكون، ما الذي ينتظره الكافرون ؟ هل ينتظرون أن يحل عليهم العذاب الذي سلط على من كان قبلهم؟ قل لهم انتظروا ما سيتحقق في المستقبل؛ فإني منتظر تحققه معكم. أنتم تنتظرون أن يحل عليكم غضب من ربكم وذلة، وأنا أنتظر أن ينصرني ربي. ويعلن الله أنه ينجي رسله والمؤمنين من العذاب الذي سيأتيهم. فإنه على هذا النحو من قصر العذاب عليهم، وحماية المؤمنين جرى قدره.

بيان المعنى العام :

98-فلولا كانت قرية ...إلى حين.

صيغت هذه الآية صياغة خاصة، تدعو المتطلب لفهمها أن لا يعجل، وأن يتتبع الطريقة التي صيغت بها بتأمل، وبتدقيق للاستعمال العربي في الأدوات التي دخلت في تركيبها.

افتتحت الآية بقوله تعالى (فلولا) وهذه أداة، الأصل فيها أن تفتتح بها الجمل لتكشف عن قصد المتكلم حث المخاطب على الاستجابة لمضمون كلامه، وهي قريبة من (هلّا).وذلك عندما يكون الكلام للزمن المستقبل كأن تقول للتلميذ: لولا تجتهد أكثر لتتفوق في الامتحان. أما إذا كان مدخولها ماضيا فالحث منتف، وتكون عندها للدلالة على أن المخاطب وقع في خطأ يلام عليه ويوبخ. كأن تقول لمن سُرقتْ داره: لولا أحكمت قفل بابك ما تمكن السارق من الدخول إلى منزلك. والآية متمحضة للمضي، إذ مضمونها: التشهير بالغلط الذي وقعت فيه القرى الماضية

التي جاءها المرسلون وعرفوهم بهداية ربهم فصمموا على الإعراض، ولو آمنوا لانتفعوا بإيمانهم ولم يسلط عليهم العذاب. فهو توبيخ لجميع القرى السابقة المعرضة عن قبول الهداية إلى أن حل عليهم العذاب. وقد سبقت قصصهم في هذه السورة وآخرها قصة فرعون.

واستثنت الآية من القرى التي واصلت رفضها إلى أن انتقم الله منها، استثنت قوم يونس ؛ الذين أنذرهم نبيهم عاقبة التمادي على الكفر، وهددهم بما أخبره الله به من العذاب الذي سيحل بهم إن لم يؤمنوا ويصلحوا أمورهم ويتبعوا شريعة ربهم، ووصل الأمر بيونس إلى أن عاجله اليأس من صلاحهم وغادرهم. وتفطنوا عندما لم يجدوه بين أظهرهم أنه ما خرج من قريتهم، نينوى بالعراق على ضفاف دجلة، إلا أن العذاب يوشك أن ينزل بهم، فأنابوا إلى ربهم، وآمنوا وطبقوا ما شرعه الله لهم، فرفع الله عنهم العذاب ؛ ويسر لهم معيشتهم فلم يؤاخذهم، كرما منه، بما سبق منهم من التكذيب والعصيان. يسر لهم من متاع الدنيا الذي ينقضي بانقضاء أجل كل واحد منهم. وأما وضعهم يوم القيامة فإنه يجري على العدل الإلهي الذي سيقضى به على جميع البشر.

وسيتعرض القرآن في سورة الإسراء إلى تفاصيل أوفى عن يونس ﷺ.

وهذه الآية تحريض لمشركي مكة كي ينقذوا أنفسهم ويؤمنوا، كما فعل أهل نينوى، قبل أن يتحقق فيهم الوعيد.

99-ولو شاء ربك ...يكونوا مؤمنين.

تنتظم هذه الآية مع أخواتها في القرآن الكريم لتؤكد: أن الله فطر الناس ممكنين من الاختيار، وأنه أعطى لكل فرد القوى العقلية التي بها يميز بين الخير والشر. هذه مشيئته وما شاء وقع ولا يمكن أن يقع غيره. فلو شاء أن يجعل الناس كلهم منصرفين إلى الخير وإلى الإيمان لكانوا مؤمنين، ولا تجد تبعا لذلك أي رافض للحق، ولكنه لم يشأ أن يجعل البشر نمطا واحدا.

وتخفف هذه الآية وتسلي رسول الله ﷺ، إذ شديد حرصه على إنقاذ البشرية من الكفر، وغرس الإيمان في قلوبهم، جعله يحمل هذا الهم ويود لو وجد السبيل إلى النجاح في انتشالهم من الكفر، فكأنه لشدة حرصه يعمل على حمل الناس على الإيمان حملا ولو بالقوة. وفي هذا تنويه بالنبي ﷺ، بما يحمله في نفسه الكريمة من حب الخير للبشرية جميعا.

100-وما كان لنفس ...الذين لا يعقلون.

تعمق هذه الآية مضمون سابقتها بتقرير أن أي نفس لا تستطيع أن تحقق إيمانها في الوجود إلا إذا أذن لها الله بأن تؤمن . ومعنى ذلك، أنها لا تستطيع أن تؤمن إلا إذا أيدها الله بالألطاف التي تأخذ بعقلها إلى طريق الإيمان، وأن يصرف عنها المعوقات التي تحول بينها وبينه. مع بقاء الاختيار للإنسان في الإيمان أو الكفر، وفعل الخير أو فعل الشر. فإذا أذن الله في إيمانها انساقت لها الظروف الداخلية والخارجية للإيمان فيحصل الإيمان دون أن يتعطل العقل أو يحجب عن الاختيار. وفي المقابل فإن الله يمنع ألطافه وتأييده للذين فسدت عقولهم فيتركهم إلى نفوسهم فيختارون الكفر المسؤولون عنه. خذ لذلك مثلا: كون الإنسان يولد في بيئة مؤمنة، وييسر له الاتصال بأهل الخير والفضل الذين يؤثرون فيه التأثير الصالح، وينشأ عقله على تغذيته بما يعينه على الاستقامة في النظر، ويكون عقله محصنا من الزيغ أو من تقبل التشكيك. هذه أمور لا تسلبه الاختيار الذي هو مسؤول عنه وهي بإذن الله، وهي التي يتبعها الثبات على الإيمان.

فإذا انحرف العقل انساق إلى الضلال والفساد وبالتالي إلى الكفر، إذ تعطلت ملكاتهم العاقلة، فهم لا يعقلون، ولو استقامت عقولهم ما كفروا.

101-قل انظروا ...قوم لا يؤمنون.

قل لهم: افتحوا أبصاركم، وافتحوا بصائركم للتأمل العقلي فيما حوته السماوات، وما استقر في الأرض. إن ما ينقله لكم البصر مما تحويه السماء من كواكب ومن سحب وأمطار إلى آخر ما يقع تحت المشاهدة، وإن ما تثيره تلكم المشاهد في العقل من دعوة للتأمل في القوانين المسيرة والتنسيق المحكم والنظام الدقيق. وكذلك ما تتلقونه من مشاهد الأرض، التي تسيرون في مناكبها، بأبصاركم أو عقولكم، هو كتاب الكون الذي يقوم دليلا وشاهدا يوصلكم إلى الإيمان. إن الظلاميين من الذين ينكرون الخالق، الذين وسموا أنفسهم بالعلمانيين، ووهموا وأوهموا أنهم لا يحكمون إلا العقل، لو سألتهم فقلت لهم :إن النظام كمال، والفوضى نقص، ونحن جميعا نشاهد هذا النظام فمن أحكمه؟ قالوا: الطبيعة. وإذا سألتهم ما هي هذه الطبيعة الفاعلة التي يسندون إليها التأثير؟ لا يزيدون عن ترداد: الطبيعة. فهم خرجوا من نور العقل والإيمان إلى ظلام الطبيعة والكفر. إنهم لم يفيدوا من هذه الآيات المبثوثة في الكون ما تنطق به من الدلائل. كما لم يستفيدوا من تنبيه المرسلين والمصلحين إلى ما يترصدهم من خسارة مآلهم تبعا لكفرهم بالله.

102 - 103، فهل ينتظرون ...ننج المؤمنين.

إنه بعد التــذكير، ولفــت الأنظــار إلـــى مشــاهد الكــون الناطقــة بمــا وراء نظامهــا، وإحكام خلقها من القدرة الإلهيــة، يثــور ســؤال: أي شـــيء ينتظــرون قدومـــه ليؤمنـــوا ويقلعوا عن الكفر ؟ويأتي الجواب مضمنا فـــي الســؤال، ينتظــرون أن يحــل بهــم مثــل الأحداث العظيمة التي حلت بمن سبقهم من المعانــدين؟ ثــم توجــه الخطــاب لرســول الله ليقول لهم: ترقبوا مثل تلكم الأيام، فإني مترقب مثلكم مــا يقضـــي بـــه الله. علـــى معنـــى: إنكم تترقبون حلول العذاب بكم، وأنا أترقب التأييد من الله.

وتصرح الآية بأن حلــول العقــاب بهــم ونــزول العــذاب علــيهم، يقصــره الله علــيهم وينفردون بخزيه؛ ويتولى الله إنجاء الرسل والمــؤمنين كقاعــدة ســبقت وتســتمر، إن مــا أوجبه الله على نفسه أنه يحفظ المــؤمنين مــن مواقــع الإذلال والعــذاب والمهانـــة التـــي يسلطها على الكافرين.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

بيان معنى الألفاظ :

يمسك : يصيبك.

الضر : كل ما يكره الإنسان حصوله لنفسه أو لمن يحب.

بيان المعنى الاجمالي

أمر لرسوله أن يعلم كل إنسان وجد عند نزول الآيــة أو ســيأتي مــن بعــد، يعلمـــه بأنـــه إن كان قد احتواه الشك في ديــن الإســلام، فــإني رافــض لمــا تعبــدون مــن دون الله، سواء أكان صنما أو هوى. ولكني أفرد الله بالعبــادة الــذي يتصــرف فــيكم فيميــتكم فـــي الوقت الذي حدده لوفاتكم. وإني مأمور بأن أكون في موكب المؤمنين.

كما أمرت أن أخلص جميع كياني للدين، منصـــرفا عـــن كـــل التصـــورات المخالفـــة لمـــا قرره، وأن أبتعد عن مجموعة المشركين بالله، فكل صلة بهم مقطوعة.

هذا الإخلاص في التوحيد يقتضي مني أن لا أســـتعين بالعـــاجزين عـــن نفعـــي كعجـــزهم عن الإضرار بي، فأنا لا أتقرب ولا أتوسل إلـــيهم، لأن مـــن يفعـــل هـــذا ويـــربط آمالـــه بغير الله يكون ظالما لنفســـه، إذ علـــق التحصـــيل علـــى النفـــع أو دفـــع الضـــر بمـــن لا يستطيع عونه ولا التأثير في الواقع.

إنه إن يصبك الله المتصرف وحده في الكـــون، بمـــا يضـــرك فـــلا تســـتطيع أي قـــوة أن ترد قضاءه، وإن تعلقت إرادته بأن يمنحك مـــا ترغـــب فيـــه مـــن الخيـــر، فـــإن فضـــله سيأتيك ولا تستطيع أي قوة رده. إن فضله يُمكّـــن منـــه مـــن يشـــاء مـــن عبـــاده، وهـــو فضل منه، يتجاوز ربنا عن تقصيرنا وقصورنا، لأنه هو الغفور الرحيم.

قل للناس جميعا مقالا يتردد ما بقي الزمن: لقـــد بلغكـــم القـــرآن وشـــرع الله، فمـــن أخـــذ بما جاءه، وأذعن له، فإنما نفع نفسه لما يرجوه مـــن رحمـــة الله، والوقايـــة مـــن عذابـــه. ومن حاد عن طريق الحق، فكفر بالله ورفض شريعته فإنمـــا أوقـــع الضـــر علـــى نفســـه. وإني مبلغ عن ربي وقد بلغت، ولست ملزما أحدا بما بلغته قهرا.

و بعد هذا: واصـــل اتبـــاع الطريـــق المســـتقيم الـــذي أنـــت عليـــه، واصـــبر علـــى أذى المشركين، حتى يحكم الله بينـــك وبيـــنهم بنصـــرك علـــيهم وظهـــور الإســـلام. والله هـــو الحاكم القوي الذي لا يرد حكمه ولا يجور فيه.

بيان المعنى العام :

104-قل يا أيها الناس...من المؤمنين.

أمر من الله لرسوله أن يقول لمن لم يبلغ درجـــة اليقـــين مـــن صـــدق مـــا أتـــى بـــه: إن كنتم لم تطمئنوا إلى أحقية ما أتيت به من ديني الذي أنا واثـــق مـــن كونـــه مـــن عنـــد الله، برأني الله من الشك فيه، وقد خالط قلبي ومشـــاعري حتـــى صـــار جـــزءا منـــي. فلـــذلك نسبه القرآن لنفس محمد (ديني). وإذا كان الشك ينخـــر عقـــولكم، فـــإني علـــى يقـــين مـــن صدق ما أتيت به، وأن ما تدينون بـــه باطـــل فاســـد وغيـــر صـــادق، فأنـــا لا أتبعـــه ولا أعبد ما تعبـــدون. ولكنـــي أعبـــد الله الواحـــد الأحـــد الـــذي يتصـــرف فـــيكم تصـــرفا لا تستطيعون الانفلات منه. فهو الذي يميـــتكم فـــي اللحظـــة التـــي قـــدر أن يتوفـــاكم فيهـــا. ومن حكمة القرآن أن اختار للتدليل على تفـــرد الله بالتصـــرف تقـــديره وتنفيـــذ مـــا قـــدره في أجل كل نفس؛ فإن الحياة أقرب ما يملكـــه الإنســـان ظـــاهرا، فالتنصـــيص علـــى أنـــه واهم غير مالك لها في الحقيقة، لأن الله يقبضها إليـــه متـــى شـــاء، لأظهـــر دليـــل علـــى

فساد معتقداتهم. والعقيدة الواضحة الصحيحة: هي ما أمرنـــي بـــه ربـــي أن أكـــون ســـائرا في موكب الإيمان المهتدي في الكون.

105 ـ،106، وأن أقم وجهك...من الظالمين.

و أمرت بتخصيص عقلـــي ومشـــاعري ومـــداركي للتمســـك بالـــدين الإســـلامي المتفـــرد بمنهجه وغايته عن غيره، وأن أجعلـــه وجهتـــي الوحيـــدة، فـــي العقيـــدة والســـلوك، فـــلا أتبع في قليل أو كثير غير ما جـــاء فيـــه. ولتحقيـــق هـــذا المعنـــى عطـــف عليـــه النهـــي المؤكد عن اتباع الشرك وجماعته.

ثم إن كل إنسان يشعر بضعفه عندما يريد تحصـــيل المرغـــوب فيـــه ويخشـــى أن يفوتـــه، أو يخشى ضرا يصيبه ولا يستطيع أن يكـــون لنفســـه مناعـــة منـــه، فتجـــده يطلـــب مـــن يسعده بالعون، فيتوجه بالدعاء للقوة القـــادرة التـــي بيـــدها ذلـــك. ولا يوجـــد مـــن يملـــك الأمر كله إلا الله . فلاَ تَـــدَعُ أحـــدا غيـــره لعونـــك علـــى الفـــوز بمـــا ترغـــب فيـــه، أو لحمايتك مما تخشاه. إنك إن استعنت بغيره تكـــون فـــردا مـــن القـــوم الظـــالمين الســـائرين في عماية من الذين ظلموا أنفسهم فخرجـــوا بهـــا عـــن الطريـــق المبلـــغ للمقصـــود إلـــى الطريق المسدود في نفق مظلم لا نور فيه.

و مما يحقق ذلك أنك إذا أصبت بضر في نفسك أو فـــي مالـــك أو فيمـــا يحزنـــك ضـــره، فإنه لا يكشف ذلك ويزيله إلا الله. وفي المقابل إذا أراد الله لـــك الخيـــر ممـــا ترغـــب فيـــه لنفسك أو لمن تحبه.

وفي هذه الآية تحذير شـــديد مـــن الاســـتعانة بغيـــر الله، فإنـــه إذا فـــرض كمـــا يفـــرض المحال أن الرسول ﷺ على جلالته قدره عند ربه، فعل ذلك يكون من الظالمين.

107 ـوإن يمسسك الله بضر...الغفور الرحيم.

ومما يحقق ما ورد في الآية السابقة أنك إذا أصبت بما تكـــره فـــي نفســـك أو فـــي مالـــك أو فيما يحزنك ضره، فإنـــه لا يكشـــف ذلـــك ويزيلـــه إلا الله. وفـــي المقابـــل إذا أراد الله لك الخير مما ترغب فيه لنفسك أو لمن تحبه لـــه، فإنـــه لا تســـتطيع أي قـــوة أن تحجـــب عنك ما أراده الله لك منه. فإذا تعلقت الإرادة الإلهية بإنجـــاز أمـــر فـــي الوجـــود عجـــزت كل القدرات أن تعطل ما تعلقت به الإرادة قبل حصـــوله فضـــلا عـــن تعطيلـــه بعـــد. إنـــه لا راد للخير الذي يحصل لك والذي هو من فضله ولـــيس كفـــاء لعملـــك. هـــذا الفضـــل الذي يمكن منه مـــن يشـــاء تبعـــا لحكمتـــه. وربنـــا ســـبحانه لا يحاســـب النـــاس علـــى تقصيرهم، فيحرمهم فضله ولكنه غفور رحيم، رحمته وســـعت كـــل شـــيء ومنهـــا ذنـــوب

المـــذنبين وتقصـــير المقصـــرين. فهـــو راحمهـــم وإن تفاوتـــت مـــراتبهم فـــي الكمـــال، ماداموا لم يشركوا به ولم يبدلوا شريعته.

108-قل يا أيها الناس ...وما أنا عليكم بوكيل .

تكرر الأمر بكلمة (قـل) أربعـا وعشـرين مـرة فـي هـذه السـورة، وختمـت بهـذا الإعلان المفتتح بها. فكانت جامعة في عميق مدلولها كـل مـا جـاء مـن بيـان ومحاجـة ودعوة، وكانت وجهة للناس جميعا مضمونها: أن الله الـرؤوف بكـم الـذي يبغـي لكـم الهدى والرشاد (ربكم) قد اعتنى بكـم فـبلغكم عـن طريـق رسـوله، الحـقّ الـذي لا يشوبه باطل، فأخرجكم به مـن الحيـرة والضـلال. ثـم إنكـم مختـارون لا مجبـرون، فمن أعمل عقله ونظره ووصل إلى الالتزام بمـا جـاءه مـن ربـه، فـإن اهتـداءه ومـا يترتب عليه من خير في الحاضر والمآل هـو غـنم لنفسـه، بمعنـى أن عليـه أن يحمـد الله على مـا هـداه؛ وتعـالى الله أن يعـود لـه نفـع مـن إيمـان المـؤمنين وصـلاح الصالحين. كما أنه في المقابل، من ضل الطريق فكفـر بـالله ورفـض مـا جـاءه علـى لسان رسوله، فإن جريرة ضلاله لا تقع إلا علـى نفسـه. إنـه بعنـاده وإعراضـه أهلـك نفسه في الحاضر والمآل، ولن يضـر كفـره النبـي ﷺ. وقـل لهـم إنـي لسـت مـوكلا بهدايتكم ولا أتحمل ضلالكم.

109- واتبع ما يوحى...وهو خير الحاكمين.

إنك على الهدى الكامل، وعلى الصراط المستقيم المأمون عاقبتـه. هـو طريـق بينـه لـك ربك بما أوحاه إليك، فاتبعْهُ وواصلْ مسـيرتك فـي الحيـاة عليـه مـع الوثـوق الكامـل والطمأنينة التامـة، واصـبر علـى أذى المشـركين والمعانـدين ولا تضـجر إن تـأخر النصر، وثابر على ذلك حتى يحكـم الله بينـك وبـين الكـافرين بحكمـه العـادل، فهـو ناصرك، والله في عظمته لا يـرد حكمـه. فهـو الحـاكم الكامـل، وكـل حـاكم سـواه ناقص، فهو بذلك سبحانه خير الحاكمين.

2011/06/05

ســورة هـود

بهذا الاسم عرفت في المصاحف وكتب التفسير والسنة. وقد تكرر ذكر اسم سيدنا هود فيها خمس مرات. نزلت على رسول الله ﷺ بمكة. رتبتها الثانية والخمسون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف. وهي السورة الحادية عشرة حسب ترتيب المصحف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

بيان معنى الألفاظ :

أحكمت : الإحكام الإتقان.

الاستغفار : طلب المغفرة والصفح عن الذنوب.

التوبة : الإقلاع عن الذنب والعزم على عدم العود.

يمتعكم : يمكنكم مما تنتفعون به وتجدون فيه متعة.

متاعا حسنا : حياة طيبة.

الفضل : الأول: العمل الصالح، والثاني فضله، ثوابه في الآخرة.

الاستخفاء : الاختفاء البليغ.

الاستغشاء : التستر .

ذات الصدور : ما استقر في عقولهم.

الدابة : ما يتحرك من الحيوانات الأرضية.

الرزق : ما به قوام حياة الدواب.

بيان المعنى الاجمالي :

ينوه الله في فاتحة السورة بالقرآن، أخبر عن اياته، بأنها محكمة بلغت الغاية من الدقة، وأنها بينة واضحة لا يدخلها التردد. الذي أنزلها هو الموصوف بالحكمة، فلا بد أن يكون كلامه حكيما، وهو الذي بلغ علمه دقائق الأمور فلا تكون أيات كتابه إلا مستوفية للمعاني المقصودة بوضوح.

أفردوا الله بالعبادة، تفضل بإرسالي إليكم أبشّر المؤمنين وأنذر المعاندين ليقلعوا. فاطلبوا من ربكم المغفرة لما سلف منكم من كفر ولتكن توبتكم تامة بإقلاعكم عما كنتم عليه، عازمين على عدم العودة إليه. إنه بذلك يمكّنكم ربكم من حياة آمنة طيبة، ويوفر لكم يوم القيامة من فضله ما تنعمون به في آخرتكم. واحذروا؛ إنه إن أعرضتم فإنِّي أخاف عليكم أن يسلط الله عليكم عذابه في يوم كبيرٌ عقابه. واعلموا أنكم لا تنفلتون من العودة إلى ربكم فالله قدير على كل شيء.

من غباء الكافرين أنهم يظنون أن الله لا يعلم ما يجري في عقولهم إذا هم انثنوا فأخفوا صدورهم. لينتبهوا أنه سبحانه يعلم كل ما يعلنونه وما يظهرونه، وإن غلفوا أنفسهم بثيابهم، فإن الله عليم بما تكنه العقول ما جهرت به أو ما أخفته.

إن علم الله الواسع وقدرته العظيمة، لا يخرج عنهما أمر البشر ولا أمر الدواب، فكل ما يتحرك في الأرض يمكنه الله من رزقه، يعلم المكان الذي هو فيه، ويعلم تكاثره، فيوفر له في كل حال ما يبقي على استمرار الأنواع. وكل ذلك مسطور في علمه لا يتبدل، شأن الأمور الموثقة بالكتابة.

بيان المعنى العام :

1 -ألر كتاب أحكمت أيته ....من لدن حكيم خبير.

ما ذكرنا في فاتحة سورة البقرة وفي السور المفتتحة بحروف غير متواصلة يجري فيما افتتحت به هذه السورة (ألر).

والكتاب هو القران، أخبر الله عنه بأنه قد أحكمت آياته؛ أي إن ايات القرآن بلغت الغاية في الإتقان، سواء من ناحية المضمون لا يخطئها الصدق والمطابقة للحق والواقع، أو من ناحية الصياغة، لكل كلمة فيها وقعُها الخاص، لا تقبل غير ما نطقت به إلا على ضرب من النقص في البيان. وفوق ذلك تناولت بالتفصيل الموضّح ما ينفي الإبهام وحيرة المخاطب لفهم المقصود منها.

إن ما اختص به القرآن، لا غرابة في أن يكون على هذه الحـال، لأنـه صـادر مـن نبـع الحكمة، إذ هو كلام الله الحكـيم، ولا يصـدر عـن الحكـيم كـلام إلا وهـو موصـوف بالحكمة. وهو العليم بخفايا الأمور لا يغيب عن علمه شـيء، فلـذا كـان كلامـه مفصـلا كاشفا عن المقصود بلا التواء ولا تعمية.

2-ألاتعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير.

وجماع الإحكام والتفصيل يرجع إلى القاعدة الأساسـية التـي بُنـي عليهـا الـدين. وهـي إخلاص العبادة لله .بإيجاب عبادة الله وحده والنهي عـن عبـادة غيـره. والإخـلاصُ فـي العبادة ليس متروكا للإنسان يطبقه حسب تصـوره وإلهامـه، ولكنـه هـو المـنهج الـذي جاء به رسوله، يبشر المستقيمين على الطريقة التي بينهـا برضـوان مـن الله بمـا يتبعـه من الفوز في الدنيا والآخرة، وينذر المعرضين عنـه بمـا يترصـد هـم مـن سـخط الله وعذابه .

3-وأن استقيموا إليه..فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير.

من التفصيل في آيات القرآن، ما ورد في هذه الآية: وهـو أمـره للبشـر أن يطلبـوا مـن الله مغفرة ما سلف منهم مـن الكفـر قبـل إسـلامهم. وأن يقرنـوا بـين طلـب المغفـرة والتوبة بالندم على ما فات منهم، على معنـى أن تسـتيقظ فـي بـواطنهم نـوازع الخيـر فيجدون اشمئزازا مما فرط منهم من كفر أو من ذنب.

إن طريق التوبة والاستغفار يتبعه قبول الله لعبـده المسـتغفر التائـب، فيـنعم عليـه بـأن يمكنه مما يجد فيه متعة في حياتـه الـدنيا، تتواصـل ولا تنقطـع إلـى أن يبلـغ الأجـل الذي قدر له في الحياة. وإنهـا لمتعـة خالصـة مـن المكـدرات، فتكـون الحيـاة الـدنيا للتائبين المستغفرين حياة طيبة. كما أنه سيمكن كـل مـن عمـل صـالحا، وهـو صـاحب الفضل، من فضل الله وهو الجزاء الأخروي.

وفي المقابل فأخبرْهم انهم إن أعرضوا ولم يؤمنـوا، بأنـك تخـاف علـيهم أن يسـلط الله عليهم عذابا شديدا في يوم تكون النقمة فيه عظيمة، فـي الـدنيا بتفريـق كلمـتهم وقهـرهم بالقتل والتنكيل، وفي الآخـرة بالعـذاب الشـديد. فكمـا كانـت البشـارة شـاملة للـدنيا والآخرة بالنسبة للمؤمنين، فكذلك الإنذار للمعرضين الكافرين.

4 -إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير.

إنكم لا تنفلتون من قبضة الله وتصرفه فيكم، سـواء فـي حيـاتكم الـدنيا أو بعـد مـوتكم أمركم بيده. وتأكدوا أنكم لا تستطيعون حماية أنفسـكم لا بشـفيع ولا بقـوة لأنـه سـبحانه هو القادر، العظيمة قدرته على كل شيء .

5 – ألا إنهم يثنون صدورهم ...بذات الصدور .

هذه الآية تفضح غباء الكافرين، فتعرض تصورهم الساذج: إنهم يثنون قامتهم فتختفي صدورهم وهم ينثنون، ظنا منهم أنهم أخفوا على الله ما يجري فيها من الكفر والشر. وهم يظنون أيضا أنهم إن استتروا بثيابهم فتغطوا بها إلى رؤوسهم أن الله لا يعلم ما يفعلون وما يمكرون.

وتبين الآية ضلالهم وسخافتهم، لأن الله يستوي علمه بما يعلنونه وما يخفونه. وتؤكد الآية الحقيقة التالية: إن الله عليم بما احتوته العقول وما استقر فيها من أمور، وإذا كان الله يبلغ علمه التفصيلي لما تخفيه عقولهم مما لم تتحدث به ألسنتهم، فمن باب أول وأحرى أن لا يخفى عنه ما يعملون.

6- وما من دابة إلا على الله رزقها...في كتاب مبين.

مظهر من مظاهر عظيم قدرته وواسع علمه وتصرفه أثبتته هذه الآية: ذلك أن علم الله وقدرته يتعلقان بالدواب تعلقهما بالبشر.من ذلك أن كل دابة تسكن الأرض على سطحها أو في جوفها في اليابسة أو في الماء، تكفل الله برزقها فلا يضيعها، ويبدو ذلك في بقاء الأجناس وتوالدها، رغم تفاوت قواها وتعرض بعضها للافتراس من غيرها. إنه الرزق الذي أخبر أنه سيمكن منه كل نوع من أنواع الدواب. إنه يعلم مكانها التي هي فيه فيمكنها من الرزق المقدر لها.وهو يعلم وضعها قبل أن تتكاثر بمختلف أنواع التكاثر من الانقسام وغيره، فيحيطها برعايته ويمكنها من رزقها لتستمر سلسلة الحياة في الأنواع. كل ذلك لا يأتي عن طريق الصدفة، وإنما هو مرتب موثق في علم الله شأن ما هو مكتوب لا يزيد ولا ينقص.

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ

ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝

بيان معاني الألفاظ :

ليبلوكم: ليختبركم.

أمة معدودة: فترة قليلة.

يحبسه: يمنعه.

حاق: أحاط.

أذقنا: مكناه من إدراك الرحمة.

بيان المعنى الإجمالي :

ذكّر القرآن بالقدرة العظيمة والإحكام لله في خلقه للسماوات والأرض في ستة أيام. وأضاف على ما سبق في الآيات الأخرى أن عرشه كان على الماء. وتصوُّرُ كيفية ذلك حسب مقاييس الحياة الدنيا وعقل الإنسان وحواسه الحادثة مضلٌّ، فنؤمن بذلك ونكل الكيفية إلى الله سبحانه. إن حظ الإنسان من هذا الخلق العجيب أنه مختبر لتظهر استقامته وحسن عمله فيجازى تبعا لذلك. وإذا نبهت الناس إلى أنهم سيبعثون بعد الموت للجزاء، لكان رد المعاندين إن عودة الحياة للإنسان بعد موته ضرب من السحر الواضح لا حقيقة له.

و الله يسلط عذابه على الكافرين في الأجل الذي حدده، فإذا تأخر عنهم العذاب بعد إنذارهم به، كان قولهم: ما الذي منع العذاب ؟ قل لهم: إن كل أمر هو مقدر عند الله ففي الزمن المحدد المقدر يأتيهم ولا منجى لهم منه، سيحيط بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه.

ومن طبع الإنسان أنه إذا شملته النعمة من الله، ثم صرفها عنه، يُطْبِقُ عليه اليأس ويستحوذ عليه الكفر برحمة الله. وإذا من عليه بالنعمة بعد الضر يفتخر بما تحقق، ويبالغ في الانغماس في اللذة ناسيا كل خير لنفسه كافرا بنعمة الله عليه. ولا يخلص من هذا الانحراف إلا الذين صبروا على النعمة وعلى الضر، ففي حال النعمة هم شاكرون، وفي حال الضر هم متضرعون آملون. إنهم في رعاية ربهم الذي وعدهم بالمغفرة إذا قصروا، وبالثواب غير المحدود.

بيان المعنى العام :

7 – وهو الذي خلق السماوات والأرض ...إن هذا إلا سحر مبين.

أكدت هذه الآية في الجزء الأول منها ما أثبتـه القـرآن مـن خلـق السـماوات والأرض في ستة أيام، وقد بسطنا القول في شرح هذا المضـمون فـي الآيـة الرابعـة والخمسـين من سورة الأعراف. وأضافت أن عرشه كان علـى المـاء. والـذي نـؤمن بـه أن اللغـة تقصر عن التعبير عن الأمور الغيبيـة المتعلقـة بالـذات الإلهيـة، كمـا تقصـر مـداركنا عن تصور ذلك تصورا حقيقيا. ولذا فالأسلم فـي تنـاول هـذه الآيـة وأمثالهـا الطريقـة التالية:

نجزم بأن عرش الله لا نحـده ولا نكيفـه،وننفـي عنـه كـل تصـور بشـري مجسـم أو مجرد. . مقارنته بالعروش الدنيوية خطأ وضـلال. أطلـق القـران عليـه العـرش فنثبتـه كما أثبته القران، ونكلُ المراد منه لله. إنه تجري فينـا الـروح فنثبتهـا لأنفسـنا ولغيرنـا، وننفيها عن الأموات. والروح التي بـه قـوام وجودنـا وإدراكنـا، تسـمو عـن إدراكنـا لكنهها. وعجزُنا عن إدراك كنهها لا ينفي وجودَها.

وكذلك كون هذا العرش على الماء، نـؤمن بصـدقه ومـن السـخافة أن نتصـوره شـيئا يطفو على سـطح المـاء. فـالحق أن نثبـت مـا أثبتـه القـران والله أعلـم بمـراده. ولا يضيرنا عجزُنا عن إدراكه حسب القـدرات البشـرية فـي الإدراك. والله يقـول : {ومـا أوتيتم من العلم إلا قليلا}[1]

ليبلوكم ليختبركم بمعنى ليظهر في الواقع ما سـبق فـي العلـم، فيتبـين المحسـنون مـن غيرهم الأحسن عملا: الأحسن عملا عقليـا بالتـدبر فـي ذلكـم الخلـق العجيـب؛ كمـا أشرنا إلى بعـض مـا يـدل عليـه فـي الآيتـين [190/191] مـن سـورة آل عمـران. والأحسن عملا في الاستخلاف فـي الأرض، حتـى تكـون عمـارة الكـون أتـم وأكمـل بالعمل الجاد المراعي للقيم الدينية والخلقيـة. والأحسـن عمـلا فـي العلاقـات الإنسـانية حتى ترتقي الحياة الإنسانية بنشر الخيـر والفضـيلة واجتثـاث الشـر والرذيلـة. وفـي هذه الميادين الثلاثة يتفاوت البشـر. صـلاحهم بمقـدار استحضـارهم ومراعـاتهم للمـآل الذي سيصيرون إليه يوم القيامة.

وهذا الملحظ هو الذي يعمل الكافرون علـى نسـيانه وعلـى إنكـاره، فإنـك إذا نبهـتهم إلى أنهم سيبعثون من قبـورهم للحسـاب والجـزاء، يعبـرون عـن إنكـارهم، بـأن مـا تهددهم به من عودة الأرواح إلـى الأجسـام، أمـر لا حقيقـة لـه، هـو سـحر واضـح، تخييل لا أساس له.

---

[1] سورة الإسراء آية 85

8 -ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة...ما كانوا به يستهزئون.

وإذا هددتهم بالعذاب الذي سيتعرضون لــه بكفــرهم، وتــأخر تسلطه علـيهم وسـيأتيهم عند أجله المضبوط في علم الله ضبطا محسوبا، لقالوا بعنــادهم، لـو كنـت صـادقا فيمـا تهددنا به، لوقع علينا العذاب، على معنى أنك تهددنا بالعـذاب القريـب تبعـا لـرفض مـا جئت به، ولو كنت صادقا في تهديـدك لوقــع العـذاب، فعـدم وقوعــه ينبـئ بـأن مـا تدعيه غير صادق.

أجابهم القرآن بتأكيد أحقية المضـمون بتقـديم أداة الاسـتفتاح: ألا- وتقـديم الوقـت فـي أول الكلام (يوم) للدلالة على أن ما قدر لهم مـن العـذاب مضـبوط أجلــه تبعـا لحكمـة التقدير في هذا الوقت المحـدد مقـدما. وتـأخيره لا يترتـب عنــه انفلاتهـم منــه، فإنــه سيحيط بهم إحاطة لا مخرج لهـم منــه، وكــان إطباقــه علـيهم بسـبب اسـتهزائهم بمـا أخبرهم به الرسول من انتقام الله منهم.

9 -ولئن أذقنا الإنسان منا .....ليؤوس كفور.

تبرز هذه الآية طبيعة الإنسان إذا لــم تتهـذب بالتربيـة الدينيـة. فالإنســان إذا مكنــه الله من الاستمتاع برحمة من رحماته في بدنه فعافاه، أو فـي مالــه فـوفره، أو فـيمن يحـب فأجرى عليه نعمته، واستمر هذا الفضــل إلــى الأجـل المقـدر لــه دون أن يشـعر بـأن حظه فيما أوتيه ليس كل شيء، وأن الذي يسر له ما يسـر هـو الله المالـك الحـق ؛فـإذا سلبه ما مكنه منه من نعم، أسرع إليه اليأس والتبـرم مـن وضـعه، ولا يصـدر منــه إلا ما ينبئ عن كفر بما سبق أن ناله من نعم، وإنكار لفضـل الله عليــه، فهـو منقطـع عـن الماضي، ومنقطع عن المستقبل غير آمـل، وهـي التعاسـة التـي يعـيش فيهـا الكفـرة الملحدون.

10 – 11، ولئن أذقناه نعماء...وأجر كبير.

وتلك الصورة للإنسان في حالتي النعمة والسلب بعـد العطــاء، يكملهـا القـرآن بصـورة أخرى كاشفة عن وضعه إذا أوصل الله إليه النعمة فاسـتمتع بهـا بعـد مـا أصـابه مـن ضر. هو في هذا الوضع أيضا كافر بنعمـة الله عليـه، يـدعي أن ذهـاب السـوء عنــه، وعودة الخير إليه، كان نتيجة لما أوتيه مـن ذكـاء وفطنـة وقـدرة علـى الخـروج مـن الأزمات والمغالق. فينغمس في الاستمتاع بما أوتيه من اليسـر بعـد العسـر، ويبـالغ فـي الانتشاء بوضعه الجديد المساعد، ويفتخر بمكتسـباته، غيـر ذاكـر لنعمـة الله عليــه ولا مقدر لما يتحتم عليه من الشكر ومن الاستقامة.

إن هذه الطبيعة للإنسان التي صورها القرآن في الآيتين، فــي حالــة يســره ثــم عســره، وفي حالة يسره بعد عسره؛ صوره على أنه مُنبَتٌ عــن الله غيــر ســعيد الســعادة الحقــة في جميع أوضاعه ؛ فلذلك استثنى القــرآن الــذين صــبروا الصــبر الإيجــابي، الــذين إذا مستهم السراء لم تشغلهم عن صــلتهم بــربهم وبــإخوانهم وبــالكون كلــه؛ كمــا أنهــم إذا مستهم البأساء لا تضعف ثقتهم في ربهــم فهــم آملــون فــي رحمتــه وعونــه. بشّــرتهم الآية تبعا لهذه الصلة الرفيعــة بيــنهم وبــين الله بالوعــد الكــريم الجــامع بــين المغفــرة لتقصيرهم، والثواب الكبير غيــر المحــدود، إنــه عطــاء مــن وســعه ملكــه الســماوات والأرض.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ۝ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ :

ضائق به صدرك : الغم والأسف.

الافتراء : الكذب المفضوح الذي لا شبهة للكاذب فيه.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤيد القرآن النبي ﷺ في مواجهة إصــرار المشــركين وعنــادهم، فيقــول لــه: لا تحــزن ولا تهتم ولا تأسف، وواصل الدعوة بجــد دون أن تفتُــر .نعــم إن مقترحــاتهم المتعنتــة قد تترك في نفسك حرجا، إذ هــم يطلبــون مــثلا أن ينــزل عليــك ذهــب وفضــة مــن السماء، أو أن يصحبك ملك يؤيدك. إن مقترحاتهم لــو تحققــت لخرجــت بالإنســان مــن دائرة الاختيار والتكليف إلى دائرة الإلجاء على الخيــر، ومــا خلــق الإنســان إلا ليختبــر ويثاب أو يعاقب على اختياراته. فدَوْرُكَ هو إنذارهم ســوء العاقبــة إن هــم لــم يؤمنــوا . أما الذي بيده التحكم في البشر فهو الله الواحد الأحد.

ونوع آخر من العناد يتمثل في رميهم النبي ﷺ أنــه افتــرى القــرآن ولــم يتلــق الــوحي به عن الله. ورد القرآن عليهم: إنكــم فــوارس البيــان وأئمــة الفصــاحة، فقــدموا كلامــا يساوي القرآن في عشر سور من سوره، واستعينوا بمن شــئتم مــن البشــر ؛ فــإذا تبــين

عجزكم وهو فعلا ما استمر مع الأعصار، فقد قامت عليكم الحجة أنه منزل بعلم الله، وعليكم أن تعلنوا إسلامكم، فهل أنتم مسلمون بعد هذا التحدي ؟

بيان المعنى العام :

12 -فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك...والله على كل شيء وكيل.

هذه الآية تصور إصرار مشركي مكة على رفض الدعوة الإسلامية، وعمق عنادهم، فجاءت الآية في صورة تحذير النبي ﷺ أن يبلغ به الأمر إلى اليأس من استجابتهم لدين الله فيترك تكرار عرض ما يوحى به إليه عليهم. إن هذا التوقع يقصد منه ما وراءه، وهو تقوية الرسول ﷺ على متابعة التبشير بالقرآن دون أن يفل في عزيمته إصرارهم على الرفض، أو استهزاؤهم به أو اقتراحهم تأييده بمعجزات على مقاييسهم. يقوّي القرآن عزيمته حتى لا يغتم ولا يأسف؛ وإن كانت مقترحاتهم وعروضهم عليه هابطة عن المستوى الذي طبعت عليه الدعوة الإسلامية. قالوا: لولا أنزل عليه من السماء كنز، يعنون ذهبا وفضة مما شأنه أن يخفى فلا يطلع عليه غير صاحبه الذي يدخره ويعضّي على مكانه. كما اقترحوا أن يصحبه ملك ينادي: هذا رسول الله صادق فيما يقوله. ويردُّ القرآن عليهم مقترحاتهم: بأن مهمة محمد أن ينذرهم حلول العذاب بهم إن هم لم يتبعوا هداية الله التي يبلغها لهم. والإنذار غير الإلجاء والقهر ولكنه تعريف الإنسان بالعاقبة التي يختارها بعقله ومواهبه. وما اقترحوه ينفي الاختيار الذي هو مناط الثواب والعقاب. وأن المتفرد بالقدرة التامة والتصرف في المخلوقات هو الله، فهو الوكيل على البشر قادر على أن يصرفهم للخير بإحاطتهم بالمساعدات، أو أن يصرفهم عنه إلى الشر بحجبه العون وترك الإنسان لنفسه.

13 --14، أم يقولون افتراه ...فهل أنتم مسلمون.

وصورة أخرى من عنادهم: أنهم يواجهون الحق الذي لا يستطيعون رفضه بالمنطق السليم، فيرمونك بالافتراء ونسبة القرآن إلى الله مع أنه من عندك. ويتولى القرآن تلقين الرسول ما يهدّم به مواجهتهم: إذا كان هذا القرآن مما يمكن أن يفترى فإني أتحداكم أن تأتوا بعشر سور مماثلة للقرآن في بيانه ومضامينه. ثم يبالغ في تحديهم أن لهم أن يستعينوا بمن شاؤوا من البشر، ولهم أن يؤلفوا فريقا من أصحاب الاختصاصات المختلفة لتحقيق ذلك.

وهذا التحدي للمنكرين أن القرآن من عند الله، قد تكرر في القرآن، فقد وقع تحديهم بأن يأتوا بسورة مثله كما هو نص سورة البقرة وسورة يونس، أو بعشر سوركما هو في هذه السورة،

أو بالقرآن كله كما في سورة الطور. وما استطاعوا ولن يستطيعوا. وفصل القرطبي رحمه وجوه إعجاز القرآن التي تحدى بها المشركين في مقدمة تفسيره ص78/73 فأجاد. ثم أعلن القرآن أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله، لا في سورة ولا في عشر سور ولا بما يساوي جميعه، ويقوم عجزهم مع أنهم معروفون بالإجادة في القول، والقدرة على حسن النظم، وجمال الأسلوب والتوفيق في البيان. فإذا كان هذا معلوما عنهم وعجزوا واستمر عجزهم، فإن ذلك يقوم مناديا بأنه منزلٌ من معين العلم الإلهي الفائق للقدرات البشرية. وأن الله واحد لا شريك له، وكلامه واحد لا يتأتى لأي فرد ولا جماعة من البشر النسج على منواله بما يساويه.

وإذ تبين العجز بعد التحدي ناداهم القرآن: ارتفع عذركم وموجبات الشك في صدقه، وما بقيت لكم أي تعلة، فهل أنتم مسلمون؟

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ :

التوفية : إعطاء الشيء كاملا غير منقوص.

لا يبخسون : لا يظلمون بالتنقيص من حظوظهم.

الحبط: البطلان والانعدام، وحرمان الثواب .

صنعوا : عملوا.

الباطل : ما يذهب ضياعا وخسرانا.

البينة : الحجة الواضحة.

الأحزاب : جمع حزب، القوم الذين يجمعهم تصور واحد.

موعده: مصيره .

المرية : الشك.

بيان المعنى الإجمالي :

منهجان في هذه الحياة الدنيا لا ثالث لهما: منهج المؤمنين الذين تعلقوا بهداية ربهم وأملوا في رضاه فهم يزنون أعمالهم بميزان الشرع. ومنهج الذين انحصر همهم في

اغتنام متاع الحياة الدنيا ومباهجها والتعلق بزينتها. وهــذا القسـم الثـاني مـع ضـلالهم لا يحرمهم الله من الحظوظ الدنيوية التي عملوا علـى تحصـيلها، ولا ينقّصنـهم شـيء منهـا بسبب كفرهم. ولكن مآلهم في الآخرة العذاب المهـين فـي النـار، ولا يجـدون أي ثـواب عن أعمالهم الحسنة، لأنها انهارت آثارها بانقطاعهـا عـن الله. وخلاصـة الأمـر تتضـح بهذه المقارنة؛ بين من كان متمكنا من هدي ربـه، متأيـدا بـالقرآن الـذي يشـهد لـذلكم الهدي وهو منه، كما يشهد له من قبل القرآن التوراة كتـاب موسـى الجـامع بـين كونـه مرجعا كما أوصى به عيسى ﷺ، وكونه رحمة بما تضـمنه مـن صـحيح العقيـدة وقـيّم التشريع، وبين من ضل وأعرض عنها. ونهى البشـر جميعـا نهيـا مؤكـدا عـن الشـك في صدق القرآن. بكل تأكيد هو الحق من عند الحـق نـزل بـالحق، ولكـن أكثـر النـاس رغم نور الحق المتلبس به اتبعوا شهواتهم وأعرضوا عن الإيمان به.

بيان المعنى العام :

15 -من كان يريد الحياة وزينتها ....لا يبخسون.

تؤكد هذه الآية مبدأ الاختيار الـذي خلـق الله عليـه الإنسـان وجعلـه بـه مكلفـا. فهـو سبحانه لا يلجئه، ولكن يمكنه مـن الاختيـار فـي حياتـه الـدنيا ليسـلك الطريـق الـذي ينتهي به إما إلى السعادة، وإما إلى الشقاء. فمن كان همـه مـا تقدّمـه لـه الحيـاة الـدنيا مما يشبع غرائزه ويلبي شهواته، وتأخذه مسـحة جمالهـا فيحتضـنها وتحتضـنه، ويوغـل في العبّ من المتعة، دون أن يعكر عليه صفو ذلـك مراعـاة الحـدود التـي حـددها لـه الخالق أو تذكره، فإن الله لا يجازيه في الـدنيا بحرمانـه ممـا سـعى إليـه وسـلك إليـه السبيل الموصل؛ وإن فاته شيء من ذلك فمرده إلى عـدم توفقـه فـي اختياراتـه لتحقيـق ما يسعى إليه. فأكدت الآية أن الله لا يحول بينه وبين شـهواته مـن ناحيـة، ومـن ناحيـة أخرى لا يختلط بتمتعهم تكاليف الإيمـان، فـإن تلكـم التكـاليف واستحضـار المحاسـبة ينقص من استمتاعهم بما يقترفونه من آثام.

والآية تشير من ناحية ثانية إلى من يعمـل عمـلا حسـن فـي ظـاهره لا يصـحبه منـه القصد الصالح والامتثال إلى الله، فهو وإن كانت له قيمـة دنيويـة، إلا أنـه والحالـة تلـك لا يرقى ليكون عملا صالحا مجزيا عنه مـن الله، إذ أن فاعلـه لـم يقصـد بعملـه وجـه الله، وقطعه عن مفيض العون؛ فلا يرجو أن يناله جزاء منه.

16- أولئك الذين ليس لهم....وباطل ما كانوا يعملون.

أولئك : الذين وصفوا في الآية السابقة بالإقبال على متع الحياة صالحها وطالحها دون مراعاة أعمالهم لما قرره ربهم من أحكام، لا ينتظرون بعد ما نعموا بجزائهم في الدنيا، لا

ينتظرون إلا شيئا واحدا، وهو أن يعذبوا بالنار؛ ولا يجدون في مدخراتهم شيئا من الأعمال التي فيها جانب من الخير، لأنها قد بطلت فلا ثواب لها، لما انفصلت عن الله، ولم يقصد أصحابها جزاء منه. فمن العدل أن يحرموا الجزاء الصالح.

17 -أفمن كان على بينة من ربه ....ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

هذه الآية تتضمن معادلة ذُكر أحد طرفيها ويقدر الآخر. فيكون المعنى: أفمن كان على بينة من ربه.....كمن ضل عنها فكفر باللهو برسوله.

و بعدُ فإن هذه الآية قد كثرت فيها الضمائر واختلفت معادلاتها مما تبعه إشكال في تدقيق المراد منها، وقد أحس بذلك معظم المفسرين، واختلفوا تبعا لذلك في ضبط المراد من تفاصيلها. والذي فهمته منها والله أعلم.

افتتحت الآية بهمزة استفهام سبقت الفاء لكونها مستحقة للتصدير في الكلام (أ) مع أن الآية معطوفة على ما سبق من مجادلة الكافرين، واعتراضاتهم وتحدي القرآن إياهم. فقابلت الصورة السابقة من الكفر والعناد، بهذه الصورة الوضيئة، صورة من التزم التزما قويا وتمكن من البينة التي جاءته من ربه، والبينة هي الهداية التي جاء بها محمد ﷺ. والتعبير بها هو نظير قوله تعالى (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة)[1]

المقطع الأول: (أفمن كان على بينة من ربه) أفاد أنهم كانوا متمكنين من الهداية الربانية التي وصلتهم من رسول الله ﷺ (ويتلوه شاهد منه) ويتبع الهدي المحمدي شاهد هو القرآن من نفس الهدي، ومؤيد بما نزل قبل القرآن على موسى عليه السلام، (ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة) وهي التوراة التي نزلت فيها البشارة بالنبي ﷺ ونوه القرآن بالتوراة بأنها مأمور بإتباعها فهي بذلك إمام، جعلها عيسى عليه السلام المرجع لأتباعه، ورحمة من الله لعباده بما بينته من تشريع هاد ومن تفصيل للعقيدة الحق.

أولئك ممن كان على دين اليهودية أو النصرانية أو المشركين من العرب، الذين يؤمنون بالقرآن، هم أهل للتنويه بهم وجعلهم في مقابل الرافضين.

و من يكفر بالقرآن من مختلف الفرق فجزاؤه: أن مصيره إلى النار. وهو ما يحتم اعتقاد كونه حقا منزلا من عند الله لم يدخله تحريف بنقص ولا بزيادة. وأيقظ المنزل لهم تبعا لذلك أن يبتعدوا عن الشك في مضامينه وعن الشك في كونه حقا

---

[1] سورة البينة آية 2/1

وصل إلى البشر محميا من كل تغيير عن الوجه الـذي أنزلــه ملــك الــوحي جبريــل عليه السلام على قلب محمد ﷺ. والقرآن هــو الحــق نــزل مــن الحــق ســبحانه، بــالحق الهــادي للبشرية إلى الطريق المستقيم من عنايــة ربــك بخلقــه. ورغمــا عــن ذلــك فــإن أكثــر الناس يتمادون على كفرهم ولا يؤمنــون، يتبعــون شــهواتهم، ويخشــون إن دخلــوا فــي الإيمان أن يفطرهم الالتزام الديني عنها، ويحولهم عــن اتبــاع غرائــزهم إلــى الاســتقامة في سلوكهم، وإلى المنهج العقلي في عقائدهم.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

اللعنة : الإبعاد.

يصدون : يمنعون.

سبيل الله : شريعته.

يبغونها: يطلبون لها.

عوجا : انحرافا يؤدي إلى الفساد.

معجزين : منفلتين فلا يقدر عليهم.

الأرض : الدنيا.

خسروا أنفسهم : لم ينتفعوا بها.

الضلال : تبعوا طريقا غير موصل، فلم يحصلوا على ما أملوه.

لا جرم :لا محالة، جزما مؤكدا.

الإخبات : الخضوع والتواضع.

مثل : حالة.

الفريق : الجماعة التي يخالف حالها حال جماعة أخرى.

بيان المعنى الإجمالي:

أقبح الظالمين من اختلق تصورات من عنده ونسبها إلى الله كذبا، كعبادة الأصنام وتحليل المحرم وتحريم الحلال. عاقبتهم أنهم يوقفون أمام ربهم فيشهد عليهم ملائكته: أنهم هم الكاذبون على ربهم، ولعنة الله عليهم وعلى من كان على نهجهم من الظالمين. من ظلمهم أنهم يحولون بين الناس وبين الدخول في الإسلام، ويحبون أن يكون طريق الضلال غالبا، يكفرون بالآخرة فيقصرون تصورهم على أيام الدنيا. إن الله قادر على إنزال العذاب بهم في الدنيا عقابا لهم. لا يجدون من ينصرهم أو يشفع لهم إذا تعلقت إرادته سبحانه. سيكون عذابهم مضاعفا، لأنهم أصموا آذانهم عن الاستماع للوحي ولم ينظروا في ما تدل عليه مشاهد الكون من حكمة. فهم بما جمعوه من فساد قد خسروا خسارة أهلكت ذواتهم، ولم يجدوا ما توهموه نصيرا. إنها حقيقة ثابتة أنهم هم الأشد خسارة يوم القيامة .

وفي المقابل، فإن الذين آمنوا وعملوا حسب ما يقتضيه إيمانهم فطبقوا شرع الله وأخلصوا له، تميزوا بأنهم سيُخلّدون في جنات النعيم. ثم ضرب القرآن مثلا يقرب به الحقائق التي بسطها، فقال إن مثل جماعة الكفر كمثل الأعمى الأصم يلفه الظلام وفقدان الإحساس بما حوله، ومثل فريق الإيمان كمثل السليم البصر السليم الحواس يتفاعل مع ما حوله ويدركه. فإذا كان الفريق الأول لا يدري مكانه ولا إلى أين يسير، فإنه على العكس من ذلك يتميز المؤمنون بوضوح الرؤية وإدراك منزلتهم في الكون. مالكم أيها الكافرون لا تتأملون ولا تتدبرون!

بيان المعنى العام :

18 - ومن أظلم ممن افترى على الله...ألا لعنة الله على الظالمين.

سؤال لا يستدعي جوابا افتتحت به الآية، إذ المقصود نفي تصور وجوده والباحث عنه يائس منه. فمعنى الآية: إنك لو بحثت عن ظلمة بلغوا من الظلم أقصاه، ما وجدت أشنع ظلما ممن بلغت بهم الجراءة أن نسبوا لله دينا زائفا، وتشريعا من خيالهم، كقولهم عن أصنامهم إنهم شفعاء، وكتحريمهم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله. وإذ تحقق فسادهم العظيم، فالجزاء الذي يستحقونه : أنه يتم إحضارهم أمام ربهم الذي توالت عليهم مننه وجحدوها. ولذا ناسب أن يبكّتوا فيقوم الشهداء عليهم

من ملائكة الرحمن فيعلنون في المــلأ: هــؤلاء الظلمــة الواقفــون للحســاب هــم الــذين بلغت بهم الوقاحة أن كذبوا على ربهــم، فتحقــق مــنهم الكفــر عقيــدة وعمــلا، ولا أشــد ظلما من الكفر بآيات الله والافتراء عليه، لعنهم الله لعنة مجلجلة بسبب ظلمهم .

19- الذين يصدون عن سبيل الله ...هم كافرون.

فضحت الآية صورة مــن ظلمهــم: إنهــم كــانوا يقفــون حــاجزا مــانعين النــاس مــن الاهتداء إلى الطريق السالك الآمن الــذي بينــه الله علــى لســان رســوله، بــل تجــاوزوا منع الناس من الاهتداء، ففســدت نفوســهم حتــى أصــبح العمــل علــى انحــرافهم عــن الطريق المستقيم طريق الحق (ويبغونهــا عوجــا) مقصــدا أساســيا لهــم. وتجــذّر فــي أعماقهم الكفر بيوم القيامة.

20- أولئك لم يكونوا معجزين...و ماكانوا يبصرون.

إن تأجيل حسابهم إلى يوم القيامــة لا يُحْمَــلُ علــى أن لهــم قــوة تمــنعهم مــن تســليط المهانة والعذاب عليهم في الدنيا، فــالله لا يعجــزه شــيء ولا يحــول بينــه وبــين تنفيــذ مراده معوّق. فلا مكان يحمــيهم يلجــؤون إليــه ولا قــوة يســتندون إليهــا تقــيهم مــن عذابه. فما اتخذوه من الأصنام على أنها أوليــاء يســتندون إليهــا ويتقربــون، لا يحصــل لهم منه أي نفع.

ثم أعلنت الآية عما يحل بهم يوم القيامــة: أنهــم يعــذبون عــذابا يتضــاعف فــي شــدته وفي أثره جسميا ونفسيا. كما أعلنــت عــن تعشّــدهم الضــلال وقــوّة عنــادهم. فهــم وإن مكنهم الله من حاسة السمع التي تنقل إلى أدمغــتهم آيــات القــرآن ومــواعظ الرســول ﷺ، إلا أن عنــادهم قــوّى إرادتهــم فــي الانصــراف عــن الــوحي، فتعطــل ســماعهم لــه بالإعراض عنه والاشتغال بغيره. كما أنهم لــم يتــأملوا فيمــا تنقلــه لهــم أبصــارهم مــن آيات الله في الكون التي تنادي بتفرد الله بالخلق والتــدبير. فكــأن تلكــم المشــاهد العجيبــة لا تنقلها أبصارهم، فهم يستوون مع العُمْي .

21 –22، أولئك الذين خسروا... أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

أبرزهم ليلقي علــيهم الحكــم غيــر مختلطــين بغيــرهم (أولئــك) إنهــم خســروا أعظــم خسارة، خسروا أنفسهم، فشَلُهم أشد أنواع الفشــل، فالتــاجر يرجــو مــن تجارتــه ربحــا فإذا فاته الربح فقد خسر، وهــؤلاء الكفــرة الــذين حــددت ملامحهــم الآيــات الســابقة، خسروا أنفسهم فأردوها في المهانة والعذاب، كما أنهم لم يجــدوا مــا كــانوا يأملونــه مــن أصنامهم فذهبت آمالهم فيها ضياعا.

إنه من المؤكد أبلغ تأكيد، أن خسارتهم كانت أعظم خسارة، يوم القيامة، إذ يواجهون العذاب، وقد تحولت أعمالهم التي فيها ظواهر من الحسن إلى هباء، وآلهتهم التي يعتزون بها إلى ذلة وصغار، ولا يجدون ملجأ يلجؤون إليه ولا قوة تشفع لهم فتخفف عنهم مما قدر لهم من العذاب في جهنم.

23-إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات....فيها خالدون.

بعد أن توسع القرآن في تتبع ملامح المعاندين وجزائهم، تكر مقابليهم، وهم الذين تحقق منهم صفاء العقيدة وقوتها، وضموا إليها صلاح أعمالهم بمطابقتها للضوابط والأحكام الشرعية المنزلة، وبمصاحبتها للقصد الصالح الذي سما إلى حالة الخضوع والطاعة لربهم. فتميزوا بأنهم الملازمون للجنة، الذين لا يفارقونها، وهم خالدون فيها أبدا.

24-مثل الفريقين كالأعمى و الأصم والبصير و السميع..أفلا تذكرون.

بعد أن استوفت الآيات السابقة خصائص الكفرة وعاقبتهم، وخصائص المؤمنين وعاقبتهم، انثنت بتقريب تمايز أحوال الفريقين بضرب مثل مجسم لما تضمنته.

إن مثل الكافرين: مثل الذين يسيرون في الحياة وقد فقدوا حاسة البصر فهم لا يعرفون الطريق المبلغ، تستوي عندهم الضلالة والهدى، والخطأ والصواب، إذ المسالك يغشيها الظلام، وهم مع ذلك صم لا يسمعون فلا يهتدون بالأصوات التي يمكن أن تدعوهم للتحول عن الطريق الذي يسيرون فيه. فلا مشاهد الكون تهديهم لمعرفة طريق الله، ولا الوحي المنزل يقرع أسماعهم ليوقظهم إلى ما هم عليه من ضلال.

وفي المقابل فمثل المؤمنين مثل الذين سلمت أبصارهم فنقلت لهم من مشاهد الكون وعجائب الخلق، والجزئيات الصغيرة والكليات الحاوية العظيمة، ما يوقفهم على القدرة المبدعة للخلاق العظيم فتعمّق إيمانهم واطمأنوا. ومع ذلك سلمت أسماعهم فبلغت إلى عقولهم كلمات الوحي الهادي والمعجز . فاقتنعوا بصدقه وسلكوا ما أمرهم به.

هما صورتان يبعد كل البعد أن تكون إحداهما مساوية للأخرى. صورة الكفر بظلامه وفقدان الحس، وصورة الإيمان البصير المتفتح على مشاهد الكون وآيات الصدق. ثم تهزهم الآية هزًا عنيفا ليتذكروا ما في هذا المثل من الصدق، ومن التجسيم للحق.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا

بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ :

النذير : الموقظ من الغفلة التي يتبعها شر.

الملأ: سادة القوم .

الأراذل : جمع أرذل، وهم سفلة الناس.

بادي الرأي : في ظاهر الرأي.

فضل: قدر زائد من الكمال.

البينة : الحجة الواضحة.

الرحمة : نعمة النبوة.

الطرد : الإبعاد عن مكان الحضور تحقيرا، أو زجرا.

الخزائن : جمع خزانة وهو ما يحفظ في المال ويقفل عليه بباب.

الازدراء : الاحتقار.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله سيدنا نوحا إلى قومه فأعلمهم: أنه يحذرهم ببيان لا غموض فيه، يحذرهم من الشرك وأن يخلصوا لله في العبادة، وأنه يود لهم الخير ويخشى أن يعاجلهم الله بالعذاب إذا هم لم يقلعوا عن الإشراك بالله.

تقدم له الكافرون من قومه معلنين أعراضهم عما جاء به، معتلين بأنه في نظرهم لا يعدو أن يكون بشرا مثلهم، والبشر لا يصلح لتحمل الرسالة. وأن الذين اتبعوه لا وزن لهم في المجتمع، فهم في نظرهم من السفلة، وقد انتفى أن يكون لك فضل أو لمن اتبعك، حتى تكون أهلا لاتباعك؛ والخلاصة أنا لا نصدقكم ونجزم بأنكم كاذبون.

أجابهم سيدنا نوح: ما ذا ترون من فائدة لاعتراضكم ؟ فـإني واثـق الوثـوق كلـه أنـي متمكن من الحجة البينة التي جاءتني من ربـي، وأنـه أكرمنـي بـالنبوة الرحمـة التـي عمرت فكري وقلبي، وأنه لا ينقص من قيمتها خفاؤهـا علـيكم. وإننـا لا نقهـركم علـى اتباعها مع كراهتكم لها. وإني لا أكلفكم يا قـومي أن تـدفعوا لـي مـالا علـى هـدايتي لكم، إن أجري تكفل بـه الله الـذي أرسـلني .ومـا عرضـتموه مـن طـرد المـؤمنين برسالتي مرفوض، إذ أنهم قوم قويت صـلتهم بـربهم وأنهـم سـيعودون إليـه وينصـفهم ممن يظلمهم. ولكن الذي سوغ لكم مثل هذا الطلـب هـو جهلكـم بكـونهم علـى الحـق. انتبهوا فإنني لا أجد من ينصرني بين يدي ربي لـو طـردتهم وهـم علـى الحـق؛ مـالكم لا تنتبهون إلى العواقب !

ومن ناحية أخرى فإني واضح في رسالتي لا أدعـي مـا لـيس بحـق: فـلا أقـول لكـم إني أتحكم فيما عند الله من خزائن ملكـه الـذي يتصـرف فيهـا وحـده حسـب حكمتـه، وكذلك لا أعلم إلا ما علمني ربـي، فـلا أخبـركم إلا بـالحق الثابـت، وكـذلك لا أقـول للمؤمنين الذين تحتقرونهم أن جزاءهم سيكون حرمانـا لهـم مـن الخيـرات حسـبما مـا تقدرونه بضلالكم. إن الذي يتولى جزاءهم هو ربهـم وهـو العلـيم بمـا تنطـوي علـيهم نفوسهم. ولو تجاوزت حدودي فـإني أكـون مـن القـوم الظـالمين، وقـد طهـر ربـي أخلاقي من الظلم.

بيان المعنى العام :

25 –26، ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه....عذاب يوم أليم.

من القصص اليقينية وإن تباعد زمنها قصة سيدنا نوح مع قومـه التـي أكـد القـرآن أنـه أرسل نوحا إلى قومه. فلنتابع هذه القصة.

المشهد الأول: يخاطب نوح قومه مقدما لهم محتوى رسالته والحامل له على متابعة تبليغها رغم العراقيل المثبطة. فقال: إن مهمتي أن أحذركم ببيان واضح بعيد عن الاحتمال والشبه. خصوا ربكم بالعبادة ولا تعبدوا أحدا غيره واطرحوا كل معبود سواه. وذلك أني أخاف عليكم إن واصلتم الإشراك بالله، أن يسلط عليكم عذابه الأليم في الدنيا بما يردعكم عن الشرك. فأنقذوا أنفسكم قبل أن يأتيكم العذاب. وربط العذاب بيوم لينبههم إلى أن العذاب يشتد حتى ينقلب الزمن في نفسه إلى عذاب.

27– **المشهد الثاني:** أسرع كبراء قومه الكافرون به الرافضون لدعوته وقالوا مقدمين لما تخيلوه سندا لرفضهم:

أ) إنك بشر مثلنا، لا تختلف عنا في شيء من الخصائص الجسمية الإنسانية. ظنوا أن الرسول لا بد أن يكون من غير جنس البشر، أو أن يكون له من الكمالات الجسمية الظاهرة ما يتفرد به عن بقية أفراد الجنس.

ب) إن تأثيرك ضعيف فلم يتبعك إلا ضعفاء القوم الذين لا مال لهم ولا منزلة اجتماعية مرموقة، واعتبروهم لذلك من السفلة الذين لا شأن لهم في المجتمع. وبالغوا في احتقارهم بأن منزلتهم الاجتماعية المنحطة معروفة بداهة دون نظر وبحث في سيرتهم. وهذا خطأ ثان منهم إذ جعلوا القيمة التي بها يتمايز البشر، ثراؤهم ومكانتهم الاجتماعية. وأهملوا من سلم القيم القيم الحقيقية، رجاحة العقل، وطهارة النفس وجمال الخلق.

جـ) إنه لا فضل لكم يوجب اتباعكم والانتماء إليكم. تأملنا في كل ما يحيط بكم وما أنتم عليه، فلم نجد لكم أي ظاهرة تفضلون بها علينا فلماذا نتبعكم.

د) إنه تبعا لذلك، لا نطمئن إلى أنكم صادقون، لا في ادعائك الرسالة، ولا في ادعاء أتباعك اقتناعهم بما جئتهم به.

28- 31، قال يا قوم أرأيتم إن كنت...إني إذا لمن الظالمين.

المشهد الثالث: تصور الآيات نوحا ﷺ هادئ الطبع رفيقا بهم، رغم ما أسمعوه من غليظ الرد. افتتح خطابه بقوله يا قوم، فهم منه بالمنزلة التي لا يبغي لهم إلا الخير، وصلته بهم حاضرة في ضميره تؤكد سعيه إلى ما يجلب لهم النفع ويحميهم من الضر. يقول لهم: فكروا في الملابسات المحيطة بدعوتي إليكم. أولا: إني واثق تمام الوثوق من أني سائر على طريق واضح تمام الوضوح، وبرهان لا شك فيه ما اخترعته وإنما هداني إليه ربي، الذي مكنني من رحمته بالرسالة التي حملني إياها التي تجدون شواهد صدقها في مضامينها، ولكنها خفيت عليكم وخفاؤها لا يبرر رفضكم السريع لها، ولكن يحتم عليكم أن تتأملوا فيها. إنه لا يقبل أن نخضعكم أنا وأتباعي لقبولها في الوقت الذي أنتم لها رافضون كارهون. فالدين لا يكون بالإكراه. وما أذن لي ربي بإرغام أحد على الإيمان بي. فأعيدوا نظركم فيما دعوتكم إليه.

إن ما يؤكد إرادة الخير لكم ولا شيء وراء ذلك: أني لا أطلب منكم أن تعطوني شيئا من أموالكم، فأثقل عليكم بذلك، فأنا لا أسألكم أجرا على الهداية ولكني أسأل ربي أن يتولى ثوابي بقبول ما محضت له كل جهدي من فتح بصائركم على الحق. وإن ما نجحت فيه بهداية الذين آمنوا بما بعثني الله به، مما أنتظر ثوابه منه على ذلك، لا يتصور أن أطردهم عن مجالسي أو أبعدهم عني. ألا تعلمون أنهم يجدون

في مجالسي ما يزيدهم قربا من ربهم بما يتلقّونه من الوحي المتواصل، كما أنهم سيلقون ربهم يوم الحساب فيسألهم عن علاقاتهم وينصفهم ممن ظلمهم. ولكن غلبة الجهل عليكم جعلكم لا تدركون تبعة طردهم.

ثم أعاد استمالتهم إليه بأنه ذاكر دائما صلته بهم وأنهم قومه، ناداهم يا قوم :إن ما اقترحتموه علي من طرد المؤمنين بي خطير جدا، سيكونون خصمائي عند ربي، ومن ينصرني من الله إن أقدمت على طردهم بدون موجب، على معنى الإنكار أن يوجد له نصير على ذلك، مالكم لا تتأملون تأملا يبصركم بالعواقب.

ثم عرض عليهم حقيقة أمره مما ينفي كل الخيالات التي عشّشت في عقولهم فانحرفوا بها عن إدراك الواقع. اعترف بحدوده البشرية التي لا تنزل به عن التكليف بالرسالة، خلافا لما يتوهمه قومه من أن الرسالة تقتضي أن يكون له طاقات تفوق البشر تجعله يتحكم في كل شيء. إن ملك الله بيده لا يتصرف فيه رسول ولا أي كائن خارج ما يأذن به. فخزائن الله التي يمكّن منها البشر بقدر حسب حكمته، أو يرسل ما يرسله ليمحق به من يشاء ؛ كالريح العاتية والماء المغرق والحركة المزلزلة، كل ذلك بيده سبحانه، وبوصفي رسولا لا أملك التصرف لا في قليل ولا في كثير من خزائن الله. كما أن علمي لا يتجاوز ما يعلمني ربي. فما غاب عن إحساسي وعن إدراكي مما لم يعرفني به ربي (الغيب) لا أعلمه. وطبيعتي طبيعة البشر لست ملكا. وكأنهم سألوه كما سألت قريش النبي ﷺ ما نفاه نوح عليه السلام عن نفسه. كما نفى عن نفسه نفيا يقطع كل أمل لهم في طرد المؤمنين به من الضعفاء، ولا أن يدخل اليأس في قلوبهم بأن يصرح لهم بما يظنون أن الله لما لم يجُد عليهم من واسع رزقه في الدنيا أنه لن يمكنهم من الخير يوم القيامة. ذلك أن نوال الحظوظ الأخروية والنعيم والكرامة يوم القيامة مرتبط بصلاح الباطن، والله هو وحده الذي يتولى السرائر . تنبهوا فإني مدرك لما يترتب عن مواقفي وعن أعمالي، فلو تجاوزت حدودي أكون إذن من الظالمين الذين يحق عليهم جزاء الظلمة.

قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

بيان معنى الألفاظ :

المجادلة : المخاصمة بالقول مع الاحتجاج .

بمعجزين : منفلتين من العقوبة.

يغويكم : يضلكم عن الحق.

الإجرام : ارتكاب الجرم، الإثم.

بيان المعنى الإجمالي :

سئمنا يا نوح من الاستماع لما تقيمه علينا من الحجج المتوالية لدحض كل ما نتأيد به. فأنزلْ علينا العذاب الذي كنت توعّدتنا به وكفى. قال نوح: العذاب يأتيكم به الله لا أنا، متى شاء وعلى المستوى الذي يريد، ولكن المؤكد أنكم لا تفلتون من العذاب. أنتم لا تنتفعون بنصحي لأن إصراركم على العناد حرمكم كل تأييد من الله فأوكلكم إلى نفوسكم فاتبعتم شهواتكم وخيالاتكم فوقعتم في الغواية والضلال، وابتعدتم عن منهج ربكم الذي ستعودون إليه ليحاسبكم.

وتوجه القرآن إثر هذه المقاطع من قصة نوح ليرد على المشركين ما يرمون به النبي ﷺ من نسبة القرآن لله باطلا، فقال لهم: إني مدرك تمام الإدراك لمقام الألوهية، فلا يتصور مني أن أكذب على الله، وإثم ذلك أتحمله وحدي، كما أنكم تتحملون إثم تكذيبي ولا أتحمل شيئا منه.

بيان المعنى العام :

32–34 : قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت...وإليه ترجعون .

المشهد الرابع: يبرز في هذا المشهد طرفان تقابلا فبلغا النهاية؛ نوح عليه السلام من ناحية، وقومه من ناحية أخرى.

أما نوح فالظاهر أنه واصل دعوته لقومه، وتابع الرد على شبهاتهم، كما قال تعالى **فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما**، على النسق الذي فصلته الآيات السابقة، يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وكلما قدموا له حجة، بين لهم زيفها وأنها باطل لا تقبل عقلا.

تمكن منهم العناد والرفض لما جاء به نوح؛ وسئموا من مواصلة الحجاج معه، إذ كلما قدموا ما يخالونه حجة أجهز نوح عليها ونقضها وظهر عليهم بالمنطق والوضوح زيف ما عرضوه. فقالوا كفى! ائتنا بالعذاب الذي كنت وعدتنا به؛ فأدمغتنا توقفت عن المتابعة، إن كنت صادقا فيما أخبرتنا به من أول الأمر.

رد عليهم نوح بتصويب ما وقعوا فيه من أخطاء في صيغة سؤالهم.

أولا: أن إنزال العذاب عليهم ليس من شأنه، وإنما الأمر بيد الله وحده (إنما يأتيكم به الله)
ثانيا: أن إنزال العذاب عليهم مرتبط بمشيئة الله إنزاله عليهم في الوقت وبالمقدار (إن شاء)
ثالثا: أنه لا يستطيع أي فرد منهم أن يفلت من العذاب أو يجد ملجأ يلجأ إليه فيحميه فلا نجاة لكم (وما أنتم بمعجزين)

ثم علق على طلبهم قطع الحوار معــه، أنـــه اختيـــار غيـــر صـــائب، إنكـــم لـــم تنتفعـــوا بنصحي لكم وأقفلتم عقولكم عن التأمل فيما دعوتكم إليـــه. إن مـــا دعـــوتكم لـــه بلـــغ مـــن الوضوح والمعقولية ما يوجـــب الأخـــذ بـــه؛ ولكـــن الله حـــرمكم تبعـــا لعنـــادكم تأييـــده، وأوكلكم إلى غرائزكم وشهواتكم التي تقودكم إلى الضلالة والهلاك.

واعلموا أن الله ربكم، يشير إلى أنه لطيف بعباده الـــذين يهيئـــون أنفســـهم لقبـــول الرشـــاد لا الذين يغلقون عقولهم وقوى إدراكهـــم عـــن النظـــر. ثـــم إنكـــم تحشـــرون إليـــه يـــوم القيامة فيجازيكم عن تقصيركم، وغلق منافذ المعرفة حتى لا تصل إليكم.

التعليق :

لا يقصد القرآن من القصص التـــي تتخلـــل بيانـــه تلهيـــة البشـــر بســـرد مـــا وقـــع فـــي التاريخ، وخاصة البعيد منه. ولكن يقـــيم مـــن تلـــك القصـــص حجـــة علـــى أن الرســـول صادق. فتفاصيل ما وقع لنوح مما سبق من الآيات ومـــا ســـيتلو بعـــد هـــذا التـــذكير، مـــا كان له أن يخبـــر بـــه اعتمـــادا علـــى ذكائـــه، فهـــي أمـــور طواهـــا التاريخ.وتفاصـــيلها ودقائقها لم ترو في المجتمع العربي، بل حتى مـــا بقـــي مـــن التـــوراة والإنجيـــل لا يبلـــغ في الصحة والدقة ما سجله القرآن. ومع هذا فـــإن المشـــركين يتهمونـــه بأنـــه نســـبه إلـــى الله كذبا (افتراه) لقن القـــرآن الحجـــة لمحمـــد ﷺ، قـــل لهـــم: إن كـــذبت علـــى الله فأنـــا أتحمل وحدي إثم الجريمة العظمى ولا تتحملون شيئا مـــن إثـــم جريمـــة الافتـــراء الـــذي رميتموني به كذبا وبهتانا. كما أنـــي لا أتحمـــل شـــيئا مـــن إثـــم تكـــذيبكم لـــي بالباطـــل واتهامي بما ليس بحق . فأقحم في الجواب قاعدة المسؤولية في دين الإسلام .

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن

كُلِّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا تبتئس : لا تهتم ولا تحزن.

بأعيننا : بمراقبتنا بما ينفي الخلل والخطأ في الصنع.

السخرية :استهزاء بعدّ المستهزئ به أحمق.

يخزيه : يهينه.

مقيم : لا ينقطع.

جاء أمرنا: تم أمرنا بالطوفان.

فار: انبعث بقوة.

التنور : موقد النار لإنضاج الخبز .

أهلك : قرابتك .

سبق عليه القول : سبق الحكم عليه بالكفر.

بيان المعنى الإجمالي :

أعلم الله نوحا أنه قد انتهى ما كلف به من دعوة الناس إلى الإيمان، لأنه لا مطمع له في هداية من بقي على كفره. ومواساة له طُلب منه أن لا يحزن فإن ذلك كان نتيجة أعمالهم.

و أمره أن يصنع سفينة يسعده ربه في إنجازها بالرعاية والتسديد، ويوحي إليه طريقة صنعها لتكون صالحة للقيام بوظيفتها.

شرع في العمل وكان عمله لافتا للأنظار، فكلما مر عليه كبار قومه، وهو يجهد نفسه في القيام بما أمر به، يسخرون منه، ولا يرْعَوْون عن الإفصاح بما تفيض به أنفسهم المريضة من الاستهزاء. وكان رد نوح عليهم إنكم إن استهزأتم بعملنا فإنا نسخر منكم يوم يسلط عليكم عذاب ربكم كما سخرتم منا . وهددهم بأنه سوف يظهر من تكون عاقبته سليمة، ومن يسلط عليه عذاب يهينه ويجب له عذاب دائم لا يرفع ولا ينقطع.

ثم أمره أن عليه أن يلاحظ الأمارات الدالة على الوقت الذي اختاره الله لإنزال عذابه (الغرق) بهم .وذلك إذا تدفق الماء من التنور.

وعندها هو مأمور بأن يحمل معه في السفينة، من كل نوع من أنواع الحيوانات ذكرا وأنثى، وأن يحمل معه قرابته الذين آمنوا به، وأن يترك من كان كافرا منهم، وأن يحمل فيها كذلك الذين آمنوا به وثبتوا على إيمانهم. وما كان عددهم كثيرا.

بيان المعنى العام :

36—37، وأوحي إلى نوح أنه....إنهم مغرقون.

تبع القطيعة التي سألها الكفرة من قوم نوح، إعلامُ الله له بأن الباقين من قومه الذين لم يؤمنوا سيستمرون على كفرهم ولا مطمع في هدايتهم. وفي ذلك أمران هامان:

الأمر الأول: أن نوحا قد انتهت مهمته فلم يبق مطالبا بدعوة قومه للإيمان.

الأمر الثاني: أن إعلامه بأن كل من لم يؤمن به لحد اليوم الذي خاطبه الله بهذا الخطاب لا رجاء في إيمانهم، كان هذا الإعلام شديدا على نفسه. إذ شأن المرسلين أنهم يوالون الدعوة ويتحملون في سبيلها ما يتحملون من المكاره، ويجدون في ذلك رضا، شعورا منهم بشرف الأمانة الموكلة لهم.

ولذا قواه ربه فقال له: لا تحزن عليهم فإن ما سيلقونه هو بسبب إصرارهم على الكفر.

ثم أمره أن يصنع سفينة، وهي أول سفينة صنعت في العالم. فهو ينجزها على غير مثال سبق. ولذا قرن الأمر بأن الله سيكون ملهما له ومساعدا حتى لا يقع منه خطأ في الصنع، كما أنه سيزيده بوحيه لطريقة العمل حتى تقوم السفينة بوظيفتها التي من أجلها هو مأمور بصنعها. وأعلمه أن الحكم بنوع العذاب الذي سيسلط على قومه قد اتخذ، فلا يتقدم بالشفاعة فيهم أو تخفيف العذاب عليهم، حكم الله سينفذ فيهم (إنهم مغرقون)

38—40، ويصنع الفلك وكلما ....وما آمن معه إلا قليل.

المشهد الخامس: يتحول الرسول من داع إلى منهج الله الذي أوحاه له ليبلغه، يتحول إلى صانع ماهر، هداية الله تسوقه، ووحيه يحدد له الطريقة والأدوات التي تساعده على إنجاز السفينة. هو في محل عمله المفتوح يقوم بأعمال لا عهد للناس بها.

يمر عليه أكابر القوم وهو منكب على عمله بجد، ينجز ما لا يدرون له فائدة ولا أنه يحقق غاية. فكانت أرجاعهم أنهم يسخرون من نوح ويستهزئون من سخافته: أمامه ركام من الألواح ومسامير، وهو لا يصنع بابا ولا كرسيا ولا ما شأنه أن ينتفع به صانعه .وتفيد الآية أن من المؤمنين به من كان معه يساعده ويعينه، أفهم هذا من قوله تعالى :إن تسخروا منا. ولم يقل مني.

تهكموا عليه ووجهوا له من سخف الخطاب ما لا يصدر إلا من فاقد التربية عديم الأدب. فرد عليهم إني لا أبادئكم بالسخرية ولكني أقول لكم: إنكم إن تسخروا منا

لما نعمله والذي ندرك الغاية منه، فإنا نقابل سخريتكم منا بسخريتنا منكم، من سفه عقولكم وإعراضكم عن خالقكم. مما يومئ إلى أن استهزاءهم بعمله سيعلمون فائدته له ولمن آمن به، فيتضاعف أساهم. وأعاد تهديدهم بأنهم سوف يتيقنون من هو الناجي ومن هو الخاسر، ومن يتسلط عليه العذاب المهين الملازم الذي لا ينقطع في العاقبة يوم القيامة.

40- واصلْ عملك في إعداد السفينة إلى أن يحصل أمرنا بحدوث الطوفان، وجعل الله لنوح أمارة على تعلق القدرة بإحداث الطوفان تبعا للإرادة والعلم. هذه الأمارة هي فوران التنور. وهي أن ينبع الماء من موقد إنضاج الخبز.

و حكى القرآن أن الله أمره أن يحمل في سفينته من كل أنواع الحيوانات ذكرا وأنثى، بما يحفظ استمرار النوع بعد ذلك بواسطة التوالد. وأن يحمل معه قرابته المؤمنين، إلا الذين سبق أن قدر الله عذابهم ممن آثروا البقاء على الكفر، كإحدى امرأتيه التي خانته فلم تؤمن المذكورة في سورة التحريم، (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانت تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين)[1] – وابنه الذي سيأتينا خبره بعد. وأن يحمل معه كذلك من آمن به من قومه الذين كان عددهم قليلا.

﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

بيان معنى الألفاظ:

مجراها ومرساها: عند سيرها السريع، وعند وقوفها على الشاطئ.

معزل : مكان منفرد به عن أهله.

سآوي :سألجأ.

---

[1] التحريم آية10

يعصمني : يحميني.

ابلعي : البلع أصله دخول الطعام من الفم إلى الجوف، والمراد هنا دخول الماء في جوف الأرض.

غيض الماء: نضب وذهب.

قضي الأمر: تم وانتهى.

الجودي : مكان نزول السفينة.

بيان المعنى الاجمالي :

كان نوح يرفق بالذين حملهم معه فــي الســفينة، وقــف علــيهم ودعــاهم أن يستصــحبوا بركة الله وعنايته عند سيرهم وعنــد نــزولهم، وأن الله غفــور لتقصــيرهم رحــيم بهــم. ولاحظ نوح ابنه منعزلا عن أهله فناداه ليلتحق بهــم ويخلــص إيمانــه لله. ولكــن الابــن، وقد غلب عليه الشقاء، صدّ عن الاستجابة لدعاء والده، وأظهــر عــدم خوفــه ممــا توعــد به نوح قومه، وقال: لا أخشى الطوفــان فــإني ســألجأ إلــى جبــل عــال لا يبلــغ المــاء قمته. قال له أبوه: إنه لا منجى اليوم إلاّ لمن قــدر الله لــه رحمتــه مــن المــؤمنين. ومــا إن تم الحوار بينهما حتى أخذته الأمواج فأغرقته. وأخــذت الســفينة طريقهــا بــين أمــواج تتدفق كالجبال. وتــم مــا أراده الله مــن إهــلاك القــوم الكــافرين فصــدر الإذن الإلهــي للأرض بأن تفتح أفواهها لابتلاع المــاء وللســماء بــأن تتوقــف عــن إنــزال الأمطــار. وبسرعة ذهب الماء وتطهرت الأرض مــن الكــافرين واســتقرت الســفينة فــي المكــان المقدر لرسوها. ونودي في الكون: بُعْدًا وهلاكا ولا رجعة للقوم الظالمين.

بيان المعنى العام :

41-43، وقال اركبوا فيها ....فكان من المغرقين.

المشهد السادس: نوح عليه السلام، وقد ظهرت العلامــة التــي أعلمــه الله بأنــه ســيليها تنفيذ الوعيد. يأمر من سيأخذه معه فــي الســفينة بــالركوب، ويرشــدهم أن يــذكروا اســم الله مستعينين بألطافه في حالة جري الســفينة وفــي حالــة وقوفهــا. يطمئــنهم بقولــه: إن ربي غفور لتقصيركم السابق، رحيم بكم رحمة تظهــر فيمــا مكــنكم مــن النجــاة، وفيمــا سيتلو ذلك من متتابع فضله عليكم .

ساء نوح بما تحمله روحه الكريمــة مــن ود وحــب وعطــف، أن لا يكــون ابنــه معــه ناجيا من الطوفان، ومن غضب الله . ناداه يا بنــي تعــال ! اركــب معنــا وأســلم وجهــك لله ولا تكن مع الكافرين. ولكن ابنه كان شــقيا لــم يفــد فيــه رفــق والــده، ولا تأكيــده عليه بمحركات رابطة الأبوة والبنوة (يا بني) بمــا توحيــه كلمــة بنــي بالتصــغير مــن

التذكير بالرعاية والحنان اللذين كانا يلقاهما في حجر الوالـد الكـريم مـن أول يـوم مـن حياته. وتسمع رد الولد الشقي: لا أخشى الطوفـان وارتفـاع الميـاه، فـإني سـألجأ إلـى جبل عال يحميني من الماء. وتنتهي المحاورة سـريعا فيأخـذه المـوج إلـى قـاع البحـر ويلتحق بالغرقى الكافرين.

أخذت السفينة تجري في بحر هادر تعلـو أمواجـه كأنهـا الجبـال؛ فقـد انشـقت الأرض عن منابعها، وتدفقت العيـون، وأمطـرت السـماء المطـر المتـدارك كأشـد مـا يكـون التدفق، وتحركت البحار بما ورد عليها مـن تيـارات متلاحقـة. وإنـه لمظهـر عجيـب رهيب؛ علت المياه الأرض كلها فغطتها، وانفـردت سـفينة نـوح تمخـر البحـر بقـدرة الله وألطافه وركاب السفينة يغمرهم روح من السعادة بعناية الله بهم.

44-وقيل يا أرض ابلعي ماءك ....وقيل بعدا للقوم الظالمين.

المشهد السابع: بهذا المشهد تبلغ القصة نهايتهـا، بغـرق الكـافرين المكـذبين مـن قـوم نوح، وصدور الأمر التكويني الإلهـي ليعـود الكـون كمـا كـان عليـه قبـل الطوفـان. فصدر الأمر الإلهي:

أولا للأرض لتنفتح، فامتصت تجاويفها ما كان فوقها من الماء.

ثانيا للسماء لتتوقف سحبها عن إنزال المياه.

وبسرعة تم الإذعان للقادر الواحـد الأحـد، ذهـب المـاء وعـادت الأرض كمـا كانـت، وتم ما أراده الله من إهلاك الكفـرة المكـذبين. فاسـتقرت السـفينة علـى الجـودي وقـد أكملت مهمتها، وفي ضبط المراد من الجودي ومكانه أقـوال كثيـرة لـيس لأحـدها سـند صحيح يطمأن إليه. وبما أن تعيينه لا يتعلق به كبيـر اهتمـام، ولا يزيـد تـأثيرا للقصـة معرفته ولا ينقص جهله، فلنفوّض حقيقته إلى الله. وينتهـي المشـهد بصـوت مُـدوٍّ يعقلـه كل السامعين: بعدا للقوم الظالمين: هلاكا وعدم عـودة. وهـذا تعبيـر عـن تفاهـة القـوم الظالمين الهالكين، لا يرغب أحد في عودتهم، وليس لهم ذكر في نفوس الباقين.

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ

يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)

بيان معاني الألفاظ :

اهبط : انزل.

بركات: خيرات نامية.

أنباء الغيب: الأخبار المغيبة عن الناس.

بيان المعنى الإجمالي :

رست السفينة سالمة بعد رحلتها بين الأمواج المتلاطمة. وثارت العاطفة الأبوية في نفس نوح ﷺ، وقد بقي ابنه مع الكافرين فغرق وسيكون مع الغرقى يوم القيامة، فتوجه بالدعاء إلى ربه مقدما بين يدي ابتهالاته ما يقربه من الاستجابة لدعائه: رب إن ابني جزء مني، وفرد من عائلتي، وواحد من أسرتي، وإن وعدك محقق حصوله، وأنت وحدك ربي الحكم الذي لا تنقض أحكامه. إن هذا الاستعطاف النابع من قلب والد رحيم ما كان ليغير الحق الذي يسيّر الله به الكون. فنبه الله نوحا: أن صلة الأبوة تنقطع إذا اختلفت العقيدة، فهو ليس من أهلك لذلك، لأنه فاسد في عقيدته، وعمله القلبي وأعماله الأخرى. فلذا لا تطلب مني شيئا لا تتحقق أنه منسجم مع العدل الذي أحكم به الكون، وإياك أن تكون مع الجاهلين.

وقع التحذير من قلب نوح الموقع المؤثر فابتهل إلى ربه تائبا قائلا: ربي إني أحتمي بك من أسألك ما لا أعلمه. إني موقن أنه إن لم أفز بغفرانك لتقصيري، وحرمت من رضاك؛ فإني أكون مع القوم الخاسرين.

وتقبّل الله من نوح ابتهالاته، وأذنه أن ينزل من السفينة مصحوبا بسلام تكريم من الله ووعد بمضاعفة الخيرات له ولمن معه ولمن سيتناسل منهم من الأمم التي تُواصل السير على منهج الله. وأما الأمم التي ترفض طريق الهدى فإن الله لا يعاجلهم بالعقوبة ولا يحرمهم متاع الحياة الدنيا، ولكن سيسلط عليه العذاب الأليم يوم القيامة.

ثم توجه الخطاب لرسول الله ﷺ ممتنا عليه بما أعلمه به من تفاصيل قصة نوح، التي ما كان يعلمها هو ولا قومه ولا أهل الكتاب. إذ هي بتفاصيلها الواردة في القرآن من الأمور المغيبة عن علم البشر في وقته. وهي تعطيه صورة لعاقبة الصبر الذي تدرع به نوح والمؤمنون معه، فاصبر يا محمد ؛ بالتأكيد النهاية الطيبة تكون للمتقين .

بيان المعنى العام :

45 -47، وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ...وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

المشهد الثامن: برزت الأرض لنوح خالية بعد أن رست السفينة، وثار في نفسه ما يعتلج في قلب الوالد، حينما يتيقن هلاك ابنه وأنه غير ناج من غضب الله وعقابه يوم القيامة. ولا تسل عن حزنه وقد خسر ابنه حياته وخسر آخرته. وفي هذا الظرف الأليم لم يبق له من أمل إلا في الابتهال إلى ربه أن يعفو عن ابنه فتوجه إليه داعيا، مقدما بين يدي دعائه بالتعبير عن شدة ألمه للخاتمة التي ختم بها ابنه حياته فقال: يا ربي إن ابني جزء مني وفرد من أسرتي وواحد من أهلي الأقربين، إن ما يؤلمه يؤلمني، يا رب إني أعلم أن ما تعِدُ به واقع لا ينقض، وأعلم أن حكمك ماض لا يرفع، ولا راد لما حكمت به وقضيته.

لم يرد في النص ما دعا به نوح، بل لا تدل الآية على أنه دعا، والاحتمال وارد: هل إنه دعا بالمغفرة لابنه وطوى دعاؤه لفهمه من المقام، أو إنه قدم ما قدم استعطافا واستئذانا؟ وعلى الوجهين فإن نوحا ﷺ يود أن لو من الله على ابنه فغفر له ذنب الكفر الذي ختم به حياته.

أجاب الله نوحا بتصحيح ما وقع في نفسه من خطأ: إن قوله: إن ابني من أهلي كلام غير دقيق. ذلك أن الترابط بين البشر يجب أن يقوم على أساس التوافق في العقيدة لا على أساس القرب الدموي. وإذا اختلفت العقيدة انهدمت كل الصلات التي يمكن أن تكون معتبرة، وبين سبب انحلال الرابطة: أنه كافر لا يعمل عمل الصالحين، فسدت عقيدته وفسد تبعا لذلك كل ما يصدر عنه من فعال.

ثم عاتب الله نوحا لجريان تفكيره بسؤال ربه المغفرة لمن مات على الكفر. فهو لم يتدبر فيما يترتب على استجابة دعائه من اختلاط بين الخير والشر والإيمان والكفر. ولو تأمل فعلم ما فكّر في السؤال. وأضاف عنايةً بنوح: أن الله تولى وعظه وإيقاظ عقله حتى لا يسلك مسلكا يوقعه فيما يقع فيه الجهلة الذين يخلطون بين ما ينبغي وما لا ينبغي.

وقعت تلك الموعظة من نوح موقعا هزّته إلى الاعتذار مع الالتجاء إلى ربه ليحميه من الوقوع فيما لا يرضيه. وصرح بأن كل همه أن يكون في حصن ربه يحوطه بالتوفيق، وأن يحميه من سؤاله ما لا يعلم مقدما رضا الله بالسؤال عنه. ثم أعلن عن ضراعته بسؤال ربه أن يغفر له ولا يؤاخذه بتقصيره، وأن يوالي عليه رحمته. معترفا أنه إن لم يتفضل عليه بالمغفرة والصفح، والرحمة والرضا، فإن يلتحق بالقوم الخاسرين للعاقبة.

48- قيل يا نوح اهبط بسلام ...منا عذاب أليم.

المشهد التاسع: استجاب الله لضراعة نوح، فأذن له في النزول من السفينة مكرما بسلام من الله عليه، مصحوبا ببركات تبشر بمزيد من الخيرات نامية. وهل تجد ما يدل على رضا رب العالمين عنه أبلغ من هذا الخطاب لنبيه ولقومه الذي رعاهم في لجج البحر الهائج حتى وصل بهم إلى مستقر السلامة.

وشمل سلام التكريم الإلهي من كان معه من المؤمنين في السفينة، وعبر عنهم بأمم بالنظر إلى ما سيؤول أمر نسلهم من التكاثر فيتكون منهم أمم وشعوب. فالتكريم والبركات تشمل الأمم التي تتناسل من نوح، ومن المؤمنين المحمولين معه في السفينة، وهم الذين يلتزمون التوحيد لله وتطبيق شريعته. ولكن الأمم الذين يضلون ويكفرون بالله ورسله، فقد أعلم الله أنه لا يعاجلهم بالعقوبة ولكن يمهلهم فمن أصر على الكفر إلى خاتمة حياته الدنيوية سيسلط عليه عذابه الأليم يوم القيامة.

49-تلك من أنباء الغيب نوحيها....إن العاقبة للمتقين.

قصة نوح كما وقع تفصيلها في الآيات السابقة، من الوقائع التي طواها الزمن فعمي خبرها عن الناس. فما كان النبي ﷺ يعلمها قبل نزولها عليه، ولا كان قومه يعلمونها، ولا كان المخالطون لأهل الكتاب من قومه ولا أهل الكتاب يحيطون بجميع التفصيلات التي وردت فيها. وبذا فهي من الأخبار التي فقد من يرويها فانقطع سندها ولفها الجهل. فإعلام الله نبيه بها ينادي بأنه يتلقى الوحي من عالم الغيب الله رب العالمين.

ولتكن هذه القصة محققة لهدفها .فإن نوحا ومن آمن معه صبروا على التكذيب من قومهم وتمالأ الكافرون واستهزأوا بهم. وواصل نوح دعاءهم إلى النهاية التي أعلمه الله فيها أنه لا يؤمن أحد منهم بعد اليوم. فليكن نوح مثالا تقتدي به في الصبر على المواصلة. كما جاء في قوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)[1] - ومما يساعدك على الصبر ويفتح لك أبواب الأمل مشرعة: أن النهاية الصالحة تكون نصرا للمتقين الذين يخلصون لربهم.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا

---

[1] الأنعام آية90

تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ

يرسل السماء : ينزل المطر.

مدرارا : غزيرا.

لا تتولوا مشركين : لا تعودوا إلى الشرك.

اعتراك: أصابك.

آخذ بناصيتها: الناصية شعر مقدم الرأس، والأخذ بناصية الدابة معناه التحكم فيها.

التولي : الإعراض.

يستبدل : يزيلكم.

حفيظ : قادر قاهر.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله سيدنا هودا إلى قومه، فهو واحد منهم يعرفونه ويعرفهم.

مضمون رسالته: دعوته لعبادة الله وحده فلا إله غيره. وما هم عليه من عبادة الأوثان والشرك كذب على الله وعلى الحقيقة. وقرّبهم لاتباعه بأنه لا يطلب منهم أجرا على هدايتهم. فالله الذي خلقه من لا شيء ثم أفاض عليه ما أفاضه هو الذي سيتولى تمكينه من أجره. فما لكم لا تنظرون بعقولكم فيما دعوتكم إليه. ثم ثنّى بدعوتهم إلى الاستغفار مما سبق لهم من الشرك بالله، وأن يتوبوا إليه من ذلك الإثم العظيم. يقول لهم: إنكم إن صدّقتم برسالتي وقمتم بما أوحاه الله لي وبلغتكم إياه، فإن الله سيرسل لكم الغيث النافع من السماء، ويضاعف قُواكم. وإياكم أن تعرضوا وتنقلبوا إلى التمادي على الإجرام بالشرك.

أجابوه : بأنا لم نجد فيما أتيتنا به أمـرا بينـا واضـحا يـرجح صـدقك، ولا يتصـور أن نترك آلهتنا لمجرد قولك، ولذا فنصارحك بأننا لا نؤمن بـك. ونحـن نقـدر أنـك تجـرأت على أحد آلهتنا فانتقم منك بأن مسك في مداركك، فخرجت علينا بهذا الكلام.

أجابهم هود: إني أشهد الله الذي لا يغيب عن علمـه شـيء مـن عملـي ومـن عنـادكم، واشهدوا أني لا أتحمـل شـيئا مـن ضـلال شـرككم، وإنـي أتحـداكم أن تتحـدوا مـع أصنامكم للكيد بي، بل إني أقـول لكـم عجّلـوا بمـا تـدبرون مـن الإضـرار بـي ولا تنتظروا. إن قوتي مستمدة من الله الذي أعتمد عليـه وحـده، وهـو ربـي وربكـم، وكـل ما يدب على الأرض هو في قبضته لا يخرج عـن سـلطانه. وإنـه سـبحانه عـادل أتـم العدل لا يُسلِّمني إليكم.

إنكم إن تتولوا وتثبتوا على كفركم فإني قد قمـت بمهمتـي وأبْلَغْـتُكُمْ مـا حملنـي ربـي، وإن الله قادر على محقكم وإنشاء قوم آخرين يحلـون محلكـم يعبدونـه ولا يشـركون بـه أحدا. والله حافظ لجميع الكائنات لا يسـتطيع أحـد أن يصـل إلـى محفوظـات ربـي إلا بإذن منه سبحانه .

بيان المعنى العام :

50 ←52: وإلى عاد أخاهم هودا....ولا تتولوا مجرمين.

أعقب القرآن قصة نوح بقصة هود عليهما السلام. كما تقـدم لنـا فـي سـورة الأعـراف من الآية 64 إلى الآية71.

حمّل الله هودا أمانة الرسالة، وأرسله إلى قومه، وهو واحد منهم يشاركهم في نسبهم، يعلمون سيرته وصلاحه ونبل خلقه، عبر القرآن عن ذلك بقوله (أخاهم هودا)

- كيف عرض هود رسالته على قومه المبعوث هو إليهم؟

- قال: يا قومي ؛ ناداهم بما يجمعهم به من صلة النسـب التـي مـن شـأنها أن تجعلـه لا يسعى إلا لما ينفعهم، ليؤكد الثقة التـي تلـين بهـا نفوسـهم لاتباعـه، وترفـع صـدمة المواجهة بما يناقض مألوفهم. وأيد الحقيقة التي يـدعوهم إليهـا، بـأنهم إذا تـأملوا، فـإنهم لا يجدون من يستحق وصف الربوبية غيـر الله .وإذا كـان هـو حـده المسـتحق لـذلك فما عظمتم وعبدتم ونسبتم إليه الألوهية، هو كذب محض وتزييف للحقيقة.

-ثم أزال ما يمكن أن يـدخل فـي نفوسـهم مـن عـوارض الشـك فـي دعوتـه، مـن تصورهم أنه يبغي منها أن يحصل على أجر مـنهم مقابـل عنايتـه بهـم وصـرفهم عمـا كانوا يعبدونه، وتعليمهم المنهج الذي ينبغي أن يسـلكوه فـي حيـاتهم؛ فصـرح بوضـوح كامل: أنه ما ينتظر الأجر إلا من الذي أنشأه بعد عـدم، وأفـاض عليـه مـن العنايـة مـا

سما به إلى مرتبة النبوة. مالكم لا تحركون مـداركك، ولا تنظـرون بقـوة عقـولكم التـي تخرق حجب اللبس، وتكشف الحق واضحا. على معنى أن مـا قدمـه مـن كونـه واحـدا منهم، لا يبغي منهم مقابلا، وأنـه لا يتصـور العقـل أن يكـون إلـه غيـر الله، وأن مـا عبدوه من دون الله ليست له حقيقةوكذب محض.

-ثم أضاف إلى إفراد الله بالعبـادة المرتبـة التاليـة لـذلك: وهـي أن يتوجهـوا إلـى الله طالبين منه أن يغفر لهم ذنوبهم، بأن يمحو مـا تلوثـت بـه نفوسـهم مـن الشـرك بـالله، وأن يصمموا على عدم العـود إلـى مـا كـانوا عليـه، فـلا يكـون اسـتغفارهم حالـة عارضة، بل عزيمة صارمة تنفر مما كانـت عليـه. ثـم أنبـأهم بـأنهم يجمعـون بـذلك بين صلاح بواطنهم، ورضا الله عنهم فيسعدهم بألطافه بهـم؛ التـي منهـا أنـه يضـاعف محصولهم الفلاحي، بما يرسله لهم مـن الأمطـار المتتابعـة، التـي يزكـو بهـا الـزرع، وتصلح الثمار؛ والتي منها أن يزيد إلى قوتهم قوة فـي صـحة الأجسـام، والحمايـة مـن الأوبئة، ووفرة النسل، وسعة الرزق. ثم خـتم دعـوتهم بنهـيهم عـن الرجـوع إلـى مـا كانوا عليه من الشرك، الذي هو أعظم ما يمكن أن يقترفه الإنسان من الإجرام.

فيما عرضه هود على قومه، مـا يشـير إلـى أنهـم كـانوا أصـحاب مـزارع، تتميـز أراضيهم بالخصب ووفرة المحصـول، ممـا لا يتحقـق إلا بغيـث السـماء، وأن بنيـتهم كانت قوية تبعا لذلك. وأنهم كانوا يخشون انحباس الأمطار المدمر لحياتهم.

53 - 56: قالوا يا هود ما جئتنا ببينة...إن ربي على كل شيء حفيظ.

بعد أن بسط هود عليه السلام عرض ما يدعوهم إليه، وما يسـتند إليـه، سـجل القـرآن الحـوار الذي دار بينه وبين قومه.

رفضوا ما دعاهم إليه وقدموا مبررا لرفضهم: أنهم نظـروا فيمـا أيّـد بـه رسـالته، فمـا وجدوا أمرا بينا واضحا يفرض قبوله على سـامعه لنصـاعة الحـق الـذي يتضـمنه. وإذ تجردت دعوته عما يؤيدها، في زعمهـم، فـلا يتصـور مـنهم أن يتخلـوا عـن الهـتهم التي يقدسونها بسبب قول مجرد صادر منـه، ومـن الطبيعـي تبعـا لـذلك أن لا نتوقـع أن نؤمن برسالتك.

وتأييدا لكفرهم ورفضهم قدموا تأويلا، جعلوه السـبب، فـي ظـنهم، الـذي حمـل هـودا على عرض ما عرضه عليهم. هو أنه يمكن أن يكـون هـودا قـد تجـرأ علـى بعـض آلهتهم فسلبوه عقله حتى أصبح يقول ما يقوله من حصل له مسٌ في مداركه.

رد هود على ما قدموه ردا مبناه: أنـه شـديد الاتصـال بربـه مستحضـر أنـه معـه لا يغيب عنه شيء من أفعاله. فهو يشهد الله سبحانه على ما بذلـه مـن جهـد لإقنـاعهم بمـا

أوحاه إليه، وعلى عنادهم ورفضهم وعلى تأويلاتهم الباطلة. وثنى بإشهادهم على تبريه مما يعبدونه من الأصنام التي يعتقدون أنها شركاء لله. وثنى بتحديهم تحديا يظهر عجزهم وعجز آلهتهم معهم أن يصلوا إليه أو يتمكنوا من تحقيق ما يدبرون له من سوء. وبالغ في التحدي بأن ينفذوا مكرهم وكيدهم سريعا إن كانت لهم قدرة على الإضرار به.

أعلن هود أن هذه الثقة الكبيرة في سلامته وعجزهم عن الوصول إليه بسوء، مؤسسة على صادق توكله على الله الذي تولاني كما تولاكم بألطافه، فما كان لي أن أبلغ المستوى الذي أنا عليه، وما كان لكم أن تصلوا إلى المستوى الفكري والقوة والسعة في الأموال إلا بألطافه. كما أنه سبحانه هو القادر وحده على كل الخلائق قدرة مثّلها بالأخذ بالناصية، وهي المسك بشعر مقدم الرأس إمساكا يشل الحركة ويتبعه الخضوع. فهو سبحانه مالك لكل واحد من الدواب، من البشر والحيوان مهما بلغت قوته، لا يعجزه أي منها ولا ينفلت من تصرفه .

إن تصرفه سبحانه يجري حسب الحكمة البالغة والعدل، فربنا لا يظلم أحدا ولا يهمل أولياءه، وبهذا يشير هود إلى سر ثقته في توكله على الله، فهو لقدرته وحكمته سيحميه من كيدهم .

-و إن تولوا. أصله وإن تتولوا، وحذفت إحدى التاءين شأن ما بدئ بتاءين. يقول ابن مالك:

وما بتاءين ابتدي قد يقتصر *** فيه على تا كتبين العبر

وهذا خطاب من هود عليه السلام لقومه في النهاية يقول لهم، إنكم إن تنقلبوا معرضين فإني أسجل عليكم: أني قد أبلغتكم ما أنزل علي من ربي ولا تبعة علي من كفركم؛ ثم يهددهم بأن الله قادر على إفنائكم جميعا، ويخلق غيركم يعبدونه ويطيعونه. وإنه يمحقكم دون أن تستطيعوا أن تضروه بشيء.

و حمله بعض المفسرين على أن هذا الخطاب من رسول الله ﷺ لقريش. فبعد أن قص عليهم قصة هود التي من شأنها أن تعظهم فلا يسيروا على خطاهم، ويهددهم بمحقهم واستبدالهم بقوم غيرهم.

والتخريج الأول أوفق، لأن القصة لما تنته بعد، لأن عذاب قوم هود سيأتي في الآية التالية.

و تختم الموعظة بأن الله حافظ لكل شيء، وشأن الحفظ التام أن لا يتمكن أحد من الوصول إلى المحفوظ. فالله ممسك لكل الكائنات، له وحده القدرة عليها ولا يستطيع غيره أن يشاركه في تصرفه فيها.

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُۥ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

أمرنا: أثر أمرنا، وهو العذاب.

الغليظ : الخشن، بمعنى الشديد

الجحد : الإنكار الشديد.

الجبار : المتكبر.

العنيد : المكابر الذي يرفض المعقول.

اللعنة : الطرد المصحوب بالإهانة.

بيان المعنى الإجمالي :

إنه عندما قارب نزول العذاب بقوم عاد تبعا لتصميمهم على الشرك، يسر الله لهود وللذين أمنوا معه النجاة من الريح المهلكة، كما أنجاهم من العذاب الشديد يوم القيامة.

هذه عاد التي أنكرت أشد الإنكار الأيات التي تأيد بها هود، وعصوا رسل الله جميعا وتمسكوا بالشرك، وقلدوا أمورهم كل ظالم متغطرس يرفض الحق الواضح، ويكابر. جزاؤهم أن لعنة الله تتابعهم في حياتهم الدنيا ولا تنفك عنهم يوم القيامة. ألا إن عادا عصوا ربهم. أبعدهم الله ممقوتين.

بيان المعنى العام :

58- ولما جا أمرنا نجينا...ونجيناهم من عذاب غليظ.

إنه عندما قرب تحقق إنزال العذاب بقوم هود لاستمرارهم على الشرك وتكذيب هود، نجى الله هودا ومن آمن معه قبل نزول العذاب الماحق لقومه. وذلك الإنجاء كان بسبب رحمة من الله. فبفضله تمت نجاتهم من الاستئصال بالريح التي أهلكت كل شيء كما جاء وصفها في سورة الذاريات: **(وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم)**[1] وفي سورة الحاقة: **(وأما**

---

[1] سورة الذاريات آية41

عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ســخرها علــيهم ســبع ليــال وثمانيــة أيــام حســوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخــل خاويـــة)[1] – وكمـــا نجـــى الله هـــودا ومـــن آمن معه من تلك العذاب قدر إنجاءهم من العذاب الغليظ الشديد يوم القيامة .

59 ←60، وتلك عاد جحدوا بآيات...ألا بعدا لعاد قوم هود.

حصرت الآية عادا في إطار يميزهــا بمـــا ســيلحقها مـــن ذم وتشـــنيع. فـذكرت أول ذم لها: أنها أنكرت إنكارا شديدا مبنيا على العناد، دعـــوة هـــود ومـــا قارنهـــا مـــن المؤيـــدات الواضحة، حتى رفضت الحق البيـــن الـــذي جـــاء بـــه وهوّنـــت مـــن قيمـــة المعجـــزات المؤيدة له. وثانيا أنها عصت رسل الله. وعـــاد وإن كانـــت فـــي الظـــاهر لـــم تعـــص إلا هودا، إلا أنها لما تعلقت بالأصنام وتمسكت بالشـــرك فقـــد كـــان موقفهـــا موقفـــا مضـــادا لهدايات الرسل أجمعين، لأنهم جاؤوا جميعـــا بالتوحيـــد. وثالثـــا لأن قـــوم هـــود أطـــاعوا كل جبار عنيد، متكبر مغلق عقله عن الحجـــة، لا ينصـــاع للحـــق الواضـــح بـــل يعاكســـه بكل غباوة. ومن لازم خلقه أنه لا يأمر بخير ولا يـــدعو إلا إلـــى باطـــل. فهـــم قـــد قـــدموا لقيادة مجتمعهم الظلمـــة المســـتبدين المعانـــدين الـــذين لا تفيـــدهم الحجـــة ولا ينفـــذ إلـــى عقولهم الحق وإن كان واضحا كأشد ما يكون الوضوح.

وعقبت ذلك، بأن عادا تبعتها لعنة الله في هذه الدنيا، بحرمانها من رحمته، مع إهانتها في وضعها السيء التي اختارته لنفسها. وسيصحبها هذا الطرد المهين يوم القيامة.

وختمت الآية والقصة بخاتمـــة تقريريـــة مـــوجزة جامعـــة .ألا إن عـــادا عصـــوا ربهـــم وكفروا به .أبعدهم الله مكروهين ممقوتين تلازمهم المهانة والحقارة.

۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ

---

[1] سورة الحاقة آية 6/7

ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإنشاء : الإيجاد والإحداث.

استعمركم : جعلكم معمرين للأرض بالزرع والغرس والبناء.

مجيب : إعطاء السائل ما سأل .

تمتعوا : انتفعوا بمتع قريب زوالها.

داركم : بلدكم .

وعد غير مكذوب : صادق غير مختلق.

الخزي : الذل.

الصيحة : الصاعقة.

كأن لم يغنوا فيها : كأنهم لم يقيموا فيها.

جاثمين : باركين على ركبهم.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله لقبيلة ثمود صالحا رسولا منهم يعرفون كمالاته ،فدعاهم إلى ما يدعو إليه جميع المرسلين :أن يفردوا الله بالعبادة، وأنه لا إله غيره. وأن دليل وحدانيته يجدونه في نفوسهم فقد أنشأهم من الأرض، ومكّنهم من تطويرها. ولذا فالواجب عليهم أن يطلبوا من ربهم مغفرة تقصيرهم، وأن يتوبوا إليه مما وقعوا فيه من أخطاء، والله قريب من عباده يجيب سؤالهم.

كان جوابهم عن تلكم الدعوة البينة الرفيقة: خيبت آمالنا فيك. كنا نتوقع أن تبلغ الزعامة فينا، فكيف تنهانا عن عبادة ما عبده آباؤنا وسرنا عليه قرونا. ولذا فإنا نشك في صدقك شكا يجعلنا نرتاب فيما أتيتنا به.

أجابهم: تأملوا إني كنت واثقا أشد الوثوق مما أوحى به إلي ربي، ورحمني بالرسالة الهادية إلى طريقه المستقيم، فكيف يكون حالي إن عصيته. إنكم ما تزيدون بكلامكم وعنادكم إلا خسرانا.

ثم عرض عليهم معجزته: ناقة تخلق لا مــن أم، شــاهدوا خروجهــا تامــة الخلــق، فهــي من خلق الله لم تتوسط رحم في إيجادها. فاتركوهــا ترعــي فــي أرض الله وأنهــاكم عــن إذايتها بسوء. إنكم تعرضون أنفسكم، إذا اعتديتم عليها إلى عذاب عاجل لا يبطئ.

تحدّوا نهيه وعقروا الناقة. فحق عليهم العذاب وقــال لهــم صــالح: أنــتم مؤجلــون ثلاثــة أيام لا تستطيعون الخروج من دياركم؛ هذا وعيد صادق تحققهُ.

أنجى الله صالحا ومن آمن معه برحمته تعــالى مــن العــذاب ومــا صــحبه مــن ذل. إن ربك يا محمد هو القوي الذي لا يثقل عليــه أي شــيء، العزيــز الــذي ينصــاع لــه كــل شيء.

أهلك الظالمين بالشرك والتكذيب بصحية قويــة تــركتهُم بــاركين فــي أمــاكنهم. امحــت آثارهم كأنهم لم يعمّروا تلك الأماكن. ألا إن ثمودا عصــوا ربهــم وكفــروا بــه. فليــذهبوا خزايا ممقوتين.

بيان المعنى العام :

61 -وإلى ثمود أخاهم صالحا...إن ربي قريب مجيب.

عطف القرآن قصة ثمود مع قومه على قصة هــود مــع قومــه. وكانــت بدايــة دعوتهمــا واحدة: بالتأكيد على المقوم للصلاح والنجاح: تــرك الشــرك وإفــراد الله بالعبــادة، وأنــه لا إله لهم يدبر شؤونهم غيره.

ثم لفت أنظارهم إلى حقيقــة لا يســتطيعون أن يجــادلوا فيهــا أو أن ينكروهــا. هــي مــا يقتضيه التأمل في إيجاد البشــر وتكــوينهم بتحــولات عجيبــة، فهــم مــن الأرض خلقــوا سواء أنظرت إلى خلق أبيهم آدم، أم نظرت إلى ما يــدخل فــي تركيــب الــذكر والأنثــى (الزوجين) من عناصر أرضية بها توجد الخلية الأولــى منهمــا، وتنمــو بمــا تتغــذى بــه من الأرض عن طريق الوريد السري الذي يمر منه إلــى الجنــين مــا تبلــغ بــه الخليــة في كل مرحلة من مراحل وجودها المستوى الذي تكون بــه خلقــا آخــر . وملحــظ آخــر لفت إليه الأنظار، أن كل إنسان وإن كــان قــد خلــق مــن الأرض، فإنــه بعــد أن يولــد ويشتد عوده، هو ممكن مــن التــأثير فيهــا بمــا يحققــه مــن منجــزات فــي الزراعــة والغراسة والبناء، بما يكون به معمّرا للأرض محصلا للخيرات منها.

وإذ اتضح أن المدبّر لخلق الإنسان، والممكــن لــه فــي الأرض هــو الله، وأن ســعيه فــي أرض الله قد يقارنه تقصير أو تجاوز للحدود، وتعــد مــن المســتخلف فــي الأرض علــى ما سطره خالقهما من حــدود التصــرف التــي يرضــى عنهــا، دعــاهم صــالح ﷺ أن يغسلوا ما تلوثوا بــه فــي نشــاطهم مــن الآثــام، أن يغســلوها بطلــب المغفــرة، لســتر

أثامهم،وأن يقرنوا دعاءهم بيقظة باطنية تتمثل في النــدم علــى مــا ارتكبــوه مــن آثــام، والعزم البصير على عدم العودة للشر.(فاستغفروه ثم توبوا إليه).

إن الذي يحرض الإنسان المتجاوز على الاستغفار والتوبــة، هــو مــا تحقــق مــن أن الله رحيم بعباده يقربهم إليه كلما ابتعدوا عن صراطه فــأقلعوا وتوجهــوا إليــه، وهــو بفضــله يجيب دعاء الداعين المخلصين التوابين، ويحقق لهم مطالبهم.

62 ←68، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا...ألا بعدا لثمود.

يصل القرآن هذا العرض الواضح الجميل، بالحوار الذي دار بين صالح وقومه.

أولا: أنكروا عليه ما دعاهم إليه،وعبروا عن ذلــك بخيبــة آمــالهم فيــه فقــالوا :قــد كنــا نرى فيك الشاب النابه الــذكي الجــامع لخصــال النباهــة، ونأمــل أن تبلــغ فينــا مكانــة السيادة ؛ وثنّوا بلومه والإنكار عليه أن يــدعوهم لمــا دعــاهم إليــه، تلــك الــدعوة التــي تقطعهم عما استقر عليه أمــر ابــائهم مــن عبــادة الأصــنام .يشــيرون إلــى الاعتــزاز بسلوكهم في عقيدتهم مسلك آبائهم. ثم حققوا مصــرحين بمــا يترتــب علــى ذلــك: أنهــم شاكون في صدقه شكا قويا يمكن للريبة في قلوبهم.

ثانيا: رد عليهم صالح بتذكيرهم بالرابطة التي تربطه بهــم (يــا قــومي)، والتــي تقتضــي لمن كان في مقامه الخلقــي الرفيــع أن لا يكــون إلا ناصــحا لهــم ســاعيا فيمــا يصــلح أمرهم. تأملوا بما يرفع عــنكم اللــبس: إنّــي كنــت علــى يقــين بــالغ أعلــى درجــات الوضوح مما أوحي إلي من ربي، وآتاني النبوة الرحمة المهــداة مــن فضــله، أيُــؤثرُ فــي شككم أو يضرني تكــذيبكم، أو يحمينــي مــن عذابــه إن اتبعــتكم . لا أحــد يســتطيع أن ينصرني أو يدافع عني إن عصــيته وقصّــرت فــي تبلــيغكم مــا أمــرت بتبليغــه. فمــا تعرضونه علي وتدعونني إليه لا يحصل منه إلا خسراني.

ثالثا: أيقظهم بالنداء: يا قومي، ليكونوا واعين لمــا يقولــه لهــم وليحــذروا مــن التهــاون بمضمونه ؛ فقال لهم: هذه الناقة هي ناقة الله، أنشأها إنشــاء علــى غيــر مــا عهــد فــي غيرها من النوق، لم تلدها أم. هي معجزة لتأييدي ولتُــريكُم قــدرة الخــلاق العظــيم. مــا تناسلت مما يملكه أحد، بل خلقها الله خلقا بــدون واســطة فهــي ملــك خــالص لــه، لــذا نسبها إليه (هذه ناقة الله) لا تكلفكــم شــيئا إلا أن تمكنوهــا مــن الرعــى فــي أرض الله، ولا تعتدوا عليها، إنكم إن تهاونتم بحقها في الحريــة وفــي الســلامة يســلط علــيكم عــذابا سريعا، لا إمهال فيه.

رابعا : قابلوا تحذيرهم من الاعتداء عليهــا، بعقرهــا، فأصــابوها فــي المنحــر وســقطت جثة هامدة .وعندها أعلن لهم أنه بقي لهم ثلاثة أيام يتمتعــون فيهــا بالحيــاة فــي بلــدهم

لايتمكنون من الخروج منه، وقال لهم :إن هــذا وعيــد صــادق لا تتوقعــوا أن يخلــف أو أن يقع التراجع فيه.

خامسا : تحقق الوعيد الماحق، ولكن قُبَيْل حلوله أنجــى الله صــالحا والــذين آمنــوا معــه كما أنجى هودا ونوحــا، بــأن أدخلهــم فــي رحمتــه التــي تحصّــن مــن كــل مكــروه ويصحبها التكريم. ولذا أكد تكريمه لهم بأنــه أنجــاهم أيضــا مــن الــذل الــذي صــحب عذاب ثمود . والتفت القرآن إلى خطاب النبــي ﷺ بالتــذكير بــأن ســحق شــعب كامــل في لحظة هو أمر هين في جانب القدرة الإلهية فإن الله هــو القــوي الــذي ينفــذ مــراده مع سلب الهالكين أي قدرة على المقاومــة. وهــو العزيــز الــذي لا يغلــب. وفــي ذلــك إيماء بالوعيد لكفار قريش أن مصيرهم قد يكون نفــس مصــير ثمــود لاشــتراكهم معهــم في العناد والمكابرة.

ثم عرض القرآن صورة تنفيذ الوعيــد: أخــذتهم مــن مكــامنهم صــيحة قويــة مفزعــة كأشد ما يكون القوة والفزع، تجاوزت حدود طاقــاتهم، عقبهــا أنهــم انقلبــوا فــي ديــارهم جثثا هامدة جاثمين علــى ركــبهم مغروســة رؤوســهم فــي الأرض، لــم يســتطيعوا أن يفروا ولا أن يتحركوا؛ كأنهم لم ينعموا في حياتهم الســابقة بمــا نعمــوا بــه مــن خفــض العيش ووفرة الأرزاق.

ويعلق القرآن على القصة بأكملها: إن ثمودا عصــوا ربهــم وعانــدوا وواصــلوا الثبــات على الكفر. أبعدهم الله مذمومين مخذولين .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (73)

بيان معاني الألفاظ :

رسلنا : ملائكتنا الموكلون بأمر منا.

البشرى : البشارة .

السلام : التحية.

فما لبث : عجّل ولم يُبطئ.

حنيذ : مشوي بطريقة خاصــة أن يغطــى بحجــارة أو رمــل محمــي أو بحائــل بينــه وبين النار.

أوجس منهم خيفة : أحس بالخوف منهم.

يا ويلتا : صيغة تستعمل في مقام التعجب.

البعل : الزوج.

بيان المعنى الإجمالي :

جاءت ملائكة الله لإبراهيم حاملين البشارة، فسـلموا عليــه ورد علـيهم السـلام بمــا هــو أحسن. وعجل باستضافتهم فهيــأ لهــم عجــلا مشــويا قدمــه لهــم. واســتوحش إبــراهيم منهم، لأنه لاحظ أنهم لم يتناولوا شيئا مــن الطعــام الــذي أكــرمهم بــه .وإذْ بــدا عليــه الحيرة من أمرهم، أعلموه بأنهم رسل من الله لإنزال العذاب على قوم لوط الفجرة.

كانت امــرأة إبــراهيم حاضــرة مستبشــرة، وضــحكت ممــا رأت وســمعت. فبشــرها الملائكة أنها ستحمل من إبراهيم بنبي الله إســحاق، وأنهــا ســتبقى إلــى أن تــرى ولــده يعقوب. تعجبت أشد العجب مما سمعت وقالــت: كيــف أحمــل وقــد أصــبحت عجــوزا جاوزت بكثير السن الذي تحمل فيه النساء عادة، وكذلك زوجــي كمــا هــو أمــامكم شــيخ كبير السن، إن ما أخبرتموني به يدعو للعجب !

طمأنها الملائكة وبددوا حيرتها لما قالوا لها: كيــف تعجبيــن مــن نفــاذ قــدرة الله، فهــو القادر على خــرق العــادات كقدرتــه علــى إمضــاء ســنن الكــون. ولا تعجبيــن مــن تخصيصكم بهذا الفضل فإنكم أهل بيــت عمــتكم رحمــة الله وظهــرت عنايتــه بكــم، إن الله بما يتوالى من فضله وبما اختص به مــن كمــال حقيــق بــأن يحمــد، وهــو المجيــد سبحانه الموصوف بأسمى الصفات وأنبلها.

بيان المعنى العام :

هذه قصة أدمجت فيها قصة رسولين عاشا في زمــن واحــد ســيدنا إبــراهيم وابــن أخيــه سيدنا لوط. فلنتابع القصة كما عرضها علينا القرآن:

69 ـ 70، ولقد جاءت رسلنا إبراهيم ...ومن وراء إسحق يعقوب.

قدمتْ على سيدنا إبراهيم رسل مــن ملائكــة الله يحملــون البشــارة. يحتمــل أن تكــون البشارة ما ستعرف به الآية التالية: إعلامه بأنه سيولد لــه مــن زوجــه ســارة بعــد كبــر سنهما نبي يخلفه نبي، ويحتمل أن تكون البشــارة إهــلاك قــوم لــوط الفاســدين وتبشــيره بإنجاء لوط. وكلا الأمرين مما يبتهج به إبراهيم.

قدم الملائكة المبعوثون من الله على إبراهيم في صورة لا تـدل إلا علـى أنهـم بشـر قـد يكونون في تصوره مـن المسـافرين الـذين يقطعـون الأرض متنقلـين. افتتحـوا لقـاءه بتحيته، بالسلام عليه، ورد عليهم بأحسن مما سمع منهم .

كان إبراهيم ﷺ كريما، وتوقع أن ضيوفه قد يكونـون فـي حاجـة إلـى الطعـام، فأسـرع إلى بقره، وأخذ عجلا سمينا أنضجه بين نـارين مـن أسـفله ومـن أعـلاه، وأقبـل بـه يقطر دهنه وقدمه إليهم.

كان يتوقع أن يتناوله الضيوف بشراهة، ولكنهم لم يمـدوا أيـديهم إليـه. فأدخـل مـوقفهم هذا حيرة في نفسه، بعد الاستئناس بهم ضيوفا فـي بيتـه، وقـد وجـد لـذة نفسـية فـي إكرامهم. وسرى الخوف منهم إلى قلبه وظهرت ملامحـه علـى وجهـه. ذلـك أن العـادة جرت أن المشاركة في الطعام يتبعها أمـنُ كـل واحـد إلـى صـاحبه فإعراضـهم عـن الأكل قد يكون نذير شر.

وهنا يرتفع الغموض : طمأنوه وقالوا له: لا تخف منـا. إنـا لسـنا بشـرا ولكننـا ملائكـة أرسلنا الله، بمهمة ننفذها، إلى قوم لوط.

71-وامرأته قائمة فضحكت ...ومن وراء إسحق يعقوب.

تدخل في المشهد امرأة إبراهيم التـي كانـت حاضـرة واقفـة تسـمع كـل مـا دار بـين زوجها وضيوفه. ويسـجل القـرآن أنهـا ضـحكت، وشـأن الضـحك أن يصـدر عـن الإنسان إذا سُرَّ بمـا سـمعه، أو تملكـه شـعور ممـزوج مـن التعجـب والاسـتغراب.

واختلف المفسرون في توجيه سبب ضحكها اختلافا كثيـرا، حتـى حملـه بعضـهم علـى أن الضحك هو إحساسها بالعادة الشهرية. وهو محمل بعيـد لغـة ومعنـى. والـذي أفهمـه من الآية أنها كانت مسـرورة. قـد يكـون سـرورها لمـا علمـت أن ضـيوفها ملائكـة وكلهم الله بالانتقام من قوم لوط الفجرة. وقـد يكـون لمـا ذكـر فـي الآيـة، وهـذا ممـا جبلت عليه النساء، سـرورهن بالحمـل ينشـر فـي نفوسـهن البهجـة. أو بـأمر آخـر مطوي، ولا يهمنا في حبك القصة معرفته على وجه الدقـة، فلننصـرف عـن ذلـك إلـى ما سيأتي واضحا في مراحل القصة.

كانت سارة زوج إبراهيم منشرحة، كأنها مهيأة لحدث سار، ويأتي هذا الحدث أيضا فتبشّرها الملائكة أنها ستحمل بإسحاق وأنها سترى من ابنها هذا حفيدها يعقوب أيضا.

72-،73 قالت ياويلتا ءالد ...إنه حميد مجيد.

البشارة صادقة لا تشك في تحققها، ولكن هـذه البشـارة كانـت غريبـة نظـر للظـروف المصاحبة التي عبرت عنها سارة في تسـاؤلها. وصـرحت بـذلك فـي قولهـا: ياويلتـا!

صيغة تدل على التعجب الممزوج بالشعور بالصدمة. كيف ألد بمعنى كيف يتأتى مني الحمل، وأنا قد تجاوزت السن الذي تحمل فيه النساء أجنة! لقد بلغت سن اليأس وأصبحت عجوزا مسنة. وزوجي كبر وأصبح شيخا طاعنا في السن. فكونها عجوزا، وكون زوجها شيخا، حسب المعروف من سنن الحياة أنهما قد جاوزا سن الإنجاب، فكيف تتحقق هذه البشارة ؟

-أجابها الملائكة بما يرفع حيرتها ويزيل تعجبها قائلين: أتعجبين من أمر الله (نفاذ قدرة الله) أليس هو القادر إذا أراد شيئا يأمره فيستجيب. ولا عجب أن يصدر هذا من الله، ولا عجب أيضا في تخصيصكم بخرق العادة، لأن تعلق إرادته بإعطائكم الولد في مثل هذا السن هو رحمة وبركة، وأنتم أهل للرحمة والفضل يا أهل البيت. وتختم الآية بأن الله حميد، لا يسع المتأمل في كمالاته إلا أن يثني عليه بما هو أهله، وأنه مجيد: متصف بأوصاف العلو الذي لا يشاركه أحد فيها.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76)

بيان معاني الألفاظ :

الروع : الفزع والخوف.

المجادلة : المقابلة في القول والحجج، المحاورة.

الحلم : كمال العقل مع أناة واحتمال.

أواه : كثير التوجع والاهتمام بشؤون غيره من الناس.

منيب: كثير الرجوع إلى ربه.

بيان المعنى الإجمالي :

اطمأن إبراهيم لمّا تحقق أن الذين قدموا عليه ملائكة الرحمن، ولمّا تتابعت عليه البشائر. ثم أخذ يسأل الإمهال لقوم لوط لعلهم يرتدعون. وذلك لأن من طبيعة إبراهيم ومن مزاياه أنه راجح العقل يتحمل الأذى ولا يسرع بالرد، كثير التأسف على كل من يصيبه مكروه، وهو في حضرة ربه يعود إليه بصفة دائمة.

و ناداه ربه: يا إبراهيم أعرض عن توسلاتك فيهم؛ إنه قد حق عليهم الوعيد، وإنه سيلحق بهم العذاب الذي لا مرد له.

بيان المعنى العام :

74←75، فلما ذهب عن إبراهيم الروع....أواه منيب.

بعد أن اطمأن إبراهيم وذهب عنه ما وجده من خوف وريبة من الضيوف الذين امتنعوا من تناول ما قدمه إليهم، وتبين له أنهم ملائكة الله أتوا ليبشروه بامتداد نسله، وبنجاة لوط من العذاب الذي سيحل بقومه. وبعد أن تأكد من أن القضاء المبرم سيحل قريبا بالقوم المفسدين، أخذ يدعو ربه ويعتذر لقوم لوط ويسأل لهم الإمهال علهم يقلعوا عن السوء الذي انتشر فيهم وتمكن منهم.

وتسجل الآية ما كان عليه إبراهيم من كمال خلقي، قام بموجبه سائلا الصفح عن قوم لوط، هذا الخلق يتمثل في أنه امتلأ حلما، مما يبين عن عقل راجح، وتحمل للأذى، وصفح عمن ظلمه. وأنه كان رقيق المشاعر قوي الإحساس يكثر من التأوه إذا رأى الانحراف عن منهج الله، يتوجع لانصرافهم عن الطريق المستقيم، ويهتم لما يصيبهم من هموم. وإن رجوعه إلى ربه يلزمه بصفة متتابعة يحاسب نفسه ويعيش في ظل القرب من ربه.

76-يا إبراهيم أعرض عن هذا.. غير مردود.

وبينما إبراهيم يسأل لقوم لوط الإمهال والتوفيق، يأتيه الخطاب القاطع: يا إبراهيم انقطع عن توسلاتك، إنه قد آن أوان تنفيذ الوعيد حسب القدر السابق الذي لا يبدل. وإن قوم لوط سيسلط عليهم عذاب لا يمكن الحيلولة بينهم وبينه.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

سيء بهم : حصل له السوء بسبب قدومهم عليه.
ضاق بهم ذرعا: ضاق ذراعه فلا يستطيع مده إلى غايته. أي لم يجد حيلة في الخروج من الأمر الذي ألم به.
عصيب : شديد فيما لا يرضي.
يهرعون :مقبلون بشدة كأنهم مدفوعون من خلفهم.
ولا تخزون : ولا تذلوني بالاعتداء على ضيوفي.
من حق : من رغبة.
ركن شديد : قوة تمنعني.
قطع من الليل : جزء من الليل.
سجيل : من واد من جهنم .
منضود : متتابع.
مسومة : عليها علامة تفرزها عن غيرها.

بيان المعنى الإجمالي :

انتقلت القصة من إبراهيم إلى لوط، بتحول الملائكة إليه في صورة بشرية، فاستاء من قدومهم وشعر بالضعف والحرج، وعبر عن ذلك بأنه في يوم شديد. وبمجرد ما سمع قومه بقدوم ضيوف جدد على لوط أسرعوا إلى بيته على ما هو عادتهم من ربط علاقة شذوذ جنسي مع كل قادم. رجاهم لوط أن يحترموا ضيوفه، وعرض عليهم أن يزوجهم من فتيات هن أفضل من الذكور استمتاعا وطهارة. وحضهم على تقوى الله التي تحصنهم من الإثم الذي تعودوا عليه. ونهاهم أن يهينوه بالتعدي على ضيوفه، وتعجب أن لا يوجد فيهم رجل رشيد يحسن التدبير.
أجابوه بكل وقاحة: لما ذا اللف والدوران، إنك تعلم ما نريد من ضيوفك ولا نرغب في بناتك. قال لوط عند ذلك مظهرا الحرج الكبير الذي هو فيه بتمنيه أن لو كانت له قوة يستطيع بها أن يوقف فسادهم، أو لو كان في المنطقة رجل قوي يأوي إليه ويحميه ويمده بالتأييد ليحميه من فساد قومه، وعزمهم التعدي على ضيوفه.
عند بلوغ اليأس بلوط هذا الحد كشف له الملائكة عن حقيقتهم وقالوا له نحن ملائكة الله. فكن مطمئنا. إنهم عاجزون عن النيل منك أو منا. وإنهم قد حق عليهم ما قُدّر لهم من عذاب. فاخرج مع أهلك في الليل وسر بهم مبعدا عن القرية، ولا يلتفت منكم أحد إليها، واستثنوا امرأته التي ستهلك مع الهالكين. إن موعدهم المهلك مع الصباح، والصبح قريب انبلاجه.

لما حصل الأمر التنجيزي انقلبت القرية بما تحويه فأصبح عاليها سافلها، وتتابعت عليهم حجارة من نوع خاص لا ينجو منها أحد. وهي تصل إلى الظالمين أينما كانوا.

بيان المعنى العام :

77-ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ....يوم عصيب.

انتقل الملائكة المرسلون من إبراهيم، بعد أن أكملوا ما كلفهم الله به من البشارة ومن إخباره أن قوم لوط قد حق عليهم كلمة العذاب، انتقلوا إلى سيدنا لوط فقدموا عليه في صورة بشرية. ويصف القرآن الموقف الحرج الذي كان عليه، لقد ساءه قدومُهم، ووجد نفسه في ضيق، خشية من قومه الذين شاعت فيهم الفاحشة شيوعا جعلتهم لا يتورعون من الوصول إلى فعلتهم النكراء طوعا أو كرها . ووجد مجال حفظ ضيوفه وحمايتهم مجالا ضيقا. عبر عنه بأن ذراعه أصبح محصورا لا يستطيع أن يقوم بدوره من المدافعة. وفاض صدره بما يدل على الكرب الذي استولى عليه، فقال: هذا يوم عصيب، بالغ الشدة بما ينذر به من مكروه لا يستطيع دفعه، إذ هو يتجاوز قدراته.

78 - وجاءه قومه يهرعون....أليس منكم رجل رشيد.

وشاع الخبر في البلد، وتسابق نحو بيته الذي يأوي الضيوف باندفاع، جماعة من قومه، كأنما قوة من خلفهم تدفعهم، قصدُهم ما هو دأبهم من فعل الفاحشة والتعدي على الضيوف إشباعا لعرامة شذوذهم الجنسي.

بلغ الحرج بلوط أقصاه، وحاول أن يصدهم بالإقناع عما عزموا عليه فقال لهم: يا قومي ! مقربا لهم بما يربطه بهم من النسب الذي من شأنه أن يصرفهم عن إيذائه. ثم فتح لهم باب الانصراف عن الفاحشة بأنه يُمكّن من يرغب في إشباع شهوته المتهيجة بالزواج من بنات قومه. أقدم على هذا العرض باعتبار أنه النبي فيهم، فبنات قومه كبناته. وحرضهم على قبول عرضه بأن الزواج بين الرجل والمرأة، أطهر من الفاحشة بين ذكرين شرعا وذوقا. وأضاف تذكيرهم، آمرا لهم بتقوى الله الذي يمقت فعل الفاحشة. ثم جسم لهم الوضع الحرج الذي هو فيه سائلا أن لا يخذلوه وأن لا يهينوه بإهانة ضيوفه، فإن من كرامة المضيّف أن تحترم ضيوفه، يجدون في حماه العزة والمنعة. وسألهم في الختام متعجبا: ما لكم قد اتفقتم على الفساد واختلت القيم عندكم ؟ ألا يوجد من بينكم رجل رشيد في مداركه يحسن التدبير، عاقل ذو بصيرة في تقييم الأمور، يكشف لكم سوء ما أنتم مقدمون عليه، ويردعكم عن المضي في الفساد.

79-←80، قالوا لقد علمت ما لنا ...إلى ركن شديد.

بلغت الأزمة أشدها. وتحول الحوار بين لوط وقومه إلى حوار الصم. فما نفذ تذكيره ولطفه وحسن تأتيه في المحاورة إلى عقولهم، ولا حرك فيهم داعية الخير والرجوع إلى ما هو حق بين. وقالوا له: ما لك تتجاهل ما أنت عالم به، إنك تعلم من سلوكنا ومن قيمنا الاجتماعية أنا لا نرغب في النساء اللاتي عرضتهن علينا، ثم أكدوا في وقاحة: إنك يا لوط تعلم ما نريد أن نحصل عليه، فنحن مصممون على النيل من ضيوفك فلماذا الدوران؟

بلغت الحيرة من لوط أشدها، وانكشف له أن قومه جمعوا بين الوقاحة والتحدي. فرجع إلى نفسه معبرا عما بلغه من اليأس: ليت لي قوة ذاتية أمنع بها ضيوفي منكم، بما يوحي أن كثرتهم كانت تفوق قدراته الذاتية. أو ليت لي قوة خارجية أستند إليها تمنعني. قوته الذاتية أضعف من أن تقاوم هذا الرتل المتتابع من قومه، ولا يوجد في محيطه من يحمي الحق أو يسنده. فالتعبير يوحي بأن اليأس استولى على مشاعره، وضاقت به الحيل التي تخرجه من المأزق الذي هو فيه.

81-←83، قالوا يا لوط إنا رسل ربك ... وما هي من الظالمين ببعيد.

جاء الفرج بعد الشدة فسجلت الأيات الثلاث الألطاف التي تدارك الله بها لوطا.

-حضر الملائكة ما دار بين لوط وقومه، وشهدوا إصرارهم على الفساد فتم تسجيل ذلك عليهم. ولما يئس منهم لوط ويئس من وجود قوة تساعده في محنته، صرح له الملائكة بما يخرجه من الضيق الذي هو فيه .قالوا له : لسنا بشرا، ولكنا ملائكة الله أرسلنا إليك . إنهم عاجزون عن الوصول إليك أو عن النيل منا. فقد أعمى الله أبصارهم كما جاء في سورة القمر: (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم)[1] - فكن مطمئنا يا لوط. وأنت مأمور بأن تخرج مصاحبا أهلك ليلا وتسير بهم، واقطعوا علاقتكم بالقرية الظالمة الفاسدة، فلا تلتفتوا إليها. ولم يبين القرآن السر في هذه الوصية. ويحتمل أن لا يبقى في نفوسهم تعلق بها، كما يحتمل أن العذاب الذي سينزل بها مما لا تتحمل الطاقة البشرية مشاهدته. ولا تأخذ امرأتك معك، أو إن امرأتك ستلتفت فيصيبها ما أصابهم. وعلى التقديرين فزوجته هالكة ولا بد. وسينزل بهم العذاب مع الصباح .ومن المؤكد أن وقت حلول الصبح قريب وليس ببعيد.

---

[1] سورة القمر آية 37

النهاية: لما آن الموعد الذي حدده الله في سابق علمه لإهلاك قوم لوط، في لحظة انقلبت القرية فأصبح أسفلها أعلاها. وتتابع عليهم من السماء القذف بحجارة محماة قد تكون من واد بجهنم، وقد يكون ذلك على التشبيه كأنها من ذلك الوادي، وهي حجارة ليست كالحجارة تتميز بعلامتها التي تفرزها عن غيرها من أحجار الأرض بتقدير من ربك يا محمد.

ثم التفت القرآن إلى المشركين يهددهم، بأن آثار الخسف والعذاب قريبة منهم وليست بعيدة عن الظالمين وهم ظالمون بالشرك، فليرتدعوا عن الشرك. كما يحتمل المعنى أن إصابة قوم لوط بالحجارة من سجيل ليس بعيدا عن الظالمين.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (86) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87)﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخير : حسن الحالة، ومنه وفرة الخير او رخص الأسعار.

محيط : يحيط بكم فيه العذاب.

القسط : العدل.

البخس : النقص.

تعثوا: تسعون في الفساد.

بقية الله : ما يبقيه الله لكم ويدوم. أو إبقاء الله خير لكم.

حفيظ: مجبر.

الحليم : صاحب العقل الراجح.

الرشيد :الموفق في التصرف في الأموال.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله إلى قبيلة مدين رسوله شعيبا، وكان فردا من أفراد القبيلة ليس غريبا عنها. طلب منهم أن يفردوا الله بالعبادة، وأن لا يحتالوا على المتعاملين معهم

بالتنقيص من الكيل أو من الميزان. وذكرهم بأن وضعهم المالي وضع ميسر فهم بخير، الأمر الذي لا يجدون معه عذرا لما يقومون به. وحذرهم من اليوم الذي يحيط بهم العذاب فلا يجدون منه مخرجا، وأمرهم أن يحكموا العدل في تعاملاتهم، وأن لا يحطموا أمل العارضين للسلع بإظهار عيوب موهومة وانتقاص في القيمة ليستولوا عليها بثمن دون قيمتها الحقيقية. وأن يتذكروا دوما أنهم مستخلفون في الأرض فلا يفسدوا فيها. وإن تطبيقهم لما عرضه عليهم هو طريق الخير فعليهم أن يلتزموه إن كانوا مؤمنين. وختم موعظته: بأنه لا يجبرهم على اتباع ما دعاهم إليه.

كان جوابهم الرفض لما تضمنته رسالته، وتأولوا أن ما جاءهم به إن هو إلا تصورات نشأت من الصلوات التي شاهدوه ملازما لها، وإلا فكيف ينهاهم عن عبادة ما استقر عليه آباؤهم! ثم إن الأموال التي تدخل في طريقة التصرف فيها بتحريم التطفيف ونحوه، هي أموالهم التي حصلوا عليها بجهدهم، فلا يقبل أن يتدخل أحد في تصرفاتهم، وهي الحرية الفوضوية التي ما تزال إلى اليوم حجة من فقدوا الإيمان. ثم ختموا تعجبهم بأن ما صدر منه لا ينسجم مع ما عرفوه من كمال عقله، ومن حسن تصرفه في الاستثمار.

بيان المعنى العام:

84-86، وإلى مدين أخاهم...عليكم بحفيظ.

أرسل الله إلى مدين رسولا منهم كما أرسل نوحا وهودا وصالحا، مما يبين أن الله، بفضله ورحمته، يساعد البشر على الاهتداء، فيرسل رسله من نفس الأقوام المرسل إليهم، يكونون قد خبروهم واطمأنوا قبل دعوتهم إلى صدقهم وكمال أخلاقهم .

ومدين قبيلة منسوبة إلى جدهم مدين. كانت مواطنهم بين الحجاز وخليج العقبة بقرب ساحل البحر الأحمر. وما روي في نسبهم لا يطمأن إليه .

بعث الله إليهم شعيبا ليهديهم بعد ضلال كبير في العقيدة واختلال في بنائهم الاجتماعي. فدعاهم:

أولا: إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وهي الدعوة التي انطلق منها كل رسول لتوجيه المرسل إليهم إلى الحق الذي تبنى عليه العقيدة والسلوك. وأن الانحراف عنه هو الضلال والضياع. يترتب عنه فساد في التصور، وفساد في العلاقات الاجتماعية، وفساد في ارتباط الإنسان بالكون الذي يعيش فيه.

ثانيا: إلى الصدق في المعاملة والابتعاد عن الحيل التي يتمكن بها أحد الطرفين من مغالطة الطرف الآخر والاستيلاء على حقه. فنهاهم عن تنقيص حق المتعامل معه

من الوزن، أو الكيل، بإيهامه أنه أُعطيَ حقه كـاملا، والمحتـال قـد غالطـه واستولى على ماله باطلا. وشنع على هذه الطريقة التـي شـاعت فـيهم، بـأنهم لا يجـدون مبـررا ولو وهميا لما يفعلونه، فهم يعيشون في سعة ووفـر مـن الخيـرات، ولـيس بهـم حاجـة لمثل هذه التصرفات. ونبههم من ناحية أخرى إلى أنهـم يعرضـون أنفسـهم إلـى عـذاب الله في يوم عظيم أخذه، إما في الدنيا وإمـا يـوم القيامـة يـوم الحسـاب. هـذا العـذاب الذي يحيط بهم لا يجدون عنه مخرجا.

أكد شعيب هدايته تلك، بأن ثنـى مصـرحا بمـا يفيـده النهـي. فـأمرهم بإيفـاء الكيـل والميزان: أي إعطاء الطرف المقابل حقه كـاملا غيـر منقـوص، ووضـح ذلـك بربطـه بالعدل الذي لا يظلم فيه أي طرف الطرف الآخـر .وهـو معيـار مغـروس فـي الفطـرة البشرية.

ثم نهاهم عن نوع آخر كان فاشيا فيهم، وهـو أن بعـض أصـحاب المعرفـة يظهـرون ما ينقص من قيمة المعروض، ليستولوا عليه بـثمن نـاقص عـن قيمتـه، وهـو اسـتغفال للجالبين للسلع باعتبار أن الخبير مدرك للقيم وللجودة، فيكـون قصـده ممـا يظهـره مـن جوانب سلبية في السلعة، يرمي من ورائه أكل المال بالباطل.

ثم نهاهم نهيا عاما عن كل فساد فـي الأرض، فقـال: ولا تعثـوا فـي الأرض مفسـدين - ولا تعثوا أي : ولا تفسدوا في الأرض فسادا مخربـا. ذلـك أن غمـط حقـوق النـاس، كالاحتيال في الكيل والميـزان، وكـاختلاق العيـوب المنقصـة مـن قيمـة السـلع، هـي ونحوها مما يعطل النمو ويزهد النـاس فـي الإنتـاج، وذلـك إفسـاد فـي الأرض التـي استخلفنا الله فيها لنعمرها. والتعمير لا يكون إلا بالتنمية.

وواصل حظهم على الاستقامة بأن ما يبقيـه الله لهـم مـن البركـة فـي أرزاقهـم، ومـا يبقيه فيدخره لهم من الثواب على التزامهم بالصدق فـي المعاملـة، هـو خيـر لهـم ممـا يستعجلون الحصول عليـه بـالطرق الملتويـة. وإنكـم لتـدركون ذلـك إذا رجعـتم لمـا يقتضيه التأمل العقلي في الصلاح الاقتصادي، وما يدعو إليه الإيمان.

وختم موعظته بأنه مبين لهم، ومبلغ لهـم مـا أوحـي إليـه، ويبقـى كـل واحـد مـنهم مختارا مسؤولا عن اختياره، ولا أكره أي أحد .

87-قالوا يا شعيب أصلواتك ...الحليم الرشيد.

قابل قوم شعيب دعوته بالرفض. وذلك بفرض أن ما طلبت منا اعتقاده والتزامه، قد انتقش في عقلك بسبب ما نراك ملتزما به من الصلوات. كأنهم يعيبون عليه مواظبته على الصلاة، ولا يرون إلا أنها كانت سببا في تصورات هي حقيقة دعوته التي قامت:

أولا: على ترك عبادة ما عبده آباؤهم، يردون عليه بأن مخالفة الأباء على ما كانوا يقيمون عليه، والذي نجحوا به في حياتهم غير مقبول.

وثانيا: على التحكم المرفوض في طريقة تصرفهم في أموالهم. ذلك أن تلك الأموال جمعوها بجدهم؛ فلا يقبل أن تتدخل فينا.

و ختموا باستغراب أن تصدر هذه التعاليم عنه، فإنه معروف برجاحة العقل وحسن التفكير فلا يقبل منه أن يطرح ما ثبت عليه آباؤهم، وبأنه رشيد محسن للتصرف المالي، عارف بوجوه تنميته، فكيف ينهاهم عن التطفيف وما عطف عليه. وبه تنمو ثرواتهم؟

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

التوفيق : خلق القدرة والداعية إلى الطاعة.

توكلت : تقويت بعون ربي.

رهط الرجل : القرابة الأشد قربا منه.

رجمناك : قتلناك بالرمي بالحجارة.

ما أنت علينا بعزيز: لا يعجزنا قتلك وذلك هين.

ظهريا: وراء الظهر أي منسيا.

محيط : لا يخفى عنه علم أي عمل من أعمالهم.

بيان المعنى الإجمالي :

واصل القرآن تسجيل ما دار بين شعيب وقومه .قال لهم: يا قوم ما ذا تظنون أن يقع بي من السوء إذا أنا لم أبذل كل جهدي لإبلاغكم ما أوحي إلي، مع أني متمكن من هدي الله ورزقني النبوة خير ما يرزق .ولا أقصد من تذكيركم أن أظهر بمظهر المخالف لكم، بل ما أريد إلا الإصلاح على قدر طاقتي. وإذا وفقت فبفضل الله علي، ولأني معتمد عليه، وأعود إلى فضله ليؤيدني. وثنى بأن نهاهم عن أن يحملهم مضادة الحق الذي جاء به على العناد فيصيبهم من العذاب ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح، وقوم لوط قريبون منكم زمنا ومكانا. فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم . وتقربوا إلى ربكم بطلب المغفرة لما سلف منكم واندموا على ما فرط منكم، فإن الله رحيم بعباده إذا ما توجهوا إليه، ويحصلون على حبه رغم ما فعلوه قبل توبتهم من العصيان.

كان جوابهم: إنك لم تفلح في توضيح مرادك، وقوّمناك فتبين لنا أنك ضعيف لا تقدر على مقاومتنا، ولولا مكانتك عند أقاربك الأقربين لرجمناك بالحجارة، وما أنت بالرجل العزيز علينا.

أجابهم شعيب منكرا عليهم أن يقدّموا في رعايته أقاربه، وينسون أنه مبعوث من عند الله الذي هو حاميه، والله لا يغيب عنه أي عمل من أعمالكم.

وهددهم في النهاية بعد أن يئس منهم، فقال لهم: استمروا على فسادكم، وإني مستمر على صلاحي. سوف تتبين لكم العاقبة، من يهلك بالعذاب المذل، ومن هو كاذب وانتظروا حلول ما وعدتكم به فإني منتظره معكم.

ولما قرب الموعد أنجى الله شعيبا والذين آمنوا معه وشملتهم رحمته،وأخذ الله شعْب مدين بصيحة قوية تجاوزت طاقة الإنسان فأصبحوا في ديارهم جاثمين على وجوههم لا حراك لهم، كأنهم لم يعمروا تلك الأماكن فلم يبق لهم أثر. أبعد الله مدين كما أبعد ثمودا تلحقهم الذلة والمهانة، وكلاهما هلك بالصيحة.

بيان المعنى العام :

88-،90: قال يا قوم...رحيم ودود.

واصل القرآن تسجيل الحوار الذي دار بين شعيب وقومه:

قال شعيب: ما هو ظنكم إن كنت موقنا بأني متمكن من الحق البين الذي تلقيته عن ربي، وأكرمني بأن رزقني النبوة، وهي الرزق الحسن، وأسرعتم إلى تكذيبي ما ذا تكون عاقبتكم ؟ أليس من الحزم أن تصدقوني، خاصة وأن مضمون رسالتي إن تأملتم فيه لا تجدونه إلا محصلا لخيركم.

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإني لا أريد أن أنهاكم عما نهيتكم عنه، ثم أعمل بخلاف ذلك في حياتي. فأنا ملتزم بتطبيقه، سائرٌ على ذلكم النهج. كما أني لا أقصد أن أظهر مخالفتي لكم، وما فرضتموه من أني أقصد إلى الخروج عن معتادكم وإظهار أني مخالف لكم، هو فرض خاطئ، فإني ما أريد إلا أن أصلح روابطكم الاجتماعية وتصوركم للكون وللخالق. وأعمل لبلوغ ذلك باذلا كل ما أملك في حدود طاقتي.

ثم إن تحقيق ما أسعى إليه، وخروجكم من الضلال إلى الهدى، وتقوية روابطكم الاجتماعية، لا يتم إلا بفضل من الله. فإنه سبحانه الموفق للخير بتيسير الأسباب ورفع المعوقات. إني معتمد عليه في جعل دعوتي تحقق الآثار الطيبة. وإني أعود إلى ربي فهو المرجع الذي استقي منه الهداية، وييسر لي العون.

و يا قوم لا يجرمنكم. هذه عبارة تكررت في القرآن تفيد النهي عن التلدُّد والعزم على العصيان مما يجعل الشخص يقرر القيام بفعل يستجيب لعواطفه مع أنه يعلم في باطنه أنه غير صالح. لا تحملنكم مخالفتي، واختياركم طريقا هو في شق وأنا في شق يقابله، من أن يفضي بكم ذلك إلى أن يسلط الله عليكم نكالا مثل ما أصاب قوم نوح، أو ما أصاب قوم هود، أو قوم صالح. وكانت عاقبة هذه الأقوام معروفة عندكم. ثم إن قوم لوط لم يمض عليهم أمد بعيد فيعمل النسيان في ستر ما أصابهم، بل عهدكم بهم قريب، وكذلك منازلهم قريبة من منازلكم.

وبعد أن فتح بصائرهم ليتقوا إصابتهم بمثل أصاب المعرضين عن هدايات الرسل السابقين، أرشدهم لما يرقق القلب، ويجلب رضوان الرب، إلى طلب المغفرة من الله بستر ما اقترفوه من ذنوب وما ارتكبوه من آثام، وأن يعلنوا إقلاعهم عن سيرتهم السابقة، ويظهروا الندم على ما فرط منهم، فيجددوا صلتهم بالله وترتقي أشواقهم إلى القرب منه .ومما يفتح آمالهم في القبول أن الله رحيم بعباده، يحب لهم الخير وسلوك طريق الرشد.

91 -قالوا يا شعيب ما نفقه...بعزيز.

قابل قوم شعيب إفصاحه عن تقريبه لهم وإرادته الخير لهم وتذكيرهم أجمل تذكير وألطفه، قابلوا ذلك بقولهم:

إنا لم نفهم كثيرا من كلامــك، فلــم تفلــح فــي الإبانـــة عــن مــرادك، ودعوتــك غيــر واضحة. ومن ناحية أخرى فتقويمنا لك كشف لنا عــن ضــعفك، فأنــت لا تتقــوى بحجـــة ملزمة، ولا بقوة جسمية تحميك من بطشنا. وشيء واحــد راعينـــاه فلــم نعجــل برجمــك بالحجارة، هو مكانتــك مـــن أقاربــك الأقـــربين الـــذين نـــوقرهم، ولا نريـــد أن نغـــيظهم برجمك. وفي اختيار العقوبة بالرجم، مـــا يفيـــد شـــدة نقمـــتهم علـــى شـــعيب لأن الـــرجم عقوبة فيها تحقير وإذلال. وصرحوا بهذا المعنى لمـــا قـــالوا لــــه: مقامــك هــيّن ولا عـــزة لك، ونعلم أنك لا تجد من ينصرك منا.

92 -،93، قال يا قوم أرهطي ...معكم رقيب .

أجابهم شعيب عن وقاحتهم، وتهديداتهم، وســـوء تقـــديرهم لمقـــام الألوهيـــة، بقولـــه: يـــا قوم! إن أمركم لعجيـــب، تـــذكرون أنكـــم قصّـــرتم فـــي إذايتـــي تقـــديرا مـــنكم لرهطـــي وقرابتي الأقربين، وأغفلتم لكفركم وضـــلالكم أنـــي معتـــز بتأييـــد الله لـــي. أبلغـــت بكـــم الغفلـــة أن نســـيتم قـــدرة الله، وجعلـــتم الله وراء ظهـــركم نســـيا منســـيا، لا ترقبونـــه ولا تتفكرون في حضوره معكم في كل لحظـــة وأوان. واعلمـــوا أن علـــم الله قـــد أحـــاط بكـــم فلا تعملون عملا إلا والله شهيد علـــيكم، مطلـــع علـــى مـــا يصـــدر مـــنكم وعـــن نيـــاتكم الباطنة ولا يفلت شيء من علمه سبحانه.

ثم كرر نداءهم ليوقظهم مهددا لهم مظهرا يأســـه مـــن هـــداهم فقـــال: يـــا قـــوم اعملـــوا على الحالات التي تعملون عليها، وامضـــوا علـــى الســـيرة التـــي تباشـــرون بهـــا الحيـــاة العملية والعقدية. وفي المقابل إني مـــاض علـــى طريقتـــي التـــي دعـــوتكم إليهـــا فـــأبيتم. سوف تعلمون علم اليقين الواقعي، من تكون عاقبته العـــذاب المـــذل، ومـــن يفضـــح بأنـــه كاذب. وانتظروا حلول ما أنذرتكم فـــإني معكـــم مـــن المنتظـــرين. فهـــو معلـــن لهـــم أن العذاب قريب منهم.

94-،95، ولما جا أمرنا...بعدت ثمود.

بعد أن يئس شعيب من اهتداء قومه أعلن لهم مفارقته لهم، وأن عليهم أن ينتظروا تحقق ما أوعدهم به. ولما قرب الموعد ظهر في الواقع مصداق قوله ﷺ "وارتقبوا إني معكم رقيب" فأنجى الله شعيبا والذين آمنوا معه بسبب ما قدره لهم من الدخول في رحمته، واستولت على الذين ظلموا بشركهم وعنادهم صيحة انقلبوا بها جثثا هامدة، فما قدم الصباح إلا وهم منكبون على وجوههم لا حراك لهم. امّحى تاريخهم في لحظة كأنهم لم يعمروا تلك الأرض ولم يقيموا فيها. ذهبوا يلحقهم الخزي وتتبعهم المهانة فهلكوا كهُلك ثمود. وتشابه العذابان إذ كان كل منهما هلك بالصيحة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

السلطان : البرهان.

رشيد : الرأي الرشيد هو المعبر عن الصواب.

الورد : أصله الماء الذي يقصد إلى الارتواء منه.

يقدم : تقدم.

الرفد : ما يرفد به، أي يعطى.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله سيدنا موسى مؤيدا بالمعجزات الظاهرة وبالحج الواضحة البالغة، إلى فرعون وأكابر القوم الذين كانوا يقودون الدهماء إلى حيث يريدون. فجروا على عادتهم، وما هي إلا إتباع ما يأمرهم به فرعون .وما كان فرعون ذا رأي سديد ولا فكر رشيد .يتبين ذلك من العاقبة التي يصيرون إليها، فقد أدخلهم النار، وبئس المصير .وحلت عليهم اللعنة والعذاب والهوان في الدنيا، وتتابع ذلك يوم القيامة وبئس ما غنموا من إتباعه ومالحقهم.

بيان المعنى العام :

96—99 : ولقد أرسلنا موسى ...الرفد المرفود.

أتبع القرآن قصة شعيب وقومه بقصة موسى ﷺ مع فرعون وقد أظلهما زمن واحد، إذ تزوج موسى بنت شعيب.

ذكر من قصة موسى أن الله بعثه مؤيدا ببراهين قوية وواضحة لا تقبل الرد. أرسله إلى فرعون وأصحاب الجاه الذين كانوا يدبرون أمر الدولة مع فرعون. وبقية أفراد الشعب كانوا يأتمرون بما يأمرونهم به، ولا يخرجون عن طاعتهم. ولذلك نصت الآية على فرعون وملئه. أسرع فرعون بتكذيب موسى واتبعه من كان حوله فقدموا رأي فرعون على رسالة موسى. وكان فرعون سفيه الرأي بعيدا عن الرشد في التفكير .

ويحشرون معه يتقدمهم ويقتفون أثره. فكان قائدهم إلى النار. وما أسوأها من قيادة رمت بهم في الجحيم. وتبعتهم اللعنة في الدنيا فأغرقوا مهانين، وتتبعهم اللعنة يوم القيامة. وما أسوأه من مصير. وأصل معنى الرفد ما يعطى بقصد الإعانة من

مال(رفد) المرفود المتبوع. فهم قد لعنوا في الـدنيا، وأضـيفت إلـى لعنـة الـدنيا لعنـة الآخرة.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩)

بيان معاني الألفاظ :

الأنباء : الأخبار.

قائم : باق آثارها.

حصيد : ذهبت آثارها.

تتبيب : خسرانا.

الشقي: من أحاط به السوء.

السعيد : من جمع الأحوال الحسنة.

مجذوذ : مقطوع.

مرية : شك.

التوفية : إكمال الشيء.

بيان المعنى الإجمالي :

إن القصص التي تتابعت في هذه السورة ما كان لك أن تعلم تفاصيلها لولا ما مكناك منه من الوحي. لقد نفذ فيهم الوعيد فبعض القرى درست ولم يبق لها أثر،

وبعضها ما يزال شيء من آثارها ثابتا. إن ما حل بهم لا ظلم فيه. ولكن الكافرين الهالكين هم الذين ظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر وتعليق آمالهم بالأصنام، فما استطاعت آلهتهم التي عبدوها أن تصرف عنهم البلاء عندما قدر الله إنزاله بهم. وبذلك تكون تلك الآلهة ما زادتهم إلا خسرانا على خسران.

وعلى ذلكم النحو يهلك ربك الأمم الظالمة المكذبة وينفذ عقابه يصحبه الألم الشديد الذي يحيط بالظالمين فلا يستطيعون أن ينفلتوا منه.

إن في تلكم القصص الصادقة ما يقوم دليلا على تحقق العذاب للظالمين يوم القيامة الأمر الذي يحمل الصالحين على الحذر منه. إن يوم القيامة سيجمع الله فيه جميع الناس، وهو يوم يحضره كل إنسان. إن تأخير ذلك اليوم هو بقدر الله الذي رتب منذ الأزل الموعد الذي ستحشر فيه الخلائق فلا يتقدم ساعة ولا يتأخر لحظة.

إن الناس على قسمين يوم القيامة: قسم شقي، وقسم سعيد.

فأما الأشقياء فتأخذهم نار جهنم لا يخرج نفسهم من صدورهم إلا بجهد (زفير)ولا يستنشقون نفسا جديدا إلا مع عذاب (شهيق) وقد كتب الله للأشقياء الخلود في العذاب خلودا أبديا. وهذا الخلود لا يستعصي على القدرة الإلهية إنهاءه إذا ما تعلقت إرادته. إن إرادته لا يعوقها شيء

وأما السعداء فهم خالدون في نعيم الجنة خلودا أبديا إلا ما شاء الله، على معنى أن مشيئة الله لا يعوقها شيء. إنه عطاء لا ينقطع.

وخاطب القرآن كل من يصح أن يتوجه إليه الخطاب، أن لا يشكوا في مآل مشركي مكة؛ فإنه سيلحقهم ما لحق المكذبين السابقين، إذ لم تبن عبادتهم على حق وإنما هم مقلدون لضلال آبائهم. وسينالون جزاء ما عاكسوا الإسلام وآذوا المسلمين وفتنوهم الجزاء العادل.

بيان المعنى العام :

100-102: ذلك من أنباء الغيب...إن أخذه أليم شديد.

يمثل هذا المقطع نظرة عامة على العبرة التي يستفيدها القارئ المتأمل في القصص السابق من نوح إلى موسى.

أولا: اعتبر بما قصصناه عليك من أحوال الرسل مع أممهم، وما انتهى إليه أمر تلك الأمم لما نفذ فيهم الوعيد فهلكوا، وإن كانت بعض من مساكنهم قد درس ولم يبق له أثر، وبعضها ما تزال آثارها قائمة. وما كان لك لتعلم تفاصيل ما جرى في تلك الأزمنة الغابرة مما هو غيب لولا الوحي الذي خصصتك به.

إن هذه الصورة من الفناء والخراب كانت جـزاء وفاقـا لمـا قـابلوا بـه رسـل الله، ولا يعتبر سحقهم ظلما، فإن الله لا يظلم أحدا من خلقـه. ولكـنهم هـم الـذين ظلمـوا أنفسـهم فسلكوا بها المسالك المهلكة، وانصـرفوا عـن الطريـق المنجـي. لقـد تعلقـوا بالأصـنام فعبدوها وتخيلوا أنها تنصرهم عند الشدائد، فما وجدوا لها مـن غنـاء ولا دفـع لمـا حـل تنفيذ ما قدره الله لهم من العـذاب جـزاء كفـرهم وتكـذيبهم وإصـرارهم علـى العنـاد. فآلهتهم عاجزون عن الدفع عنهم، ما اسـتفادوا مـن عبـادتهم إلا الخسـران المبـين. مـن سفاهة عقـولهم تصـورهم أن لأصـنامهم مكانـة تشـفع لهـم عنـد الله عمـا اقترفـوه. وتصوروا أنها تحميهم من كل مكروه. فكان اعتقـادهم ذلـك صـارفا لهـم عـن التأمـل في الآيات التي لفت أنظارهم إليها رسل الله، فما زادتهم آلهتهم إلا خسرانا مبينا.

إنه على هذا النحو من الاستئصال والقضاء المبـرم، يهلـك ربـك القـرى الظـالم أهلهـا فلا ينفلت أحد منهم من عذاب الله عند حلوله. إن نفـاذ عقابـه أليـم يحـس بـه الظـالمون عميق الإحساس، وإنه لشديد متمرّ.

وفي ذلك تهديد لأهل مكة الممعنين فـي كفـرهم المنصـرفين عـن هـدي سـيدنا محمـد ﷺ؛ إنه سيجري عليهم ما جرى على المكذبين من الأمم السابقة.

103 –108؛ إن في ذلك لآية...غير مجذوذ.

إن ما ورد في القصص السابقة من تنفيذ الله وعيـده، يقـوم دلـيلا علـى أن يـوم القيامـة ات لاريب فيه. لقد أنذرت الرسل عليهم السلام أقوامهم ما سـيحل بهـم مـن عـذاب فـي الدنيا، وقد تحقق، فكذلك سيتحقق ما أوعدوهم بـه مـن بعـث للحسـاب والجـزاء. كمـا يقوم ذلك دليلا إضافيا للمؤمنين الذين يخـافون عـذاب الآخـرة فيحفـزهم لفعـل الخيـر والاستعداد له بما يرضي الله.

إن يوم القيامة يوم سيجمع الله له البشـر جميعـا فـلا يتخلـف أحـد عـن الوقـوف بـه. وسيشهده كل فرد شهود الشيء المهول المحقق الذي لا مرية فيه.

أنكر الكافرون هذا اليوم، وعللوا أنفسهم بأنه لو كان حقـا لـم يتـأخر. فحققـت الآيـة أن هذا اليوم قد حدد الله وقت حلوله في أجل لا يتقدم ولا يتـأخر. فالعـالم كلـه مبنـي علـى نظام دقيق قدره رب العزة مـن الأزل. فقـدر زمـان إيجـاده كمـا قـدر وقـت نهايتـه والوقت الذي يبعث فيه البشـر. وربطـه بحسـاب مضـبوط، فـلا يـأتي إلا عنـد بلـوغ الحساب تمامه.

اعتنى القرآن بتفصيل هول يوم القيامة؛ فبـين أن النـاس علـى قسـمين متمـايزين: قسـم شقي الشقاء الذي ليس بعده سعادة، وقسم سعيد سـعادة لا تتحـول إلـى شـقاء. هـو يـوم

يبلغ من هوله أنه يعقد على الألسنة فلا يستطيع أحد أن يتكلم إلا بعد الإذن له من مالك ذلك اليوم رب العالمين. ثم أخذ القرآن في تفصيل بعض ما يلقاه كل فريق:

أما الأشقياء فإن مستقرهم النار، التي يتقلبون فيها بين زفير، يتم الضغط على صدورهم وتتحبس أنفاسهم فلا تخرج إلا بزفرة دافعة بقوة؛ فهم في شدة عندما يخرجون أنفاسهم، وفي المقابل فهم لا يستطيعون أن يأخذوا الهواء لصدورهم إلا بعسر يتمثل في شهيقهم. وإن ذلك يمثل نوعا من أكدار المعذبين في جهنم. إن جري النفس بلطف في الحياة نعمة قد يغفل عنها كثير من الناس، وعسر التنفس إدخالا وإخراجا يلهي المصاب عن كل شيء ويفقد معه أساس الراحة. ويصاحبهم هذا العذاب وهم في النار، ويتواصل تواصلا لا انقطاع له. فليس المقصود أنه عندما تنتهي السماوات والأرض سيخفف عنهم ما يلقونه، كلا بل هو تجسيم لاستمرار العذاب إلى أبد الآبدين. وقد استثنى القرآن من أزمنة خلود الأشقياء في النار الزمان الذي يشاء الله أن ينقطع فيه العذاب عنهم. ومعنى ذلك والله أعلم: أن العذاب المسلط عليهم سيتواصل بإرادة الله وأنه لا يجب على الله شيء، فلو تعلقت مشيئته بتفريج كربتهم لفعل، وإن كان سبحانه قد أخبر أنهم خالدون بإرادته لا يخرجون من النار .

وأما الذين سعدوا برضوان ربهم فمصيرهم إلى الجنة ينعمون فيها بأنواع الكرامة التي كتبها الله لعباده الصالحين فيها، لا يخرجون منها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء الله، يفهم التعبير كما فهم التعبير السابق. وينفي القرآن احتمال تصور انقطاع الكرامة، بقوله: عطاء غير مجذوذ أي غير منقطع .

109 -فلا تك في مرية مما يعبد...غير منقوص.

ثم توجه القرآن إلى كل تال للقصص السابقة أن يتأمل فيها ويتعظ بها، وأن يكون على يقين من أن مشركي مكة سيلقون ما لقيه المشركون في أحقاب التاريخ . وأن لا يدخله الشك في ذلك. إنهم عبدوا ما ليس حقيقا بالعبادة، وما بنوا صلتهم بمعبوداتهم على أساس من النظر والتفكير، ولكنهم هم مقلدون لآبائهم الضالون.

والعدالة الإلهية تسري عليهم، فهم قد وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية بناء على الاتباع التقليدي الغبي، وآذوا المؤمنين، فسيوفّون جزاء ما عملوا جزاء هو كفاء ما قدموا من ظلم وغمط للحق.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

كلمة :ما حكم به في الأزل من ترك الاجتهاد للبشر.

لقضي بينهم : لأزال الخلاف.

لا تطغوا : لا تجاوزوا الحدود.

الكون إلى الشيء : الرضا به.

طرفا النهار : أوله وآخره.

الزلف: جمع زلفة، وهي الساعة القريبة من أختها .

بيان المعنى الاجمالي:

أنزل الله (الكتاب) التوراة على موسى ﷺ. ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يحتفظوا بسلامة نصه، فاختلفوا في نصه كما اختلفوا في مضامينه. ولولا أن الله قضى في الأزل أن يكون المرسل إليهم مكلفين بالاجتهاد مجزيين عليه، لولا ذلك لرفع الله الخلاف بينهم بإظهار التصور الصحيح والتنصيص على التصورات الخاطئة . واليهود مغرقون في الشك مما انقلب معه دينهم إلى شك وريبة.

اثبتْ يا محمد مواصلا الاستقامة على المنهج الذي أمرت به. وليكن المؤمنون الذين اتبعوك وتابوا من الكفر ملازمين للاستقامة. وإياكم والخروج عن الحدود التي حددها الله.

ولا تميلوا إلى الذين ظلموا بالكفر والعصيان، فالميل إليهم داعية للتأثر بهم وإصابتكم بعذاب النار. وإنكم لا تجدون من يقبلكم إذا التجأتم إليه غير الله، كما لا تجدون نصيرا ينصركم سواه.

وأدّ صلاتك على أكمل الوجوه في أول النهار (صلاة الصبح) وفي آخر النهار (صلاة العصر والمغرب)وأوقاتا متقاربة من الليل (صلاة العشاء) وأبشر فإن فعل

الصالحات يتبعها ثوابها من ناحية، وتمحو الصغائر من الذنوب .إن في ذلك ما يؤكد التذكر واليقظة لمن شأنه أن يتذكر، ولا يمر مرور الغافلين. وعليك أن تتقوى بالصبر عما نهى الله عنه، والمداومة على فعل الخيرات. إن الصابرين محسنون، والله قد ثبّت أجرهم فلا يُضيع شيئا من صالح سلوكهم.

بيان المعنى العام :

110 ـ111، ولقد آتينا موسى الكتاب ...يعملون خبير.

أفادت القصص التي تتابعت في هذه السورة تثبيت النبي ﷺ بعرض مقابلة الشرك لهدايات الله. وعطف على ذلك في هذه الآية، أن الله بعث سيدنا موسى عليه السلام مؤيدا بكتاب هو التوراة التي نوه بها القرآن، بأن فيها هدى ونورا، ومع ذلك فقد اختلف قومه فيها اختلافا بينا بالزيادة والنقص والتحريف وسوء التأويل. فلا يحزنك يا محمد موقف المشركين من القرآن.

إن إظهار الحق إظهارا ملجئا ليس من سنن الله التي أجرى عليها التكليف. ولكنه سبحانه ترك الناس لاجتهادهم، ينظرون ويعمقون التأمل فيهتدون، فيجزون جزاء مضاعفا على اجتهادهم الموفق. ويجتهدون فيخطئهم الصواب في غير العقيدة ويؤجرون لاجتهادهم. ويقتحمون بالتأويل المبني على التحريف والاستجابة لدواعي الهوى فيأثمون. وقد تتصارع الأفكار. ولم يكن من سننه سبحانه أن يحسم الأمر حسما يرفع النزاع. هذا هو قدره. ولو شاء أن يلجئهم إلى الرأي الحق لفعل، ولكنه لم يرد ذلك فلا يتحقق.

ولو حسم الله الأمر حسما يرفع كل اجتهاد وتأويل لقضي بينهم باستئصال من لم يكن على حق، ولكنه أراد أن تبقى سنة الاجتهاد في الاتصال بالنص، حتى يبقى على جدته وقوته.

ثم عرفت الآية بوجه من الاختلاف حمى الله منه القرآن، وهو الاختلاف في نص الكتاب. فاليهود لم يسلم لهم نص التوراة فبلغ الاختلاف بينهم في ضبط النص، وأدى ذلك إلى تأصل الشك فيه شكا أدخل في عقيدتهم الريب والشك.

إن ذلك الاختلاف ودوافعه المتباينة بين قصد الخير وقصد الإضلال، وما ينبني على ذلك من سلوك، كل ذلك سينال به كل فرد جزاء عمله. والله وهو المتصف بالعدل الكامل يجزي كل فرد حسب ظاهر عمله وباطنه، لأنه الخبير، الدقيق علمه بكل ما يصدر من الإنسان.

112 -فاستقم كما أمرت...بما تعملون بصير.

توالى عرض أحوال الأمم السابقة، وانتهى البيان إلى اخـتلاف اليهـود فـي كتـابهم بـين الانحراف الكامل وبين الوفاء لنصــه وروحــه، فناسـب أن يتوجـه القـرآن لرسـول الله ﷺ ليواصل ثباته على المنهج المستقيم الـذي لزمــه فـي حياتــه وفـي شـجاعته فـي القيام بالدعوة إلى الإسلام، رغم ما كان يلقاه من الأذى والعنـاد مـن أهـل مكـة. والآيـة مكية كالسورة. والاستقامة تقتضي أن يكون مطبقـا تطبيقـا كـاملا لمـا جـاءه مـن ربـه في العبادة والمعاملات والعلائق البشرية. ومجموعها يمثـل الكمـال النـاتج عـن اليقظـة لاتصـال الفـرد بربــه، والإرادة الحازمــة لتطبيــق ذلـك، مهمـا اختلفـت الظـروف والأوضاع. والنبي ﷺ هو في المستوى الأرفـع والأكمـل فـي الالتـزام، بـل إنــه يجـد لذته في طاعة ربه على ذلكم المسـتوى. وأمـر المـؤمنين بـأن يسـيروا علـى نهجـه، وعبر عنهم بمن تاب باعتبار أنهم في الظرف الذي نزلت فيـه الآيـة كـانوا تـائبين مـن الشرك عائدين إلى الفطرة، دين الإسلام. وتأكيدا للاسـتقامة نهـى عـن الطغيـان المخـل بالاستقامة، إذ هو مجاوزة الحدود التي حددها الله، وعدم مراعاة أوامره ونواهيه.

113- ولا تركنوا...ثم لا تنصرون.

إنه إذ تبين لكم طريق الإسلام بصـفة واضـحة لا لـبس فيهـا، وأمـرتم بالثبـات عليـه وعدم الخروج عن الحدود التي حددها، فاعلموا أنه يتكون مـن ذلـك مـنهج فـي العقيـدة والتعامل والسلوك يختلف عن منهج القـوم الظـالمين بشـركهم أو بفسـادهم. فـلا تميلـوا إليهم، ولا تظهروا الرضا بسـلوكهم، ولا بطـريقتهم فـي الحيـاة. إنهـم منحرفـون عـن الاستقامة، فالمقترب مـنهم بصـدد إتبـاعهم والتـأثر بهـم، وبالتـالي الخـروج عـن الاستقامة. نحذركم من الركون إليهم لئلا يصيبكم عـذاب النـار. وفـوق ذلـك لا تجـدون من له مكانة يصلح بها أن يكون لكم سندا، كما لا تجـدون مـن ينصـركم فيحـول بيـنكم وبين عذاب النار أو يستطيع إخراجكم منها.

وهذه الآية من جوامع الكلم التي تضـيء للسـالكين طريـق النجـاح والخـلاص .فبقولـه تعالى : فاستقم ...و لا تطغـوا- يتميـز طريـق الهـدى بمعالمــه لا ميـل ولا تجـاوز. وبقوله ولا تركنوا – استقلال المجتمع المسـلم عـن غيـره مـن المجتمعـات بـالاعتزاز بالانتساب إليه وعدم الاهتمام ولا الرضوخ للمغريات التـي ربمـا تكـون عليهـا ظـواهر المجتمعات الأخرى المنصرفة عن الله.

114–115، وأقم الصلاة ...أجر المحسنين.

إن الاستقامة على الطريـق الـذي شـرعه الله فعـلا للمـأمورات واجتنـاب للمنهيـات، وارتباط القلب بالله في كل الأوقات، يحتـاج إلـى تـرويض الـنفس علـى الخيـر حتـى تحبه وتقبل عليه عن داعية، وعلى الاشمئزاز من الشر لتجتنبه وتبغضه.

إن من أبلغ ما يساعد المؤمن على الاستقامة واليقظة الروحية، ما شرعه الله من الصلاة. فأكدت هذه الآية فرض الصلاة على رسول الله ﷺ، وعلى المؤمنين، وأمروا بإقامتها على معنى أدائها على الوجه الأكمل في الطرف الأول من النهار (صلاة الصبح) وفي الطرف الأخير منه (صلاة العصر، وكذلك صلاة المغرب) وزلفا من الليل أوقاتا متقاربة منه(صلاة العشاء). وقد تكفلت السنة القولية والعملية بضبط أوقات الصلوات الخمس وببيان شروطها وأركانها.

واعلموا أن الله تفضل عليكم بكرمه وعفوه، فجعل الحسنات التي أهمها الصلاة يتبعها ثوابها من ناحية، وتمحو أثر السيئات من الذنوب التي لم تبلغ درجة الكبائر، من ناحية أخرى. كما أن الصلاة تُكوّن في المؤمن مناعة تحفظه، إذا أداها على وجهها، من اقتحام المعاصي. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

ذلك ذكرى، أي ما بينته الآية من تأثير الصلاة في الروح بغسلها من الصغائر، ومن تكوين قوة تحمي من الوقوع في الآثام، هو ذكر عظيم لمن شأنه أن يتعظ بما يلقى إليه وأن ينفعل لداعي الخير.

وتوج التوصية بالأمر بالصبر على دواعي شهوات النفس، وعلى المغريات من متع الحياة الدنيا، والصبر مما يتقوى به المؤمن فيقدم حظه من رضوان الله على الحظوظ العاجلة. ففي الصبر الإيجابي خير كثير. وكفاك تنويها به ما ختمت به الآية بأن الصابرين محسنون وأن الله يكتب لهم أجورهم، ولا يضيع منها شيئا.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿116﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿117﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿118﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿119﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿120﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿121﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿122﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿123﴾

بيان معاني الألفاظ :

بقية الناس : أهل الفضل.

الفساد : المعاصي.

أترفوا : توسعوا في الإقبال على الشهوات.

أمة واحدة : متفقون على اتباع الهدى.

نثبت : نرفع الاضطراب.

الفؤاد : الإدراك.

بيان المعنى الإجمالي :

صياغة فيها تحذير للحاضرين وأسى على ما انتهـي إليـه أمـر الماضـين. فهـلا كـان في الأمم السابقة بقية من أهل الفضل والعلـم يقومـون بـالنهي عـن العصـيان والفسـاد في الأرض ولكن قليلا قـاموا بهـذا الواجـب فكتـب الله لهـم النجـاة.ولم يسـتفد مـنهم المتبعون لشهواتهم الذين تعلقوا بـالترف والتوسـع بـلا حـد فـي المتعـة فكـانوا بـذلك محرومين لعدم شكرهم وعدم مراعاتهم لحدود ربهم.

أهلكهم الله وما ظلمهم. ولكن جريا على مـا كتبـه علـى نفسـه: أن لا ينـتقم مـن أهـل القرى الصالحين، فالله لا يظلم أحدا، وإنما يجزي المجرمين بما فعلوه من فساد.

واعلم أن الله قادر على جعـل الخلـق علـى نسـط واحـد متمحضـا للطاعـة، ولكنـه خلقهم خلقا مختلفا ينساق كل فرد إلى الدواعي الخاصة بـه، وعلـى هـذا هـم سـائرون، لكن الذين شملتهم الرحمة لا يختلفون في الحـق، ويلتزمـون بـه فـي تفكيـرهم وفـي سلوكهم . وبذلك تحقق ما قدره الله في الأزل وكتبه فـي اللـوح المحفـوظ : أنـه سـيملأ جهنم من الجن ومن البشر المنحرفين الكافرين.

إن ما قصه الله على رسوله في هذه السورة من أخبار الرسـل، شـأنه كشـأن مـا قصـه من قبل : أنه حق لا زيد فيه ولا نقص. أنـه يثبـت قلبـه ويزيـده قـوة علـى الصـبر والمواصلة والاحتمال، وأن فيها عبرة وموعظة للمؤمنين.

وبعد أن والى القرآن الحجج والوقائع التي حـدثت فـي الكـون المؤيـدة للـدعوة، وبعـد ذلك جاء الأمر، قل للذين انصرفوا عن الإيمـان وثبتـوا علـى الكفـر مهـددا: واصـلوا عملكم الضال فإنا ملتزمون بالثبات على صـالح عملنـا، ثـم انتظـروا العقـاب الـذي سيحل بكم، فإنا منتظرون فضل الله علينا، وتسليط عذابه عليكم.

والله وحده هو العالم بما غاب عن البشر ممـا لـم يُقـم عليـه دلـيلا ولا أمـارة، لا مـن العقل ولا من المادة، وإن تحقيق جميـع الأمـور علـى الوجـه الـذي سـبق فـي علمـه

الشامل، هو راجع إليه لا يشاركه في ذلك أحد. فهــو وحــده الحقيــق بــأن تتوجــه إليــه بالعبادة وتستند إليه ليعينك على قضاء أمرك. والله علــيم بحقيقــة مــا تعملونــه وبنيــاتكم التي بها تكتسب الأعمال قيمتها الحق.

المعنى العام :

116-117، فلولا كان من القرون...وأهلها مصلحون.

لولا حرف للتحضيض أي لحث المخاطــب علــى الفعــل، ولمــا كــان مضــمون الآيــة متعلقا بالأمم السابقة وقد ذهبت، ولا معنى لحثهــا، كــان المقصــود تحــذير مــن يــأتي بعدها. ففاتحة هذه الآية صرفت المقصود منها إلــى التحــذير مــن الوقــوع فيمــا وقعــت فيه الأمم السالفة التي لم تقم بواجب إنكار المنكر.

فهلا كان في الأمم التي خلت قبلكم جماعة مــن أهــل العلــم بالشــريعة والحــرص علــى سيادة الخير ممن يعتبرون البقية من أهل الفضــل والكمّــل مــن النــاس، يقومــون بنهــي المقتحمين للمعاصي، ويحذرونهم مــن الاســتهتار بعمــل الســوء، حتــى تصــلح أحــوال الأمة ويعمرون الأرض، فيتغلب الخير على الشر.

وقوله تعالى: **إلا قليلا ممن أنجينا مــنهم.** هــذا الاســتثناء هــو اســتثناء منقطــع بمعنــى لكن، أي لكن قليلا من أهل القرون الماضية مــن الــذين أنجــاهم الله مــن النــار كــانوا يقومون بواجب النهي عن المنكر، ويــؤثرون فــي أقــوامهم، فــلا يعــم الفســاد الأرض بما يتبعه من الاستئصال العام.

ولكن تأثيرهم لا يشــمل الجميــع فيبقــى الــذين تعلقــوا بالتوســع فــي حظــوظ الــنفس والشهوات، وهم المترفون، الذين اتبعوا مــا تزينــه لهــم نفوســهم بــدون حــد، فكــانوا بسبب هذا التعلق من المجرمين، لا يشكرون الله علــى نعمــه، ولا يقفــون عنــد حــدوده، فحق عليهم الهلاك.

و بذلك يتحقق ما سنه الله وكتبه على نفسه: أنــه لا يســلط عذابــه علــى أهــل القــرى إذا كانوا على صلاح واستقامة. فما يسلطه من عذاب لا يلتــبس بــالظلم، وإنمــا هــو جــزاء عن عصيانهم وارتكابهم لما نهوا عنه، وما ربك بظلام للعبيد.

118-119، ولوشاء ربك ...و الناس أجمعين.

إن وضع بني الإنسان من الاخــتلاف بيــنهم وضــع قــدره الله فــي طبيعــة البشــر لــم يخلقهم نمطا واحدا يسيرون على نهج واحد لا يتبــدل ولا يتحــول، خلقهــم وكــل واحــد منهم متميز عن غيره في مواهبــه وفــي عواطفــه، وفــي اختياراتــه، وفــي الظــروف المتحولة التي تحيط به وتؤثر فيــه. مــنهم مــن يــؤثر الخيــر والصــلاح والاســتقامة.

ومنهم من يؤثر الاستجابة لدواعي الشهوة والاستئثار والتسلط والفجور، منهم من يتعلق بالله ويعمل، تبعا لذلك، ما يرضيه، ويرجو الآخرة، ومنهم من يؤثر متع الحياة الدنيا وينسى ربه ويسقط من حسابه يوم الجزاء. ورحمهم بما أرسل إليهم من الرسل وما ألهمه الصالحون من الدعوة إلى الخير وتذكير الناس بالحق، كما أنه لم يمنع الشيطان وحزبه من التأثير في عواطف البشر، ومن العمل على حجب القوة العاقلة عن قيادة الإنسان في حياته. ولذلك كان الاختلاف بينهم في التفكير وفي السلوك اختلافا مسترسلا مع الجنس البشري.

و لذلك المفهوم من تمكين الإنسان من حرية الاختيار، ومن التكليف والحساب عليه، ثم الجزاء العادل مع ما يخالطه من الرحمة. خلق الله البشر غير مقصورين على الطاعة ولا منصرفين حتما إلى المعصية، بل هم مختلفون بين صالحين وعصاة طالحين، طائعين وفسقة، مؤمنين وكفار.

وتحقق في الوجود الفعلي تقدير الله، وما كتبه في الأزل من كون الإنسان محاسبا عن أعماله ملاقيا جزاءه. وجسم ذلك بأن الجنة ستمتلئ بأهل الصلاح من الإنس والجن، وكذلك النار ستمتلئ بالأشقياء من النوعين.

120 - وكلا نقص عليك من أنباء الرسل...وذكرى للمؤمنين.

نقص عليك يا محمد كل نبأ وخبر من أخبار المرسلين قبلك، مما نثبت به قلبك وعقلك، ونزيح عنك كل قلق واضطراب، فتأنس بتلك القصص، وترى فيها سنن الله في الخليقة، وتتعرف على الطريقة التي واجهت بها الأمم أنبياءها الذين يعملون على هدايتهم وتبصيرهم بالحق. إن العرض الواقعي من الوحي على قلب رسول الله، وما عاناه الرسل من المكذبين يزيد الرسول إصرارا على الدعوة إلى دين الله ويقوي قدرة احتماله لما يسلطه المشركون عليه من الأذى المعنوي بالتكذيب والاستهزاء، والأذى المادي بمختلف أنواعه. وقد صبر النبي ﷺ على كل ذلك حتى انتصر الدين، وذلك بما طبع عليه من كمالات، وبفضل ما يوالي عليه ربه من تأييد، ومن ذلك قصص الأنبياء مع أقوامهم.

وأكد القرآن أن ما ذكره في قصص هذه السورة حق، كالشأن في القصص السابقة، وأن الهدف منها هو تذكير المؤمنين بما ينفعهم وما يوقظهم من الغفلات، وهي الموعظة التي ترقق القلوب وتقرب الإنسان من الخير.

121 -، 122وقل للذين لا يؤمنون ...إنا منتظرون.

بعد أن استوفى القرآن خطاب الرسول ووعظ المؤمنين بما جاء في القصص السابقة، أمر الرسول بتهديد الذين خلت قلوبهم من الإيمان ولزموا ما هم عليه من

الكفر، ولم يتعظوا بما جرى على الأمم السابقة، قل لهم مهددا: واصلوا عملكم على النحو الذي أنتم عليه، فلنا منهجنا وطريقتنا في العمل، ولكم منهجكم وطريقتكم، لا نرضى بما أنتم عليه، ونحن ماضون على الحق، وأنتم ماضون على الباطل، وانتظروا ما سيحل بكم من مقت الله وعقابه. ونحن ننتظر عقابه لكم. وإكرامنا بعفوه وفضله. وشتان ما بين الانتظارين.

123 - ولله غيب السماوات...وما ربك بغافل عما تعملون.

ختم القرآن سورة هود بهذا البيان الجامع الذي ينعطف على كل ما جاء فيها فيؤكده، ويثبت أن علم البشر لا يتجاوز الظواهر المحدودة التي مكنهم الله من علمها، أما ما هو ثابت، ولكنه مغيب عن حواسنا ومداركنا ولم يقم عليه ما يبلغنا إدراكه، فهو خاص بعلم الله لا يشاركه فيه غيره. وشمول علمه سبحانه يدل على أن ما اتخذوه من دونه من آلهة ضلال، لأن الجاهل لا يصلح أن يكون معبودا، وبجانب العلم فإن تعلق العلم بإنجاز المعلوم مصروف عنه كل الكائنات، فإن إحاطة الإنسان بجميع الظروف التي يتم بها إنجاز الخلق لا تعود إلى الخلق ولكن الله سبحانه هو الذي يوفر الأسباب ويصرف المعوقات، فما تعلقت إرادته بإنجازه ينجز، وما تعلقت إرادته بتعويقه يعوق، ومن أراد نصره ينتصر، ومن أراد خذلانه يخذل. فمن الادعاء الباطل أن يدل الناجح بقوته الذهنية وذكائه في تحقيق ما تحقق، ولا بدأبه وعمله، ولكن التوفيق الإلهي هو الذي هداه إلى الطريق الموصل، وصرف عنه المعوقات الداخلية والخارجية، فالأمر لله والإنسان مسؤول.

إنه إذا كان المتصرف الحق في الكون وفي كل ما يحدث فيه من صغير أو كبير وعظيم أو تافه، هو من أثر تعلق الإرادة، فتوجّهْ إليه بالعبادة، فإنه وحده الحقيق بأن يتقرب إليه المتقربون، واعتمد عليه وحده ليسعدك بالتوفيق والعون.

واعلم علم اليقين أن الله لا يغيب عنه أي عمل تعملونه من شر أو خير، ويرتبط بذلك الجزاء الذي لا ظلم فيه، فليحذر الضالون من حسابهم عن سوء أعمالهم، وليفرح المؤمنون بما يترقبونه من حسن الثواب.

أتممت سورة هود بعون الله وفضله يوم الخميس 13 شعبان 1432 14/7/2011-
أسأله ضارعا أن ييسر لي إكمال ما بقي كما يسر لي ما قمت به إن وليي الله.

ســـورة يــوسف

سورة يوسف هي السورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف. وأجمعوا على تسميتها بهذا الاسم .نزلت على رسول الله ﷺ بمكة. رتبتها في النزول الثالثة والخمسون. نزلت بعد سورة هود وقبل سورة الحجر. اختصت بأنها تضمنت أطول قصة في القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝

بيان معاني الألفاظ:

المبين : الموضح التوضيح الكامل.

القصص : الإخبار بما جرى من الأمور.

الغفلة : انتفاء العلم نتيجة عدم توجه الذهن.

يا أبت : يا أبي مع دلالة على تمكن القرب والود.

الكوكب : النجم.

يا بني : بني تصغير ابن، صيغة تستعمل للدلالة على ما في نفس المتكلم من حب وشفقة.

لا تقصص رؤياك : لا تخبر برؤياك

الكيد : إخفاء عمل مضر.

يجتبيك : يصطفيك ويختارك.

الأحاديث : جمع حديث بمعنى الشيء الحادث، أو الشيء المتحدث به.
إتمام النعمة : جعلُها كاملة لا يعقبها سلب.

بيان المعنى الإجمالي :

يلفت القرآن إلى خصائصه:

هو مجموع في كتاب مبين لما أراد الله أن يبلغه إليكم. لم يكن لأحد من الكائنات دور في ألفاظه ولا في تراكيبه بل أنزله من العالم العلوي، يقرأه البشر باللغة العربية التي طوعها لتحمل الوحي. رجاء أن ينفذ إلى عقولكم فتزداد معارفكم بما تضمنه سعة ودقة ويفيض في عقولكم قوة.

إننا بعظمتنا نُعنى بك ونقص عليك أكمل القصص وأحسنها، لصدقها، وجمال عرضها، وتنوع الحِكم المستقاة منها. والحال أنك كنت قبل أن ينزل عليك الوحي لا تعلم شيئا من ذلك.

ثم يعرض القرآن مقدمة للقصة الطويلة التي تخص يوسف ﷺ، فيتحدث القرآن عن مجلس ضم يعقوب وابنه. يحدث الغلام أباه: أنه رأى في المنام رؤيا عجيبة، رأى أن أحد عشر نجما ومعها الشمس والقمر حيته ساجدة له.

و أول رد فعل للوالد النبي الصالح أنه ارتسم في ضميره أن هذه الرؤيا رؤيا صالحة منبئة عن مستقبل يسمو فيه ابنه إلى مقامات علية يحسد عليها. وبنى على ذلك أن نصحه بكتم هذه الرؤيا عن إخوته ولا يحدثهم بها. وبين له أنه معرّض بذلك للحسد منهم وما يترتب على الحسد من تدبير ما يلحق به السوء. وإن الشيطان يغري إخوته بالإضرار به على ما هو شأنه من العداوة المستحكمة فيه للبشر.

ثم طمأنه على أنه يستقبل خيرا كبيرا. وسيختاره ربه لتحمل مهام رفيعة، ويتولى تعليمه ما يُقرُّ به الحكمة في قلبه، وما يمكنه من تأويل الرؤى. ويكمل عليه إنعامه إكمالا يحميه من الخسران. ويرتفع به مع أسرة والده يعقوب من مقام إلى مقام أعلى منه. فإنه على هذا النحو جرت عنايته بأصوله إبراهيم وإسحاق. إن ربك ينفذ ذلك، تبعا لعلمه المحيط بحقائق القلوب ودخائل النفوس، فهو يمكن الصالحين الطيبين من المراتب السنية، وذلك هو مقتضى الحكمة الربانية.

بيان المعنى العام :

1←2، آلر تلك آيات الكتاب...لعلكم تعقلون.

افتتحت سورة يوسف كما افتتح غيرها من السور، بالحروف المقطعة التي بيّنّا ما يتعلق بها في سورة البقرة.

نوه القرآن بما فيه من كمالات تتحقق بها هداية البشر، وتمكنهم في يسر من الانتفاع به. إنه كاشف عن المعاني الجليلة التي تضمنها، بيّنها بلا غموض. أنزله رب العزة على قلب محمد كلاما يقرأ مجموعا في كتاب. يسمو بتلكم المزايا فلا يدانيه أي كلام آخر، ولا يعرف كتاب جامع للعرب قبل القرآن. وكل ما عندهم حكم تعتمد الرواية اللفظية أو شعر ينتقش في ذاكرتهم ويستمتعون بسماعه وإنشاده.

تخير الله أن يكون القرآن بلغة العرب التي طوّعها لما فيها من خصائص لحمل كلامه بما يشتمل عليه من عقيدة، وتشريع، وتحريك للقلوب، وإخبار عن الغيب الذي سيحصل يوم القيامة، وعن المغيبات من الأحداث التي تمت في التاريخ وطواها النسيان أو دخلها الزيد والتحريف والتبديل. وذلك بنعمة الله وفضله، رجاء أن تصبحوا به عالمين علما يقبله العقل ويضم عليه جوانحه. فتجمعون بهذا القرآن بين العلم وسعة المعارف والسمو العقلي.

3- نحن نقص عليك أحسن القصص...لمن الغافلين.

نقص عليك يا محمد في هذا القرآن الذي أنزلناه عليك أكمل القصص، وأتمها، وأبلغها جودة، لقد كانت أحسن ما سمعتْهُ آذان البشر، لصدقها وجمال أسلوبها وبلاغ تأثيرها، وجمعها بين العبر والحكم، ولفت الأنظار إلى سنن الله في الكون، وإيقاظ السامعين بتحريك عقولهم وعواطفهم وأذواقهم الفنية وهم يتابعون قصصه الواقعية التي ليست من نسج الخيال. وذلك من منن الله عليك، فالحال أنك كنت يا محمد قبل إنزال القرآن عليك من الغافلين عما جاء فيه، لا تعلم منه شيئا. وفي هذا رد على الذين يزعمون أن قصص القرآن يتلقاها الرسول ﷺ من معاصريه الذين كان لهم علم بالكتب السابقة.

4 -إذ قال يوسف لأبيه ...رأيتهم لي ساجدين.

تبدأ القصة بمجلس ينفرد فيه يوسف ﵇ بأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. وقد تمكنت العلاقة بين الوالد النبي الصالح، وبين ابنه الصغير لما استقر في قلبه من صلاح الغلام منذ بواكير صباه. فكان الامتزاج بينهما امتزاجا قويا، تآلف مع عاطفة الأبوة الطبيعية ما جمعه يوسف من كمالات خَلقية وخُلقية. يعرض يوسف في هذا الظرف الذي اختلى فيه بأبيه ما رآه في النوم من أمر عجيب. رأى أحد عشر نجما من نجوم السماء ومعها الشمس والقمر قد أدت له تحية وهي خاضعة له ساجدة.

من بداية القصة تتحدد ملامح يوسف ، فصفاء روحه وما هيأه الله له من الكمالات النفسية ارتقت به من الصلات الأرضية التي هي ميدان الرؤى المنامية في العادة،

إلى العوالم العلوية الكواكب والشمس والقمر. ولا شك أن الوالـد النبـي قـد غمـرت قلبـه أحاسيس الإعجاب والتنبؤ بما سيكون لولده من مكانــة عاليــة. وقويـت خشـيته أن يُصـدّ عن بلوغ الغايات التي هو مهيأ لها.

5 -قال يا بني لا تقصص رؤياك...عدو مبين.

وتقدم الوالد بنصحه لولده بعد أن اسـتمع إليـه فقـال: يـا بنـي لا تخبـر بهـذه الرؤيـا إخوتك؛ الذين كانوا أكبر منه سنا وأقوى أجسـاما. ولهـم نفـس المنزلـة الاجتماعيـة بمـا لهم من شرف النسب إلى بيت ابراهيم ومـا تناسـل منـه. وقـرن نهيـه عـن إخبـارهم برؤياه معرفا له بالمعطيات التي بنى عليها ذلكـم التحـذير. إنـه يخشـى عليـه أن يثـور في نفوسهم الحسـد ليوسـف. والحسـد داء يـدفع الحاسـد إلـى العمـل علـى حرمـان المحسود من الخير. ولذا تجد الحاسدين يدبرون في الخفـاء مـا يضـر بمـن يحسـدونهم وهو الكيد، ولا يتورعون عن أي فعل يطفـئ النـار التـي تشـتعل فـي بـواطنهم . كـل همهم الحيلولة بين المحسود وبين الخير الذي هـو فيـه. والحسـد مـدخل مـن مـداخل الشيطان، فما يزال يحرك نقمة الحاسـد علـى المحسـود ويـزين لـه الخطـوات التـي تقطع صلته به، وتهيئه لانتظار نزول البلايا بـه، حتـى تـتمكن العـداوة ويهشـم الوحـدة الإنسانية والإيمانية، وهو رشح العـداوة للبشـر، التـي صـرح بهـا الشـيطان المصـمم على المضي على ما تقتضيه. فعداوته للجـنس البشـري عـداوة واضـحة بينـة .وهـذا المقطع يلفت النظر إلى الطريقة الصالحة في التربية: هـي ليسـت أوامـر ونـواه حازمـة جافة، ولكن يصدرها المربي في قالب من التقريـب والـود، يـا بنـي، ويصـل التوجيـه بالتعليل المعقول الذي يقنع، فيثبت في النفس التوجيه .

6- وكذلك يجتبيك ربك...إن ربك عليم حكيم ..

أردف يعقوب على نصيحته، ما يثبّت في نفس ابنه الثقـة بمكانتـه وعلـو قـدره، إذ فهـم الأب الصالح من الرؤيا، أن الله قد اختـار ابنـه ليقـوم بأشـرف الوظـائف التـي تقربـه منه . فعلى ذلكم النحو من الرؤيا الصالحة ستمضي علاقتـه بربـه، وسـتبلغ العنايـة بـه منتقلا من رتبة إلى مرتبة أسمى في الحكمة والتعقـل حتـى يصـل إلـى الاقتـدار علـى إدراك أسرار الحوادث في الكون ومآلاتها وما تـدل عليـه، وهـي الحكمـة التـي يبلغهـا الأنبياء بالوحي، وهو معنى يعلمك مـن تأويـل الأحاديـث، كمـا يطمـح أن يسـمو إلـى بعض منازلها الحكماء في تفسيرهم للوجود ومظـاهره. كمـا يمكـن أن تـدل الآيـة مـع ذلك على صفاء روحه ونور عقله حتى يسـتطيع أن يفسـر الـرؤى المناميـة ومـا تـدل عليه في عالم اليقظة مستقبلا تبعا لما يحل في القلب والـروح مـن توفيـق علـى كشـف الحجب عن تلكم المآلات.

ثم أفرغ في قلبه ما يمكّن البشرى التي قدمها، بأن الله سيتم عليه نعمته فيبلغ بها إلى درجات علية من الكمال دون أن يخشى سلبها، منسحبة عليه وعلى أسرته، والده وإخوته ومن اتصل بهم من الصالحين، كما انبثقت في الشجرة النسبية التي هو فرع منها: إبراهيم وإسحاق.

وتختم الآية بما يُعد ما ورد فيها إلى ما يحققه: إن الله عليم لا يخفى عليه حقيقة النفوس الكريمة الطاهرة والأرواح الصالحة الطيبة، وأنه تبعا لعلمه يخص هذا النوع بما يشرفه من الكمالات وتولي المهام العالية. فيضع النعم في المواضع المناسبة، وهو الحكمة.

• لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝

بيان معاني الألفاظ :

الآيات : جمع آية وهي الدليل على ما تتطلب معرفته.

عصبة : جماعة تفوق العشرة.

غيابات : جمع غيابة وهو ما غاب عن البصر.

الجب : البئر التي حفرت وبقيت على حالتها دون أن تشد بالبناء.

بيان المعنى الإجمالي :

في قصة يوسف وأخيه دلائل ترشد إلى حكم عديدة، وتوجيه رشيد لمن يسأل من الناس عن أخبارها. تفتح القصة بتدبير مؤامرة من إخوة يوسف، الذين حملتهم الغيرة من شدة حب أبيهم لأخيهم يوسف، إذ كان يخصه بمزيد عناية، لما يصدر عنه عند اللقاء العائلي من ذكاء وبعد نظر يسمو به بعيدا عنهم. ولكنهم بناء على حسدهم له أسقطوا كل تلكم المزايا، وقالوا: إن يوسف وأخاه ما يزالان صبيين لا تنتفع منهما الأسرة بشيء لا مكاسب مادية ولا دفاعا عنها، ولا يشاركان في تحمل أعباء الأسرة التي ينفردون بحملها وحدهم، وحكموا على أبيهم تبعا لذلك بالخطأ البين، لتفضيلهما في الرعاية والحب عليهم. وساقهم هذا التحليل إلى أنه يتحتم إبعاد يوسف من الساحة. وقلبوا وجوه النظر التي تبلغهم هذه الغاية. فقال بعضهم: اقتلوا

يوسف، أو اطرحوه في أرض بعيدة لا يستطيع أن يعــود منهــا إلــى أرض قومــه. وأيــد نظريته بأن هذا يحقق لهم ذهاب يوسف ذهابا لا رجعــة بعــدها، فننفــرد بأبينــا، وتكــون حياتنا أصلح بعد ذلك.

وعرض آخر وكان أقــل نقمــة علــى يوســف: أن لا يقــدموا علــى القتــل والتصــفية الجسدية، ولكن يلقونه في قعر بئر على الطريق التــي تمــر عليهــا القوافــل، الــذين مــن شأنهم أنهم يرتوو ا من الأبار التي في طريقهم، وبهذا تتــولى القافلــة أخــذه والابتعــاد بــه إلى بلدها، وهذا خير إن كنتم مصممين على إبعاده عن الأسرة.

بيان المعنى العام :

7- إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب...لفي ضلال مبين.

الآيات السابقة كانت مقدمة لقصة يوسف،وإطارا محددا لمسارها.

و من هذه الآية كانت البداية في إبــراز تفاصــيل القصــة، فافتتحــت بالإشــارة إلــى مــا فيها من حكم ودلائل على عبــر تعــرّف المتتبعــين لأحــداثها بعظــيم صــنع الله وحكــيم تقديره، وأن العاقبة للصابرين. ففي قصة يوسف ﷺ دلائــل علــى قــيم رفيعــة تكشــف خفاياها لكل من يسأل عنها، وتؤثر فــي النــاظرين تــأثيرا يمكــن الخيــر فــي نفوســهم، وينفرهم من الباطل ومن الملوثات العاطفية.

8- تؤكد الآية على حقيقة ما سيرد فيهــا مــن تفاصــيل، وأنهــا قصــة واقعيــة لــيس للخيال مدخل فيها. والمتأمل يجد في كل حــدث مــن أحــداثها ارتباطــا بالمقدمــة إذا مــا استحضرها في نفسه، وأجاد فيها النظر وتعمّق.

أول حدث: اجتماع لإخوة يوسف عرضــوا فيــه قضــية أهمــتهم جميعــا علــى درجــات مختلفة بينهم في طريقة علاجها.

نشأت أحداثها من إحساسهم أن أباهم يعقــوب ﷺ يحــب يوســف وأخــاه بنيــامين حبــا يفوق ما يحمله من حب لهم ،وأنــه لا مبــرر لهــذا التفضــيل فــي نظــرهم، والحــق أن يكون تعلق الوالد بهم وتقريبهم أشد من أخويهم. إذ أنهما مــا يــزالان يــدرجان فــي ســن الصبا ولا يغنيان عن الوالد ولا عن الأســرة شــيئا. وأنهــم هــم الــذين ينفــردون لكثــرة عددهم وقوتهم (عصبة) بالدفاع عن الأسرة عند الشــدائد، ويســهمون إســهاما كبيــرا فــي تيسير أمور حياتها. وبهذا وصلوا إلى اقتناع بــأن أبــاهم أخطــأ الصــواب وتحيــز إلــى يوسف وأخيه استجابة لــداعي عاطفتــه لا لتحكــيم عقلــه. ورأوا أن هــذا أمــر بــين لا غبار عليه. ولم يقدّروا ما ليوسف من كمــالات، ومــا يبــدو منــه مــن مخايــل التفــوق وحسن الاهتداء على صغر سنه. وهــذا شــأن البشــر إذا حســدوا انطلقــوا فــي تقــدير

الأمور من قصد إلى تبرير الحاصـل النفسـي الأول دون سـبره والتأمـل فيـه، ذلـك أن يعقوب وهو النبي المبشّر بـه إبـراهيم عليه السلام لا يقـدّر الأمـور بـالنفع المـادي العاجـل، ولكن يتأثر بالمزايا الرفيعة في النباهة والصلاح .

9 –10 «اقتلوا يوسف أو اطرحوه ......إن كنتم فاعلين»

بعد أن هيأوا أنفسهم للانتقام من يوسـف، وكـان مـا دار فـي نفوسـهم محرضـا لهـم، أخذوا يقلبون الفرضيات التي تحقق لهم غرضهم، ومـا يحصـل إثـر كـل واحـدة منهـا، على أن المهم في نظرهم: أن ينفردوا بأبيهم بعـد ذهـاب يوسـف وإياسـه مـن الالتقـاء به من جديد بعد تنفيذ ما دبروه.

كان الرأي الأول الأشد: قتل يوسف وإنهـاء حياتـه مـرة واحـدة، أو إلقـاءه فـي أرض بعيدة عن منازلهم لا يتصور أنه يتمكن مع صـغر سـنه مـن العـودة إلـى بيـت أبيـه. وبهذا ينفردون بأبيهم ولا يقاسمهم أحد النظـر إليـه والحـديث معـه. ثـم أبـرز النتيجـة واضحة أنهم سيكونون بعد تنفيذ هذا الرأي قوما صـالحين لا يعكـر عيشـهم مـع أبـيهم هذا الحب العارم ليوسف. أو أنهم برروا الإقدام على القتـل بـالعزم علـى التوبـة منـه بعد تنفيذه، فيتم الجمع بذلك بين الاستراحة مـن يوسـف ومـن العـودة إلـى الله بالتوبـة، بما يحقق لهم الصلاح الدنيوي والأخروي.

و يفهم من القصة أن هذا الرأي الشـديد لـم يلـق قبـولا. فعـرض أحـدهم رأيـا آخـر افتتحه برفض قتل يوسف، وذلك بأن يلقوا يوسـف فـي بئـر لا يسـتطيع الخـروج منهـا بمفرده، ويتخيرون بئرا على الطريق السالك للقوافل الـذين مـن شـأنهم أن يسـتقوا مـن الآبار التي تعترضهم في طريقهم، فيتولـون إخراجـه ويبتعـدون بـه عـن أرض قومـه، ويستريحون منه دون أن يرتكبوا جناية قتل أو تعريض للهلاك.

و تشير الآية إلى أن الذي عرض هـذا الـرأي مـا كـان متحمسـا لتصـفية يوسـف أو إبعاده فأنهى كلامه بقوله: إن كنتم مصممين علـى فعـل يـريحكم منـه. كأنـه يرشـدهم إلى التريث وعدم التسرع .

قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا

لَخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

النصح : قول أو عمل فيه نفع للمنصوح.

نرتع: نشارك الأنعام في السير والحركة، فتتفتح بذلك شهيتنا للأكل.

الخسران : عدم النفع المرجو منهم.

أجمعوا : صمموا على التنفيذ.

بيان المعنى الإجمالي :

عملوا على تنفيذ ما دبروه من الكيد ليوسف، وتغلبوا على العقبة الأولى بإظهارهم الود والحرص على ما ينفعه، فقالوا لأبيهم عجب لك لماذا لا تأمنا على يوسف أخينا الذي نحبه ونقدم له ما ينفعه قولا وعملا. رَخِّصْ له في خروجه معنا غدا للبرية نجري في فضائها الرحب بما يقوي أبداننا ويفتح شهياتنا للأكل، ونلعب بما يرفع السأمة عنا وينشط عقولنا .وثق بحرصنا على حفظه.

صدقهم فيما تقدموا به وقال لهم: إني ألفتُ بقاءه إلى جانبي، وبعده عني يحزنني، وأخاف عليه من أن يعدو عليه ذئب فيأكله. قالوا له مبعدين هذا الفرض: كيف يأكله الذئب ونحن جماعة كثيرة العدد قوية البنية. إننا نفقد فتوتنا إذا حصل ذلك. وأذن يعقوب ليوسف فخرج معهم، فلما ابتعدوا به ووصلوا بجانب البئر رموا به في قعره وحيدا. وأسعفه ربه فآنسه بوحيه، وألقى في روعه أنه لا يناله أذى وأنه سيخبر الذين اعتدوا عليه بما فعلوه وهم لا يشعرون بأن الذي ينبئهم هو يوسف.

بيان المعنى العام :

11-12، قالوا يا أبانا ما لك لاتأمنا على يوسف ...لحافظون .

بعد أن دبروا المكيدة ليوسف وصمموا على التخلص منه، أخذت القصة تعرض الطريقة التي تم بها التنفيذ.

١) العقبة الأولى كيف يتمكنون من الانفراد بيوسف بعيدا عن يعقوب، فتقدموا لأبيهم بعرض ظاهرُه شدة حبهم ليوسف، وقالوا له: إنهم ما فهموا لماذا رغم شدة تعلقهم بأخيهم، لما ذا لا يستئمنهم عليه، ولا يُمكّن لصلتهم به، ولا يجعله تحت رعايتهم. ونؤكد لك أنا نسعى بأقوالنا وأفعالنا إلى ما يجلب الخير له. إنا سنخرج غدا إلى البرية لرعي أنعامنا، وفي الفضاء الرحب نجري ونتحرك وننشط وتتفتح

شهيتنا للأكل وتقوى أجسامنا، ونلعب اللعب الـذي بـه تتشـرح الـنفس ويـذهب عنهـا الكلال. فأرسل معنا يوسف يستفيد مما تتيحه هذه السياحة فـي البريّـة. وثـق أنـا نحفظـه من كل ما يمكن أن يتعرض إليه من سوء فلا تخش عليه.

وهكذا يفعل الحاسدون المتـآمرون فيظهـرون اللـين والنصـح ويتخفـوْن تحـت سـتار الحب والنصح وتحمل مسؤولية الحفظ .

13—14، قال إني ليحزنني أن تذهبوا به...إنا إذا لخاسرون.

2) تشير القصة إلى أنهم استطاعوا أن يخففـوا مـن حـذر يعقـوب، وأسلمـوا لـه مـا جعله يصارحهم بنفي الشك فيهم. ولكنه يحزن لبعده عنـه فيفقـد مـا ألفـه مـن الأنـس به، ويخشى على يوسف وهو الغـلام الـذي لا يسـتطيع أن يـدافع عـن نفسـه أن يعـدو عليه ذئب فيفترسه في غفلة مـنهم عنـه. وبهـذا انحلـت العقبـة الأولـى بهـذا الغطـاء الكاذب والتملق، وبقيت عقدة الخوف عليـه مـن الـذئب لا مـنهم. فأبعـدوها مـن نفسـه بأن عددهم وقوتهم التي يعرفها منهم، تطمئنه علـى أنهـم قـادرون علـى حمايتـه؛ إنـه لو تمكن الذئب منه وعجزوا عن حفظه، فهـم يشـهدون علـى أنفسـهم أنهـم خاسـرون في حياتهم، فاقدون للفتوة والشجاعة محكوم علـيهم بالخسـران. فكـان مـا قـدموه مؤذنـا بتحملهم لمسؤوليتهم كاملـة، وأنهـم لا يرضـون لأنفسـهم أن يسـقطوا عـن مسـتواهم القوي الذي يعتزون به.

وهكذا يصنع المتآمرون كلما برزت عقـدة حلوهـا بمكـر يهـدّم كـل سـياج للمناعـة. فتمكنوا من اصطحاب يوسف ينفردون به، ولا مغيث له من مكرهم.

15-فلما ذهبوا به وأجمعوا ...وهم لا يشعرون.

3) تمكنوا من الخروج بـه بعـد تـرويض والـدهم فـائتمنهم عليـه، وأخـذوه معهـم وخرجوا به إلى البرية .وعندها خلا لهم الجو لتنفيذ ما دبـروه مـن مكـر. عزمـوا علـى التنفيذ بكل قسوة وبدون رحمة ولا شفقة. وتـرجح عنـدهم الـرأي الأخيـر: إلقـاؤه فـي الجب. فرموه في قعره، وانصرفوا يظنون أنهـم قـد نجحـوا فـي إبعـاد يوسـف عـن الأسرة وعن أبيهم بعدا لا رجوع بعده.

وفي هذا الظرف الصعب بعد العنـف الـذي صـحب رميـه فـي البئـر وذهـابهم عـن المكان وفقد الأنيس، يسعفه ربه بالوحي، الذي لـم يفصـل القـرآن طريقتـه ولكـن قـذف في قلبه الطمأنينة وأزال عنه الخوف، بما حاصـله :أنـه سـيخرج سـالما، وأنـه سـيعلو عليهم وينبئهم بما صنعوا به. وما شعر أحد مـنهم بهـذا الـوحي لمـا جـاءه، أو المعنـى أنه سينبئهم بما صنعوا وهم غافلون عـن كونـه يوسـف الـذي رمـوا بـه فـي الجـب.

وعلى الاحتمالين فالقصد ظاهر أن الله يؤيد الصالحين في النهاية وتكون لهم العاقبة الطيبة.

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

نستبق : نتغالب في الجري

بمؤمن لنا : بمصدق لنا.

كذب : مكذوب .

التسويل : تسهيل النفس وتزيينها ما تحرص على حصوله.

صبر جميل : الصبر الذي لا يصحبه شكوى.

المستعان :المطلوب منه العون على تحمل الصبر.

بيان المعنى الإجمالي :

عادوا إلى أبيهم بعد أن أطبق الظلام باكين ليوهموه أنه تملكهم الحزن لما جرى، وأعلنوا ناسجين من خيالهم قصة موته، وأنها تمت على النحو الآتي: ذهبوا يتسابقون في الجري وأبعدوا، وتركوا يوسف بجانب ما حملوه معهم إلى البرية من الزاد والمتاع. وعدا عليه الذئب لما كان وحيدا فأكله. وليبالغوا في التمويه أضافوا إنا نقدر أنك لا تصدقنا لفرط حبك ليوسف، مع أننا نؤكد أننا صادقون. نقلنا ما حدث بكل أمانة. وعرضوا قميصه الممزق الملوث بالدم زاعمين أنه دمه بعد ما أكله الذئب. وفاق جلد يعقوب وصبره قوة الصدمة، فعبر عن شكه في روايتهم، وأن ما عرضوه هو مما زينته لهم نفوسهم، وأنه يتدرع بالصبر الذي لا تصحبه شكوى. وأن يطلب من الله العون على تجاوز ما وصفوه.

بيان المعنى العام :

16—18: وجاؤوا أباهم عشاء يبكون ...والله المستعان على ما تصفون.

4) بعد أن ألقوه في الجب تمهلوا في الرجوع إلى أبيهم فلم يصلوا إلا عند ما أظلم الليل، عند العشاء. وأحكموا تلفيق قصة وهمية أعطوها ببكائهم صورة تقنع في

ظنهم أباهم: أن يوسف قد افترسه الذئب، وقالوا: إنا كنا نتسابق جريا على الأقدام حسبما يتم بين الفتيان ليروضوا أنفسهم، يبتعدون بذلك عن المنطلق.وأن يوسف لما كان، لصغره، لا يستطيع أن يتسابق معنا في الحلبة تركناه يحرس متاعنا. وأن الذئب وجده منفردا فافترسه. ومبالغة في التمويه قرنوا تصويرهم للواقعة مع بكائهم بأمرين:

أولهما: أنهم قالوا لأبيهم: إنك لفرط حبك ليوسف لا تصدق مقالتنا، مع أننا نجزم ونؤكد أننا صادقون فيما رويناه، فلا تتهمنا.

ثانيهما: أنهم أحضروا قميص يوسف مخرقا ممزقا ملطخا بالدم الكاذب، الذي ليس بينه وبين دم يوسف أي صلة، عضدا لروايتهم التي أحكموا نسجها الباطل.

صدم يعقوب بما لفقوه، وأدرك من المقارنات التي حفت بالخبر، وبحديث قلبه الصافي، أن يوسف لم يأكله الذئب، وأن ما أكدوه هو تلفيقات لا أساس لها لم تقع في الوجود. فواجههم بأن نفوسهم المريضة قد سهلت لهم تزييف الحقيقة، وحسنت لهم اختلاق صورة باطلة بعد أن استدرجتهم إلى فعل منكر مذموم أخفوه. وأنه لا ينهار لهول المصاب، ويتذرع بالصبر، وأنه يلتجئ إلى الله يطلب منه العون على التحمل وعلى فتح أبواب الفرج. ويومئ قوله (المستعان على ما تصفون) إلى أنه غير مصدق لهم. إذ لم يقل على ما وقع، أو على موت يوسف، مما يشير إلى أن الحقيقة مستورة، ويطلب من الله العون ليوسف في وضعه الخفي، ولنفسه على التحمل.

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20)

بيان معاني الألفاظ :

الوارد : الذي يرد الماء.

أدلى دلوه : أرسل دلوه إلى قاع البئر ليستخرج الماء.

يا بشراي : يا فرحتي.

أسروه : أخفوا خبره.

بضاعة : عرض تجارة.

شروه : باعوه.

بخس : ثمن نازل عن قيمته.

الزاهدين : الذين لا رغبة لهم في الشيء.

بيان المعنى الإجمالي :

لم يمكث يوسف زمنا طويلا في قاع البئر حتى مرت، حسب المتوقع من إخوته، قافلة تسير قاطعة مسافات الصحراء. وقفت بجانب البئر وأرسلت أحد أفرادها يمتح لها الماء من الجب. وما إن جذب دلوه حتى وجد فيه يوسف فصاح فرحا يا للبشرى! هذا غلام. أخفوه عن الأنظار حتى بلغوا سوق النخاسة في مصر وباعوه بثمن قليل بعيد جدا عن قيمته وما كانوا يدركون قيمته.

بيان المعنى العام:

19 – 20، وجاءت سيارة فأرسلوا ....من الزاهدين.

من هذه الآية يفرد القرآن الحديث عن المسار الذي سار فيه يوسف بعد أن رماه إخوته في البئر وانصرفوا إلى منازلهم، وينقطع الحديث عن الإخوة وعن يعقوب.

كما توقع إخوته لم يمض عليه زمن طويل في البئر حتى مرت قافلة قريبا من البئر، وأرسلوا أحدهم يجلب لهم الماء. وقف الوارد على البئر وأنزل دلوه فتعلق به يوسف، وما أشد فرحته إذ وجد بين يديه غلاما وصاح يا للبشرى! هذا غلام. يطوي القرآن ما دار بين يوسف وبين القافلة، ويكتفي بالنتيجة: وهي أن القافلة اعتبرته سلعة، رقيقا يبيعونه ويأخذون ثمنه. وما كانت معاملتهم له معاملة حسنة كما يشير إليه قوله تعالى: والله عليم بما يفعلون. كان من الواجب أن يسألوه عن سبب سقوطه في البئر وعن أهله وعن مكانهم، ويعملوا على مساعدته على العودة إليهم.

ولكن شدة حرصهم على استرقاقه والفوز بثمنه، سوغ لهم أن يقوموا بأعمال غير صالحة نحوه ليصلوا به في خفية إلى سوق العبيد قبل أن يفتضح أمرهم. وفي سوق النخاسة باعوه مسرعين بثمن قليل بالنسبة لنفاسته، مقدر حسب قيمة وقت النازلة بدراهم غير كثيرة تعدُّ، شأن ما هو قليل. وسبب ذلك أنهم ما كانوا حريصين على التمسك به، ولعل ذلك خوفا من أن يلحق بهم من يعرفه فينتزعه.

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ

أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

مثواه : مكان إقامته .في مكان نومه وطعامه ومجلسه.

أشده : استكمال قوته.

حكما : حكمة بسداد النظر .

علما : تأويل الأحاديث.

بيان المعنى الإجمالي :

كان الذي اشتراه ذا فراسة عالية، فتبين له أن ليوسف شأنا، فأوصى امرأته أن تعامله معاملة كريمة تليق بما يتوقع له، فهو يأمل أن ينتفع وزوجته بإمكاناته العالية، أو أن يتخذه ولدا إن تواصل عدم إنجابهما للذرية. وروي أن اسمه فوطيفار وأنه كان رئيس الشرطة وبتعبيرنا وزير الداخلية. وسأقتصر على التعبير عنه باسم عزيز مصر كما جاء في القرآن، ويبدو لي أن لقب العزيز يخاطب به كل من كان ذا منصب عال في الدولة، ولذا سيأتينا أن إخوة يوسف ﷺ خاطبوه بيا أيها العزيز قبل أن يعرفوه. وامرأة العزيز ذكر أن اسمها زليخا، وهي في كتب اليهود راعيل . وسألتزم في التعبير عنها بامرأة العزيز كما ذكرها القرآن بهذه الإضافة ولم يسمها، ولا ثقة لي بما وراء ذلك.

وعلى هذا النحو من الرعاية ابتدأ تمكين الله ليوسف في أرض مصر، فيسر له أن يربى في وسط يزيده قدرة على إدراك الغايات البعيدة المغيبة عن الناس. وليلحظ فينتفع بالإجراءات وطرق الحكم التي كان يتحدث بها في قصر العزيز. وإذا أراد الله شيئا فإنه يتمه ولا تستطيع أية قوة أن تعوقه. ولكن كثيرا من الناس لقصر نظرهم لا يدركون هذه الحقيقة. ثم إنه لما بلغت قواه البشرية مستوى النضج، أنزل الله في قلبه الحكمة، وفتح له أبواب العلم؛ وهذه هي سنة الله مع المحسنين من عباده يُكْرِمُهُمْ بأنواع من الفضل.

بيان المعنى العام :

21-وقال الذي اشتراه من مصر....ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

تسير القصة على السنن التي قدر الله أن تجري عليها تقلبات الحياة، يسر يعقبه عسر والعكس. فبعد تلك المحن من قذفه وحيدا في بئر، يشتريه رجل من رجال

الدولة في مصر قوي الفراسة أدرك من اللحظة الأولى أنه ملك غلاما نفيسا عالي المواهب صالحا لأن يكون بينه وبينه وثيق الصلات. أسكنه معه في نفس البيت، وقال لامرأته: أنت مؤتمنة على هذا الغلام، لتكن معاملتك له معاملة التكريم، ولا تعامليه معاملة العبيد. إني لأرجو أن ينفعنا هذا الغلام في مستقبل أيامنا، وثنى بإمكانية أشد قرابة: هي أن يتبنياه ولدا لهما. وكأنهما قد قاربا اليأس من الإنجاب.

وعلى ذلك النحو من العناية التي صاحبت يوسف من تاريخ إلقائه في الجب إلى أن قربه عزيز مصر ذلكم التقريب، ابتدأ تمكين يوسف في أرض مصر على ما سيأتينا في قوله تعالى : وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء [1]- وليضيف من منن الله عليه تكاملت معارفه واقتداره على تأويل ما ترمز إليه الرؤى المنامية، وعلى تجاوز الظواهر إلى ما وراءها من الدلالات .والله سبحانه يحقق ما تعلقت به إرادته، ولا يحول بينه وبين ذلك أي قوة، فكلها مهزومة أمام سلطانه. ولكن أكثر الناس تغيب عنهم هذه الحقيقة الثابتة التي تعددت الشواهد الناطقة بصدقها.

22- ولما بلغ أشده واستوى ....نجزي المحسنين.

تتابعت عناية الله بيوسف، ينقله من مرتبة إلى مرتبة أسمى. فصرحت الآية بأنه لما بلغ كمال قوته البدنية، أحل الحكمة في عقله، فبدت له الحقائق جلية، وقامت المآلات في نفسه واضحة فرشد سلوكه وصلح عمله. وأعطاه قدرة على تعبير الرؤى المنامية وهو معنى قوله تعالى : وهذه سنتنا مع المحسنين من البشر نتولاهم ونسعدهم بالتوفيق وبلوغ مراتب الكمال .

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (23) وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ (24) وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (25) قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ

---

[1] سورة يوسف آية56

فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (26) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (27) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ (29)

بيان معاني الألفاظ :

راودته : لاطفته لتسوقه إلى غرضها.
عن نفسه : عن عفافه بتمكينها منه لما تريد.
غلقت الأبواب : أحكمت غلقها.
هيت لك : بادر أنت وأقبل.
معاذ الله : أعوذ بالله. أعتصم به مما تحاولين بلوغه.
أحسن مثواي : أحسن العناية بي وأكرم كفالتي .
الهم : العزم على الفعل.
البرهان : الحجة البينة التي صرفته عنها.
السوء: خيانة من ائتمنه.
الفحشاء : الفعلة القبيحة الزنا.
قدت : خرقت قميصه طولا، من خلف.
ألفيا: وجدا.
سيدها : زوجها.
قبل: من الجهة الأمامية.
كيد: مركب من الخداع والاحتيال والمكر.
الخاطئ : فاعل الخطيئة.
أعرض عن هذا : اكتمه.

بيان المعنى الإجمالي :

كان يوسف ﷺ بارع الجمال، قوي البنية، بلغ أشده في بيت عزيز مصر، فتعلقت به امرأته وحاولته ليتصل بها جنسيا، ولما بلغ تعلقها به حده الأقصى، انفردت به وأحكمت إغلاق الأبواب، ودعته بقولها: هيت لك، تعال أقبل، أخاطبك أنت لا غيرك .وترفّعَ أن يقع في الخطيئة فقال لها: إني أتحصن بالله من أنزل إلى مستوى أخون فيه زوجك الذي رباني وائتمنني . إني لو خنته في زوجته أكون ظالما له. والظالمون مآلهم الخسران.

لقد كان تعلقها بيوسف شديدا، فهامت به وظنت أنهــا إذ تنازلــت عــن كبريائهــا وقامــت هي بالخطوة الأولى، أنه سيتحقق لها الوصل الــذي طالمــا حــدثت نفســها بــه وحلمــت به. كانت على حظ مــن الوســامة. فيوســف ﷺ لــم يرغــب عنهــا ويستعصــم بــالله لضعف في أنوثتها ونقص في وسامتها، ولكن صورتها فــي نفســه هــي صــورة المــرأة الناضجة المؤثرة. ولكنه رأى دلــيلا أســعفه بــه الله فــي ســاعة المحنــة فصــد عنهــا وتمسك بعفافه، وبذلك أبعده الله عن الخيانــة لزوجهــا وعــن الزنــا .كــان ذلــك جــزاء إخلاصه، والإخلاص يســمو بأصــحابه إلــى مراتــب الكمــال التــي تقــربهم إلــى الله، ويوسف من زمرتهم.

جرى يوسف نحو الباب فحل قفله، ولحقــت بــه امــرأة العزيــز وجذبتــه مــن قميصــه لتمنعه من الخروج فمزقته، وفوجئا بــالزوج عنــد البــاب ومعــه أحــد أقاربهــا. وكانــت ماكرة حاضرة البديهة، فتوجهت إلى زوجها ملقية التهمــة علــى يوســف قائلــة: مــا هــو الجزاء المناسب لمن حــاول الاعتــداء علــى أهلــك ؟ مــا أراه إلا أن يســجن أو يعــذب العذاب المؤلم. ونفى يوسف عن نفســه التهمــة جازمــا أنهــا هــي التــي راودتــه عــن نفسها. وتدخّل قريبها فقال: إن كان القمــيص خــرق مــن الأمــام فــذلك دليــل علــى أن يوسف هجم عليها ونازعته من أن ينال منهــا فخرقــت ثوبــه، وإن كــان قميصــه خــرق من خلف فذلك دليل على أنه فر منها وأنهــا لحقتــه وجذبتــه بقــوة مــن رقبــة قميصــه فتخرق. وقام الدليل على كذبها وصدقه، فالتفــت إليهــا زوجهــا قــائلا: هــذه مكيــدة مــن المكائد التي تتقنها النساء. إن كيدكن عظيم. والتفــت إلــى يوســف وطلــب منــه أن يكــتم الأمر ولا يشيعه. ثم توجه إليها من جديــد مرشــدا لهــا أن تســرع بطلــب العفــو وأن لا تعود، وأثبت أنها كانت مخطئة كشأن الخطائين من البشر.

بيان المعنى العام:

23—24 وراودته التي هو في بيتها...إنه من عبادنا المخلصين.

خرج يوسف من المحن السابقة تحوطه العناية الإلهيــة حتــى اســتقر فــي قصــر عزيــز مصر موصى بتكريمه، وكرم فعلا، ونما فــي حجــر النعــيم حتــى اكتمــل فبلــغ أشــده. جمع بين الجمال والوقار والقوة الجسدية ممــا يجعــل العــين الــذي تنظــر إليــه تعجــب بمظاهر الرجولة والفتوة فيه.

وفي قصر العزيز ما كان يعيش مع الخدم، بل كان يعيش مع أسرته حسب الوصاية به من أول يوم حل فيه. وكانت امرأة العزيز تلحظ كماله وجماله، وتحدثها نفسها وتشغلها به إلى أن غلبتها نوازع الشهوة فدفعتها إلى مراودته، فلاطفته وللنساء قوة طبيعية في الإغراء.

و قالوا لهــا هذا حبيبــك معرض *** فقالت ألا إعراضه أهون الخطب
فما هي إلا نظرة وابـــتسامـــة *** فتصطك رجــلاه ويسقط للجــنب

لا يفصل القرآن المقدمات التي مرت بها إلـــى أن وصــلت إلـــى التصـــريح بهيامهـــا بـــه وإرادتها القوية لتستولي على عفافه فينساق معها إلـــى الاتصـــال الجنســـي بهـــا، وتفـــرغ شحنة تضخمت مع الـــزمن فهزمـــت كبرياءهـــا ومكانتهـــا الاجتماعيـــة. ثـــم قامـــت فـــي الوقت الذي استولت عليها الشـــهوة واســـتبدت بهـــا الغلمـــة، فأحكمـــت إغـــلاق الأبـــواب حتى تطمئنه على أنه لا يفاجئهما أي كـــان وقالـــت: هيـــت لـــك. تعـــال أقبـــل. واختـــار القرآن أن يعبر عن دعوتها له بهـــذه الكلمـــة التـــي ليســـت مـــن أصـــل عربـــي ليكـــون جرسها معبرا عن أنفاسها اللاهثة في هـــذه اللحظـــة، ووصـــل هيـــت بكلمـــة لـــك لإفـــادة شدة الاتصال كما تقول العرب شكرا لك على أن الشـــكر متصـــل بـــك وهـــو أقـــوى مـــن قولك أشكرك، كأنها تقول كل كياني لك يا يوسف. اجتمعت كـــل الظـــروف ليـــتم لهـــا مـــا أرادت. وما أشدها محنة يمر بها. كـــان جوابـــه جازمـــا قاطعـــا لكـــل محاولاتهـــا : إنـــي أعتصم بالله من مواقعتك. إن زوجك هـــو ســـيدي الـــذي ربـــاني وأكرمنـــي فـــي مقـــامي عنده وقربني منه فلا أخونه فـــي زوجتـــه. إن خلقـــي وخشـــيتي مـــن الله أن ينـــزل بـــي غضبه تمنعني من ظلم العلاقة التـــي تربطنـــي بزوجـــك. إن الـــذين يتجـــاوزون الحـــدود ويظلمون مآلهم خاسر.

وتأتي في العرض لمسة تبعد ما يمكن أن يتصور به أن الصـــارف لـــه عنهـــا، أنهـــا مـــا كانت على حظ من الإغـــراء والجاذبيـــة والأنوثـــة الصـــارخة، فيصـــرح القـــرآن بخفايـــا نفسيهما، لقد همت به في ملاطفتها له، جادة فـــي تحقيـــق غرضـــها مـــن الاتصـــال بـــه، معجبة به أتم الإعجاب وأكمله .وكان هـــو معجبـــا بجمالهـــا ورقتهـــا ومـــا تمتلكـــه مـــن مزايا مغرية بها. ولكن الذي حال بينـــه وبـــين المضـــي إلـــى النهايـــة، أنـــه رأى برهانـــا استقر في يقينه وملك عليه أرجاءه وأحاسيسه وغرائـــزه، يبعـــده عـــن الزنـــا وقـــام فـــي باطنه ذلكم الدليل الذي جاءه من هداية ربه الذي يرعـــاه ويحوطـــه بألطافـــه، فتمثـــل لـــه الزنا قذارة تقزز منها، وطار مـــا كـــان يقتضـــيه إعجابـــه بمفاتنهـــا مـــن المضـــي إلـــى النهاية الفاجرة .

على هذا النحو حفظنا هو أبعدنا عنه السوء الذي هو خيانـــة مـــن ائتمنـــه، وعـــن الفحشـــاء الفعلة القبيحة: الزنا .وذلك لأنه من عبـــاد الله الـــذين قـــربهم ونســـبهم لنفســـه وأخلصـــهم لذاته العلية وأخلصوا له في عبادتهم، فكانـــت علاقـــتهم بـــه علاقـــة قـــرب تتلقـــى أنـــوار الهداية مباشرة قوية التأثير.

25-29، واستبقا الباب وقدت ....إنك كنت من الخاطئين .

حاول يوسف أن يبتعد عنها ففر نحو الباب، وحاولت أن تسبقه إليه لتحول بينه وبين الخروج. وطوى القرآن حلقة لا بد منها لتصور المشهد، لعلها أن يوسف تمكن من فتح القفل الذي أحكمت غلقه، فأنشبت يديها في طوق قميصه فتخرق من خلف. وتظهر المفاجأة التي ما كان أي منهما يتوقعها. حضر سيدها صاحب البيت زوجها في تلك اللحظة والباب قد ذهب قفله، فارتسم المشهد أمام ناظره: هيئة زوجته مسترابة في لباسها وفي لهث أنفاسها، ويوسف واقف معها في خلوة وقميصه ممزق.

لقد كانت على حظ كبير من سرعة البديهة، وقوة المكر، فحاولت أن تنقذ نفسها وتلقي بالتهمة على يوسف فتوجهت لزوجها بدون تلعثم قائلة : ما هو الجزاء الذي يكون حقيقا به من عزم على النيل من زوجتك ؟ ثم أردفت : إما أن تكون غياهب السجون مأواه، وإما أن تسلط عليه من أنواع التعذيب القاسية ما يكافئ خيانته.

كان يوسف واقفا يسمع إلى بهتانها متعجبا، وقبل أن يطلب منه سيد البيت جوابا نطق عليه السلام مفندا كلامها في براءة: هي راودتني عن نفسي.

ويظهر في المشهد رجل هو من أهلها قدم مع زوجها، فسبق ليدلي بشهادته التي تظهر الحقيقة. ما كان معهما حتى تكون شهادته مبنية على حكاية ما أبصره، وإنما اعتمد القرائن التي تعطي نوعا من المعقولية لتسلسل الأحداث. رأى أن يوسف يضم أطراف ثوبه الممزق، فهدته فطنته أن طريقة تمزيق الثوب تشهد لها أو عليها. وتقدم قائلا: إن كان القميص قد من قبل فإن ذلك يدل على أنه قد هجم عليها وأنها دافعت عن نفسها فتخرق ثوبه، ولا يكون إلا من الجهة الأمامية. وأنه إذا تخرق ثوبه من الوراء فذلك يدل على أنه فر منها ولحقته فجذبته من قميصه فتخرق من الخلف. وكان حكمه بالقرائن مقنعا. فلما شاهد الزوج تخرق القميص من خلف، توجه إلى امرأته وخاطبها بقوله: إنه تدبير منك مركب من الخداع والمكر والاحتيال، وإنك أنثى كسائر النساء مقدرتكن على الكيد عظيمة. وقع في نفسه صدق يوسف وكذبها. والتفت إلى يوسف ودعاه إلى أن يكتم ما حصل ولا يشيعه. وعلى هذا النحو في القديم والحديث تعالج الفضائح الجنسية في الأوساط التي أتخمتها الحضارة، وأفسدها الارتخاء الخلقي.

ثم التفت إلى زوجته وأرشدها أن تطلب الصفح عما وقع. وأن تسقطه من ذاكرتها بعدم العود إليه.

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

شغفها : فعل مأخوذ من الشغاف وهو غلاف القلب، أي تمكن حبه من قلبها أفضل تمكن.

ضلال مبين : خرجت عن الصواب بصفة واضحة.

المتكأ : محل الاتكاء .والاتكاء جلسة بين القعود والاضطجاع.

أكبرنه : أعظمن جماله.

قطعن : ذهلن بجماله فجرحن أيديهن.

حاش لله :جملة تقدم للدلالة على الاستبعاد والنفي.

استعصم : امتنع امتناع من يعد مضاجعتها يناقض عصمته.

الصاغر : الذليل.

أصبو إليهن : أميل إليهن.

من الجاهلين: من الذين لا يراعون حدود الله.

بدا: ظهر لهم وترجح.

بيان المعنى الإجمالي:

تحدثت النساء المتصلة بقصر العزيز بالحادثة، وحملن امرأته التهمة، وأنها قد أحبت غلامها حبا استولى على قلبها ومشاعرها. وصرّحن بلومها على موقفها وأنها أخطأت خطأ بينا.

لما بلغها ما تحدثن به وهو ما يعرضها إلى تحميلها المسؤولية وما يمكن أن يتبعها من عقاب وانحطاط منزلة، دبرت أمرها لتسكت تلك الأفواه ؛ فدعتهن ضيفات عليها، ورتبت لقاءها بهن على مستوى عال من التكريم، فلكل ضيفة مكانها

المريح الفسيح، وأعدت لهن صنوفا مــن الأطعمــة وأمــرت أن يصــحب الطعــام ســكينة لكل واحدة منهن.

استراحت الضيفات لحسن القبــول والاســتعداد، وأخــذن فــي تنــاول الطعــام، وأمــرت يوسف أن يخرج عليهن من المكان الذي هو فيه، وفــوجئن بــالفتى الــذي طلــع علــيهن: أذهلهن جماله، وأعظمن بهاءه، وملك مشــاعرهن وإحساســهن حتــى جرحــت الســكاكين أيديهن، وهن من علية القوم أيديهن لطيفــة، ومــن شــأن ســيدات القصــور أن لا يعملــن بأيديهن، ويتولينها بالمراهم التي ترقق الجلــد وتلــين الملمــس، ولــذا بمجــرد مــا غفلــن عن السكاكين وشغلن بيوسف وجرحت أيديهن ســال الــدم فعبــر القــرآن مجســما لــذلك بقوله : (وقطعن أيديهن) وقلن: لا يتصور أن يكون هــذا الــذي أمامنــا بشــرا، إن هــو إلا من جنس الملائكة، ملك مــن المســتوى الرفيــع. وتحققــت الغايــة التــي مــن أجلهــا جمعتهن، فصرحت: هو الفتى الذي سبقتن بلومي في حبه، نعــم لقــد راودتــه عــن نفســه فأبى متمسكا بعصمته. وإن لم يفعل ما آمره بــه ويطفــئ حــرارة حبــي لــه بالوصــال، ليدخلن السجن، الذي يذهب بكبريائه وليكونن من الأذلاء.

ولما سمع كلامها وتبين له تصميمها، إذ لم تســتح مــن التصــريح بــه لضــيفاتها، قــوي إدراكه للخطر فتوجه لربه يطلب منه العون. قــال رب الســجن الــذي تهــددني بــه هــو خير لي من حياة القصور مع الفجور. إنك ربي إن لم تســعفني فتبعــد عنــي كيــدهن قــد تتهاوى مقاومتي لإغرائهن، وأميل إليهن وأنتهــي إلــى ارتكــاب الخطيئــة التــي يعــيش عليها الجاهلون الفاسقون.

استجاب ربه الراحم لدعائه، وهو السامع لتضــرعه وابتهالاتــه، فأبعــد عنــه كيــدهن، إن الله هو السميع لدعاء الداعين وابتهالات الضــارعين، العلــيم بمــا يجــري فــي نفوســهم فلا يردهم عن بابه خائبين.

ثم قر قرارهم رغم ما شاهدوه من الأدلة الناطقة ببراءته، أن يدخلوه السجن إلى أمد لم يحدد.

بيان المعنى العام :

30-وقال نسوة في المدينة...في ضلال مبين.

رغم حرص زوجها على كتمان الحادثة، فقد خرج الخبر من السر، وتحدثت به بعض النساء المتصلة بالقصر، إذ لفظ [نسوة] يدل على قلة عددهن. وبلغ امرأة العزيز ما يتهامسن به من الإنكار عليها وما يتحدثن به في مجالسهن: إنها علــى رغــم مســتواها الرفيــع ومنزلتهــا الاجتماعية العالية، نزلت إلى مراودة غلام من التابعين في القصر، راغبة في مضاجعته؛ قــد بلغ حبها له وهيامها به أن استولى على قلبها: لقد انحرفت وسارت في طريق الخطأ البين.

31 -32، فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن...من الصاغرين.

سمعت امرأة العزيز ما يجري من تهامس وتعليق على الحادثة. واعتبرت ذلك بما خالطه من لوم وإنكار، أنهن يحمّلنها الخطيئة، وأن شيوعه على هذا النحو قد يترتب عليه من السوء ما يترتب. فقد يحدثن به أزواجهن، وقد يثار بينهم وبين زوجها ما يدفعه لمعاقبتها أو الانفصال عنها. والمرأة شديدة الحساسية في كل ما من شأنه أن يهدم حياتها الزوجية، خاصة إذا كان الزوج يحتل مستوى رفيعا في الدولة، فعبر القرآن عن ذلك بقوله:(فلما سمعت بمكرهن)

و كما أشرنا إليه سابقا، لقد كانت على قدر كبير من الفطنة والذكاء، فعملت على إقحامهن إقحاما يسكت إنكارهن. فدعتهن لبيتها ضيفات عليها، ورتبت في إكرامهن ما يليق بمقامها ومقامهن على العادة المتبعة في قصور عظماء رجال الدولة.

مجلس وثير رحب، لكل واحدة من ضيفاتها متكأ تترفق به، وأمرت الخدم بإحضار ما اختارته من المأكولات، وأن يقدموا مع الأطباق السكاكين التي يقطعن بها الطعام حسب المستوى الحضاري الذي بلغته مصر في ذلك العصر، أن الطعام يقطع بالسكين ولا ينهسن اللحم ولا ينهشن الفواكه وغيرها.

وراق المجلس، وأخذت كل واحدة منهن تتناول معا قدم لها تحاوله بالسكين. وفي هذه اللحظة، كان مما رتبته أن يكون يوسف في غرفة ملاصقة تفتح على قاعة الجلوس، وأمرته أن يخرج على الحاضرات مفاجأة، إذا سمع أمرها له بالخروج.

وحرك سمعه، وهو ينتظر، الأمر بالخروج، فأطاع. وإذا بيوسف وسط النسوة من علية القوم، فشغلن بالنظر إليه والتمتع بالتثبت في محاسنه، وبهرهن ما جمع من جمال ووسامة وفتوة، حتى نسين أنهن يمسكن بالسكاكين في أيديهن فانفلت الحذر وجرحن أيديهن دون أن يحسسن بألم الجراح، وهن من علية القوم، وشأن أمثالهن أن لا يعملن بأيديهن، وأن يعتنين بتليينها بالمراهم فتزداد نعومة ورقة. ولذا فإنه بمجرد ما جرحت، سال منها الدم كأنها تقطعت، فتجسيما لهذا المعنى قال تعالى: (وقطعن أيديهن). وقلن بصوت واحد معبرين عن شدة إعجابهن ومنفّسين عما استقر في بواطنهن من المشهد الذي ما كان الخيال يسعفهن بتصويره: لا يكون هذا الفتى الذي جمع كل هذه المحاسن، من جنس البشر. هو من جنس آخر، هو من الملائكة الذين سموا عن البشر، في تصورهم، فتنزهوا عن النقص والعيب.

نجحت امرأة العزيز فبلغت ما أرادت، وقد أصبحت النسوة يشاركنها الإحساس بقوته الجمالية والرجولية الغازية لقلوب النساء. وهنا أعلنت لهن هذا الفتى بجماله

الأخاذ هو الذي سبقتن للومي في حبه قبل أن ترينه، وقبل أن يهز قلوبكن كما هز قلبي. نعم قد راودتُهُ عن نفسه بعد أن هممت به، فانحاز إلى العصمة من الزنا وامتنع من إطفاء الحرارة التي تلتهب في كياني. وقد عقدت العزم على أنه بين خيارين: إما أن يرضخ لإغرائي ويكون طوع أوامري، وإما أن يرمى به في غياهب السجون فتذهب كبرياؤه وينقلب ذليلا من الصاغرين.

33←35، قال رب السجن أحب إلي...ليسجننه حتى حين .

ربحت الجولة. وقد أصبحت نساء الطبقة العالية يشاركنها الإعجاب بيوسف، ويعذرنها في حبها له وتعلقها به. وكان يوسف يسمع كلامها ويحس بمشاركة بقية النسوة لها. وقد أحكم عليه الطوق إذ تعدى الإعجاب به والرغبة في القرب منه امرأة العزيز إلى غيرها، ولكل واحدة منهن قدرتها على الضغط عليه لو أتيحت لها الفرصة. فتوجه طالبا العون من ربه ليساعده على ما ألزم به نفسه من التقوى والابتعاد عن المحرمات. وأن حياة السجن عنده أحب و أفضل مما يدعونه إليه؛ إنها المنقذ المادي له. إني أخشى أن أنهار أمام مواصلة الضغط على إن لم تتفضل ربي بصرف كيدهن عني. (يبدو أنه واثق من مواصلة كيدهن، وأنه كلما خرج من أحبولة ستنصب له أحبولة أخرى) ولعلني بضعفي البشري سأنتهي إلى الميل إليهن فأكون من جملة الجاهلين السفهاء الذين لا يرْعوْن حدود الله. فكان تعبيرا من عميق الشعور بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

تلت هذه الابتهالات الخاشعة أن أجاب الله دعاءه، فصرف عنه آثار كيدهن، وثبّته على مواصلة المسيرة الطاهرة في سلوكه، وقواه فمضى على طريق العصمة. بكل تأكيد: إن الله يسمع نداء الداعين والمبتهلين، وهو العليم بما تكنه صدورهم وتنطوي عليه ضمائرهم ولا يخفى عليه صدق الصادقين.

ثم تمر فترة من الزمن، لم يتعرض القرآن إلى تفاصيلها. كانت تتأرجح بين قوة تأثير امرأة العزيز على دفع التهمة عن نفسها والإقناع ببراءتها، ومواصلة إغراءاتها ليوسف، حتى يئست من هزم صلابته في التمسك بعصمته، وبين الظواهر الناطقة ببراءة يوسف. ولكن في تبرئته سقوط امرأة العزيز وتحميلها التهمة. وتغلبت كفة الكيد على كفة الحق، فتم اتخاذ القرار بسجنه سجنا يطول، إلى أمد مجهول.

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الملة : الدين .

تركت : لم آخذ مع إمكان الأخذ.

السلطان : الحجة.

القيم : المستقيم

قضي : تم القضاء ولا مبدل له.

بضع: يقال للعدد بين ثلاث وسبع.

تستفتيان : تطلبان ما يزيل الإشكال بالفتوى.

بيان المعنى الإجمالي :

نفذت امرأة العزيز ما أرادت، وأدخلت يوسف عليه السلام السجن، ودخل معه السجن فتيان من فتيان الملك. كانت صلتهما في السجن بيوسف قوية، فعرضا عليه رؤيا

في منامهما ليعبرها ثقة منهما بما شاهداه من استقامته وكمالاته، إذ لاحظا أنه يسير في جميع شؤون حياته على الوجه الحسن. قال لهما يوسف: سأعبر رؤياكما قبل موعد تناول المساجين للطعام. وإن تعبيري هو من فضل ربي الذي خصني بهذا العلم. إني لم ألتفت للدين الذي كان عليه القوم الذين لا يؤمنون بالله وينكرون يوم القيامة. والتزمت في حياتي الدين الذي سار عليه آبائي من قبلي إبراهيم وإسحاق ويعقوب. نوحد الله ولا نشرك به أي شيء. إن هذه الهداية حصلت لنا وللمؤمنين أمثالنا بفضل من الله . والعجب أن كثيرا من الناس يقابلون نعم الله وفضله بالكفر ولا يشكرونه.

ثم قدم لهما حجة تقنعهما بالتوحيد. ارجعا إلى ما تحكم به فطرتكما، أيهما أفضل أن تعبدوا آلهة متفرقين لا صلة بينهم، هذا للنور وذاك للظلمة، وهذا للخصب وذاك للقحط، وهذا للغنم، وذاك للمطر وهكذا، وكل إله لا يتصرف إلا في ميدانه وهو عاجز عن الدخول في ميدان غيره من الآلهة؛ أو أن تعبدوا إلها واحدا يتصرف في الكون كله ويجريه على نظام متناسق. إن الذين تعبدونهم من دون الله لا حقيقة لهم، أنتم الذين أطلقتم عليهم أسماء الألوهية، وجعلتموهم آلهة ولا حجة لكم. إنهم عجزة والحكم لله وحده الذي أمركم، وأمره يجب أن يطاع. أمركم أن تفردوه بالعبادة. إن ذلك هو الدين المستقيم الذي يبلغكم سلامة العاقبة. وانصراف الناس عن هذا الدين هو بسبب جهلهم.

ثم أعلمهما بتأويل رؤياهما فقال: الذي رأى أنه يعتصر الخمر سيخرج من السجن ويقربه الملك ليتولى سقايته وحضور مجالس أنسه، وأما الآخر فسينفذ فيه العقاب بقتله وصلبه وانقضاض الطيور الكاسرة عليه تأكل من رأسه. انتهى الأمر وقضى الله بما قضاه وهذا تأويل رؤياكما.

وقال يوسف للساقي الذي يظن ظنا مؤكدا أنه سيتحقق له في المستقبل ما أخبره به، قال له: اذكرني بما علمته مني وبظلامتي عند الملك. ونسي الساقي بعد خروجه من السجن وصية يوسف، فبقي يوسف في ظلام السجن حوالي سبع سنوات.

بيان المعنى العام :

36-ودخل معه السجن فتيان....إنا نراك من المحسنين.

تم لامرأة العزيز ما أرادت، وأدخل يوسف ﷺ السجن ليقضي فيه أعواما. وصادف أن دخل معه السجن فتيان كانا يعملان في قصر الملك. وما إن وقع نظرهما على يوسف حتى أنسا به، وتقربا منه، وتفرسا في ملامحه فوثقا بمزايا هو

بكمالاته. واقتصر القرآن على ذكر هذه العلاقة لأنه كان لها دور في مستقبل حياته ﷺ.وإن كنا نجزم أن إقامته في السجن أدخلت على السجن جوا جديدا، بلطفه وحسن معشره، وسمو أخلاقه، وتخفيفه كرب المكروبين، فكان ﷺ مستودع أسرارهم، وملجأ لهم يخفف عنهم وحشة السجن وقساوته.

و كل سجين يفكر في اليوم الذي يخرج فيه من السجن، ويتعلق بكل بارقة أمل، ويرغب في تطلع الغيب ومن ذلك تأويل أحلامه. وكان من هذين الغلامين: أن أحدهما رأى في منامه كأنه يعصر العنب ليحوله إلى خمر، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزا والطير تتبعه تنقر مما يحمله.

وقص كل واحد منهما رؤياه على يوسف ليؤول لهما ما رأياه، وتلطفا في مخاطبته قبل أن يعرضا عليه قالا له: إنا نعتقد أنك من المحسنين، الذين صفت أرواحهم وسمت نفوسهم الذين يُمكنْ لهما النفاذ إلى ما وراء الظواهر. فهذه رؤيانا فعبرها لنا لعلنا نرى فيها خيطا من أمل.

37—40، قال لا يأتيكما طعام ترزقانه....أكثر الناس لا يعلمون.

و جد يوسف من الغلامين شدة تعلق به، وأنه يمكنه أن يهديهما إلى الدين الحق. فطمأنهما أولا: بأنه سيفسر لهما ما رأيا ه ويؤوله قبل الوقت الذي من المعتاد أن يوزع الطعام فيه على المساجين. وأدمج أن قدرته على التأويل آتية من أن ربي علمني تأويل الرؤيا ورزقني هذا العلم الذي استقر في عقلي. وبهذا تمكن يوسف بحكمته أن يزيد إقبال الغلامين وقبولهما لما يعرضه عليهما. فما هو تفصيل هذه الحكمة في الدعوة ؟

أولا: أخبرهما بأن الشرك منتشر في الدنيا، وأنه لم يأخذ ولم يتبع ملة القوم الذين لا يؤمنون بالله الذين قصروا أنظارهم على الحياة الدنيا، وكفروا باليوم الأخر الذي يجازى فيه كل إنسان على ما قدمه في حياته.

ثانيا: إني التزمت في عقيدتي نفس الطريق والصورة التي كان عليها آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ثم وضح ذلك بأنها عقيدة تنفي أي شريك لله في ألوهيته. الوحدانية الكاملة التي لا شائبة فيها. إن اهتداءنا للتوحيد فضل من الله علينا وعلى من كان على نهجنا من الناس. والعجب أن أكثر الناس لا يشكرون نعم الله عليهم فيكفرون به وينسبون ما حصلوا عليه من الخير إلى غيره.

ثالثا: أقام لهما دليلا يناسب مستواهما الفكري وفطرتهما ورقق في مخاطبتهما، فناداهما: يا صاحبي السجن، كأنه يقول لهما إن ما أنتما فيه من السجن والعذاب

حصل من المشركين بالله، ونحن هنا نمثل وحدة ترفض ما هم عليه. ارجعا إلى الفطرة، هل الأفضل أن تكونا تابعين لآلهة متفرقة، كل واحد منها عاجز عن التدخل في ميدان الآخر، ويتصرف في ميدانه الخاص، أو الأفضل أن تكونا عابدين لإله واحد يقهر الظلم والاستبداد ولا يرضى بالفوضى.

رابعا: إن الآلهة التي تعبدونها لا حقيقة لها ولا يوجد فيها خصائص الألوهية. هي أسماء أطلقتموها أنتم على ما لا صلة له بالربوبية، لم يقم خالق الكون عليها حجة توجب عبادتها أو التقرب إليها. انتبهوا فهي لا تتصرف ولا تحكم في الكائنات، والذي انفرد بالتحكم في كل شيء هو الله .والمتحكم في الكائنات هو الحقيق بأن يعبد وبذلك أمر سبحانه. إن الدين الذي هو على هذه الصورة هو الدين المستقيم السائر مع العقل والبديهة، الذي لاعوج فيه، والذي ينتهي بكم إلى سلامة العاقبة. ولكن غلبة الجهل على الناس صرفتهم عن عبادة الله وحده وتعلقوا بالشركاء.

40- يا صاحبي السجن أما أحدكما...فيه تستفتيان.

ثم وفى لهما بما وعده من تفسير رؤياهما، وأولها لهما على النحو الآتي:

أما الذي رأى نفسه يعصر، فسيكون ساقي الملك يحضر مجالس ندمائه. وأما الذي رأى الطير تأكل من الخبز الذي يحمله فوق رأسه، فسيقتله الملك ويصلبه، وتأتي كواسر الطير فتأكل من رأسه. تم القضاء بما أخبرتكما فلا يقع في المستقبل إلا ذلك.

41-وقال للذي ظن أنه ناج منهما...بضع سنين.

ثم أردف يوسف ﷺ طلبا توجه به إلى الساقي، الذي يظن ظنا قويا أنه سينجو، وأنه يكون قريبا من الملك وخاصة في أوقات فراغه وانشراحه. طلب منه أن يغتنم فرصة يذكُر فيها للملك ما عرفه في السجن عن يوسف، ويرفع عنده مظلمته.

خرج الساقي فعلا من السجن، وكان قريبا من الملك يحضر مجالس أنسه. ولكنه نسي وصية يوسف ﷺ. وما كان تَفَقُّدُ المساجين وتجديد النظر في أمورهم مرعيا في ذلك العصر. بل يُنسى السجين في كثير من الأحيان حتى يموت. ونسي الساقي عرض قضية يوسف على الملك، فاستمر سجنه حوالي سبع سنوات. وإذا كان كل أمر يحدث في الكون هو بقدر الله وحكمته، فإن بقاء يوسف وتسلط الشيطان على الساقي حتى جعله ينسى يوسف الذي كان معجبا به ومرجعا له، علله كثير من المفسرين بأن يوسف علق آماله بنظر الملك في شأنه، وكان كماله يقتضي أن يدعو الله ويعلق آماله على استجابة دعائه. ولهذا الكلام وجه من النظر. ولكن الذي

ترجح عندي أن حياة السجن حياة ينقطع فيها الملهمون من البشر إلى التأمل، وينضج تفكيرهم نضجا يؤهلهم لتحمل مسؤوليات القيادة في الدولة. وقد كان النبي ﷺ قد حبب إليه الخلاء والانقطاع عن الناس، فأعده ذلك لقيادة الأمة سياسيا كما أسعده الوحي بقيادتها دينيا. وسوف يأتينا أن يوسف تولى تصريف خزائن مصر في سني العسر واليسر، وكان طول إقامته في السجن واختلاؤه بنفسه للتأمل أنضج قواه القيادية، ونجح فعلا في تسيير المهام التي أوكلت إليه بعد أن أخرج من السجن.

وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ

سمان : سمينة.

عجاف: جمع عجفاء، الشديدة الهزال.

الملأ : أعيان الناس وعلية القوم .

عبر الرؤيا : فسر ما تدل عليه، أبان إشاراتها ورموزها.

أضغاث : مفرده ضغث، الحُزمة من أخلاط النبات، وأعواد الشجر.

الأحلام : جمع حُلم ما يراه النائم.

بعد أمة : بعد زمن غير قصير.

الصديق : لقب لمن جمع صفات الكمال الخلقي والاستقامة.

أرجع إلى الناس : ارجع إلى الملك وأهل مجلسه.

دأبا: استمرارا على العادة.

شداد: جمع شديدة بسبب الجدب.

يأكلن : يُفنين

الإحصان: الادخار بالوضع في الحصن، مكان الادخار.

يغاث الناس : تنزل فيه الأمطار وينتشر الخصب.

يعصرون : تثمر أشجار العنب ما يعتصرون منه الخمور.

بيان المعنى الإجمالي :

رأى الملك رؤيا في منامه عرضها على حاشيته ورجال الدولة ليعبروها له. قال: إنه رأى سبع بقرات سمان يتسلط عليهن سبع بقرات هزيلة فيأكلنها. وسبع سنبلات خضر، وسبع سنبلات يابسة. فأشكل فهمها عليهم وقالوا: أحلام لا نسق بينها تراكمت واختلطت، ونحن جاهلون بتأويل الأحلام المعقدة المختلطة. وتنبه الساقي الذي نجا من العقاب فتذكر يوسف بعد سنوات، لما سمع ما دار بين الملك وعلية القوم. فتقدم للملك وقال: أنا أستطيع أن أخبركم بتأويل رؤياكم، فأذنوا بإرسالي .

أذن الملك بإرساله فتوجه إلى السجن، وبادر يوسف ﷺ بالتنويه بخلاله وكمالاته (أيها الصديق) وعرض عليه الرؤيا كما تحدث بها الملك، وأن الناس تحيروا في تأويلها، وينتظرون بيان ما فيها من غموض.

قال له يوسف: تقومون بزراعاتكم سبع سنين على ما هو معتادكم. وستكون سنوات خصب، لكن عليكم أن تقتصدوا في التمتع بما تنتجونه فيها، وأن تدخروا الزروع الفائضة عن القليل الذي تأكلونه في السنابل بدون دراس. ثم يتبع السنوات السبع هذه سنوات سبع شديدة قاحلة لا تنبت الأرض فيها شيئا؛ تأكلون فيها ما ادخرتم ولا يبقى إلا شيء قليل. ثم في السنة التالية للسبع يأتي عام خير وخصب فتنزل الأمطار ويجري الري في الأشجار فتعتصرون من ثمارها ما تعتصرونه في سني الخصب.

بيان المعنى العام :

43-45: وقال الملك إني أرى سبع......فأرسلون.

بقي يوسف في السجن إلى أن أخذت بوادر الفرج تظهر إثر رؤيا رآها ملك مصر الذي هو أحد ملوك العمالقة في مصر السفلى، وليس من ملوك القبط الفراعنة. رأى في المنام رؤيا حيرته لتناقض مقوماتها. رأى أن سبع بقرات سمان قوية البنية، تتسلط عليهن سبع بقرات هزيلة ضعيفة البنية فيأكلنها، وسبع سنابل خضراء

وبجانبها سبع سنابل يابسة .وتوجه إلى حاشيته والمقـربين منـه وخاصـة الكهنـة الـذين كان لهم اختصاص في تعبير الرؤى، عارضا عليهم ما حيـره مـن رؤيـاه، طالبـا مـنهم أن يقدموا له تفسيرا لما رآه إن كان لهم علم بتعبير الرؤيا.

و تحير كبار القوم والكهنة من الحاشية الملكية في فهم مـا ترمـز إليـه هـذه المجموعـة المتناقضة، وكان جوابهم: هذه تراكمات من الأحـلام مختلطـة ومتداخلـة غيـر واضـحة ولم نجد ما يزيل الإشكال.

وهنا تنبه الساقي، وثار في نفسه مـا نسـيه بعـد سـنين طويلـة وتـذكر يوسـف ﷺ وكيف أفتاهما في رؤياهما، وقد صدق تفسيره وتم فـي الواقـع مـا أخبـر بـه. وتوجـه إلى الملك مخاطبا له خطاب التعظيم: أستأذنكم في الـذهاب إلـى الشـخص الـذي ينبـئكم بتفسير رؤياكم.

أذن له الملك، فجرى نحو السجن، ودخله دون أن يعترضـه أحـد فهـو رسـول الملـك، وتمكن سريعا من الاتصال بيوسف ﷺ وخاطبـه بكـل أدب معبـرا عمـا عمـرت بـه نفسه من تقدير قائلا: يا يوسف، يا أيها الصـديق (الرجـل الكامـل فـي صـفاته، النقـي في سلوكه، الوفي للقيم العليا التـي يحملهـا) أزل عنـا الإشـكال فـي رؤيـا. وعـرض عليه ما رآه الملك بدون زيد ولا نقص. وأنهى كلامه بأنـه: بفضـل فتـواه سـيعود إلـى الملك وحاشيته فيزيل حيرتهم ويعلمون تأويل الرؤيا.

47–49، قال تزرعون سبع ستين دأبا..وفيه يعصرون.

بما علّم الله يوسف مـن تأويـل الرؤيـا، وإزالـة الغمـوض المنسـحب عليهـا، عـرّف الساقي السائل، بما يؤول إليه كل عنصر من عناصرها، فقال:

أولا: تزرعون سبع سـنين علـى العـادة التـي تسـيرون عليهـا فـي فلاحـة الأرض، وسيكون نتاج أرضكم وافرا. وتنبّهُوا فإن عليكم أن تبقـوا مـا زاد علـى قـوتكم فـي كـل سنة مما تحصدونه في سنابله، وأن تقتصـدوا ولا تبـذّروا، وعلـيكم أن تقتصـروا علـى الحد الأدنى لقوتكم في تلكم السنوات، وأن تدخروا الباقي.

ثانيا: سنوات الخصب ستُتبع بسبع سنوات يعم فيهـا الجـدب، تقسـو فيهـا الأرض علـى أهلها فلا نبات ولا زرع. يقتات النـاس ممـا ادخـروه فـي سـني الخصـب، ولا يبقـى بأيديكم إلا قليل مما تدخرونه .

ثالثا: بعد السنين الشداد القاحلة يأتي عام تتـابع فيـه الأمطـار ويعـم الخصـب ويجـري الماء في النبات والشجر. فتعصرون من أعناب الكـروم خمـورا، ومـن قصـب السـكر ما يجري بين أليافه، ومن بقية الفواكه ما كنتم تعتصرونه قبل الجفاف.

فتبين أن البقرات العجاف اللاتي يأكلن البقرات السمان: البقرات السمان السبع المأكولة هي سبع سنوات من الخصب متواليات. والبقرات العجاف الهزيلة الآكلة: هي سنوات سبع يعم فيها القحط ويأكل الناس ما ادخروه من سني الخصب. والسنابل الخضر السبع: هي ما يحصلون عليه من الزروع في سنوات الخصب، والسنابل اليابسة هي السنابل المدخرة.

وقد جمعت فتواه بين بيان الغموض، وبين التدبير الحكيم للتعامل مع المحاصيل الوافرة في سنوات الخصب السبع، من الاقتصاد وعدم التبذير، ومن ادخار الحصاد في السنابل حتى لا يسرع إليه السوس. وبين بيان أن سنة الله جرت على أن يعقب العسر اليسر.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخطب : الشأن الهام من حالة أو حادثة.

حاش لله : صيغة يراد منها المبالغة في النفي والتنزيه.

حصحص : ثبت واستقر.

بيان المعنى الإجمالي :

لما بلّغ الساقي تفسير يوسف عليه السلام للملك وحاشيته، أكبر علمه ورجاحة عقله وحسن تدبيره. فأمر بإخراجه من السجن وأن يحضر لديه. وتوجه رسول من القصر الملكي ليوسف حتى يقبله الملك. وامتنع يوسف من الخروج من السجن وقال للرسول: اذهب إلى الملك واطلب منه أن يسأل النسوة اللاتي حضرن مجلس امرأة العزيز وجرحن أيديهن ماذا علمن وما شاهدن ؟ إن ربي لا يخفى عليه شيء من كيدهن لي.

جمعهن الملك وسألهن عن الأمر الذي حصل عند مراودتهن يوسف عن نفسه، فأجمعن على التنصل من اتهام يوسف بريبة وأنه بريء. وكانت امرأة العزيز

حاضرة، فصرحت: الآن بان الحق وظهر؛ أنا تعلقت بيوسف وراودته ليتصل بي، وإنه لصادق فيما ذكره من براءته من مراودتي.

كان يوسف ﷺ يهدف من إحضار النسوة إلى تحقيق أمرين: أن يثبت براءة عرضه مما اتهم به، وأن يثبت يقينيا للعزيز أنه لم يخنه في زوجته عند مغيبه، لأن الله لا يساعد الخائنين بما يحجب الحقيقة إلى الأبد.

ثم توجه معلنا: أن ثباته على الطهارة هو تبع لما صحبه من ألطاف، وأنه لا يدعي أن نفسه نفس تسمو عن الضعف البشري، بل كل نفس تتزلق إلى الإثم إلا إذا رحمها الله وثبتها على الطهر والسمو. إن ربي غفور للمذنبين التائبين، رحيم بهم.

بيان المعنى العام :

50 -وقال الملك ائتوني به....إن ربي بكيدهن عليم.

رجع الساقي إلى الملك وحاشيته، ونقل إليهم نقلا أمينا ما سمعه من يوسف. فكان لذكي تفسيره ولما أدمجه من التوجيهات في مقابلة الخصب والجدب، وفي طريق خزن الزروع، وما أضافه من تعقيب السنين الصعبة بسنة خصب ووفر خيرات، كان لكل ذلك موقع التقدير لمواهب يوسف ﷺ عند الملك، وقال ما محصله: هذا الرجل ينبغي أن يكون إلى جانبي يساعدني على تصريف أمور الدولة، ائتوني به.

وتوجه من القصر الملكي رسول الملك يزف البشرى ليوسف: إن الملك عفا عنك. فما كان موقف يوسف وقد تولى الملك بنفسه الأمر بإخراجه من سجنه وبعث رسوله إليه؟ كان يوسف لما دخل السجن بريئا عند الله، متهما بالخيانة عند الذين بلغهم خبره مع امرأة العزيز. فما كان منه لحكمته وبالغ صبره إلا أن قال للرسول الذي كان يظن أن يوسف سيسرع بالخروج معه: ارجع إلى سيدك الملك (ربك) فاسأله سؤالا يزيل الشبهة ويبرئني مما اتهمت به. قل له: يقول لك يوسف: ما حقيقة أمر النسوة اللاتي جرحن أيديهن في مجلس امرأة العزيز؟ إن ربي الذي أنا مستمسك برعايته عليم بكيدهن. ولقائل أن يقول ما هو كيدهن؟ فإن التي كادت له هي امرأة العزيز. واستشعر المفسرون هذا السؤال وأجابوا عنه بأجوبة غير مقنعة. والذي ترجح عندي: أن النسوة عذرن امرأة العزيز في حبه وعملها على وصاله، وأن ما وقعن فيه من إعجاب بشمائل يوسف يخفي مشاركتهن الرغبة في سقوط يوسف في حبال المضيفة، وما يمكن أن يتبعه من وصالهن، فأخفوا الحقيقة وأيدوها فيما اقترحته من سجنه، ومن شأن الظالم أن يتلهف لوجود من يبرر له ظلمه، فيمضي فيه.

51 -قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف....وإنه لمن الصادقين.

حمل الرسول رسالة يوسف إلى الملك، فأمر بدعوة الحاضرات في ضيافة امرأة العزيز، وأتين إلى مجلس الملك، وألقى عليهن السؤال التالي: ما هي حقيقة الأمر الذي تم عندما راودتن يوسف عن نفسه، هل استجاب للإغراء ؟ وكان جوابهن واضحا نافيا للقالة التي تُحُدِّث بها في المجالس. حاش لله! نبرأ إلى الله من اتهام يوسف، ما علمنا على يوسف خروجا عن العفة أو سقوطا في الرذيلة.

كانت امرأة العزيز حاضرة في مجلس الملك فوقفت معلنة: في هذه اللحظة ثبت الحق واستقر، وسقط كل ما كذبت فيه على يوسف: أنا في ضعفي تعلقت به فراودته عن نفسه طمعا في وصاله. وبصفة مؤكدة: هو على الحق من الصادقين.

52-53، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ... إن ربي غفور رحيم .

الذي أفهمه من الآيتين: أن يوسف ﷺ طلب إحضار النسوة اللاتي حضرن مجلس امرأة العزيز لغرضين:

أولا: غرض رفع كل تهمة علقت به من قبل حتى يكون عرضه نقيا عند الناس كما هو في الواقع، وبهذا لا يجد حساده مغمزا في سيرته ينفذون منه إلى الإيقاع به.

ثانيا: ليعلم عزيز مصر علما يقينيا أنني لم أخنه في غيبته، ولم أعتد على شرفه، وأن الله سبحانه لا يؤيد ما يكيد به الخائنون لبلوغ مقاصدهم الخبيثة إلى ما لا نهاية، بل يكشف أمرهم ولو طال الزمان.

و ختم كلامه متواضعا لله، مظهرا ضعفه حتى لا يفهم منه أنه نجا وعف لقوة إرادته. فقال: إني لا أدعي براءتي من المعصية ونزاهة نفسي وبعدي عما رميت به لمزايا الذاتية، فإن كل نفس قد تنزل وتنحط وتأمر ملحة صاحبها بالإقبال على الشهوة والخطيئة والإثم، وأن الذي يعصم الإنسان هو رحمة الله التي تحوط به فتفتح بصيرته، فتصفو سريرته، وينفر من الخطيئة والإثم. وفوق ذلك فإن ربي غفور لزلات التائبين رحيم بعباده الذين يتعلقون برحمته.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ :

استخلصه لنفسي: أجعله خالصا لي لا يشاركني فيه أحد.

مكين : ذو مكانة ومرتبة عظيمة.

أمين : موثوق به لايخون.

يتبوأ : ينزل ويتصرف.

نصيب : نعطي عطاء الفضل.

بيان المعنى الإجمالي :

لما ظهرت براءة يوسف عليه السلام وأدرك الملك مستواه الرفيع في العلم والأدب والحكمة، أصدر أمره بان يخرجوه من السجن ويحضروه بمجلسه.

تحدث الملك إليه فكان ما سمعه منه ملأ نفسه إعجابا بكمالاته وجمع ما استقر في نفسه بقوله: إن لك المنزلة القوية في الدولة وإنك لأمين يطمأن إليك، فتول ما شئت من أمور الدولة فأنا أثق فيك.

عرض يوسف على الملك أن يسند إليه الحفاظ على أموال الدولة وما تملكه من الأرزاق، موجها طلبه بأنه يحفظ الأموال بحسن التصرف فيها وتثميرها، وأنه يباشر عمله حسب القوانين العلمية التي لا مكان فيها للعواطف والارتجال. وأعطي ما طلب، فمكنه الله من أرض مصر ينتقل في أقاليمها يسدد المسيرة ويباشر الأمور من قرب، وتجري الأمور حسب إرشاده وتوجيهه.

إن الله يعطي موجبات رحمته لمن يشاء، ويوفي للمحسنين في سلوكهم أجرهم دون أن يضيع منه شيء. وفوق ذلك الأجر الذي أعده في الآخرة للمؤمنين المتقين

بيان المعنى العام :

54—55، وقال الملك ائتوني به أستخلصه .....حفيظ عليم.

لما أبلغ الرسول جواب يوسف وظهرت براءته تبعا لما طلبه من إظهار الحقيقة؛ عندها قال الملك: ائتوني بيوسف أجعله خالصا لنفسي، يكون مقربا مني، يساعدني على تسيير أمور الدولة، ولا يهتم بشيء آخر.

تحدث الملك مع يوسف، فزاد إعجابا برجاحة عقله، وحسن منطقه، وكمال أدبه، وعلو أخلاقه، ووجد فيه الرجل الذي يحق أن يستعين به في تسيير أمور الدولة، فعبر له عما تقتضيه هذه الثقة وذلكم الإعجاب بقوله: إنك اليوم في مرتبة رفيعة، ثقتنا فيك تامة لأمانتك وسمو أخلاقك.

فهم يوسف من تصريح الملك: أنه يريد أن يستكفي به فـــي بعـــض المهـــام، فقـــال للملـــك: ولِّني التصرف في خزائن الدولة. والـــذي أفهمـــه مـــن ذلـــك حســـب تعبيرنـــا اليـــوم أن يوليه وزارة المال بمـــا يشـــمل الأمـــوال والمنتجـــات الزراعيـــة، يتصـــرف فيهـــا تنميـــة وتوزيعا. وبرر طلبه هذا بأنه مؤهل لذلك لجمعه بين صفتين:

الأولى: قدرته المتميزة على حفظ الأمـــوال بتثميرهـــا وحســـن التصـــرف فيهـــا، وأمانتـــه في إعطاء الناس حقوقهم وعدم ظلمهم.

ثانيا: مستواه المعرفي الذي يتصرف بـــه فـــي الأمـــوال تصـــرفا مســـتجيبا لمـــا يقتضـــيه العلم الكاشف عن الوجـــوه الصـــالحة للتصـــرف فيـــه، الـــذي لا دخـــل فيـــه للعواطـــف والمحسوبية والارتجال.

56 -57، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض...وكانوا يتقون.

وعلى هذا النحو من التأييد يسرنا ليوسف ما بلـــغ بـــه المكانـــة العليـــا فـــي أرض مصـــر. دخلت الأراضي والعاملون فيها تحت قيادتـــه وتوجيهاتـــه؛ ومـــا نـــزل فـــي أي مكـــان إلا كانت دواليب الاقتصاد تحت إمرته، بعد أن أحكم تنظيمهـــا وربـــط بينهـــا، فقولـــه تعـــالى (يتبوأ منها حيث يشاء) تدل علـــى أصـــل عظـــيم مـــن أصـــول النجـــاح فـــي التســـيير الاقتصادي، الذي هو إحكام التواصل بين الأقاليم.

وعطفت الآية بإبراز قاعـــدة عقديـــة أساســـية، أن الله يمكـــن مـــن يشـــاء مـــن موجبـــات رحمته .ويتفضل بتوفير أجرهم على مـــا أجـــرى علـــى أيـــديهم مـــن صـــلاح وخيـــر. وفوق ذلك، التكريمُ والثوابُ في الآخرة، ذلكم التكـــريم الـــذي يخـــص بـــه عبـــاده الـــذين صفت أرواحهم بالإيمان وصلحت أعمالهم بسلوك مسالك التقوى.

وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

منكرون : جاهلون أتم الجهل أنه يوسف.

الجهاز : ما يحتاج إليه المسافر .

بضاعتهم : ما قدموه ثمنا للطعام.

رحالهم : جمع رحل وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب.

الانقلاب : الرجوع.

سنراود: سنحاول.

بيان المعنى الإجمالي :

أخذ يوسف ﷺ في تسيير المهام بحكمته، وأعقبت سنوات الجدب سنوات الخصب. ووقعت أسرته في ضيق، فجاء إخوته يرغبون في شراء الطعام. وأدرك يوسف لما رآهم أنهم إخوته بينما هم لم يتفطنوا أنه يوسف. وبعد أن سلم لهم ما اشتروه قال لهم: اصطحبوا في المرة القادمة أخاكم للأب، واعلموا أنه إذا لم يأت معكم فلا أبيع لكم شيئا من الحبوب، ولا أقبلكم. أجابوه بأنهم سيحاولون أباهم ليصطحبهم، وأنهم يبذلون قصارى جهدهم .ومن حكمته أن أذن عماله بأن يجعلوا ما قبضوه منهم في رحالهم، رجاء أن يعرفوها عندما يصلون إلى منازلهم، فيكون ما وجدوه من الأثمان الراجعة إليهم محرضا لهم على العودة لشراء الأقوات. ولا يحول الفقر بينهم وبين العودة إلى مصر.

بيان المعنى العام :

58 –62، وجاء إخوة يوسف فدخلوا...إلى أهلهم لعلهم يرجعون.

استقر يوسف ﷺ مباشرا لمهامه. وتتابعت السنون فجاء الخصب سبع سنين تصرف فيها بالحكمة حسب الخطة التي قدمها في تعبير الرؤيا. ثم توالت سنوات الجدب، وعمت أرض مصر وما جاورها من أرض فلسطين حيث منازل أبيه وإخوته. وأصاب يعقوب وبنيه وأهله ما أصاب المنطقة من الشدة .وطوى القرآن تفاصيل الأحداث التي تلت قيام يوسف ﷺ بمهامه، لأنها أحداث طبيعية لاعبرة خاصة فيها. ويتصورها التالي لكتاب الله كما يشاء دون أن يدخل خلل في العبر التي أحكمتها محطات القصة.

تناولت هذه الآية مبدأ ارتباط آخر القصة بأولها. فقد تتبع القرآن ما حدث ليوسف ﷺ بعد إلقائه في الجب إلى أن أصبح الرجل الأول في دولة الكنعانيين بمصر، ولم يتحدث عن أبيه وإخوته. ولكن من هذا الموقع عاد الارتباط بين يوسف وأسرته. ذلك أن الجدب الذي عم المنطقة كلها، وقد علم الناس أن الدولة قد استعدت لإسعاف الجياع بالأقوات. فوجه يعقوب بنيه بما عندهم من بضاعة يقدمونها ثمنا لما هم في حاجة إليه من الأقوات.

جاء إخوة يوسف إلى مركز بيع الأقوات، وقد كان يوسف يتولى مراقبة مركز البيع مراقبة حازمة ومتتابعة، فلما دخل إخوته لشراء ما هم في حاجة إليه، رمقهم يوسف وعرفهم، بينما استمر إخوته في ذهولهم عن تصور أن الذي يتحكم في أقوات المنطقة هو أخوهم. وطوى القرآن ما دار من حديث بين يوسف وإخوته، ويفهم من قوله ائتوني بأخ لكم من أبيكم، أنه ﷺ استدرجهم للحديث، ووصل بفضل لباقته من تحقيق ما أراده من محادثتهم دون أن يتفطنوا لمراده. ولما كانوا يريدون شراء طعام يكفي لأسرتهم فقد يكون أنه سألهم عن عدد أفرادها، وأعلموه أنهم إخوة أشقاء، ولهم أخ من أبيهم لم يصحبهم في سفرتهم. ولعل يوسف نظم توزيع الأقوات على عدد الرؤوس التي تتكون منها العائلة. فلما مكنهم من حصة أخيهم الذي لم يحضر معهم طلب منهم أن يحضروه في المرة القادمة، وأنهم إن لم يأتوا به معهم فلا يتوقعوا أن يحصلوا على شيء، بل إنه لا يسمح لهم بقربه ولا بتقديم أي عذر. ثم حركهم لقبول طلبه بأنه ملتزم في تسيير الأمور بالعدل والشفافية، ولفت أنظارهم إلى ما شاهدوه في ناحيتين: أولا: أنه يوفي الكيل ولا ينقص من حقوق المشترين شيئا، على أن الظرف تبعا لشدة الحاجة قد يجعلهم يقبلون بما يعطيهم ولو كان أحط من حقوقهم .وثانيا: أنه يستضيف المشترين ويكرمهم إكراما على خير الوجوه، فإذا قدموا مع أخيهم فإنه سيستضيفهم جميعا.

تيقنوا من جدية يوسف، وقالوا له: سنحاول أباه، بكل تأكيد، ليتركه يخرج معنا في المرة القادمة.

ثم إنه تبعا لشدة ذكائه، أمر الفتيان المشتغلين بعمليات البيع وقبض الأثمان تحت إمرته، أن يضعوا ما قبضوه من إخوته في رحالهم، وذلك، لعلهم إذا رجعوا إلى أبيهم وجدوا الأثمان التي دفعوها قد عادت إليهم، فلا يتخلفون عن العودة إلى الشراء من جديد، إذ كانت هيأتهم تدل على ما هم عليهم من الفقر والخصاصة.

فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حِفۡظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا

مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الميرة : الطعام المجلوب.

موثق من الله: يمين، الله شاهد على ما التزموا به.

أن يحاط بكم : تكونون في مأزق لا حيلة لكم في الخروج منه.

وكيل : رقيب على تنفيذ ما التزمنا به.

لا أغني عنكم : لا أجزي ولا أدفع، فلا أكفيكم .

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية تفصل المشهد الذي حصل إثر رجوعهم من عند يوسف. بادروا قبل أن ينزلوا رحالهم بعرضهم على أبيهم ما تم بينهم وبين العزيز الذي انتهى إلى حرمانهم من الطعام إن لم يصحبوا أخاهم وأنهم يرغبون في الإذن له بالسفر معهم ووعدوه بحفظه. وأجابهم بإشارة لاذعة، مذكرا لهم بما انتهى إليه حفظهم ليوسف، وإن حفظ الله له خير من حفظهم. ثم قاموا إلى رحالهم لإنزال الطعام الذي جلبوه، وكانت مفاجأتهم كبيرة، إذ وجدوا المتاع الذي قدموه ثمنا عاد إليهم. فكرروا طلبهم أن يصحبهم أخوهم نظرا لهذا المعطى الجديد. إذ ثمن الطعام حاضر. فلنذهب لنأتي بالميرة لأهلنا، ونرعى أخانا رعاية تضمن سلامته، وينال أخونا ما يعطيه العزيز لكل فرد، فنضيف ما يكال لبعيره، وتحصيلنا عليه أمر يسير لكرم العزيز. قال لهم أبوهم لا آذن له بالسفر معكم إلا إذا أقسمتم لي بالله موثقين بذلك وعدكم من رجوعكم ببنيامين إلا إذا حال بينكم وبين البر بقسمكم موانع تفوق طاقتكم. وزادهم تأكيدا محذرا بأن الله هو الوكيل على ما عقدناه.

وأردف ناصحا لهم أن يتوزعوا عند دخولهم لمدينة العزيز، وأن يتفرقوا لينفذوا من عدة أبواب، حتى لا يلفتوا إليهم أنظار الحرس والقائمين على الأمن، مبينا لهم أنه لا يستطيع أن يدفع عنهم الأذى، فإن التصرف والتنفيذ هو بيد الله. على الله توكلي وعليه وحده سبحانه فليتوكل الصالحون المتوكلون.

بيان المعنى العام :

63—64، فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا...وهو أرحم الراحمين.

لما رجع إخوة يوسف إلى منازلهم دخلوا على أبـيهم وقصـوا عليـه مـا وقـع لهـم مـع عزيز مصر المتحكم في الأقـوات. والعقـدة الكبـرى أن العزيـز أخـذ قـراره: أنـه لا يمكنهم من الطعام فـي المسـتقبل ولا يتحـدث إلـيهم ولا يقبـل أي عـذر مـنهم، إلا إذا اصطحبوا أخاهم .وطلبوا من أبيه أن يأذن لهم في أخـذ أخـيهم معهـم حتـى يسـتطيعوا اشتراء الطعام وتسلم الكيل الذي يقابل الثمن الـذي يبذلونـه. وأكـدوا لـه أنهـم يقومـون بحفظه ويرعونه في سفرهم حق الرعاية.

كان جواب يعقوب دقيقا، فقال لهم : قدمتم أنكـم ترغبـون منـي أن آتمـنكم عليـه، وأي ائتمان هذا ؟ هل هو كما ائتمنتكم من قبـل علـى أخيـه يوسـف ؟ يشـير إلـى التجربـة الأولى التي أعقبها ضياع فلذة كبده يوسف. وقالوا لـه: إنهـم سـيحفظونه، ثـم والـى إن حفظ الله خير من حفظكم. إن ربي أرحم الراحمين. قـد يشـير إلـى قسـوة قلـوبهم لمـا فرطوا في يوسف. وفي صيغة جوابه أنه يتوكل على الله فـي حفـظ ابنـه الـذي يتـولاه بأفضل مما يبذلون من الرعاية، مما يفهم منـه أنـه غيـر مصـمم علـى عـدم إرسـاله معهم. يبدو أن ذلك كان تبعا لحرج الموقف في الاختيار بـين منـع بنيـامين مـن السـفر معهم، وبين توقف استمرار حياة العائلة على ما يجلبونه من الطعام.

65—67، ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم...فليتوكل المتوكلون.

بعد أن بادروا بالحديث مع أبيهم عن سفرتهم ومـا حصـل فيهـا مـن قـرار حرمـانهم في المستقبل مـن الطعـام إن لـم يصـحبوا أخـاهم، رجعـوا إلـى رحـالهم فأنزلوهـا وفتحوها. ولشدّ ما كانت دهشتهم إذ وجدوا البضاعة التي قـدموها ثمنـا لمـا اشـتروه قـد رجعت إليهم. فانحلت بذلك مشكلة ما يقدمونـه مـن ثمـن لمـا يشـترونه مـن أقـوات. فقالوا لأبيهم: يا أبانا انحلت المشكلة، هذه البضـاعة التـي كنـا دفعناهـا لعزيـز مصـر قد عادت إلينا، فلنسافر إلى مصر بها، ونصحب أخانا فـي سـفرنا، ونتـولى العنايـة بـه وحفظه من كل مكروه، ونضيف إلى ما أتينا به مـن الطعـام حمـل بعيـر آخـر؛ لعلهـم يقصدون أن عزيز مصر سيمكن أخاهم من حمل بعيـر مـن الطعـام، وذلـك حسـب مـا عرفوه من كرم العزيز، أمر يسير مظنون حصوله.

يبدو أنه قد اجتمع من الظـروف المسـاعدة مـا أثـر علـى يعقـوب ﷺ تـأثيرا جعلـه يسمح بخروج بنيامين أخي يوسف معهم في رحلتهم إلـى مصـر. ولكـن اشـترط علـيهم أن يحلفوا له يمينا مؤكدة يشهدون الله فيها على أنفسـهم، توثـق التـزامهم بـأن يحـافظوا

على أخيهم من تاريخ خروجه معهم حتى يعودوا به إلى أبيه سالما. ولما كان المستقبل مجهولا، وما يحصل فيه من المعوقات لا يعلمها إلا الله، حللهم من هذا الالتزام إذا وجدوا في أنفسهم في مأزق يحول بينهم وبين الوفاء بالتزامهم لا يجدون حيلة ولا قدرة لهم على الخروج منه. وأقسموا لأبيهم هذا القسم المغلظ، ثم زاده تأكيدا بقوله: إن الله رقيب عليكم في تنفيذكم ما التزمتم به، كأنه يشير إلى ما بقي في نفسه من الشك فيما ادعوه من عدوان الذئب على يوسف.

وأوصاهم وصية استندت إلى تجربته الطويلة، فقال لهم: إذا دخلتم مدينة العزيز فتوزعوا على أبوابها ولا تدخلوا من باب واحد: ووجه بعضهم ذلك على أنه حماية لهم من أن تصيبهم عين حاسدة، إذ قافلة من أحد عشر رجلا أخوة، تتشابه قسماتهم، وهم على حظ من الجمال والمهابة، قد يثير بعض الناظرين الذين ينقدح من عيونهم ما يضر المنظور إليهم. فحماية لهم من ضرر العين أوصاهم بالدخول مفرقين من أبواب عديدة. ووجهه آخرون من أن دخولهم مجتمعين قد يثير الريبة في الحرس القائمين على الأمن، فربما ضيقوا عليهم أو أوقفوهم للتحقق منهم إذا دخلوا مجتمعين، ولا يثيرون الشبهة إذا توزعوا على أبواب المدينة.

ثم عرفهم أن العمل بوصيته لا ترد قضاء مبرما قدره الله وتعلقت إرادته بتنفيذه. ذلك أن الحكم الذي ينفذ في النهاية ويقع في الوجود هو ما حكم به الله فتعلقت إرادته بإنجازه. فمجموع كلامه يهدف إلى تقرير تصوره لما يحدث في الكون ومسؤولية الإنسان فيه. فالإنسان مطالب بأخذ الأسباب وهو محاسب على ذلك، وأما تحقيق ما قصده مما تكون العادة تحققه فليس ذلك بواجب، بل المتحكم في الحوادث هو المنظم لهذا العالم الله رب العالمين، فكم من مجتهد بذل عنايته وأخذ بالأسباب، ولم يصل إلى مبتغاه. يوضحه أن الأسباب المنتجة للمقصود ليست كلها خاضعة لإرادة الإنسان وسعيه، بل قد تكون أسباب أخرى للنجاح خفيت عن العامل. وقدراته الفكرية لا تبلغ الإحاطة بجميع المؤثرات ولا التحكم فيها. وهو معنى التوكل على الله الذي أخبر بنيه بأنه ملتزم به، وأنه المنهج الصائب الذي عليه الصالحون من البشر؛ عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون.

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا

تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

ما كان يغني عنهم من الله من شيء : ماكان يستطيع أن يرد عنهم القضاء.

قضاها :قام بها.

آوى أخاه : قرب إليه أخاه.

فلا تبتئس : لا تهتم، و ابتهج.

السقاية : إناء كبير يسقى به الماء والخمر.

الصواع : الصاع وعاء مضبوط للكيل.

التأذين : النداء المكرر.

العير :المجموع من المركوبات وأحمالها وأصحابها.

أوعيتهم : جمع وعاء وهو الظرف الحاوي للشيء.

الكيد : فعل يتوصل بظاهره إلى أمر آخر خفي.

بيان المعنى الإجمالي :

سافر أبناء يعقوب ومعهم أخوهم الصغير إلى مصر للميرة، ونفّذوا وصية أبيهم فتفرقوا على أبواب المدينة عند دخولها. وما كان يعقوب بوصيته تلك يرد عنهم ما سبق به القضاء، ولكنه أراد أن يعلمهم أن يأخذوا بالأسباب التي هي في مقدورهم، وهو الحزم، ومع ذلك أن يحسنوا التوكل على الله. وهذا التأديب هو عمل بما استقر في نفسه من علم علّمه الله إياه، وقام به، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب .

ولما دخلوا على يوسف تلطف فقرب أخاه منه، وسارّه بأنــه أخــوه يوســف الــذي أشــاع إخوته عنه أنه أكله الذئب. وأوصاه أن يغسل ما في صــدره مــن حــزن علــى مــا كــان إخوته يقترفونه من تجاوزات .

مكنهم من الطعام الذي جاءوا لشرائه، وبمجــرد مــا حزمــوا أمتعــتهم وهمــوا بالسـفر، صاح بهم أحد أتباع العزيز: أيتها القافلة قفوا إنكم سارقون.

ولشد ما كانت دهشتهم برميهم بهــذه التهمــة؛ فســألوا المنــادي مــا ذا فقــدتم ؟ أجــابهم فقدنا المعيار الذي كنا نكيل به الطعام، وهو صواع الملــك (الســقاية) الــذي يشــرب منــه الماء والخمر، واعلموا أني ضامن لمن يأتي به ما يمكــن أن يحملــه بعيــر مــن الطعــام.

فأقسم أبناء يعقوب: تالله، كما علمتم من حالتنا وسلوكنا، مــا جئنــا لنرتكــب مــا يوجــب قلاقل في أرض مصر. وإننا لأبعد الناس عن السرقة.

أجابهم الصائح ملزما لهم: ما هم حكمكم علــى الســارق عنــدما نكتشــفه ؟ ولثقــتهم فــي براءتهم قالوا يسترقه العزيــز جــزاء مــا اقتــرف. لأنــه ظــالم والظــالم يسـتحق هــذا الجزاء. أوحى يوسف للمفتش أن يبدأ بأوعية الإخــوة قبــل وعــاء بنيــامين، ثــم الأمــر وفي النهاية وجدوا السقاية في متاع بنيامين. ونفذ الحكــم فيــه الــذي رضــوا بــه مقــدما، فأصبح رقيقا عند يوسف. وتم ذلك، بعون مــن الله، فحقــق يوســف مــا رتــب لــه مــن الحيلة لضم أخيه لنفسه، وليتابع الخطوات التاليــة لجمــع الشــمل. إذ لــولا ذلــك التــدبير وإسراع إخوته بالحكم ما كان يوسف يستطيع أن يســترق أخــاه حســب القــانون الملكــي في مصر. على معنى أن السارق لا يسترق في القانون المصري في ذلك الوقت.

والله يرفع في مقامات السمو من يشاء مــن عبــاده فرفــع يوســف إلــى مقامــات العــز وتحقيق ما يريد.

وكان ما بلغ به يوسف غايته هو اتباع منهجية علمية وصــلت بــه إلــى النجــاح. ومــن سنن الله التي بنى عليها الكون أن العلم لا يقف عند حد ففــوق كــل مرتبــةٍ مرتبــةٌ أعلــى تدعو الإنسان لمواصلة البحث والاجتهاد حســب منهجيــة منتجــة. وبــالطبع فكــل عــالم يوجد من هو أعلم منه في الحاضر أو في المستقبل.

بيان المعنى العام :

68- ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم...أكثر الناس لا يعلمون.

تجهز إخوة يوسف للسفر إلى مصر وصحبوا أخاهم فــي ســفرهم. ولمــا بلغــوا المدينــة المصرية طبقوا ما أوصاهم به أبــوهم يعقــوب، فتوزعــوا فــي الــدخول بــين أبوابهــا. وما كانت وصية يعقوب لهم لتبعد عــنهم جميــع الأخطــار، ولكــن عطفــه علــى أولاده

حمله على النصح لهم، فقام تحت داعية حنان الأبوة، وبموجب ما اختزنه الله في قلبه من حكمة، فأبلغهم ما هو خير لهم. ونوه القرآن بيعقوب ﷺ: إنه على حظ كبير من النفاذ إلى غايات العلم الذي علمه الله، فهو قد علّم أولاده أن لايهملوا الأسباب الواقية من المصائب، وعلمهم أيضا أن ذلك لا يضمن لهم السلامة مائة بالمائة، فليحسنوا التوكل على ربهم. ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحكمة العزيزة من الجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب .

69 – و لما دخلوا على يوسف آوى.... بما كانوا يعملون.

بعد أن وصلوا إلى المدينة توجهوا إلى مجلس العزيز فدخلوا عليه. لاحظ يوسف أن ما دبره قد حقق غايته. فها هو أخوه بنيامين معهم أمامه، فتلطف حتى قربه منه وأسرّ له: إني أنا أخوك يوسف، فأزل ما كنت تجده من كدر على موتي، ومن حزن على ما كانوا يعملون تبعا للغيرة مني ومنك، وابتهجْ بتلاقينا.

70 – 76، فلما جهزهم بجهازهم ...وفوق كل ذي علم عليم.

أذن يوسف ﷺ العمال المكلفين بتسليم الأقوات للمشترين، وأمر من يثق بكتمانه السر أن يجعل السقاية، التي كانت وسيلة الكيل، في متاع أخيه بنيامين. وتسلم كل واحد من أبناء يعقوب نصيبه، واستعدوا لمغادرة المكان للسفر. وبينما هم يقيمون رواحلهم لينطلقوا إلى أبيهم، أخذ أحد عمال العزيز ينادي مكررا: قفوا ! يا أيتها القافلة إنكم سارقون.

وقفوا مشدوهين سائلين ما ذا فقدتم وعمّاذا تبحثون؟ كان الجواب واضحا فقدنا صواع الملك، وتضمن لكم أن من أتانا به نجازيه بما يحمله بعير من الطعام. وصواع الملك هو السقاية التي كان يشرب منها الخمر والماء، واتخذت على أن تكون معيارا معلوما للكيل يوفى به كل مشتر حقه. ولا شك أن الملك لا يشرب إلا من سقاية ثمينة. ولذا عرضوا جزاء من يأتي بها حمل بعير.

كانوا متحققين من براءتهم فقالوا: تالله، والتاء الداخلة على اسم الجلالة هي كالواو فهي وزان والله، تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض، وما كنا سارقين. أقسموا على براءتهم أنهم جاؤوا للميرة لا لينشروا الفساد في أرض مصر، أي إننا لسنا عصابة سوء تقوم بما يترتب عنه فساد في المجتمع، فإن ضياع صواع الملك يتبعه قطعا تفتيش عام واتهام الأبرياء، واضطراب يزعزع الاستقرار، وأيضا فبالتحديد نحن أبعد الناس عن السرقة وسفالتها. وأسندوا براءتهم إلى علم أتباع العزيز بذلك. وفرض المفسرون فروضا تكشف عن مصدر علمهم ببراءتهم واستقامتهم، فقالوا:

إنهم لما قدموا للميرة في المرة الثانيــة أخبــروا: أنهــم وجــدوا بضــاعتهم فــي رحــالهم فكان ذلك شاهد صدق على تورعهم عن مــال الغيــر، كمــا فرضــوا أنهــم اتهمــوا فــي المرة الأولى بالجوسسة وظهرت بــراءتهم. وهــي فــروض لا يقــوم عليهــا دليــل مــن قريب أو من بعيد من النص القرآني. ولذلك فإن الــذي تــرجح عنــدي: أنــه تــوع مــن الإلزام الخطابي لنفي التهمة، مستند إلى ما شــاهدوه مــنهم فــي التعامــل وفــي الســلوك العام من خلق رفيع وأدب ربوا عليه في بيت النبوة.

وأمام هذا الجواب الحاسم ألزمهم المكلفون بالبحث عن الصواع بأن يصدروا حكمهم على من وجد عنده الصواع حتى لا يتنصلوا من العقوبة لو وجدوه عند أحدهم .

وتحقق ليوسف المرحلة الثانية من تدبيره بحكمهم: أن مــن وُجِــد الصــواع فــي رحلــه يصبح عبدا رقيقا للعزيز جزاء ما قام به، وعللوا حكمهم ورضــاهم بــه بــأن مــن أخفــى الصواع عنده مُتعدٍّ ظالم، وعلى هذا النحو ينبغي أن يجزى الظالمون.

ثم بدأ التفتيش، فكان من حبك ما قصده يوســف أن أوحــى لعمالــه بــأن يبــدؤوا بتفتــيش أمتعة الإخوة ويتركوا أمتعة بنيامين إلى الآخر، وكلما أتمــوا الكشــف عــن متــاع أحــدهم برأوا صاحبه، وفي النهاية استخرجوا الصواع من وعاء بنيامين.

و نفذ الحكم فيه فأخذ على أنه عبد من عبيد العزيز.

و يعلق القرآن على ما انتهى إليــه الأمــر: إن الله يســر ليوســف الأســباب كلهــا التــي بلغت بتدبيره غايته التي كان يرمي إليها. فقــد جمــع الله بينــه وبــين أخيــه جمعــا كــان بحكم إخوته الذين قصدوا أن يبالغوا في الدلالة علــى بــراءتهم مــن تهمــة الســرقة.ولولا ما حكموا به ما كان يوســف ليــتمكن مــن أخــذ أخيــه، لأن شــريعة ملــك مصــر: أن العقوبة التي تنزل بالسارق لا تصل إلى حد استرقاقه.

و الخاتمة: أن الله هو الرافع الخافض، فمــن أراد أن يســمو بــه ويحقــق لــه مــا يريــد، ييسر له الأسباب التي تبلغه المقام الرفيع. وإن العلم الــذي هــو أســاس النجــاح والرفعــة هو بالنسبة للعلــم البشــري تطــور متتــابع، كلمــا حقــق البشــر مســتوى فتحــت لهــم منجزاتهم أبوابا للسمو إلى ما هو أرفع، فعلــى البشــرية أن تواصــل البحــث والاجتهــاد ليكون كل كشف وراءه كشف أسمى منه. ومن ناحية أخــرى فــلا يظــن أحــد أنــه بلــغ القمة من العلم. فوق كل مستوى لعالم مستوى أرقــع مكــن الله منــه أحــد معاصــريه أو سيمكن غيره من تلكم المستوى الأرقع في المستقبل.

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (٨٠) ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ (٨١) وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٨٢) ﴾

بيان معنى الألفاظ :

أسرها : أخفى الكلام في نفسه.

شر مكانا : حالتكم شرمن بنيامين وأخيه.

مكانه : عوضه.

معاذ الله: نلجأ إلى الله أن يحمينا من الأخذ بغرَضكمْ.

استيأسوا : يئسوا يأسا قويا.

خلصوا: انفردوا.

نجيا: يتحدثون سرا فيما بينهم.

يحكم الله لي : يقدر لي ما ينفعني.

للغيب : للأمور المغيبة عنا عالمين.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن ظهرت الفضيحة، وأن أحدهم كان سارقا ونفذ فيه الحكم بالاسترقاق، قالوا، رغبة منهم في تخفيف شيء من العار الذي لصق بهم: إن يسرق بنيامين فقد سرق أخوه من قبل، كأنهم يلصقون المعرة بأخويهما من الأب يوسف وبنيامين، أما هم فهم أشرف من أن يسرقوا. قالوا هذا بدافع الكراهية المتولدة عن الغيرة من يوسف وأخيه، فوجدوا مدخلا لينفسوا عما تضطرب به عاطفة المقت لأخويهم. ولا يقتضي ذلك أن يكون ما رموا به يوسف من السرقة أمرا واقعا حتى يبحث له عن مخرج.

كان كلامهم هذا بمحضر يوسف وبمسمع منه. تحمل يوسف هذه الإذاية له ولأخيه ولم يظهر غضبه من مقالتهم، وقال في نفسه: أنتم أسوأ حالا وأحط من مستوانا. والله أعلم بما وصفتم من كذب وافتراء أو من صدق. يشير إلى كذبهم عنه وعدم إدراكهم لحقيقة الأمر بالنسبة لبنيامين. هذا العلم الحق هو عند الله الذي لا يغيب عنه شيء ولا تلتبس عليه الأمور.

بيان المعنى العام :

78-–80، قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا.... وهو خير الحاكمين.

بعد أن تم استرقاق بنيامين عند يوسف، استشعر إخوته قوة الصدمة التي ستنزل على أبيهم عند علمه بالخبر . فحاولوا إنقاذ بنيامين وتوسلوا ليوسف أن يمكنهم منه وأن يعوضوه بأحد منهم يكون رقيقا بدله. وتوسلوا لذلك: بأن أباه ما يزال حيا وهذا أصغر أولاده فرقته عليه وحنانه يتبعهما قوة أسفه الذي ربما يضر به، وهو مع ذلك هو شيخ، وتقدمه في السن يضاعف من رقة عواطفه، وثالثا هو كبير إما بمعنى أن شيخوخته في مراحلها المتأخرة فضعفه أشد، أو على معنى أنه كبير قومه، ومن شأن العلاقات الدولية أن تقع فيها مراعاة الكبراء مراعاة خاصة.

كما توسلوا له، بأنه حسبما شاهدوه من معاملته للناس ومن كمال خلقه، أنه من القوم المحسنين الذين هم أبعد ما يكون عن الشدة والصرامة الحديدية.

كان جواب يوسف حاسما: ابتدأه بأنه يتحصن بالله ويلتجئ إليه من أن يأخذ البريء بذنب المجرم، وأن يطلق السارق الذي وجد الصواع في حوزته، ويسترق من ثبتت براءته بعد التفتيش. إن ما يلتمسونه ظلم، وأنه ما كان من الظالمين.

81-–82 ، ارجعوا إلى أبيكم فقولوا...وإنا لصادقون.

يئسوا من التأثير على يوسف، وأيقنوا أنه لا فكاك لأخيهم من يده، وأنهم سيواجهون والدهم بالكارثة التي حصلت ؛ فانفردوا في مكان يتدبرون الأمر ويقلبون الوجوه في المرحلة القادمة. سجل القرآن ما قاله كبيرهم: ذكّرهم بالميثاق الغليظ المؤكد برقابة الله عليه الذي أخذه أبوهم عليهم، كما ذكرهم بأنهم آذوه أشد الإذاية في يوسف. وأضاف، لذا فإني قررت أن أبقى في مصر ولا أعود معكم، فإني استحي من مقابلة والدي في هذا الوضع الذي حرم فيه من ابنيه الصغيرين على شدة حبه لهما وعطفه عليهما، أو أن يتحقق فيَّ قضاء الله وحكمه مما هو مخبوء في قدره سبحانه. وإني راض بما يحكم به الله علي، فإنه سبحانه عادل لا يظلم، ولا يستطيع أحد أن ينقض حكمه.

ارجعوا وحدكم، واعرضوا عليه ما وقع عرضـــا أمينـــا، قولـــوا لـــه: يـــا أبانـــا إن ابنـــك سرق، وهذه الشهادة بسرقته مستندة إلى علمنـــا الـــذي شـــاهدناه مشـــاهدة لا ريـــب فيهـــا. وما كنا مطلعين على الغيب، حافظين لما سيقع عند ذهابنا بأخينا للميرة.

ثم لقنهم أخوهم هذا أن يقولوا لأبـــيهم : لتحقـــق ممـــا قلنـــاه لـــك، فاســـأل أهـــل القريـــة المصرية التي شاع فيها خبر ضياع السقاية ووجودها عنـــد بنيـــامين، فـــإن الخبـــر تناقلـــه العموم حتى أصبح معروفا عند الجميع. وأقرب مـــن ذلـــك اســـأل رفاقنـــا الـــذين جـــاءوا معنا من مصر وسمعوا وشهدوا ما أخبرناك به.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

بيان معاني الألفاظ :

سولت: زينت وسهلت.

صبر جميل: صبر لا شكوى معه إلى بشر، ولا ضجر من قضاء الله.

كظيم: يكتم حزنه في نفسه ولا ينفسه بالشكوى للناس.

تفتأ: تفتر .

حرضا: شدة المرض المقرب من الهلاك.

بثي: همي الشديد.

التحسس: شدة التطلب للتمكن من المعرفة.

روح : الرحمة وكشف الكرب.

بيان المعنى الإجمالي :

كان رد يعقوب على الرواية التي قدموها له حسبما أشار عليهم كبيرهم، أن قال: زيّنتْ لكـــم أنفسكم حرماني من ابني الذي أمنتكم عليه، فأمري هو الصبر الذي لا أشكو معه حزني لأحد ولا أيأس من رحمة الله. فإني أرجو أن يأتيني الله بأبنائي، إنـــه العلـــيم بحـــالي وأحـــوالهم، المصرف للأمور بحكمته فيردهم علي في الوقت الذي قدره وقضاه.

ثم انصرف عنهم قائلا: يا أسفى على يوسف، وأقـام علـى الحـزن يعتصـر قلبـه حتـى أثر في قواه فابيضت عيناه من ذلك، إنه يختزن في قلبه من الحزن أقساه.

استمر على ذلكم الوضع حتى خشي عليه أبنـاؤه، رجـوه أن يـرأف بنفسـه، وقـالوا لـه إنك تواصل تذكرك ليوسف حتى وصلت إلى هذه الحـال، وسيصـل بـك الأمـر إلـى أن تبلغ من الهزال ما به تنهد قواك، فتنقلب مريضـا لا تقـوى علـى شـيء وربمـا يصـل بك الأمر إلى الموت.

أجابهم: إني أشكو همي المقيم وحزني على ما ذهب مني إلـى ربـي، وإنـي لغنـي عـن نصحكم فإني أعلم من الله علما مستواكم بعيد عن إدراكه.

ثم إنه بعد مدة أشار إليهم إشارة مما استقر فـي يقينـه مـن الإلهامـات الإلهيـة، فطلـب منهم بكل حنان أن يسافروا إلى مصـر وأن يبـذلوا جهـدهم لتتبـع كـل المسـالك التـي تمكنهم من التعرف على وضع يوسـف وأخيـه وأن لا يكونـوا يائسـين مـن رحمـة الله في كشف الكرب كما هو مقتضى الإيمـان، فـإن اليـأس لا يلـف بحجابـه إلـى علـى قلوب القوم الكافرين.

بيان المعنى العام :

83-84، قال بل سولت لكم أنفسكم ....فهو كظيم.

رجعوا إلى أبيهم بعد أن استقر رأيهم فـي معالجـة المشـكلة عنـد أبـيهم علـى الـرأي الذي قدمه كبيرهم. وأعلموه بما تـم فـي سـفرتهم وأن ابنـه بنيـامين بقـي عبـدا عنـد عزيز مصر، وأن ابنه الأكبر عزم على البقاء فـي مصـر غريبـا لا يبرحهـا إلا أذنـت له، أو حدث ظهور قضاء من الله يخصه.

لقد ذهبت ثقة يعقوب فيما يقدمه له أولاده من روايات بعد الصورة التي قدموها له عن أكـل الذئب ليوسف، وقد بقي يجد في باطنه، بنوع من إحساس الملهمين، أن يوسف حـي. ولهـذا هو لم يصدقهم في هذه كما لم يصدقهم في المرة الماضية. فـواجههم بعـدم اطمئنانـه لمـا يقولونه؛ وقال لهم: لقد زينت لكم أنفسكم تغييب بنيامين عني، فأنا أتذرع بالصـبر الـذي لا أشكو فيه مصيبتي لأحد، ولا أعترض على قضاء الله. ورجائي فـي الألطـاف الإلهيـة أن تشملني فترد على أبنائي الثلاثة: يوسف وبنيامين والابن الأكبر. وأكد رجاءه بأنه متعلق بـالله الذي لا يخفى عليه حاله كما قال أحد الصالحين في ابتهالاته: علمـه بحـالي يغنينـي عـن سؤالي. وهو الحكيم الذي يرتب الأمور ترتيبا دقيقا.

ثم انصرف عنهم بعد هذه الكلمـات التـي تمثـل يقـين الأنبيـاء وأدبهـم فـي مواجهـة المشاكل التي تخصهم، وسعة رجائهم فيما عنـد الله. وقـام الحـزن فـي نفسـه يعتصـر

قلبه وأحاسيسه، ويجدد له ذكرى ولديه اللذين فقدهما، وخاصـــة يوسـف الـذي كـان فقـده أشد عليه لسببين: أحدهما أنه قدّم فقْدَهُ على أنه مات وأكلـه الـذئب، وإن كـان يشـك فـي هذه الرواية، وثانيهما أن يوسف ملأ عليه حياته لما جمـع الله فيـه مـن كمـالات خَلْقِيـة وخُلُقيّة، ولذا سجل القرآن ذكـره لأسـاه وأسـفه علـى فقـد يوسـف(يـا أسـفى علـى يوسف)، لتلك الاعتبارات لا على أنه غيـر حـزين علـى فقـده للآخـرين. كـان فقـدهم يتجدد في كل لحظة، وكان يختـزن أسـاه فـي نفسـه حتـى أثـر ذلـك فـي أعصـابه البصرية فابيضت عيناه. ويمكن حمل بيـاض عينيـه علـى العمـى: أي عمـي، ويمكـن أن يفهم على أنه ضعف بصره حتى تغير لونهمـا إلـى مـا يقـارب البيـاض. ونـوه الله بصبره وعدم شكواه فقال إن يعقوب كظيم لحزنه يتفاعـل فـي باطنـه وتتـأثر بـه قـواه الفكرية والعاطفية، ولا يظهره للناس.

85—87، قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف...إلا القوم الكافرون.

لزم يعقوب عزلته ومتابعة تفكيره فـي أبنائـه المفقـودين، ووهنـت قـواه وخشـي عليـه أولاده فقالوا له إشفاقا عليه: قسما بالله إنك لا تنقطع عـن تجديـد حادثـة فقـدك ليوسـف حتى يفضي بك حزنك المقيم هذا، إما إلـى المـرض الشـديد أو إلـى المـوت. أجـابهم: بأني متعلق بالله، أشكو إليه وحده لا إلـى غيـره، أشـكو إليـه بثـي أي همـي الشـديد، وتواصل تفكيري في أبنائي وحزني المقيم علـى مـا فـات عنـي مـنهم. وأشـار إلـيهم إشارة لطيفة بأن قربي مـن الله يفـتح علـي سـبحانه أحاسـيس تقصـر عقـولكم عـن إدراكها. ويبلغ ذلك أن يستقر في يقينـي علـم لا تعلمونـه ولا يمكـنكم الوصـول إليـه. مرّ زمان غير قليل على يعقوب وهو على هـذه الحـال مـن الانصـراف عـن النـاس، وما ابيضت عيناه من الحزن في أيام قليلة، وما بلغ ما بلـغ بأبنائـه مـن الإشـفاق عليـه إلا وقد طال انعزاله وطغيان الهم والحزن عليه.

ثم كاشفهم ببعض ما هو حاصل في نفسه: من أن يوسف لـم يمـت وأنـه سـيعود إليـه، فقال لهم: يا بني، نداء فيه شفقة وحنـان يحرضـهم علـى تنفيـذه، اذهبـوا إلـى مصـر وابذلوا جهدكم في تتبع كـل مـا يمكـن أن يوصـلكم لمعرفـة وضـع يوسـف وأخيـه، تحسسوا، كأن المتتبع يعمل على أن يحس بكل خصـائص مـا يلمسـه، فيهتـدي مـثلا إذا انغرست شوكة صغيرة إلى مكانهـا. وربـط هـذا التوجيـه بـأن يكونـوا واثقـين مـن النجاح، وهذا دواء نفسي، ذلك أن الأمل يواصل طريقـه ويتـابع بحثـه، بخـلاف اليـائس من المنطلق أن يفتر عن المتابعـة. فأرشـدهم إلـى أن يكونـوا متفـائلين غيـر يائسـين، فإن من حرم الإيمان هو الذي تنسـد الأبـواب أمـام نـاظره، ولا يتوقـع كشـف كربـه

فيحرم الأمل ويستولي عليه اليأس. إن المؤمن ينتظر الفرج من الله في أشد الظروف وأبلغها قسوة. وإنه وإن طال أمد غياب يوسف، فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيأ لذلك الأسباب فتنفرج.

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

مسنا الضر : أصابنا الضر.

مزجاة : قليلة غير مرغوب فيها.

الإيثار : التفضيل بالعطاء .

الخاطئ : فاعل الخطيئة عمدا، والمخطئ من قصد الصواب فأخطأ.

التثريب : التوبيخ والتقريع.

بيان المعنى الإجمالي :

توجه الإخوة إلى مصر ليبحثوا عن أخبار يوسف وأخيه، وليجلبوا الطعام وقد قسا الوضع بالجدب المتواصل .فلما دخلوا عليه بادروا بمخاطبته خطابا يليق بمركزه: يا أيها العزيز، وبسطوا شكاتهم من الخصاصة ومن وضع أبيهم، وأنهم قد قدموا بسلعة، يعلمون أنها غير مرغوب فيها يدفعها جالبها دفعا، ثمنا للميرة التي يريدون الحصول عليها، كان ذلك تقدمة لطلبهم أن يوفي لهم الكيل كما لو كانت السلعة المقدمة منهم للشراء جيدة. ورجوه أن يتفضل عليهم ويتصدق فإن الله يجزي المتصدقين.

رق يوسف لحالهم فتوجه إليهم مذكرا وموبخا: أنتم تذكرون ما صنعتم بيوسف في الوقت الذي كنتم فيه جاهلين.

أيقظهم كلامه فسألوه أنت حقًا يوسف ؟
فأجابهم أنا يوسف وهذا أخي، إنه مـن يتـق الله ويصـبر علـى الشـدائد فإنـه محسـن. والله يمكن المحسنين من أجورهم
قالوا: نقسم بالله إن الله ميزك علينا، وإننـا كنـا خـاطئين. رحمهـم يوسـف وقـال لهـم بدون لوم ولا توبيخ: يغفر الله لكم اليوم لمّا تبتم فإنه أرحم الراحمين.
ثم ناولهم قميصه وقال لهم خذوا قميصي هذا، وضَـعُوهُ علـى وجـه أبـي يعـود صـفاء بصره، ويأتيني معافى، واحملوا أهلكم جميعا إلى مصر .

بيان المعنى العام :

88-فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز....يجزي المتصدقين.

قرر الإخوة أن يسافروا إلى مصر لغرضين:
أن ينفذوا ما طلبه منهم أبوهم من البحث الدقيق عن كـل مسـلك يمكـن أن يوصـل إلـى معرفة وضع يوسف ﷺ.
وأن يأتوا بالميرة لأهلهم وقد توالت سـنوات الجـدب وتفـاقم الأمـر. ويبـدو أن الفتـرة بين بقاء بنيامين وكبير الإخوة بمصر، وبين سـفرتهم هـذه، قـد طالـت بعـض الشـيء كما يستفاد من وصف الحالة التي كان عليها يعقوب ﷺ.
بمجرد ما وصلوا إلى مصر استأذنوا للدخول على يوسـف فـأذن لهـم، وبـادروه برفـع شكواهم من الوضع الذي هم عليه فنـادوه بقـولهم: يـا أيهـا العزيـز، وتلقيبـه بـالعزيز خرجه كثير من المفسرين على أن عزيز مصر الذي اشـترى يوسـف قـد مـات وتـولى يوسف مهامه، وذكروا روايات كثيرة متصـلة بـذلك، والـذي يتـرجح عنـدي أن كلمـة العزيز عرف في مخاطبة أصحاب المسؤوليات الكبـرى فـي الدولـة فـي ذلـك العهـد. كما يقال اليوم : معالي، وصاحب المعالي، ودولة الرئيس، ونحو ذلك.
عرضوا عليه الحالة التي وصلوا إليها بتوالي سني الجـدب، وقـالوا: قـد أصـابنا الضـر المسغبة وأمر أخيهم، وبلغت منا الخصاصة مبلغهـا، وجئنـا طـالبين الميـرة، وبضـاعتنا التي نقدمها مزجاة :قليلة وغيـر مرغـوب فيهـا، يعنـون أن قيمتهـا ضـعيفة. فأعطنـا الطعام وافيا غير ناقص، وزدنا من فضلك ما تتصدق بـه علينـا، وأوكلـوا جـزاءه عمـا يفعله معهم من جميل إلى الله الكريم الذي يجزي المتصدقين.

ملحظ هام :

التزم التعبير عن الثمن المقدم: بالبضاعة ولـم يـذكر أنـه نقـود، وقـال لفتيانـه اجعلـوا <u>بضاعتهم</u> في رحالهم آية62- ولما فتحـوا متـاعهم وجـدوا<u>بضـاعتهم</u> ردت إلـيهم آيـة

65- قالوا يا أبانا ما نبغي هذه **بضاعتنا** ردت إلينا آية 65- وجئنا **ببضاعة** مزجاة اية 88- فأينما ذكر الثمن عبر عنه ببضاعة. وفي هذه الدقة التعبيرية إعجاز قرآني. ذلك أن التعامل بالنقود حصل في القرن الثامن قبل الميلاد، وكان الناس يتعاملون قبل ذلك بتبادل السلع حسبما حققه الذين كتبوا في تاريخ النقود. ويوسف ﷺ عاش في أواخر القرن الثامن عشر قبل الميلاد والقرن السابع عشر. وهذا، والله أعلم، سر الالتزام في التعبير عن الثمن المقدم بالبضاعة التي هي السلعة ولم يكن ما يقدم ثمنا نقدا وإنما كان سلعة(بضاعة)

نعم قد جاء في أول السورة أن الذين التقطوا يوسف من البئر أخفوه على أنه بضاعة، ثم باعوه بثمن بخس دراهم معدودة، فوقع التعبير بالدراهم، لكن المتأمل يجد أن المقصود هو لفت النظر إلى قلة الثمن الذي قبضوه، وهذه أفضل طريقة لإبلاغ المعنى المقصود للتالين لكتاب الله في وقت التنزيل، فعبر عن قيمة المقبوض بالدراهم لا بالدنانير وأن هذه الدراهم قليلة لا كثيرة، فهو تصوير لتفاهة ما باعوه به وسرعة قيامهم بذلك حتى يقبضوا ثمنه قبل أن يفتضح أمرهم بقدوم من يعرفه فيأخذه من أيديهم .فالكلام على أنه باعوه بشيء قيمته ضعيفة، ولو عين ذلك الشيء لكان غير واضح الدلالة على تفاهة القيمة كما يدل عليه: بدراهم قليلة معدودة غير موزونة في وقت التنزيل. نظير ذلك أن تقول لشخص من غير المملكة العربية السعودية: البنزين رخيص في المملكة ثمن القالون يساوي بعض المليمات. فأنت لا تقصد أن العملة السعودية تتجزأ إلى المليمات، ولكن قصدك أن الثمن رخيص.

89-93، قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ..بأهلكم أجمعين.

كان رد يوسف على عرضهم وبيان وضعهم المثير للشفقة، أن تحول إلى العطف عليهم وتفريج كربهم.

ابتدأ إجابته بقوله: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه، وهل، تفيد معنى، قد، مضافا إليها الاستفهام الإنكاري. فيكون المعنى قد علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه مما أنكره عليكم .فقد حسدتم يوسف، وألقيتموه في الجب وحرمتموه من والده ومن أهله، ولم ترفقوا ببنيامين ولم ترحموا صغره، في الوقت الذي كنتم فيه جاهلين، أي كنتم عاصين أو كنتم شبابا لم تبلغوا سن النضج وعمق التجربة.

أيقظهم كلام يوسف، ففتح أعينهم وتأملوا في ملامحه، فصاحوا: أئنك لأنت يوسف؟ كانت المفاجأة سريعة وقوية، بين وضع يوسف في نظرهم أول الأمر، وهو الذي

يرجون منه أن يعطف عليهم، وأن يرحمهم ويتصدق عليهم، وبين ما يفيده تذكيرهم بفعالهم مع الإنكار عليهم مما لا يعرفه إلا يوسف، كانت النقلة كبيرة جدا فقالوا كأنهم يبغون التثبت، هل أنت يوسف؟ وأسرع بالإجابة فقال: أنا يوسف، وهذا أخي. وتبدد الغموض. فوصل يوسف كلامه بقوله قد من الله علينا، أي توالت علينا الألطاف من فضله، ثم أبرز العبرة في محنته التي تشمل إخوته وتشمل البشرية كلها فقال: إن الذي يتقي ربه فيتغلب على دواعي الشهوة، ويخلص له في مناجاته ودعائه وعبادته، ويقرن إلى ذلك الصبر عند الابتلاء، إن الله لا يهمله، إنه بإحسانه في اختيار المواقف المعبرة عن عميق الإيمان وصادق التوكل ينضم إلى موكب المحسنين الذين تكفل الله بإيصالهم الثواب الذي كتبه لهم.

قال إخوة يوسف بعد أن ارتسمت صورتان شتان ما بينهما، صورتهم في خصاصتهم وشعورهم بالذنب والخطيئة، وصورة يوسف وهو المتحكم في أقوات مصر وما حولها مع السؤدد والعزة، قالوا: قسما بالله، لقد ميزك الله علينا فهداك إلى معالي الأمور وأنعم عليك فجازاك، فهنيئا لك ما أغدق عليك من تفضيله، نعترف بأننا كنا خاطئين في كل ما فعلناه معك ومع أخيك، وما سببناه لوالدنا من الأسى والحزن.

تحققت توبتهم وظهر ندمهم على ما صنعوا، ولا شك أن مظهر الانكسار أضاف على وضعهم الذي عبروا عنه في بداية اللقاء تراكمات تنادي من وراء قسمات وجوههم بالأسى الذي بلغ منهم مبلغه. وأخلاق النبوة تسمو عن الإمعان في الإذلال، فخاطبهم يوسف ﷺ رافعا معنوياتهم بقوله: لا لوم عليكم ولا توبيخ ولا تقريع. اليوم وقد تطهرت نفوسكم داخليا بالتوبة والإنابة يغفر الله لكم، فالله متصف بالمغفرة وهو التواب مما يبشر التائبين بقبول توبتهم. والله أرحم الراحمين فبرحمته يتعلق البشر كلهم وتنالهم رحمته ولا ييأس مؤمن من أن تشمله.

ذكر ابن عطية والرازي وابن حجر في الإصابة: أن أبا سفيان بن الحارث وعبد الله بن أمية لما وردا مهاجرين على رسول الله ﷺ أعرض عنهما لقبح فعلهما معه قبل .فشق ذلك عليهما وأتيا أبا بكر ﷺ فكلفاه الشفاعة، فأبى، وأتيا عمر رضي الله عنه فكذلك، فذهب أبو سفيان بن الحارث إلى ابن عمه علي رضي الله عنه، وذهب عبد الله إلى أخته أم سلمة، فقال علي ﷺ: الرأي أن تلقيا رسول الله ﷺ في الحفل فتصيحان به: (تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) فإنه لا يرضى أن يكون دون أحد من الأنبياء، فلابد لذلك أن يقول: (لا تثريب عليكما) ففعلا ذلك، فقال لهما رسول الله ﷺ: (لا تثريب عليكما) الآية.

بعد أن طمأن إخوته بصفحه عنهم، وكشف لهــم أن تعلقهــم بفضــل الله ومغفرتــه يــذهب عنهم أوزارهم، حضر وقت العناية بذلكم الشيخ الحــزين، فنــاول قميصـــه لإخوتــه وقــال لهم: خذوا قميصي وألقوه على وجه أبي، وكشف لهم عــن الســر: أنــه بمجــرد مــا تعــم رائحة يوسف وجه أبيه تنشرح ملكاته ويذهب مــا غشــى بصــره مــن ضــعف. وأدمــج في ذلك أنه يأتيه إلى مصر سليم البصر. وبرًا بأهلــه ووصـــلا لرابطــة القربـــى أمـــرهم أن يصحبوا أهلهم جميعا ليقاسموه النعم التي أنعم الله بها عليه.

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿94﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿95﴾ فَلَمَّا أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿96﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿97﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿98﴾

بيان معاني الألفاظ :

الريح : الرائحة.

تفندوني: تنسبونني إلى ضعف العقل.

الضلال : الخطأ.

القديم: الذي طالت مدته معك.

البشير : المبشر بإبلاغ الخبر السار.

ارتد: رجع.

بيان المعنى الإجمالي :

أخذت القافلة طريقها إلى منازلهم بفلسطين. وكــان يعقــوب جالســا صــابرا مــع بعــض قرابته، وإذا به يخبرهم أنه يحس برائحة يوسف قريبــة منــه، وهــذا أمــر واقــع إلا أن تنسبوني للخرف. فأقسموا أنه باق علـــى تصــوراته الخاطئـــة التـــي لازمتـــه منــذ زمــن طويل.

و وصلت القافلة وتقدم البشير حاملا قميص يوسف وغطى به وجه يعقوب فرجع له بصـــره وقال لهم مذكرا: ألم أقل لكم إنه يحصل في يقيني من إلهامات ربي ما لا تعلمون.

ندم إخوة يوسف على ما صنعوه، وطلبوا من أبـــيهم النبـــي المقــرب أن يتوجــه إلـــى الله ليغفر لهم ذنوبهم، فأجابهم أنه سيواصل لهم الاستغفار، وأمّلَهُـــمْ فـــي عفـــو الله الـــذي هـــو وحده الغفور للذنوب الرحيم بعباده.

بيان المعنى العام:

94←98، ولما فصلت العير قال أبوهم ....إنه هو الغفور الرحيم.

أخذ إخوة يوسف القميص وارتحلوا به إلى منازلهم. ولما ابتعدت القافلة عن منطلقها، وجد يعقوب أن رائحة يوسف تهب عليه وتملأ شمه، فأخبر الحاضرين الذين كانوا حوله قائلا: إني أجد رائحة يوسف لولا أن تنسبوني إلى الفند وهو الخرف. فأقسموا له أنه ما يزال على الخطأ الذي لازمه منذ زمن طويل في اعتقاده أن يوسف لم يمت وأنه سيجتمع به.

وصلت القافلة، وتقدم المبشر بالخبر الذي كان ثوب يوسف معه، فغطى به وجه يعقوب. وإذا بالخلل الذي أصاب بصره يزول، فأصبحت عيناه تنقلان له ما حوله، كرامة من الله لنبيه الصابر المحتسب. وعندها ذكّر الحضور بما كان أخبرهم به من قبل، مما استقر في روحه وعقله بإلهام إلهي، بلغ به مبلغ اليقين: إني أعلم من الواردات عليّ مباشرة من الله ما لا تعلمون.

كرامات توالت، وعجائب من صنع الله تتباعت. وجد إخوة يوسف أنهم أخطأوا خطأ كبيرا، واستبانت لهم الحقيقة، وندموا على ما فرط منهم، فطلبوا من أبيهم النبي الصالح أن يطلب لهم من الله أن يغفر لهم التجاوزات التي وقعوا فيها، وأن يمحو ذنوبهم .فأجابهم :أنه سيفعل ذلك. ولا حظ المتتبعون للتعبير القرآني أنه لم يستجب لهم بطلب مغفرة ذنوبهم في الحال، ولكنه سيفعل ذلك في المستقبل على ما تفيده السين الداخلة على أستغفل. وخرّجوا المعنى على أن يلازم الاستغفار لهم حاضرا ومستقبلا، لعظم الفساد الذي ترتب على صنيعهم. وبسط لهم الأمل بأن الله هو الغفور الرحيم. ويترجح عندي: أنه لا يقدم على الاستغفار إلا بعد أن يحصل له الإذن من ربه في ذلك.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (100) ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (101)

بيان معاني الألفاظ :

آوى : ضم مظهرا الحفاوة.

آمنين : جمع أمن وهي الحالـة التـي يكـون فيهـا الإنسـان مطمئنـا لا يخشـى مـالا يلائمه.

العرش : السرير المرتفع الذي يجلس عليه

السجود : وضع الجبهة على الأرض قصد التعظيم.

خر: تصوب نحو الأرض.

أحسن بي : أحسن إلي.

البدو : ضد الحضر .

النزغ : إدخال الفساد في النفس.

فاطر : خالق.

الولي : القائم بأمري الكفيل بنصرتي ورحمتي.

ألحقني : اجعلني مدركا من سبقني.

الصالحون : المتصفون بالصلاح ويعني الأنبياء.

بيان المعنى الإجمالي :

ارتحل يعقوب من الشام إلـى مصـر ، ولمـا دخلـوا علـى يوسـف قـرب إليـه أبويـه ورفعهما على العرش الذي يجلس عليه. وحياه الجمـع بالتحيـة التـي كانـت سـائدة فـي ذلك العصر بالسجود له. وقال لأبيه مذكرا: تحقّق تأويـل الرؤيـا التـي كنـت عرضـتها عليك في صباي. وأردف لقد أحسـن الله إلـي وأكرمنـي برعايتـه، فقـد أخرجنـي مـن ظلمات السجن، وأكرمني بجمع شملي بكم فـأتى بكـم مـن البـدو، ويسـر لكـم الحيـاة الحضرية، وذهب ما أفسده الشيطان فـي تفكيـر إخـوتي. إن ربـي ييسـر ألطافـه لمـن يشاء من عبيده، إنه هو العليم الذي لا يفوته ما يحدث فـي الكـون، وهـو الحكـيم الـذي يتصرف في الحوادث تصرفا متصفا بالحكمة البالغة.

ثم توجه مبتهلا إلى ربه فقال: رب أكرمتني فيسرت لي مـن الملـك مـا أقـيم بـه أمـر الناس على العدل الذي يرضيك، وعلمتني ما أسـتطيع بـه تأويـل الأحـلام، وأنفـذ مـن الظواهر إلى ما وراءها من الحقـائق التـي تخفـى علـى النـاس، يـا خـالق السـموات والأرض ثبتني على الإسلام إلى أن تتوفاني عليه، وألحقني بالصالحين.

بيان المعنى العام :

99 -100 : فلما دخلوا على يوسف ... إنه هو العليم الحكيم.

تجهز يعقوب للرحيل وسار إلى مصر حتى بلغها. ولـم يُعْـنَ القـرآن بتفاصـيل السـفرة، لأنه لا يتعلق بها غرض في القصة.

لما دخل يعقوب وأهله على يوسـف قـرّب إليـه أبويـه مكرمـا لهمـا ورفعهمـا علـى السرير الذي كان يجلس عليـه. واختلـف الـرواة فـي زوجـة يعقـوب هـل كانـت أم يوسف، أو كانت خالته التي تزوجها يعقـوب بعـد وفـاة أمـه ؟ فعلـى الروايـة الأولـى يكون قوله تعالى: أبويه تغليبا لجانب الأبوة علـى الأمومـة فـي التثنيـة، وعلـى الثـاني يكون تغليبا لعلاقة الأبوة على علاقة الخالة.

وعندما ارتفعا إلى العرش حيّوْهُ مع بقية الأهـل التحيـة التـي كـان يحيـى بهـا الملـوك وكبار رجال الدولة، فسـجدوا لــه بوضــع جبـاههم علـى الأرض. والتحيـة بالسـجود حرمها الإسلام لما ارتفع بالكرامة الإنسانية إلى المستوى الـذي وحّـد فيـه بـين البشـر في القيمة الإنسانية، فاختص الله سبحانه بالسجود دون غيره.

وقال لهم: ادخلوا أرض مصـر آمنـين إن شـاء الله. هـو ترحيـب بهـم فـي مـوطنهم الجديد الذي سيقيمون فيه، موفورٌ أمـنُهم مـن جميـع النـواحي، بمـا تطيـب لهـم بـه الإقامة، ولما كان دوام ذلك في المسـتقبل مرتبطـا بفضـل الله وعنايتـه، وتأدبـا مـع الله وتبركا الْحق بقوله ذلك (إن شاء الله).

ثم ذكر أباه مستحضرا الظرف الذي قص فيه عليه رؤياه فـي صـباه، رابطـا بـين مـا تم مناما وما تحقق واقعا. نعم جعل ربي الرؤيا رؤيـا حقًـا. كاشـف بهـا سـبحانه الـروح بالحوادث المغيبة، فأتت أقرب ما يكون إلـى الصـورة الواقعيـة بعـد أزمـان، وليسـت أضغاث أحلام. ثم ذكر أهم منن الله عليه التي أحسن بها إليه، وعدد منها:

1) إخراجه من السجن بما يصحبه مـن عـذاب نفسـي يحـرم السـجين مـن علاقاتـه الاجتماعية ويقهر إرادته؛ مع إظهار براءته ونصاعة عرضه.

2) اجتماع شمل الأهل، مع الانتقـال مـن حيـاة البـداوة القاسـية إلـى خفـض حيـاة الحضارة الناعمة.

3) رجوع اللحمة بينه وبين إخوته بعد إساءتهم إليه. وخفف مسؤوليتهم بنسبة الإفسـاد إلـى الشيطان. وتكرم فلم يفصل ما كادوا به إليه، وذلك من سمو أخلاق النبوة، ونظيره مـا جـاء في قوله تعالى: (فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض)[1] ليكون ذلك نبراسا يسير عليه المهتدون بأخلاق النبوة السامية.

---

[1] سورة التحريم آية 3

وختم كلامه بأن الله يقدر ما يلائم لمن يشاء ويبعد عنــه مــا يسـبب لــه الحــرج، وقــد فعل بي كل ذلك فضلا منه ونعمة. إنه العليم الذي لا تخفــى عليــه خافيــة، فكلمــا وقعــت في ضيق وكرب أسعفني، وأزال كربتي، وحول ضيقي إلــى فــرج .وهــو ربــي الحكـيم الذي يجري الأمور حسب حكمته العالية.

101 - رب قد آتيتني من الملك ... توفني مسلما وألحقني بالصالحين.

ألحق تعداد نعم الله عليه وعلــى أهلــه بالابتهــال إلــى عزتــه بهــذه المناجــاة الرفيعــة الصادرة من توقد الشعور المتصل بالله فقال: يا رب قــد تفضــلت وأنعمــت فيســرت لــي ما يسرته لي من الملك، ومن أمر التصرف في شــؤون النــاس وإقــامتهم علــى العــدل. وأنعمت علي بالعلم الذي استطعت به تجاوز القريب إلــى مــا وراءه فــي الأحــلام وفــي النظر للأحداث. سبحانك ربي أنــت الخــالق للســماوات والأرض وأنــت القــائم بــأمري الكفيل بنصرتي ورحمتي. أسألك ربي أن تكمل علي نعمــك بــأن تثبتنــي علــى الإســلام وتتوفاني عليه، وأن تلحقني بالصالحين من أنبيائك المكرمين، أي في جنات النعيم.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أنباء الغيب : أخبار ما غاب عن الناس.

الحرص : شدة الطلب.

بيان المعنى الإجمالي :

تمت القصة العجيبة عن يوسف بتفاصيلها وعبرها، وهي من الأخبار المغيبة التي لم يعلمهــا رسول الله إلا بفضل الوحي الذي جاءه من ربه. ولفت النظر إلى الجزئيات التي وردت فــي القصة وهي من حديث النفس أو من التآمر الخفي والمكر التي لا يمكن أن يطلــع عليهــا إلا الله. ورغم ما في هذه القصة من الدلائل على صدقك فإن أكثر النــاس وإن حرصــت علــى إيمانهم وبذلت غاية جهدك لا يؤمنون. مع أن ما تبذله من جهــود، وتواصــله مــن ســعي لهدايتهم لا تطلب منهم أجرا على ذلك. إذ قد انحصرت الغاية من القــرآن أن يكــون ذكــرا يوقظ العالمين جميعا إلى طريق الرشد والخير.

بيان المعنى العام :

102 ـــ104: ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ...إلا ذكر للعالمين.

بعد أن أتم القرآن القصة بما تضمنته من أحوال عجيبة وما ورد في تفاصيلها من حقائق غطاها الزمن البعيد. وبما نفذت فيه إلى أغوار النفوس وإعلانها ما دبّرته، وتصارع الشر والخير. والعاقبة للخير الذي ينتصر في النهاية فينهزم الشر. كل ذلك يجمعه القرآن ويشير إليه باعتبار أنه حاضر في قلب كل من تتبع مراحل القصة. كل ذلك هو من أخبار الغيب الذي ما كنت تعلمه أنت ولا قومك، علمته عن طريق الوحي الذي نفتح لك به الآفاق الفسيحة. وتجسيما لهذا المعنى يخاطب الله نبيه فيقول له: إنك ما كنت حاضرا قريبا منهم إذ عزموا في خفاء، ودبروا وقرروا ما رجحوا، ونفذوا ما أرادوا، سواء في ذلك إخوة يوسف في جميع مراحل مراودة أبيهم إلى إلقائه في الجب، والسيارة الذين أخفوه حتى باعوه، وشأن امرأة العزيز والنسوة، وسبق إخوة يوسف بإعلانهم عن حكم السارق إلى آخر تلك الجولات في أعماق النفس البشرية. إن في الإخبار عن هذه المغيبات التي طواها الزمن البعيد بكامل الدقة ما يقوم دليلا على كون القرآن كتابا منزلا من عند الله.

إن ذلك من شأنه أن يؤثر في العقول تأثيرا يجعلها مقدِّرة لصدق هذا الوحي، وأنه من عند الله، إذ أنه ما يمكن لمحمد أن يخبر بهذه الأخبار بتلكم الدقة، مع أنه ما كان العرب يعلمون شيئا منها. ولكن أكثر الناس لا يؤمنون رغم حرصك على إيمانهم ،وتقديم الأدلة المتتابعة والمحاولات المتتالية وصبرك عليهم. كما يمكن أن تدل الآية على أن أكثر الناس، رغم حرصك على تبليغ ما جاءك من وحي ربك، يرفضون التأمل في الحقائق التي عرضتها عليهم، فهم لذلك غير مؤمنين .

إنهم لا عذر لهم في تصميمهم على الكفر، فأنت تقدم لهم القرآن حبا في إنقاذهم، وليس إيمانهم به أجرا على صنيعك. إن القرآن هو ذكر للعالمين فقط وما كان ليكون أجره إيمانهم.

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الآية : العلامة الدالة على توحيد الله.

يمرون عليها : يرونها.
غاشية : من الغشي بمعنى الإحاطة من كل جانب.
بغتة : فجأة.
البصيرة : الحجة الواضحة.

بيان المعنى الإجمالي :

إن الأدلة المثبتة لوحدانية الله منبثة في الأكوان بدون حساب، تجدها في السماوات وفي الأرض. ولكن كثيرا من الناس رغم أنهم يشاهدونها لا يتأثرون بدلالاتها كأنهم معرضون عنها. ثم إن أكثر الناس يدعون أنهم موحدون وهم في الحقيقة مشركون، فالعرب يقولون إن الله خالق الأكوان، ويؤمنون بآلهة تكون وسيطة بينهم وبينه، والنصارى تقوم عقيدتهم على التثليث، وكثير من فرق اليهود هم على شرك. إن أمرهم لعجيب، كأنهم آمنون من أن يسلط الله عليهم عذابا يحيط بهم لا يجدون منه مفرا. أو تقوم عليهم الساعة بغتة فجأة دون أن يشعروا بقدومها فلا يكون لهم وقت يتوبون فيه.

وجماع القول، قل لهم: إن مهمتي هي الدعوة إلى الله معتمدا على الحجج البينة، ومنزها له عن كل نقص، وليس بيني وبين المشركين أي صلة، والدعوة إلى الدين هي مهمتي التي اسعى لترسيخها في قلوب المؤمنين بي.

بيان المعنى العام :

105 –107، وكأين من آية ....وهم لا يشعرون.

الكون كله شواهد ناطقة بأن خالقها واحد أحد؛ فسواء أنظرت في السماء وما عمرت به من كواكب منتظمة في سيرها وفي مكوناتها، وفي الترتيب العجيب في علاقاتها، أم نظرت في الأرض وما عليها من أجناس وأنواع مختلفة، من البشر والحيوان والنبات والجماد، وفيما اختص به كل فرد من خصائص تميزه عن غيره وتجمعه إلى نوعه وجنسه في آن واحد، إنها آيات وعلامات تنادي بأن الذي سير كل هذه المخلوقات بقوانين ثابتة على ميزان واحد في الأجرام السماوية العظمى، وفي الذرة الضئيلة. إن ذلك ينادي الإنسان العاقل ليشهد بأن خالقها ومسيرها هو الله الكامل الكمال المطلق. ولكن كثيرا من الناس يشاهدون هذا التنظيم المحكم دون أن يتأملوا فيه، هم معرضون عنه لا يلتفتون إليه. وحتى الذين يدعون أنهم مؤمنون بالله فإيمانهم غير سليم من لوثة الشرك، سواء في ذلك العرب الذين يقولون إن الله هو الخالق، ثم يضيفون إليه آلهتهم مدعين أن لها حظا من الألوهية. أو النصارى بإيمانهم بالتثليث .

إن من عجيب الأمر أن هذه الأدلة التي مـــن شـــأنها أن تحـــرك العقـــول فتـــذكر الإنســـان بضعفه الشديد أمام قوة الخالق، ليحذر بطـــش الله، يشـــاهدها كثيـــر مـــن النـــاس، دون أن تحرك فيهم المهابة والخوف من الله، كـــأنهم آمنـــون مـــن أن يســـلط علـــيهم عـــذابا قويـــا يحيط بهم من كل جانب لا يجدون منه ملجأ ولا مفـــرا، أو تقـــوم علـــيهم ســـاعة القيامـــة وهم غافلون فلا يجدون وقتا للتوبة والإنابة.

108- قل هذه سبيلي...وما أنا من المشركين.

قل لهم يا محمد: هذا الذي بلغتكم وشرحته لكم وأقمت عليـــه الحجـــج، هـــو ســـبيلي الـــذي ينتهي بي إلى رضوان ربي ووفاتي بما حُمّلتُهُ. ثـــم وضـــح ســـبيله: أنـــه يـــدعو إلـــى الله متمكنا من الحجج التي تنفي عن هـــذا الـــدين كـــل شـــائبة شـــك أو دخيلـــة شـــرك، مـــع التنزيه الكامل لله معلنا أنه لا صـــلة بينـــه وبـــين المشـــركين. فمُهمتُـــه الأولـــى ﷺ هـــي الدعوة إلى الله، وكذلك هي مهمة المـــؤمنين بـــه، وقـــد فـــرض علـــى الصـــحابة فـــرض عيْن دعوة الناس للإسلام، ثم أصبح بعد ذلك خاصـــا بالفرقـــة التـــي تفقهـــت فـــي الـــدين قال تعالى: فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهـــوا فـــي الـــدين ولينـــذروا قـــومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون [1].

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

استيأس الرسل : يئسوا يأسا قويا.

بأسنا : عذابنا .

القوم المجرمون : المكذبون للرسل.

أولو الألباب : أصحاب العقول المستقيمة.

---

[1] سورة التوبة آية 122

الذي بين يديه : الكتب الإلهية السابقة .

التفصيل: التبيين.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه سنة الله في الهداية. كل الذين أرسلهم الله على مر التاريخ، هم رجال من أهل المجامع السكنية عاشوا مع أقوامهم قبل أن يوحى إليهم ثم أوحي إليهم. وأن المرسل إليهم صمموا على الكفر فبقيت آثارهم دالة على ما انتهوا إليه. ألم يسافروا في أنحاء الأرض ليشاهدوا تلك الآثار ناطقة بمآلهم. وهو ما يؤكد أن ثواب الآخرة خير من الدنيا، مالكم لا تنظرون نظر من له عقل فيحمي نفسه من المآل الخاسر ؟

لقد واصل أقوامهم تكذيبهم رغم حرصهم على هدايتهم حتى بلغ الأمر بالرسل أن يئسوا من اهتدائهم. وحتى ظنوا أن الكافرين كذبوهم تكذيبا لا رجعة فيه، عندما يبلغ الأمر هذا الحد يأتي نصر الله لرسله، فينجي الله الصالحين المؤمنين، ولا يرد نقمة الله على القوم الكافرين أي راد.

إن في قصص القرآن في سورة يوسف وغيرها ما يثير الذهن الذكي ليتخذ من وقائع القصص عبرا يتجاوز بها الواقع إلى تبين الحلول لما يأتي به المستقبل. إنها قصص مستخلصة من الواقع لا من اختراع الخيال. ويمثل القرآن خيطا واصلا بالكتب السابقة فيصدقها. وتفصل القصص من أمور العقيدة والسلوك وصنع الله في الحوادث ما يهتدي به التالي، فكان بذلك رحمة للمؤمنين يهديهم إلى الصراط المستقيم

بيان المعنى العام :

109- وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا...أفلا تعقلون.

تضمنت الآيات السابقة إصرار المشركين على تكذيب الرسول ﷺ رغم توفر الآيات المصدقة والحرص الشديد على إظهار مقومات الإسلام. والتعلّة التي يبررون بها رفضهم أنك رجل مثلهم. ففند القرآن هذا التشغيب بالرجوع إلى سنة الله في بعث الرسل الذين حملوا وحيه للبشرية. فما أرسلنا من أول أمر الإرسال إلا رجالا مثلك اخترناهم فأوحينا إليهم، فكذبهم أقوامهم ورفضوا الاهتداء بما جاءوا به، فسلط عليهم عقابه، وما تزال آثار تدميرهم باقية .كان أولئك الرسل معروفين في المجتمعات التي بعثوا فيها. ثم توجه السؤال للمكذبين، مالهم يقابلونك بالتكذيب ويتعللون بما قدمناه؟ ألم يسيروا في الأرض فتقوم لهم شواهد من آثار الذين مضوا في الحياة قبلهم. مما يشير إلى أن عاقبة المكذبين برسالتك سيكون نظير ما آل إليه أمر المكذبين للرسل من قبلك.

ثم بشرت الآية الرسول ﷺ ومن آمن به، بأن ما أعد من الكرامة يوم القيامة لمن لزم التقوى مستحضرا في مختلف ظروف حياته صلته بربه مقبلا على الطاعة ومبتعدا عن المعاصي، وذلك خير من الدنيا وما فيها. إن هذه الحقيقة ينساق إليها العقل بطبيعته. فمالكم منحرفون عن التقوى، أليس لكم عقل تنظرون به فيهديكم!.

110- حتى إذا استيأس الرسل وظنوا...بأسنا عن القوم المجرمين.

وصفت هذه الآية المآل الذي انتهى إليه أمر الإصرار على العناد، بلغ الأمر أن الرسل رغم حرصهم وطول نفسهم في الدعوة، أن يئسوا من إيمان قومهم، إذ ما من باب من أبواب التأثير إلا سلكوه بصبر كبير وذكاء في التأتي، وهذا الاستمرار جعل أتباع الرسل يظنون أن رسلهم قد كذبهم المعاندون تكذيبا لا رجعة فيه. في هذا الظرف الحرج يسعف الله رسله بنصره، وينجي من يشاء إنجاءه من الذين ثبتوا على الإيمان ويسلط عقابه على المعاندين على القوم الكافرين.

111-لقد كان في قصصهم عبرة ....ورحمة لقوم يؤمنون.

أكملت هذه الآية السورة، فكأن هذه الخاتمة تنظر إلى الوحدة التي عرضتها منوهة بما جاء فيها من عميق الدلالات، ومن حسن السبك، ومن الصدق في التعبير عن الواقع، وبما أيقظته في عقول التالين ومشاعرهم من الألطاف الإلهية، ومن تغلب الخير على الشر، مع بناء كل ذلك على الواقع لا على الخيال المجنح. فقد كانت قصة يوسف مع نظائرها في القرآن مشحونة بالعبر، الذي إذا تأملها المتأمل صاحب العقل المستقيم، فتحت له أبوابا، يتجاوز بها الوقائع السابقة إلى نظيرتها التي يمكن أن تحدث في الوجود؛ فيجد صنع الله في تسيير الكون محرّضا له ومطمئنا على أن سلوك مسلك الاستقامة والرشد حسبما جاء في تلك القصص هو الذي ينتهي به إلى النجاح والصلاح.

إنه ما كان كلاما غير ملتزم بالصدق أومن نسج الخيال، ولكنه متصل بمنابع الحق فيما تقدمه من كتب الله مؤكد لمضامينها، ويبين أمورا كثيرة من أحوال النفس، وعاقبة المتقين والفاسقين، ويثبت أن المتصرف في الأكوان هو الله تعالى، وأن التقوى هي الحصن الحافظ للإنسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وبذلك تنفتح من هذه القصص المسالك التي تشمل بها الرحمة الإلهية المتدبرين لها الآخذين بدلالاتها، وهم الذين صفت عقيدتهم وطردوا كل شائبة شك أو شرك، وأنار الإيمان بصائرهم وهداهم إلى الصراط المستقيم.

16 رمضان 1432-2011/8/16

ســـورة الرعـــد

سورة الرعد هي السورة الثالثة عشرة في ترتيب المصحف. بهذا الاسم (سورة الرعد) أثبتت في المصاحف وفي الروايات. واختلف في تاريخ نزولها فقيل نزلت كلها بمكة، واستثنى بعضهم آيات منها، وقيل نزلت بالمدينة. والقائلون بأنها مكية ذكروا أنها نزلت بعد سورة يوسف وذكروا بعدها سورة إبراهيم. والذين ذكروا أنها مدنية جعلوا رتبتها في التنزيل السابعة والتسعين بعد سورة القتال وقبل سورة الرحمان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

عمد : اسم جمع عمود، وهو ما يقام عليه سقف القبة أو البيت.

الجري : السير السريع.

المسمى : المحدد.

يدبر الأمر : يبرم وينفذ.

مد الأرض : وسع فيها.

الرواسي : جمع راس، الثابت المستقر.

قطع : جمع قطعة وهي الجزء.
صنوان : جمع صنو وهي النخلة التي تنبت مع أختها من أصل واحد.
الأكل : المأكول.

بيان المعنى الاجمالي :

افتتحت هذه السورة بحروف يتلى كل واحد منها منفردا – ألف – لام – ميم – ر – ويتعلق بها ما أثبتناه في سورة البقرة. أعقبت بالإشارة إلى آيات القرآن الموصوفة بأنها منزلة من عند الله، وأنها انفردت بالحق الذي لم يختلط بباطل، ولم يلحقه شك ولا تحريف. ولكن أكثر الناس رغم هذه الشواهد على صدقه حرموا من الإيمان.
تفرد الله بأنه هو الذي رفع السماوات دون أن تكون معتمدة على أعمدة، وفوق ذلك استوى على العرش بغير ممارسة ولا تحديد، وطوّع الشمس والقمر فلا تخرجان عما قدر لهما، وتسرعان إلى مآلها الحتمي الذي هو نهايتهما وزوالهما. وكل ما يجري عليهما من التركيب والتحول والسير خاضع للتقدير المحكم. يبرز الله لكم تلكم الأدلة رجاء أن يحصل في قلوبكم اليقين بقدرة الله وتصرفه الحكيم في الأكوان، وأنكم ستعودون إليه يوم القيامة.
بسط الله الأرض وجعل فيها جبالا ثابتة وأجرى فيها الأنهار، وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات، وقدر لتلقيحها في مراحل بروزها الأولى ما يتم به خلقها، وجعل من أنواع الحيوان ذكورا وإناثا، بذلك يتم التكاثر. وكل هذه الكائنات التي جعلها يلفها الليل والنهار فتصل إلى غاية مداها، وينعم بها البشر في جملة المرافق التي يسّرها الله لهم. إن التأمل في هذا الخلق وفي التنظيم المحكم لمساره في الحياة، يعطي دليلا للقوم الذين لا يمرون على مشاهد الحياة غافلين بل يتفكرون في أسرارها تفكيرا يلقي في قلوبهم اليقين: أن الله هو المتصرف في هذا الكون.
تأملوا في الأرض فهي في ظاهرها قطع متشابهة ومتجاورة، ومع ذلك فإن العناصر التي تتركب منها كل قطعة تتميز بخصائص، لها أثرها في النماء وفي الإنتاج. على هذه القطع المتجاورة تنتشر جنات من أعناب مختلفة الأشكال والألوان، وتنبت في أرضها زروع متنوعة، وتعلو النخيل فيها. ومن عجيب خلق الله أن بعضها تكون النخلة وحيدة وبعضها تنبت في جذعها نخلة أو نخلات (صنوان) تسقى تلكم الأشجار بماء واحد من السماء أو من الأبار أو من الأنهار، ومع ذلك تجد اختلافا بينها في الطعم والمذاق. يكون بعضها أفضل من بعض. إن الذين يعملون عقولهم ولا يمرون على مشاهد الكون مرور الغافلين، يجدون فيها أدلة وبراهين على تفرد الله بالتقدير والخلق والتسيير.

بيان المعنى العام :

1-ألر تلك آيات الكتاب ...ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

افتتحت هذه السورة بحروف تقرأ منفصلة – ألف – لام – ميم – ر – على النحو الذي افتتحت به سورة البقرة وغيرها من السور التي استهلت بحروف لا توصل عند القراءة. وقد بينا ما يتعلق بها في سورة البقرة.

ثم تشير الآية إلى ما سبق نزوله من آيات القرآن الكريم إشارة تدل على سمو آياته، باعتبار أنها تقوم معجزة للنبي ﷺ دالة على صدقه، وبأنها تتضمن من المعاني العالية ما ينادي بما لها من فضل لا يداني في الهداية، فالكتاب هو القرآن. وثنى بإبراز مزيتين لذلك الكتاب:

أولا: أنه منزل من عند الله جرى على لسانك بعد تلقيك له عن طريق الوحي.

ثانيا: أنه الكتاب الوحيد الذي طبع على الحق، فغيره من الكتب إما أن يكون من إنشاء البشر، وإما من الكتب المنزلة إلا أن المنزل عليهم وأخلافهم لم يستطيعوا حفظها من الباطل الذي أدمجوه في ثناياها استجابة لشهواتهم، أو لتقصيرهم .

إنه بالرغم عن مزاياه فإن أكثر الناس يعاندون ولا يؤمنون به. ومن هنا ترتبط السورة بأواخر سورة يوسف (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)[1] مما يرجح أيضا أن تكون مرتبتها في التنزيل. الرابعة والخمسين.

2-←3: الله الذي رفع السماوات بغير عمد...لقوم يتفكرون.

تصرح الآية بأعظم ما تدل عليه آيات الكتاب من الحق، وهو تفرد الله بالتأثير في الكون كله، ويلفت الأبصار والبصائر إلى ما يشاهده الإنسان في أي موقع له من الكون. يشاهد أن الله وحده هو الذي رفع السماء بما تحويه من كواكب ومجرات ومخلوقات بترتيب قدره فأحكم تقديره. لها منازلها في تلكم القبة العظيمة المترامية الأطراف إلى أبعاد لا يعلمها إلا الله . قدرها بعض العلماء فيما وصلوا إلى معرفته بالسنوات الضوئية؛ ومع ذلك فلا ترى أعمدة تحميها من السقوط. وأزالوا بعض الغموض بواسطة دراسة الجاذبية المضبوطة ضبطا، لو قوي أو ضعف عما هو عليه ما كان لهذا الكون أن يبقى ولو لحظة.

وفوق ذلك فإنه سبحانه قد استوى على العرش وقد أشرنا إلى ما يتعلق بذلك المفهوم في الآية (54) من سورة الأعراف.

---

[1] سورة يوسف الآية (103)

وفصّل القرآن مما اشتملت عليه السماوات، فصّل الشمس والقمر، نظرا لقوة ارتباط الإنسان بهذين الكوكبين في حياته. فنص على أنهما مسخران لتقديره يسير كل واحد منهما سيرا سريعا جدا، وسيبلغان مع بقية الكواكب غاية المدى المحدد لهما في الوقت الذي قدره وأحكمه في سابق علمه. وعند ذلك تقوم القيامة وينتهي عمر الكون.

إن هذا الكون بجميع ما يحويه مع تحولاته المتلاحقة في تسلسل الوجود، ما يعود منها إلى الوضع المادي، أو إلى العقل والنفس، هو بتدبير الله في كل لحظة من اللحظات. فمع كل نفس وخلجة وتطور في كل كائن يتنزل التدبير الإلهي ينفذ ما جرى به القدر، ثم يقيم ذلك شاهدا ودليلا يهدي الإنسان إذا ما تأمل واستبصر إلى أن هذا التغير المتلاحق وعدم الاستقرار، حتى فيما يظن حسب الظواهر الخادعة أنه مستقر، ينادي بأن الفناء لازم من لوازم الحياة الدنيا، وبأن الخلق على هذا النحو من الحكمة، من الواجب الحتمي أن ينتهي إلى الخالق للجزاء. إذ بدون ذلك يكون الخلق عبثا. واليقين بالتنظيم المحكم والربط بين أجزاء الكون في كل لحظة يناقض العبث. فلذلك كان التأمل دليلا على البعث الذي يلقى فيه كل إنسان جزاءه من ربه عما قدمه من خير أو شر.

بعد أن لفت القرآن إلى الكون كله في انتظامه وفي خلقه، ثنى بدعوة الإنسان للتأمل في حكمة الله في خلقه للأرض. فقد بسط الأرض ووسع فيها فيسّر عمارتها واستثمار ما تحويه من خيرات. وثبّت في الأرض جبالا راسيات مستقرة ترتفع أعلى قمة فيها إلى 8848 مترا. وأجرى خلال الأرض الأنهار التي تحمل الماء والطمي. وجعل فيها من كل الثمرات، ما هو موجود وقت نزول الوحي وما يحدث في المستقبل، وما ينقطع بعد وجوده. وقوله تعالى: "جعل فيها زوجين اثنين" يحتمل عوده إلى الثمرات، على أن الثمرات نتيجة لقاح يحدث بين نوع الأنثى فيها ونوع الذكر، ويتم هذا التلقيح تارة بتوسط الإنسان أو بالريح أو ببعض الحشرات كالنحل، وفي كل ذلك حكمة ومنة. ويحتمل أنه تذكير بمنة خلق الحيوانات التي لا يتم التكاثر فيها إلا بوجود النوعين الذكر والأنثى. ثم إن جميع هذه الكائنات الأرضية يلفها في دورات متعاقبة وبانتظام لا يختل الليل والنهار، وفي تعاقبهما مع ما لفتت إليه الآية من مظاهر كونية عجيبة، ما يقوم من كل مظهر من تلكم المظاهر آيات وبراهين يؤلف منها أصحاب الفكر النير المستقيم أدلة على القدرة البالغة والحكمة العالية لخالق الكائنات. وأن الله هو المتفرد سبحانه بتصريف ذلك تصريفا بعيدا عن الفوضى.

4- وفي الأرض قطع متجاورات وجنات ...لقوم يعقلون.

وظاهرة أخرى فـي الأرض تقـيم الـدليل علـى أن كـل أحـوال الأرض مسـتندة إلـى الاختيار والإرادة الحكيمة، فـالأرض أجـزاء متجـاورة، والتركيـب الـذي عليـه كـل جزء يختلف عنه الجزء المجاور له، وتـؤثر تلكـم العناصـر فـي سـرعة نمـو النبـات وفي جودة ومذاق ما تنتجـه. وعلـى وجـه الأرض تقـوم جنـات مـن نخيـل وأعنـاب وتتخللها زروع تسقى بماء واحد نـازل مـن المطـر أو مـن الآبـار أو الأنهـار، ومـع ذلك فلكل شجرة مذاقها ونكهتهـا، وتتفاضـل فيمـا بينهـا باعتبارهـا مـأكولا للإنسـان، وتَنْبُتُ النخيل من أصل واحد وبعضها يستمر على ذلـك، وبعضـها قـد يلتصـق بالنخلـة الأولى نخلة ثانية فهما صنوان بدون تنـوين، وبعضـها يلتصـق بهـا أكثـر مـن واحـدة فهي صنوان منونة. إن الإنسان العاقل يقضي بـه هـذا الاخـتلاف المـدرك مـع وحـدة الأرض والماء والطقـس إلـى الجـزم بـان هـذا الاخـتلاف لا يقبـل أن يكـون وليـد الصدفة. ويعتقد أن إرادة الخالق هي التي ميـزت بينهـا وأوجـدت مـا أوجـدت بجميـع الخصائص. وأن علمه وإرادته وقدرته لا تقتصر علـى الكليـات بـل هـي تتنـاول كـل الكائنات الجزئية أيضا.

• وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

المثلات : العقوبات المنكلات.

الأغلال : جمع غُل، طوق من حديد أو جلد يجعل في عنق الأسير.

السيئة : الحالة السيئة، المصيبة.

المثلات : جمع مثلة وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالا في الشدة.

بيان المعنى الإجمالي :

من أعجـب العجـب، أحـوال المشـركين المنكـرين للبعـث، الـذين يقولـون تبريـرا لاستبعادهم لبعث الأجساد بعد موتها: كيف تعود إلى الحيـاة مـن جديـد بعـد أن تحللـت عناصرها واندمجت في التراب ؟ منشأ ضلالهم هو كفـرهم بـربهم الـذي أوجـدهم مـن

عدم، ووالى عليهم ألطافه حتى بلغوا كمالهم. ولكن الكفر كان قيدا في أعناقهم يلويها عن التأمل، ويسوقهم في النهاية إلى الخلود في عذاب النار.

ومن فساد تفكيرهم أنهم يطلبون منك أن يعجل الله بتسليط العذاب الذي أوعدتهم به قبل أن يطلبوا التعجيل بالخيرات التي عند الله، وذلك لأنهم يستبعدون أن يسلط الله عليهم عذابه، مع أن الأقوام الذين انتقم الله منهم لكفرهم حاضرة أخبارهم في أذهانهم ومشاهدة آثارهم. ولكن الله لا يعجل العقوبة بل يمهل الناس مع كونهم ظالمين علهم يعودون إلى التمسك بالحق. إن هذا الإمهال لطف منه فإذا أصروا على الضلال فإن الله يعاقبهم أشد العقاب.

وسجل القرآن على الكافرين تشغيبهم باقتراحهم على الرسول أن يأتيهم بمعجزات من وحي خيالهم. فأوقفهم القرآن ببيان حقيقتهم. أنهم قوم ضالون جاءهم الرسول لينذرهم ما هم صائرون إليه، وأن دور الرسول كشأن الرسل السابقين أنه يساعد البشر على الاهتداء إلى الصراط المستقيم .

بيان المعنى العام :

5-وإن تعجب فعجب قولهم...أصحاب النار هم فيها خالدون.

عنيت الآيات الأولى من هذه السورة بقضية التوحيد وقضية القدرة النافذة في الكون. وثنى القرآن بالتوجيه إلى قضية كبرى في إصلاح البشرية هي قضية البعث يوم القيامة. توجه القرآن مؤكدا على قضية البعث والجزاء في مناسبات عديدة باعتبار أنها ركن من أركان العقيدة. وتمثل هذه العقيدة بالنسبة للمشركين والكفرة وأهل الضلال والفساد القضية التي يعملون على إنكارها، لأن التفكير فيها يفسد عليهم متعهم وإسرافهم وظلمهم. ولأنها إحدى القوى التي تبعث في المستضعفين الأمل وتحرضهم على الصمود.

شأن الإنسان أن يعجب من كل خارج عن المعتاد خروجا لافتا للنظر، ومن أحق ما يكون مدعاة للتعجب ما يصرح به الكفرة: إننا ننكر مستبعدين أننا سنعود خلقا جديدا كما كنا، بعد الموت وما يعقبه من تدخل عوامل الفناء تُفَتِّتُ أجزاءنا وتخلطها بالتراب. وعقّب ذلك بثلاث نواح :

أولا: أولئك الكفرة النافون للبعث أوقعهم في ضلالهم، كفرهم بربهم الذي تولاهم بعنايته وألطافه في تحولاتهم الكبرى من نطفة من ماء مهين في أرحام الأمهات إلى اشتداد عضلاتهم وقدراتهم الذهنية وما يسر لهم من الأرزاق، وما يعتورهم بين الحين والآخر من اهتزازات وضعف تنبئ من استبصر أن مظاهر السلامة بعد العطب مؤذنة بأن القادر على ذلك قادر على البعث.

ثانيا: أن كفرهم ضيق عليهم مساحات تأملهم فهم لا ينظرون إلى ما وراء الحاضر أمامهم. كما تشير الآية إلى أنهم سيحشرون يوم القيامة، التي أنكروا تحققها، أذلاء شأنهم شأن الأسرى الذين طوقت أعناقهم بالأغلال فهم يسيرون إلى حيث قدر لهم من العذاب والمهانة.

ثالثا: التصريح بأن ما قدر لهم: أن صلتهم بالنار تكون ملازمة لهم كأنهم والنار في علاقة صحبة لا تنقطع وأي صحبة أعاذنا الله. فأكد هذا المعنى بقوله تعالى هم فيها خالدون.

6-ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة...لشديد العقاب:

بلغ بهم العناد إلى نوع من التحدي السخيف، فلما أخبرهم النبي ﷺ بالوعيد الذي سيحقهم إن هم واصلوا كفرهم، طلبوا منه أن يعجّل هذا الوعيد استخفافا به، وإنكارا لإمكان حصوله. فمن فساد تفكيرهم أنهم طلبوا أن يعجل الله تسليط العذاب عليهم وما يسوؤهم قبل أن يطلبوا أن ينعم عليهم بالخيرات، والحال أن انتقام الله من المعاندين قد سبقت شواهده، وآثار ذلك معروفة عندهم. وهذه سنة في الطغاة من الكافرين ومن المستبدين المتسلطين على شعوبهم. فهم يواصلون الظلم والكفران بنعمة الله، وهم مطمئنون إلى أنه لما لم يسلط عليهم العذاب عاجلا، فمعنى ذلك أنهم آمنون.

إن تأخير إنجاز الوعيد مبناه أن الله سبحانه هو أعلى من أن يكون منتظرا ما يخرج به الجاهلون عن طاعته ليوقع عليهم عذابه في الحال. ولكنه غفور يمهل العصاة إمهالا يفسح لهم المجال ليتحولوا من الشر إلى الخير، ومن الكفر إلى الإيمان. فهم مع ظلمهم الذي لا يخفى عن الرقابة الإلهية يؤجلهم إما إلى الأجل الذي حدده في سابق علمه في الدنيا، وإما إلى يوم القيامة. وليعلموا أن عدل الله سيوقع بهم جزاء فسادهم في العقيدة والعمل جزاء لا تصحبه رحمته، فيكون أشد ما يتصور.

7-ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه....ولكل قوم هاد.

تسجيل آخر لمقالات الكافرين، وهم يتلوّنون كل مرة بطلب أشياء لا يقصدون منها حصول اليقين وطرد موجبات التردد، ولكن ليظهروا أن ما يطلبونه يتوقف عليه إيمانهم. فإذا لم يستجب لطلباتهم، استنتجوا منه أن ما جاء به ليس من الحق في شيء. فهم يغمضون أعينهم عن المؤيدات الحاصلة، وعن الإعجاز القرآني، ويقترحون الاقتراح تلو الاقتراح يبغون من ذلك التعجيز، والتحكم في التقدير الإلهي حتى يكون طوع مقترحاتهم. طلبوا أن ينزل الله على رسوله معجزة حسبما

يقترحونه، أوان يرقى في السماء وهم يشاهدون رقيه ثم يأتي معه بكتاب مجسم يعرضه عليهم لقراءة نصه، وقالوا: لولا أنزل عليك ملك. إلى آخر أنواع التعنت التي فضحهم القرآن باقتراحها. فردّ عليهم القرآن ردا قاطعا بين مكانتهم ودور الرسول ﷺ. أما مكانتهم فهم ضالون عن الحق، غير واعين بالمآل، إذ لا تصل بهم عقيدتهم ولا سلوكهم إلا إلى الخسران المبين. وأما دور الرسول ﷺ فهو أن ينذرهم سوء العاقبة التي تترصدهم، وأن يعمل على إنقاذهم مما هم صائرون إليه. وهذه سنة الله في إرسال رسله، أنه يبعث لكل قوم هاديا يهديهم، أي إن إنذارهم سوء العاقبة يصحبه تبيان طريق الهدى والرشد.

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغيض : يستعمل في الدلالة على النقص.

الكبير : العظيم.

المتعالي : المترفع، العزيز العزة الكاملة.

سواء : مستو، لا يفضل واحد عن غيره.

المستخفي : المبالغ في الاختفاء.

السارب : المتنقل السائر. فهو يتصرف كيف شاء دون حذر.

معقبات : جمع مُعقِّبة. ملائكة يتبعونه ويلازمونه.

يحفظونه : يراقبونه.

التغيير : التبديل بمغاير.

وال: الوالي هو الذي يشتغل بأمر غيره اشتغال تدبير.

بيان المعنى الإجمالي :

تنص الآيتان الثامنة والتاسعة على ما يحقق عقيدة الوحدانية وعقيدة البعث. فالله هو المتفرد بعلم ما تحويه الأرحام علما شاملا، للخصائص المادية لكل فرد، ولمواهبه

العقلية والنفسية. ويعلم أوضاع الرحم الحامل، مقدرا لكل فتـرة مـن فتـرات الحمـل مـا يمكّن النسل الجديد من بلوغ المستوى الذي يستقل به بعد ذلـك فـي الحيـاة. وكـل ذلـك يقوم دليلا على عظمة الباري سبحانه، وعلـى خضـوع الكائنـات لتقـديره فهـو العزيـز المتعالي.

علم الله علم واحدٌ وشاملٌ ولا يتغيرُ، ولا تؤثر فيه الظروف التي يتخفى فيها الإنسان، أو يظهر .فما جرى في ضميره دون أن تنبس به شفةٌ وما جهر به، ما عمله تحت جنح الظلام بعيدا عن الناس، وما صنعه في وضح النهار وملأ من الناس، كل ذلك سواء في علم الله .وليس علمه بإحدى الصورتين أوضح أو أتم من الأخرى.

أقام الله على كل إنسان حفظة من ملائكته يسجلون كل ما يصدر عنه من قول أو فعل. وطريقة ذلك التسجيل والمتابعة هي من ترتيبات الله التي تفوق مدارك البشر..

وإن نعمة الله على عبيده تقيدها الطاعة والشكر، ويترتب عن كفرها والانغماس في المعاصي زوالها. وإذا أراد الله أن يوقع على عبده عقابه فإرادته نافذة ولا يجد ناصرا يحميه أو يدبر له طريق نجاة.

بيان المعنى العام :

8--9: الله يعلم ما تحمل كل أنثى ....الكبير المتعال.

تتمّ الآيتان ما عرضته السورة من بدايتها، فتبسـط مـا يـدل علـى الوحدانيـة والتفـرد بالخلق والتدبير، وتؤكد أحقية البعث وتقربه للأذهان الغافلـة عـن دقيـق صـنع الله. فـتم التعرض أولا لقانون التكاثر في الحيوان والإنسـان الـذي يجريـه الخـالق علـى ترتيـب ونظام لا يحيط بعلمه إلا هو. فالآية تشير أولا إلى أن مـا يحـدث فـي كـل لحظـة مـن حمل كل أنثى في عالم الحيوان أو الإنسان هو مما اختص بـه علـم الله، ثـم تنـزل مـن هذه النظرة الكلية إلى مرتبة أدنى، هـي أن الله وحـده يعلـم بمجـرد مـا تعلـق اللقيحـة بالرحم الخصائص التي أودعهـا فـي الخارطـة(الجينوم)، إن البرنـامج المكتـوب فـي رأس كل لقيحة، الضابط لكل جزئية من الجزئيـات التـي سـتظهر، محـدّدة مـا يكـون عليه الكائن الإنساني أو الحيواني فـي المسـتقبل، والتغييـرات التـي تحـدث والأسـباب المؤثرة في ذلك وجودا أو عدما، هو ما تفـرد الله بعلمـه. وإن حصـر الـنص الواسـع الآفاق (يعلم ما تحمل كل أنثى) في كـون مـا حوتـه الأرحـام مـن جـنس الـذكور أو جنس الإناث، تضييق مستند إلـى تصـور قاصـر تبعـا لتعلـق الأبـوين، وقـد تكـون الأسرة مهتمة بالبحث عن كون الجنين ذكرا أو أنثى. وهـذه جزئيـة مـن مئـات ملايـين من الجزئيات التي يحيط بها علم الله في اللقائح التـي تتحـول إلـى أجنـة. وهـذا مـا لا

يصل إليه علم أحد لا بوصف الفردية ولا الشمولية . ويختص به العلم الإلهي . وإن تصور الفكر البشري لهذا العلم الرباني في أبعاده اللامتناهية لما يحدث في كل لحظة في عالم الإنجاب، ليقوم دليلا على إمكانية بعث هذه الكائنات التي أحاط علمه بها في بداية التكوين وأحكم مسارها. ولا يعقل إنكاره أو الشك فيه أو طلب الدليل عليه .فكانت هذه الجملة الأولى محققة لصدق كل ما سبق في هذه السورة من وحدانية الله ومن البعث.

عطف القرآن على ذلك: (وما تغيض الأرحام وما تزداد) اختلف المفسرون اختلافا كبيرا في تأويل المراد بنقصان الأرحام وزيادتها .

والذي ترجح عندي بعد التأمل، أن صدر الآية تحدث عن خصائص الجنين الذي استقر في رحم الأم، وأن هذا المقطع لفت النظر إلى التحولات التي تحدث في الرحم ذاته، فبمجرد ما يعلق الجنين بجدار الرحم، تتغذى العلقة من دم الأم لتأخذ في الانقسام والنمو، ويتم تحول في الهرمونات، وبهذا تغيض الأرحام مما كانت تمتلئ به من الدم، ويدخل دم الأم في تكوين الجنين، فينمو وتظهر شيئا فشيئا مكوناته ويزداد وزنه إلى أن يبلغ الوقت الذي ينزل فيه إلى الأرض كائنا يحمل خصائص النوع . فمعنى تغيض الأرحام: نضوب الدم كما تقدم في سورة هود: وغيض الماء آية 44- وزيادتها بزيادة وزن الجنين الذي نما من ذلك الدم.

ثم عطف على ما تقدم، مبينا أن كل شيء يحدث في الوجود لا يتم بلوغه إلى مستوى الحدوث إلا بعد مروره بمراحل مضبوطة ومحددة بدقة بالغة، ويدخل في هذه القاعدة الكلية التكاثر الحيواني والإنساني. فكل مرحلة من مراحل التطور، وفي كل لحظة زمنية منها، تتولى العناية الإلهية إمداده بما هو في حاجة إليه من الغذاء نوعا وكما، فلو زاد ما يصير إليه عن الحاجة أو نقص كان الخلق مشوها غير قادر على الحياة. وبهذا اللفت يقوم دليل قاطع على البعث فإذا كان التقدير الإلهي قد يسر للجنين بلوغ المستوى الذي يصل به إلى الحياة المستقلة، أفلا يقوم هذا دليلا واضحا على إمكان إعادة خلقه ليبعث من جديد ؟

ويدخل كل ذلك تحت قبة العلم الإلهي الذي لا تخفى عليه خافية، سواء أكان ذلك من عالم الغيب الذي لا تصله معارف الناس، أو من المشاهدات التي تختلف أحجامها فتدق حتى لا يستطيع الإنسان إدراكها بحواسه المجردة، أو تعظم على مستويات مختلفة.

هو سبحانه العظيم الذي لا يدانيه في عظمته شيء. وهو العزيز الذي يخضع كل شيء لإرادته.

10-سواء منكم من أسر القول ومن جهر...وسارب بالنهار.

يتفاوت إدراك البشر لما حولهم تبعا لعلــو المســتوى الصـــادر منــه أو ضـــعفه، فبعضـــها يهز الإنسان هزا وبعضها ينزل إلى المســتوى الــذي تمــر آثــاره دون أن يشــعر بهــا. ولذا كان من يرغب في كتمان أقواله وأفعاله يقوم بهــا فــي ســر، ويتخــذ جــنح الظــلام له ساترا حتى لا يطلع عليه أحد. ولكن الله سبحانه يعلــم كــل مــا يصــدر عــن الإنســان علما يستوي فيه ما أعلنه صاحبه وما كتمه في قلبــه فلــم تتحــرك بــه شــفة، لا تفاضــل بينهما، وعلمه بالحالتين سواء. كما أن من يقوم بعمــل مــن الأعمــال ويتخيــر لــه جــنح الظلام ويبالغ في تحري البعد عن عيون الناس، ومن يقوم بــه وهــو يســعى فــي وضــح النهار فيلفت الأنظار إليه بحركته وينكشــف بالضــوء، همــا ســواء بالنســبة لعلــم الله إذ لا يتوقف علمه على سبب مساعد يضــعف عنــد فقــده، وهــذا هــو الفــارق بــين العلــم الكامل الذي لا يتوقف على شيء، والعلم المحدود المرتبط بقوانين المعرفة.

11- له معقبات من بين يديه...و ما لهم من دون من وال.

لله ملائكة يتابعون الإنسان في جميع أحواله، ويقيدون كل مــا يصــدر عنــه مــن خيــر أو شر في سر أو إعلان. يحيطون به من أمامه ومن خلفه ومــن جميــع جهاتــه فــلا يغيــب عنهم أي فعل أو قول منه. ولا تسأل عن الطريقة التــي يــتم بهــا توثيــق كــل ذلــك ولا عن المراقبة كيف تتم، فكل ذلك من أمــر الله: مــن الترتيبــات التــي أحكمهــا الله وهــي فوق المدارك البشــرية، كقولــه تعــالى، قــل الــروح مــن أمــر ربــي[1]. وروى مالــك والبخاري ومسلم بسندهم إلى أبي هريرة واللفظ لمالــك: يتعــاقبون فــيكم ملائكــة بالليــل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجــر، ثــم يعــرج الــذين بــاتوا فيكم، فيسألهم وهــو أعلــم بهــم: كيــف تــركتم عبــادي ؟فيقولــون: تركنــاهم يصــلون وأتيناهم وهم يصلون. – ح 472 ج 1 ص241-

و يمكن أن تفهم الآية على أن لكل إنسان فــي جميــع أحوالــه التــي تقــدمت فــي الآيــة السابقة حفظة يحفظونه تتم بهم صيانته مــن العــوادي الحيوانيــة ومــن أشــرار البشــر. فتكون الآية منبهة على الألطاف المحيطــة بالإنســان. ويكــون معنــى مــن أمــر الله: أي يحفظونه من كل ما جرى القدر به، فإذا حل المقدور أسلم المرء إليه.

ونبه القرآن بعد أن قرر أن لله حفظة يراقبون أعمــال البشــر ويســجلون مــا قــاموا بــه، أو أن الله يحفظ البشر حسبما جرى به القــدر، ثنــى ببيــان أن الله إذا أنعــم نعمــة علــى

---

[1] سورة الإسراء آية 85

عبده فإن صاحبها يَقيّدها فتلزمـــه إذا شـــكر واســـتقام، وأن الإنســـان إذا غيـــر ســـلوكه، فاستعان بالنعمة على المعاصي، فإن الله يسلبه تلـــك النعمـــة ويحـــول حالـــه مـــن النعمـــة إلى النقمة ومن الرخـــاء إلـــى البـــؤس. وفـــي هـــذا تحـــذير للـــذين رحمهـــم الله مـــن أن تبطرهم النعمة فيظنون أنها مصاحبة لهم دائما.

و إن الله العظيم قدرته إذا أراد تغيير أوضـــاع المتجـــاوزين لحـــدوده مـــن الرخـــاء إلـــى العسر والشدة، تبعا لســـوء صـــنيعهم، فإنـــه لا تقـــوم قـــوة تحـــول دون تنفيـــذ مـــا أراده. وبالتالي لا يجدون من يدبر لهم ما ينقذهم به من تنفيذ عدل الله فيهم.

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

يجادلون : يخاصمونك.

المحال : القوة، والإهلاك.

ضلال: ضياع.

الغدو : الوقت الذي يخرج فيه الناس لقضاء حوائجهم .

الآصال : جمع أصيل وهو وقت اصفرار الشمس.

بيان المعنى الإجمالي :

الظواهر الكونية كتاب مفتوح يقرأ فيه المتأمـــل شـــواهد تثبـــت أن الله هـــو الواحـــد الـــذي لا شريك له وأن الخلائق صائرة إليه. فظـــاهرة الســـحب تتكـــرر، ويلمـــع فـــي بعضـــها البرق الذي يكاد يخترق الأفق من أقصاه إلى أقصـــاه ويأخـــذ الأبصـــار، ويتـــأثر الإنســـان به بين الخوف من الصواعق وبـــين الأمـــل فـــي نـــزول الأمطـــار وانتشـــار الخصـــب. والسحب قد تكون خفيفة سريعة التنقل وقد تتراكم وتثقل.

وظاهرة الرعد التي تصحب البرق هي تســـبيحة مـــن تســـبيحات الكـــون لله تنزهـــه عـــن الشريك فلا مؤثر فيها غير قدرته وإرادته ولســـان حالهـــا يثنـــي عليـــه بمـــا أودع فيهـــا

من نظام. وكما ينطلق التسبيح من لسان الكون بلغتــه التــي علّمَهــا عنــد خالقــه، فكــذلك يصدر هذا التنزيه من ملائكة الله وهم يخشونه أشد الخشية.

ويرسل الصواعق متــى أراد لتصــيب مــن أراد إهلاكــه. والعجــب مــن الكفــرة أنهــم يجادلون في تفرد الله بالتصــرف والتــأثير، مــع أن مكــره ســبحانه بالمنصــرفين عنــه، قوي شديد مشاهد لديهم.

خضع العباد لله فهو وحده الذي يتوجه له الداعون بابتهالاتهم الصادرة عن شعورهم بالحاجة الحق لعون ربهم وهو القادر على إسعافهم بمطالبهم. وأما الكافرون فيدعون دعاء صادرا عن عقيدة باطلة فيكون ضياعا غير منتج. مثلهم كعطشان بسط كفيه إلى الماء يبغي أن يصل الماء إلى فمه ولن يبلغ فمه وهو على هذا الوضع.

خضعت الكائنات كلها لله وانقادت عن رضـــا، أو مكرهـــة. فســـجد لـــه المؤمنـــون حبـــا فيه وشوقا إليه، وسجد المنـــافقون كرهـــا وهـــم أذلاء، وســـجدت الظـــلال مـــع الســـاجدين واضحة وضوحا أفضل في فترتي الصـــباح والعشـــي تبعـــا لامتـــدادها المـــرتبط بوضـــع الشمس في السماء. وكـــل الكائنـــات تجـــري عليهـــا قوانينـــه وتقـــديره مـــن الســـماوات والأرض وما احتوته.

بيان المعنى العام :

12 ـ 13 : هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا...وهو شديد المحال .

مما يلفت أنظارنا في كل آية من الآيات التي سبقت في هذه السورة التقابل ففـــي الآيـــة (1) بين الإيمان والكفر، وفي (2) الوجود والفناء، وفي (3) زوجان والليل والنهـــار، وفـــي (4) الوحدة مع اختلاف النتائج، وفي (5) الآيات الدالة على البعث وإنكاره، وفي (7) الاســـتعجال بالسيئة قبل الحسنة، والغفران والعقاب، وفي(8) الإنذار والهداية، وفي (9) نقصان الأرحـــام وزيادتها، وفي (10) علم الغيب وعلم الشهادة، وفـــي(11) الســـر والجهـــر، وفـــي (12) التمكين من النعمة وسلبها.

وفي كل ذلك براهين متتابعة على الوحدانيـــة والقـــدرة الكاملـــة. وفـــي الآيـــة 12 يحـــرك القرآن انتباهنا للتأمل في ظـــاهرة الســـحب المتراكمـــة والبـــرق الـــذي يصـــحبها تـــارة، يخترق البرق السحب بسرعة الضوء ويمتد نوره الخـــارق أو يقصُـــر. نشـــاهده فـــإذا أثـــر المشاهدة بقوته التي تكاد تخطف الأبصار إحســـاس بـــالخوف ممـــا يمكـــن أن يتبعـــه مـــن الصواعق، وإحساس بالأمل بنزول الأمطـــار عقيبـــه. فالظـــاهرة واحـــدة وتـــأثر الإنســـان بها من الضد إلى الضد، مـــن الخـــوف إلـــى الاستبشـــار والأمـــل. ثـــم إن تفســـير هـــذه الشحنة الكهربائية وأسباب تفريغها، لمـــاذا تحـــدث فـــي بعـــض الســـحب، وتمـــر ســـحب

أخرى دون أن يتخللها أي برق؟ كل ذلك ينادي بأن الله هــو وحــده الــذي يتصــرف فــي الكون ومنه السحب فينشئها على النحو الذي يختــاره، وتقصُــر قوانــا الفكريــة ومعارفنــا عن تبين سبب ترجيح إبراز ظاهرة عن غيرها.

و يتبعُ لمع البرق صوت الرعد، ومع أنهما يصدران في وقت واحد تختلف سرعتهما، فيختلف الإحساس بوجودهما. كما تختلف الاهتزازات المصاحبة ضعفا أو شدة تكاد تصم الأذان. إنها تسبيحة من تسبيحات الكون للخالق المتصرف الواحد القهار. هو الذي أحدثها على المستوى الذي أراد وقدر. ولكن لا نفقه تسبيحها، وصدق الله فيما أخبر به. وتقترن بتسبيحة السحب وما يصحبها تنزيه الملائكة لله عن كل نقص، وهم مستحضرون عظمته على أكمل وجه، مما يجعلهم يخافون عقابه.

قد تنفلت من السحب صواعق حارقــة تنفــذ إلــى الأرض يصــيب الله بهــا مــن يشــاء ويصرفها عمن يشاء. انطلق اللاعبــون فــي ميــدان اللعــب، وتراكمــت الســحب ولمــع البرق وزمجر الرعد ونزلت صاعقة صعق بها لاعب واحــد مــن بــين اللاعبــين. مثــل هذه الحادثة تتكرر في الوجود وتقــوم دلــيلا علــى أن المتصــرف فــي الكــون هــو الله وحده، ومع ذلــك فــالكفرة يجــادلون الرســول والمــؤمنين فــي تفــرد الله بالتــأثير فــي الكون، ويثبت بما لا مجال للشــك فيــه أن القــوة العظمــى التــي لا تغالــب ذات الأثــر الشديد، هي لله وحده.

14- له دعوة الحق والذين يدعون من دونه... الكافرين إلا في ضلال.

تبين من الآيــات الســابقة، أن الله هــو الواحــد الأحــد، وهــو وحــده القــادر المــؤثر، ويكون موقع هذه الآية تأكيد ذلكم المفهوم. فــإن تفــرده بالألوهيــة والقــدرة يتبعــه حتمــا أن من يرفع يديه بالدعاء، ويتوجه قلبه طلبا للعــون والرعايــة والغــوث والنعمــة، يكــون توجهه صادرا عن حق إذا كان منبعثا عن عقيــدة حــق لا عــن عقيــدة باطلــة. فالــدعاء في حقيقته هو نتيجة ما يحصل فــي الضــمير مــن حاجــة إلــى أن يتــولى الله ســبحانه بقدرته الداعي فييسر له خيرا، أو يصرف عنــه ضــرا. فصــدور الــدعاء يكــون بــذلك صادرا عن عقيدة حق لا عن تصور باطل.

ثم زادت الآية هذا المفهوم بيانا بالتنصيص على فســاد مقابلــه، وهــم المشــركون الــذين يدعون آلهتهم من دون الله، وجسّــمت ذلــك الفســاد بتمثيلــه بالظمــآن المحتــاج لشــرب الماء فيبسط كفيه إلى الماء ليبلغ الماء فمه، وطريقتــه تلــك لا يبلــغ بهــا المــاء إلــى فمه أبدا. وبهذا فإن دعاء الكافرين لآلهتهم دعوة ضــائعة لا يترتــب عليهــا جلــب منفعــة ولا دفع ضر.

15- ولله يسجد من في السماوات والأرض...بالغدو والآصال.

تفيد هذه الآية أن الذي تخضع له الكائنات جميعها، ويتصرف فيها بحكمته وتنقاد إلى الغاية التي حددها لها هو الله سبحانه .

و السجود له معنيان: الوضع الخاص الذي يضع فيه الساجد جبهته على الأرض؛ والسجود بمعنى الانقياد. فتثبت الآية المعنيين معا، بالنسبة للإنسان على سطح الأرض يسجد المؤمنون الصالحون في صلواتهم عن حب ورغبة وطواعية، ويجدون لذة في قربهم من ربهم: أقرب ما يكون المرء من ربه وهو ساجد. ويسجد المنافقون عن كره وغش. والسجود بهذا المعنى لا يتحقق إلا في بني الإنسان؛ والآية عامة لمن في السماوات والأرض. ولذا تحمل الآية على ما يعم السجود بالمعنيين لينطبق المفهوم على نص الآية، فيكون سجود البشر هو ما قدمناه، مع السجود الذي يعم الكائنات جميعا بمعنى خضوعهم للقوانين التي أجرى الله عليها خلق كل كائن وكل نوع وكل جنس. على معنى أنه لا يستطيع أي فرد من المخلوقات أن يتمرد على قوانين الخلق المحكم. فمثلا، إذا كانت الحيوانات البرية تتنفس الهواء، ولا تحيى بدونه، والأسماك البحرية الماء عنصر أساسي في استمرار حياتها، فكل الكائنات خاضعة لتلكم القوانين، فالمؤمنون يشكرون الله ويحمدونه على ما لطف ودبر من تلكم القوانين. وغير المؤمنين تجري عليهم قوانينه و إن كرهوا. ويصاحب سجود الذات بروز صورتها في ظلها وقت وجود الشمس. واختار القرآن الظلال في الصباح وفي العشي، لأن الظل في هذين الوقتين يمتد امتدادا أطول من بقية ساعات النهار .

و هذه الآية هي موضع السجود الثاني في القرآن حسب ترتيب المصحف. والسجود عند قراءة قوله تعالى: والآصال – متفق عليه– وعلى التالي والساجد أن يستحضر أنه ممن يسجد لله طوعا امتثالا لأمره، رجاء في فضله.

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ

يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا يملكون : لا يقدرون.

القهر : الغلبة.

أودية : جمع واد، الحفير الممتد الذي يسيل فيه ماء المطر .

قدر : تقدير .

الزبد : ما يعلو الماء المتدفق من رغوة، يحمله السيل ويرمي به على ضفتيه.

رابيا: منتفخا، الذي قد ربا.

الحلية : المصوغ الذي يتزين به .

يضرب : يبين بالمثل.

الجفاء : ما يطرح ويرمى به لكونه لا قيمة له.

الحسنى: العاقبة الحسنة.

المأوى : المنزل الذي يذهب إليه الإنسان للسكنى فيه.

المهاد : ما يفترش ويمهد للجلوس والرقاد.

استجابوا : أجابوا مع رغبة، محافظة على التطبيق.

بيان المعنى الإجمالي :

اسألهم من رب السماوات والأرض الذي أبدعها ونظم شؤونها وأقامها على ميزان لا يختل؟ باغتهم بالإجابة، فهم لترددهم تتلعثم ألسنتهم ولا يسرعون بالإفصاح عن الحقيقة، قل لهم: هو الله. ووبّخهم وقل: لما ذا اعتمدوا وعبدوا من دون الله آلهة عجزة، لا يقدرون على جلب نفع لأنفسهم أو دفع ضر عنها، فضلا عن تأثيرهم في غيرهم. وعرّفهم بالمنزلة الهابطة التي هم عليها. فهم مع عماهم ومع إطباق الظلام على عقولهم، لا يستوون مع المؤمنين الذين هداهم الله فعرفوا الطريق المستقيم وجاءتهم أنوار الوحي فأدركوا ما وراء الظواهر من حقائق.

أجعلوا لله شركاء تساووا معه في الخلق، وخلقوا كخلقه، فكان ذلك معرضا لهم للاشتباه والحيرة ؟قل لهم وأخرجهم من ضلالهم، قل لهم: الله هو المتفرد بالخلق،

وما عداه مخلوق له سبحانه. والله هو الواحد الذي لا شريك له في تصرفه بالخلق، وهو الغالب الذي تخضع له كل الكائنات.

ثم ضرب القرآن مثلين يقربان ما تضمنته الآيتان قبله:

المثل الأول: أن الله أنزل الماء من السماء فسالت منه المياه لتتجمع في الأودية ويأخذ كل واد منها حسب سعته، ويعلو سطحها زبد منتفخ يلقيه السيل على جانبيه، يذهب أثره وتختزن الأرض الماء الصالح للحياة. وذلك مثل ما ينزله الله من الهدى فينتفع به أقوام على قدر سعة مداركهم وصفاء أرواحهم ويستمر عطاؤه في العالمين، ويهيج من الحق النازل الكفرة المعاندون. فيكون شغبهم وتضليلاتهم كالزبد الذي يتبدد في النهاية ولا يبقى له أثر.

المثل الثاني: المعادن التي يُحمى عليها فينزل المعدن الصالح للزينة من الذهب والفضة، أو من الحديد والنحاس ونحوها التي يعمل منها الصناع آلات ومرافق للناس، ويعلو الزبد الذي لا نفع فيه فيلقى به. وكذلك ما ينزله الله من الهدى على نحو ما ذكر في المثل الأول.

ويصرح القرآن ختاما بالنتيجة: هي أن الذين قبلوا ما جاءهم من الوحي برغبة وتعلق كبيرين، يجزيهم ربهم بالحسنى المتمثلة في ضروب ألطافه التي لا تحصر، ونصرهم على أعدائهم وإحلال الأمن في نفوسهم والرضا. وفي المقابل فإن الذين رفضوا الهدى يكون مآلهم أنه يبلغ بهم اليأس: أن يودّ أحدهم لو يفتدي من سوء وضعه بما حوته والأرض بل يضعف ذلك، فتتضاعف حسراتهم النفسية ويحاسبون حسابا لا رحمة فيه، يناقشون في كل كبيرة وصغيرة. وتكون الدار التي ينتهون إليها هي جهنم يفترشون نارها، وما أسوأه من فراش.

بيان المعنى العام :

16- قل من رب السماوات والأرض .....وهو الواحد القهار.

تكرر الأمر بالقول في الآية الأولى خمس مرات (قــــل)

تتابعت من مفتتح السورة البراهين والمشاهد المثبتة للوحدانية، وتوجت بتسجيل حقيقة يذهل عنها الكافرون: إن الله يسجد له ويخضع لقدرته وإرادته الكون كله.

وتهيأوا تبعا لذلك لمخاطبتهم خطاب التوبيخ والتقريع، وإظهار هوانهم وضعف تفكيرهم. ولا شك أن ذلك يكون وقعه أقوى إذا صدر عن الله، فتكرر الأمر بقل ليتوجه إليهم مضمون القول توجيها يبكتهم.

بادرهم بالسؤال من تولى العناية بالسماوات والأرض فنظّم أمورها أكمل تنظيم وأدقه؟ وهذا ما تفيده كلمة رب. وهذا السؤال لا يقصد منه أن ينتظر إجابتهم، لأنه

ليس له إلا جواب واحد هو الحق وما عداه زيــف و باطــل. فــأمر الله ســبحانه نبيــه ﷺ أن يعرفهم بــالجواب فيقــول لهــم: الله، رب الســماوات والأرض. ورتــب علــى ذلــك توبيخهم على عنادهم ومواصلة الكفر به فأورد علــيهم ســؤالا إنكاريــا توبيخيــا، أكفــرتم به فاتخذتم آلهة من دونه .تلك الأصنام الممثلة للعجــز والهــوان التــي بلــغ مــن ضــعفها أنها لا تقدر على جلب أي نفع لنفسها أو أن تدفع عنها ضرا يؤذيها .

ثم ثنى مشوها لحالهم، والمدى البعيد الــذي يفصــلهم عــن المــؤمنين، مــن الضــد إلــى الضد ومن الرفعة والإيجابية، إلى الانحطاط والسلبية. قــل لهــم: إن حــالهم كحــال مــن فقد بصره ففاته إدراك ما هــو حاضــر أمامــه فــأنكر وجــوده. أو كمــن أطبــق عليــه الظلام فهو لا ينتفع بحاسة النظر فهو لا يــرى شــيئا. وشــتان مــا بــين وضــعهم مــع العمى أو الظلمة المطبقة، وما بين وضع المؤمنين وقد جــاءهم نــور مــن ربهــم فاهتــدوا إلى حقائق الوجود ومآلات الكون، وتمكنــوا مــن الهدايــة الربانيــة فــإذ الكائنــات كلهــا داخلة تحت أبصارهم مؤذنة بمــا وراءهــا مــن يــد الإبــداع وكمــال التــدبير، زاهيــة بالتناسق المؤلف بينها.

كلمة [أم] التي تفيد من البداية قصد الانتقال من الكــلام الســابق إلــى كــلام جديــد يعبــر عنه (بالإضراب) عن الكــلام الســابق وتوجيــه العنايــة للكــلام اللاحــق. فتــورد الآيــة عليهم سؤالا محرجا: أجعلوا لله أربابا مساوين لــه فــي ألوهيتــه وقدرتــه. تمكنــت تلكــم الآلهة أن تخلق وتحدث مخلوقــات علــى النحــو الــذي تصــرف بــه الله فــي الإيجــاد، فأوقعهم ذلك التشابه في حيرة ما هو خلــق الله ومــا هــو خلــق الآلهــة ؟ ثــم مــا هــو الفرق بين الله وبين آلهتهم ؟إن هذه الصورة تثير الســخرية مــن لــوازم عقائــدهم. ولــذا أعقبها بأمره لمحمد ﷺ (قل)إن الله هو المتفرد بالخلق وآلهــتهم لا تخلــق شــيئا بــل هــي مخلوقات. والله هو الواحــد الــذي لا يشــاركه أحــد فــي ذاتــه ولا فــي خلقــه فجميــع الموجودات مخلوقة له. وأيضا هو الغالب الــذي يخضــع لــه كــل شــيء. فــلا يصــعب عليه إيجاد المادة ولا الصورة التي يتم عليها الإيجــاد. وآلهــتهم لا تقــدر علــى خلــق أي كائن مهما ضؤل. فهي آلهة زائفة.

17- أنزل من السماء ماء فسالت أودية..يضرب الله الأمثال.

تضمنت الآية تمثيلين، كل منهما يؤدي ما يؤديه الآخر، ليعم التوضيح للناس جميعا من يدرك التمثيل الأول ومن يدرك التمثيل الثاني، ومن يدركهما جميعا. فلنتابع ذلك:

التمثيل الأول: أن الله أنزل من السماء مطرا متداركا، فســال فــي الشــعاب وتجمــع فــي الأودية على قدر سعتها، وإنك لتشــاهده مســيره فــي المســيل تعلــوه رغــوة منتفخــة،

فتذهب تلك الرغوة غير منتفع بها ويبقى الماء الذي ينفع العباد، وينشر الخصب وينبت الزرع وتسري به الحياة في الأرض.

سالت أودية بقدرها، جرى في كل واد من مياه الأمطار المتجمعة ما يملأ جوانبه، وكل واد يحمل من الماء على قدر سعته. وسرعة حركة المياه تبعا لانحدارها من الجبال والروابي، مع ما تأتي عليه من الهشيم تتكون منه رغوة تعلو سطحها (الزبد) ومن شأن الزبد هذا أن يكون منتفخا لما يتخلل تركيبه من فقاقيع الهواء.

التمثيل الثاني: المعادن على الصورة التي استخرجت من مقاطعها، يتناولها الصناع فيوقدون عليها النار، لاستخلاص المعدن الصالح من الذهب والفضة لصنع الحلي والنقود، أو من المعادن الأخرى كالحديد والنحاس والرصاص التي يوقدون عليها النار ليستخلصوا منه الفلز وليتخذوا منه صفائح لصنع المواعين والآلات المختلفة للارتفاق بها.

هذان المثلان ضربهما الله ليعتبر بهما الناس وليتخذوا منهما نظيرا يكشف لهم بصفة أقرب مضمون ما يشيران إليه، هما مثلان للحق والباطل فلنتتبع مراحل التمثيل:

أولا : تتابعت الأمطار على ما وصفناه أخذا من الآية، والماء النازل من السماء به دوام الحياة، وتكونت منه سيول تداخل فيها ما ليس من الماء ولكنه لصيق له في جريانه، ولا نفع فيه، بل إنه ارتفع فوق سطح الماء وانتفخ وهو الزبد الذي لا يبقى طويلا بل يقذفه السيل على جنباته، وتتفرقع فقاقيعه ويبقى الماء الأصيل يروي الأرض وينبت الكلأ والعشب والثمار وينفذ إلى أعماق الأرض فتختزنه بين طبقاتها.

ثانيا: مثل الماء النازل من السماء كمثل القرآن أنزله الله هاديا للقلوب ينشر في العقول نور الإيمان فتطمئن، ويوجه الأعمال إلى الخير فترقى الحضارة، ويأمن الناس. فيتكون منه منهج متكامل يأخذ طريقه في إصلاح الحياة كما يأخذ الماء طريقه. ثم إن المتلقين له على درجات في التأثر والانتفاع بهداه على مقدار ما لهم من قوة إيمان ورغبة في صالح الأعمال كما يأخذ كل واد من الماء ما تتسع له جنباته، ويتواصل النفع به كما يتواصل النفع بالماء الذي سارت به الأودية. ويمر على أسماع الكافرين فيهيجهم لمعارضته ويكون لهم صوت مرتفع، ولكنه مهزوم في النهاية شأن الزبد الذي ينتفخ ويعلو على سطح الماء يلقى به دون أن يكون له أثر.

ثالثا: مثل آخر من المعادن: يوقد الصناع والصواغون النار على المادة الخام فيسيل المعدن الصافي من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص متميزا، وينفصل ما خالطه فتقذفه النار الحامية زبدا كما يقذف الوادي الزبد على جانبيه. وينتفع الناس من الذهب والفضة حليا ومن المعدن متاعا لقضاء حاجاتهم.

ضرب الله ذلك مثلا للحق والباطل؛ فيكون الماء الذي تحمله الأودية وتتشربه الأرض فتنتفع هو كالحق النازل من عند الله المستند إلى الوحي، والزبد الذي يربو مثلا للباطل. وكذلك ما يخلص من المعادن من ذهب أو فضة وحديد ونحاس ونحوهما هو كالحق ينتفع به الناس، وما تقذفه النار إلى الخارج كالباطل.

وعلى هذا النحو يضرب الله الأمثال لتكون مؤكدة ومبينة ومقنعة للناس.

18-للذين استجابوا لربهم الحسنى...وبئس المهاد.

يدعو النبي ﷺ الناس فيبلغهم ما أحي إليه من ربه من العقيدة والتشريع والإرشاد، يكون المتلقون له على نوعين:

النوع الأول: المؤمنون الذين قبلوا ما جاءهم من ربهم بعقول متفتحة ورغبة في العمل به، ثم يلتزمون بعزيمة صادقة وقوية تطبيق ذلك، ويعملون به فعلا. هؤلاء وعدهم الله الحسنى: ينزل عليهم رضوانه في الدنيا، ويلطف بهم، وينصرهم على أعدائهم، ويمكن لهم ويلحق بهم ذرياتهم. وييسر حسابهم في الآخرة، ويكرم جزاءهم في منازل الرضوان في الجنة دار القرار.

النوع الثاني الكافرون: الذين يرفضون ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ عقيدة وسلوكا، هم آيلون إلى وضع من اليأس، يبلغ بهم النكال أنهم يكونون في أسوأ وضع: يودون لو يجدون ما يقدمونه لإنقاذ أنفسهم من الهوان والعذاب الماحق المحيط، ولو كان ذلك بتنازلهم عن الأرض وما فيها، بل ضعف ما في الأرض، وأنى لهم أن يتحقق لهم ما يتمنونه فلا هم يملكون من ذلك شيئا. فتكون أمانيهم من الأماني الخيالية تضاعف حسراتهم.

أولئك الكفرة الرافضون، جزاؤهم الحساب السيء الذي لا يتجاوز فيه عنهم لا في صغيرة ولا في كبيرة، ومصيرهم جهنم يفترشون نارها وما أسواه من فراش.

• أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ

وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

يصلون : الوصل ضم شيء إلى شيء، واشتهر في الإحسان والإكرام، ومنه صلة الرحم .

خشية : خوف ناشئ عن تعظيم من يخافه.

ابتغاء وجه ربهم : طلب رضاه.

الدرء: الدفع والطرد.

العقبة : الخاتمة.

عدن : الإقامة، والاستقرار، والثبات.

نقض العهد : إبطاله وعدم الوفاء به.

بيان المعنى الاجمالي :

فريقان لا يجمع بينهما جامع: من يوقن بأن الحق الواضح، هـو مـا أنزلـه ربـك إليـك، لا شبهة فيه ولا تناقض، منسجم مع الفطرة. والفريـق الـذي حجـب عقلـه عـن النظـر فعمي عن الحق الذي بلغتهم إيـاه. إنـه لا يتأمـل فينتفـع إلا مـن كـان أصـيل الـرأي واضح التفكير وهم أصحاب العقول المستنيرة. ولكن مـا هـي ملامـح أصـحاب العقـول المستنيرة ؟

أولا: هم الذين يوفون بما عاهدوا عليه الله مـن توحيـده وتطبيـق شـرعه، ويحترمـون التزاماتهم، فيأمنهم المتعاملون معهم.

ثانيا: هم يصلون أرحامهم ولا يقطعون العلاقات الرابطة في جميع المستويات.

ثالثا: هم يستحضرون دوما أن الله مطلع عليهم، فيخافون من كل عمل يتجاوز به العامل حدوده. كما يخافون من الحساب الذي يفتضح فيه المحاسب وتعلن أعماله السيئة.

رابعا: هم ملتزمون بخلق الصبر الإيجابي رغبة في رضوان ربهم.

خامسا: هم يحافظون على أداء صلواتهم على الوجه الأكمل.

سادسا: هم ينفقون مما رزقهم الله في السر و العلن.

سابعا: يدفعون آثار ما عملوه من سيئات بالقيام بالحسنات.

أعلنت الآية جزاءهم: أنهم يختصون بأن العاقبة الخيرة في الآخرة هي لهم وحدهم. يتفضل الله عليهم بتمكينهم من الإقامة السرمدية في جناته. ويلحق بهم أهليهم من الآباء والأمهات والأزواج والذرية، وإن كانوا دون مرتبتهم. ومن مباهج الجنة أن الملائكة يدخلون عليهم زرافات ووحدانا يهنئونهم بما أنعم الله عليهم، يسلمون ويذكرونهم بما كانوا عليه من كمالات، وخاصة الصبر على العبادة، وعلى مقاومة دواعي الشهوة والشيطان. وينوهون بالمآل السعيد في دار إقامتهم النهائية.

وفي المقابل فإن الذين ينقضون ما عاهدوا الله عليه من التوحيد بعد ما أكده وأقره في فطرتهم، وعلى خلاف الفريق الأول يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويتجاوزون الحدود فيفسدون في الأرض، أولئك ملعونون مطرودون من رحمة الله. ويختصون بأسوأ مآل في أسوأ مستقر.

بيان المعنى العام :

19 -أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق ...يتذكر أولوا الألباب.

تقرر هذه الآية عدم التسوية بين فتح من عقله لقبول ما أنزله الله إليك من الهدى، وبين من أقفل قلبه عن النظر فيه. وتمت صياغتها على طريق الاستفهام لتحرك السامع للنظر في مضمونها، شأن السؤال في إيقاظ الذهن.

فالفريق الأول: هو من تيقن أن ما أوحاه الله إليك من العقيدة والتشريع والغيب والقصص، هو الحق الذي لا مدخل للباطل فيه؛ وبما أن اليقين يتبع الوضوح الذي لا شبهة فيه، والبيان التام الذي لا يلابسه غموض، فإنه ناسب أن يطلق على الفريق الآخر (الأعمى) إشارة إلى أن رفضه ليس له مبرر إلا أنه عطل قواه الفكرية، فأصبح كالأعمى الذي لا يرى الأشياء الماثلة أمامه، والعيب في بصره لا في الكائنات المعروضة.

ثم أظهرت الآية أنه لا يستطيع أن ينتفع بالبينات إلا من رُزق عقلا صالحا. وهم أولو الألباب. وفي هذا إشارة إلى أن إعراض الكفار عن الوحي ناشئ عن غبائهم .

20 -22، الذين يوفون بعهد الله ....أولئك لهم عقبى الدار.

ولتمييز أولي الألباب أكمل تمييز واصل القرآن عرض صفاتهم النبيلة، التي تفيد أن الكافرين فاقدون لتلك الكمالات.

الصفة الأولى: وفاؤهم بما عاهدوا الله عليه، وهذا العهد يشمل ما ذكر في سورة يس من إفراد الله بالعبادة ورفض ما يدعو إليه الشيطان (ألم أعهد إليكم يا بني

الم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم)[1]
وانغرس هذا العهد في الفطرة، وقد يحجبه التأثير الشيطاني والتقليد. كما يشمل ما يقتضيه عهد الإسلام من الالتزام الصادق بكل ما فصله من تشريع.

و عطف على الوفاء بالعهد عدم نقض الميثاق. وهذه صفة أعم من الوفاء بعهد الله، إذ تجمع إلى الوفاء بعهد الله احترام المواثيق والالتزامات التي التزم بها المؤمن مع غيره من الناس.

الصفة الثانية: وصل ما أمر الله أن يوصل. وهذه قاعدة اعتنت بها الشريعة لبناء المجتمع المتماسك .فأولو الألباب يصلون أقاربهم، ويصلون إخوانهم المؤمنين، وخاصة عند المناسبات الداعية للاتصال، كالأفراح والأحزان والأعياد والمرض.

الصفة الثالثة: خشية الله، وهي الخوف من غضبه وعقابه ومن حجب ألطافه. ذلك أن أصحاب العقول الذكية يستحضرون بصفة مستمرة، ولا يغفلون، عن كونهم في كل لحظة من لحظات حياتهم، في قبضة الله يفعل بهم ما يشاء. يعجل العقوبة أو يمهل، أو يغفر ويرحم. وهذا الاستحضار يكسب الإنسان يقظة زائدة تيسّر عليه الالتزام بالاستقامة في حياته.

الصفة الرابعة: الخوف من الحساب السيء، الذي يفتضح فيه المحاسبُ، ويجازى عن كل صغيرة أو كبيرة من أعماله السيئة، وهو ما يقوي العزم على فعل الخير والابتعاد عن الشر.

الصفة الخامسة: هم الذين تحلوا بالصبر الإيجابي، رجاء أن يفوزوا برضا ربهم. فصبرهم ليس استسلاما، وليس رياء، ولا حبا في الظهور بمظهر القوة كما يقول الشاعر:

وتجلدي للشامتين أريهم *** أني لريب الدهر لا أتزعزع.

فأولو الألباب يصبرون ليفوزوا برضوان الله، جزاء امتثالهم لما أرشدهم إليه وأوصاهم به. ولا يقترن صبرهم بشكاة ولا تبرم ولا يأس.

الصفة السادسة: هم ينفقون أموالهم سرا وعلانية، بما يفيد أنهم اقتلعوا جذور الشح فحلت السماحة في قلوبهم، وأكدوا بذلك وثيق الصلات بالمجتمع.

الصفة السابعة :هم يدرؤون بالحسنة السيئة. إنهم إن غلب عليهم ضعفهم البشري فقارفوا السيئة تيقظوا، وتحركت النفس اللوامة، فأتبعوا السيئة بالعمل الحسن المرضي عنه، قال ﷺ: وأتبع الحسنة السيئة تمحها. وتنسحب هذه الصفة على

---

[1] سورة يس ، آية 59 -60

الاستعداد النفسي لطرد وســاوس الشـيطان ودواعـــي الشـــهوة. وكــذلك الصـــفح بعـــدم مقابلة الشر بالشر. فدفع الســيئة بالحســنة بـــاب واســـع لتوثيــق الصـــلات الاجتماعيـــة، والتسامي عن النزول إلى مراتب الســاقطين، كـــالعفو عـــن المســـيء والإحســـان إليـــه، والعدول عن السيئة بعد الهم بها، ويدفعون مـــن رأوا منـــه منكـــرا بالطريقـــة التـــي هـــي أحسن لينكف ولا يعاند.

هذه الباقة ضمت العناصر الذاتية، التي بهـــا يســلك صـــاحب العقـــل الـــراجح عنـــد ورود مقتضاها، العمل على ما بينته الآية، فهـــو اتصـــاف بـــالقوة. أولئـــك هـــم جـــديرون بـــأن تتحقق لهم الخاتمة السعيدة فيختصون عن جدارة بأن لهم العاقبة في الدار الآخرة.

23- جنات عدن يدخلونها ومن صلح...من كل باب.

صورت الآية العاقبة التي خص بهـــا أولـــو الألبـــاب تصـــويرا يضـــاعف الشـــوق إليهـــا، ويساعد بالتالي على الالتزام بالمنهج السالك إليها:

أولا: هي جنات يقيمون فيها إقامة ســـرمدية لا تنقطـــع. فتمـــتُّعهم بنعيمهـــا يختلـــف عـــن النعيم الدنيوي الذي يعكر صفوه خوف انقطاعه.

ثانيا: الابتهاج بصحبة الأهل من الآباء والأزواج والذرية. يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح، أو خلف صالح أو زوج صالح ممن تحققت فيهم هذه الصفات، أنه إذا صار إلى الجنة لحق به صالح أصوله وفروعه وزوجه. وما ذكر الله هذا إلا لهذه البشرى كما قال تعالى: "والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء" [1]- لكن آية الرعد أشمل من سورة الطور التي اقتصرت على ما ينفع الذرية من الأصول.

ثالثا: مشهد التهاني من الملائكة الوافـــدين يقـــدمون تهـــانيهم. يـــأتون زرافـــات ووحـــدانا من كل باب. وسجل القرآن صيغة التهاني: سلام علـــيكم، هنيئـــا لكـــم الأمـــن الـــذي حـــل في قلوبكم وفي محيطكم. فهو سلام شامل ســـابغ، ويضـــيفون التنويـــه بصـــبرهم علـــى الطاعة، وتجلدهم لقمع دواعي النفس وتزيين الشـــيطان؛ ويظهـــرون إعجـــابهم بمـــا آتـــاهم الله من فضل لا يشوبه نقص بكلمة جامعة (نعم عقبى الدار) دار عاقبتكم .

26-والذين ينقضون عهد الله....لهم اللعنة ولهم سوء الدار.

هذه الآية تفصل حالة أضداد الـــذين يوفـــون بعهـــد الله. فصـــرحت مشـــنعة علـــيهم أنهـــم ينقضون ما عاهدوا الله عليه وما التزموا به، ولـــو كـــان موثقـــا ومؤكـــدا. وتقـــوى فـــيهم

---

[1] التحرير والتنوير ج 13ص 131

دواعي الأنانية إلى درجة أنهم لا يرعون الصـلات الإنسـانية التـي يقـوم عليهـا البنـاء الاجتماعي في جميع درجاته الأسرية وما فوقهـا، فـلا يهمهـم أمرهـا. وبالتـالي تكـون اختياراتهم ناظرة دائما إلى مصالحهم الخاصة، لا يمتـد تفكيـرهم إلـى الغايـات البعيـدة النافعة، ولا يقدرون حقـوق الآخـرين ولا ضـوابط الاسـتخلاف المسـؤول عنـه كـل مكلف . فيفسدون في الأرض بتجاوزاتهم، وهذا مظهـر مـن مظـاهر الحضـارة الماديـة المنحرفة، التي عم فسادها البر والبحر والجـو، فبلـغ حـدا أضـر بالإنسـان وبـالحيوان والنبات، مما يهدد بتحولات بيئية تكون كارثة على الأرض ومن عليها.

ثم يأتي الحكم العادل فيهم: قُضي بـأنهم مبعـدون عـن رحمـة الله وفضـله، ومـن كـل خير يرغب الإنسان في حصوله، وأن مـآلهم يـوم القيامـة المـآل السـيء الجـامع بـين المهانة والعذاب .

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

البسط : الكثرة والدوام.

يقدر : هو عكس البسط، يضيق.

المتاع : ما يتمتع به ولا يدوم .

الإنابة : الرجوع.

الاطمئنان : السكون بحصول اليقين وانتفاء الشك.

طوبى : حسن.

ذكر الله : يشمل القرآن وذكر الله باللسان.

المتاب : التوبة

بيان المعنى الإجمالي :

تقرر الآية أن التوسعة في الرزق غير مرتبطة بالصلاح، ولم يطلعنا المولى على الحكمة التي يبسط بها الرزق أو يضيقه، وقد يبسط الرزق للكافرين ليزدادوا إثما ثم يكون عليهم حسرة. وقد يبسط الرزق للصالحين لترقى مراتبهم بالشكر والإنفاق. وقد فرح الكفار بما جمعوه من أموال ظنا منهم أن ذلك هو الغاية التي ليس وراءها غاية. وذهلوا عن كون متاع الحياة الدنيا يسرع إليه الفناء ولا يخلو عن نقص وكدر.

يقترح المشركون على رسول الله أن يأتيهم بمعجزات تقنعهم بأنه رسول من عند الله كإحياء آبائهم أو نسف جبال مكة نسفا لتتحول الأرض إلى سهول. رد عليهم القرآن: بأن الهداية أو الضلال لا ترتبط بالآيات، ولكن من فتح عقله وقلبه للآيات الواردة آمن، ومن أغلق عقله وقلبه يحرمه الله ألطافه فيستمر على كفره.

ونوهت الآية بالمؤمنين الذين آمنوا إيمانا لا يداخله ريب ولا شك فسكنت قلوبهم لما آمنوا به. وزادهم القرآن وذكر الله بألسنتهم طمأنينة ورضا، إن ذكر الله تطمئن به القلوب.

إن الذين جمعوا بين الإيمان والاستقامة، فصلحت أعمالهم، يهنأون بالمنزلة الحسنة، وبالعاقبة الطيبة.

إنا أرسلناك إلى أمة الدعوة الشاملة لجميع البشر في جميع الأعصار، على السنة التي بعثنا بها رسلا إلى أممهم في القرون الماضية. وذلك لتتلو على البشر آيات القرآن الذي أوحيناه إليك. ومن تضليل المشركين كفرهم بالرحمن مدعين أن الله والرحمن شيئان. قل لهم: الرحمن هو ربي الواحد الأحد لا شريك له، أعتمد عليه وحده في هدايتي وتسيير أموري، وإليه سبحانه أعود بالتوبة.

بيان المعنى العام :

26-الله يبسط الرزق لمن يشاء .....الدنيا في الآخرة إلا متاع.

لما صرحت الآية السابقة بغضب الله على الذين لا يوفون بما عاهدوا الله عليه، مع أنه يلاحظ أن بعضا منهم قد وسع عليهم في الحياة الدنيا بوفرة الأموال وما يصحبها من نعيم. رفعت هذه الآية هذا اللبس بتصريحها بالقانون الإلهي في التوسعة في الأرزاق أو التضييق فيها؛ فبينت أن فيض المال على الإنسان غير مرتبط بالاستقامة، وليس جزاء عنها. كما أن حبسه غير مرتبط بالغضب ولا هو جزاء عنه. ولكن الله يتصرف بحكمته التي حجب عنا أسرارها. فقد يبسط الرزق للعصاة لتتضاعف آثامهم، ويبسطه للصالحين فتسمو منزلتهم بالشكر وأداء حقوقه،

ويضيّق الرزق على بعض الصالحين لينالوا ثـواب الصـبر. وفـرح الكفـار بـالأرزاق التى يسّرها لهم، فطغوا بما نـالهم، وحسـبوا أن نعـيم الـدنيا هـو الغايـة التـي لـيس وراءها غاية أسمى منها. وما أقصر نظرهم فإن ما ينعم بـه الإنسـان فـي الحيـاة الـدنيا إذا قيس بنعيم الآخرة يبدو تافها، إذ أن نعيم الـدنيا محـدود زمنـه يسـرع إليـه الفنـاء، مشوب بنقص وكدر، أما نعيم الآخرة فقد جمع بين الدوام والكمال.

27-29، ويقول الذين كفروا لولا أنزل ...وحسن مآب.

يسجل القرآن اعتراضات الكـافرين لـيقمعهم بالحجـة البينـة. كـرروا طلـب خـوارق للعادة مدعين أنهم بذلك يتيقنون أن محمدا ﷺ مرسـل مـن ربـه. طلبـوا أن يحيـى لهـم اباءهم، أو أن يحول أرض مكة إلى سـهول كسـهول الشـام صـالحة للزراعـة، ونحـو ذلك من المقترحات التي هي في الحقيقـة قلـب للأوضـاع ونقـض للمنطـق السـليم. ان الله لما بعث رسوله أيده بالمعجزات التي تبقـى مـع الـزمن ولا تنحصـر فـي بيئـة ولا زمن معيّن. والله في عزته وجلالـه يؤيـد رسـوله بمـا يحصـل بـه اليقـين بصـدقه. وتعالى أن ينتظر ما يقترحه المعرضون عنه ليلبّـي مـا يطلبـون. ومـن ناحيـة أخـرى فإن الإيمان أو الضلال غير مـرتبطين بـالمعجزات، كمـا قـال تعـالى : "لقـالوا إنمـا سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون"[1] ولكن حصـول أحـدهما تـابع للتقـدير، فمـن شاء أن يضله منع عنه ألطافه، فيقوم على عقله وبصـيرته حجـاب يصـده عـن اتبـاع الحق. ومن شاء له الهداية أسعفه بألطافـه فينفـتح قلبـه وعقلـه وروحـه فيسـرع إلـى ربه. ويعود إلى هدايته يستلهم منها ما يزيده ضياء في يقينه ورشدا في سلوكه .

29- الذين آمنوا وعملوا الصالحات...وحسن مآب.

في مقابلة المشركين الذين ضغطت علـيهم الشـكوك وأخـذوا يقترحـون الايـات المبـددة لحيرتهم، ينوه القرآن بالذين آمنوا وتتابعـت علـى عقـولهم الآيـات فأكسـبتهم طمأنينـة وسكونا، وأكدت يقينهم صارفة وسـاوس الشـياطين. كـان هـذا الحاصـل نابعـا مـن دراسة القرآن والتأمل في مضامينه والأنس بأسلوبه العـالي؛ نعـم تكتسـب القلـوب فعـلا برد اليقـين بمخالطـة القـرآن. فتسـتجيب النوايـا والأفعـال لهديـه وتـتمحض للعمـل الصالح الذي يطبق ما نزل عليهم صـورة وضـمونا. وتعلـن النتيجـة مصـرحة بـأنهم نالوا الخير الكامل الذي ارتبط بهـم (طـوبى لهـم) وعـاقبتهم العاقبـة الحسـنة التـي ترضيهم، وليس فوق الرضا منزلة.

---

[1] سورة الحجر آية ١٥

30- كذلك أرسلناك في أمة قد خلت ....وإليه متاب.

على هذا النحو أرسلناك إلى أمة الدعوة الشاملة للبشرية في عصره وما يتلوه من الأعصار. وإنك لست بدعا من الرسل فقد أرسلنا قبلك رسلا مضوا في التاريخ. إنك مكلف بأن تتلو عليهم القرآن الذي أوحيناه إليك، والذي هو حجتك الدائمة ومعجزتك العابرة للزمن. والذي بلغ من الوضوح والبيان أقصى غايات البيان. ومع ذلك يواصل المشركون الكفر بالله الذي رحمهم برسالتك.

و من شغب المشركين قولهم: إن محمدا يدعو إلى التوحيد وفي الآن نفسه يدعو لعبادة الله ولعبادة الرحمن. يرد القرآن عليهم، ويلقن الله نبيه ما يفضحهم ويرد شغبهم، قل لهم: هو الرحمن ربي الذي تولاني بألطافه وهو واحد لا إله إلا هو، فالله هو الرحمن، لا أعتمد إلا عليه. وإليه وحده أتوب، فهو الذي يقبل توبتي.

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ :

قطعت به الأرض : ضاقت مسافات الأسفار.

الأمر : التصرف الذي به تتكون الأشياء.

ييأس : يوقن ويعلم .

القارعة : الرزية المباغتة التي تقرع قلب صاحبها لفظاعتها.

بيان المعنى الإجمالي :

هذا القرآن هو أسمى الكتب المنزلة من الله، وهو جار على سنة الكتب السابقة في تضمنها لوحي الله، الذي من شأنه هداية الناس للحق. ولو كان كتاب من الكتب تحولت به الجبال من أماكنها أو قربت به المسافات أو قام به الموتى من أجداثهم فتكلموا لكان هذا القرآن أولى بذلك، لكن هذا ليس من مهمة الكتب المنزلة. بل إن المتصرف في الكون هو الله وحده. فليبق المؤمنون على يقينهم أن الله لو أراد أن يهدي بالقرآن جميع الناس في قسرهم على الإيمان لفعل. ولكن إرادته تعلقت بأن يكون البشر مكلفين يسعدون باختيارهم طريق الهدى، أو يشقون باختيارهم طريق الضلالة.

ستتواصل علـــى المشـــركين الكـــوارث بســبب كفــرهم وصـــدهم عـــن طريـــق الله، أو تزعجهم بحلولها قريبا من مكان إقامتهم، وسيتواصـــل هـــذا الانزعـــاج حتـــى يـــأتي وعـــد الله بالقضاء على الشرك. إن الله إذا وعد فوعده آت لا ريب فيه.

بيان المعنى العام :

31- ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ...إن الله لا يخلف الميعاد.

أعلن القرآن في الآية السابقة أن على البشر أن يخضـــعوا لمـــا يـــأتيهم مـــن ربهـــم، وإنـــه من قلب الأوضاع أن يتحول العبيد إلـــى مقتـــرحين للأدلـــة الماديـــة التـــي ربطـــوا بهـــا الإيمان. وتؤكد هذه الآية ذلك المعنى إذ تتضـــمن: أنـــه لـــو وجـــد قـــرآن يســـير الجبـــال فيحولها من أمكنتها، ويحولهـــا إلـــى ســـهول تتســـع للزراعـــة والرعـــي. أو يـــؤثر فـــي المسافات فيختصرها ويقرب الأبعاد. أو يحيـــي المـــوتى فيكلمـــون أخلافهـــم. لكـــان هـــذا القرآن محققا لذلك. لكن ذلك لـــيس مـــن مهمـــات الكتـــب المنزلـــة علـــى الرســـل. فـــإن التصرف في الكون قام على سنن ضبطها رب العـــالمين وأجـــرى عليهـــا ســـير الكـــون، ولا تتحول أي سنة من تلك السنن إلا بتحويله سبحانه .

فليطمئن المؤمنون لإيمانهم. ثم اســـتفهم القـــرآن اســـتفهاما إنكاريـــا لانتفـــاء يقـــين الـــذين آمنوا: أي إن يقينهم ثابت لم يتزعـــزع، إن الله قـــادر علـــى هدايـــة النـــاس جميعـــا بـــأن يقسرهم على الإيمان. ولكنه تعالى لم يرد أن يكون الإيمـــان قســـريا. لأنـــه مخـــالف لمـــا قدره من التكليف الذي لا يتحقق إلا مـــع الاختيـــار. وبالاختيـــار يتفاضـــل البشـــر فيكـــون منهم الشقي والسعيد. فكلمة ييأس مع أن مستعملة اســـتعمالا اشـــتهر حتـــى أصـــبح ســـابقا إلى الأذهان في معنى اليقين. والاستفهام الإنكـــاري الـــداخل علـــى النفـــي يحصـــل منـــه الثبوت بطريقة مؤكدة. إنكار عدم يقين المؤمنين، يساوي يقينهم يقينا قويا.

سيستمر الخوف في قلوب المشركين، فكلما خرجـــوا مـــن مصـــيبة حلـــت بهـــم مصـــيبة أخرى، أو تحل قريبا من دار قـــرارهم، فينزعجـــون لهـــا ويتعمـــق خـــوفهم، والمصـــائب متنوعة تزيل عن المشركين الطمأنينة، كـــالقحط والأمـــراض والإحســـاس بفقـــدان الأمـــن والمناعة. وسيستمر الأمر بهم على هذا النحو إلـــى أن يـــأتي وعـــد الله بنصـــر المـــؤمنين نصرا يقلع دابر الشرك ويعلي كلمة التوحيد. إن الله إذا وعـــد فـــإن تحقـــق وعـــده مؤكـــد ولا يخلف ميعاده، إذ هو القادر المتصرف في الكون كله.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ

تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الاستهزاء : مبالغة في الهزء والسخرية.

الإملاء: الإمهال.

قائم: رقيب بما يشمل الحفظ والعلم الدقيق.

مكرهم : إخفاء وسائل الضر.

الواقي : الحائل دون بلوغ الضر.

مثل : صفة . كقوله تعالى وله المثل الأعلى أي الوصف الأعلى.

أكلها : ما يؤكل فيها.

العقبى : حال تتلو أخرى قبلها.

بيان المعنى الإجمالي :

يسلي الله نبيه بأن ما يطلبه المشركون من الآيات، هم يعلمون أن الرسول لا يجيبهم إليها، ولكن طلبوها استهزاء به وطعنا في نبوته، يسليه بأن هذا أمر جرى عليه الكافرون مع المرسلين السابقين، وأن الله يمهلهم ثم يسلط عليهم عذابه السريع الماحق، فاعجبوا من قوة أخذه .

وبعد أن تجلى الأمر بقوله تعالى: وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب، كشف القرآن عن تنكرهم ومخالفتهم لما هو بديهي فسألهم منكرا عليهم: أتشركون بالله الذي يطلع على ما يجري في كل نفس من خير أو شر ويجازي عنه، وهو الذي خلقها ويسر لها بقاءها ورزقها، تشركون به أصناما جامدة لا تضر ولا تنفع ؟ قل لهم يا محمد سموهم شركاء فالتسمية لا تخرجهم عن حقيقتهم .

أم أنتم تريدون إنباء الله بما لا يعلم له سبحانه وجودا في الأرض، وهو العليم بكل صغيرة وكبيرة، فعدم علمه سبحانه بهؤلاء الشركاء ينفي وجودهم؛ أم تريدون إثبات

الشركاء بظاهر كلامكم المنافي للحقيقة، والظواهر غير مثبتة. ولكن السر الخفي أن رؤساء المشركين قد ضللوا أتباعهم ليتمكنوا من قيادتهم والتسلط عليهم.

وبذلك استحق التابعون والمتبوعون أن ينزل عليهم العذاب في الحياة الدنيا ذلة وهزيمة وقلقا، وسيكون عذابهم في اليوم الآخر أعظم مشقة مع يأس من وجود أي وقاية تحميهم من عذاب الله.

إن الصورة التقريبية للجنة التي وعد الله بها عباده المتقين، أن الأنهار الجارية الصافية تتخللها، وأن ثمارها لا تنقطع، كلما تناول منها المتنعّمُ شيئا خلفه في الحال غيره، وأن ظلالها غير متقطعة. تلكم الجنات هي عاقبة المتقين . وفي المقابل فإن عاقبة الكافرين النار.

بيان المعنى العام:

32- ولقد استهزئ برسل من قبلك ....فكيف كان عقاب.

هذا أمر محقق، حاصله أن الرسل السابقين لما قاموا بتبليغ ما أنزل إليهم قابلهم المشركون بالسخرية والاستهزاء، جرى هذا مع نوح ومن جاء بعده .قال تعالى في نوح: كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه، ومع موسى لما قارن فرعون نفسه به فقال: أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين. فأراد الله أن يسلي نبيه ويثبته حتى لا يتأثر بما يقوم به المشركون من إيرادات لا يقصدون تحقيقها، لكن يرمون إلى الاستهزاء به بإظهار عجزه عن تلبية مطالبهم.

والله مع رسله يؤيدهم، فيمهل الكافرين ولا يعجل لهم بالعقوبة، ثم يستأصلهم فيأخذهم أخذا سريعا لا ينفلتون منه، ودعا كل سامع لاستحضار عذابه ليتعجب من شدته وإحاطته.

33-أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ...و من يضلل الله فما له من هاد.

كان الجواب الذي أمر رسول الله ﷺ أن يواجه به المشركين قاطعا، في الآية السابقة: وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب. المتضمن شقين تسجيل كفرهم، وتسجيل ما استقر في قلب رسول الله من الحقيقة: أن ربي هو الذي تتابعت عنايته بي، بما تفيده كلمة ربي من الرعاية والعناية والألطاف، وأنه واحد لا شريك له، وأن تعلقه به هو تعلق يصاحبه في نشاطه، ولا ينفك عن العودة إليه. ومن آثار ذلك ما تلقاه من القرآن ومن الوحي الهادي إلى سواء السبيل.

وأتبع القرآن هذا بإظهار فساد تفكير المشركين، وذلك بإيقاظهم بسؤال مرتب على الجواب القاطع السابق، بالمقارنة بين[رب محمد المطلع على كل كبيرة وصغيرة

العالم بما يجري في نفس الإنسان، مشاعره وإراداته ومقاصده، يتولاه بالحفظ ويمده بالإمدادات المتنوعة الحافظة لكيانه النفسي والجسمي والروحي. وهو الخالق الرازق، الشامل قيامه على الإنسان في دنياه بما ييسره له من عون وألطاف، وفي أخرته بجزائه عما قام به؛ ولا يخرج عن علمه شيء من ذلك، فهو الرب العادل يبشر بقوله: (القائم على النفس بما كسبت) الصالحين بحسن الثواب، ويهدد ويوعد الضالين بما هم أهل له من سوء العقاب] وبين أصنامهم ومعبود اتهم العاجزة عن رعاية نفسها فضلا عن حماية من يلوذ بها. وهذه المقارنة تظهر سفه عقولهم باتخاذهم شركاء لله في ألوهيته، قل لهم :سموهم آلهة فإنه ليس لهم من الكمال والقدرة والخلق أي شيء، ليس لهم إلا تسميتكم لهم آلهة، تسمية لا حقيقة لها. وما كانت الأسماء موجدة لما لا وجود له في الواقع. أم تقصدون إلى إنباء الله بوجود شركاء، والله المحيط علمه بكل ما حوته الأرض، لا يعلم أن له شريكا، وهو ما ينفي وجود الشريك إذ لو كان موجودا لعلمه. كما تقول لآخر: إنك تملك دارا في مكة، فيجيبك لو كنت أملكها لعلمت، مما يفيد نفي التملك.

أم تريدون إثبات الشركاء بقول ظاهره مخالف لمضمونه؛ وإذا كان ظاهر الكلام يناقض مضمونه فذلك أصرح ما يثبت كذبه وبطلانه.

وإنك إذا تعمقت ليتضح لك أسباب اتخاذهم شركاء لله، فإنه يتبين لك أن رؤساءهم زينوا لهم عبادتها والتقرب إليها، ليذهبوا بما عندهم من عزة، فيكون التحكم فيهم سهلا. ولذا تجد أول هدف للمستبدين الحيلولة بين أتباعهم وبين عقيدة التوحيد، فيحرضون على التعطيل وعلى انتشار الخرافة، وعلى التعلق بالمادة والهوى.

وسجل القرآن في النهاية ما بلغوه من الفساد أنهم وقفوا حاجزا بين الناس وإتباع سبيل الهداية والأخذ بالصراط المستقيم.

لقد حرمهم الله ألطافه، وتمسكوا بما يعتقدون أنه يجلب لهم النفع العاجل فضلوا،

34 - لهم عذاب في الحياة ....وما لهم من الله من واق.

وإذ بين القرآن عمل الرؤساء على إضلال تابعيهم، وانقياد التابعين للضلالات فأشركوا بالله، والشرك ظلم عظيم، أومأ إلى استحقاقهم سوء الجزاء في قوله تعالى:" ومن يضلل الله فما له من هاد" ثم صرح به في هذه الآية: أن الله خصص لهم عذابا في حياتهم الدنيا من القلق والحيرة والذلة والهزيمة، وذلك العذاب النازل بهم هو عذاب هين بالنسبة لما يترصدهم من عذاب الآخرة. ولا يجدون واقيا يقيهم منه فيجمع لهم اليأس والنكال.

35- مثل الجنة التي وعد المتقون ...وعقبى الكافرين النار.

أمور الأخرة من نعيم أو عذاب نمط غير ما نعلمه في الدنيا، ولكن القرآن قرب إلينا حسب مداركنا ما يلقاه البشر يوم القيامة ليحرض الصالحين على مواصلة تقوى الله والعمل بما يرضيه، وليهدد الكفرة حتى يقلعوا عن فسادهم.

و هذه الآية أتت على تلكم الطريقة، فمثلُ الجنة التي وعدها الله المتقين ووصفُها: أنها تتخللها الأنهار الصافية الجارية، وإنتاجها غير منقطع على خلاف ما عليه الإثمار في الدنيا، إذ كل ثمرة تقطف لا يخلفها إلا بطن أخر عند أمده. وأشجارها كثيفة ملتفة فتكون ظلالها متصلة، وهو عزيز وجوده في الدنيا، وأتم ما تكون عليه الجنات، إذ لا تكون على مساحات كبيرة.

وإذ تهيأت الصورة وقُرّبت لاستحضارها، تؤكد الأية أن هذه الجنة، هي العاقبة التي سيكون إليها مآل المتقين. وفي المقابل فإن عاقبة الكافرين نار جهنم بما تجمعه من عذاب جسمي ونفسي، أعاذنا الله منها بفضله وكرمه.

وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأحزاب : جمع حزب، جماعة فيها غلط وتعصب.

مآبي : رجوعي.

حكما : ما تضمنه القرآن من الحكمة والمعاني.

الولي : النصير.

الواقي: المدافع الحافظ.

الذرية : النسل.

أجل : وقت محدد.

كتاب : مكتوب مضبوط موثق.

يمحو : المحو الإزالة، وتطلق على التغيير والتبديل.
التثبيت : ضد المحو.
أم الكتاب : أصل الكتاب، العلم الإلهي بالنهايات.

بيان المعنى الإجمالي :

اختلف تأثير القرآن في أصحاب الكتاب اليهود والنصارى، فبعضهم فرح بما أنزله الله عليك، هذا الحق الذي نفى التغييرات التي حرفت الديانتين فابتعدت بهما عن المنهج الذي جاء به موسى وعيسى فاطمأنوا. وبعضهم تعصب وكون كتلة رفضت الحق الذي جئت به. قل لهؤلاء: لم يأمرني ربي إلا بتركيز الأصل الذي يقوم عليه الدين وهو تخصيص الله بالعبادة، فأنا لا أدعو إلا إلى الإخلاص له سبحانه، وإني أعود إليه دائما.

و على هذا النحو من الإنزال أنزلنا عليك القرآن حالة كونه جامعا لمنهج الحكمة ولأصولها، وحالة كونه بلسان عربي، لما في هذه اللغة من مزايا، بها جمعت بين الثبات والتطور. واحذر أن تستجيب لمقترحاتهم الصادرة عن هواهم فتطلب مني أن أؤيدك بما يطلبونه من الآيات، إن الأمر خطير تفقد به النصير والحامي. وهو في الآن نفسه تحذير للمؤمنين: أيها المؤمنون احذروا أن يستنزلكم الكافرون لتتراخى مقاومتكم لما يدعونكم إليه من هواهم، فإن من يتراخى فيتبعهم لا يجد نصيرا ولا حاميا من دون الله.

و من شغب المشركين في مقاومتهم للدعوة أن اعترضوا على كون محمد مرسلا من ربه، لأنه تزوج ولأنه أنجب. فرد الله عليهم بأنه قد تتابعت رسل الله للبشرية في التاريخ، وأنهم كوّنوا أسرا فتزوجوا وأنجبوا، فأنت لست بدعا من الرسل. وإذا كان عيسى لم يتزوج ويحيى كان فاقد الرغبة في الاتصال بالنساء فذلك استثناء وليس القاعدة.

عود إلى رد ما اقترحوه من الآيات، فأثبتت الآية أن كل رسول يقدم المعجزة التي تأيد بها من الله ولا يستطيع أن يأتي بغيرها. وإظهار أي معجزة إنما يتم في الأجل المقدر سابقا بالخصوصيات الذي أرادها الله. وعلى هذا النحو تجري جميع المظاهر في الكون؛ فالله يتصرف بحكمته فيثبت ما شاء تثبيته ويمحو ويزيل ما يشاء إزالته، فعلم البشر أو الحفظة لا يبلغ النهايات التي هي بيد الله وحده وتحت تصرفه. وهذه النهاية هي محفوظة في أم الكتاب الذي هو علمه الأزلي.

بيان المعنى العام :

36- والذين آتيناهم الكتاب ....وإليه مآب

دعا النبي ﷺ البشر جميعا إلى الدين الذي أوحاه الله إليه، فآمن به من المشركين من يسر الله له الاهتداء، وقد وضحت أمرهم الآيات السابقة؛ وواصل بعض المشركين ما هم عليه، وقد ناقشتهم الآيات السابقة وهددتهم.

و دعا أهل الكتاب، فمنهم من آمن به ووجد في نفسه انشراحا، بعد ما كان يلفها القلق من التغييرات التي أدخلها رجال الدين على صفاء العقيدة بعد نزولها. فوجدوا فيما أنزل على رسول الله ﷺ ما خلّص العقيدة من التراكمات التي أبعدت اليهودية والنصرانية عن وضوح الوحدانية. وبعض أهل الكتاب تعصبوا للصورة التي هم عليها كاعتقاد النصارى أن عيسى عليه السلام ابن لله، واعتقاد اليهود أنه كاذب وليس رسولا، وتمسكهم بما ورد في التوراة من تجسيم لله.

قل لهم يا محمد قولا واضحا يكشف عن منهجك ويبين العقيدة التي تدعو إليها: إني لم أؤمر إلا بشيء أصلي هو قوام دعوتي، أن أفرد الله بالعبادة، وأنفي أن يكون له شريك لا في ذاته ولا في ملكه ولا في تصرفه، إليه وحده أدعو البشر جميعا للإيمان به ولتطبيق ما ورد في كتابه، وإليه أرجع في كل أمر وملمة أستغيثه لينصرني ويثبتني.

37- وكذلك أنزلناه حكما عربيا....من ولي ولا واق.

إنه على هذا النحو من العناية في الإنزال، أنزلنا القرآن حالة كونه متضمنا أولا للحكمة، ترتقي به عقول الناظرين فيه، ويعطيهم منهجا في الفكر يمكنهم من إدراك الحقائق والفهم الصحيح العميق لما يعترضهم في حياتهم. وثانيا عربيا في لسانه، هذه اللغة التي بفضل خصائصها الذاتية ومرونتها استطاعت أن تتحمل كلام الله وأن تبلغه للناس، وأن تبقى قدراتها البيانية مع الزمن. وفيه إيماء إلى المشركين أن الله أعزهم لما اختار العربية لغة لقرآنه، فكان من واجبهم أن يسرعوا إلى الإيمان به ونصرة نبيه" لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون"[1] .

وتختم الآية بتحذير المؤمنين على أبلغ وجه من التساهل في الثوابت مع المشركين، لتقريبهم من الإسلام، فإنهم يكيدون لهذا الدين، ويقدمون طلبات يعلقون عليها دخولهم في الدين، ويوهمون المسلمين أنهم إذا تنازلوا فقبلوها ستتوحد الكلمة ويقوى الدين بذلك. وما يعرضون إلا أهواء نابعة من الباطل وسائرة مع الضلال، بعيدة عن الحق. وللتحذير التحذير البالغ

---

[1] سورة الأنبياء آية ١٥

أسند الاتباع إلى رسول الله المعصوم، ليظهر القرآن أنه إذا كان الرسول على جلالة قدره ومكانته لا يغفر له اتباع أهوائهم فكيف بغيره.

وحمله بعضهم على أن الخطاب مقصود به النبي ﷺ قصدا أوليا، حتى لا ينساق إلى طلب ما اقترحوه من الآيات. اعلم يا محمد أنك، لشدة حرصك على انتشار الإيمان، لو اتبعت مطالبهم النابعة من الهوى، فتوجهت بالطلب من الله أن ينزل عليهم الآيات التي اقترحوها، فإنك لا تجد نصيرا ينصرك ولا من يقيك من عاقبة دخولك في ذلك الأمر. وينسحب المفهوم على المؤمنين حتى لا تتراخى عزائمهم في مواجهة الكفر الذي لا يضمر للإسلام إلا الشر.

38-39، ولقد أرسلنا رسلا من قبلك...وعنده أم الكتاب.

كانت المعركة مع الشرك معركة شرسة، يعملون بكل وسيلة على تشكيك الناس في صدق الرسالة، ويحاولون أن يختلقوا أشياء موهومة ليؤثروا بها على الدهماء. فكان مما اعترضوا به: أن النبي ﷺ كون أسرة فله زوجة هي أولا: أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها، وأنجب منها. وقالوا إن مقام النبوة يتنافى مع تكوين الأسرة. فرد الله عليهم بأن ما قدموه هو كلام فاقد لكل أصل، ولكل منطق. إذ أن سنة الله في بعثة الرسل: أنه يأذن لهم في الزواج وينجبون، وإن المعترضين عربا ويهودا ونصارى ينتسبون إلى إبراهيم. ولولا أن إبراهيم تزوج أكثر من امرأة وأنجب لما كان لهم وجود ولا لبني إسرائيل، وما عيسى إلا واحد من ذريته عليه السلام.

ثم رد القرآن على اقتراحهم الإتيان بآية حسب مقاييسهم؛ إن سنة الله أيضا في الرسل أنهم يقدمون معجزاتهم التي أيدهم الله بها، ولا يستطيعون أن يتأيدوا إلا بما قدره الله من خصوصية الآية التي عينها وأنجزها، هذه الآية التي يظهرها الرسول تبعا للإذن الإلهي له، ويعرضها على البشر ليثقوا في صدقه ويتبعوه.

ثم أظهر القرآن قاعدة من قواعد التصرف الإلهي في الكائنات سواء أكان إظهار المعجزة المؤيدة أو ظهور أي أثر في الوجود: حاصل ذلك أن لكل حادث أجل مضبوط لا يتقدم عنه ولا يتأخر، قد وثق توثيقا لا يتصرف فيه بإظهاره أو إزالته إلا الله سبحانه. ثم فصل هذه القاعدة: أن الله يمحو ويزيل ما شاء إزالته، ويثبت ويبقي ما شاء إبقاءه. على معنى أن ما يحدث من الحوادث تبعا للعلم الإلهي تترتب عنه نتائج، والنتائج مثبتة في علم الله، ثم إن استمرار تلك النتائج أو قطع استمرارها هو أيضا في علم الله وينفذ بقدرته. خذ لذلك مثلا، ينزل الله حكما فيبقى ثابتا إلى الوقت الذي قدر فيه انتهاء العمل به فيمحوه من التشريع، ويعمل المرء

عملا سيئا فتثبت نتائج عصيانه في صحائفه، ثم يهتــدي فيســتغفر ويفعــل الخيــر فيمحــو الله عنه سيئاته، ويعمل الإنسان بعمل أهــل النــار عقيــدة أو ســلوكا، فيكــون مــا يعلمــه الملائكة والحفظة أنه من أهل النار، ثم يهتدي ويتــوب ويصــلح مــا أفســد فيكتــب أنــه من أهل السعادة. وكذلك العكس. ولا تغير في علمه ســبحانه، وإنمــا يظهــر أثــر علمــه في الأجل الذي حدده مسبقا. وهذا ينسحب علــى جميــع الظــواهر الكونيــة والتشــريعية. فقوله ما يشاء عام عموما واسعا لا يستطيع أحد حصره ولا الإتيان على مضامينه.

وعنده سبحانه، مخزون في علمه ما سيثبته ومــا ســيغيره فــي آجالــه، وهــي النهايــات التي لكل ظاهرة، وذلك لا يقبل التبديل ولا التغيير بــل ينفــذ حســبما هــو مثبــت فــي أم الكتاب يختص الله به ولا يطلع عليه أحدا، والذي هــو علــى أفضــل التفاســير: علــم الله الأزلي بما سيتغير وما يثبت في النهاية.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا معقب : لا راد ولا مناقض

بيان المعنى الإجمالي :

تضمنت الآية وعدا لنبيه بــأن الله ناصــره ووعيــدا للمشــركين: أنــه ســيهزمهم. وأن الله سيقر عينك ببعض الانتصارات، وذلك تحت مظلة قولــه تعــالى **لكــل أجــل كتــاب**، فمــا لم يتحقق من الانتصــارات فــي حياتــك فــذلك لا يزعجــك ولا يســبب لــك أســفا، لأن مهمتك هي إبلاغ الوحي، أما حساب الكافرين حســابا يكــون جــزاء عــن كفــرهم فــذلك مما اختص به الله ينفذه حسبما قدره.

و العجب من المشركين أنهم يرون بأعينهم أن الخنــاق يضــيق علــيهم، وأن مــا حــولهم من سكان الأراضي يدخلون في الإسلام ويتخلون عــن الشــرك. إن الله قــد حكــم بنصــر

دينه، وخذلان الشرك، وما حكم به الله لا يوجد من يستطيع نقضه، وتنفيذه سيكون سريعا في الأجل الذي قدره لا تردد فيه.

وتلك هي الطريقة التي جرى عليها الكفرة من الأمم التي مضت، عندما يطبق عليهم العناد، أنهم يلجؤون إلى المكر والتدبير الخبيث لصرف الناس عن الهدى. إن مكرهم سيحبطه الله ويظهر الحق، سينقلب مكرهم عليهم بقدرة الله التي لا تغلب؛ من شأن الماكرين أنهم يحبكون دسائسهم في خفية حتى لا يتيقظ لها من أرادوا إضراره، والله مطلع على سرائرهم، عليم بمكرهم، سيحاسبهم عليه وسينكشف لهم في النهاية من يفوز بالعاقبة الحسنة، سيتأكدون من خسرانهم، وسوف يعلمون ويشاهدون عاقبة المؤمنين في الدار الآخرة.

ومن مكرهم أنهم يضللون الدهماء بادعائهم أنهم لم يؤمنوا بمحمد لأنهم تأملوا فوجدوه ليس رسولا، ولو ثبتت رسالته لاتبعوه. وفي الحقيقة إن الذي أضلهم هو العناد وعدم التأمل في معجزاته. ويرد عليهم القرآن ردا قاطعا فيأمر الرسول أن يقول لهم: يكفيني الله الذي يشهد لي بصدقي، فإنه من كذب على الله لا بد أن يفتضح ويخيب، كما يشهد سبحانه بفجوركم وضلالكم وتمردكم على الحق. كما أنه يشهد لي العلماء الراسخون الذين درسوا الكتب السماوية السابقة ووجدوا فيها نعتي وبالتالي صدق رسالتي.

بيان المعنى العام :

40- وإن ما نرينك ...و علينا الحساب.

ترتبط هذه الآية بقوله تعالى: لكل أجل كتاب فتثبت أن ما وعد الله به نبيه من النصر والتأييد وما أوعد به المشركين من الهزيمة والعذاب آت لا محالة. ولكن الأمد الذي سينفذ فيه الوعد أو الوعيد هو في علم الله لا يتقدم عن أجله ولا يتأخر عنه كما تقتضيه الآية **لكل أجل كتاب**. إن الله يقر عينك بتحقق بعض ما أوعد الله به المشركين فتشاهد بعضا من هزائمهم في الحرب، وسيحرمهم الله من ألطافه مما يعرضهم إلى أنواع من النكبات في أموالهم وفي أبدانهم، وسينفذ البعض الآخر من الوعيد بعدك، فلا تأس. ذلك أن مجال مهمتك الشريفة التي تتحملها هي إبلاغ ما أو حيناه إليك وقد قمت بذلك، وأما عقابهم على جميع ما قدموا وحسابهم الحساب الشديد على كفرهم وسوء فعالهم فهو لله ينفذه متى شاء كما يشاء.

42- لقد حجب العناد عن أبصارهم ما هو مشاهد حاضر أمام أعينهم، فسألهم سؤال إنكار ليوقظهم مما ران عليهم من الغفلة عن إدراك الواقع والاعتبار به. ألم يروا ما أيد الله به الإسلام الذي أخذ ينتشر ويضيق الخناق كل يوم عليهم، وتخرج مساحات من الأرض من سلطانهم وتنضم إلى ساحة الإسلام ؛ مما ينبئ من له

بصيرة أن ما حل بجيرانهم سينتهي إلـيهم، وأن الإسـلام سينتصـر وتكـون لـه وحـده الكلمة. بهذا حكم الله، وحكمه ثابت لا يقبل الـنقض ولا تسـتطيع أيـة قـوة الاعتـراض عليه أو التدخل لتحويلـه أو الشـفاعة فيـه. وأن حسـاب رب العـزة سـريع، فإمهـالهم إنما هو لأجل قريب جدا إذا قيس بعمر الكون. وإن يومـا عنـد ربـك كـألف سـنة ممـا تعدون.

42-ولقد مكر الذين من قبلهم...لمن عقبى الدار.

منهج الكفر لما انفصل عن الحق واعتمد الهـوى، مـنهج واحـد لا يختلـف فيـه وضـع من مضى عن وضع المشركين مـن العـرب. مضـت أمـم قـابلوا دعـوات المرسـلين بالتصدي لهم بأنواع من الحيل والكذب والمراوغـة، قـاوموهم فـدبروا الاعتـداء علـيهم وعلى أتباعهم جسميا ونفسيا. إن مكرهم ضـعيف محـدود، هـددهم القـرآن بـأن المكـر المحيط بهم الذي لا يجدون منه فكاكا، هو المـآل الـذي قـدره لهـم حسـب مـا تكنـه أنفسهم، إن ما يجري في بواطنهم من مكـر يظهرونـه تـارة ويخفونـه تـارة أخـرى لا يغيب منه شيء عن الله فهو مطلع عليـه، وسـيجزيهم بـه جـزاء وفاقـا. وعنـدها يعلـم الكافرون علم اليقين من يفوز في الدار الآخـرة، بمعنـى أنهـم سـيتحققون أن الخسـران سيحل بهم، وأن السلامة والكرامة للمؤمنين يوم القيامة.

43 -ويقول الذين كفروا ....علم الكتاب.

من مكر المشركين الذي ألحقهم بمن قـبلهم مـن الضـالين فـي الآيـة السـابقة وهـددهم بسببه، ما دلت عليه هذه الآية التي تتضمن أن المشـركين يزعمـون أنـك لسـت رسـولا من عند الله، على معنى أنهم لو تحققوا أنـك مرسـل مـن عنـد الله لآمنـوا بـك. وهـم يقصدون إلى التأثير على الدهماء حتى لا يتبعوا ما أنـزل إليـك، وإن كـانوا فـي بـاطن الأمر هم أعرضوا عن التدبر في القـرآن وعـن النظـر فيمـا جئـت بـه مـن الحكمـة والآيات البينات الشاهدة بصدقك، إن العنـاد قـد حجـب بصـائرهم عـن الهـدى، ومـا تخفي صدورهم أكبر. ولـذلك تـولى القـرآن إجـابتهم فـأمر النبـي ﷺ أن يقـول لهـم :يكفيني الله الذي لا تخفى عليه خافية، الذي لا يهمـل مـن تجـرأ وكـذب عليـه، كمـا لا يهمل من رفض الحق وعمل علـى سـيادة الباطـل، يكفينـي سـبحانه أن يكـون شـاهدا بيني وبينكم. ومع شهادة الله شهادةُ من تعمق فيما أنزلـه الله مـن الكتـب السـابقة، وعلـم محتواها، وما تشير إليه وما بشـرت بـه مـن رسـالتي، هـؤلاء العلمـاء الـذين كنـتم تعودون إليهم لمعرفة أسرار الكتب المنزلـة، وتسـتنبئونهم عـن مضـامينها؛ واليـوم لمـا

شهدوا بما علموا كــذبتموهم وكفــرتم، فشــهادتهم فضــحت ســرائركم وتشــويهكم للحــق النازل من عند الله على لساني.

وفي ختام السورة تنويه بالعلم والعلماء الصــادقين. فالرتبــة التــي أحلهــم القــرآن إياهــا قد ســمت إلـــى مســتوى أن الرســول تأيــد بشــهادتهم. وفيــه إشــارة تكيــة للمــؤمنين المتمسكين بالحق ليعتمدوا على ما يرشدهم إليه العلماء ويخبرونهم به.

ســـورة إبراهيــم

سورة إبراهيم هي السورة الرابعة عشــرة فــي ترتيــب المصــحف. وأجمــع المفســرون وكتاب المصاحف على تسميتها بهذا الاسم. نزلــت علــى رســول الله ﷺ بمكــة. عــدت رتبتها في النزول السبعين. نزلت بعد سورة الشورى وقبل سورة الأنبياء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

الإذن : الأمر بفعل يتوقف على رضا الآمر.

الويل :الهلاك وما يتصل به من موجباته من شدة وبلاء.

يستحبون : يحبون حبا شديدا، يقصد منه أنهم يؤثرون.

يصدون عن سبيل الله : منع الداخلين في الإسلام.

ضلال بعيد : تعمقوا فيه تعمقا لا مطمع في خروجهم منه.

بيان المعنى الإجمالي :

نوه الله بما جمعه في القــرآن مــن مزايــا، فهــو منــزل مــن العــالم العلــوي لا دخــل للرسول في كلمة ولا آية ولا سورة منه، وأنه وكّل نبيــه الــذي انتخبــه مــن بــين البشــر لتبليغه وبيانه. وأن الغاية المقصودة من إنزاله، هي إخــراج النــاس مــن الظلمــات التــي كانت مطبقة عليهم من الشرك ومن الحيرة في المبــدأ والمصــير، وفــي نظــام العلاقــات الأسرية والاجتماعية، ومع الكون، إخــراجهم إلــى طريــق بــين واضــح هــو مــنهج الله العزيز الذي لا يغلبه شيء، المتفرد بالحكمة البالغة، فكــان صــراطه الــذي بينــه صــالحا لكل زمان ولكل مكان وللبشرية جميعها على اختلاف مستوياتها الفكرية وبيئاتها.

والهلاك للكافرين الذين سيحل بهم من العذاب الشــديد. إن هــذا العــذاب هــو جــزاء مــا اختاروه لأنفسهم من إيثــار الحيــاة الــدنيا وتقــديم مغرياتهــا علــى الفــوز فــي الحيــاة

الأخرة. هم يجتهدون لمنـــع الــراغبين فــي الإســلام بمــا يقــدرون عليــه مــن تضــليل وتأثير. إنهم يعادون الطريــق المســتقيم طريــق الله، ويعملــون علــى أن تســير حيــاتهم الخاصة والحياة بصــفة عامــة علــى اتبــاع الشــهوات والأنانيــة والبغــي. لقــد تمكــن الضلال من قلوبهم وعقولهم.

بيان المعنى العام :

1-2،الر كتاب أنزلناه إليك ....للكافرين عذاب شديد.

افتتحت السورة بالحروف المقطعة التي ســبق مــا يتعلــق بهــا فــي أول ســورة البقــرة. وأتبعت بالتنويه بالقرآن بذكر بعض من خصائصه:

1) هذا كتاب، ضبطت ألفاظه وحروفه ووثقت. فكان النبــي ﷺ كلمــا نــزل عليــه شــيء من القرآن دعا كتبة الوحي وأمــرهم بتوثيــق مــا أنــزل عليــه كتابــة، فــاجتمع لتحقــق سلامته من التغيير أمران: الحفــظ فــي الصــدور، والكتابــة. وهــو مــا لــم يتــوفر لأي كتاب منزل قبلــه، فتعرضــت للتغييــر والتبــديل، وســلم القــرآن. ذلــك أن الله أراد أن يكون القرآن الخاتم لوحيه والحافظ له، المخاطب به البشرية إلى يوم الدين.

2) أنزلناه: هو وارد من العالم العلوي، وليس للرســول ولا لغيــره أي أثــر فــي نصــه. وأن المنزل له هو المتفرد بالعظمة (نا) نحن.

3)إليك: للإشارة من أول الأمر علــى أن النبــي ﷺ هــو الــذي يتــولى بيانــه والصــورة العملية لهداه. ولذا قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن.

4) تحديد الهدف من إنزاله: إخراج الناس مــن الظلمــات إلــى النــور. ذلــك أن القــرآن قد ساعد الإنسان على الخروج من ظلمات الجهل وما يصــحبه مــن حيــرة وتخــبط، بمــا ركزه من عقيدة التوحيد، والكشــف عــن المبــدأ والمصــير، وتوحيــد التشــريع المــنظم للحياة في جميع شعبها. فحــدد موقــع الإنســان فــي الكــون، وصــلته بخالقــه وبالبشــر وبالكون جميعا، وكشف له عن مصيره بعد موته. وهــذه كلهــا أســئلة محيــرة تــاه فيهــا العقل البشري، وانتهى إما إلى تصــورات خياليــة لا ســند لهــا، وإمــا إلــى الاعتــراف بالحيرة والغموض. وقــام القــرآن بــإخراج النــاس مــن تلكــم الظلمــات إلــى الرؤيــة الواضحة المنسجمة، وسما الإنسان لما اختلط بالقرآن، فأشــع فــي عقلــه ومشــاعره نــورا يبدد الغموض، ويعطيه منهجا متناسقا.

3-الذين يستحبون الحياة الدنيا ...في ضلال بعيد.

إن الصراط المنوه به هو صراط الله المالك لما حوته الســماوات، ولمــا هــو فــي بــاطن الأرض ولما هو على ظهرها. وإن مــن يتأمــل فــي القــوانين التــي أحكمــت مســارها

والعلاقات فيما بينها، ليقتنع بأن الصراط الذي هدى إليه عباده هو الصراط الذي يضمن لهم السعادة في الدارين. إذ هو صراط العليم الذي شمل علمه كل شيء. الحكيم الذي ظهرت حكمته في بناء الكون. قد قصرت المعارف البشرية أن تدرك أي جزئية في هذا الكون وفي الإنسان إدراكا تتضح به كل الجوانب الظاهرة والخفية. وكلما تقدم العلم البشري تأكد الاقتناع بقوله تعالى: وما أوتيتم من العلم إلا قليلا. العلم المبني على الحكمة والنظام لا على الصدفة والفوضى.

إنه إذا كان صراط الله على الحال الذي وصفناه، فإن الكافرين الذين رفضوا إتباعه أحقاء بأن يسلط عليهم ما يهلكهم، أو أن يسلط عليهم الدعاء بذلك. وفسرت الآية الويل: بأنه العذاب الشديد الذي يذهب السامع في تصور قوته وإذايته كل مذهب. ثم إن هذا الجزاء أو الدعاء ما كان ليلحقهم إلا لاختلال المعيار في اختيارهم ثم المضي فيما اختاروه. لقد آثروا الحياة الدنيا على الآخرة إيثارا جعلهم كلما تقابلا يقدمون الحياة الدنيا ومطالبها على الحياة الآخرة ومقتضياتها. ثم إنهم يعملون كل أنواع المكر ليمنعوا من تفتحت عقولهم وقلوبهم للإيمان. هد فهم وطلبهم أن تسير الحياة على منهج مُعْوَجٍّ وطريق غير مستقيم. ذلك أن الكفر يدعو إلى اتباع الشهوات وتحكيم الغريزة، وإيثار الأنانية والمصلحة العاجلة، وهذه لا تتحقق إلا بالمراوغة، وطمس الحقيقة، والحيلة، وعدم التقيد بالقيم الخلقية الرفيعة.

إن الكفار قد انغمسوا في الضلال، وتمكن منهم فساروا في مسالكه إلى أقصى غاية، مما يحول بينهم وبين الخروج منه.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

اللسان : اللغة التي يتم بها التخاطب.

القوم : الأمة والجماعة الذين يتكلمون بلغة واحدة.

أيام الله : هي الأيام التي يسلط فيها عذابه أو ينعم فيها بخيراته.

يسومونكم سوء العذاب : يبغونكم العذاب السيء.

بلاء: اختبار، ويكون بالخير والشر، أكثر ما ورد في الشر.

تأذن : أعلن.

الغني : الذي لا يحتاج إلى شيء.

الحميد : المحمود فعلا حمدتموه أو لم تحمدوه.

بيان المعنى الإجمالي :

من سنن الله في بعثة الرسل، أن الوحي الذي يتنزل عليهم فيبلغونه لا يكون إلا بلغة قومهم، ويردفون إلى التبليغ البيان بما يُحصّل الاقتناع. ثم إن أقوامهم يفترقون بعد ذلك، فمنهم من يغلق عقله عن التدبر فيما جاء به المرسلون، وبالتالي رفض كل المعجزات، فيحرمهم الله عونه ويغلق عليهم الضلال أبوابه فلا يجدون منه مخرجا.
ومنهم من يقبل على ما جاءه من ربه على لسان رسله بقلوب متفتحة، متأملة في الحق مذعنة له فيفتح الله عليهم من ألطافه ما يثبتهم على الحق. وقدرة الله على التصرف في المخلوقين لا يعوقها شيء لأنه العزيز الذي لا يغلب، وقدرته تسير البشر والعوالم بحكمته الكاملة.
أرسل الله موسى عليه السلام مؤيدا بالمعجزات، كما أرسل محمدا مؤيدا بمعجزة القرآن. وأمره أن يحقق الغاية التي من أجلها بعث، وهي إخراج قومه من ظلمات الكفر والحيرة، إلى نور الإيمان. وأن يثبت الخير في نفوسهم بتذكيرهم، بالأيام التي سلط عليهم فيها بلاءه الذي لم يستطيعوا له ردا، وصبروا عليه فأعقبه الفرج، وبالأيام التي بسط عليهم فيها خيراته ونصره، فنطقت به ألسنة الشاكرين معترفين بالفضل.
فكان الابتلاء بالخير والشر، في كل منهما آية ودليل على تفرد الله بالتدبير.

واذكر يا محمد الظرف الذي قال فيه موسى لقومه: ياقومي كونوا ذاكرين ولا تنسوا نعمة الله التي تفضل بها عليكم، تلكم النعمة الكبرى يوم أنجاكم من جيوش فرعون التي لحقت بكم تبغي استئصالكم. وقد تنكل بكم فرعون وملؤه، لما كنتم بين أظهرهم. يبغونكم العذاب الجامع بين الإذاية المادية والإهانة. كانوا يقتلون الذكور منكم ويبقون على حياة الإناث للخدمة والاستمتاع؛ وفي ذلكم العذاب والتسلط القاهر

بلاء من ربكم ليختبر صبركم ولترتـدعوا عـن الكفـر الـذي أنسـاكم وصـية إبـراهيم ويعقوب من التمسك بالإسلام إلى الموت.

واذكر في القرآن الظرف الذي أعلن فيـه الله أنـه يجـزي الشـاكرين لنعمـه بتواصـلها والبركة فيها، والشكر يكـون بـالإخلاص لله ونسـبة الخيـر إليـه وعبادتـه كمـا أمـر. وصرف النعمة فيما خلقت له. كما أنه يجزي من كفـر نعمتـه بالعـذاب الشـديد. والكفـر يشمل الشرك وكفر النعمة بصرفها في نقيض ما خلقت له.

وقال موسى أيضا لا تمتنّـوا بالطاعـة، ولا تظنـوا أن المعصـية تـؤثر فـي التصـرف الإلهي أو تضيره سبحانه .فإنه سبحانه غنـي عـن طاعـاتكم، حقيـق بـأن يحمـد علـى كمالاته وأفضاله.

بيان المعنى العام :

4-وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه....وهو العزيز الحكيم.

هذه قاعدة من قواعد التصرف الإلهي أنبأت بهـا الآيـة، وهـي أن الله لا يبعـث رسـولا من رسله إلا وهو يتكلم ويفصح عـن مـراده ويبلـغ الـوحي، فيحـدث المبعـوث إلـيهم باللغة التي يتكلمون بها. لأن مهمته هي بيان مـا أوحـي لـه بـه، ولا يتـأتى البيـان إذا كانت لغة الوحي ولغة البيان تتم بغير مـا يفهمـه النـاس المبعـوث فـيهم. وكـان مـن أوهام الكفرة أن لغة الـوحي لا تكـون إلا باللغـة العبرانيـة أو السـريانية، وأن الرسـول يترجم ما تلقاه من وحي إلى اللغة التي يفهمها قومـه. ومـع أن هـذا الـوهم خطـأ، هـو مخالف لمنطق الحياة، فالرسل مصـلحون وقـادة ولا يكـون القائـد ناجحـا إلا إذا كـان يحدث قومه بلغتهم. وقد اختار الله اللغة العربية لتحمـل الـوحي، لمـا اجتمـع فيهـا مـن خصائص الدقة، والقدرة علـى أداء المعـاني المشـاهدة والغيبيـة، ومـا يتعلـق بالعقيـدة والسلوك والحقوق. وما كانت لغة تساويها أو تقرب منها في ذلك.

ثم إن الرسل بعد تبليغهم الـوحي والقيـام بتوضـيحه قـولا وعمـلا، والاسـتدلال علـى مضامينه بما يقنع، تكون الاسـتجابة مختلفـة، فـبعض المرسـل إلـيهم يصـممون علـى العناد ورفض ما جاء به المرسـلون، ويبـذلون جهـدهم لمقـاومتهم وصـد النـاس عـن اتباعهم، فهؤلاء يتركهم الله لما اختاروه، ولا يسـعفهم بألطافـه، فيسـيرون سـادرين فـي الضلال. وفي المقابل يُسعد الذين فتحوا عقولهم للتأمـل فـي الـوحي، وتحركـت قلـوبهم لاتباعه، يسعدهم بالتأييد للمضي في طريـق الهدايـة الـذي اختـاروا السـير فيـه. إن الله هو العزيز الذي لا يغلبه شيء فيمنعـه مـن تنفيـذ مـا أراده، هـذه الإرادة النابعـة مـن الحكمة الكاملة. وحكمة الله هي الحكمة الكاملة الشاملة لكل ما يقضيه وينفذه.

5-ولقد أرسلنا موسى بآياتنا....لكل صبار شكور.

هذه حقيقة مؤكدة أن الله أرسل موسى ﷺ إلى بني إسرائيل، وأيده بالمعجزات الواضحة، فأمْرُهُ لا يختلف عن أمرك، كلاكما مرسل مؤيد بالأدلة البينة التي يذعن لصدقها من سلمت فطرتهم، وكلاكما خاطب قومه باللغة التي يتحدثون بها، وكلاكما مكلف بإخراج قومه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. لقد امتزج بنو إسرائيل بعد يوسف ﷺ بسكان مصر، فتأثروا بهم في عقيدتهم وأخلاقهم، ونسوا حظا من شريعة إبراهيم ويعقوب ويوسف، فانقلب تفكيرهم وتصورهم للكون، بمحاكاة المصريين، إلى ضروب من الأوهام، فأمر الله موسى أن يأخذ بأفكارهم وقلوبهم فيخرجهم من ظلمات الباطل والحيرة إلى مستقر الإيمان. وكذلك كان العرب على دين أبيهم إبراهيم ثم توالت عليهم القرون، فتراكم على عقيدة إبراهيم وشريعته من التصورات الجاهلية ما قطع الصلة بينهم وبينه. وبهذا تظهر المناسبة بين الأيات السابقة وهذه الآية.

أمر الله موسى لتستقر شريعته في ذهن بني إسرائيل، أن يذكِّرهم فيبرز إلى الوعي ما سبق أن أنفذه الله فيهم في أزمنة مختلفة من مظاهر قدرته، سواء منها أيام بطشه ليرتدعوا، أو أيام نصره وإعزازه ونشر خيراته.

وبذلك يكون ما يبتلي به الله البشر من الخير أو الشر، يؤدي دوره في إصلاح النفوس وتقويم السلوك، يستفيد من القوارع الصابرون منهم، الواثقون من عدالة ربهم، الراجعون على أنفسهم بالتقويم والتسديد؛ كما يستفيدون من الخير ما يؤكد معرفتهم بفضله، فيزدادون قربا منه واعترافا بفضله، فتنطلق ألسنتهم بالشكر على نعمه.

6-وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله ....بلاء من ربكم عظيم.

أمر الله موسى في الآية السابقة بتذكير قومه بأيام الله، وتبيينا لما تم من ذلك وردت هذه الآية تقول للنبي ﷺ: واذكر قول موسى لقومه، فماذا قال موسى لقومه ؟: قال لهم يا قومي لا تنسوا وليكن حاضرا في وعيكم النعمة الكبرى التي أنعم الله بها عليكم. يوم بلغ الخوف بكم مبلغه لما نظرتم فوجدتم أن فرعون وجنوده قد لحقوا بكم، وأنتم لا قبل لكم بهم ولا تستطيعون الوقوف أمامهم ولا الدفاع عن أنفسكم كما سجله القرآن:(قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين)[1] – أنجاكم الله من الاستئصال في ذلكم اليوم كما أنجاكم من العذاب

[1] سورة الشعراء الآيات 61/67

السيء الذي كان فرعون وملؤه يقصدون بـه إيلامكـم وإهـانتكم. نعـم إن العـذاب كلـه سيء ولكنه على مراتب. وأسـوؤه مـا اقتـرن فيـه العـذاب المـادي بالإهانـة والإذلال النفسي. ولذا عطفت الآية على – سوء العـذاب – بعضـا مـن مظـاهره. كـان فرعـون وأكابر قومه يعمدون إلى قتل الذكور مـن بنـي إسـرائيل، ويبقـون علـى حيـاة الإنـاث ليكن خدمة لهـم فـي البيـوت أو للاسـتمتاع. وبـذهاب الـذكور يطوعـونهن للإشـباع الجنسي. إن ما وصل إليه الظلم والاستبداد الفرعوني فيـه بـلاء مـن ربكـم عظـيم، لـم يحمكم منه، جزاء انحرافكم عن دين إبـراهيم وغفلـتكم عـن وصـيته ووصـية يعقـوب، وعن منهجهما وعبادتكم لآلهة المصـريين(**يـا بنـي إن الله اصـطفى لكـم الـدين فـلا تموتن إلا وأنتم مسلمون**)[1] – فجمعت الآيـة بـين التـذكير بنعمـة الإنجـاء وبحرمـانهم من الألطاف حتى لا يعودوا إلى الكفر بعد الإيمان.

7 –8، وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم ....فإن الله لغني حميد.

و اذكر يا محمد الظـرف الـذي أعلـن فيـه الله لموسـى بمسـمع مـن بنـي إسـرائيل، الإعلان الذي يجري عليه تصـرفه فـي الشـعوب وفـي بنـي إسـرائيل و فـيمن يـأتي بعدهم: أنه يتفضـل كرمـا منـه بجـزاء الشـاكرين مزيـدا مـن الخيـرات والألطـاف والعون. إن الشكر على النعم واجـب علـى المـنعم علـيهم، ويتحقـق الشـكر باللسـان وبالعمل الصالح. وأداء الواجب لا يستحق عليه صـاحبه جـزاء ولكـن الفضـل الإلهـي جمع للشاكرين بين الرضا النفسي بالاستقامة وبين تواصل خيراتـه التـي منهـا مـا يفـتح به بصائرهم وينمي مداركهم كما جاء في قولـه تعـالى: (**والبلـد الطيـب يخـرج نباتـه بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نفصل الآيات لقوم يشكرون**)[2] –

كما أنه يجزي من كفر بالنعمة، التي أسـعده بهـا رب العـالمين، بالعـذاب الشـديد الـذي يتجاوز طاقة الأبدان والنفوس. وفي هذا تهديد وتحـذير مـن مقابلـة النعمـة بالمعصـية، وصرف النعمة في غير ما أمـر الله أن تصـرف فيـه. ولا شـك أن الكفـر بـالله أشـد أنواع الكفر.

وقال موسى لقومه أيضا: اعلموا أن شـكركم للـنعم لا يسـتفيد منـه الله سـبحانه شـيئا، كمـا أن كفـركم لا يضـره سـبحانه. ولا تحسـبوا أن سـبقكم للطاعـة يعـزز جانـب المرسلين، ولا تتخيلوا أن حرصهم علـى اهتـدائكم مبعثـه حـب النجـاح. إن الله غنـي

---

[1] سورة البقرة آية132

[2] سورة الأعراف آية57

عن عبادتكم فكماله كمال ذاتي، لا تؤثر فيـه طـاعتكم بزيـادة، ولا عصـيانكم وكفـركم بنقص. وهو المستحق للحمد. المحمود فعلا سواء أقررتم بنعمه أو جحدتموها.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

فاطر : مخترع لا على مثال سبق.

يدعوكم : يناديكم بأوامره ونواهيه وإرشاده.

السلطان : الحجة التي لا مرد لها.

التوكل : الاعتماد وتفويض التدبير إلى الغير ثقة بعلمه بما يصلح.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن أن مشركي مكة قد أتـتهم أخبـار مـا تـم لقـوم نـوح، إذ قصـة الطوفـان تكررت على الأسماع فلا يشك فيها أحد. وكـذلك هـم يمـرون علـى آثـار قـوم عـاد وثمود ويشاهدون خراب ديارهم بسبب تكـذيبهم لرسـلهم. وكمـا سـلط الله نقمتـه علـى الثلاثة عاقب أمما أخرى طـوى ذكـرهم أبعـادُ الزمـان، فـأنتم لا تعلمـونهم وتفـرد الله بعلم أخبارهم. وسنة الله في القوم الكـافرين جـرت علـى نسـق واحـد. إن تلكـم الأمـم جاءتهم رسلهم مؤيدين بالحجج البينة والمعجـزات الظـاهرة، فأشـاروا لأنبيـائهم إشـارة تفيد: واصلوا كلامكم فإنه غير مؤثر ولا صـادق. وإنـا شـاكون فـي كـل مـا تـدعوننا إليه. كان جواب الرسل جوابا هادئا رفيقا. أتَشُـكُون فـي الله، فـي وجـوده وفـي قدرتـه وفي حكمته، والكون كله بسمائه وأرضه يشهد بأنه هـو الـذي خلقـه علـى غيـر مثـال

سبق. إنه رب كريم يدعوكم إلى الإيمان والعمل الصالح ليغفر لكـم مـا أنـتم عليـه مـن الشرك وما اقترفتموه من الآثام، ثم يفسح لكم فـي حيـاتكم لتحيـوا حيـاة آمنـة مطمئنـة إلى الأجل الذي حدده لكم في هذه الدنيا.

كان جواب الكفرة جوابا رافضا رفضا قاطعا للاستجابة لهـم. بنـوْهُ علـى أنـه لا فضـل للرسل عليهم، لأنهم مسـتوون معهـم فـي البشـرية. وزعمـوا أن وراء دعـوة الرسـل قصد غير خاف عنهم، إذ كل همّ الرسل أن يمنعوهم مـن اتبـاع مـا كـان عليـه آبـاؤهم بما له من قداسة. ثم قالوا لرسلهم: إذا كنـتم صـادقين فأتونـا بمعجـزة وحجـة بينـة لا تقبل الاحتمال ولا الرد.

أجاب المرسلون: نعم نستوي معكم في البشـرية ولكـن البشـر مـا كـانوا نمطـا واحـدا كما تخرجه المعامل، بل هم متفاوتون تبعا لمـا يتفضـل الله بـه علـى بعضـهم، ويحـرم منه البعض الآخر. ثم إننا لا نسـتطيع أن نـأتيكم بآيـة علـى المقـاس الـذي اقترحتمـوه لأن الله هو المتفرد وحده بإنزال البينات في الوقـت الـذي يريـد. والمؤمنـون مـأمورون بالتوكل على الله وحده. فهو الذي يهديهم سبيل النجاح ويؤيـدهم .ثـم أعلـن الرسـل أنـه لا يوجد ما يحول بيننا وبين التوكل على الله، خاصة وقـد لطـف بنـا فهـدانا إلـى سـبل النجاح والأمن. ثم أعربوا عن تحديهم للكفرة الـذين عملـوا علـى إذايـتهم لصـدهم عـن مواصلة ما يقتضيه الإيمان، فقالوا إننـا صـابرون علـى الإذايـة، وطنّـا أنفسـنا علـى الثبات على الحق. وتأكد في ختام الآية الأمر بالتوكل علـى الله وحـده، فعلـى كـل مـن أراد أن يستعين بالمعين الحق فليتوكل عليه.

بيان المعنى العام :

9-ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم....ما تدعوننا إليه مريب.

لا يقصد القرآن من التذكير بمـا وقـع للرسـل مـع أممهـم أن يشـغل النـاس بسـماع أخبارهم فقط. وبناء على هذا فتذكيرهم ببعض ما تم لموسى مـع قومـه أتـى بـه لإنقـاذ الدعوة المحمدية في عقـولهم بالاعتبـار بقـوم موسـى. ولـذا عقّـب ذلـك بالاسـتفهام الإنكاري الذي مضمونه أنه قد نقلت لكم أخبار قوم نوح، فـإن خبـر الطوفـان قـد شـاع وذاع وتناقلته الأمم قرنا بعد قرن، وكذلك أخبار قوم عـاد وثمـود الـذين كانـت منـازلهم في جزيرة العرب وأنتم تشـاهدون اثـار إهلاكهـم. لقـد علمـتم مصـيرهم فاحـذروا إن واصلتم ردّ دعوة الإسلام أن ينتهي أمركم إلى ما انتهى إليه أمرهم .

ولم يكن تنفيذ الوعيد محصـورا فـيهم، بـل إن سـنة الله فـي الانتقـام مـن المعانـدين المكذبين، حصدت أقواما كثيرين كذبوا رسلهم، وطـوى الـزمن ذكـرهم، فـلا يعلمهـم إلا الله.

ثم استحضر القرآن عرض رسـلهم علـيهم مـا كلفـوا بـه مـن هـدايتهم إلـى الحـق وإخراجهم من الشرك إلى التوحيد، وما قابلوا به رسلهم.

جاءتهم الرسل مؤيدين بالمعجزات البينـة الواضـحة التـي ينقـاد لوضـوحها ولتحـديها من لم يغلق العناد والكبر عقلَهُ. ودعـوهم إلـى توحيـد الله والإيمـان بمـا أنـزل إلـيهم والعمل به. عبّر القرآن عن رفضهم بقوله: ردوا أيـديهم فـي أفـواههم. وهـذا التركيـب تركيب قرآني لم ينقل مثله من كلام العرب. ولذا اختلـف المفسـرون فـي بيـان المـراد منه، والذي رجحه الشيخ محمد الطاهر ابـن عاشـور تبعـا للزمخشـري أنهـم وضـعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك مـن كـلام الرسـل، كراهيـة أن تظهـر دواخـل أفواههم. وذلك تمثيل لحالـة الاسـتهزاء بالرسـل. التحريـر ج13 ص196- ويبعـده أن يكون لهم بقيةَ من أدب حتى يكرهوا أن تظهر لهواتهم عنـد إغـراقهم فـي الضـحك مـع شدة وقاحتهم في المحاجة وتعصبهم لما هم عليه.

فلعل المعنى أنهم لما قـرع أسـماعهم دعـوة الرسـل وعـرض حججهـم ومعجـزاتهم، وضعوا أيديهم على أفواههم إشـارة إلـى أنهـم لا يقطعـون الكـلام علـى الرسـل مـع الإيماء إلى أنهم رافضون له، حتى إذا ما أتـم المرسـلون كلامهـم أجـابوهم بمـا ذكرتـه الآية لاحقا، ويكون التركيب دالا على هـذا المفهـوم وإن اختلفـت طـرق التعبيـر عنـه باختلاف عادات المرسل إليهم في الإفصاح عن ذلك.

ثم قالوا لهم ما مضمونه: إنا كفرنا بما أرسـلتم بـه جملـة وتفصـيلا، رفضـا قاطعـا لا رجوع عنه وإن مـا عرضـتموه علينـا لا يرتقـع إلـى درجـة إقناعنـا بوجـود الله ولا بكونكم مرسلين من عنده، ولا أن ما تـدعوننا إليـه صـادق يقينـا. بـل إنـا نشـك فـي الأمرين معا، وشكنا قوي جدا.

10—12، قالت رسلهم أفي الله شك...فليتوكل المتوكلون.

هذه الآيات تسجل المحاورة التي تمت بين المرسلين وبين أقوامهم المكذبين.

أولا: أنكر المرسلون عليهم جـراءتهم بشـكهم فـي وجـود الله وتصـرفه فـي الكـون، وأبرزوا هذا الإنكار في صيغة الاسـتفهام (أفـي الله شـك) ويتضـمن الإنكـار التعجـب من نفيهم من قامت الشواهد علـى تفـرده بالتـأثير، فـأعقبوا الاسـتفهام بالآيـات الدالـة على وجوده وتصرفه. وهي الكون كلـه: السـماوات والأرض، التـي يشـهد العقـل أنهـا لتغيرها وتحولاتها ناطقة بأنها محدثة مـن عـدم، وأن المحـدث لا يسـتغني عـن المـؤثر المحدث. خاصة وأنها وجدت من غير أن يكون لها مثال سـابق عليهـا؛ ممـا يـدل علـى كمال علمه. ومن رحمته بكم أنـه أولاكـم عنايتـه، فـدعاكم بواسـطة المرسـلين الـذين

أرسلهم إليكم وبما تضمنته رسالاتهم من بيان التوحيد ومن أوامر ونواه وإرشاد، هذه الدعوة التي رتب عليها غفران ذنوبكم التي اقترفتموها قبل مجيئهم ثم يمد في أعماركم لتنعموا بحياة الاستقامة إلى الأجل الذي قدره لكم في الدنيا.

ثانيا: بعد هذا البيان العاقل الرفيق، كان جوابهم جوابا قاطعا لحجج المرسلين في ظنهم، إذ بنوا ردهم على أنه لا ميزة تميز المرسلين حتى يكونوا رسلاً هداة مبعوثين من عند الله. لأنهم بشر مثلهم لا فارق بينهم حتى يكونوا أكثر قربا من الله. ثم عطفوا على ذلك إظهار السبب الخفي في زعمهم الذي دعا المرسلين إلى القيام بالدور الذي يحتجون للإقناع به. وهو أنهم يرغبون في الحيلولة بينهم وبين الدين الذي كان عليه آباؤهم، على معنى أنه الدين الذي جرب فصح، واكتسب القداسة من السلف. ثم طلبوا من الرسل أن يقدموا لهم حجة لا تقبل النقض ولا الجدال، مع أنه ما من رسول إلا هو مؤيد بمعجزة تحداهم بها فعجزوا.

ثالثا: أجابهم المرسلون، نعم! نحن نقر أننا بشر نستوي معكم في الإنسانية، ولكن البشر وإن اتحدوا في الخصائص التي كانوا بها بشرا إلا أن قيمتهم ليست واحدة، فإن الله يتفضل بمنه على بعضهم فيمكنه مما حرم منه غيره. ألا ترون أنه وإن كانت القوة العقلية قدرا مشتركا بين البشر إلا أنهم متفاوتون في الذكاء وحضور البديهة وقوة الإفصاح والإقناع، وكذلك في حظ كل منهم من الجمال والوسامة، كذلك في القوة البدنية إلى آخر الفوارق بينهم .وكلهم عبيده يتصرف في حظوظهم بحكمته وعدله وإن كان قد يخفى عنا موجبات ذلك.

طلبتم منا أن نأتيكم بحجة قاطعة، ومعجزة قاهرة تخضعون لها حالاً. وهذا من صلفكم وعنادكم، فإن طلبكم هذا فيه قلب للموازين. إن المتصرف في الكون هو الله وحده، وهو ينزل ما يشاء في الوقت الذي يشاء، وليس في مقدورنا أن نأتيكم بآية كما ترغبون إلا إذا أذن الله لنا وآتانا ما يؤيدنا به. فاقتراحكم معجزة تحددون مواصفاتها وتضبطون وقتها، هو تعبير عن تجاوز لقدركم، ومقابلة لنعمة الهداية بالرفض والمكابرة.

ثم واصل الرسل بالإعلان عن صلتهم بالله بأنها صلة من يعتمد على الله في تدبير أموره لتفرده سبحانه بالعلم الصادق في الحاضر والمآل، وهذه الطريقة هي الطريقة المأمور بها المؤمنون، تشملهم هم كما تشمل المؤمنين برسالتهم .

إن التعمق في طلب الحقيقة أكد لنا أنه لا طريق إلا طريق التوكل عليه، ولذا تجدنا لا نخرج عن هذه السبيل. وقد قامت شواهد تُمكّنُ فينا هذا الاختيار، فقد هدانا الله للسبل التي لاشك أنها سبل الفوز والنجاح والأمن.

ثم أشاروا إلى أن ما صدر عن الكافرين من الإذاية والتحرش بهم، طمعا في التأثير عليهم ليتخلوا عن الدعوة التي يحملونها، لا يحقق لهم أي شيء. فقمعوا بهذا كل آمالهم وأعلنوا أنهم قد تدرعوا بالصبر. وأن الضغط عليهم لا يزيدهم إلا إصرارا على الإيمان وتطبيق ما جاءهم من ربهم. وختمت الآية بالدعوة إلى التوكل على الله على أنه المسلك الوحيد المفضي للفوز.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الملة : الدين.

الاستفتاح : طلب الفتح، والفتاح الحاكم.

خاب : خسر.

الجبار: المتعظم في نفسه المتكبر، الذي لا يرى لأحد عليه حقا.

العنيد : المعاند للحق.

غليظ : قوي شديد.

وراءه جهنم : ينتظره عذاب جهنم.

صديد : السائل الذي يخرج من الدمل.

بيان المعنى الإجمالي :

انتقل الكافرون من المحاجة إلى التهديد، فعرضوا على الرسل وأتباعهم أن يختاروا بين أمرين: إما الخروج من الأرض التي يجاورونهم فيها، وإما أن يقلعوا عن دينهم ويعودوا إلى إتباع ملة الكفر. أنزل الله على رسله ما يثبتهم فأوحى إليهم: أني سأستأصل الظالمين وأهلكهم. وأن هذا التأييد هي سنته مع الذين يستشعرون دوما الخوف من حساب الله يوم القيامة، كما يخافون وعيده الذي يوقنون أنه لا راد له، وهم المتقون الصالحون.

طلب الرسل من الله أن يفتح عليهم بنصره الذي وعدهم إياه، وبشرهم بأنه سيحقق الخيبة والخسران لكل مستكبر عنيد. وأنه بعد الانتقام منه في الدنيا سيصلى نار

جهنم، التي من بعض خصائصها أن الداخل إليها يلهب كبده من العطش، فلا يجد أمامه إلا سائلا من الصديد، وهو ما يسيل من الدمل، يحاول رغم قذارته أن يشرب منه فلا يستطيع أن يبتلعه. ثم يحس بسكرات الموت والامه تدخل في شعابه ولكنه لا يستريح بقدوم الموت فعلا. وبعد ذلك من عذاب شديد لا يعلم كنهه إلا الله.

بيان المعنى العام :

13←14؛ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم...وخاف وعيد.

تابع القرآن عرض تحدي الكافرين للرسل وتهديدهم، وأعلموهم أنهم بين خيارين. إما الخروج من أرضهم. هددوهم بأنهم سيلجئونهم إلى ترك ديارهم وأرضهم ومغادرتها قسرا. على معنى أن لهم من وسائل الضغط ما يجبر الرسل وأتباعهم على الفرار من الأرض التي يعتبرونها ملكا لهم وحدهم. وهذا من طبائع الاستبداد كما نشاهده اليوم في معاملة اليهود للفلسطينيين؛ وإما أن تعودوا إلى إتباع ديننا وتعرضوا عما تدعوننا إليه. وإذا كانت كلمة تعودوا تفيد حسب أصل الاستعمال أنهم كانوا على ملة الكفر فخرجوا منها ويطلب منهم العودة إليها. وما كان الرسل على ملتهم حتى يعودوا إليها؛ فيحمل الكلام على أن الرسل ما كانوا قبل مجيء الوحي يتعرضون للكفرة بإنكار ما هم عليه، فحملوا سكوتهم عنهم قبل ذلك على أنهم كانوا موافقين لهم. أو أنه لما كان الكلام موجها في الحقيقة للرسل وللذين آمنوا معهم، فتغليب المؤمنين في الخطاب الذين كانوا فعلا على ملتهم، سوغ قولهم أو لتعودن في ملتنا.

إن هذا الاستكبار والتهديد قابله التأييد الإلهي للرسل، بالوعيد والوعد: أوعد المستبدين الظالمين أنه سيستأصلهم ويهلكهم، ووعد المؤمنين أنه سيمكنهم من الأرض، التي توعدهم الكافرون بإخراجهم منها، بالسكنى فيها بعد إهلاك الظالمين وإما بدخولها تحت سلطانهم. ثم ثبت القرآن هذه النهاية بأنها سنة الله مع الذين يخافون ربهم، والخوف من الله حالة تنشأ في النفس عندما يستحضر الإنسان موقفه من ربه المطلع على ما يخفيه عن أعين الناس وعلى ما يظهره، وخاصة عندما يقف بين يديه للحساب. كما يخاف نفاذ وعيده في الدنيا والآخرة. إنه لا يحصل هذا الخوف المزكي للنفس إلا في قلوب المتقين الصالحين.

15←17؛ واستفتحوا وخاب كل جبار....عذاب غليظ.

هذه الآيات تحتمل أن تكون مرتبطة بالمرسلين، وأن تكون مرتبطة بالكافرين.

فإذا فهمناها على أنها مرتبطة بالمرسلين وأن الضمير في قوله تعالى: **واستفتحوا** يعود على المرسلين، يكون حاصل المعنى أن المرسلين طلبوا من الله أن يفتح

عليهم نصره، وأن ينجز لهم وعده الـذي نصـت عليـه الآيـة السـابقة. وتأكـد النصـر بتحقق خيبة وخسران كل جبار مسـتكبر، دأبـه العنـاد وإغـلاق منافـذ التفكيـر معـاداة للحق.

وإذا فهمناها على أنها مرتبطـة بالكـافرين، كـان المعنـى أنهـم طلبـوا النصـر علـى الرسل، فخابوا لأنهم جبابرة معاندون. ولا تقتصر خيبتهم علـى مـا سـينالهم فـي الـدنيا، بل تتجاوز ذلك إلى يوم القيامة فوراء عقاب الدنيا عقـاب الآخـرة الـذي فصـل بعضـه: أن جهنم تنتظر كل جبار عنيد. فوراء عذاب الـدنيا عـذاب جهـنم، الـذي وصـف شـيئا من فظاعته، بأن فؤاده يلهب ويطلب السقيا، فيسقى من سـائل هـو الصـديد القـذر الـذي يسيل من الدمل. يحاول رغم ذلك أن يشرب منـه، لعلـه يطفـئ عطشـه اللاهـب؛ فـلا يمر إلى حلقه ولا يستسيغه. وهنا يأخذ الموت بسـكراته وآلامـه يهـد كيانـه .فـلا يبقـى جزء منه إلا وهو معـذب بعـذاب المـوت، ولا يسـتريح بـالموت. ووراء ذلـك عـذاب قوي شديد يتجاوز التصور. ذلك أنه مـن شـؤون الآخـرة الفائقـة علـى كـل تصـور. سواء في ذلك النكال والعذاب، أو النعيم والفضل.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِىۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

عصفت الريح : إذ اشتدت فحطمت ما هو في طريقها وقته.

برزوا : خرجوا من مكان كان يحجبهم، وهي القبور .

الضعفاء: الأتباع.

المستكبرون : المبالغون في الكبر .

تبعا : جمع تابع.

مغنون : تدفعون.

الجزع : حزن يخالطه اضطراب.

المحيص : المنجى،

مصرخكم : مغيثكم .

بيان المعنى الإجمالي :

قرّبت الآية ضياع أعمال الكافرين التي ربما نفعت بعضا من الناس في الدنيا، بأنه كحال كدس من الرماد تحركت ريح قوية شديدة في يوم رياحه عاصفةً، فتطايرت به ونشرت أجزاءه بصفة لا يبقى منه شيء محسوس يمكن أن يجمع. فكذلك أعمالهم التي اكتسبوها وفقدت أساس الإيمان تكون ضياعا لا ينتفعون منها بشيء، وذلك هو الضلال الذي تعمّق فذهب بصاحبه إلى مسافات بعيدة أشد البعد ومتنافرة.

ألم تعلم أيها الناظر أن الله تفرد بخلق السماوات والأرض، وأجراهما على الحكمة التي لا تختل. ألا يدل ذلك على أن الله قادر على إفناء الجبابرة والمستكبرين، وعلى أن يُمكّن خلقا آخر من أرضهم يكونون بالطبع مؤمنين صالحين، وأهون من ذلك ضياع ثواب صالح أعمالهم.

أهلكهم الله وخرج السادة والأتباع من قبورهم، وجرت بينهم المحاورة التالية: قال المستضعفون للمستكبرين القادة: إنا كنا تابعين لكم في الدنيا مقلّدين، نطبق ما تشيرون به علينا. فهل تستطيعون اليوم أن تكفونا شيئا من عذاب الله؟ أجابهم المستكبرون معتذرين عن التغرير بهم بأنهم ما قصدوا توريطهم، إذ هم مشتركون في العذاب، وأنهم يائسون فقالوا: سواء علينا أظهرنا الجزع والتبرم والحزن، أم صبرنا وتحملنا بدون شكوى، فإن حالتنا تتواصل على ما هي عليه وليس لنا مخلص.

وينضم إلى المشهد الشيطان الذي كان عمدة رؤسائهم في إضلالهم. يبرز محملا للكفرة المسؤولية عن ضلالهم فقال لهم بعد أن نفذ الله حكمه العادل في البشر يوم القيامة : إن الله وعدكم وعدا صادقا لا يخلف، أنه يكتب السعادة لمن أطاعه،

ووعدتكم بفوزكم بالسعادة إن أطعتموني فأخلفت وعـدي. ولكـن مـا كانـت بـين يـدي سلطة تجبـركم علــى اتبــاعي. دعـوتكم لاتبــاع شــهواتكم والكفـر بــالله فاسـتجبتم. فتوجهوا باللوم لأنفسكم ولا تلقـوا علــي بالملامــة. لأنــي لــم أجبـركم علــى إتبــاعي ولكنكم اخترتم لأنفسكم ما تــدعو إليــه شــهواتكم . إننــي لا أسـتطيع اليـوم أن أغيـثكم ولا تستطيعون إغاثتي. إني كافر بما دعوتكم إليــه مــن الإشــراك بــالله وإتبــاع الهــوى من قبل هذا اليوم، أي في الدنيا. إن من اتبــع الشـيطان فكفـر هـو ظــالم، والظــالمون حقيقون بأن يسلط عليهم العذاب الأليم .

وبالمقابـل أدخـل الله المـؤمنين الملتـزمين بالعمـل الصــالح جنـات تتخللهــا الأنهــار الجارية، آمنين من انقطاع ما هم فيه من نعيم، هــو نعـيم دائـم بــإذن ربهــم الإذن الــذي لا مثنوية فيه. يُحيّوْن من الملائكة ومن بعضهم لبعض بالسلام والأمن الدائم.

بيان المعنى العام :

18- مثل الذين كفروا بربهم ....ذلك هو الضلال البعيد.

هذه الآية صيغت على طريقة تجسـم المعنــى بتنظيـره بمــا هـو مــادي، وهــو المــراد بالمثل. إذ مثلت أعمالهم الخيرة في ظاهرها وعدم انتفــاعهم منهــا بالرمــاد الــذي تفرقــه الرياح العاصفة. مضمونها أن الكــافرين كــانوا يقومــون تــارة بأعمــال صــالحة مفيـدة للمجتمع تتجاوز مصالحهم إلى نفع الآخـرين. فهــي أعمــال فــي ظاهرهــا جـديرة بــأن توصف بالحسن والخير وأن يكونــوا علــى رجــاء مــن ثوابهــا. ولكــن تلكــم الأعمــال بفقدانها للأساس الذي يثبت آثارها ويبقيهــا لصــحابها، أعنــي العقيـدة الصـحيحة، كانــت كالرماد المتجمع بعد أن أتت النار على المــادة المشـتعلة فأذابتهــا وصـيرتها كدمســا مــن الهباء؛ فتحركت الرياح واشتدت وكانت رياحا تعصف بكـل شــيء فتكسـره ثــم تفتتــه، فتنشره متفرقا كأشد ما يكون التفرق، هذا فيمــا كانــت لــه صــلابة فكيـف يكـون حــال الرماد الذي يفرقه النسيم. وبذلك هــم لا ينتفعـون بشــيء منهــا، ثــم أكـدت الآيــة فــي خاتمتها خسران الفاقد للإيمان بــأن ذهــاب حسـناته هـو الضــلال القـوي كأنــه ابتعـد بصاحبه إلى مسافات تقطعه عما فيها من خير وبالتالي عن ثوابها.

19—20، ألم تر أن الله خلق السماوات......على الله بعزيز.

إن ما توجهت العناية إليه في الآية السابقة من محو ما قام به الكفرة من أفعال حسنة في ظاهرها، المجسم ذلك بالمثل، قد أتبعه القرآن بالدليل. هذا الدليل الذي ابتدأه بسؤال موجه إلى كل من يمكن منه العلم، فقوله تعالى : ألم تر - ألم تعلم أن الله خلق السموات والأرض خلقا ملتبسا بالحق والحكمة، فسارت على نظام لا يختل. وهذا أمر مشاهد لا يقبل الاختلاف

فيه، مما يدل على عظيم القدرة، وينبه إلى أن إفناء الجبابرة والكفرة، والإتيان بالمؤمنين بخلقونهم، أمر أيسر من خلق السماوات والأرض بمقاييس البشر، وأهون من ذلك إحباط أعمالهم الصالحة وزوال آثارها. وأكد تحقق تلكم المفاهيم بأنها سهلة هينة عليه سبحانه. وما ذلك على الله بعزيز.

21 -22، وبرزوا لله جميعا فقال...لهم عذاب أليم.

تضمنت الآية السابقة أن الله قادر علـى إهـلاك الكفـرة، وقـد أهلكهـم فعـلا، فخـرج السادة والأتباع من قبورهم، وستجري بينـهم المحـاورة التاليـة كمـا سـتجري محـاورة بينهم وبين الشيطان، عبر عن ذلك بصيغة الماضي لتحقق الوقوع.

وقف الأتباع الذين مـا كـان لهـم حـظ مـن الاسـتقلال فـي الـدنيا، وكـان السـادة المتعاظمون بالكبرياء يقـودونهم فـي دينـهم وفـي تصـوراتهم. وقفـوا يسـألونهم يـوم القيامة، بما أنا كنا تابعين لكم في الـدنيا نسـير فـي الخـط الـذي ترسـمونه لنـا، فهـل تستطيعون أن تظهروا مكانتكم عند الله فترفعوا عنـا شـيئا مـن العـذاب؟ والظـاهر أنـه سؤال تقريع وتوبيخ إذ يوم القيامة يستوي الجميع فـي إدراك حظـوظهم وأنـه أبعـد مـا يكون، أن يشفع عند الله المجرمون.

واعتذر المستكبرون بأنهم ما قصدوا تـوريطهم بـدليل أن وضـعهم لـيس بأحسـن مـن وضعهم. ثم أضافوا: اليأس من تبـديل حالنـا اسـتولى علينـا، فسـواء أظهرنـا الجـزع والتشكي والتخبط، أو التزمنا الصبر وإظهـار التحمـل بـدون شـكاة، فإنـه لا مخلـص لنا ولا ينفعنا شيء ولا نجاة لنا.

ثم يبرز الشيطان في المشهد لأنه كان قائد القـادة ومضـلل المضـللين. كمـا هـو شـأنه في الدنيا كان يسترق السمع، فأعد نفسه للدفاع عن توريطـه، وقـد قضـي الأمـر، ونفـذ الله ما أعده للبشر، وتميز السـعداء بالكرامـة، والأشـقياء بالعـذاب والمهانـة. ثـم قـال لهم: إن الله وعدكم بالسعادة إذا أنـتم عملـتم بمـا جـاءكم منـه، ووعـدتكم بالسـعادة إذا اتبعتم الطريق الذي أدعوكم إليه، وأخلفت وعدي. وإني لم أكـن مجبـرا لكـم علـى تـرك ما دعاكم إليه الله وإتباع طريقي. ولكنكم كنتم مختارين فملـتم لمـا تهـوى أنفسـكم، فـلا تلوموني على إغوائكم. ولكن لوموا أنفسكم إذ لم تتفطنوا بتغريـري بكـم. إننـا اليـوم فـي الهوان سواء. فلا أستطيع أن أغيثكم، كما أنكـم لا تسـتطيعون إغـاثتي. ثـم أردف إمعانـا منه في تبرئه وتحميلهم المسؤولية. إني كفرت بإشراككم لـي فـي الـدنيا مـن قبـل يـوم القيامة، على معنى إني لما دعوتكم إلى ما دعوتكم إليه كنـت متيقنـا أنـي أدعـوكم إلـى باطل، وأن شخصي لا يمكن أن يكون شريكا لله يـأمر فيطـاع. وقـد جريـت عصـيان

ربي فكتب علي الخسران الأبدي. هو تصريح منه بأنه أضـلهم فـي الوقـت الـذي كـان معتقدا أن ما يدعوهم إليـه هـو الضـلال، فاتبـاعهم لـه وانتمـارهم بـأمره يتحملـون مسؤوليته، وهم بذلك ظـالمون. وختمـت الآيـة بقـول إبلـيس: إن الظـالمين يسـتحقون العذاب الشديدُ ألمُه. ويحتمل أن يكون هذا من كلام إبلـيس، كمـا يحتمـل أن يكـون مـن كلام الله، على أنها حقيقة أطلقها لتكون خاتمة. وفـي هـذا العـرض القرآنـي مـا يـوقظ البشر إلى شر الشيطان وعمله على إغواء البشـر ثـم تبـرُؤه مـنهم يـوم القيامـة، ممـا يضاعف أحزانهم على تراخي عزائمهم وإتباعهم لإغوائه.

23- وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات....فيها سلام.

هذا هو شأن القرآن في هدايته يقرن بين البشارة والنذارة، وبين التهديد والوعد الجميل. فبعد أن عرض عرضا وافيا مشخصا خاتمة الكفرة، أتبع ذلك بما حققه للمؤمنين الذين جمعوا إلى الإيمان العمل الصالح، فثبتت أعمالهم وأثمرت، على عكس الكفرة الذين ذهبت أعمالهم هباء كرماد عصفت به الرياح. فجازاهم ربهم بأن أدخلهم جنات جمع لهم فيها الخصب: تتخللها الأنهار، والأمن بامتداد النعيم إلى أبد الأبدين. وتأكيد الكرامة، فهم يلقون من الملائكة أينما حلوا تحية بالسلام والأمن كما قال تعالى: **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**[1].

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الطيبة : النافعة.

الأصل : الجذر.

الفرع : الغصن الممتد.

في السماء : مرتفع، عال.

الأكل : ما يؤكل.

---

[1] سورة الرعد آية 25

كل حين : كل وقت أريد فيه جنيُها.

اجتثت : قطّعت.

القول الثابت : الكلام الصادق.

بيان المعنى الإجمالي :

قرب الله للبشر أثر كلمـة التوحيـد لا إلــه إلا الله محمـد رسـول الله، فنظّرهـا بشـجرة نافعة قوية، امتدت عروقها في الأرض الصـالحة، فـتم لهـا الغـذاء الـذي ارتفعـت بـه فروعها إلى علو مبهج، يتناول منها صاحبها ثمارهـا كلمـا قصـد إلـى جنيهـا بتقـدير محكم من الله. وكذلك كلمة الإيمان إذا استقرت فـي العقـل والضـمير فإنـه يتبعهـا قـوة صاحبها وثباته. وتتبع من كلمة الإيمان الأعمال الصالحة التـي يجـد ثمارهـا زكيـة فـي حياته وفي الحياة الآخرة. وهكـذا يضـرب الله الأمثـال للنـاس رجـاء أن يتـأملوا فيهـا ويتفكروا في مدلولاتها فيثبتوا على التوحيد.

و بالمقابل فإن كلمة الكفر وما يتبعها مـن قـول السـوء الـذي لا يحبـه الله، مثَـل ذلـك كالشجرة التي لا نفـع فيهـا لا بظـل ولا بثمـرة. لاثبـات لهـا فـي الأرض ولا قـرار تعصف بها الرياح فتجتثها من أصولها. فكلمـة الكفـر تثبـت القلـق والحيـرة لصـاحبها وتفسد عليه أعماله ولا تحول بينه وبين الفساد فـي القـول والسـلوك، فتعصـف بجميـع أفعاله فلا يجد أثرا حتى لما كان منها نافعا للناس.

ويثبت الله المؤمنين بالقول الصادق الـذي لا يتخلـف توجيهـه إلـى الخيـر فيجـد فيـه المؤمن الطمأنينة في الحياة الدنيا، كما ينتفـي عنـه الخـوف فـي الحيـاة الأخـرة بتبـين مصيره حسب ما جاءه وآمن به من كـلام ربـه. وفـي المقابـل يوغـل الظـالمون فـي الضلال. والله يفعل ما يشاء فيرتـب للصـالحين درجـاتهم مـن النعـيم حسـب حكمتـه وعدله، ويعمق ضياع الكافرين تبعا لما قدموه من سوء بحكمته وعدله أيضا.

بيان المعنى العام :

24--26، ألم تر كيف ضرب الله مثلا...من قرار.

هذه طريقة قرآنيـة تحقـق إقنـاع النـاس علـى مختلـف مـداركهم بمضـامين الآيـات القرآنية وهـداها. إذ المثـل عبـارة عـن تقريـب المجـردات بتنظيرهـا بالمحسوسـات فيتضح ما خفي عن البعض، ويزداد رسوخا بالنسبة للبعض.

النظير من الواقع المحسوس شجرة لهـا المواصـفات التاليـة: النفـع والصـلاح (طيبـة) متجذرة في الأرض ثابتة ثبوتا يمكنها في منبتهـا، فـلا تـؤثر عليهـا العواصـف، وتمتـد عروقها في باطن الأرض مما يوفر لها الغـذاء مـن مسـاحات شاسـعة يكسـبها القـوة.

(أصلها ثابت) انتفعت بما توفر لها من مــواد الأرض فامتــدت أغصـــانها مرتفعـــة تـــبهج الناظر إليها (وفرعها في السماء). تجمع إلى ذلــك أنهـــا شــجرة مثمــرة وثمارهـــا غيـــر منقطعة فكلما قصدها صاحبها وجد من ثمارها مـــا يجنيـــه بتقــدير مـــن الله الــذي عنـــي بها (تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها).

المجرد الذي قصــد تقريبـــه وتأكيــده: كلمـــة الإيمـــان والتوحيــد: لا إلـــه إلا الله محمــد رسول الله. فهذه الكلمة متى استقرت في الــنفس ورســخت لا تزعــزع بمـــا يـــرد علـــى صاحبها من تشكيك، ثم هي تمتد آثارها مرتفعـــة بأعمـــال صـــاحبها التـــي تكـــون زكيـــة بعامل التوحيد. نافعة له ولغيره، صالحة في الدنيا والآخرة.

وفي المقابل شـــجرة خبيثـــة المنظـــر والرائحـــة، فاقـــدة لمقومـــات الثبـــات والاســـتقرار، مقطوعة من الأرض. ونظيرها كلمة الكفر وما كان قريبا مـــن ذلــك مـــن ســـيء الكـــلام، التي ما استقرت في النفس حتى يكون وضـــع صـــاحبها الوضـــع الخبيـــث الســـاعي إلـــى الرذيلة والفساد لا يردعه عن السوء رادع. تذهب أعماله ضـــائعة كمـــا جـــاء فـــي الآيـــة السابقة رماد تذروه الرياح.

ثم إنه وقع في كلام المفسرين اختلاف في تعيين الشـــجرة الطيبـــة، وفـــي تعيـــين الشـــجرة الخبيثة. فقال بعضهم: هي النخلة اعتمادا على مـــا رواه البخـــاري وغيـــره، فـــي تشـــبيه الرسول ﷺ المؤمن بالنخلة في أكثـــر مـــن مناســـبة. وقـــالوا: إن الشـــجرة الخبيثـــة هـــي الحنظل. ويترجح عندي ما ذهب إليه ابن عباس رضـــي الله عنهمـــا: هـــذا مثـــل ضـــربه الله ولم يخلق هذه الشـــجرة علـــى وجـــه الأرض. يقـــوي هـــذا أن الله ذكـــر مواصـــفاتها بدون تعيين اسمها، ولـــو كانـــت شـــجرة معينـــة لـــذكرها باســـمها فيتبـــع ذكـــر اســـمها استحضار مواصفاتها.

27- يثبت الله الذين آمنوا...ما يشاء.

فقْدُ الطمأنينة من أسوأ ما يعرض للإنسان في حياتـــه الـــدنيا. فـــالقلق والحيـــرة والأســـئلة التي تتحرك في النفس ولا تجد جوابا ولا تفسيرا، تفســد علـــى الإنســـان حياتـــه وتصـــيبه بالقلق المهدم. إن الذي يطرُد كل ذلك هو ما يـــنعم الله بـــه مـــن التأييـــد للإنســـان بهدايتـــه وخاصة القرآن الذي يجد تاليه المتدبِّر في آياته سلاما نفســـيا وراحـــة كمـــا قـــال تعـــالى: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[1] فالله قد أنعـــم علـــى البشـــر بمـــا يثبِّـــتهم بـــه مـــن آيـــات كتابه، هو القول المتصف بالثبوت في مضمونه وفي ألفاظـــه. فينعمـــون بـــه فـــي حيـــاتهم الدنيا. يضيء لهم المســـالك المنجيـــة ويـــدفع عـــنهم موجبـــات الحيـــرة والشـــك القاتـــل.

---

[1] سورة الرعد آية 28

وكذلك يجدون من آثار ملا زمتهم للعمل بما جاء في القرآن طمأنينة راضية. وقد أذهب عنهم تمسكهم بالقرآن الخوف.

ثم ثنّى القرآن بما يثبت مضمون هذه الآية بأن الله يتصرف في الظالمين المشركين فيجعلهم في حيرة وارتابك. شأنهم شأن التائه الذي لم يتبين الطريق السالك لغايته، فكلما سار في اتجاه عاجله الشك فيه. وذلك عاقبة الشرك الذي اختار الضال التزامه وأعرض عما كشفه له الله من سوء العاقبة.

والله يفعل ما يشاء فعله لا راد لقضائه . فيسمو بالمؤمنين إلى درجات متفاوتة في النعيم والفضل والتزكية، ويهوي بالمشركين إلى دركات من العذاب والنقمة والإذلال تبعا لحكمته وحسن تقديره.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (29) وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ (30) قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ (31)

بيان معاني الألفاظ :

كفرا: كفران النعمة المقابل لشكرها. ومنه الشرك بالله.

أحلوا قومهم : كانوا سببا في نزول قومهم.

دار البوار : دار الهلاك والخسران جهنم.

القرار : موضع استقرار الإنسان.

الأنداد : جمع ند وهو المماثل في المجد والرفعة.

سبيل الله : كل عمل يجري على ما يرضي الله.

الخلال : مصدر من خالّك إذا وادك وصافاك.

بيان المعنى الإجمالي :

عجب من كل من يمكنه الرؤية إذا لم ينتبه إلى رؤوس الكفر الذي بلغ من سوء عملهم وكفرهم، أنهم قابلوا نعم الله عليهم من رسالة النبي ﷺ، ومن أمن بلدهم، وتقدير العرب لمنزلتهم. قابلوا كل ذلك بكفر النعمة التي أشدها شناعة الشرك بالله ومقاومة دعوة الإسلام. وأثروا على قومهم فقادوهم إلى دار الخسران، جهنم. وهي أسوأ قرار ينزل به الإنسان. ثم إنهم أقاموا من خيالهم أصناما قدسوها حتى جعلوها مساوية لله. وما حققوا بذلك إلا هدفا واحدا هو أنهم أضلوا الناس عن الطريق

المؤدي لمرضاة الله. قل لهم تهديدا لهم: تمتعوا بما أتيح لكـم فـي الحيـاة فـإن مصـيركم إلى النار.

قل يا محمد للمقربين من البشـر إلـيّ: عبـادي: واصـلوا أداء صـلواتكم علـى الوجـه الأكمل، وواصلوا الإنفاق من الأموال التـي رزقـتكم إياهـا، وبـادروا بـذلك قبـل يـوم القيامة. ذلك اليوم الذي لا يملك أحد مـا ينفقـه لترتفـع درجاتـه، كمـا لا يجـد خلـيلا يشفع له أو تسمو به مكانته عند الله.

بيان المعنى العام :

28 ـ29: ألم تر أن الله...وبئس القرار.

تحريك كل من يصح منه الرؤية لاستحضار ما دخل عليه قوله: ألم تر، فكأن مدخول الرؤية أمر محسوس منظور إليه، والعجب كل العجب ممن لم يشاهده. ذلك أمرُ الذين بدلوا نعمة الله كفرا؛ أتتهم النعم من الله من بعثة النبي ﷺ التي هي أكبر النعم وأجلها مقدارا، وحصانة بلدهم فتحققت لهم الحياة فيه آمنين في الوقت الذي كانت الحروب تشتعل في الجزيرة العربية (بلد آمن ويتخطف الناس من حولهم) وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم، فكانت الأرزاق تأتيهم من كل مكان. فعوض أن يشكروا هذه النعم بقبول الحق الذي نزل إليهم ويخلصوا العبادة لمسديها، عبدوا الحجارة، وكذبوا الرسول ﷺ، وآذوه وآذوا المؤمنين به. هؤلاء هم رؤساء الكفر من قريش، استكبروا في مكة بغير الحق، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات، وصرفوا كثيرا من القادمين على رسول الله ﷺ. صرفوهم عن الإيمان والانضمام لجماعة المسلمين .وأثّروا بالتالي في الضعفاء من قومهم، وحتى في بعض كبار القوم؛ كما فعلوا مع عم الرسول أبي طالب بإثارة نعرة النخوة بما كان عليه آباؤه والكبرياء بنسبه إليهم. فكانت الغاية التي حققوها لقومهم: أنهم أنزلوهم في النهاية دار الهلاك والخسران. وما هي هذه الدار ؟ الأقرب لنسج الآية هو ما جاء في قوله تعالى بعد: جهنم يصلونها، فيكون الخسران متعلقا بحالة قومهم يوم القيامة. وحمله بعضهم على النكاية التي حلت بقريش في واقعة بدر التي قتل فيها عدد غير قليل من رؤوس الكفر .ويكون الكلام ينتهي بقوله تعالى (دار البوار) ثم يستأنف القرآن أن عاقبتهم جهنم .

وجهنم هي أسوأ قرار يكون فيه الإنسان، أعاذنا الله منها بفضله وكرمه.

30-وجعلوا لله أندادا...مصيركم إلى النار.

رؤساء الكفر والمستكبرون الطغاة مـن مشـركي أهـل مكـة، اخترعـوا مـن خيـالهم أصناما أسبغوا عليها من التقديس الشيء الكثيـر. وطوعـوا النـاس ليعتقـدوا فيهـا النفـع والضر، حتى جعلوها مساوية لله في المجـد والعظمـة، يؤمنـون بهـا ويتقربـون إليهـا.

وما هو الدافع لهم في ذلك؟ أجابت الآية أنهم مـا فعلـوا شـيئا إلا أنهـم أوقعـوا قـومهم في الضلال والضياع، والبعد عن طريق الله، فضلوا وأضلوا.

قل لهم يا محمد: تمتعوا بمغريات الحياة الدنيا، وواجههم بعـد ذلـك مهـددًا لهـم بالكشـف عن مصيرهم الوحيد الذي سيؤولون إليه يوم القيامة، مصيرهم إلى النار.

31 - قل لعبادي ...ولا خلال.

أمر ﷺ في خاتمة الآية السّـابقة أن يهـدد المشـركين فـي مواصـلتهم العـبث مـن متـع الحياة بأن مصيرهم إلى النـار. وبالمقابـل أمـر أن يخاطـب المـؤمنين بوصـفهم هـذا: الإيمان. ليواصلوا أداء الصلوات على أكمل وجـه وأتمـه، وأن ينفقـوا ممـا يسّـر لهـم ربهم من الأرزاق سرا، بكيفية لا يعلم غير المنفق أنـه يسـمح بأموالـه تخفيفـا للحاجـة، وعلانية إنفاقا ظاهرا يدركه النـاس. وأتبـع الإنفـاق بـالتحريض عليـه سـرا وعلانيـة لطرد ما يمكن أن يُظَنّ أن الإنفاق علانية لا ثـواب فيـه. نعـم ! إن تقـديم السـر علـى العلانية يشير إلى فضل الصدقة المخفية على الصـدقة المعلنـة، لمـا فـي الإخفـاء مـن الإبقاء على كرامة المحتاج.

وفي نظم الآية أسرار يكون من الخير إبرازها:

أولا: صرح الأمر الإلهي بالتوجه للعبـاد منسـوبين لـه، وهـو أعظـم شـرف للإنسـان عندما ينسب إليه (قـل لعبـادي) وفـي ذلـك إيمـاء إلـى أن المشـركين بشـركهم قـد انفصلوا عن ربهم.

ثانيا: أنهم لم يُطلبوا بصيغة فعل الأمر التي لا تستعمل إلا لإيجـاد مـا لـم يتحقـق بعـد في الخارج، أما استعمال الفعل المضارع مـع الـلام المقـدرة يفيـد مواصـلة مـا هـم ينجزونه فعلا، وفيه تسجيل: أن الله مطلع على ما قاموا به من خير .

ثالثا: إظهار متعلق الإنفاق، أنه مما رزقنـاهم، ليكونـوا عنـد الإنفـاق مستشـعرين منـة الله عليهم الذي مكنهم مما ينفقون.

ثم حضهم على المبادرة بإقامة الصـلاة والإنفـاق قبـل انقضـاء العمـر، الـذي لا يعلـم ميقاته إلا الله. قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يجد فيـه أحـد ملكـا يملكـه حتـى ينتفـع بالإنفاق منه. فعبر عن نفي التملك والتصـرف فيـه، بنفـي البيـع. وكمـا لا ينتفـع فـي ذلك اليوم بمال يتصدق منه، كذلك لا ينتفع بصداقة تشفع له.

ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الرزق : القوت.

التسخير : التذليل، والتطويع.

الأمر : الإذن.

دائبين : على حالات لا تختلف.

إن تعدوا : إن تحاولوا العد.

لا تحصوها: لا تضبطوا عددها.

بيان المعنى الإجمالي :

كتاب الكون أمامكم فانظروا فيه. تجدوا أن الله هو المتفرد بخلق السماوات والأرض. ثم لطف بكم فيسر لكم في الأرض ما يمكنكم به من عمارتها، فأنزل الماء من السماء، وقدر أن يجري في باطن الأرض يتواصل مدده بعد نزوله، لتتولد منه الثمار والأقوات. وألهمكم الاستفادة من قوانين الكون لتتيسر بذلك حياتكم، فصنعتم الفلك، عليها تسافرون وتحمل أمتعتكم. وسخر لكم الأنهار تخصب الأراضي وتبعث بمياهها إلى مخزون المائدة المائية. وربط بينكم وبين الشمس والقمر تتعاقبان عليكم، تنتظم بتعاقبهما أمور الحياة وكذلك الليل والنهار. والنعم على كثرتها وتنوعها التي يحتاجها الإنسان، آتاكم الله إياها، فأخذ كل إنسان حظه المكتوب له منها. وهي نعم تعجزون عن عدها. ولكن الإنسان إذا لم يُنِرْ قلبه وعقله الإيمان يكون ظلوما جاحدا شديد الكفر، لا يتوجه بالشكر على الخيرات التي توفرت له.

بيان المعنى العام :

32-34: الله الذي خلق السماوات...لظلوم كفار.

بعد أن سجلت الآيات السابقة موقف الكافرين وفساد أعمالهم ومعتقداتهم ومصيرهم القريب والبعيد، وبينت مواقف المؤمنين والمنهج الذي أمروا بإتباعه، وما ينتظرهم من جزاء في الدنيا والآخرة، اعتنى القرآن بالتذكير بما يعتبر قوام الدين الإسلامي، أعني تفرد الله بالتصرف في الكون وفضله على البشر. وفي التذكير بذلك ولفت الأنظار للأدلة الناطقة بصدقه، ما يرفع حجاب الغفلة عن تلكم الأدلة، ويحييها في

العقل والضمير، حتى يكون الإنسان شاعرا بهـا، فـي منطقـة التجلـي الواضـح، تهذيـه وتقوّم مسيرته في الحياة.

استَخلصتْ مادة هذا التذكير من كتـاب الكـون. فلفـت الأنظـار لحقيقـة يُقِرُّبهـا حتـى المشركون، وهـي أن الله هـو المتفـرد بخلـق السماوات والأرض. ولا يـدعي عبـدة الأصنام أن آلهتهم خلقت شيئا منهما. وفي هذا الكـون يعـيش الإنسـان الـذي يسـره الله الذي خلقه، لتتم فيه الحياة والتعمير من البشـر. ثـم بعـد الخلـق العـام للكـون تابعـت الآيات تصرف الله فيه بما ينفع الناس. فعدّد الـنعم الكبـرى التـي بـدونها تتعـذر الحيـاة أو تكون عسيرة .

أولا: إنزال الماء من السحب المرتفعـة حـول المحـيط الأرضـي، التـي تحيـل الأرض بمتنوع الخيرات التي بها تستمر الحياة. فأخرج الثمـار مـن الأشـجار، وأخـرج النبـات الذي ترعاه الأنعام. ومن ذلـك يتـوفر للإنسـان قوتـه الـذي يعوضـه عـن الوحـدات الحرارية التي تحترق بالعمل والكد. فميـاه الأمطـار، وتقبـل الأرض لهـا ثـم اختزانهـا لتروي عروق الأشجار والنبات على قدر ما هي فـي حاجـة إليـه، وكـون مـا يتحـول من عناصر التراب والماء إلى ثمـار وحبـوب ومراعـي للحيوانـات التـي يـدخل فـي تركيب إنتاجها جميعا ما يتفق وطبيعة الإنسان، مما يشير إليـه قولـه تعـالى: رزقـا لكـم - آيات تنادي بالقدرة والحكمة والوحدانيـة. وهـذه نعـم تصـل مـن الله إلـى الإنسـان ولادخل له فيها.

ثانيا: إقدار الإنسان على الاستفادة من قوانين الكـون بمـا يمكنـه مـن تطويعهـا للتغلـب على الصعوبات التي تعترضه. ومن ذلك ما هداه إليه مـن صـناعة السـفن التـي مكنتـه من السفر بها واختصـار المسـافات الفاصـلة بـين أقطـار الأرض وتحميلهـا بالسـلع، وغير ذلك من المنافع التي تظهر مـع الـزمن صـور جديـدة لهـا. وكـل ذلـك بإذنـه سبحانه في ترتيب القوانين التي باكتشافها تم للبشرية تحقق فوائد هذه النعمة.

ثالثا: الأنهار الجارية بما تحملـه مـن ميـاه ومـا تنشـره مـن طمـي يخصـب الأرض ويضاعف خيراتها، وتمكين الإنسان من الـتحكم فـي مجاريهـا والطاقـات المتولـدة مـن السدود التي تبنى عليهـا. ونفـاذ مياههـا إلـى بـاطن الأرض تـروي المائـدة المائيـة، فتختزن في باطن الأرض. ألْهم البشر طريقة استخراجها والتحكم في الري بها.

رابعا: تعاقب الشـمس والقمـر، وتعاقـب الليـل والنهـار علـى الأرض وسـاكنيها. إن المنافع والألطاف التي تيسرت للإنسان بهـذا التعاقـب لا تكـاد تحصـى، بـل إن الحيـاة لا يمكن لها أن تحدث ولا أن تستمر لولا هذا التعاقب المنتظم.

وبصفة عامة تفضل عليكم ويسر لكم فمكنكم من كــل مــا ســألتموه. ولــيس معنــى هــذا أن كل إنسان استحوذ على جميع ما تفضل بــه الله، ولكــن أخــذ كــل فــرد مــن البشــر حظه من الخيرات التي سألها الإنسان بلسان حاله أو بلسان مقاله.

ثم انسحبت الآية على ما تقدمها لتعطي مفهوم التعمــيم لفضــل الله علــى البشــر وتفــرده بذلك. بأنكم لو حاولتم تعــداد نعــم الله علــيكم لعجــزتم عــن ضــبط أعــدادها. إن نعمــا كثيرة لا يشعر بها الإنسان إلا إذا ذكــر بهــا. لقــد ذكّــرت المــؤمنين مــرة بنعمــة الله على كل فرد منهم، وما سمعت أحدا يذكر تلكم النعمة، هي أنــه يعــرف نســبه وأنــه ابــن فلان وفلانة. ولا يذكر هذه النعمة ولا يقدر حق قــدرها إلا فاقــدها. إن كــل نفــس يمــلأ رئتيك أو يخرج منهما، وكل جرعة مــاء تمــر عبــر مســلكها، وكــل لقمــة تنفــذ إلــى مكانها. نعم تتكرر ولا تلتفت إليها ولا تشعر بها، ولو فقــدت واحــدة منهــا لهــان عليــك في استرجاعها كل ما ملكت يمينك.

ولكن الإنسان الذي لم يستقر الإيمان فــي قلبــه، ولــم يضــئ جوانــب روحــه، يمضــي ذاهلا عن أخص خصائص نفسه، فيندفع إلى تجــاوز حــده. وأكبــر ذلــك الظلــم الشــرك بالله مسدي النعم. وتأتيه النعمة فيصرفها فــي عكــس مــا كــان عليــه أن يصــرفها فيــه حسب قانون الحكمة والعدل، فيقوده كفره بها إلى التمرد والاستكبار.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

اجنبني : من جانبه باعده عنه. أي امنعني.

الصنم : المنحوت على خلقة البشر، وما كان على غير خلقة البشر، وثن.

الأفئدة : القلوب والعقول والمشاعر.

تهوي : تسير بجد وقصد إليه.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يا محمد وانشر على أسماع قريش وعلى أسماع البشرية إلى يوم الدين ما دعا به وابتهل به إبراهيم ﷺ. ابتهل إبراهيم لربه داعيا: رب اكتب الأمن لمكة هذا البلد الذي أسكنت فيه ولدي وأمه. واحمني وابنيّ إسماعيل وإسحاق من عبادة الأصنام. قد عظم خوفي لما رأيت كثرة العابدين لها. إن من تبع منهجي في العقيدة والسلوك هو مرتبط بي نكُونُ معا وحدة. ومن عصاني فأمره إليك ربي. أنت الغفور الرحيم فقد تهديه برحمتك وتغفر له ما سلف من أمره بفضلك. ربنا إنني، تبعا لأمرك، أسكنت بعض ذريتي، إسماعيل ومن تناسل منه بهذا الوادي بين الجبال، أرض صخرية لا تصلح للزراعة ولا للغراسة، حول بيتك الذي حرّمته فمنعته عن المعتدين، وشرعت من تقديسه ما به حميّته. ومقامهم في هذا المكان يصرفهم لعبادتك وإقامة شعيرة الصلاة على أفضل وجوهها؛ فيسر لهم الحياة بما تغرسه من حب وشوق في عقول ومشاعر قسم من الناس، فيسرعون إليهم رغبة في جوارهم وتعلقا ببيتك. وألهمهم شكر نعمتك. ربنا إنك العليم بإخلاصنا، فما نعلنه وما نخفيه سواء عندك، إنه لا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء.

بيان المعنى العام :

35—38، وإذ قال إبراهيم ...من شيء في الأرض ولا في السماء.

بعد أن لفت الأنظار إلى مظاهر القدرة الإلهية، ومختلف أنواع الفضل الإلهي ليجلب أهل مكة إلى الدخول في الإسلام. عقب ذلك بالتذكير بابتهالات إبراهيم، وهو أبوهم الذي يجدون في الانتساب إليه، والقيام على البيت الذي بناه شرفهم، وذلك مما يؤكد الوفاء بالنهج الذي كان حريصا عليه أشد الحرص. المنهج الذي أحياه رسول الله.

اذكر يا محمد ذلك الظرف الذي قام فيه إبراهيم داعيا ضارعا إلى ربه، وقد ترك إسماعيل وأمه بمكة لا أنيس لهما إلا رعاية الله. فلنتبع ما حفظه القرآن وذكر به.

أولا: رب اجعل هذا البلد آمنا. دعا مستنجدا مستحضرا أنه يدعو من توالت عليه ألطافه وتكريمه، بما تفيده كلمة الرب تبعا لأصلها (التربية) من الرعاية وقوة الارتباط بين المربّى ومن تولى تربيته. أشار إلى المكان القفر الذي هو فيه وسماه بلدا، اعتمادا على ما تلقاه من الله من وحي يطمئنه بعمران ذلكم المكان. ومن حكمته ﷺ أن طلب أولا الأمن الذي به يتواصل العمران، وفقدانه مؤذن بالخراب.

أجاب الله دعاءه حتى إنه في العصر الجاهلي الذي فقد الأمن في الجزيرة العربية،

أقرّ الله في قلوب العرب حرمة مكة فقال تعــالى: (ألــم يــروا أنــا جعلنــا حرمــا آمنــا ويتخطف الناس من حولهم)[1]-

ثانيا: واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس-دعا أن يحميه ويحصنه مع بنيه من عبادة الأصنام . وبنوه يوم دعائه إسماعيل ﷺ جد محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وإسحاق جد موسى وعيسى وأنبياء بني إسرائيل عليهم السلام.

والأصنام منحوتات على شكل البشر تقام لتعبد مــن دون الله. وأتبــع دعــاءه بحمايتــه من عبادة الأصنام بإظهار حذره من التحول عــن عبــادة الله إلــى عبــادة الأصــنام، وإن كان ﷺ رســولا كريمــا جاهــد فــي ســبيل التوحيــد جهــادا متميــزا. وذلــك لإبــراز اشمئزازه الشديد من الضلال الذي شاهد كثيرا مــن النــاس فــي عصــره ســقطوا فيــه. روي عن إبراهيم التيمي رضي الله عنه قوله: من يأمن علــى نفســه بعــد خــوف الخليــل على نفسه من عبادة الأصنام؟ والذي أفهمــه أنــه مــن التعــاليم التــي ســنها إبــراهيم أن يكون الناس على حذر من ســوء العاقبــة. كتــب الله لنــا ولكــم المــوت علــى حســن الخاتمة.

ثالثا: فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنــك غفــور رحــيم – أعلــن أنهمــا منهجــان: منهجه القائم على التوحيد الخالص، وبه تتكــون مــن المــؤمنين جماعــة واحــدة يؤلــف بينها العقيدة وتشرف بانتسابها إليــه. ومــنهج الشــرك وعبــادة الأصــنام ويتبــرأ مــنهم ويُوكلُ عاقبتهم إلى الله الذي يحكم ولا معقب لحكمــه. ومــن صــفته الغفــران والرحمــة. وليس معنى تعقيبه هذا أنــه يرجــو لعبــدة الأصــنام المغفــرة لأن الله يقــول: (إن الله لا يغفر أن يشرك به)[2]، ولكن على معنى أن يفتح علــى بصــائرهم فيهتــدوا لتــرك عبــادة الأصنام وتوحيد الله كما قال تعالى. قــل للــذين كفــروا إن ينتهــوا يغفــر لهــم مــا قــد سلف)[3] – وذلك تبعا لقلبه الكريم الذي يحب الخير للبشرية .

رابعا: ربنا إني أسكنت مــن ذريتــي بــواد غيــر ذي زرع عنــد بيتــك المحــرم ربنــا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من النــاس تهــوي إلــيهم وارزقهــم مــن الثمــرات لعلهــم يشكرون –

واصل ابتهالاته بعرض الوضع الذي ترك فيه إسماعيل وأمــه فــي ذلــك الــوادي الــذي لا نبات به ولا زرع. والله يعلم المكان الــذي امــره أن يســكنهما، ولعــل ذلــك إظهــارا

[1] سورة العنكبوت آية 67
[2] سورة النساء آية 116/48
[3] سورة الأنفال آية 38

للتضرع وقوة الحاجة للتأييد، فإن مقومات الحياة والعمارة معدومة، فذكرها عند ابتهاله استنزالا للرحمة التي تطمئنه عليهما، ولا مورد لها إلا من ذلكم الباب.

وقرن خصائص المكان بأنه جمع بين كونه قحلا لا يصلح للزراعة ولا للغراسة، وبين رفعة المقدار بجوار البيت الذي حرّمه الله فمنع المستبدين من الاستيلاء عليه أو تحويله عن وضعه، أو الإضرار بساكنيه إضرارا يلجئهم إلى الهجرة منه فيسرع إليه الخراب. وعلل مظهرا ما كشفه الله له: بأن إقامتهم في ذلك المكان تساعدهم على إقامة الصلوات تقربا إلى الله، بقلة الشواغل الصارفة عنها.

ثم ابتهل إلى الله أن يعوّضهم عن فقر أرضهم، بحب الناس لهم وشوقهم إلى بلدهم، فيسرعون إليهم بعوامل نفسية وروحية. وتتساق إليهم مع الوافدين المشوقين الخيرات، رجاء أن يقدروا النعمة حق قدرها فيقوموا بواجب الشكران.

خامسا: ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء -

وصلّ لدعائه بما تتنزل به الرحمات وتتحقق الإجابات، وهو التعبير عن الإخلاص الذي لا يطلع عليه إلا رب العالمين، باعتباره مما يجري في باطن الداعي. وبمقدار صفائه يقوى الرجاء في الإجابة التي كان إبراهيم ﷺ شديد الحرص على تحققها. وأتم بالتذكير بالقاعدة الإيمانية التي تفيد تفرد الله بسعة العلم وشموله لكل ما يجري في الكون. وفيه تعليم لذريته ومتبعي منهجه.

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ :

مقيم الصلاة : أؤدي الصلاة بصفة مستمرة، وعلى أكمل الوجوه.

يقوم الحساب : يتحقق الحساب. ويبعث الناس من قبورهم ليوقفوا فيحاسبوا.

بيان المعنى الإجمالي :

ابتهالات زكية سجلها القرآن صادرة عن إبراهيم ﷺ افتتحها بالثناء على الله، وذكر نعمه عليه اعترافا بها، والتي منها أنه وهب له، بعد أن تجاوز السن المعتاد للإنجاب، النبيين الكريمين إسماعيل وإسحاق. وأعلن عن ثقته في قرب الله من عبيده يسمع دعاءهم ويجيب طلبتهم .وواصل ابتهالاته بأن ييسر له الدوام على

إقامة الصلاة، وأن يلحق به من ذريته في ذلـــك. وأكـــد التوجـــه بقبـــول دعائـــه، وخـــتم ابتهالاته بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين.

بيان المعنى العام :

39←41، الحمد لله الذي وهب...يوم يقوم الحساب.

هذا من الأدب الذي هُدِيَ إليه إبراهيم ﷺ، ليكون بـذلك قـدوة للمـؤمنين بعـده. وهـو أن يعقب الدعاء بالثناء على الله، وبذكر النعم التي تفضل بها عليه.

قال إبراهيم: الثناء الأتم الأكمل لله الذي تفضل عليّ فلـم يجعلنـي مقطـوع النسـل، ولـم يقطع أملي فوهب لي، رغم تقـدم سـني إلـى الأمـد الـذي يتوقـف فيـه البشـر عـن الإنجاب، ولدين صالحين إسماعيل وإسحاق. وتشير الآيـة إلـى أن إبـراهيم كـان يـدعو ربه: أن يمتد نسله في الإيمان، وأن يخلفه من ولده مـن يواصـل الـدعوة إلـى التوحيـد. إن ربي سميع لدعائي، أجابني بتحقيق طلبتي.

ثم عبر عما ألفه وأحبه ويرغب رغبة أكيدة في مواصـلة القيـام بـه، وهـو أن يواصـل في حياته إقامة الصلاة بأدائها على أتـم الوجـوه المقربـة للمـرء مـن ربـه. وأن يمـن على بعض ذريته بذلك فتستمر فيهم عبادة الله بإقامة الصـلاة. وأكـد الـدعاء لتحقيـق مـا ابتهل به: إن ربي سميع الدعاء، أي مجيب لمـن أخلـص فـي دعائـه. وألْحـق بدعائـه المذكور في الآية أن يتولاه بالمغفرة، لما قصّـر فيـه، وأن يسـحب هـذه المغفـرة علـى والديه وعلى المؤمنين يوم يقوم النـاس، وينهضـون مـن قبـورهم ليحاسـبوا علـى مـا قدموا. أما المؤمنون فقد تقدم قوله، فمن تبعني فإنـه منـي، وأمـا أبـوه فقـد تقـدم فـي سورة التوبة آية 115 أن إبراهيم تبرأ من أبيه لما تيقن عدواته للتوحيد.

في ختام هذه الابتهالات ما ينادي بقيمة الصـلاة فـي حيـاة الإنسـان، التـي قـال فيهـا النبي ﷺ: وجعلت قرة عيني في الصلاة.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا

بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغفلة : الذهول.

تشخص الأبصار : ترتفع الأبصار.

الإهطاع: إسراع المشي مع مد العنق

إقناع الرأس : طأطأته من الذل.

الطرف : تحرك جفن العين.

الهواء : الخلاء.

إتيان العذاب : وقوع العذاب.

قريب: قليل.

المكر : إضمار فعل السوء بالغير.

بيان المعنى الإجمالي :

إن ما يرفل فيه المشركون المتمردون الظلمة من نعيم، هو نعيم زائل وقليل، ولا تظنوا أن الله غافلا عن قبائح أفعالهم وسوء عقيدتهم. كل ما في الأمر أن الله أمهلهم ليجزيهم عما قدموا. تراهم في يوم الجزاء وقد أحاط بهم هول العذاب من جميع الجوانب فشخصت أبصارهم، فلا تتقلب من شدة الهول. يسرعون ورؤوسهم ممتدة يغشاها الذل، توقفت جفونهم فلا يستطيعون إغماضها. وقلوبهم وعقولهم فارغة خاوية ذهب كل ما كان يعمرها من قبل. أنذرهم منبها بأنهم عندما يحين يوم العذاب يتوجه الذين ظلموا، بالشرك والتعدي على حقوق البشر، إلى الله بالسؤال أن يمهلهم بإرجاعهم إلى الدنيا وقتا قليلا يظهرون فيه إيمانهم وإجابتهم للدعوة التي بلغها إياهم رسول الله ﷺ . وسيكون الجواب: ألم تكونوا أقسمتم من قبل في الدنيا وأكدتم أنكم لا تخرجون من قبوركم. وبلغ من عنادكم أنكم حللتم في مساكن الذين دمرناهم من الأمم السابقة وأقمتم فيها، وتبين لكم بجلاء كيف انتقمنا منهم، وضربنا لكم على لسان رسولي في القرآن الأمثال الموقظة للعقول والقلوب، فأعرضتم عن كل ذلك.

ثم ثبت الله نبيه والمؤمنين، بأن المشركين قد دبروا لهم ما يؤذيهم في خفاء، والله عليم بما يمكرون، وما كان مكرهم ليؤثر في الجبال فيهدها، إن مكرهم ضعيف يتحطم على صلابة الرسول والمؤمنين الذين هم كالجبال.

بيان المعنى العام :

42—43، ولا تحسبن الله غافلا...هواء.

- تمرد مشركو مكة، وقد بسط الله لهم فـــي الـــرزق والقـــوة، وكانـــت حظـــوظ زعمـــائهم موفورة من المال والجاه، فخيل إليهم أن الخير الذي هـــم فيـــه لا ينقطـــع ويصـــاحبهم فـــي حياتهم وبعد موتهم. فهددهم القرآن بأن الله يمهلهـــم ولا يهملهـــم، إنـــه غيـــر ذاهـــل عـــن أفعالهم، مطلع على ظلمهم الفظيـــع بالشـــرك بـــالله. فيكـــون المعنـــى لا تظـــنن أن عـــدم تعجيل العقوبة للمشركين الظالمين غفلـــةً عـــن جـــزائهم بقبـــيح فعـــالهم. ولكـــن الله قـــدر لكل شيء أجله، فهو تبعا لحكمته قدر تأخيرهم ليوم مهول: من صفة هذا اليوم:

أولا: أن أبصارهم تكون واقفة لا تتحرك من شـــدة الهـــول، يلهـــيهم مـــا هـــم فيـــه عـــن تقليب النظر وتحويل البصر. وضع أبصـــارهم كوضـــع العيـــون فـــي حالـــة الاحتضـــار. إن دلالة العيون على الوضع النفسي دلالـــة مؤكـــدة لا تكـــاد تتخلـــف. فـــالحزن والتفـــاؤل والفرح والذهول والحيرة ونحوها، تنبئ عنها أوضاع البصـــر، فمـــن الدقـــة القرآنيـــة فـــي استحضار صورة المشركين يوم القيامة لفت الأنظار لوضع أبصارهم .

ثانيا: يسرعون في المشي مع مد العنق إلى الأمام بذلة واستكانة، كإسراع الأسير الخائف.

ثالثا: مقنعي الرؤوس: رؤوسهم مطأطأة من الذل.

رابعا: لا يرتد إليهم طـــرفهم: لا يقـــدرون علـــى تحريـــك جفـــونهم، فتبقـــى ثابتـــة فـــي وضعها لما داهمهم وما شاهدوه من الهول.

خامسا: أفئدتهم هواء: عقولهم خاوية ذهب منهـــا كـــل مـــا تحويـــه، مـــن شـــدة الموقـــف الذي أحاط بهم هوله من كل جانب.

إن ما مكنهم الله منه من نعم زائلـــة فـــي الـــدنيا، لا تســـاوي لحظـــة مـــن لحظـــات هـــذا الموقف المفزع الذي حددت بعض ملامحه الآيتان.

43 -45، وأنذر الناس يوم يأتيهم...وضربنا لكم الأمثال.

الآيتان السابقتان كشفتا عـــن الوضـــع النفســـي وعـــن حالـــة حـــواس المشـــركين يـــوم القيامة. وأردفت هذه الآيات صورة قمعهم ورفـــض توســـلاتهم وتقـــريعهم ليكونـــوا علـــى بينة من مآلهم فيقلعوا عن مواصلة الكفر ورفض الـــدعوة الإســـلامية. فالغايـــة مـــن هـــذه الآيات الثلاث إنذارهم لتغيير موقفهم.

مضمون الإنذار: أن المشركين الذين ظلمـــوا بشـــركهم، وظلمـــوا المـــؤمنين، ومـــا كـــان يردعهم عن الظلم رادع، أنذرهم منبئا لهم بموقفهم يـــوم القيامـــة، يـــوم يشـــاهدون أهوالـــه التي فصّل شيء منها فـــي الآيتـــين، فيتوســـلون إلـــى الله أن لا يعـــاجلهم بالعقوبـــة، وأن يؤخرهم قلـــيلا قبـــل حســـابهم وجـــزائهم، ليعبـــروا عـــن اســـتجابتهم للـــدعوة بالإيمـــان، ويتّبعُوا ما يأمرهم بـــه المرســـلون فيمـــا يقبلـــون عليـــه ومـــا يدعونـــه مـــن الأعمـــال.

وهيهات يكون قمعهم وحرمانهم من قبول توسلاتهم بتـذكيرهم بمـا كـانوا أقسـموا عليـه في حياتهم الدنيا وأكدوه تأكيدا بالغا: أنهم لا ينتقلـون مـن قبـورهم إلـى الحشـر (مـالكم من زوال) على معنى إنكارهم الشديد للبعث.

ويتواصل تقريعهم وتوبيخهم، بأنهم لما كـانوا فـي الـدنيا كـانوا يمـرون فـي رحلاتهـم إلى الشام على ديار ثمـود، ويمـرون علـى ديـار عـاد فـي رحلاتهـم إلـى الـيمن، ويحطون رحالهم في منازلهم الخربة، ويشاهدون ويـروون مـا حـاق بهـم مـن العـذاب الذي استأصلهم. فقد تبينوا بذلك تبيُّنا يقينيا ما حـل بهـم مـن العـذاب. ومـع ذلـك فقـد أرسل الله لهـم رسـوله يعظهـم ويـذكرهم بمختلـف أنـواع التـذكير. (و ضـربنا لكـم الأمثال) نعم تكررت الأمثال الموقظة للعقول الكاشـفة عـن سـنة الله التـي يجريهـا فـي القوم الظالمين، ولكنهم واصلوا التكذيب والصد عن سبيل الله.

46- وقد مكروا...منه الجبال.

لقد هيأ المشركون ما يدفعون به الـدعوة بخبـث كبيـر. ودبـروا فـي الخفـاء ضـروبا ظنوا أنها ستوقف المد الإسلامي، وظنوا أن الله غيـر مطلـع علـيهم، فـواجههم القـرآن بالتأكيد على أن الله عليم بما يمكرون. ثـم هـوّن علـى رسـوله وعلـى المـؤمنين مـا يبيتونه لهم، فقال تعـالى: (وإن كـان مكـرهم لتـزول بـه الجبـال) – إن– أداة نفـي، على معنى وما كان مكرهم لتزول منـه الجبـال، أي إن مكـرهم ضـعيف لا يسـتطيع أن يزيل الجبال الراسيات. فالرسول والمؤمنون صـامدون واثقـون، ومـا دبـره المشـركون لا يؤثر فيهم، وفيه إيماء للاستخفاف بهم وللتنويـه فـي المقابـل بصـلابة المـؤمنين فـي دينهم، وأنه لا يزعزعهم مكر المشركين.

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

التبديل : التغيير.

برزوا : ظهروا بين يدي الله لا يواريهم بناء ولا حصن.

التقرين : الجمع بين اثنين بحبل كما يجمع بين الثورين.

الأصفاد : جمع صفاد وهو القيد والغل.

سرابيل : جمع سربال وهو القميص.

القطران : دهن أسود معروف، للنار فيه اشتعال شديد.

بلاغ : تبليغ وإيصال.

بيان المعنى الإجمالي :

تيقّنْ أن الله سيتم وعده الذي وعدك، سيحقق لك نصره، وظهور الإسلام على الدين كله. إن إمهال الكافرين وعدم تعجيل العقوبة، هو تابع للتقدير الإلهي. ويؤكد ذلك: أن الله عزيز لا يمكن أن يرد حكمه راد، بل ينفذ ما أراد كما أراد. وهو القادر القدرة الكاملة على الانتقام، من الكافرين والطغاة.

وذكّرهم باليوم الذي تتغير فيه الأرض والسماوات، فلا تكون خصائصها على ما تشاهدونه في الدنيا. وفي هذا اليوم يظهر المجرمون مكبلين ومجموعين بالقيود والأغلال. يغطي القطران أجسامهم، تلكم المادة التي تختزن الحرارة فترتفع درجتها وتلتصق بالجلود فتمزقها، وتغطي النار وجوههم فتستوعبها. وهو يوم يظهر فيه العدل الإلهي فتُجزى كل نفس بما اختارت ونفذت ما اختارت. وجزاء البشر بما قدموا يتم في سرعة تفوق التصور. إن الله سريع الحساب.

استحضر القرآن في خاتمة سورة إبراهيم مجموع ما جاء فيها، فأشار إليه بأنه أمر أراد الله إبلاغه للناس ليستيقظوا، ولينذرهم به من عاقبة التهاون به، وليعلموا علم اليقين أن الله واحد لا شريك له، وليتدبر فيه أصحاب العقول الناضجة فيرشدوا فكرا وعملا.

بيان المعنى العام :

47- فلا تحسبن الله مخلف...ذو انتقام.

قاوم المشركون الدعوة الإسلامية، وآذوا المؤمنين، ولم يعاجلهم الله بالعقوبة. وكل أمر مرتب عند الله في أجله لحكمة يعلمها. سلّى النبي ﷺ فخاطبه مؤكدا: إن الله لا يُخلفك يا محمد ما وعدك من النصر، وأنت في هذا على سنن المرسلين. ولذلك جمع لفظ الرسل والمقصود محمد ﷺ. إن الله الذي وعدك بالنصر والتأييد وإظهار دينه عزيز قادر لا يحول بينه وبين مراده أي شيء، جرت سنته في التاريخ البشري أنه لا يهمل المفسدين الظلمة، وينتقم منهم في النهاية انتقاما لا مفر لهم منه.

48—51، يوم تبدل الأرض غير الأرض...سريع الحساب.

ظن المشركون أن أوضاع الحياة الأخـرة كأوضـاع الحيـاة الـدنيا. وأن القـوانين هـي عينها . ولذا سجل عليهم أنهم ينتصرون بشـفعائهم (مـا نعبـدهم إلا ليقربونـا إلـى الله زلفى)[1] - وأن أموالهم سـتحميهم مـن العـذاب الموعـود بـه، وأنهـم يعتمـدون علـى أتباعهم وعلى كثرة أولادهم، (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى)[2]
إن أوهامهم تلك منقوضة إذ استندت إلـى أن أوضـاع الأخـرة كأوضـاع الحيـاة الـدنيا. هدّمت الأيـات الـثلاث تصـوراتهم، وصـرحت بـأن الأرض غيـر الأرض، والسـماء غير السماء ؛ يؤثر الله فيهـا فيغيرهـا ويبـدلها. ويحقـق القـرآن أنهـم يخرجـون مـن الكوامن التي كانت تحويهم، يبرزون منها ظـاهرين سـواء أكانـت قبـورا أم ذرات مـن هباء أجسامهم. وإلـى مـن يبـرزون ؟ يبـرزون لله الواحـد الأحـد، لا رب غيـره ولا مالك في ذلك اليوم سواه، هـو قـاهر الجبـابرة والطغـاة والمسـتكبرين. يبـرزون أذلاء تحت سلطان قهره.

و يكشف الله المجرمين، ويرفع عنهم سـتره، فيـراهم كـل مـن يتصـور منـه الرؤيـة أسرى مقرونين بحبال تشدهم إلى بعضـهم، وقـد صُـبَّ الـذل علـيهم صـبا، يـرونهم وعليهم ثياب من قطران. تلكـم المـادة التـي تختـزن الحـرارة فتقـوى فيهـا، وتتمـزّغ جلود من صبت عليه، ويلتصق بهـا القطـران فيتضـاعف عذابـه، وقـد غطـت النـار وجوههم واحتوتها.

إن الله يجمع الناس يوم القيامة ليجزي كل نفس بما فعلتـه، بعـد أن اختارتـه ثـم أرادتـه ووجهت له قصدها. وهنا يكون الجزاء وفق مـا كـان عليـه العمـل مـن خيـر أو شـر وحسن أو سوء. ولا تظنـوا أن أمـر الأخـرة كـأمر الـدنيا. يقتضـي أزمانـا لا تحـد لإيقاف كل صالح على أعماله ثم تحقيق ما يسـتحقه مـن جـزاء، وإيقـاف كـل شـرير على أعماله واعترافه بها ثم تسليط العقوبة العادلة عليـه. إن الأمـر مختلـف عـن ذلـك تماما. إنه يتم الحساب يوم القيامة بأمر الله في سرعة تفوق التصور.

52 -هذا بلاغ للناس...الألباب.

هذا المذكور في سورة إبراهيم حقائق منزلـة عليـك لتبلغهـا للنـاس قاطبـة، وفـي هـذا التعقيب ما يرشد المؤمن إلى التأمل العميق فيما حوتـه. فقـد أظهـره الله للعـالمين قصـد أن تحتل مضمونات هذه السورة مراكز تفكـرهم ليسـتيقظوا مـن غفلاتهـم، ولينفـذ إلـى قلوبهم ومداركهم، فتتكشف لهم العواقب فيسـتقيموا فـي حيـاتهم (ولينـذروا بـه) ولتقـوم

---
[1] سورة الزمر آية 3
[2] سورة سبأ آية34

الأدلة التي لا تقبل النقض ولا التشكيك، فيحتل العلـم اليقينـــي عقــولهم بــأن الله واحــد لا شريك له. وليكون في بيانها، وما ضرب فيها مــن الأمثلــة مــا يلفــت أنظــار أصــحاب العقول الســليمة والنابهــة، ليتــذكروا ويتــأملوا فتكــون لهــم مســالك للايمــان برســالة الإسلام. وبهذا تومئ الخاتمة إلى منزلة المــؤمنين مــن الصــحابة ومــن يــأتي بعــدهم، بأنهم الأحقاء بوصف العقل الناضج (ذوي الألباب).

3 ذو القعدة 1432-2011/9/30

سورة الحجر

سورة الحجر هي السورة الخامسة عشـرة فـي ترتيـب المصـحف. أجمـع المفسـرون وكتاب المصاحف على تسميتها بهذا الاسـم. أخـذ اسـمها مـن خبـر أصـحاب الحجـر الذي لم يذكر إلا فيها. نزلـت علـى رسـول الله ﷺ بمكـة. عـدت الرابعـة والخمسـين حسب ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يوسف وقبل سورة الأنعام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكتاب : هو القرآن لأنه مأمور بكتابته لتوثيقه توثيقـا يحفظـه مـن التحريـف والنسـيان. وسمي كتابا قبل أن يتم إنزال جميعه.

مبين : معجزاته واضحة بينة.

ذرهم : فعل أمر لم يسمع ماضيه، بمعنى اترك.

يلهيهم الأمل : يستولي عليهم الأمل فينسيهم ما حقهم أن يتذكروه.

القرية : التجمع السكني من المباني اتسع كثيرا أو لا.

تسبق أجلها : تعدم قبل حلول الأجل المقدر لإهلاكها.

بيان المعنى الإجمالي :

أشار القرآن إلى الآيات المنزلة من القرآن باعتبار أنها حاضرة في ذهن المخاطبين. إنها في مجموعها تمثل الكتاب الذي أمر الله بكتابة نصه وقراءته قراءة يتبعها حفظه في الصدور. إنه كتاب مبين واضح، الدلالة على صدقه من ذاته .إن المكذبين به قد يندمون على تكذيبهم به ويودون أن لو كانوا قد انضموا إلى الأمة الإسلامية. لا تأسف على عنادهم واتركهم في ضلالهم فإنهم يعيشون عيشة الأنعام، همُّهم في بطونهم وفي متاع الحياة الدنيا القصير أجله السريع الفناء، وهدّدهم بأنه سيعلمون العذاب الذي سيسلط عليهم.

سنهلكهم كما أهلكنا القرى التي كفرت من قبلهم، ولكن لكـل قريـة أجـل مكتـوب معلـوم لا يتغير عن موعده فلا يتقدم ولا يتأخر.

بيان المعنى العام :

1←2، الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ...لو كانوا مسلمين.

افتتحت هذه السورة بما افتتحت به سـورة يـونس مـن قبـل. والكـلام علـى الحـروف المقطعة تقدم بيانه في أول سورة البقرة.

استحضر القرآن ما تم إنزاله على رسول الله ﷺ وبلغه للنـاس مـن القـرآن. ولمـا كـان ذلك حاضرا أشار إليه بقوله تلـك آيـات الكتـاب، فـإن الآيـات المنزلـة لـدخولها فـي العقول والمشاعر وفي إرشادها للنشاط الفكري والعملـي والعقـدي، حاضـرة يشـار ليهـا في كل وقت كالشيء المشاهد. وأضاف لفظ الآيات للقـرآن ذاكـرا لـه، بكونـه قرآنـا، وبكونه كتابا. وإن كان المراد بـالقرآن والكتـاب واحـدا، إلا أن هـذا الجمـع هـو فـي نظري، والله أعلم، لإبراز الميزة التي اختص بها القـرآن مـن بـين الكتـب السـماوية. إن بقية الكتب التي أنزلها الله على رسله، قدر أنها تعتمـد إلـى الأجـل الـذي يتلـوه كـل رسول لمن سبقه، فيعتمد البشر الكتاب الأخير. واعتمـد المرسـل إلـيهم علـى مـا وثـق كتابة فقط أو بـالحفظ، ومـع تطـاول الـزمن وانتشـار الأميـة، أدمـج القـائمون علـى التوجيه الديني بعد الرسل زيادات ونقصوا مـا كـان مخالفـا لأهـوائهم أو مـا لـم تـرق عقولهم لفهمه، وتراكم ذلك حتى كان كـل كتـاب ينعـدم مـن الوجـود أو يتغيـر تغيـرا يفقد الثقة به مع الزمن. ولما أراد الله أن يكـون الإسـلام خـاتم رسـالاته إلـى البشـر، يسر لحفظ القران عاملان، بهما يتم التقابل والثقة:

العامل الأول: هو كتابة كل نص ينزل علـى رسـول الله ﷺ بمجـرد نزولـه، فقـد كـان للنبي ﷺ كتبة للوحي معروفون بأسمائهم. ثم إنه فـي عهـد أبـي بكـر الصـديق رضـي الله عنه جمع ما كان مكتوبا مرتبا حسب ما كان يأمر بـه النبـي ﷺ بقولـه اكتبـوا هـذه الآية في مكان كذا، أي قبل اية كذا وبعد ايـة كـذا. وبقـي المصـحف مجموعـا تحـتفظ به أم المؤمنين حفصة إلى عهد عثمان رضي الله عنه، فـأمر بنسـخ نسـخ منـه وزعـت على مراكز العالم الإسلامي. فما يـذكره بعـض الجهلـة مـن أن الجـامع للقـرآن هـو عثمان غير صحيح. وإنما مزية عثمان رضي الله عنه وهـي مزيـة لا تنكـر، أنـه نشـر القرآن في نسخ مجموعة على جمع أبي بكر. أي إن أبـا بكـر رضـي الله عنـه الخليفـة الراشد ألهمه الله مع الصحابة إلى الإسراع بجمـع القـرآن مرتبـا علـى الترتيـب الـذي هو عليه الآن في السنة الأولى التالية لانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

العامل الثاني: هو حــرص الصــحابة رضــوان الله علــيهم علــى حفــظ القــرآن فــي ذاكرتهم حفظا جيدا. وكان الحفظــة للقــرآن كلّــه معــروفين فــي ذلــك العهــد، وإلــيهم المرجع في إقامة القراء له على النص القرآني كمــا أنــزل. وبقيــت هــذه الســنة أعنــي العناية بحفظ القرآن كله في الذاكرة وتعهده حتــى لا يتفلــت منــه شــيء، ظــاهرة تتميــز بها الأمة الإسلامية. ومن مظاهر ذلك تلاوته في محاريــب المســاجد مــن حفــظ الأئمــة في صلاة التراويح في شهر رمضا ن. وقد شاهدت عبــر شاشــة التلفــاز بابــا الكاثوليــك الذي يعد العالم الأول في الدين المسيحي، أنه كلمــا أراد أن يستشــهد بــنص مــن الكتــاب المقدس يقدم له تابع بين يديه النسخة ليتلو منها ما يريد تلاوته.

فبالجمع في حفظ القرآن بين التوثيق بالكتابة، والحفظ فــي الصــدور، يكــون قــد اجتمــع بذلك للقرآن عاملان للحفظ يدفعان عنه كل تغيير بالزيــد أو النقصــان. إنــا نحــن نزلنــا الذكر وإنا له لحافظون. فحفظه رب العــزة بقــوانين فــي الحفــظ التــي لا يســتطيع أن يجادل فيها أي عالم. زيادة عن اليقين بتحقق مضمون الآية عند المؤمنين.

و أتبعت الآية بوصف الكتاب بأنه مبــين، للدلالــة علــى أن شــاهد إعجــازه مــن نفســه، فهو في ذاته كاشف عن صدق الرسول مبين لذلك ومعــرف لكــل مــن يتأمــل فيــه أنــه من عند الله. ليس لرسول الله ﷺ دخل في نظمه، بلّغه كما أوحــي إليــه بــه مــن عنــد الله عن طريق ملك الوحي جبريل عليه السلام.

وإذ كان القرآن واضح البيان؛ إعجــازه مــن ذاتــه، فعنــاد المشــركين وإعراضــهم عنــه يكون جالبا لندمهم يوم لا ينفع ندم. قــد يــودون أن لــو كــانوا منــدمجين فــي الجماعــة الإسلامية. ثم إن هذا التمني الذي دلت عليه كلمة – لو- هل هــو تمــن فــي الــدنيا عنــد حلول الهزائم بهم، عنــدما يحــاربون المســلمين بالســلاح ويحقــق الله نصــر المســلمين عليهم، أو هو عند حلول العذاب بهم يوم القيامة فــي جهــنم، والتفضــل علــى المــؤمنين بالنجاة من النار وإدخالهم الجنة؟ الآية تحتمــل الــوجهين، وقــد ذهــب إلــى كــل منهمــا بعض المفسرين، وإن كنت أرجح الوجه الثــاني لأنــه هــو الحالــة التــي تعــم جميــع الكفرة .

3- ذرهم يأكلوا ويتمتعوا...فسوف يعلمون.

هذه الآية قصد بها تهديد المشركين، ولــذا يجــب أن تفهــم صــياغتها علــى مــا يــؤدي إلى ذلك القصد. افتتحت بقوله تعالى: ذرهم – هو صــيغة أمــر لــم يســمع ماضــيه فهــو متروك الاستعمال فــي اللســان العربــي ومعنــاه: اتــركهم، ولا تهــتم بشــأنهم اهتمامــا يُحزنك. وقد نزلت الآية بمستواهم إذ ألحقتهم بالأنعام الــذين لــيس لهــم هــم فــي الحيــاة

إلا الأكل والشرب، والتمتع بالشـــهوات. وتســتولي علــيهم الأمـــال التـــي يتابعونهـــا فـــي لهفة على تحققها. وما كان لهـــا أن تتحقـــق لأنهـــا سلســـلة يولـــد كـــل أمـــل أمـــلا آخـــر فيجري وراءها الكفرة لاهثين. والخيبة تترصدهم بمقـــدار مـــا تتســـع آمـــالهم. وينســـون، بقوة اتساع آمالهم، ما كان يجب عليهم أن ينظروا فيه ويكونون على ذكر منه.

وقوله تعالى: فسوف يعلمون'، هي صيغة كثـــر اســـتعمالها فـــي التهديـــد بســـوء العاقبـــة وأنه سيحل بهم ما لا يتصورون فظاعته.

4-5، وما أهلكنا من قرية ...وما يستأخرون.

لما هدد القرآن الكافرين في الآيـــة الســـابقة بقولـــه فســـوف يعلمـــون، علـــى أن تحقـــق الوعيد سيأتي في المستقبل، بينت الأيتان ســـنة الله فـــي تســـليط العـــذاب علـــى الكـــافرين، وإبادة مدنهم التي يتجمعون فيها. بينت ذلـــك علـــى أن الوعيـــد لا يكـــون صـــدفة، وإنمـــا هو محدد الأجل مُثبت مكتوب عند الله ميعـــاده. فـــلا يحـــل العـــذاب بأمـــة مـــن المهلكـــين قبل الأجل الذي كتبه الله وضبطه في سابق علمه، كمـــا لا يتـــأخر العـــذاب عـــن أي فـــرد ممن قدر لهم الهلاك.

وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الذكر : الكلام الموحى به ليتلى ويكرر.

المجنون : الذي اختل عقله حسب تصورهم من أثر مس الجن.

لوما : حرف تحضيض.

النزول : الانتقال من علو إلى سفل.

الحق : المقضي.

الإنظار التأخير.

بيان المعنى الإجمالي :

زعم الكفار أنه من المستحيل أن ينزل الله وحيـــه علـــى رســـول الله ﷺ، وأن ادعـــاءه أنـــه موحى إليه يقوم شاهدا على أن به مسًا بعقله من الجـــن. ثـــم حرضـــوه ليـــأتي بالملائكـــة تشهد بصدقه إن كان من الصادقين حقيقـــة. ورد علـــيهم القـــرآن بـــأن الملائكـــة لا تنـــزل

على غير رسل الله إلا منفذة للعذاب الساحق المقدّر للمكذبين الفاسقين. فلو نزلت عليهم الملائكة لما أُجّلوا، ولحل عليهم العذاب الماحق حالاً، وسُدّ عليهم الباب الذي يرجى لهم من الهداية.

ثم ذكر سبحانه خاصية من خصائص القرآن تؤكد أنه نزل من عند الله .هي أنه سبحانه قد تكفل بحفظ القرآن من التغيير . وبهذا خالف جميع ما يصدر عن البشر لأنه معرض ولا بد للتغيير.

بيان المعنى العام :

6-7، وقالوا يا أيها الذي نزل عليه... إن كنت من الصادقين.

بعد أن هددت الآيات السابقة المشركين بصفة عامة، أخذت هذه الآيات تناقشهم وترد ما اعترضوا به، وما توهموه من سند لهم في كفرهم بالرسالة.

واجهوا الرسول ﷺ بكل وقاحة فقالوا له: من المؤكد أنك مجنون، على معنى: إنك في ادعائك أنك مرسل من عند الله ما يقيم الدليل أن بعقلك مسا من الجنون، تبعا لاعتقادهم الفاسد أن ادعاءه تلقيه للوحي من الله لا يقول به عاقل سليمةٌ مداركه.

ودعوهُ بأنه الذي نزل عليه الذكر استهزاء به. أخذوا هذا المعرف من كلامه ﷺ، وليس عقيدة لهم. والذكر الذي وصف به القرآن والوحي يفيد أمرين:

أولهما: أنه نزل ليتلى ويكرر، على ما تفيده التلاوة من الذكر والإعادة للحقائق التي تضمنها من العقيدة والتشريع والإرشاد.

وثانيهما: أنه بما أنزل عليه من الوحي ينتشر ذكرهم في العالمين، ويسمو مقامهم، قال تعالى: (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون)[1].

و عرضوا عليه ملجئين له، يحثونه أن يأتي بالملائكة، يشهدون له بأنه من زمرة الصادقين، الذين التزموا بالصدق في أقوالهم. وليس غرضهم سماع شهادة الملائكة، ولكن ليقيموا عليه الدليل حسب زعمهم: أنه ليس رسولا. ومن سوء أدبهم أن شككوا في كونه من الصادقين بفرض ذلك مع حرف إن (إن كنت) التي خصصت في الكلام العربي بدخولها على الفرض القليل المستبعد وقوعه.

8-9، ما تنزل الملائكة إلا بالحق ...وإنا له لحافظون.

سأل المشركون في الآية السابقة أن تتنزل عليهم الملائكة شاهدة للرسول بأنه من الصادقين. فعرفهم القرآن بأن إنزال الملائكة على الأقوام لا يكون إلا لتنفيذ العذاب

---

[1] سورة الأنبياء آية 10

المقدر لهم. ذلك أن الملائكة ينزلون على الرسل حـاملين للـوحي هدايـة الله للبشـر، وينزلون على المكذبين للرسـل المتجـاوزين لحـدود الله لينفـذوا العـذاب الـذي أمـروا بتسليطه عليهم؛ فما ينزلون علـى غيـر الرسـل والأنبيـاء إلا بالعـذاب المـاحق الـذي يستأصل المنزل عليهم. إنه لو نزلت الملائكة، فـإن معنـى ذلـك أنهـم يسـحقون حـالا ولا يؤخرون رجاء إقلاعهم عن الكفر. فما سألوه لو أجيبوا إليه لكان فيه إبادتهم.

هذا وقد سبق في محاوراتهم أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: يا أيهـا الـذي نـزل عليـه الـذكر، يقصدون الاستهزاء به؛ فتولى الله إفحامهم بأن هـذا الكتـاب الـذي يشـككون فيـه هـو منزل من عنده، وأنه بالمكانة التي تولى حفظه بنفسـه حفظـا ميـزه بـذلك عـن جميـع الكتب السماوية. فكان حفظ القرآن من تاريخ نزوله إلى اليـوم وإلـى أبـد الآبـدين دلـيلا على كونه من عند الله. إذ لوكا ن نصا، للبشر يد فيـه، لجـرى عليـه مـا يجـري علـى جميع الآثار البشرية. ذكر القاضي عياض فـي المـدارك أنـه سـئل القاضـي إسـماعيل عن السر في تطرق التغيير للكتب السالفة وسـلامة القـرآن مـن التغيـر، فأجـاب بـأن الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم فقال تعالى: (بمـا اسـتحفظوا مـن كتـاب الله) وتـولى حفظ القرآن بذاته: (إنا نحن نزلنـا الـذكر وإنـا لـه لحـافظون) المـدارك ج4ص283- باب جمل أخباره.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ:

الشيع : جمع شيعة وهي الجماعة التي أمرها واحد.

الأولين : القرون الماضية.

نسلكه : السلك الإدخال.

المجرمون : كفار قريش.

السنة : العادة المكررة حتى صارت مألوفة.

لظلوا : فعل ظل يدل على الدخول في النهار أي مع شدة وضوحه.

يعرجون : يصعدون

سكرت : غيِّرت أبصارنا عما كانت عليه.

بيان المعنى الإجمالي :

من المؤكد أن الله أرسل رسلا تتابعوا عبر القـرون إلـى الأمـم الخالية. وأنهم قـابلوا رسل الله إليهم بالتكذيب ثم الاستهزاء. ثم إنـه علـى هـذا النحـو مـن النفـاذ وتحريـك العقول يدخل الله القرآن في عقولهم فيدركوا خصائصـه العاليـة التـي لا تكـون إلا مـن قدرة فوق قدرة البشر، فيكفر المجرمون به وتقوم علـيهم الحجـة. ومضـى الأمـر علـى هذه السنة والطريقة من نفاذ الوحي إلى عقول المرسـل إلـيهم، ورفضـهم قبولـه عنـادا، ثم إنزال العذاب بهم. إن عنادهم لشديد، وأمره عجيـب، فـإنهم لـو فـتح الله لهـم بابـا في السماء وفي وضح النهار، وأخـذوا يعرجـون فيـه زرافـات ووحـدانا ليكـون ذلـك دليلا على أني أرسـلتك وأوحيـت إليـك، لقـالوا: خُـدعت أبصـارنا فلـم تعـد تقـوم بوظيفتها كما كانت تفعل من قبلُ من أثر السحر.

بيان المعنى العام :

10←11: ولقد أرسلنا من قبلك في شيع.....إلا كانوا به يستهزئون.

يُحزِنُ الرسول ﷺ، عنادُ المشـركين وإصـرارهم علـى رفـض الـدخول فـي ديـن الله، والله معه يؤيده ويسليه. والآيتان تسـيران فـي هـذا السـياق بعـد اسـتهزاء المشـركين وطلبهم نزول الملائكة ليشهدوا له. فتضمنتا أن الله قد أرسـل قبلـه رسـلا إلـى البشـرية تتابعوا عبـر القـرون يحملـون هدايـة الله إلـيهم. وقـد كـان أمـر المكـذبين واحـدا، يستهزئون بالرسل ومحضوا خبـثهم ليحزنـوهم بمختلـف أنـواع السـخرية، وقومـك لا يختلفون عمن سبقهم. كما قال تعالى: **فلا يحزنك قولهم**.

12←13: كذلك نسلكه في قلوب المجرمين.....وقد خلت سنة الأولين.

وعلى هذا النحو المشاهد من موقف الكفار مـن القـرآن المنـزل عليـك، نـدخل القـرآن في عقول المجرمين، يسمعونه ويفهمونـه ويـدركون مزايـاه، يهـزهم ويحـركهم، ولكـن ما عزموا عليه من العناد والـرفض ينتهـي بهـم إلـى عـدم الإيمـان بـالقرآن. وبهـذا يكونون قد عرضوا أنفسهم للعذاب والهوان تنفيـذا للقـدر العـادل فـيهم. وهـذه سـنة الله مع المجرمين المكذبين من الأزل، أنه بعـد دعـوتهم للحـق، وإقامـة الحجـج الواضـحة عليهم، فإن من تمادى منهم على رفضه لمـا أنزلـه الله يلقـى الخـزي والعـذاب. وفـي ذلك تهديد محقق للمشركين من كفار قريش.

14←15: ولو فتحنا عليهم بابا من السماء .....بل نحن قوم مسحورون.

جسمت الآيتـان مبلـغ عنـاد المشـركين، وأن مـا طلبـوا تحقيقـه مـن المقترحـات لا يقصدون من ذلك الاهتداء إلى الإيمان، ولا تصـديق الرسـول إذا تـم مـا حصـول مـا

طلبوه، ولكنهم يبغون أن ينفلتوا من الإذعــان للحــق بمختلــف المعــاذير. يقــول القــرآن :إنه لو فتح الله عليهم بابا من الســماء فظلــوا فــي وقــت ســطوع ضــوء الشــمس فــي النهار، الوقت الذي تتميز فيــه الأشــياء للنــاظر تمــام التميُــز، تبعــا لوضــوحها بشــدة الإشراق، وصعدوا إلى السماء فقاموا بالتجربــة المحسوســة، لــو وقــع هــذا كلــه لكــان تأويلهم أن يقولوا: إن أبصارنا قد خُدعَتْ فلم تعطنا حقــائق الأشــياء كمــا كانــت تعمــل. وقد سُحرنا فاختلط علينــا الأمــر حتــى أصــبحنا نشــاهد أشــياء لا حقيقــة لهــا شــأن المسحور.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

البروج : جمع برج. وسيأتي معناها في الشرح.

الرجيم : المبْعدُ لذله.

الشهاب : الشعلة الساطعة من النار.

مبين : من أبان بمعنى فصلَ وأبعد.

رواسي : جبال ثابتة .

خزائنه : المواضع الحاوية.

ننزله : نمكن منه.

بقدر معلوم : بتقدير معلوم مقدما.

اللواقح : تصرفات هذه الكلمة تدل على الإخصاب وما يتبعه كاللبن[1]

بيان المعنى الاجمالي :

من الثابت الذي لا مراء فيه، أن الله تفرد بخلــق الســموات، وبناهــا علــى نظــام محكــم تبين للناس منه مجموعات من النجوم الثوابت التــي تعــرف كــل مجموعــة منهــا عنــد

---

[1] انظر تاج العروس ج7 ص100/91

رصدها في الليل، مع نسبة موقــع الشــمس منهــا فــي النهــار ممــا عــرف فــي علــم الأرصاد **بالبروج** التي يعرف بها عدد الشــهور وتحــول الفصــول. كمــا حفــظ الســماء من رجس الشياطين، لكن من يحــاول مــن الشــياطين اســتراق الســمع يلحقــه ســريعا شهاب ناري يبعده ويقضــي عليــه، فــاحتفظ العــالم العلــوي بأســراره. وقــد بســط الله الأرض بسطا يسّر به للإنسان الحياة بدون كبيــر مشــقة. وثبّتهــا بالجبــال التــي حصــل بها التوازن، وأنبت فيها من أنواع النبات التي دبّــر تركيبــه علــى نســب، أمكــن للنبــات أن يكون ما هو عليه. وقد جعل الله فــي الأرض مــا يعــيش بــه البشــر، وكــذلك مــا يعيش منه. أنواع كثيرة تصل بنفسها ولا مــدخل للبشــر فــي إطعامهــا. وبصــفة عامــة فإن كل شيء نافع هو من تقدير الله وخلقه، وهو المالــك لجميعــه، ويُمكّــنكمْ ممــا شــاء تبعا لما قدره في علمه سبحانه.

الله هو الذي يحرك الهواء المحيط بــالأرض بكيفيــة يكــون ريحــا يحمــل اللقــاح مــن الزهور الذكران إلى الزهور الإنــاث، ويحمــل الرطوبــة فيثقــل الســحب بالمــاء الــذي ينزل من السماء فيسقي الناس والأرض والحيــوان. وعلــى شــدة حــاجتكم للمــاء فــإنكم لا تستطيعون خزنه فتنزلونه عند ما ترغبون في إنزاله.

بيان المعنى العام :

16 –18، ولقد جعلنا في السماء بروجا...فأتبعه شهاب مبين.

أظهرت الآية السابقة أن المكذبين لو فتح لهم بــاب فــي الســماء وتمكنــوا مــن العــروج وولوج المناطق العلوية لاختلقوا من المعاذير مــا يواصــلون بــه رفضــهم للحــق. وهــذا الفرض الذي قصد منهم كشف عنادهم، لا إمكان التحقق، كــان مناســبة للتنبيــه علــى مــا في خلق السماء والكون ونظامه، من أدلة تغنيهم عما اقترحــوه مــن الأدلــة علــى صــدق الرسول.

بكل تأكيد، إن الذي نظم خلق السماء على قوانين محكمــة وثابتــة، بهــا تــم ســيرها فــي الكون هو الله سبحانه، ولا يــدعي أحــد أن لــه شــريكا فــي ذلــك، إلا الملاحــدة الــذين يزعمون أن خلْقها تم عقب الانفجار الكــوني، وهــي فرضــية كســوها ثــوب الحقــائق العلمية؛ ينقضها شاهد العقل. ذلك أن الانفجــار لا يكــون إلا فوضــويا، والنظــام الكــوني بلغ من الدقة كما تشهد به المكتشفات العلمية والمراصــد العملاقــة أبلــغ المســتويات مــن الحكمة. ولو لم يكن بناؤه على تقدير محكم ما استطاع العلــم أن ينفــذ إلــى بنــاء الكــون والعلاقات بين مكوناته، ولا أن يتقدم خطوة.

أثبتت الآية 16 أن الله نظم السـماء فجعلهـا مقسـمة إلـى بـروج. والبـروج هـي مـا وصلت إليه ملاحظة البشر في لجـوم السـماء فـي الليـل ملاحظـة بصـرية تتباعـت، اهتدوا بها إلى وجود مجموعات مـن النجـوم ثابتـة ومترابطـة، ومتناسـقة بحيث لـو ربط ما بينها بخطوط لتجمع منها مـا يشـبه صـورة حيوانيـة كالأسـد والعقـرب، أو آلة كالميزان والقوس .ثم قارنوا بين سمتها في الليـل وبـين سـمت الشـمس فـي النهـار فوجدوا أن الموقع يتغير كل شهر تبعا لدوران الأرض. وبنـوا علـى ذلـك تقسـيم السـنة إلى اثني عشر شهر او فصول السنة إلى أربعة فصـول. وسـموها بروجـا .ابتـداء مـن الربيـع - الحمـل، والثـور، والجـوزاء، والسـرطان، والأسـد، والسـنبلة - الميـزان، والعقرب، والقوس-والجدي، والدلو، والحوت .

إن هذا البناء الذي لم يختل على طول الملاحظة، والـذي شـارك المشـركون فـي تتبعـه والاعتراف بدقة نظامه، هو شاهد على أن هـذا الكـون تـم إيجـاده وتسـييره بقـدرة الله وحده. وإذا ثبت أنه من خلق الله انتفت ألوهيـة الأصـنام، وإذا انتفـت ألوهيـة الأصـنام وتفرد الله بالخلق فإن مما يقتضيه تفـرده بـالخلق أن يفـرد بالعبـادة. والعبـادة لا تكـون إلا حسبما يرتضيه المعبود، وسبيل معرفـة ذلـك إرسـال الرسـل مؤيـدين بـالمعجزات، وكفى بالقرآن معجزة لمحمد ﷺ.

ثم أردفت الآية أن الخلق المحكم لم يقتصر على الدقـة والنظـام، بـل أضـاف إليـه أنـه سبحانه أراد أن يسبغ على ذلكم الخلق العظيم جمـالا يـبهج الـنفس ويمتـع النـاظر. لقـد حُجبت السماء عنا بالتلوث، فلم نعد نستمتع بجمالهـا الأخـاذ. كنـت مسـافرا بـين جـدة والمدينة، وطلبت من سائق السيارة أن يتوقف فيمـا بينهمـا، ونزلـت وركـزت بصـري في السماء وكان الجو صحوا لا تحجـب السـماء غمامـة ولا تلـوث ولا غبـار، وبـدت لي قبة السماء مرصعة بالنجوم في منظر ما زلت أتمـلاه إلـى اليـوم وأرجـع بـذاكرتي لاستحضاره فأجد من المتعة ومن اليقظة الروحيـة مـا لا تسـعفني اللغـة ولا تسـاعدني قدراتي التعبيرية على تصويره تصويرا يأتي علـى تفاصـيله فيجسـمه للقـارئ. إلا أنـي أدعو كل مؤمن أن يتأمل في قبة السماء في الليلـة الصـحو بعيـدا عـن المـدن ليـذكر بقلبه ولسانه: تبارك الله أحسن الخالقين .

17- تفيد هذه الآية سرا من أسرار السماء، في هـذه المسـافات التـي لا يعلـم مقـدارها إلا خالقها، ولا يعلم مكوناتها إلا هو، من المجـرات السـابحة فـي أفلاكهـا وراء مجـرة الشمس التي نحـن نعـيش فـي الأرض إحـدى وحـداتها، ولا تقـاس الأبعـاد بينهـا إلا بالسنوات الضوئية، هذا السر هو أن الله طهر تلكم المجـرات مـن رجـس كـل شـيطان

حقير لقول الله تعــالى: (إن الشــيطان كــان للــرحمن عصــيا)[1] فهــي محفوظــة مــن العناصر الخبيثة التي تأتمر بأمر الشيطان.

والشيطان من جنس الجن لقوله تعالى: (إلا إبليس كــان مــن الجــن ففســق عــن أمــر ربه)[2] والشيطان وذريته كفرة يعملون على إغــواء البشــر (إن الشــياطين أوليــاء للــذين لا يؤمنون)[3]. وأما الجن فإن منهم من هو كافر ومــنهم مــن هــو مــؤمن قــال تعــالى :(قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقــالوا إنــا ســمعنا قرآنــا عجبــا يهــدي إلــى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا)[4] –

والذي يجب أن يعتقــده المســلم أن الله كمــا خلــق البشــر خلــق الجــن، وطبيعــة هــذه المخلوقات تختلف عن طبيعة الإنســان، وهــي مكلفــة مســؤولة، وخصائصــها الخلقيــة يعلمها خالقها. وإذا كان عالمنا الأرضي يحتوي على عناصــر وقــوى مــا تــم اكتشــاف بعضها إلا في أواخر القرن الماضــي. ولــو عــرض علــى البشــر فــي القــرن التاســع عشر أن أحدهم يكون في بيتــه وراء الأبــواب فيســتطيع أن يــرى وأن يتبــادل الحــديث مع محاوره البعيد منه بعشرات آلاف الأميــال، لاعتبــر ذلــك خرقــا وخيــالا ولا يمكــن أن يتحقق في الواقع. وقام الدليل أن العلــم النظــري يفــتح أبــواب الإدراك كمــا تفتحهــا الحواس. فالله وهو الذي خلق الكون وهو العلــيم وحــده بمكوناتــه، وقــد أخبرنــا الــوحي بوجود الجن، ولذا فإنه يجب الإيمان بوجــود هــذه المخلوقــات ولا يــدخل فــي الإيمــان تحديد مواصفاتها، فمن نفاه فقد كفــر بمــا ثبــت يقينــا بــالوحي. ومــن ادعــى اســتحالة وجوده فقد ادعى استحالة ما هو ممكن وخالف مقتضيات العقل.

فأفادت الآية أن الله حفظ السماوات مــن رجــس الشــياطين، لكــن مــن حــاول الصــعود إلى مستويات من العالم العلوي، من الشياطين تبعا لعــدم كثافــة مكونــاتهم، قــال تعــالى: (وخلق الجان من مارج من نار)[5] – والشــياطين مــن الجــن، فإنــه يُصــدُّ عــن بلــوغ مستوى يستطيع فيه أن يســمع محجوبــات الغيــب، فتكــون محاولتــه فاشــلة، ويُقــذف بشعلة من نار تبيده وتسحقه. فتم حفظ العــالم العلــوي ولا يطلــع علــى أســراره بقدراتــه إنس ولا جان.

19—22، والأرض مددناها وأنبتنا...وما أنتم له بخازنين.

---

[1] سورة مريم آية44
[2] الكهف آية 50
[3] سورة الأعراف آية 27
[4] سورة الجن آية 1/2
[5] سورة الرحمن آية 15

ثم انتقل القرآن من العالم العلوي إلى الأرض التي علـــى ظهرهـــا يعـيش البشــر، فلفـت الأنظار إلى بعض أسرار الخلق المحكم فيها.

1) أنه يسر للإنسان ببسطها، الانتقال بين أجزائها، وجعـل فيهـا جبـالا راسـخات تثبتهـا وتحفظ التوازن بين أجزائها، ويسر إخـراج النبـات منهـا، وعـرّف أن تركيـب النبـات كان تركيبا موزونا على نسـب دقيقـة، بحيـث لا يمكـن للنبـات أن يكـون مـاهو إلا بفضل تحقق تلك النسب، فلو زاد أي مكون أو نقص ما وجد النبات.

2) كما جعل الله بكمال تقديره للناس كافة، ما يحفـظ لهـم حيـاتهم ممـا تخرجـه الأرض - معايش - جمع معيشة ما يتعيش منه. وكـذلك تخـرج الأرض مـا يقـيم حيـاة كثيـر من الكائنات تقتات من الأرض بنفسها دون أن يكون للناس دخل في ذلك.

3) ولا يوجد أي شيء نافع في الدنيا إلا وهـو مـن تفضـل الله علـى العـالم بـه، ومـا يصلكم إلا ما قدّر الله أن يصل إلـيكم منـه، لأن المالـك لـه هـو الله، بوجـده بقدرتـه وإرادته بأمره التكويني، أو يتحول بقدرته وإرادتـه مـن صـورة لا نفـع فيهـا إلـى مـا ينفع الناس، فكأن كل ذلك مخزون عنده يخرج مـن خزائنـه ثـم يمكـنكم مـا شـاء منـه حسب تقديره وحكمته. لا مدخل للصـدفة فيمـا يصـل إلـيكم منهـا لأنـه معلـوم عنـده مقدما .

4) ثم لفت الأنظار الى الكتلـة الهوائيـة المحيطـة بـالأرض، كيـف يحركهـا سـبحانه لتكون مخصبة، فيتولد عن حركتها الخصـب والخيـر، إذا قـدر الله ذلـك، فتنقّـل اللقـاح بين الزهور بما يتولد عنه تكون الثمار، وتخصب السحب بمـا تنقلـه مـن رطوبـة فتثقـل السحب وتنزل الأمطار، وكل ذلك بتقـدير عجيـب فتنـزل الأمطـار التـي مـن مائهـا يسقى البشر وتسقى الأشجار والنباتات. وذلـك مـن فضـل الله. وهـو وحـده المتصـرف فيه فينزله في الوقت المقدر لإنزاله. ولا تملكـون التصـرف فـي خزائنـه التـي هـي لله وحده.

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الوارثون : الإرث بمعنى البقاء .

المستقدمون : الذين سبقوا من الأجيال.

المستأخرين: الذي سيأتون من الأجيال .

الصلصال : الطين الذي ترك حتى يبس.

الحمأ: الطين إذا اسود فكانت رائحته كريهة.

المسنون : الذي طالت مدة مكثه.

السموم : الريح الحارة .

بيان المعنى الإجمالي :

تكشف هذه الآية عن المتصرف في الحياة والموت، فتؤكد أن الله هو المتفرد بذلك ينشئ الحياة في الكائن متى أراد، ويسلبها منه متى أراد. ويتفرد الله أيضا بالبقاء يوم يفنى الأحياء. وقد أحاط علم الله بالأجيال التي سبقت ومضت في التاريخ، وعلى نحو علمه ذاك يعلم الأجيال التي ستوجد في المستقبل. وقد تأسست حياة البشر على قاعدة المسؤولية التي تقتضي أن ينال المحسن جزاءه من التكريم، والمسيء جزاءه من العقاب. وهذا قد يحصل في الدنيا وقد لا يحصل، فاقتضت الحكمة الإلهية أن يبعثهم يوم القيامة ليقضى فيهم القضاء العادل لأن الله حكيم. ولا يفلت أي إنسان ولا يغيب أي فعل من أفعال البشر عن الله لأن الله العليم العلم الكامل.

ثم كشف القرآن عن المادة الأصلية لخلق الإنسان التي لا يعلمها إلا الله. لأنه هو الخالق، فقال: إني خلقت الإنسان من صلصال طين يبس حتى إنك إذا نقرته طن، هذا الصلصال أصله طين طال مكثه حتى اسود ونتن. وقبل الإنسان خلقت الجن من ريح حار.

بيان المعنى العام :

23- وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون.

عطف القرآن على ما اختص به الله في الآيات السابقة مما يدل على تفرده بالألوهية، عطف على ذلك اختصاصه بالإحياء والإماتة. فالله سبحانه هو المتفرد بإنشاء الأحياء، وهو القادر على إحيائها بعد موتها، إذ القادر على إنشاء الحياة ابتداء، قدرتهُ على إعادتها أولى وأحرى. ثم إن هذه الكائنات التي يبث فيها الحياة ثم يسلبها منها، يقتضي ذلك أن يكون المتصرف فيها هذا التصرف هو الباقي بعد فنائها.

24←25، ولقد علمنا المستقدمين منكم ...إنه حكيم عليم.

الآيتان، مع شدة اتصالهما بالآية السابقة لتناول مضمون الثلاثة ما يتصل بالحياة والموت، يضيفان لما تقدم: أن التصرفات الإلهية منبثقة عن العلم الكامل. إنه

سبحانه يعلم كل ما فعله الذين تقدموكم في الحياة من الأجيـال التـي أحياهـا ثـم أماتهـا، وكذلك يعلم ما سيأتي بعدكم من الأجيـال التـي يُحييهـا ثـم يميتهـا. وإن تصـرفه هـذا وصدوره عن العلم الدقيق لكل حدث منهم، ينتهـي إلـى حشـرهم جميعـا يـوم القيامـة ليحاسبهم عما قدموه . ويقوم دليلا على ذلك أنـه حكـيم لا يفعـل مـا هـو عبـث، فـإذا كان إيجادهم في الدنيا واختلاف سعيهم فيهـا ثـم إمـاتتهم، إذا كـان ينتهـي إلـى فتـرة يقضيها البشر في الحياة ثم تنتهي حياتهم علـى مـا بيـنهم مـن الاخـتلاف فـي التـأثير والعمل من الخير إلى الشر ومن النفع إلى الضر ومن الطاعـة إلـى العصـيان، بـل قـد يكون بعض المجرمين قد نال مـن نعـيم الحيـاة الـدنيا حظـا موفـورا، وربمـا حـرم بعض الصالحين فلم ينل من الرفاه إلا حظا قليلا. لـو كانـت الحيـاة الـدنيا هـي نهايـة مرحلـة الوجـود، لاسـتوى الخبيـث والطيـب، والله يقـول: **قـل لا يسـتوي الخبيـث والطيب**. ولما كان للمسـؤولية، التـي هـي شـرف الكـائن البشـري، الأثـر الحتمـي، فحكمة الله توجب البعث، وعلمه يقتضي أن لا يغيـب عنـه أي عمـل قـام بـه الإنسـان في الحياة الدنيا، كما لا يفلت أي إنسان من حضوره يوم البعث.

26-27، ولقد خلقنا الإنسان من صلصال... من نار السموم.

خلق الإنسان سر لا يعلمه على حقيقته إلا الله. وهو سر مثيـر، لمـا فـي خلـق الإنسـان من خصائص عجيبة. فهو على محدوديـة قـواه الجسـمية اسـتطاع أن يتصـرف فـي الكون، وأن يخضع القـوى العنيـدة لمصـالحه ويـتحكم فيهـا، ويسـع عقلـه الحاضـر، ويتتبع ما مضى فيتصوره تصورا يكاد يكون مطابقا لمـا وقـع، ومـا يـزال يبنـي علـى ما وصل إليه من اكتشافات ومـا وصـل إليـه غيـره فيتقـدم بالمعرفـة أشـواطا. وهـو حادث ولكل حادث بداية، فكيف تمت بداية الإنسـان ؟ قامـت افتراضـات رضـيها كثيـر من العلماء في القرنين الأخيرين. وهدمها مـا وصـل إليـه العلـم بعـد دراسـة الجينـوم البشري، الذي أثبت حسب قول العلماء تفـرد السلسـلة البشـرية واختلافهـا عـن جميـع المخلوقات الأخرى .وبقي السؤال بدون إجابة عند من لم يؤمن برسالة الإسلام .

ولما كان الله هو الخالق للبشر، وأنه المتحكم في وجـودهم وفـي مصـائرهم كمـا جـاء في الآية السابقة، أراد سبحانه أن يكشف للبشر شيئا عـن سـر الوجـود البشـري ليكـون دليلا على القدرة الكاملة والحكمة. فأعلم في هذه الآيـة أن الإنسـان خلقـه الله مـن مـادة: هي صلصال، طين ترك حتى يبس وصار يطـن إذا نقـر، هـذا الطـين هـو طـين قـد اسود من طول المكث، وتغيرت رائحتـه إلـى رائحـة كريهـة. إن مـا كشـفه القـرآن يضاعف العجب. ويقوم في آن واحد مناديا بكمال القدرة الإلهيـة، كيـف كـان هـذا هـو

أصل خلقة الإنسان المتميز المستخلف في الأرض. ويبـرز مـن جانـب آخـر أن أمـره سبحانه في التصرف: أنـه إذا أراد شـيئا أن يكـون، يـأمره فيكـون. ولا يتوقـف تنفيـذ إرادته على أن يكون الإنسان من معادن نفيسة لها خواص تفوق بقية العناصر.

ولما تسلط على الإنسان الأول، الذي خُلق من صلصال مـن حمـأ مسـنون، تسـلط عليـه الشيطان فأغواه وأفسد عليه حياته وما يـزال يواصـل إضـلاله. والشـيطان مـن الجـن. فناسب أن يظهر للبشر القدرة الإلهية في أصل خلق الجـن، فقـال: والجـان خلقنـاه قبـل خلق الإنسان من حرارة مختلطة بهواء، من نـار السـموم. وبقيـت، رغـم الكشـف عـن الأصل، التحولاتُ التي وصل بها الإنسان إلى مـا هـو عليـه اليـوم، والتحـولاتُ التـي طرأت على نار السموم حتى تكوّن منها الجان مـن أسـرار العلـم الإلهـي. فتبـارك الله أحسن الخالقين، الذي أحسن كل شيء خلقه.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

سويته : التسوية تعديل ذات الشيء.

نفخت : أحدثت قوة خفية لطيفة السريان قوية التأثير.

رجيم : مطرود.

عليك اللعنة :اللعنة الطرد والإبعاد على طريـق السـخط. وهـو دعـاء بالسـب وتحقيـق لوقوعه عليه.

يوم الدين : يوم الجزاء.

الإنظار : الإمهال والتأخير.

بيان المعنى الإجمالي:

أعلم الله ملائكته بما سينفذه من خلق بشر إنسان، مادة خلقـه طـين يـبس وجـف بعـد أن مر عليه زمن طويل اسود فيه ونتن ريحـه. وأن علـيهم بمجـرد مـا يـتم خلقـه ويبلـغ كماله بنفخ الروح المملوكـة لله فيـه، علـيهم أن يسـجدوا لـه تحيـة إكبـار وتقـدير، لا

عبادة وتأليه. وقام الملائكة بما أمروا بـه فسـجدوا لـه إلا إبليـس الـذي كـان مخاطبـا معهم فإنه امتنع أن ينضم إلى السـاجدين المطيعـين لأمـر الله. وسـأله الله عـن السـبب الذي من أجله لم ينضم للساجدين وتفـرد بـالخلاف. كـان جوابـه فيـه اعتـراض علـى الأمر ومناقشة لمعقوليته.

بيان المعنى العام :

وصفت هذه الأيات ما اقتـرن بخلـق آدم عليه السلام، وقـد مضـى قريـب منـه فـي سـورة البقرة، ونظرا لما في قصة خلق آدم وما اقترن بها مـن العبـر أعيـد ذكرهـا أكثـر مـن مرة في القرآن. وتجد في كل مرة فوائـد جديـدة، وصـياغة بخصـائص تعبيريـة لهـا وقعها. فلنتابع الطريقة التي عرض بها القرآن قصة الخلق في هذه السورة:

28- وإذ قال ربك للملائكة إني خالق....من حمأ مسنون.

أولا: أعلم الله ملائكته أنه قدّر خلق بشر (انسـان) والمـادة التـي سـيتم منهـا إحداثـه: صلصال، كان قبل ذلك طينا مضى عليه من الـزمن مـا تغيـر بـه لونـه إلـى سـواد، وأثّر ذلك في رائحته فهي تبعا لذلك نتنة.

29- فإذا سويته ونفخت فيه من روحي... فقعوا له ساجدين.

ألزم الله ملائكته أن يسجدوا لآدم عند إتمام خلقه المتكون من أمرين:

أ-عندما تجتمع العناصر التي بها يتم تميزه، من الصـورة والمـواد الأساسـية فـي بنائـه الخاص، فيكتمل.

ب -وعندما يتم نفخ الروح فيه، أي عندما يتحول مـن صـورة ماديـة وشـكل خـاص لا حياة فيه إلى كائن يتحرك وتعمل حواسه وفكره ومشـاعره. فلـيس نفـخ الـروح عبـارة عن هواء ولكنه عبارة عن سريان مقومات الجنس البشري التـي بهـا يتميـز عـن بقيـة الكائنات. أما كيف يتم ذلك فهو من سر الخلـق والحيـاة الـذي لـم تكشـف عنـه الآيـة. وذلك لأن المستوى الفكري للإنسان لا يسـتطيع أن يفهـم سـر الـروح. ونسـبة الـروح إلى الله هي إضافة خلق وملك.

والسجود هو سجود الملائكة الذي يختلف عن هيئة السجود التي يقوم به الناس. وذلك لأن سجود البشر بوضع الجبهة على الأرض على هيئة مخصوصة يكون عليها الساجد. وخلقة الملائكة شيء آخر بعيد كل البعد عن خلقة الإنسان، فليس لهم جباه ولا أعضاء. وبهذا يرتفع الإشكال: كيف يسجد الملائكة والسجود محرم لغير الله؟ فنقول إن السجود تحية من الملائكة تحية تقدير لآدم عبر عنها بالسجود. والسجود الممنوع هو ما يمكن أن يدل على الخضوع الكامل والائتمار بأوامر المسجود له على وجه التعظيم .

30—31، .فسجد الملائكة كلهم أجمعون ...أبى أن يكون مع الساجدين.

ثانيا: أطاع الملائكة الأمر. فبمجـرد مـا ظهـر آدم بشـرا سـويا، قابلـه كـل الملائكـة بالسجود له كما أمرهم ربهم، ولكن خرج عـن الجماعـة فـرد واحـد لـم يسـجد، هـو إبليس فقد امتنع عن قصد وإصرار، وأبى أن يسجد مع الساجدين.

32-قال يا إبليس مالك ....ألا تكون مع الساجدين.

ثالثا: أوقف الله إبليس ليسـأله، لمـا ذا لـم تسـجد وقـد شـملك وبلغـك الأمـر العـام بالسجود. ولم يدخل في زمرة الطـائعين للأمـر الإلهـي. ويقينيـا إن الله يعلـم الأسـباب الخفية التي حاكت في نفس إبليس، فلمـاذا يوقـف ويسـأل ؟ أرى أن فـي ذلـك تعليمـا للناس حتى لا يستند القاضي لعلمه ويرتب عليـه الحكـم. فإنـه إذا كـان الله يعلـم مقـدما ما يجيب به إبليس، فإنه مع ذلك أوقفه وسجل عليه جوابه.

33-قال لم أكن لأسجد لبشر...من حمأ مسنون.

رابعا: كان جواب إبليس أنه لا يتصور منه بحال مـن الأحـوال (لـم أكـن لأسـجد) أن يسجد بتحية التقدير لآدم ﷺ. وصرح بأنـه أعلـى مـن أن يسـجد لبشـر خلقتـه مـن صلصال من حمأ مسنون حسبما أعلمهم الله لمـا أمـرهم بالسـجود .جمـع إبلـيس بـين عصيان الله، والاستكبار، ورميه رب العزة بـالنقص وعـدم الحكمـة، إذ رفـع الوضـيع حسب ظنه (آدم) وحط من قيمة الرفيـع (إبلـيس) وبمجمـوع ذلـك انحـط إبلـيس إلـى درك الكفر. وخلع ربقة العبودية لله، وجعل ظنونه مقدمة على الطاعة.

34—35، قال فاخرج منه فإنك رجيم...إلى يوم الدين.

خامسا: عاجله العقاب ولم يهمله، فأمره أن يخرج مـن المقامـات التـي كـان فيهـا. قـد تكون الجنة، وقد تكون ظروف مقدسة كان يعيش فيها مـع الملائكـة. وأنـه أُبعـد إبعـاد إهانة شأنه شأن الطريد الذي يلحقه الاحتقار والـذل. وأنـه ملعـون طريـد يتـوالى عليـه الدعاء بالطرد. ويتحقق عليه الهوان والخزي فـلا ينفصـلان عنـه، وأن ذلـك سيصـحبه ويتوالى عليه إلى يوم البعث، اليوم الـذي سـيلقى فيـه جـزاء كفـره واعتراضـه علـى الحكم الإلهي. ولعذاب الآخرة أشد.

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي

لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

التزيين : التحسين بما يثير الميل.

موعدهم : مصيرهم إلى الله.

بيان المعنى الإجمالي :

طلب إبليس من الله أن لا يعجّل عليه العقوبة التي يتسحقها، وأن يؤخره إلى اليوم الذي يبعث فيه البشر يوم القيامة. أعلمه الله أنه قرّر إنظاره إلى يوم الوقت المعلوم عنده في الأزل. ثم قال إبليس: ربي بسبب إغوانك لي، فإني سوف أمحض كل خبثي ومكري لأزين للناس أجمعين الباطل والرذيلة، إلا عبادك المخلصين فأنا لا أضلهم . قمعه الباري بأن انقسام البشر لصالحين وغاوين أمر قد قدره، وصراط مستقيم قرره في الأزل. فتسير فيه البشرية مقسمة إلى ضالين ومخلصين. وأن إبليس أحقر وأخزى من أن يكون له سلطان على البشرية يسيرها في المنهج الذي اختاره. ويقول الله وزيادة على ذلك فإن موعد الغاوين، وإبليس وجنوده منهم، هو إلى جهنم التي لا تقلت أي واحد من الغاوين. يتوزعون على مداخلها من الباب الذي قدر الله لكل داخل دخوله منه.

بيان المعنى العام :

36 ←38، قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون....إلى يوم الوقت المعلوم.

طلب إبليس من ربه، وقد علم الحكم المسلط عليه وأيس من العودة إلى المقامات التي كان يعيش فيها، طلب منه أن يؤخره ولا يعجل بالقضاء عليه وأن يبقيه إلى يوم البعث.

أعلن الله أنه سيبقيه إلى يوم محدد أجله، هو وقت ثابت في علمه لا يتأخر ولا يتقدم، والذي يستروح من الآية أن الله أعلن ما قدره في الأزل من أنه سينظره إلى الأجل المحدد، وليس ذلك استجابة لدعائه، فهو أهون من أن يستجاب له دعاء، شأنه شأن المغضوب عليهم الفسقة الضالين.

39←40، قال رب بما أغويتني ....إلا عبادك منهم المخلصين.

ما كان هذا الإنظار لإبليس استجابة لدعائه، ولكنه تنفيذ للقدر الذي رتبه الله: أن البشر الذين سيستخلفون في الأرض مكلفون وغير معصومين، وسيتأثرون بجملة

من المؤثرات، وأنه قدر أن يسلط إبليس لإغواء من ألان قلبه وعواطفه لإغوائه. فبقاء إبليس يساير حياة النوع الإنساني على وجه الأرض من القدر السابق في علم الله .

وإذ تبين لإبليس أنه سيُعمَّرُ في الدنيا ليشفي حقده الناشئ عن حسده لآدم ولذريته من بعده، خاطب عندها ربه رب العالمين كاشفا عن الشر الذي امتلأ به قائلا: رب بسبب ما خلقتني عليه من الغواية والإضلال، فإني سأبذل كل طاقتي وأمحض نشاطي بإلهاء البشر عن الحق، والميل إلى النواحي المؤثرة فيهم التي أغرس في قلوبهم حبها لما فيها من الزينة التي تأخذ بعواطفهم، فأحسنها لهم، بما يجعلها راجحة في اختياراتهم، فتلهيهم عن الواجبات وعن الحق، وتقرب الرذيلة منهم. وأدمج حسرته بسبب أن كيده مفلول، وتزيينه يعرض عنه عباد الله الذين أخلصوا دينهم لله، وتعلقوا به، الذين استقر في قلوبهم أن متاع الحياة الدنيا وشهوات النفس تتهاوى، أمام ما اهتدوا إليه من حب للفضيلة وتعلق بربهم، فاستثناهم على أنهم خارج نطاق تأثيره.

41←44، قال هذا صراط علي مستقيم ...منهم جزء مقسوم.

وضع الباري سبحانه الأمور في نصابها. وصفع إبليس لما حقق سبحانه أن عباده المخلصين لا سلطان له عليهم، وأن إغواءه لغير المخلصين هو ما قدّره أن يكون عليه الأمر في الأزل، فهذا هو الصراط المستقيم الذي جرى عليه أمر التقدير، وعلى الله تحقيقه بإرادته وقوته.

و الشيطان وإن كان خبيثا شرّيرا يعمل على إضلال الناس وصرفهم عن الهدى وطريق النجاة، هو أضعف وأحقر من أن يكون له سلطان على البشر بقوته ومكره وخبثه. وأن عباده سبحانه لا يتسلط عليهم سلطان الشيطان لأنهم بشر. على معنى أن البشر ليسوا مفطورين على الشر، ولكن الذين يميلون عن هداية الله ويتبعون ما يملي عليهم الهوى وحظوظ النفس الأمارة، هم الذين يجد طريقا لمضاعفة انحرافهم ويتسلط عليهم، فهم غاوون قطعوا صلتهم بالله وبالفضيلة. ويجد الشيطان في هذه النفوس الضعيفة تبعا لوهن عزائمها البيئة الرخوة التي تنسجم مع ما يزينه لها من الفساد. وبالمقابل فإن الذين أخلصوا دينهم لله، وكانت صلتهم به حاضرة ومشرقة في قلوبهم، فإنهم يستحضرون عند وسوسته الأولى نعمَ الله عليهم وجمال الطاعة وقبح المعصية، ويثور في نفوسهم تبعا لما روّضوها به من حب الفضيلة والخير والاشمئزاز من الرذيلة والشر، يثور في بواطنهم ما يهدم وسوسته ويطرد تسلطه. فلا يكون له عليهم سلطان.

و كشف القرآن عن مصير الغـاوين الـذين اتبعـوا شـهواتهم وانغمسـوا فـي الرذيلـة، وفسدت عقائدهم فأشركوا بالله، وتأثروا بوسوسـة الشـيطان وبمـا زيـن لهـم فانخـدعوا. إن مصيرهم إلى جهنم يـوم القيامـة يـدخلونها أجمعـين لا ينفلـت أحـد مـن العقوبـة. وصف القرآن جهنم بأن لها سبعة أبواب، وهذا مـن أمـر الآخـرة الـذي لا يقـاس بمـا هو معروف في الـدنيا. فليسـت الأبـواب ذات مصـاريع، وليسـت لهـا أقفـال كأقفـال الأبواب في المنازل، ولا هي مما يدرك سعته بمقاييس الـدنيا. ولكننـا نفهـم مـن الـنص القرآني أنها سبعة مداخل أو مداخل متعـددة، وأن كـل داخـل ممـن غضـب الله عـنهم يصرف إلى الباب المقدر له الدخول منه. فليس مـدخل المشـركين العتـاة الـذين قـاوموا الرسل وآذوهم وحالوا بين أتباعهم وبين الدخول في ديـن الله، كمـدخل مـن قصّـر فـي النظر فكفر .والظاهر أن هناك تناسبا بين كـل بـاب ونوعيـة الفسـاد الـذي سـيق مـن أجله الغاوي إلى الدخول منه إلى جهنم. أعاذنا الله منها بمن ه وكرمه.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

العين : المكان الذي يخرج منه الماء من باطن الأرض.

آمنين : لا يشعرون بالخوف أبدا.

الغل : البغض والحقد.

سرر: جمع سرير محمل مرتفع يمكن الاضطجاع عليه.

متقابلين، كل واحد قبالة الآخر يأنس به.

المس : الإصابة.

النصب : التعب.

بيان المعنى الاجمالي :

وصفت الآية ما أعده الله للمتقين من ضـروب التكـريم يـوم القيامـة. منـازلهم جنـات، ظاهرة الخصب فيها بينة. يتدفق ماء العيون الجاريـة خلالهـا. ويتجـاوز النعـيم الجانـب المادي إلى الجانب الروحي والنفسـي، فيتلقـون التحيـة بالسـلام مـن ملائكـة الـرحمن عند دخولهم، وتصفّى قلوبهم مـن آثـار الحقـد. فكـل واحـد يشـعر بـالأخوة والمحبـة الجامعة بينه وبين إخوانه من المؤمنين، تتابع اجتماعاتهم وهـم فـي أنـس وراحـة علـى

سررهم، يجد كل واحد منهم وهو يستمع إلى أخيــه الكــلام الرفيــع الــذي يــبهج العقــل والسمع، فيقبل على أخيه في شغف. لا يلحقهم الإعيــاء ولا يحــل الخــوف مــن انقطــاع ما هم فيه، أمنوا البقاء فيها وعدم الخروج منها.

بيان المعنى العام :

46-48، إن المتقين في جنات وعيون....وما هم منها بمخرجين .

هي طريقة القرآن في التأثير على البشر ليستقيموا ويؤمنــوا، فهــو يــزاوج بــين التهديــد ووصف جزاء الكافرين، وبين التبشير ووصف نعيم الآخــرة. وهــو فــي الحــالين يحــرك العقول والمشاعر ليقبلوا على هدي الله الذي تعقبــه ســعادتهم فــي الــدنيا والآخــرة. فبعــد أن ذكر شيئا من هول جهنم التي تتفتح أبوابها فلا يفلت أحــد كتــب عليــه العــذاب مــن دخول الباب الذي قدر له الدخول منه ؛ بعد ذلك أخذ القــرآن يصــف شــيئا ممــا ادخــره الله للمتقين من عباده المخلصين، فذكر مــن النعــيم المــادي أن منــازلهم جنــات عديــدة، ينعم كل فرد من المتقين بما خصه الله به من تلكم الجنات التــي تلبــي كــل مــا يمكــن أن يحب أن يجده .وهي تتفق فيما بينها في الناحية الماديــة فالخصــب ظــاهرة شــائعة فيهــا تتدفق خلالها العيون الجارية. كما تتفق فــي الحالــة التــي عليهــا المكرمــون بــدخولها، فهم:

أولا: يكرمون عند دخولها بالسلام عليهم: التحيــة التــي هــي شــعار أهلهــا، كمــا قــال تعالى: والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ســلام علــيكم. ويحــل فــي قلــوبهم الأمــن ويذهب الخوف وهو ما يحقق السعادة، إذ لا سعادة مع حلول الخوف في النفوس.

ثانيا: أن الله ينزع من قلوبهم ما كان عالقا بها في الــدنيا مــن الحقــد والــبغض، فتنشــرح مشاعرهم بالمحبة، وتعمر عواطفهم بأنس الأخــوة الجامعــة ؛ وتظهــر آثــار ذلــك فــي اجتماعاتهم، فهم في راحة تامة هيئت لهــم الســرر التــي يجــدون فيهــا كامــل الراحــة، ويجري بينهم من الأحاديث التي لا لغو فيهــا ولا ســقط، ممــا يجعــل كــل واحــد مــنهم يجد لذة الإقبال على أخيه يسمع منه، فيحصــل فــي عقلــه اللــذة التــي يجــدها العلمــاء الصالحون في محاوراتهم السامية.

ثالثا: أن نشاطهم لا يلحقه الإعياء، فهم في حيوية متدفقة ومتواصلة.

رابعا: أن الحذر من لحوق أمد يقتــي فيــه مــا خصــوا بــه مــن نعــيم لا يــدخل فــي حسابهم، أمنوا من الشعور بالحرمان، ومن الخروج من منازلهم في الجنة .

• نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

نبئ: أمر من نبأ إذا أخبر بخبر فيه فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن.

الوجل : الخوف.

الغلام : هو إسحاق عليه السلام.

عليم : أفتح عليه ما يحصل له به العلم الواسع، فهي صيغة مبالغة.

قنط : يئس.

بيان المعنى الاجمالي :

هذه آية كاشفة عن مسؤولية الإنسان، ذلك أن من صفات الذي استخلفه أنه غفور رحيم لمن أناب واستغفر. وأنه شديد العقاب لمن أصر واستكبر. وأعلمهم بهذا الخبر الهام الذي تم بين إبراهيم والملائكة الذين قدموا فبادروه بالسلام ليذهبوا وحشته منهم. وعرفهم بأنه كان خائفا منهم. قالوا له: لا تخف إنا نبشرك بأنك ستكون أبا لغلام يُعلِّمُهُ الله فيبلغ به مستوى راقيا (عليم). كانت البشارة بعد أن تقدمت سنه ومثله في ذلكم العمر لا يولد له فسأل سؤال تثبُّت، هل تقصدون من بشارتكم إياي أنه سيولد لي غلام فعلا، أو هي بشارة تؤول على معنى خير سيتفضل به علي رب العالمين ؟ أجابوه: فعلا سيولد لك غلام ونحن نريد الحقيقة، فلا تجعل معطى تقدمك في السن سببا لدخول اليأس في نفسك، مما يدعو للتأويل تبعا لما جرت عليه العادة. نفى إبراهيم عليه السلام أن يكون مبعث سؤاله القنوط واليأس، وأخرج جوابه في صورة سؤال إنكاري، لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون، أي إنه على هدى من ربه، إذا كان عليه السلام من أوضح الناس إيمانا.

بيان المعنى العام :

49-50: نبئ عبادي إني أنا الغفور الرحيم ...هو العذاب الأليم.

أعلم يا محمد عبادي بهذا الخبر الصادق الهام. أني أنا الله المتصرف في الكون العليم بكل ما يجري فيه. إني أغفر الذنوب وأمحو آثارها وإني عظيم المغفرة، فلا ييأس عبادي من مغفرتي متى ما أنابوا إلي، وتعلقوا بواسع رحمتي. ولذا قرن سبحانه وصف الغفور بالرحمة، للدلالة على شدة الاتصال بينهما على أن المغفرة وستر الذنوب مرتبط بالرحمة الواسعة. قال تعالى: قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم [1]. فكانت هذه الآية ونظائرها فاتحة لباب الأمل في القلوب، طاردة لليأس، داعية المذنبين إلى الإنابة. إن الغفور الرحيم إذا ستر ذنوب عباده في الدنيا، فإنه بذلك ينبئهم أن فضله سيتواصل عليهم يوم القيامة. فلا ييأس من رحمة الله المذنبون التائبون. إذ اليأس دافع للتمادي في المعاصي. والله يحب أن يتوب عباده قال تعالى: إن الله يحب التوابين [2].

وقد أراد الله عندما خلق آدم أن يكون هــو وذريتــه مســؤولين عــن أعمــالهم، مســؤولية لا تخرجهم من الأمل إلــى القنــوط. فبــشر بعظــيم مغفرتــه وواســع رحمتــه، وثنــى بإيقاظهم إلى ما يترتــب عــن العصــيان مــن مؤاخــذة وعــذاب ألــيم. فكانــت التربيــة القرآنية تجمع بين طرفي الرجــاء والخــوف، فــلا يغلــب علــيهم الرجــاء حتــى تنحــل عزائمهم ويتبعوا شهواتهم فيفســدوا فــي الأرض ويخيبــوا فــي مهمــة الاســتخلاف. ولا ييأسوا ويطبق عليهم الخوف فيقعدوا عن فعل الخير.

51←56، ونبئهم عن ضيف إبراهيم ... إلا الضالون.

إن تلكم الحقية التي قررها القرآن من المغفــرة والرحمــة، والعــذاب الألــيم لمــن رفــض العمل على ما يدخله في المغفرة والرحمة، أتبعهــا بقصــتين مــن واقــع الحيــاة، لتؤكــد للناظرين ما تضمنه التعريف الإلهي. هما قصة إبــراهيم وقصــة لــوط عليهمــا الســلام .

فتضمنت قصة إبراهيم:

أولا: أنه دخل على سيدنا إبراهيم ﵇ ضــيوف لا يعــرفهم، ابتــدأوه بالســلام ليطمــئن لهم ولا يأخذ حذره منهم. وكشف لهم عما حــاك فــي صــدره مــن مبــاغتتهم لــه، وأنــه خاف منهم لولا مبادرتهم بالسلام.

ثانيا: مضاعفة في تأمينه أبلغوه ما أمروا به من تبشــيره بأنــه ســيولد لــه غــلام، وأنــه ينشأ في رعاية الله فيتولاه ربه حتى يصبح عالما كبيــرا بالحقــائق والتشــريع .وقــد تقــدم في سورة هود ما تبع ذلك من استغراب زوجته وما رفع به الملائكة عجبها.

---

[1] سورة الزمر آية 50

[2] سورة البقرة آية 222

ثالثا: أضافت هذه الآية أن سيدنا إبراهيم شارك امرأته متعجبا من البشارة، ذلك أنه يحس بأن تقدمه في العمر أثر فيه ضعفا، فراجعهم ليتبين مقصدهم من البشارة، هل يقصدون أنه سيولد له فعلا غلام، أو هو من الكلام الذي يؤول على أنه خير قادم؟ ولذلك عقب سماعه للبشارة بقوله: فبأي شيء تبشروني، أفصحوا عن مرادكم ؟ كان جوابهم رافعا لكل احتمال: بشرناك بشارة ملابسة للحق لا تأويل فيها، فلا تكن قانطا من فضل الله عليك جريا على ما ألفه الناس في مثل عمرك.

ونفى إبراهيم أن يكون موجب سؤاله هو اليأس من رحمة الله، وأعلن ذاكرا الحقيقة التي صاغها في صيغة قاعدة كلية على طريق الاستفهام الإنكاري: لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الضالون عن الهدى وعن واضح الإيمان. وأنا مؤمن.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخطب : الأمر والشأن، وغلب استعماله في الأمر الشديد.

الغابرين : الذاهبين الهالكين.

منكرون : لانعرفكم.

يمترون : يشكون، وهو العذاب .

بالحق : الخبر الصادق .

أسر: سرْ بهم ليلا.

القطع : الجزء الأخير من الليل.

اتبع أدبارهم : اجعلهم أمامك.

إلى حيث تؤمرون : إلى المدينة التي سوف تعين لكم.

وقضينا : حتّمنا.

دابر : أصله آخر، والمعنى من أولهم إلى آخرهم.

بيان المعنى الإجمالي :

سأل إبراهيم ﷺ الملائكة عن المهمة التي أوكلت إليهم، فأخبروه: إنا أرسلنا إلى قوم استقر الإجرام في نفوسهم، لنرسل عليهم العذاب المقدر لهم. وهم القوم الذين دعاهم لوط إلى الإقلاع عن الفاحشة، فأعرضوا عن دعوته، وواصلوا قبيح فعالهم. ولكن نمكن آل لوط من النجاة، إلا امرأته فقد قدرنا أن تكون مع المهلكين.

ثم دخل الملائكة على لوط ﷺ، فنكرهم وعبر لهم عن ذلك مستفسرا عن نسبهم. فعرفوه أنهم ملائكة الله جاؤوا ليحققوا ما كان قومه يشككون فيه من نزول العذاب بهم، مؤكدين بقولهم أتيناك ملا بسين للحق وإنا صادقون فيما أخبرناك به. فاخرج وأخرج معك أسرتك في آخر الليل وكن أنت وراءهم، ولا ينظر أحد منكم إلى المنازل التي خرجتم منها، وواصلوا سيركم إلى المكان الذي سوف تؤمرون بالنزول فيه. وأوحى الله إلى لوط أن العذاب سيتأصلهم جميعا من أولهم إلى آخرهم مع وقت الصبح وشروق الشمس.

بيان المعنى العام :

57—60: قال فما خطبكم أيها المرسلون..قدرنا إنها لمن الغابرين.

أنس إبراهيم ﷺ بحديثه مع الملائكة وزال ما وجده من نكارة أول الأمر، فتوجه إليهم بالسؤال: ما هو شأنكم أيها المرسلون، وما هي المهمة التي أوكلت إليكم ؟ لأنه يعلم أن الملائكة لا ينزلون على الأمم إلا وهم موكلون بأمر عظيم تنفيذا لأمر الله .

أجاب الملائكة: بأنهم أرسلوا إلى سدوم القرية التي كان لوط يدعو فيها قومه ليصرفهم عن الفاحشة التي ألفوا إتيانها، وتمكن الإجرام منهم وشاع فيهم المنكر، وواصلوا معرضين عن دعوة سيدنا لوط متألبين عليه. أرسلنا لننزل بهم العذاب المقدر لهم، لكن سننجي آل لوط أي أسرته من العذاب النازل، ولا ينسحب هذا الاستدراك على امرأته إذ قدرنا أنها من الهالكين، أي الباقين في العذاب.

61—66: فلما جاء آل لوط المرسلون ....مقطوع مصبحين.

بعد استقبال إبراهيم ﷺ للملائكة وما أكرم به من البشارة، وإخبارهم إياه بأنهم ماضون إلى سيدنا لوط ﷺ لتنفيذ ما قدر لقومه المجرمين من العذاب، واصل الملائكة سيرهم نحو لوط ولما دخلوا عليه تفرس فيهم فأنكرهم لاختلاف سماتهم عن سمات قومه، وأظهر لهم ذلك. عرفوه بقولهم :إنا ملائكة الله أرسلنا بتحقيق العقاب الذي كان قومك يشكون فيه، مؤكدين ذلك :إنا أتيناك ملابسين للحق الذي لا

مراء فيه. وإنا لصادقون فيما أخبرناك به. ثم أمـــروه أن يخـــرج مـــع أهلـــه فـــي آخـــر الليل، وأن يقدمهم ويسير وراءهم، وأن ينـــبههم بـــأن لا يولـــوا وجـــوههم أثنـــاء ســـيرهم إلى منازلهم التي خرجوا منهـــا. ثـــم تـــابعوا ســـيركم إلـــى المكـــان الـــذي ســـيعين لكـــم وتؤمرون بالنزول فيه.

وأوحى الله إليه أنه قرر استئصال قومه المجرمين مع الصـــباح، وهـــو مـــا يفيـــده قولـــه: (أن دابر هؤلاء مقطـــوع). فيكـــون معنـــى التركيـــب أنهـــم مهلكـــون مـــن أولهـــم إلـــى آخرهم.

وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (70) قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (71) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

بيان معاني الألفاظ :

يستبشرون :يفرحون.

الفضيحة : شهرة حال شنيعة.

الخزي : الذل والإهانة .

لعمرك : أقسم بحياتك يا محمد.

السكرة : ذهاب العقل .

يعمهون : يتحيرون ويرتبكون.

الصيحة : صعقة شديدة في الهواء.

مشرقين : عند طلوع الشمس.

آيات : أدلة.

المتوسمون : المتأملون.

سبيل مقيم : طريق بقيت فيه آثارهم ولم يمحها الزمن.

بيان المعنى الإجمالي :

سمع قوم لوط بقدوم ضيوف عليه، فتســـارعوا نحـــو بيتـــه فـــرحين، طـــالبين أن يمكـــنهم من قضاء شهوتهم منهم. شعر لوط بالحرج الشـــديد وخـــاطبهم مثيـــرا فـــي نفوســـهم مـــا

يلحقه من فضيحة ومهانة إذا هم اغتصبوا ضيوفه، فكان جـوابهم: لقـد كنـا نهينـاك عـن حمايـة أي وارد عليـك مـن العـالمين. أرشـدهم إلـى أن طريـق الاتصـال الجنسـي المشروع والجاري علـى الفطـرة إن كـانوا يريـدون ذلـك، أن يتزوجـوا مـن بناتـه، باعتبار أنه نبي قومه والذكور بمثابة بنيه والإناث بمثابة بناته.

و حياتك يا محمد لما ثار داعي الغريزة الشـاذة فـيهم كـأنهم سـكارى حجبـت عقـولهم، متحيرون لا يقدّرون عاقبة ما يفعلونه حق قـدرها. إنهـم وهـم علـى تلـك الحالـة مـن الاضطراب اقتلعتهم صيحة من السماء زلزلت كل مـا يحـيط بهـم، فانقلبـت البنـاءات، هوت سقوفها تحت قواعـدها، وتتابعـت علـيهم كـالمطر المتـدارك حجـارة مخلوطـة بطين محمية لا تصيب شيئا إلا حللته ومزقته شر تمزيق .

ما سبق أن قصه الله علينا، فيه آيـات لليقظـين المتـأملين. وإن آثـار قـوم لـوط يمـر عليها أهل مكة في طريقهم إلـى الشـام. تحكـي أخـذ الله الشـديد للمكـذبين المجـرمين. وهو آية للمؤمنين الذين يربطون بين الأحداث ومحدثها رب العالمين.

بيان المعنى العام :

66←77، وجاء أهل المدينة يستبشرون...إن في ذلك لآية للمؤمنين.

شاع الخبر في القرية أن لوطا قدم عليـه ضـيوف، فتجمـع ذكـورهم وأتـوا إلـى بيتـه مستبشرين فرحين، طمعا منهم في الاعتـداء بالفاحشـة علـيهم. وسـواء أكـان قـدومهم قبل أن يخبر الملائكة لوطا بما جاؤوا من أجله أو بعد ذلـك، فإنـه قـد وجـد نفسـه فـي موقف حرج جدا. هؤلاء الفسقة المجرمون عقدوا العـزم علـى الاعتـداء علـى ضـيوفه، والضيوف لهم حرمة عند فضلاء النـاس، فرجـاهم أن يعرضـوا عمـا عزمـوا عليـه، وقال لهم: إن هؤلاء ضيوفي فـلا تفضـحوني وتوقعـوني فـي وضـع شـنيع: أنـي لـم أستطع أن أحمي من استجار بي وقدم علي آملا في رفـدي والنيـل مـن إكرامـي . إنهـا إهانة وإذلال لي إذا اغتصبتم ضيوفي.

- كان جوابهم بالغا غاية الوقاحة فقالوا له: ألم نتقـدم لـك مـن قبـل أن لا تحمـي أحـدا من العالمين. ذكّروه بأنهم نهـوه عـن الحيلولـة بيـنهم وبـين اغتصـاب أي فـرد مـن البشر، ومن أي قبيلة كان، قدم على قريتهم.

- عرض لوط عليهم إذا كانت الغُلمة قد اسـتبدت بهـم، والرغبـة فـي إشـباع شـهوتهم الجنسية عارمة، إن كنـتم ولا بـد فـاعلين مـا يقضـيها، أن ينكحـوا بناتـه فيفرغـون شهوتهم فيما هو الفطرة والأصل في الاتصال الجنسي. وفـي التعبيـر ببناتـه وقفـة لمـا يفيده ظاهر القول من عرض بناته علـى الفسـقة المجـرمين. وتأويلـه يكـون علـى أن

الرسول في الأمة التي كلـف بهـدايتها هـو بمثابـة الأب يحنـو علـيهم ويهمـه أمـرهم فيكون الذكور معتبرين أبناء له والإناث بنـات. ويكـون المـراد حولـوا قضـاء شـهوتكم من الذكور إلى الإناث من قريتكم. وخرجـه بعضـهم علـى أن الاعتـداء علـى ضـيوفه شنيع جدا أعظم من شناعة الاعتداء على بناته، كمـا تقـول لمـن اراد أن يقتـل شخصـا: اقتلني ولا تقتله. فليس المراد الإذن بقتل القاتل ولكن صرف القاتل عن القتل.

- لما بلغت بهم الوقاحة هذا الحد، وجـرهم خبـثهم إلـى العـزم علـى فعـل الفاحشـة بضيوف نبيهم، وتعللوا بأنهم قد قدموا له، ونبهـوا عليـه، أن لا يجيـر ولا يحمـي أحـدا من الناس، على معنى أنهم لا يحترمـون جـواره، ولا يصـدهم عـن فسـادهم نكرانـه. تهيأوا بذلك لتسلط العذاب الموعود به من قبل لوط عليهم.

- قطع القرآن تواصل الأحداث، وتوجه إلى الرسـول ﷺ، ليكـون فـي القصـة تهديـد للمشركين الذين تمالأوا على رفض الدعوة وواصـلوا تحكـيم شـهواتهم. توجـه القـرآن لرسول الله مكرما له أنبل تكريم وأعـلاه، فأقسـم بحياتـه، لعمـرك صـيغة قسـم: أقسـم بحياتك، وهذا أسمى ما يبلغه الخطاب المرعي فيـه التكـريم والتقريـب مـن رب العـزة إلى بشر. أقسم بحياتك إن فطرتهم قد انحرفـت، وأخـذت الشـهوة علـى عقـولهم كحـال المسكارى الذين تبعث فيهم نشوة الخمر دفعـا للغرائـز بمقـدار مـا تضـعف فـيهم القـوة العاقلة. وهكذا أصبحت حياتهم مضطربة حـائرة لا قـرار لهـا. وشـأن الغرائـز عنـدما تثور وتعنف، وتقصي العقل مـن القيـادة، أن يكـون صـاحبها حـائرا مضـطربا بعيـدا عن الهداية والرشد.

- يعود الكلام بعد ذلك إلى قوله تعالى: فأخـذتهم الصـيحة مشـرقين. ليكشـف القـرآن كيف تم تسليط العذاب عليهم عند طلـوع الشـمس. تـم ذلـك بصـيحة عظيمـة لا يقـوم لشدتها قائم. اندكت الأرض ومـا فوقهـا. وانقلـب أعلاهـا إلـى أسـفلها وعـلا أسـفلها وتتطاير شظايا كل بناء. وتتابعـت الحجـارة مـن السـماء تـرجم كـل شـيء فتسـحقه سحقا. إنها حجارة خاصة من سجيل، خلطت بطـين وأحمـي عليهـا، تسـحق كـل مـن أتت عليه وتفككه فينقلب كأنه عظم منخور بال.

- في كل ما عرضـه القـران ممـا سـبق، لأدلـةٌ موقظـة للمتـأملين الـذين يعتبـرون بالحوادث، ويربطـون المسـببات بأسـبابها، ولا يمـرون عليهـا وهـم غـافلون، وهـم المتوسمون. وأثار التدمير الماحق ما تـزال شـاهدة علـى عاقبـة المجـرمين الرافضـين لهداية الله، إن أهل مكة يمـرون عليهـا فـي طـريقهم إلـى الشـام. فمدينـة قـوم لـوط المدمّرة بقيت أثارها ناطقة بعاقبة القوم المجرمين.

- والتصرف الإلهي العادل الذي كانت فيه أدلة على الحكمة الإلهية التي يدركها المتوسمون، مما وقع لإبراهيم عليه السلام، وما تم في قصة قوم لوط من مجيء الملائكة وجراءة قومه عليه وعليهم، ثم الانتقام منهم وتدميرهم، وبقاء آثارهم موقظة للناظرين. إنها آيات متتابعة ينتفع بها المتيقظون. والمتيقظون هم الذين يبعث الإيمان في مداركهم إحساسا بأن كل تصرف في الكون يثبّت إيمانهم ويقوم دليلا على صنع الله في العالم فتكون مساكن قوم لوط آية بينة من آيات الله.

وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأيكة : المكان الملتف الشجر.

الظالمون : المشركون.

الانتقام : العقوبة الشديدة لأجل الذنب.

الإمام المبين : الطريق الواضح البين غير المندثر.

الحجر : وادي القرى بين المدينة والشام، على الطريق من خيبر إلى تبوك.

النحت : العمل بالإزميل في الصخر ليخرج من ذلك ما ينتفع به.

بيان المعنى الإجمالي :

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام، دعاهم لتوحيد الله والاستقامة في تعاملهم، فتحدوه وأقاموا على الشرك، فانتقم الله منهم. وإن خراب منازلهم وخراب منازل قوم لوط على الطريق التي تسلكها القوافل التجارية من مكة إلى الشام، لم تندثر آثارهما. وعطف على قصة قوم شعيب قصة ثمود قوم صالح. وكلتا القصتين لم يُعْن القرآن في هذا الموقع بتفصيل أخبارهما. فذكر أن ثمودا كذبوا الرسل وأعرضوا عن المعجزات التي تؤيدهم. ووجهوا كل همهم للحياة الدنيا. برعوا في نحت الحجارة واتخذوا من صخور الجبال بيوتا ظنوا أنها تؤمنهم أمانا لا خوف معه. فأهلكوا بالصيحة القوية مع الصباح، فما حماهم ما خططوه وعملوه.

بيان المعنى العام :

78-وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين.

عطف القرآن قصة أصحاب الأيكة على قصة لوط باعتبار أن منازلهما على طريق القرشيين في تجاراتهم .يشاهدون آثار الدمار الذي حل بهما. وأكد النص القرآني من البداية أنهم كانوا ظالمين، أي مشركين. وجاء التأكيد ب- إنْ- المخففة من الثقيلة إنّ.

كان أصحاب الأيكة قوما مشركين ينزلون بأرض تغطيها أشجار كثيفة ملتفة، بعث الله إليهم سيدنا شعيبا فدعاهم إلى التوحيد والعدل في التعامل، فكذبوا رسولهم وتحدوه، فانتقم الله منهم. وأخذهم عذاب يوم عظيم هو عذاب يوم الظلة. وسيفصل القرآن خبرهم في سورة الشعراء الآيات 176/190-

79- فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين.

أكدت الآية أن منازل قوم شعيب ومنازل قوم لوط على طريق واضح بين، تسلكه قوافل التجار، ويشاهدون الدمار الذي لحق بهما.

80--84، ولقد كذب أصحاب الحجر ...ما كانوا يكسبون.

عطف القرآن على قصة اصحاب الأيكة قصة أصحاب الحجر. ثمود الذين بعث الله لهم سيدنا صالحا. دعاهم إلى توحيد الله. وأيده بمعجزة هي الناقة وسيأتي تفصيل أخبارهم في سورة الشعراء الآيات (141/150).

سجّل عليهم في هذا النص: أنهم كذبوا رسولهم، وأعرضوا عن التأمل في الدليل الآية التي كانت معجزة له. ألهاهم الإقبال على متاع الحياة الدنيا عن قبول ما جاءهم به صالح. برعوا في النحت فكانوا ينحتون في صخر الجبال بيوتهم، ويتخيلون أنها تحقق لهم الأمن. فأهلكهم الله بالصيحة القوية مع دخولهم في الصباح، وما نفعهم ما كانوا يقومون به من الاحتياطات، وما يدبرونه لحماية أنفسهم.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الصفح الجميل : العفو عنهم مع عدم العتب.

لا تمدن : لا تحدق نظرك إعجابا بما أوتوه من النعيم الدنيوي.

النذير : المُعلِمُ بحدث فيه ضر.

المبين : المصرح و الموضح.

بيان المعنى الاجمالي :

يؤكد القرآن أن الله أجرى خلق السموات والأرض وما بينهما وما اشتملا عليه، حسب قوانين مضبوطة تنسحب على كل كبيرة وصغيرة . فلا مجال للمصادفة ولا لعدم المعقولية فيما يحدث فيهما. وإن من ملابسة الخلق بالحق ما يقتضي أن يكون البشر المستخلفون في الأرض مسؤولين عن استخلافهم فيها، وأن يبعثوا يوم القيامة ليجزوا بما عملوا. فقابل يا محمد صدهم عن الحق بالصفح عنهم الصفح الذي لا لوم معه ولاغلظة. واعلم أني أنا ربك الخلاق العليم بما أخلقه وتطوراته وما يحدث منه. وإنك في رعايتي، فقد آتيتك سورة الفاتحة والقرآن العظيم، وذلك أكبر منة.

وما جمعته من الخير يقلل في نظرك ما يتمتع به المشركون رجالا ونساء، فلا تنظر إلى ما بين أيديهم من النعيم، فإنه نعيم زائل وما عندك باق مستمر في عطائه صلاح البشرية إلى يوم القيامة.

ولا تحزن لكفر من كفر، ولا لما يصيبهم. وإن قلبك الكبير يحب الخير للبشر جميعهم. وواصل ما جبلت عليه من نبيل الأخلاق مع المؤمنين، وحنوك عليهم. وقل للمشركين إني نذير لكم أنذركم عذابا سينزل عليكم، بينته لكم، وفيما تلاه القرآن عليكم من مآلات المكذبين ما يكون رادعا واضحا لكم عن رفض الإيمان.

بيان المعنى العام :

85—86، وما خلقنا السماوات والأرض ...إن ربك هو الخلاق العليم.

تنعطف الآيتان على ما سبق في السورة من تمرد المشركين، وما لحقهم في النهاية من العذاب الذي استأصلهم فتصرح بقاعدة عامة بنى الخلاق العليم عليها الكون: السماوات والأرض وما بينهما، ما يحدث فيهما ظاهرا وباطنا، بما يشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد وكل العناصر الكونية، تثبت أن الله خلق هذه العوالم ملتبسة بالحق، تجري على الحق ولا مدخل للباطل فيها. والحق يعني النظام والدقة والحكمة، والربط بين الأسباب والمسببات. هي قوانين ثابتة معقولة لا يخرج عن صارم ضبطها صغيرة ولا كبيرة، ولا يختلف في ذلك كسب الإنسان وجزاؤه عن قوانين العقل وعن قوانين المادة.

نعم !إن الطاقة العقلية للإنسان تقصر عن إدراك جميع تلكم القوانين، وعن تفاصيل انطباقها في الوجود. ولكن الخلاق العليم هو الذي قدرها في مواقيتها بحكمته. وبهذا يكون الربط بين الفعل والجزاء، وبين الكسب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب هو أمر ثابت لا شك فيه. ولكن إظهاره في الخارج مرتب في علم الله، فإما أن يُظهر بعض آثاره في الدنيا. وإما أن يتحقق ذلك عند البعث عند قيام الساعة. فبهذا يكون البعث للحساب والجزاء يوم القيامة ضرورة عقلية مستندة إلى الارتباط بين الأسباب والمسببات. إذ الصلاح وفعل الخير سبب للثواب والتكريم، والفساد والشر سبب للعقاب والإهانة. فإن لم تظهر بعض الآثار في الدنيا تكون الحياة الآخرة أمرا حتما لتحقق المسببات. وهذا ما ورد في أثناء القصص السابقة في السورة من تكريم أو استئصال، مرتبط كل ذلك بكسب الإنسان.

وترشد الآية النبي ﷺ ليتسع صدره ولا يحزن ولا يضيق بما يمكر به أعداء الإسلام، فإن ذلك هو شأنك على ما خلقتك عليه من كمال نفسي وخلق رفيع سداه الصبر ولحمته الترفع عن الجاهلين.

والتأمل في تلكم القوانين تؤكد للناظر فيها أن ربك هو الخلاق لا خالق غيره، لقصر قدرات غيره عن الإحاطة، وضعفها عن بلوغ الحكمة الشاملة، وأنه هو العليم، لما يكشف عنه النظر في الخلق. إن ربنا لم يهمل صغيرة ولا كبيرة، ولا يتيسر النظام إلا مع العلم الدقيق الشامل. وقد قدر سبحانه أن لا يعجل باستئصال مشركي مكة، وقد ظهرت الحكمة في ذلك من بعد، فقد قام بعضهم وما تناسل منهم بنشر دين الله في الآفاق.

ونلفت النظر إلى تعبير القرآن: إن ربك – ففي إسناد الرب سبحانه، وهو رب كل شيء، إلى النبي ﷺ ما يشير إلى عنايته به وتسليته عما يلقاه من المشركين، وأنه لا يغيب عن علمه شيء وسيجزيهم. فإنه كما خلقهم هو أعلم بفعالهم. وهو سبحانه الذي يقدر لكل شيء أجله. وقد يكون في عدم معاجلتهم بالعذاب ما يشرح صدره ويحقق له ما يرغب فيه.

87- ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم.

هيأت الآيات السابقة، في قوله تعالى : لعمرك الآية، وفي قوله تعالى قريبا: إن ربك هو الخلاق العليم، لتأكيد المنن التي خَصّ بها النبي ﷺ، فوقع التصريح بذلك في هذه الآية. لقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم. المنة أوصلها الله لنبيه مع كامل الرفق والتكريم، لما توحي به كلمة الإيتاء بجرسها الناعم الذي هو ألطف

من أعطيناك. وقد آتاه الله- سبعا - مــن المثـــاني- والقــرآن- أمـــا كلمـــة الســـبع فهـــي نص في دلالتها على المعدود لا تحتمــل مـــا هـــو أكثـــر ولا مـــا هـــو أقـــل. والمعـــدود المثاني جمع مثناة، اسم مشتق من اثنين أصــــله ثنـــى الشـــيء فجعلـــه اثنـــين. وعلـــى أي شيء تدل كلمة مثاني؟ ذهب معظم المفســـرين إلـــى أن المقصـــود بهـــا ســـورة الفاتحـــة اعتمادا على الحديث الذي أخرجه البخاري، وعلى مـــا أخرجـــه مســـلم، وقـــد بينـــا ذلـــك في سورة الفاتحة. وإطلاق المثاني على سورة الفاتحة بـــالنظر إلـــى أنهـــا تقـــرأ فـــي كـــل ركعة من ركعات الصلاة. فأطلقت عليهـــا بـــذلك الاعتبـــار، كمـــا أطلـــق لفـــظ المثـــاني على القرآن كله، كما جاء في قوله تعـــالى (الله نـــزل احســـن الحـــديث كتابـــا متشـــابها مثاني)[1] - نوه الله بالقرآن كله بأنـــه كـــرر مضـــامينه بأســـاليب مختلفـــة بمـــا يضـــمن تثبيتها واستيفاء جميع جوانبها بطريقته الخاصـــة البالغـــة حـــد الإعجـــاز، إذ تـــم التكريـــر بطرق متنوعة، يكشف المتأمل كل مرة أعيـــد فيهـــا المضـــمون جوانـــب لـــم تـــذكر مـــن قبل، وطريقة تعبيريـــة متميـــزة، ووحـــدة لا اخـــتلاف فيهـــا. وبمـــا أن ســـورة الفاتحـــة تضمن التخطيط العام لكل ما عني به القرآن أطلق عليها السبع المثاني.

وبناء على ما ذكرناه تكون من فـــي قولـــه تعـــالى مـــن المثـــاني تـــدل علـــى أن الســـبع المثاني التي امتن بها الله على رســـوله هـــي بعـــض القـــرآن أبـــرزت بصـــفة خاصـــة لتكون مزاياها متحدة مع مزايا القرآن وتزيد عليه.

ويسوغ عطف القرآن العظيم عليها، بالنظر إلـــى المغـــايرة بـــين المعطـــوف والمعطـــوف عليه بالكلية والجزئية.

88--89، لاتمدن عينيك إلى ما متعنا..إلى أنا النذير المبين.

إن ما آتاك الله من القرآن والسبع المثاني، وما خصك به من الوحي والهداية والرعاية، وما اصطفاك به لتكون أمينا على وحيه خاتما لرسله، هي منٌ لا تقاس بما أوتيه المشركون من المال والجاه والأولاد وقوة الأبدان، فما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا، زائل غير ثابت، فلا تكن معجبا به، ولا تنظر إليهم نظر الإكبار لما خصوا به من نعيم الدنيا. وقوله تعالى: أزواجا منهم: الرجال والنساء، أو أصنافا منهم ممن انبسطت لهم أسباب النعيم دون من كانوا في خصاصة. إذ أن المشركين لم يكونوا جميعا مبسوطٌ لهم في الرزق، بل كان بعضهم في ضيق فجمعوا بين الخسارتين. والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فإنه يشمل أمته حتى لا يشتغلوا بزهرة الحياة الدنيا إيثارا لها على ما آتاهم الله من الهداية ورزقهم من التوفيق لاتباع دينه.

---

[1] سورة الزمر آية 23

ثم أرشد رسوله ليخفف عن نفسه من حرصه على إيمـانهم. هـذا الحـرص الـذي جعلـه يحس بالحزن والأسى لعدم اهتـدائهم وإصـرارهم علـى الكفـر. فهـداه إلـى أن يخفـف عن نفسه التي تشفق على البشر جمـيعهم حتـى الكـافر مـنهم. ولا يفهـم مـن هـذا أن يحول عواطفه النبيلة إلى قسوة وشدة ويكون غيـر آبـه بمـا يمـس غيـره مـن سـوء، فقال تعالى ما معناه: وارفـق بـالمؤمنين مجسـما هـذا الرفـق والعنايـة بحالـة الطيـر عندما يحتضن صغاره فيرخي جناحيه عليها: "واخفض جناحك للمؤمنين"

وقل للكافرين المعاندين قولا فصـلا: اعلمـوا أن مهمتـي هـي إنـذاركم بـإعلامكم مـا يترصدكم من سوء المصير إن أنتم أعرضتم عما جئتكم بـه، وأن أبـين لكـم ذلـك بيانـا واضحا لا يبقي لكم تعلة تتعللون بها تبريرا لعدم الاستجابة.

كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

المقتسمين : يحتمل أن يكون المراد به الذين قسّموا القـرآن أجـزاء لا رابـط بينهـا، أو الذين حلفوا.

عضين : جمع عضة بمعنى مجزأ إلى حق وباطل، ومقبول ومرفوض.

الصدع : الجهر والإعلان.

ما تؤمر : الدعوة إلى الإسلام.

أعرض : كن أقوى من أن تتأثر بمكرهم.

كفيناك : تولينا أمر المستهزئين بك فننتقم منهم، ونمحي آثار استهزائهم.

بيان المعنى الإجمالي :

أفادت الآية السابقة أن الله أمر نبيه بأن يعلن أنـه النـذير المبـين، ينـذر الصـادين عـن دين الله بالعذاب، هذا العذاب هـو كالعـذاب المسـلط علـى الـذين بلـغ بهـم العنـاد أن قسموا القرآن أقساما قبلوا بعضه مما وجـدوه لا يخـالف وجهـة نظـرهم، ورفضـوا مـا يناقض تصورهم ومعتقداتهم. كما جعلوا القـرآن مقسـما إلـى شـعر وكهانـة وأسـاطير

الماضين وكلام مجنون. وهؤلاء هددهم القرآن في أكثر من مناسبة بما يترصدهم من العذاب.

ثم أقسم بمحمد أنه سيسألهم يوم القيامة سؤال فضيحة عما كانوا يعملون في الدنيا فيجازيهم.

ثم أمر رسوله بأن يعلن بالدعوة، وينشرها دون تخفٍ، وأن لا يأبه بما يقاومه به المشركون من إذاية لفظية أو فعلية. وطمأنه بأنه سبحانه تولى إجهاض استهزاء المستهزئين، هؤلاء الذين فسد تفكيرهم كفساد سلوكهم. فهم قد جعلوا مع الله آلهة أخرى لا حول لها ولا قوة، فجراءتهم على الله وعليك تعرّضهم إلى أشد عقوبة، وسيعلمون النكال الذي سوف يحل بهم، وهو تهديد شديد بسوء مصيرهم.

و يواسيه بأن الله ليس غافلا عما يرهقك به المشركون، ومن تحرجك من كلامهم. وسوف تظهر لك الحكمة من إمهالهم. ويرشده كما يرشد المؤمنين في الأوقات الحرجة أن يستعينوا بتسبيح الله مع الحمد، والصلاة.

و ختاما عليه أن يواصل ما يقوم به من عبادات يتقرب بها إلى الله ولا ينقطع عنها إلى أن تنتهي حياته، وهذا ما على كل مؤمن صادق أن يلزمه في حياته.

بيان المعنى العام :

90-91؛كما أنزلنا على المقتسمين الذين...جعلوا القرآن عضين.

كانت صياغة هذه الآية على طريقة التشبيه: أداة التشبيه الكاف في قوله تعالى: (كما) والمشبه به (ما أنزلنا على المقتسمين الذي جعلوا القرآن عضين) والمشبه يحتمل أن يكون المفعول المقدر في قوله تعالى :(وقل إني أنا النذير المبين) أي أنذركم عذابا كالعذاب الذي أنزلناه على المقتسمين. فيخلص المعنى هكذا: وقل إني أنذركم عذابا كالعذاب الذي أنزلناه على المقتسمين الذين جعلوا القرآن الكريم مقسما إلى حق وباطل، ومقبول وغير مقبول.

و بعد أن قدمت بهذه المقدمة أريد أن أقرر نفي بعض الاحتمالات التي قال بها بعض المفسرين، ثم أتعمق قليلا في نظم الآية بتتبع ألفاظها.

الرأي الأول: قال بعض الناظرين في كتاب الله: إن المقتسمين هم الذين ذكرهم الله في قصة صالح: (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون) سورة النمل آية 51 – فحملوا كلمة المقتسمين على معنى الحالفين استنادا إلى قوله تعالى: تقاسموا بالله – وهذا التفسير لا يصح حمل هذه الآية عليه ذلك أن القرآن أتبع كلمة المقتسمين بما يوضحها (الذين جعلوا

القرآن عضين) وقوم صالح مكـروا ودبـروا طريقـة للقضـاء علـى صـالح عليه السلام، ولا صلة لهم بالقرآن.

الرأي الثاني: أن المقتسمين هم أهل الكتاب الـذين قسـموا مـا تلقـوه مـن الكتـب عـن رسلهم إلى ما يوافق القرآن فقبلوه، وإلى مـا يخالفـه فرفضـوه، ويكـون معنـى القـرآن عضين، أي كتـابهم المقـروء (التـوراة أو الإنجيـل) مقسـما. وإطـلاق القـرآن علـى كتابهم اعتمادا على الاشـتقاق اللغـوي، لا أراه مقبـولا. لأنـه قـد تكـرر إطـلاق لفـظ القرآن سبعا وستين مرة في غير هذا الموضـع وكلهـا بمعنـى الكتـاب المعجـز، الـذي أنزله الله معجزة لمحمد ﷺ. وهو ما حول المعنى اللغـوي إلـى المعنـى العلمـي فيكـون تبعا لذلك هو السـابق للأفهـام، ولا يحمـل علـى المعنـى اللغـوي بمعنـى القـراءة إلا بقرينة صارفة، ولا وجود لقرينة.

الرأي الثالث :وقل للمشركين ولأهل الكتاب إني نـذير لكـم، أنـذركم عـذابا لا تجـدون منه ملجأ ولا مفرا، هو يشبه العذاب الذي أنزلنـاه علـى المكـذبين مـنكم، الـذين قسـموا القرآن إلى حق يأخذون به وباطل ينكرونه ويرفضـونه . فكلمـة عضـين جمـع عضـة بمعنى جزء وقسم، أصله عضو فقلبت الواو الأخـرة هـاء. وهـذا التقسـيم صـدر مـن المشركين في طعنهم علـى القـرآن، قـالوا: إنـه سـحر، وأسـاطير الأولـين، وشـعر، وكلام مجنون، وكهانة. كما صدر من أهـل الكتـاب، إذ قبلـوا مـا صـدق كتـبهم ومـا يبقيهم على ديانتهم، وكذبوا بما نسخه من أحكام وما صـححه مـن التبـديل الـذي حرفـوا به وحي الله إليهم.

و لما كان شأن التشبيه أن يكون محققا ومقربـا للمشـبه بوصـله بالمشـبه بـه المعـروف لدى المخاطب معرفة أوضح، فإن هذا العذاب المشـبه بـه غيـر مـذكور علـى التعيـين، كما لم أجد ما يثلج الصدر في تعيينه. ذلك أن ما قدمه المفسـرون أنـه نكـال يـوم بـدر، ويوم بدر في السنة الثانية من الهجرة، والآيـة مكيـة قبـل الهجـرة فكيـف يـتم التشـبيه بشيء لم يحدث بعد ولم يـدخل فـي تصـور المخـاطبين. غايـة مـا أطمـئن إليـه أن المخاطبين استحضروا ما يدل عليه التشبيه، ولم ينقل إلينا.

92 -93، ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾

هذا وعيد للكافرين أكده بالقسم (فوربك) وفـي إقسـام الله بـرب محمـد، مـن التقريـب والتنويه بعلي مقامه ﷺ عند ربه ما لا يخفى. إذْ أقسـم الله بذاتـه العليـة، فعلـى مـا ذا أقسم؟ أقسم مؤكدا مضمون القسم بـالحلف وبعلامـة التأكيـد لنسـ<u>ألـنهم</u> بالمقسـم عليـه وهو: سؤال المنذرين جميعا لا يفلت مـنهم أحـد، سـؤالهم سـؤال فضـح وتقريـر عمـا

كانوا يعملونه في الدنيا .هذا السؤال لا يتطلب جوابـا، ولكنـه إيمـاء للجـزاء المترتـب على سوء أعمالهم، في قوة لأعاقبنَّهمْ على أفعالهم، فتكون هـذه الآيـة تفننـا فـي التعبيـر عن مضمون الآية السابقة.

94-96، فاصدع بما تؤمر ...كفيناك المستهزئين.

هذه محطة من المحطات الكبرى في مسـيرة الـدعوة الإسـلامية. هـي التاليـة لتلقـي الوحي الأول (اقرأ باسم ربك الذي خلق) لمـا تلقـاه وأمـر بتبليغـه لعشـيرته الأقـربين. ونجح ﷺ في هداية عدد من أهـل مكـة الـذين كـانوا يجتمعـون ويعبـدون الله فـي دار الأرقم بن الأرقم، وينخفى من كان بعيدا عنها فيقيم صـلاته فـي بعـض الشـعاب. ومـع ذلك فإنهم كانوا لا يسلمون من أذى المشركين. وتحـول الوضـع مـن يـوم نـزول هـذه الآية التي تلزم النبي ﷺ بأن يجهر بالـدعوة، ويعلـو صـوته بـالحق الـذي أنـزل إليـه ليخرق الأسماع، ويبلغ العقـول والقلـوب. تكليـف جديـد أثقـل مـن التكليـف الأول، إذ عليه أن يدبر المسالك التي تكون أنجع لينفّذ منها إلـى البشـر جميعـا. ويتأكـد عليـه أن يخطط ما يكفل له الوفاء بهـذه المهمـة، وهـو عـالم صـلف قـريش، وكبْرهـا، وشـدة تمسكها بآلهتها. إنه الأمر مـن رب العـزة لمحمـد الـذي لا يـدخر جهـدا فـي القيـام بالمهمة التي أوكلت إليه. وكل سعادته أن يفوز برضـوان ربـه، كلفـه ذلـك مـا كلفـه. ويزيد هذا التحول ثقلا بـأن عليـه أن لا يُراعـي مـا ألفـه المشـركون فـي عبـاداتهم وتعاملاتهم، بل يصدع بكل ما نزل عليه. فاصدع بما تـؤمر بـدون ذكـر متعلـق تـؤمر ليعم العقيدة والشريعة والسلوك. لتكن شجاعتك على مستوى مـا أنـت مقـدم عليـه، فـلا يهمك مواقف المشركين وما يعدونه في طريقـك مـن معوقـات. فمعنـى أعـرض عـن المشركين، لتكن أصلب وأقوى في مواجهـة المشـركين فـلا تبتـئس بمـا يقومـون بـه لتثبيطك وإذاية المؤمنين.

و تبقى الحرب النفسية التي ينفث فيها السـفلة مـن المشـركين، التـي منهـا الاسـتهزاء بالدين والقرآن ومظـاهر الإسـلام. وإن كـان الاسـتهزاء لا يصـد عـن الـدخول فـي الإسلام، إلا أنه يجرح كبرياء المؤمنين المعتزين بـه ويـؤذيهم، إذ يعسـد السـفهاء إلـى المقدس فيعبثون به.

كانت هذه الناحية مما أهمّتْ الرسـول ﷺ، فأعلمـه الله أنـه كفـاه أمـر المسـتهزئين، أي توليت مكافك الانتقام منهم، وجعلـت اسـتهزاءهم مسـلوب التـأثير. وعـن عـروة بـن الزبير وسعيد بن جبير هـم خمسـة نفـر: الوليـد بـن المغيـرة، والعـاص بـن وائـل،

والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطلاطلة. وكلهم هلكوا بمصائب حققت فيهم كفاية الله لنبيه.

ثم أكدت الآية في خاتمتها استحقاق المستهزئين للانتقام الذي يترصدهم، ولا مناص لهم منه، لأنهم تجاوزوا الحدود، وجعلوا مع الله آلهة أخرى لا تملك من خصائص الألوهية شيئا. فشنعت الآية بتفكيرهم، وأن ما وصل به فساد التفكير إلى اتخاذ آلهة مع الله يجعل كل ما يفعله بعد ذلك أقل شناعة. وإذ قد جمعوا بين الشرك بالله والاستهزاء بالرسول ﷺ فهم بذلك حقيقون أن ينالوا جزاءهم الذي أبهم لتذهب النفس في تصوره كل مذهب يتناسب مع عظم جرمهم.

97 –98، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك...وكن من الساجدين.

قوت الآيتان السابقتان عزيمة رسول الله ﷺ (فاصدع، وأعرض) (إنا كفيناك المستهزئين) ولا شك أن النبي ﷺ كان على مستوى رفيع من شدة الإحساس ورفض التعدي. فهو قد آزره ربه فصمد، ولم ييأس ولكنه مع ذلك كان يتألم لكفر قومه بما انزله الله إليه، وإقامتهم على الشرك وعبادة الأصنام، ويتألم لمقابلتهم ما هو عليه من الجد بالاستهزاء والسخرية. فآنسه ربه بهذه الآية، كن واثقا يا محمد أن الحالة التي أنت عليها هي تحت رعايتي، لا يخفى على ما تقاسيه وما يحز في نفسك الكريمة، ويشير سبحانه بهذا إلى أن في ذلك حكمة عند الله في عدم استئصالهم.

ويرشد نبيه إلى المنهج الذي يخفف عنه هذا الكدر النفسي:

أولا : يذكره بأنه يجد في الإعلان بتسبيح الله مسلاة لهمه وروحا يفرج عنه. فهو إذا سمع منهم عبارات الشرك، وتمجيد الآلهة، والسخرية من القرآن والإسلام مما يقصدون به الإذاية، عليه أن يجري على قلبه، التسبيح المنزه لله عن أقوالهم. وعلى لسانه ذكر ما استقر في قلبه قارنا لحمده على ما أفاضه عليه من نعمة الهداية للصراط المستقيم وتقريبه التقريب الذي رفعه إلى مقام الائتمان على وحيه.

ثانيا: أن يفزع إلى الصلاة، فعبر عن الصلاة بالسجود، الذي هو كما شرع في الإسلام، المظهر الأكمل للخضوع لله. روى الإمام احمد وأبو داود عن حذيفة بن اليمان :أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه (نزل به هم أو غم) صلى. كما أخرج الإمام أحمد تطبيقا لهذه الآية بسنده إلى عبد الله بن جعفر كان إذا حزبه أمر قال: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين. علق عليه المناوي (فائدة) أخرج النسائي عن الحسن بن الحسن بن علي كرم الله وجهه أن سبب هذا أنه لما زوج عبد الله بن جعفر بنته قال لها: إذا نزل بك أمر فاستقبليه بأن تقولي: لا إله إلا الله الحديث ...فإن المصطفى ﷺ

كان يقوله. قال الحسن فأرسل إلي الحجاج فقلتهن، فقال: والله لقد أرسلت إليك وأنا أريد قتلك، فأنت اليوم أحب إلي من كذا وكذا فسل حاجتك. وهو في مسلم بنحوه من حديث ابن عباس [1].

99- واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

ثلث الله وصيته لنبيه بأن يواصل القيام بعبادة ربـــه مستحضـــرا عنايتـــه بـــه إلـــى آخـــر نفس من حياته. إلى أن يأتيه ملك الموت. فـــأطلق اليقـــين علـــى الأمـــر الثابـــت المتـــيقن الذي لا شك فيه، وهو أن كل نفس ستبلغ أجلهـــا الـــذي أجـــل لهـــا وتخـــرج مـــن الـــدنيا. وذلك نظير قوله تعالى: (وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين) [2]

و قد كان عرض علي بعض أصـــحاب الســـلطة أن قولـــه تعـــالى: (واعبـــد ربـــك حتـــى يأتيك اليقين) أنه إذا حصل اليقين عند الإنسان فـــذلك مغـــن لـــه عـــن العبـــادة. وحســـب ما ذكر لي أنه عرض رأيـــه هـــذا علـــى أســـاتذة مـــن خريجـــي الســـربون فاستحســـنوه وأيدوه . فعرفته أولا: أن الخطاب موجه أولا إلى النبـــي ﷺ ثـــم إلـــى أمتـــه، فهـــل كـــان النبي ﷺ لم يبلغ اليقين فأمره بالعبادة حتى يصل إلـــى اليقـــين ليتـــرك بعـــد ذلـــك العبـــادة ؟هذا تصور لا يمكن أن يتصوره رجل مسلم.

ثانيا: أن هذه الآية لها نظير في سورة المدثر وتلوت الآيـــة فهـــل معناهـــا: وكنـــا نكـــذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين بالتكذيب؟ فسكت بعد ذلك.

أكملت بحمد الله وحسن عونه تفسير هذه الســـورة يـــوم الجمعـــة غـــرة شـــهر ذي الحجـــة 1432- بعد أن توقفت أياما تبعـــا لعمليـــة جراحيـــة أجريـــت علـــى عينـــي والحمـــد لله المان باللطف والشفاء. وأسأله سبحانه أن يعينني علـــى بلـــوغ التمـــام، وأن يجعـــل عملـــي خالصا لوجهه ينتفع به المؤمنون.

---

[1] فيض القدير ج5ص 120

[2] سورة المدثر آية 46/45

ســـورة النّحـــل

هذه هي السورة السّادسة عشرة في ترتيب المصحف. عرفت بهذا الاسم في المصاحف وفي كتب التفسير. وروي عن التابعي الجليل قتادة الدوسي أنها تسمى أيضا سورة النعم جمع نعمة، إشارة إلى النعم العديدة المذكورة فيها. وأخطأ بلاشير في قراءتها ظانا أن النون مفتوحة فترجمها على أنها النَعم.

و عند معظم المفسرين هي مكية، واختلف في بعض الآيات منها، فذهب بعضهم إلى أنها مدنية، وأن النبي ﷺ أمر كتبة الوحي أن يضعوها في مكانها من السورة. وسنتعرض لها عند تفسيرها إن شاء الله .نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة ألم السجدة فهي بذلك الثانية والسبعون حسب ترتيب تاريخ النزول.

بسم الله الرحمن الرحيم

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ (2) خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (3)

بيان معاني الألفاظ :

الاستعجال : طلب تعجيل حصول شيء.

الملائكة : هو جبريل عليه السلام.

الروح : الوحي.

من أمره : من مقدوراته التي يستأثر بها.

بيان المعنى الإجمالي :

تحقق بما لا يبقى معه مجال للشك أن ما قدره الله، من حلول النقمة بالكافرين ونصر المؤمنين، سيقع في المستقبل في الوقت الذي حدده. فاستوى في التحقق ما سيأتي بما قد نفذ فعلا. ولذا فلا تطلبوا سرعة حلول الوعيد بالنسبة للكفار أو الوعد بالنسبة للمؤمنين، لأن تقدير الله مؤسس على الحكمة التي لا تتبع ما يرقبه الناس أو يسألونه. تنزه سبحانه عما يشرك به الكفرة الجاحدون.

و من مظاهر الألوهية التي لا يشاركه فيهـا أحـد عنايتـه بخلقـه، فقـد أنـزل ملائكتـه محملين بالوحي لرسله الذين اختارهم، وهـو العلـيم، لينـذروا البشـر أن لا إلـه يسـتحق العبادة والتقرب إليه إلا الله. فعليهم أن يكوّنوا وقاية لأنفسهم من التعرض لنقمته.
كما أنه تفرد بخلق السموات والأرض التي تقوم بما هـي عليـه مـن نظـام، دلـيلا علـى أنها من خلق الله وحده، ولا يتصور لها خالق سواه. إذ قامـت فـي خلقهـا علـى الحكمـة والدقة لا على العبث والفوضى.

بيان المعنى العام :

1-أتى أمر الله فلا تستعجلوه.

استبطأ المشركون ما أوعدهم الله ورسوله من الكـوارث والبلايـا فـي الـدنيا، وحملهـم ذلك على التكذيب والاسـتهزاء. وكـذلك اسـتبطأ المسـلمون النصـر، وهـم يشـاهدون المشركين يتطاولون مكذبين، تتضاعف مقاومتهم ويضـيّقون علـيهم فـي حيـاتهم. فكـان المشركون يستعجلون النبي ﷺ أن يـأتيهم بمـا أوعـدهم، وكلمـا توسـع أمـد الإمهـال كانت مقاومتهم أشرس وأعنف، وكان التكذيب أشـد وأقـوى، ويجـد اسـتهزاؤهم مـددا من عدم مشاهدتهم لبطش الله. وكذلك حال المـؤمنين، ولعلهـم فـاتحوا النبـي ﷺ سـائلين أن يعجل الله لهم بالنصـر، ويكبـت أعـداءهم ويعلـي رايـة الإسـلام، دون أن يـدخلهم شك في صدق الرسالة. ولكنها الطبيعـة الإنسـانية العجلـى التـي ينتابهـا الضـجر مـن التأخير الذي لم يُكْشفْ عن حكمته وبقي سرا من أسرار القدر المحجوب .
ولذا ورد الرد على صياغة فاصلة جازمة، أتى أمـر الله. تحقـق إتيـان أمـر الله، كأنـه صدر في الوجود وتم ظهوره، فنفى الارتيـاب فيـه بـالتعبير عنـه بالفعـل الماضـي. إن ما قدره الله من نصر المؤمنين وتسـليط الجـزاء العـادل علـى الكـافرين أمـر ثابـت، ولشدة ثبوته عبر ب [أتى] عوض سـيأتي. وإذا كـان محققـا لاشـك فيـه، فـاعلموا أن خروجه من التقدير القديم إلى الوقوع المنجز، يتم وفق الحكمـة التـي أجـل بهـا سـبحانه حوادث الكون منذ الأزل. ولذا نُهوا جميعـا أن يسـتعجلوا عـذاب الله للكـافرين ونصـره للمؤمنين، لأن استعجالهم لا يقدم ولا يـؤخر. ولا تتبـع الإرادة الإلهيـة رغبـات النـاس. تعالى الله وهو العظيم، وتنزه وتقدس عـن أن يُشـرك بـه أحـد، أو أن يعبـد غيـره، أو أن يتقرب لأحد سواه.

2-ينزل الملائكة بالروح ...لا إله إلا أنا فاتقون.

أثبتت الآية السابقة تعاليه وتنزهـه عمـا يدعيـه المشـركون. ومـن مظـاهر الوحدانيـة وزيف الشركاء، أنه سبحانه هـو الـذي تتـابع عنايتـه بخلقـه فيحمـل ملائكتـه وحيـه،

وأطلق على ما يوحي به بالروح، لأنه بـالوحي تستقيم العقـول فتدرك الحـق وتسمو إلى خالقها متقربة منه بالعبـادة، فحيـاة العقـول تتحقـق بـالوحي، كمـا تتحقـق حيـاة الأجسام بحلول الروح فيها. ولو حرمت الوحي لكانت عـاجزة عـن قيـادة الإنسـان إلـى ما فيه نفعه وخيره، ويخسر تبعا لذلك حاضره ومصيره.

وهذا الوحي متضـمن لأمـور اختص الله بعلمهـا، يوحيهـا لأنبيائـه ليبلغوهـا للنـاس فتستقيم بذلك حياتهم الدنيوية والأخروية. إنه يختار للتبليـغ مـن لـه الكفـاءة للقيـام بهـذه المهمة النبيلة العظيمة، بما أودع في كل منهم مـن الخصـال الرفيعـة، التـي بهـا سـموا على بقية البشر، وتهيأوا لوعي ما يتلقونـه مـن الملـك. قـال تعـالى: **{الله أعلـم حيـث يجعل رسالاته}** [1].

إنه سبحانه يتخير من عباده من هو أهل لمهمـة إنـذار النـاس وتنبـيههم إلـى الحقيقـة الكبرى التي هي أصل الصـلاح فـي الكـون: أنـه لا إلـه إلا الله. هـو الحقيـق بـأن يخضع له كل إنسان، فيقوم عن رضا بجميع ما يـأمر بـه ويجتنـب مـا ينهـى عنـه. وأن تثبت صلته بربه حلولا مستمرا يهديه إلى مواصلة الخير والبعد عن الشر.

3-خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون.

تتابع الآيات لافتة الأنظار للمشاهد التي تقوم ناطقـة بـأن الله هـو المتفـرد بالألوهيـة، إذ هو وحده الخالق، ولا يدعي أحد غيره أنه يخلـق شـيئا. والمخلـوق لا يصـلح أن يكـون إلها. فعرضت:

أولا: إثبات قضية لا يستطيع أي عاقـل أن يجـادل فيهـا. هـي أن الله هـو الـذي خلـق السـماوات والأرض، وأن خلقـه لهـا كـان ملتبسـا بـالحق لا بالباطـل، وبالحكمـة لا بالعبث. إنه وإن اختلف إدراك البشر للأسـرار فـي ذلكـم الخلـق المحكـم العجيـب، إلا أنهم يشتركون في الإقـرار بالنظـام المحكـم لسـيرها وانضـباط أحوالهـا. ولا يسـتطيع أي كان أن يدعي أنه خلقها أو أوجدها، إذ كل ما سـوى الله ممـا هـو مـدرك للبشـر لا تبلغ قوته مستوى السماوات والأرض.

نعم إن الملاحدة يدعون أنها خلقت بالانفجـار الكـوني الـذي حـدث فـي لحظـة مـن الزمن البعيد. وهذه فرضية لم يقم عليها دليل علمـي مـن ناحيـة. ومـن ناحيـة أخـرى فإن هذا الانفجار المـدعى فوضـى لا نظـام. والمشـاهد أن كـل مكـوّن مـن مكونـات الكون يسير على نظام بالغ الدقة. غاية ما يطمـح إليـه العلـم أن يـدرك القـوانين التـي

---

[1] سورة الأنعام آية 124.

تحكم كل كوكب في تركيبه وفي علاقاته. ورغم التقدم العلمي الذي بلغته البشرية اليوم فإنها لم ترم بنظرها إلى ما وراء المجموعة الشمسية، من مجرات تقدر أبعادها بالسنوات الضوئية.

إن ما عشش في عقول الكفرة من فساد قادهم لاتخاذ آلهة من دون الله، لا يضر الله شيئا فإنه تعالى وتقدس عما يشركون، وهو ما ينادي به إحكام خلقه.

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

خصيم : كثير الخصام.

الأنعام : الإبل والبقر والغنم والمعز.

الدفء : ما يتدفأ به فيقي الإنسان من البرد.

تريحون : حين تعودون بها إلى المكان الذي خرجت منه للرعي صباحا.

تسرحون: تخرجون بها إلى المراعي.

الأثقال : جمع ثقل، وهو ما يثقل على الناس حمله بأنفسهم.

شق : المشقة.

السبيل :الأعمال المبلغة إلى الجزاء يوم القيامة.

قصد السبيل : السبيل المستقيمة.

جائر : مضلل حائد عن الاستقامة الموصلة إلى المقصود.

الذرء : الخلق والتكثير.

الرواسي : الثوابت من الجبال.

الميد : الاضطراب.

بيان المعنى الإجمالي :

حقيقة ثانية لفت إليها القرآن الأنظار: هي التحول المفاجئ في الإنسان المشرك، خلقه الله من نطفة من ماء مهين على أشد ما يكون من الضعف، فأحاطه بالطاقه

حتى اكتملت مواهبه العقلية، فإذا هو يصـــرف النعمـــة الكبـــرى (العقــل واللســـان) فـــي إنكار الخالق وإثبات شركاء له.

وصل القرآن تلك الظاهرة الغريبة بلفــت الأنظـــار إلـــى ظـــواهر أخـــرى تلهـــم الإنســـان إلى الاعتراف بالخالق المدبر للكـــون. مـــن ذلـــك أن الله خلـــق الأنعـــام: الإبـــل والبقـــر والغنم والمعز. يتخذ الإنسان من أصوافها وأوبارها وأشـــعارها مـــا ينســـج منـــه لباســـا أو سقفا للخيمة يمكنه من الدفء ويقيه مـــن البـــرد. ويأكـــل مـــن لحومهـــا مـــا يعـــوض مـــا أذهبه العمل من قواه. ومع ذلك هـــي تـــدخل علـــى نفســـه البهجـــة والإحســـاس بجمالهـــا حين تعود مـــن المراعـــي ممتلئـــة البطـــون حافلـــة الضـــروع. أو تخـــرج للســـرح فـــي الصباح نشيطة متداخلة. كمـــا ســـخرها لتســـاعد الإنســـان علـــى الضـــرب فـــي الأرض والتحول بمتاعه وتجارته، فتحمل الأثقال وتسير بها إلـــى المكـــان الـــذي يقصـــده، الـــذي ما كان له أن يبلغه بدون الإبل إلا بجهد عظيم ومشـــقة كبـــرى. أفـــلا يقـــوم ذلـــك دلـــيلا على أن ربكم الذي تولاكم بعنايته رؤوف بكم رحيم بضعفكم.

وعرض القرآن أيضا ما خلقـــه الله مـــن الخيـــل والبغـــال والحميـــر، لافتـــا النظـــر إلـــى منافعها التي مـــن أبرزهـــا اتخاذهـــا مطايـــا ليطـــوي بهـــا الراكـــب المســـافات القريبـــة والبعيدة، ويستعين بالخيل على الصيد والقنص. ومنـــة أخـــرى فيهـــا، أنـــه خلقهـــا علـــى صورة فيها جمال يمتع البصر. فهـــي زينـــة فـــي الأرض وزينـــة لمـــن يركبهـــا. ونبـــه القرآن على أن تلكم المذكورات وراءها خلـــق لا يوجـــد فـــي البيئـــة العربيـــة ولا يعرفـــه المخاطبون. وبعد هذا وذلك ما ســـيلهم الله إليـــه الإنســـان ليُكـــوِّن منـــه مراكـــب وآليـــات تنقله وتنقل أمتعته وتخترق به أجـــواء الســـماء. والله هـــو الملهـــم الـــذي خلـــق القـــوانين وخلق الطاقة التي تسير تلكم الأنـــواع المختلفـــة مـــن الطـــائرات والســـيارات والرافعـــات والصواريخ.

وفوق كل ذلك، فإن الله هو وحـــده الـــذي مكـــن الإنســـان بفضـــله وإرادتـــه، مـــن العقـــل الراشد إلى طريـــق الهـــدى وحصـــنه برســـالاته، فـــتم تبـــيُّن الطريـــق الســـالك للغايـــات المحصنة له من الضلال. وبجانـــب طريـــق الهـــدى طريـــق الضـــلالة المنحـــرف عـــن الصراط المستقيم. والإنسان مختار يسلك مـــا يشـــاء. ولـــو شـــاء الله أن يقصـــركم علـــى الهدى لفعل، ولكن هذا يرفع التكليف. والله أراد أن يكون الإنسان مكلفا مختارا.

ثم واصل القرآن لفت الأنظار إلى ظـــواهر تثبـــت تفـــرده بالألوهيـــة والقـــدرة والحكمـــة، لفت الأنظار إلى الماء النازل من السماء، في إنزالـــه حكمـــة وفـــي ربـــط حيـــاة الإنســـان به في شرابه وفي فلاحته، وفـــي تحويـــل الأرض الجـــرداء بـــه إلـــى مراعـــي، وفـــي

تمشيه في باطن الأرض حتى تحول مـــع عناصـــر الأرض إلـــى زروع وزيتـــون ونخـــل وأعناب، إلى ثمرات مما هو معروف عنـــد المخـــاطبين وممـــا هـــو منبـــث فـــي أقطـــار الأرض. كل ذلك يقوم دليلا واضـــحا لمـــن يتفكـــر فيمـــا تنقلـــه إليـــه حواســـه ليستلهم الصور فيدرك الحكمة التي وراءها.

كما لفت الأنظار إلى الليل والنهار والشـــمس والقمـــر كيـــف ســـخرها فكانـــت مســـاعدة لاستخلاف الإنسان في الكون. والنجوم على كثرتهـــا التـــي مـــلأت أرجـــاء الســـماء قـــدر لها مسارها أو تمركزها ثابتة في مكانها مستجيبة لقـــوانين خلقهـــا. وكـــل ذلـــك فيـــه أدلـــة على ارتباطها بخالقها للقوم الذين يُعملون عقولهم.

وما خلقهُ ونشرهُ في الأرض من الحيوان والنبات، يتحد أصله وتختلف ألوان ما تفرع منه، يتضمن أيضا أدلة منادية لقوم يتأملون في الظواهر ويعملون فيها عقولهم.

وســـخر كـــذلك البحـــر للإنســـان، فكـــان مخزنـــا للأســـماك يأكـــل الإنســـان لحومهـــا بخصائصها مـــن طـــراوة وجـــدة. ومـــع هـــذا يســـتخرج الإنســـان مـــن البحـــر اللؤلـــؤ والمرجان يتزين بهما. كما سخر البحر لتجري فيـــه الفلـــك للأســـفار وللتجـــارة، إنـــه إذا تأملتم في نعمة الله تلك يرجى أن تقودكم إلى الشكر.

ثم حول الأنظار لنظام في الأرض خفي، وهـــو أنـــه ســـبحانه ألقـــى فـــي الأرض جبـــالا راسية ثابتة تحفظ استقرارها وعدم اضطرابها. وأجـــرى فيهـــا الأنهـــار الناقلـــة للخصـــب إلى الأماكن التي لم تروها الأمطار. ويسّر في الأرض اتخـــاذ الطـــرق التـــي ينتقـــل فيهـــا الإنسان من مكان إلى آخر. وقـــدر أن يكـــون ســـطحها مختلـــف المظـــاهر لتكـــون تلكـــم الاختلافات علامات يهتدى بها لبلوغ المكان المقصود بـــدون اشـــتباه. كمـــا جعـــل النجـــوم علامات في الليل يهتدي بها السُّـــراة فـــي الوقـــت الـــذي لا تتبـــين فيـــه المعـــالم الهاديـــة وكذلك في البحر.

وختمت تلكم التنبيهات بسؤال ينكر على المشركين ضـــلالهم، هـــل يســـتوي الـــذي يخلـــق بالعاجز الذي لا يستطيع أن يخلق شيئا ؟

ثم أيقظ العقل والحس إلى ما يأتي من نعـــم الله وفضـــله. فأكـــد أن الإنســـان عـــاجز عـــن حصر نعمه، وما يتنبه له هو قليـــل بالنســـبة للـــنعم التـــي هـــو ذاهـــل عنهـــا، والتـــي لا يحصرها التعداد. ومن أفضل الـــنعم أن الله يغفـــر للمـــذنبين تجـــاوزاتهم، ويـــرحمهم فـــلا يعاجلهم بالعقوبة.

بيان المعنى العام :

4- خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين.

ثانيا: يتبع القرآن خلق السماوات والأرض، وما في خلقهما من دلالة على الوحدانية لله، إذ لا يستطيع أن يتصور لعظمهما أن يكون لهما خالق غيره، يتبع ذلك بلفت الأنظار لخلق الإنسان. ففي ومضة سريعة ينتقل القرآن بالناظرين من نقطة البداية في تكوينه إلى اكتمال قواه الباطنية، وقدراته على البيان والتأثير، اللذين يتفرد بهما عن غيره من بقية الكائنات الأرضية. ويبدو في هذه النقلة العجيبة البون الشاسع بين المبدأ والوضع الذي آل إليه.

فمبدأ الإنسان قضية لا خلاف فيها، هي النطفة: البييضة الملقحة العالقة بجدار الرّحم. والتي هي الخلية الأولى التي لا ترى إلا بالمجهر. وسواء أنظرت إلى حجمها أو وزنها أو صلابتها، فإنك تجد شيئا حيا صغيرا جدّا. أودع الله في هذا الكائن التافه برنامجا كاملا ودقيقا لتطوره، وأحاطه بألطافه لينمو ويكتمل حتى يظهر ما كان كامنا فيه. وإذا هو إنسان تنوعت مداركه، ونما عقله، ويستطيع أن يُبلّغ ما يريد أن يبلغه بلسانه وأن يؤثر في مخاطبيه، كما يتلقى منهم رسائلهم. ولم يقصره خالقه على قول الحق والتزام الصدق، بل ترك له الحرية في تصريف قواه ومداركه وقوته البيانية في الخير أو في الشر. والعجب من الإنسان كيف ينحرف فيستعمل أدواته تلك في تقرير الباطل ويخاصم فيه، ويكد عقله وفصاحته وبيانه ليقلب الحقائق ويدافع عن الشرك، ويطمس الفضيلة. كأن هذا الانقلاب أمر مفاجئ إذا جمعت بين مبدئه وبين وضعه الحالي الزائغ.

5-والأنعام خلقها....ومنها تأكلون.

ثالثا :خلق الأنعام: الإبل والبقر والغنم والمعز. وهي تجتمع مع الإنسان في كونهما من جنس واحد، هو جنس الحيوان. وتبرز النعمة في القصد من خلقها، الذي هو عون الإنسان على الحياة(لكم) فعدد من ذلك.

أ-الدفء، الذي يحمي الطاقة الحرارية في الجسم من النزول بلذع البرد، وذلك بما يتخذه من أصوافها وأوبارها وأشعارها من نسيج للكساء وسقف للخيام.

ب – مصالح متنوعة عبر عنها بالمنافع كالألبان، والسماد لتخصيب الأرض.

ج – الأكل من لحومها فتعوض الإنسان عما احترق من الوحدات الحرارية.

6-ولكم فيها جمال ....و حين تسرحون.

رابعا: يغذي الإنسان ذوقه ومشاعره بالجوانب الجمالية في الكون، كما يغذي جسمه بالوحدات الحرارية التي يجدها في أنواع الأطعمة. والأنعام يجد فيها صاحبها عندما تعود من مراعيها تتهادى وقد امتلأت بطونها بما رعته من النبات، وحفلت

ضروعها باللبن، ما يسر نظره ويملأ نفسه بالبهجة. وكـذلك فـي تـزاحم القطعـان مـن الأنعام، وهي منصرفة إلى المراعي في خفـة، منظـر لا يخلـو مـن جمـال، وإن كـان عودتها أتم في ذلك. ولذلك قدم القرآن الرواح على السرح.

وفي الامتنان بالناحية الجمالية ما يهدي إلى أن الـدين الإسـلامي ديـن لا يقمـع دواعـي الفطرة السليمة، بل يعززها. فعناية المسلم بالنواحي الجماليـة التـي تهـذب ذوقـه وتلبـي الأحاسيس الرقيقة فيه منسجم مع عمق التدين، سـواء أكـان ذلـك فـي مأكلـه أو ملبسـه أو مسكنه، أو في تعبيره وبيانه.

7- وتحمل أثقالكم إلى ...لرؤوف رحيم.

خامسا :أذن للإنسان أن يمشي في مناكب الأرض وهُـدي إلـى التحـرك فـي أرجائهـا. ولما كان ما يملكه وما يتصرف فيه يتجـاوز نقلـه طاقاتـه البدنيـة، سـخر لـه الإبـل تحمل متاعه وتجارته، وتبلغه البلـد الـذي يريـده، وإن كانـت المسـافة بعيـدة لا يبلـغ الإنسان قصده إليها إلا بمشقة وتعب شديدين.

وإنك لتلحظ فضل تسخير الله تلكـم الحيوانـات للإنسـان، فتـرى الطفـل يأخـذ بخطـام بعيره ويركبه ويسوقه إلى حيث شاء. أفلا تقوم هذه النعم مناديـة بمـا اتصـف بـه ربنـا من رأفة بعباده، يسـعدهم بمـا يُهـوّنُ علـيهم المشـاق، وبمـا يعيـنهم علـى تحقيـق أغراضهم الصالحة في الحياة. وذلك من رحمته التي وسعت كل شيء.

8- والخيل والبغال والحمير ..و يخلق ما لا تعلمون.

سادسا: خلق سبحانه الخيل والبغال والحميـر وسـخرها للإنسـان. وامـتن علـى البشـر بأن مكنهم من ركوبها لقطع المسافات، والطـرد والقـنص، والـدفاع والغـزو. كمـا أنهـا زينة تقر عين مالكها وراكبها والناظر إليها. وما يزال النـاس إلـى اليـوم يعنـون بهـا وخاصة بالخيول، ويبذلون في الجيد منها أثمانـا عاليـة ربمـا تفـوق أفضـل السـيارات ثقافة. وتختص البغال مع جمالها وصلابتها بالقدرة علـى تسـلق الجبـال، وهـي أفضـل ما يستعين به سكان المناطق الوعرة. والحمير المذكور فـي الأخـر منزلتهـا فـي الواقـع دونهما، ولكنها أوسـع انتفاعـا إذ يمكـن للفقيـر أن يملكهـا. كمـا أن سـيرها لا يتعـب الراكب فيتروح عليهـا فـي الأسـفار البعيـدة. ولمـا قصـرت الآيـة الامتنـان علـى الركوب والزينة فإنه قد أخذ منه بعض الفقهاء أنه لـو كانـت الخيـول والبغـال والحميـر يجوز أكل لحومها لبينته الآية. وحاصل الفقه في أكل لحومها:

أما الخيل فقد حرم مالك وأبـو حنيفـة وأصـحابهما وكثيـر مـن الفقهـاء أكـل لحومهـا اعتمادا على ما ذكر قريبا. وذهب الجمهور مـن الفقهـاء والمحـدثين إلـى جـواز أكـل

لحومها. وهو الأرجح في النظر. لأن الاقتصار على بعض المنافع في مقام الامتنان لا يفيد قصر حلية الانتفاع على ما ذكر، فإن البقر يستعان بها في الحرث وكذلك الإبل، وتركب أيضا ولم يذكر ذلك في الآية. ولا قائل بحرمة ذلك لعدم ذكره في معرض الامتنان.

ب:وأما البغال فلما كانت نوعا موكبا من نطفة ذكر الحمير والفرس، فمن حرم أكل لحومهما حرم أكل لحوم البغال، وأما من أحل أكل لحوم الخيل فقد غلب في البغال صلتها بالحمار فحرم أكلها أيضا، إلا ما روي عن عطاء أنه يجيز أكل لحوم البغال، وهو قول تفرد به.

ج – أما الحمر فالقول بتحريم أكل لحومها يقرب من الإجماع.

و تختم الآية بتثبيت قاعدة، هي أن علم الإنسان قاصر حتى فيما سبيله المشاهدة. إذ تثبت الآية أن الله يخلق في الحال والمستقبل ما لا يعلمه المخاطبون بالآية عند نزولها. فهو سبحانه قد خلق من الحيوانات التي يستعين بها الإنسان وتيسر له حياته في بيئته ما لا يعلمه العرب، كالحيوانات التي تجر مراكب البشر في القطب المتجمد، وكالفيلة التي تعتمد في كثير من حاجات الإنسان في بعض المناطق، والحيوانات التي ظهرت في القارة الأميركية.

كما تفيد الآية أن الله سيلهم البشر اكتشاف قوانين الطاقة التي يسيرون بها الطائرات ورافعات الأثقال، والسيارات بمختلف أحجامها وأشكالها، والسفن العملاقة، والصواريخ العابرة للفضاء، وغير ذلك، مما عوض الطاقة الحيوانية وتقدمت به الحضارة أشواطا. كما يشمل ما هو في علم الغيب مما هو مفتوح للبشر معرفته.

9 - وعلى الله قصد السبيل ....لهداكم أجمعين.

الإنسان ممكن في الدنيا من اتباع طريق الخير أو طريق الشر. وتعهد الله سبحانه تفضلا منه ورحمة ببيان طريق الهدى بأمرين:

أولهما: ما رزقه الإنسان من عقل يميز بين الصالح والطالح والحسن والقبيح، والخير والشر، ويتصور العواقب التي ينتهي إليها إذا هو سلك سبيل الهدى، والعاقبة السيئة إذا هو انحرف وغلّب النفع الضئيل القريب على الخير الكثير المضمون في النهاية.

ثانيهما: ما تفضل به سبحانه من إرسال رسله لتقويم مسار الإنسان وللكشف عما يمكن أن تكون الشهوات والعواطف، والعادات السيئة، قد حجبته عن العقل المجرد.

إن قوله تعالى: **ومنها جائر**، أي سبيل غير موصل للمقصود، إلى الخير، الضامن لسلامة الإنسان في الدنيا والآخرة. وضلال ذلكم الطريق هو مسبب عن اختيار الإنسان وترجيحه طريق الضلالة على طريق الهدى.

وتختم الآية بالتأكيد على أن الله خلق الإنسان خلقا جعله به حرا مختارا. وهذه إرادة الله. ولو شاء سبحانه أن يخلق الإنسان مطبوعا على الخير عاجزا عن الشر لخلقه كذلك، ولكنه لا يكون إنسانا ولا مكلفا ولا مستخلفا في الأرض.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

تسيمون : تطلقونها للرعي.

آية : دليل على أن الله هو الخلاق وحده.

ذرأ: أوجد وخلق بواسطة التناسل.

البحر : الجزء الواسع من الأرض المملوء ماء حلوا أو مالحا.

الطري : اللين الغض.

الحلية : ما يتزين به

المخر : الشق.

الرسو: الثبات بالمكان.

السبل : جمع سبيل وهو الطريق الذي يسلكه المسافرون.

علامات : أمارات يتخذها الإنسان فتحميه من الضلال.

بيان المعنى الإجمالي :

الله هو وحده الذي أنزل الماء مـن السـماء وفـي ذلـك دليـل علـى تفـرده بالألوهيـة والخلق سبحانه. ثم في تتبع ما يترتب على هذا الماء دلائـل أخـرى لمـن يتأمـل . يـدخل الماء في تركيـب الإنسـان وحاجتـه ليرتـوي منـه. حاجتـه إليـه أكيـدة، يسـتطيع أن يستغني عن الطعام أيامـا ولكنـه لا يصـبر علـى المـاء، ويسـري المـاء فـي الأرض فتنبت به الأشجار والكـلأ فترعاهـا الأنعـام، وتـدخل لحومهـا وألبانهـا فـي تركيـب الإنسان. وخلق في الإنسان القدرة على معرفة قـوانين الفلاحـة، والمـاء عنصـر أسـاس في الزراعة وفي نمـو الأشـجار المثمـرة مـن الزيتـون والنخيـل والأعنـاب، ومـا لا يحصى من الأنواع المثمرة مما يتناسب مع كل إقلـيم. كـل ذلـك يشـرح صـدور الـذين ينفذون بتفكيرهم إلى معرفة تلكم القوانين في قـوى إيقـانهم بـأن الله وحـده هـو الخـلاق العظيم. كما سخر سبحانه الليـل والنهـار لـيلائم الوضـع البشـري، وسـخر والشـمس والقمر تسخيرا للإنسان لا يعوقه عن القيام بـدوره فـي الكـون. وكـذلك النجـوم التـي ملأت قبة السماء، أودع فيها ما جعلها تسبح فـي الكـون وتسـير فـي مسـاراتها، وفيهـا دلائل على الحكمة الإلهية وعلى تفرده سبحانه بالتأثير .

بيان المعنى العام :

10-هو الذي أنزل من السماء ...فيه تسيمون.

سابعا: المنة الكبرى ذات الآثار المتداخلة العجيبة.

بين أولا: أن الإنسان مرتبط بالماء النازل من السماء بتقدير إلهي وفضل منه، نتبين ذلك من قوله مقدما (لكم) إظهارا لشدة الارتباط بين البشر وهذا الماء النازل من السماء.

وثانيا: أن من هذا المـاء شـرابه، يـدخل المـاء فـي كيانـه ليعـدل مكونـات الجسـم، ويصفيه من كثير من الفضلات.

وثالثا: أنه يتمشى في باطن الأرض فيخـرج مـن اختلاطـه بعناصـر الأرض الأشـجار بما تحمله من أوراق، والمراعي التي يطلقـون فيهـا أنعـامهم فتقتـات مـن الكـلأ، كمـا تتناول ما تصل إليه مـن أوراق الشـجر. وإذا بالمـاء النـازل مـن السـماء يتضـاعف خيره فتنمو به الأنعام حتى يصبح قوتا للناس في اللحوم والألبان.

11-ينبت لكم ....لقوم يتفكرون.

ثم بين رابعا من عجائب القدرة، كيف أن الماء النـازل مـن السـماء يـرتبط بمـا ألهـم إليـه الإنسـان مـن فـن فلاحـة الأرض، فينبـت منـه الـزروع والزيتـون والنخيـل

والأعناب . إن الفارق بين هذه الآية والتي سبقتها أن الآية السابقة تولد فيها عن الماء مراعي وأشجارا لا مدخل لمجهود الإنسان فيها، وهذه الآية تدل على ما يبذل فيه الإنسان مجهودا، فيحرث الأرض، ويلقي بالزريعة في الأرض على طريقة مخصوصة، وكذلك نبتة الزيتون وفسيل النخل، وغصن العنب؛ فهذه الثلاثة عمرت بها المزارع في الجزيرة العربية وما حولها من أرض الشام والعراق. والإنسان يحرث ويزرع ويغرس ويتابعها بالرعاية لتنمو وتثمر، وكلها مرتبطة بالماء النازل من السماء. ووراء ذلك أنواع عديدة تبعا لما في كل قطر من أقطار الأرض من خصائص في التربة والمناخ، تمنح الإنسان صنوفا من الثمرات.

عرض القرآن ما عرضه ولفت الأنظار إليه ليجد فيه من كان له عقل يتأمل ولا يقنع بالظواهر، يجد فيما ترتب على نزول الماء من السماء دليلا على أن الله هو المتفرد بالخلق. ذلك أنه ليس للإنسان أي دخل لا في إنزال الماء من السماء، ولا في الآثار المترتبة عنه، حتى ما يقوم به من مجهود في الزراعة أو الغراسة لا نجْحَ يتبعه إلا بفضل من الله.

12-وسخر لكم الليل والنهار...لقوم يعقلون.

ثامنا : بيّن من عجائب القدرة كيف طوّع سبحانه الليل والنهار والشمس والقمر للإنسان. والذي يظهر أن تسخير الليل للإنسان يبرز تحققه في الملاءمة بين الوضع البشري وبين تعاقب الليل النهار، فلو استمر الليل على الكرة الأرضية أو النهار، لكانت الحياة صعبة جدا إن لم نقل مستحيلة. فتواصل الليل يصحبه نزول الحرارة، المؤثر سلبا على حياة الإنسان والحيوان والنبات وفقد الإنسان السكون الليلي الذي يريحه من عناء العمل بالنهار. وكذلك العكس، لو استمر النهار لارتفعت الحرارة إلى درجة تفسد الحياة. وكذلك الشمس في جاذبيتها للأرض وما تبعثه في الكون من الضوء والحرارة بمقدار تسير معه حياة الإنسان بصفة ملائمة. ومثلها القمر وتأثيره في المد والجزر، وجاذبيته للأرض بما يمكنها من الاستقرار في مدارها؛ كل ذلك تجده مراعى فيه وضع الإنسان والخواص التي تيسر عليها الحياة.

و من الإعجاز القرآني أنه لما تعرض للنجوم فصلها عن بقية الظواهر، ذلك أنها كثيرة كثرة لا يعْلَمُ على وجه الدقة خصائصها إلا خالقها. وتحكُمها قوانين صاحبتها عند التكوين المعبر عنه بالأمر. ثم إنه حرض العقل الإنساني لينفذ إلى تلكم العوالم، وأشار إلى أنه واجد في اهتمامه ذاكم أدلة متنوعة على تفرد الله بالألوهية والتأثير. فهي ليست محجوبة لا تتكشف للقدرات العقلية للبشر إذا هم ساروا حسب مناهج البحث المولّدة.

و يلاحظ أن الآية السابقة (11) ختمت بـأن فـي ذلـك آيـة، وختمـت هـذه الآيـة (12) بأن في ذلك لآيات. وذلك لأن ما تم تعداده في الآيـة الأولـى منبثـق مـن شـيء واحـد هو الماء ظهر بمظاهر متعددة فعبر عنه بآية، أمـا الآيـة الأخيـرة فهـي ظـواهر تقـوم كل واحدة منها بنفسها وتستقل بدلالتها.

13 - وما ذرأ لكم ...لقوم يذكرون.

تاسعا: لفتت هذه الآية الأنظار إلى ظاهرة الألوان المختلفـة فـي الكـون، نجـد اختلافهـا في النوع الواحد وما في كل لـون مـن جمـال. اعتبـر ذلـك فـي الخيـل والعصـافير والطيور، فقد اختلفت الألوان مع أنها وجـدت ونمـت فـي بيئـة واحـدة وغـذيت بمـاء واحد واتحد الأبوان. وبتفسير ذلك بأن الجينوم ظهـر فـي الحصـان الأول فكـان أشـقر وظهر جينوم آخر في أخيه من قبله أو مـن بعـده فكـان أدهـم أو أبـيض. مـن الـذي جعل الجينوم الخاص المحمول فـي الخريطـة يكـون فـاعلا أو معطـلا؟ إنهـا قضـايا تدعو إلى التأمل مع استحضار مختلف الظواهر لتبين القدرة المؤثرة بالفعل.

14 -وهو الذي سخر البحر ...ولعلكم تشكرون.

البحر قوة عظيمة، عندما يهيج يهلك كل مـا يـأتي عليـه. نقلـت لنـا وسـائل الإعـلام المرئية صورة من زحف البحر على مناطق من شـرق آسـيا وشـاهدنا الكـوارث التـي تبعت تدفق مياهه. وابتلع قاعـه مراكـب كثيـرة عبـر التـاريخ. والغواصـون المهـرة يتولون في فترات إخراج بقايا السفن الغارقـة، وفـي ذلـك مـا يحسـس بنعمـة تسـخير البحر للبشر.

عاشرا : إن هذه القوة العظيمة طوّعها الله للإنسـان. هـداه إلـى صـناعة السـفن التـي ما تزال تتطور حتى أصـبحت أفضـل وسـيلة لنقـل السـلع، ورواج التجـارات، ومـا يترتب على ذلك من توفر فرص العمل، وتبادل الخبـرات بـين العائلـة البشـرية ونمـو الثروات. وينعم الإنسان بالسـباحة فـي ميـاه البحـر الـذي يحتضـنه، ويلطـف شـواطئ الحر. ومن مياهه اهتدى إلى الخطـوات الأولـى لتحويلـه إلـى مـاء صـالح للشـراب وري الحيوانات والأشجار والنبات. كما تقوم مياهه علـى تمكـين أجهـزة مـن المصـانع للعمل. فمنافع البحر بعد تسخيره لا تحد. ولـو جعلـه هـادرا مضـطربا لتعطـل معظـم الكرة الأرضية وخرج عن خلافة الإنسان.

و من تسخيره سبحانه البحر أن جعله بيئة صالحة لحيـاة الأسـماك التـي تعتبـر مقومـا غذائيا جيدا للإنسان، بما يحتوي عليه تركيبها مـن بـروتين وكلسـيوم وأمـلاح عديـدة. وعدد القران من المنة أنه قدّر أن تكـون لحـوم الأسـماك غضـة علـى خـلاف لحـوم

الأنعام، والتعبير في المنة بالطري فيه إدماج مرشد إلى أكلها جديدة، مما ينبني أن خزنها يقتضي أخذ احتياطات خاصة.

ومنة أخرى أن الله كوّن في البحر أنواعا من الأصداف يستخرج منها اللؤلؤ الذي تفنن الإنسان في نظمه فكان حليا يضيف إلى وسامة الإنسان جاذبية، كما يستخرج من البحر المرجان الذي كان مجالا للنحت ثم تكوين حلي منه أيضا. وأفهم من إسناد اللباس في الحلية إلى ضمير جمع المذكر (تلبسونها) مع أن الغالب في لباس الحلي هو للنساء، إشارة إلى أنه غير محرم على الرجال التزين بالحلي من غير الذهب أو الفضة، وأن لبس خاتم للرجال من فضة لا من ذهب به فص من لؤلؤ، أو من مرجان، حلال.

ومن نعم تسخير البحر، أن هدى الإنسان لقوانين الطفو على سطح الماء فاتخذ الفلك التي تحمل الأثقال وتشق البحر رابطة بين البلدان، ميسرة لنقل خيرات الأرض، وكل ضروب السلع من مكان إلى آخر. والتعبير بابتغاء الفضل كثر إطلاقه في القرآن على التجارة .كما أشرنا إليه آنفا.

وإذ افتتح نعمة إجراء الفلك في البحر، بأنها نعمة ظاهرة يدركها كل راءٍ (وترى الفلك فيه مواخر) ناسب أن تختم بأن هذه المشاهدة تقتضي أن يتوجه الإنسان بالشكر لربه على ما يسر وأعان، وفي ذلك تعريض بالمشركين الذين لغلظ حسهم وظلام قلوبهم لم تفدهم حتى الأدلة الواضحة الظاهرة.

15←16، وألقى في الأرض ...هم يهتدون.

ظواهر أربعة جمعها القرآن على أن القدرة الحكيمة هي التي ألقتها على سطح الأرض، فكأنها ظواهر حدثت بعد التكون الأول لها، كما تشير إليه كلمة (ألقى) – الجبال –الأنهار – السبل – العلامات – فلننظر كل ظاهرة من هذه الظواهر: عبّرت الآية عن الجبال بالرواسي، وكشفت الآية عن الحكمة في ذلك: أن دور الجبال فوق سطح الأرض، وتوزيعها على النحو التي هي عليه حقق توازنا في الكرة الأرضية يحميها من الاضطراب. وهو ما مكن الإنسان من الاستقرار، الشرط الأساسي للعمران، والممكن أيضامن إقامة المشروعات السكنية والانتاجية.

ا) الأنهار: تتجمع فيها المياه وتنساب على الجنبات فتسقي أراضي شاسعة ما نزل عليها المطر كوضع النيل في مصر، وتمخرها السفن كالبحر، وتتوالد فيها الأسماك، وغير ذلك من المنن.

2) السبل: لا يستغني الإنسان عن التنقل في أرض الله، كما لا تتم الحضارة إلا بالضرب في الأرض. ويسر الله الأرض فبسطها بشكل يمكن للإنسان أن ينتقل بين أرجائها في يسر. وأتبعت الأنهار والسبل بقوله تعالى: لعلكم تهتدون ، أي رجاء أن تحصل لكم الهداية المادية التي تبلغكم الغايات التي تقصدونها. كما أنها وسائل تصلون بالتأمل فيها إلى الاهتداء إلى إبداع الصنع الإلهي في الكون فتتمكن الهداية الإيمانية منكم.

3) العلامات. لو كانت الأرض صفحة واحدة لا اختلاف فيها ولا خصائص لأجزائها، لتاه الإنسان في فضائها الواسع البعيد الأرجاء، ولكن حكمة الله جعل لمناطقها خصائص بها تتميز تعرّف الإنسان بالمنطقة التي هو فيها. كما ألهمه أن يقيم معالم يعرف بها الطريق السالك، ولا يختلط عليه سبيل العودة. وهذه نعم مثبتة أن كل دقيقة في الكون آية دالة على الحكمة التامة، وإن كان كثير من الناس قد يغفلون عنها.

4) وخص بعض النجوم بخصائص يهتدي بها البشر في سراهم، في الوقت الذي يطبق فيه ظلام الليل على المعالم، كما يهتدي بها المسافرون في البحار ولا معالم. كما ينتفع من ظهور بعضها تغير الفصول، فيعتمدون على ذلك في الزراعة. وبالجملة فإن ما عمرت به السماء من نجوم يكون هداية لفريق من الناس، هم جزء من الجماعة الإنسانية وفضل نشاطهم تنتفع به المجموعة البشرية.

17 - 18، أفمن يخلق .... لغفور رحيم.

تتابع في هذا المقطع لفت الأنظار إلى النعم التي هي من فضل الله ولطفه بالإنسان. وحرك العقول والمدارك لاستحضارها وللانتقال منها إلى مبدعها، والتركيز على أنه لا يستطيع أن يدعي أحد أن له شركا في إيصالها للبشرية، ولا في تنظيمها التنظيم التي هي عليه.

فاستفهم القرآن استفهاما ينكر فيه على المشركين ضلالهم، إذ ادعوا أن لله شركاء، مما ينبئ عن غبائهم في تسوية من هو عاجز عن خلق أي شيء مما ذكرته الآيات وأقامته دليلا على تفرد الله بالتأثير، تسويته بمن تفرد بالخلق والتقدير والحكمة في خلقه. ثم يقرّعهم على اختلال تفكيرهم ويسجل عليهم بأداة التحضيض أنهم لا يتفكرون فيما هو مشاهد أمامهم .

تفرد الله سبحانه بالخلق بمعناه الحقيقي الكامل الخلق الذي قدر خصائصه وآثاره. هو الخلق الذي لا يتوقف على وجود مادة سابقة، إذ هو منبثق عن العلم الدقيق الشامل لجميع الجزئيات الظاهرة والكامنة، و عن القدرة النافذة، وعن الإرادة الحرة. يستجيب فيه المخلوق لإرادة الخالق وحكمته. فيبرز للوجود حسب التقدير السابق ولا أثر للمصادفة.

وليس لأحد سواه أي أثر في الخلق بهذا المفهوم الدقيق لا في حال إيجاده، ولا لآثاره بعد إنجازه ولا لعلاقاته بعد إنجازه في الحاضر والمستقبل القريب والبعيد.

فدعوى بعض الواهمين أن لهم قدرات علـــى الخلـــق دعـــوى كاذبـــة، وزيـــف بعيـــد كـــل البعد عن الحقيقة.

ردد بعض خريجي "الصربون" الفرنسي مُنَـــوِّهين "بـــالفكر الخـــلاق" ولـــيس للفكـــر مهمـــا توقد وصفا أن يخلق شيئا. وغاية ما يصـــل إليـــه الانكشـــاف المطـــابق للحقيقـــة. فليتأمـــل البشر حامدين ما منحهم الله من قوى التفكيـــر ليـــدركوا صـــدق هـــذه الحقيقـــة: الخلـــق لله وحده. أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون.

ويُخْتَمُ العرض بقاعدة جامعـــة عامـــة، تحـــرك العقـــل ليتأمـــل، والمشـــاعر لتنطلـــق فـــي الاتصال بالكون، بما يصحبه من تتبع لـــنعم الله علـــى الإنســـان. ويفجـــأ الـــنص القرآنـــي بتلكم الصورة البديعة: أن الكثرة الكاثرة من الـــنعم التـــي لـــم تتـــرك جانبـــا مـــن جوانـــب الوجود، ولا حظا من حظوظ البشر، ولا تنظيما وألطافا مقترنـــة فـــي ســـير الحيـــاة، هـــي كثيرة كثرة يتجاوز حصرها وتعدادها قدرات الطاقـــات البشـــرية. وفـــوق ذلـــك كلـــه، إن الإنسان لضعفه قد يقع في المعصية ويســـتعين بفضـــل الله عليـــه علـــى ارتكـــاب الإثـــم، ويذهل عما توجبه النعم من الشكر. ويظهر القرآن نعمـــة هـــي أجـــل الـــنعم ويـــذكر بهـــا: إن الله لغفور رحيم، يمحو ذنوبهم ويسعفهم برحمته التـــي وســـعت كـــل شـــيء. اللهـــم لا تحرمنا مغفرتك وأدخلنا ربنا في رحمتك.

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

أيان : اسم استفهام، مركب من (أي) و(آن) بمعنى أي وقت.

البعث : الإرسال، والمقصود به في اصطلاح القرآن إحضار الناس للحساب.

منكرة :جاحدة.

لا جرم : لابد، حقا.

بيان المعنى الإجمالي :

أفضت الآيات المعددة للنعم إلى إثبات تفرد الله بـــالخلق، وأنـــه غفـــور رحـــيم. وواصـــل القرآن مفصلا بعض ما يوضح العقيـــدة الحـــق، التـــي منهـــا إثبـــات أن الله هـــو المتفـــرد بعلم الظواهر والخفايا. وعلمه الكامل يتبعـــه حتمـــا أن يكـــون هـــو وحـــده الخـــالق، وأن آلهتهم عاجزة عن خلق أي شـــيء ولوكـــان تافهـــا، بـــل هـــي مخلوقـــة فالحجـــارة التـــي نحتت منها الأصنام مخلوقة لله. وليس لها روح ولا حركة فهـــي ميتـــة لا تعلـــم مـــا هـــو

محيط بها، وكذلك عبدتها لا يشعرون بالوقت الـذي سـيقومون فيـه مـن قبـورهم إلـى البعث.

ثم صرح القرآن بالحقيقـة التـي تميـز المسـلمين، هـي اعتقـادهم أن إلههـم واحـد لا شريك له. وأن الكفرة الذين من أخـص صـفاتهم إنكـار البعـث، الـذي يحملهـم علـى مراقبة سلوكهم. قد استحوذ الإنكار والعنـاد علـى قلـوبهم فلـم يبـق فيهـا منفـذ لنـور الهداية، وجرهم ذلك للاستكبار. وحقـا لا شـك فيـه أن الله يعلـم سـرهم كعلمـه بمـا يظهرونه، مما يشير إلى أنه سيحاسبهم ويجازيهم عـن كفـرهم وعـن مـؤامراتهم، وعـن خبيث فعالهم، جزاء سيلحقهم وهـم محرومـون مـن رحمـة الله لأنـه سـبحانه يمقـت المستكبرين ولا يحبهم.

بيان المعنى العام :

19-والله يعلم ما تسرون وما تعلنون.

امتزج في هذه الآيـة بيـان حقيقـة مفادهـا: أن علـم الله علـم ذاتـي حاصـل بـدون أسباب، على معنى أن علمه بالبواطن الخفية ممـا يُسـرُّه الإنسـان فـي نفسـه ويجـري في باطنه ولا يعبر عنه بلسانه ولا بفعله، هو كعلمـه بمـا تصـدر اثـاره عـن صـاحبه بالكلام أو الفعل فتشاهد في الخارج . كما هـو تهديـد للمشـركين أن مـا يكتمونـه هـو كما يعلنونه سـينالون جـزاءه. وبـذلك يكـون كـل مـا أعـدوه مـن مكـر بالمسـلمين سيعاقبون عليه وإن لم يتيسر لهم تنفيذه.

20- والذين تدعون...وهم يخلقون.

صرحت الآية بعجز الأصنام التي يعبدونها، ويتقربون إليهـا عـن الخلـق، يسـتوي فـي ذلك التافه والعظيم من الكائنات. ثم أكد عجز تلكم الأصـنام بـإبراز الـدليل علـى ذلـك. إنهم مخلوقون من الحجارة التي نحتوا منها. وما كـان مخلوقـا لا يُقبـل عقـلا أن يكـون خالقا، لما في ذلك من قلب الحقائق. ولإذلالهـم لـم يـذكر الفاعـل الـذي خلقهـم، وبقـي معلوما من المقام.

21-22: أموات غير أحياء...وهم مستكبرون.

إن الأصنام جامدة لا تتحرك، فهي ميتة لا روح لها ولا شعور ولا إدراك، وأكدت الآية هذه الحقيقة لشدة غفلة المشركين عنها، فأضافت إلى وصف الموت أنهم غير أحياء.

ثم إن عبدتها لا يعلمون متى يبعثون من قبورهم ليلقوا جـزاءهم. وفـي هـذا إشـارة إلـى أن البعث آت لا ريب فيه. وعدم شعورهم بتـاريخ قيـام السـاعة ، وأنهـا تبغـتهم تهديـد لهم بما سيلقونه بعد البعث . فاستوى جهل المشـركين بـين الحاضـر الـذي أثبتـوا فيـه لله شركاء، وبين المستقبل الموعود به فنفـوه. ولا يقـال إن المـؤمنين أيضـا لا يعلمـون متى تقوم الساعة، وذلك للدقة في التعبير الذي تـم عليـه صـياغة الآيـة، قـال تعـالى : **وما يشعرون** فأمر الساعة لم يدخل في شعورهم أصـلا لا فـي حقيقتـه ولا فـي زمنـه،

أما المؤمنون فكما وصـــفهم القــرآن: والــذين آمنــوا مشــفقون منهــا ويعلمــون أنهــا الحق[1] فهي حاضرة في مشاعرهم يتفكرون فيها فتقوى خشيتهم وتصلح أعمالهم.

22 - إلهكم إله واحد...وهم مستكبرون.

صرحت الآية بما مهدت لــه الآيــات الســابقة التــي هــدمت مــا يقــوم عليــه الشــرك. والحقيقة التي تستخلص مما تقدم: أن إلهكم واحد لا شــريك لــه. فــأنتم أصــحاب العقيــدة الحق. وتصوركم يقوم على أساس الوحدانية المعنــى النفــيس الصــادق الــذي ضــل فيــه كثير من الأمم. قال تعالى : وما يؤمن أكثرهم بــالله إلا وهــم مشــركون[2] وفــي مقابلــة المؤمنين، الذين شرفهم الله بالخطــاب (إلهكــم)، الكفــرة الــذين ذكــرتهم الآيــة بــأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة، تعمّق في قلوبهم الكفر حتــى أصــبحت تنكــر هــذا الــدين، وتمكّــن الجحد لحقائقه فيها فتحول إلى عنــاد ورفــض وعــدم نظــر فــي محتوياتــه، وأصــيبوا بالداء الخبيث النفسي، داء الاعتداد بما عندهم والترفع عن الحق .

23 -لا جرم أن الله يعلم ...لا يحب المستكبرين .

وإذ عرّت الآية 22 التركيب النفسي الفاســد للكفــرة، أفــادت هــذه الآيــة أنــه لا جــرم. وهذه الصيغة تفيد التحقق لما يرد بعدها تحققــا لا يدخلــه الشــك. أن الله يعلــم مــا يتبــع كفرهم من الضلالات التــي يســرونها ولا يعلنونهــا، ومــن المنــاكر والأفعــال القبيحــة التي يبدونها ويظهرونها . وفي ذلك وعيد شديد مقــرون بالعــدل، إنــه إذا كــان الله يعلــم ما يبطنونه وما يهيئونه في السر لتوقيف مد الــدعوة الإســلامية، ولا يخفــى عليــه شــيء من المؤامرات التي يعقدونها فــي الخفــاء للمكــر برســول الله صــلى الله عليــه وســلم وبالمؤمنين، كعلمه تعالى بما يسلطونه من تعذيب علــى المــؤمنين لفتنــتهم عــن ديــنهم ، فإن في معنى علمه تعــالى بــذلك أنــه ســيجازيهم علــى فســادهم وظلمهــم واحتقــارهم للإسلام وأهله . وإنه سبحانه مع أنــه الــرحيم الــرحمن لا يــرحمهم، لأنهــم اســتكبروا والله يمقت المستكبرين ولا يحبهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ

[1] سورة الشورى آية 18

[2] سورة يوسف آية 106

وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29)

بيان معاني الألفاظ :

أساطير : جمع أسطورة وهي القصة.

الأوزار : جمع وزر بمعنى الثقل، وقصد به الذنب.

مكر: ألحق الضر بغيره مع خداعه بأنه له ناصح.

القواعد : الأسس والأساطين.

خر : سقط.

المشاقة : الاشتداد في الخصومة.

الخزي : الإهانة .

ألقوا السلم : خضعوا بمذلة مظهرين الاستسلام.

المثوى : موضع الإقامة .

بيان المعنى الإجمالي :

عمل مشركو مكة على صد الناس عن الدخول في دين الله، فكانوا إذا سئلوا عن طبيعة دين الإسلام، أجابوا بأنها أساطير وقصص، ليس فيها شيء من الحكمة ولا السمو .

وما ذا كانت نتيجة إضلالهم للذين طلبوا منهم أن يساعدوهم على إدراك الحقيقة؟ النتيجة: أنهم يأتون يوم القيامة محملين بأثقال الذنوب التي ارتكبوها، وبأثقال ذنوب الذين أوقعوهم في الضلال. وما أسوأ وضعهم وهم يرزحون تحت أثقال الذنوب المضاعفة !

يثبت الله نبيه بأن مكر مشركي مكة بمغالطة من يرغب في الدخول في الإسلام سينتهي بهم إلى ما انتهى إليه الصادون عن الإيمان في الأمم السابقة . سيمحقون محقا لا يجدون منه نجاة. مثلهم كمثل من اتخذ بيتا قوّى أركانه وأقام سقفه على أعمدة صلبة، وفي لحظة ترتج الأرض وتتناثر الأركان وتتكسر الأعمدة ويهوى السقف فوق الرؤوس، ويسحق من كان يظن أنه محمي بذلكم البناء، دون أن يشعر الجهة التي جاء منها التدمير .

ثم يعرض القرآن ما يلقــاه المشــركون، فيثبــت أن الله يــذلهم، ويــوبخهم علـــى رؤوس الأشهاد فيسألهم أين الشركاء الذين تعلقتم بهم تعلقا كبيــرا، فجعلتمــوهم فـــي شــق وأنــا في شق ؟ وينطق الذين منحهم الله العلــم فأضــاء فكــرهم وروحهــم فيقولــون إن الذلــة والعاقبة السيئة حقيق بأن تنصبا على الكافرين .

إن النكال المسلط على الذين ظلموا أنفسهم بالشرك يصــحبهم مــن اللحظــة التــي تــأتيهم فيها الملائكة لقبض أرواحهــم . إنهــم يستســلمون وتتزعــزع ثقــتهم بنفوســهم فيقولــون كما يقول كل مجرم عند القبض عليــه : لــم أفعــل ســوءا .ويبطــل الملائكــة كلامهــم بإثبات جريمة شركهم بالله، والله ســبحانه لا يخفــى عليــه شــيء ولا يُضــيع مــا ســجل عليكم من سوء أعمالكم .ويقال له يوم القيامة : ادخلوا أبــواب جهــنم ذلــك مــآلكم فــأنتم مخلدون فيها، فيتضاعف عذابهم باليــأس مــن توقــع رفــع العــذاب عــنهم. ومــا أســوأ عاقبة المتكبرين الذين قادهم كبرهم إلى سوء المصير .

بيان المعنى العام :

24- وإذا قيل لهم ....قالوا أساطير الأولين .

لا شك أن الــوحي المنــزل علــى رســول الله ﷺ، قــد حــرك العــرب، وكــان حــديث مجالسهم. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قــال: لمــا بلــغ أبــا ذر مبعــث النبي ﷺ قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي فاعلم لــي علــم هــذا الرجــل الــذي يــزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثــم ائتنــي . فــانطلق الأخ فلقيــه وســمع من قوله، ثم رجع فقلت ما عندك؟ فقال: والله رأيــت رجــلا يــأمر بــالخير وينهــى عــن الشر. فقلت له: لمْ تشفني من الخبر، قال : فأخذت جرابــا وعصــا ثــم أقبلــت إلــى مكــة فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه وأشرب مــن مــاء زمــزم وأكــون فــي المســجد قال فمر بي عليٌّ فقال : كأن الرجــل غريــب .قــال قلــت : نعــم، قــال فــانطلق إلــى المنزل، قال فانطلقت معه لا يســألني عــن شــيء، ولا أخبــره، فلمــا أصــبحت غــدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء فمر بــي علــى فقــال : أمــا نــال الرجل أن يعلم منزله بعد؟ قال: قلت : لا قــال انطلــق معــي، فقــال مــا أمــرك ومــا أقدمك هذه البلدة ؟ قال: قلت له: إن كتمت عليّ أخبــرك. قــال فــإني أفعــل. قــال: قلــت له: بلغنا انه خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخــي ليكلمــه فرجــع ولــم يشــفني من الخبر فأردت أن ألقاه. فقال له : أما إنك قــد رشــدت، هــذا وجهــي إليــه فــاتبعني، ادخل حيث أدخل. فإن رأيت أحدا أخافه عليك قمــت إلــى الحــائط كــأني أصــلح نعلــي، وامض أنت. فمضى ومضيت معه حتى دخل عليــه ودخلــت معــه علــى النبــي صــلى

الله عليه وسلم، فقلت له اعرض عليَّ الإسلام، فعرضه، فأسلمت مكاني. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل. فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم. فخرج حتى أتى المسجد وقريش فيه، فقال: يا معشر قريش: بأعلى صوته إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فضُربت لأموت، فأدركني العباس وأكب علي ثم أقبل عليهم فقال ويلكم: تقتلون رجلا من غفار. ومتجركم وممركم على غفار ! فأقلعوا عني. فلما أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ، فصُنع مثل ما صُنع بالأمس، وادركني العباس فأكب علي وقال مثل مقالته بالأمس.[1]

بمقدار ما كان النبي صلى الله عليه ثابتا على دعوة الناس لدين الله، بمقدار ما كانت قريش تصد الناس عنه. فكانوا يتعرضون للوارين إلى مكة ليقذفوا في أفكارهم الأباطيل. من ذلك أنهم يضللون من يسألهم عن الوحي الذي جاء به رسول الله ﷺ فيزعمون: أن ما جاء به إن هو إلا مجموعة من القصص وأخبار الأمم الماضية. على أن المنزل من عند الله لا يكون أخبارا وقصصا.

25-ليحملوا أوزارهم ...ألا ساء ما يزرون.

فما كان مآل ما يروجونه من افتراءات وتضليل ؟ مآلهم أنهم أضافوا إلى ما هو مسجل عليهم من جميع الآثام بسبب كفرهم، وما استحقوه عليها من العذاب، أضافوا إلى ذلك أن آثام الذين أغووهم وضللوهم فانحرفوا عن الصراط المستقيم، سيحملون مثل آثامهم دون أن ينقص من آثامهم شيء. وعلى هذا النحو من الخسران يقدمون يوم القيامة تحت ثقل الآثام. نعم كان إضلالهم للذين استرشدوهم وطلبوا منهم الهداية ناشئا عن جهلهم وبعدهم عن المعرفة الصحيحة.

وإذ قد جسمت الآية وضعية المشركين المضللين، بأنهم يرزحون يوم القيامة تحت أثقال آثامهم، وآثام الذين ضللوهم، كان موقع التعليق، على وضعهم ذاك، بأنه وضع سيء، كان موقعا رشيقا .

26-قد مكر الذين من قبلهم ...من حيث لا يشعرون.

تذكير بسنة الله التي يستأصل بها الذين يصدون الناس عن الإيمان لابسين ثوب النصيحة ليغرُّوا من يسألهم. مضى فريق من المدعوين إلى الإيمان على أيدي

---

[1] فتح الباري ج9 ص362/360

الرسل السابقين، على طريقة الخداع لمن يسألهم عـن مضـمون مـا جـاء بـه الرسـول، فيظهرون لهم أن ما جاء به ليس له حقيقة، وأنهـم يخشـون علـيهم مـن أن يقعـوا فـي الضلال. لقد كانت سنة لله معهم أنه استأصلهم استئصـالا لـم يسـتطيعوا التحصـن منـه. جسم القرآن العذاب الساحق الذي يفنيهم، فصـوره فـي صـورة مـن اتخـذ بيتـا قـوّى بنيانه بقواعد ضاربة في عمق الأرض، وأقام أعمـدة ثابتـة رفـع عليهـا السـقف، وفـي لحظة ينفذ القضاء فتهتز القواعـد وتتهـاوى الأعمـدة ويسـقط السـقف فـوق رؤوسـهم فيسحقهم، ويتسلط عليهم العذاب المقدور من جهـةٍ، مـا كـانوا يتوقعـون أنهـم يعـذبون من قبلها. فهو عذاب باغت يزلزل المعذّب ويكـون أشـد إيلامـا لـه . ذلـك أن العـذاب إذا كان تدريجيا فإن الـنفس تتعـود عليـه وتتهيـأ لمـا ينتهـي إليـه بخـلاف العـذاب الباغت.

وتحقق الآية أمرين:

أولهما : تثبيت للنبي ﷺ وتوهين مكر مشركي مكة، على أن مآلهم الهلاك والخسران .

وثانيهما: تهديد للمشركين أنه سيحيق بهم العذاب، وسيلقون ما لاقاه أمثالهم في الأمم السابقة.

27-ثم يوم القيامة يخزيهم...والسوء على الكافرين.

إنه مع العذاب الناجز المقدر لهم، سيمقتهم الله يوم القيامـة ويهيـنهم، ولـم تفصـل الآيـة نوع الخزي الذي سيحل بهم، إذ هو شأن من شؤون الآخـرة أشـد نكـالا وأعظـم إهانـة من كل ما هو معروف في الدنيا .

وينضاف إلى خزيهم فضحهم على رؤوس الأشـهاد، أنهـم يسـألون سـؤال تـوبيخ أيـن الشركاء الذين كنتم تعبدونهم، و تجعلـونهم مسـاوين لـي تصـورونهم علـى أنهـم فـي شق أهلٌ أن يعبد، وأنا في شق آخر مهمل .

إنه سؤال يفزع منه كل متبصر وكل مؤمن، ويرتفـع مـن حنـاجر أهـل العلـم صـوت صادق فيعلنون : أن المسؤولين قد أهلكوا أنفسهم، وأنهـم مؤهلـون لينـزل بهـم العـذاب ويكونوا في أسوأ الأحوال . الكلام في قوة أنهم يتبـرأون ممـا سـمعوا ويثبتـون أنهـم لا صلة بينهم وبين هؤلاء الكفرة المسؤولين. وأنهم حقيقـون بمـا سـينفذ فـيهم مـن الـذل والمهانة، وأنه هو العدل .

28-29، الذين تتوفاهم ...مثوى المتكبرين.

واصل القرآن بيـان خـزي الكـافرين، ببيـان أن عـذابهم يبـدأ يـوم تنـزع الملائكـة أرواحهم. الذي فهمته من الآيـة أن رحلـة العـذاب تنطلـق مـن اللحظـة التـي تقـبض الملائكة أرواحهم في الدنيا، ثم تتواصل إلى أن يدخلوا فـي مسـتقرهم الـذي تقـرر لهـم

(جهنم). وقد أكد القرآن في أكثر من مناسبة أن الكفرة الأشقياء، يكون وقت النزع هو أول مراحل العذاب قال تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق)[1] - (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم)[2] - ويكون شأنهم كشأن المجرم وقت إلقاء القبض عليه، يُسَرع بالتبرؤ من فساده ويظهر نفسه بمظهر المستسلم الذي لم يأت منكرا .

نَسْجُ الآية : أن الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله، والشرك أعظم أنواع الظلم، تقبض الملائكة أرواحهم قبضا مقترنا بالشدة والعذاب، فيستسلمون في ذل، ثم يعبرون في استكانة بأنهم عباد صالحون ما عملوا سوءا في حياتهم . ويلقون الرد السريع الذي يبطل دعواهم، بقول الملائكة: بلى، الدالة على إبطال كلامهم ونزع الصدق عن مضمونه. أي إنكم عملتم السوء. واليوم لا يفيدكم الإنكار، لأن الله عليم بكل ما صدر منكم . سجله عليكم ولا يعزب عن علم الله صغيرة ولا كبيرة من أعمالكم. أي إننا موكلون حسبما أعلمنا الله بما كنتم تعملون، نعاملكم على نفس النسق الذي عاملنا به الذين تقدموكم من المشركين .ويقال لهم يوم القيامة : ادخلوا أبواب جهنم، فينساق كل واحد إلى الباب الذي قدر له الدخول منه، ويلقى العذاب الذي كتب له، ويحل في قلبه اليأس من تحوله عن وضعه، إذ يصحب دخوله لمستقره إعلامه أنه خالد في منزلته المشؤومة خلودا أبديا سرمديا .

وإذلالا لكل داخل لجهنم يسمعهم رب العزة: ما أسوأ مقام المتكبرين. وقد ربط جزاء الكافرين بما كانوا عليه في الدنيا من استيلاء الكبر عليهم. وفي ذلك إشارة إلى مساواتهم لإبليس الذي عصى ربه ولم يسجد بسبب تكبره، فلحقته اللعنة إلى يوم الدين.

وفي تتبع أحوال المشركين هذا التتبع وربطه بالتكبر، ما يحرك كل مؤمن ومؤمنة ليكون يقظا حذرا من داء الكبر الذي يعمي البصيرة، ويشجع على الشر، ويقطع أواصر المجتمع فيتخلخل البناء الاجتماعي.

● وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن

[1] سورة الأنفال آية 51

[2] سورة محمد آية 27

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

طيبين: جمع طيب وأصله حسن الرائحة، ويستعمل للدلالة على الحسن والكمال.

ينظرون : ينتظرون.

حاق : نزل وأحاط.

بيان المعنى الإجمالي :

قطع القرآن بسط ما يتعلق بالمشركين وعجل ببشارة المؤمنين المتقين، هؤلاء الذين استقر القرآن في نفوسهم ورضوا به رضا جعلهم يجيبون من يسألهم عما بلغه رسول الله ﷺ منزّلا من ربه، يجيبون بأنه الخير الكامل في كل ناحية من نواحي الحياة الدنيا والحياة الآخرة .ويقر القرآن أن جزاء المحسنين من جنس ما قدموا حسنة في الدنيا، وحسنة في الدار الأخرة هي أفضل مما يلقونه من جزاء في الدنيا .ويقال فيها: نعم الدار دار المتقين. هي جنات، ظاهرة الخصب واضحة فيها، تتخللها الأنهار الجارية. من كرامتهم على ربهم أنهم كلما هموا بكسب شيء وجدوه حاضرا. وعلى هذا النسق يجزي الله المتقين.

تبدأ كرامتهم عند النزع بتطهيرهم من جميع الأدناس والآثام. تتقدم الملائكة إليهم بالسلام المثبت للطمأنينة . ثم يؤذن لهم يوم القيامة بدخول الجنة، ومبالغة في إكرامهم يعلن أن ما نالوه هو جزاء صالح أعمالهم في الدنيا .

عود إلى تهديد الكفرة . إنهم لا يترقبون إلا أحد أمرين: إما قبض أرواحهم من ملائكة العذاب، أو أن يأتيهم عذاب يستأصلهم. وهي سنة الله مع المكذبين من الأمم السابقة الذين فعلوا مثل فعل مشركي مكة . حقت عليهم كلمة العذاب . وكان ذلك جزاء عادلا. لم يظلمهم الله، لأنه بعث لهم الرسل وأقام لهم الدلائل على طريق الهدى، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالعناد والإشراك بالله. فجازاهم الله في الدنيا بسيئات أعمالهم، وأطبق عليهم عاقبة استهزائهم بآيات الله وبرسله .

بيان المعنى العام :

31/30-وقيل للذين اتقوا...يجزي الله المتقين.

لما بسط القرآن القول في بيان وضع المشركين ومـــآلهم، عجـل بالحـديث عـن القسـم المقابل الذين آمنوا برسول الله ﷺ وبما جاء به، ثـم طبقـوا وعاشـوا هـذا الـدين فعبـر عنهم بالمتقين . فوضعهم أولا فـي إطـار عـام، هـو إطـار الرضـا والاقتنـاع بـأن وضعهم بهذا الدين هو أحسن وضع، وفعل القرآن فـي حيـاتهم وفـي مشـاعرهم أفضـل فعل وأتمه وأحسنه. وإذا كـان الكـافرون عنـدما يسـألون عـن القـرآن يجيبـون بأنـه أساطير، فإن المؤمنين عندما يسألون عـن القـرآن وعمـا جـاء بـه النبـي ﷺ يجيبـون الجواب العام الذي يجعل السائل كلمـا فكـر فـي جانـب مـن الجوانـب يجـد صـياغة الجواب توضحه. فقـولهم: (خيـرا) كلمـة جامعـة لكـل مرتبـة مـن مراتـب الكمـال والفضل والحسن، في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة.

ويعقب القرآن على رضاهم وعلى إجابتهم بعرض قاعدة عامة فيما يلقونه، تتناسب مع ما انطوت عليه ضمائرهم وما جرى عليه عملهم: إن للذين أحسنوا في هذه الدنيا عقيدة وعملا، يلقون جزاء من جنس عملهم. هو الحسنة في الدنيا والآخرة. يوضح هذا ما أخرجه مسلم وأحمد واللفظ له : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله لا يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويجزى به في الآخرة، وأما الكافر فيعطى بحسناته في الدنيا ، فإذا لقي الله عز وجل يوم القيامة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا)[1] -ويدقق القرآن بالتنبيه على أن جزاءهم في الآخرة هو أفضل وأكمل وأحسن. ويعبر بدار الآخرة خلافا لتعبيره عن مآل المشركين بأنه مثوى . وذلك لما بين المنزلين من اختلاف، فمقام المنعمين في الجنة مقام راحة واستقرار وأمن كما هو ظلال كلمة الدار في الاستعمال. بينما الكفار يُلْقَوْن في جهنم باعتبارها قرارا لهم لا يجدون فيها راحة ولا سعة فعبر عنها بكلمة مثوى. تختم الآية بإنشاء التفضيل المثير للتعجب من الخير الذي هم فيه، ولنعم دار المتقين .

هذه الدار هي جنات عدن وإقامة مهيـأة لهـم يـدخلونها دخـول الكرامـة ولا يبرحونهـا. جمعت أنواع التكريم، يعم الخصـب جنباتهـا، وتتخللهـا الأنهـار الجاريـة . ولا يـنقص من نعيمهم الحرمان من أي شيء، فكلما تاقـت نفوسـهم لشـيء ورغبـوا فيـه وجـدوه حاضرا. إنه على هذا النحو من الجزاء يكون جزاء المتقين.

---

[1] ج 3 ص125

32-الذين تتوفاهم ...بما كنتم تعملون.

وتختم هذه الآية بالتقابل بـين الوضـعين، وضـع الكـافرين: الـذين تتوفـاهم الملائكـة ظالمي أنفسهم، ووضع المـؤمنين المتقـين الـذين تتوفـاهم الملائكـة طيبـين. وصـفتهم الآية بالطيبين، وإذا كان أصل كلمة الطيب تسـتعمل فـي الرائحـة الحسـنة التـي تميـل إليها النفس فإنه قد توسع فيها فأصبحت تـدل علـى الوضـع الأكمـل المرغـوب فيـه، مما يعني أن الله يكرمهم فينقـيهم مـن جميـع النقـائص ويكونـون علـى أكمـل حالـة إنسانية، ثم يرفعون عنهم الانزعـاج مـن المـوت فيحيـونهم بالسـلام، فيفـارقون الـدنيا وهم في أمن . ثم يوم القيامة يكرمـون بتوجـه الخطـاب بـالإذن فـي دخـول الجنـة . ومن بالغ الفضل وعظيم التكريم أن يخـاطبوا بـأن الجنـة التـي تـدخلونها هـي جـزاء أعمالكم. واعتبرنا هذا تكريما مضاعفا، لان الجنـة هـي بفضـل الله وتتقاصـر الأعمـال عن الفوز بها، والمنة الكبرى من ربهم خطـابهم بتقـدير أعمـالهم تقـديرا جعـل الجنـة جزاء لهم بها . والله ذو الفضل العظيم .

34/33-هل ينظرون ...ما كانوا به يستهزئون.

بعد أن طمأن القرآن المتقين وعرض ما سيلقونه من حسن الجزاء في الدنيا والآخرة، توجه إلى المشركين ليشنع بهم، يفضح دخائلهم . فقال تعالى : إنهم لا ينتظرون ولا يترقبون إلا أحد أمرين : ما سبق أن قرره القرآن من نزع الملائكة أرواحهم أول مراحل العذاب والنكال، أو أن ينزل بهم ما قدره الله لهم من الاستئصال على ما تقدم قريبا من التهديد في قوله تعالى : فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون.[1] – وحقق القرآن ذلك بأن هذه سنة الله مع الكفرة الذين مضوا من الأمم السابقة. وذكر القرآن بأن ما نالهم هو جزاء عدل لكفرهم وثباتهم على الضلال، فتسليط العذاب عليهم كتسليطه على الذين من قبلهم لا ظلم فيه، ولكن السابقين والحاضرين هم الذين ظلموا أنفسهم باختيارهم طريق الضلالة والكفر بآيات الله، وصدودهم عن التدبر في الآيات التي جاءتهم من عنده . وبعد تنبيههم من قبل رسل الله على ما ينتظرهم من سوء المصير . إنهم صمموا على رفـض الهـدى، ومضـوا فـي الحيـاة متحـدين للأوامـر والنـواهي الإلهية، فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم، وأحـاط بهـم العقـاب إحاطـة لا يجـدون منـه مفرا، بسبب إقامتهم على مقابلة جدّ الرسالة بالاستهزاء .

---

[1] آية 26

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

البلاغ المبين : الإبلاغ الواضح الموضح.

الطاغوت : ما عبد من دون الله من إنسان راض بذلك أو حيوان أو جماد.

الحرص : الإرادة القوية في الشيء

بيان المعنى الاجمالي :

يسجل القرآن فساد تفكير المشركين ومحدودية فهمهم، فقد تخيلوا أنهم أتوا بحجة قاطعة تبرر ما هم عليه .قالوا: إن الله يعلم ما نعتقده وما نفعله وما نُحلُّه وما نحرمه نحن وآباؤنا، فلوكان غير راض به لمنعنا منه، وهو القدير على كل شيء كما يقوله محمد. رد عليهم القرآن بأن هذه مقالة ليست جديدة، بل قالها من كان قبلهم، وسلط الله عليهم العذاب الذي استأصلهم فلو كان ما اعترضوا به صالحا لما نال المشركين من الأمم قبلهم العذاب. ثم إن طبيعة الرسالة : أن المرسلين يبلغون ما أنزل عليهم من ربهم ويوضحونه للناس ولا يجبرون أحدا على اتباعهم .

ثم فصل القرآن: وما على الرسل إلا البلاغ المبين: أنه تعالى بعث في كل أمة رسولا يبلغهم ويبين لهم، وأول همه عبادة الله وحده والبعد كل البعد عن عبادة البشر والحيوانات والأشياء. وأن من البشر من اهتدى فكانت هدايته من الله بفضل بيان الرسل وإعمال العقل حسب القوانين المنتجة. وأن منهم من اتبع هواه وأقام على ما كان يعتقده ويسير عليه، فأعرض عن هداية المرسلين وثبت على غوايته . ثم فتح بصائر المخاطبين بأمره لهم أن يسيروا في الأرض ليشاهدوا عاقبة الذين أعرضوا عن هداية الله كيف حل عليهم من العذاب ما استأصلهم. ثم يخاطب الله نبيه أنه وإن كان حريصا أشد الحرص على هداية قومه فإن الله قدر أن لا يكون الناس مؤمنين جميعا، ومن قدر له الضلالة لا يؤمن. ومعنى ذلك أن من علم الله

منه أنه لا يعمل عقله ويــرفض مقــدما النظــر فــي الــوحي وصــمم علــى التقليــد، لا يستطيع النبي صلى الله عليه وسلم أن يهديه. وأن هذه الفئة لا تجد نصيرا ينصرها.

بيان المعنى العام :

35-وقال الذين كفروا لو شاء الله ...إلا البلاغ المبين .

سجل القرآن مجادلة الكفرة لرسول الله ﷺ، لما قدموا هــذا الاحتجــاج الــذي ظنــوا أنهــم سيفحمونه به. عرض القرآن حجة المشركين أنهم قــالوا: إذا كــان الله، حســب مــا يثبتــه القرآن وشريعة الإسلام، قادرا على تنفيذ إرادتــه، ومطلعــا علــى كــل مــا يجــري فــي الكون، فإنه لو كنا نحن وآباؤنا علــى ضــلال فــي عبادتنــا الأصــنام، وهــو لا يشــاء عبادتنا لها، لحال بيننا وبين ذلك. كمــا أنــه لــو شــاء أن لا نحــرم مــا حرمنــاه مــن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي على ما بينه القــرآن - **لمنعنــا بقدرتــه مــن تحــريم ما حرمناه** [1].

وهذه الشبهة من أقوى الشبه المضللة التي يدخلها الشــيطان فــي عقــول الكفــرة وكــذلك المتخاذلين عن تطبيق شرع الله، وإن كــانوا يــدعون أنهــم مســلمون. يجيبــك أحــدهم إذا دعوته ليقوم بما أوجب الله عليه من صلاة وزكاة، أنــه لو شــاء الله أن أفعــل مــا أمرنــي به لهداني . وقد رد عليهم القرآن بوجهين :

الوجه الأول : أن الله سلط عقابه على الذين كانوا مــن قــبلهم بمــا استأصــلهم وأبــادهم، وبقيت ديارهم خرابا .فلو كان الله يرضى بكفرهم أو بتهــاونهم لمــا ســلط عقوبتــه علــى أمثالهم. وأن المتخاذلين من المؤمنين بــأمور العبــادة المفروضــة يقــرأون القــرآن وهــو يهدد المرتكبين للآثام، فهم بين رفض مــا أكــده القــرآن فيكفــرون، وبــين الإقــرار بــه فتسقط حجتهم وتتهاوى تعلّاتهم .

الوجه الثاني : أنهم أسقطوا الأساس الذي بنى الله عليه أمر هذا الكون لمّا استخلف الإنسان فيه، ومكنه من فعل الخير أو الشر ليكون مسؤولا عن أعماله . نعم لو أراد الله أن يخلق الإنسان مفطورا على فعل الخير فقط لتحقق ذلك، ولكن لا يكون إنسانا بل يكون شيئا آخر. إن الحرية من أعز ما فُضّل به الإنسان. والحرية والمسؤولية صنوان يسيران معا. وشرف الإنسان يكمن في حريته. ولذا كان سلب الحرية والتسلط بالقهر لإخضاع البشر بالتعسف مما فطر البشر على مقاومته، ويقبلون التضحية بأرواحهم في سبيلها. فالحياة بدون حرية ذل ينزل بالإنسان إلى درك الحيوان غير العاقل أو الشيء الفاقد للروح.

---

[1] سورة المائدة آية - 103

وتأكيدا لهذا المفهوم ختمت الآية بقوله تعـالى: **فهـل علـى الرسـل إلا الـبلاغ المبـين.** تقول الآية: إن مهمة رسل الله محصـورة فـي نطـاق لا تتعـداه، هـو إبـلاغ البشـرية هداية الله التي يوحي بها لرسله رب العالمين، الـذين يقومـون مـع إبلاغهـا بتوضـيحها توضيحا يقنع الباحثين عن الحقيقة غيـر المعانـدين. ولا تتجـاوز مهمـتهم إلـى إجبـار الناس على قبول ما كلفوا ببيانه. والمرسلون من عهـد نـوح عليـه السـلام إلـى محمـد ﷺ ملتزمون بهذه المنهج.

36- ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ..فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين.

تفصل هذه الآية قوله تعالى في الآية السـابقة: فهـل علـى الرسـل إلا الـبلاغ المبـين. فتحقق بأبلغ تأكيد أنه قد تعاقب لطف الله بخلقـه فـي تـاريخ البشـرية . بعـث سـبحانه في كل أمة رسولا، همُّـه الأول: إفـراد الله بالعبـادة وطـرح الشـرك وعبـادة الأصـنام وكل ما يقدمه الخيال الفاسد على أنه ذو سـلطة يسـتحق بهـا أن يعبـد ويطـاع. ثـم إن الناس انقسموا بعد أن وصلتهم الهداية.

قسم هداهم الله، فأقبلوا على ما جاءهم من ربهم إقبال التأمل، وأعملوا عقولهم ومداركهم في مضمون الرسالة فتبين لهم أن النفع والخير في تنفيذ ما أمروا به، وأنه يجلب لهم الصلاح وتستقيم به أمورهم . وفي المقابل يتحقق الفساد واضطراب الأحوال فيما نهوا عنه، فاستجابوا لرسالة المرسلين. فالله هو الذي أعطاهم عقولهم التي نظروا بها، وهو الذي بعث الرسل ليبينوا طريق الرشاد وليكشفوا لهم ما يغطيه الهوى من الفساد. فكانت الهداية الحاصلة بفضل ما آتاهم الله ؛ فنسبت الهداية إليه .

وقسم صمموا على رفـض مـا جـاءهم مـن الهـدى، وحكمـوا فـي عقـولهم هـواهم، فعطلوا ما مكنهم الله من آلات تبين لهـم السـبيل الموفـق للنجـاة، وسـاروا معرضـين عن معالم الطريق، ورجحـوا مـا ورثـوه مـن ضـلالات . ولا تكـون النتيجـة بهـذا الاختيار إلا الثبات على الضلالة، وهو معنى: ومنهم مـن حقـت عليـه الضـلالة . فهـي من كسبهم ومن نتاجهم الخاص .

ولما كان القرآن يرمي إلى إصلاح البشـر وهـدايتهم ختمـت الآيـة بمـا يـوقظهم مـن غفلاتهم، فطلب منهم أن يسـيروا فـي أرض الله ليشـاهدوا بـأعينهم عاقبـة المكـذبين الذي استأصلهم العذاب بسبب كفرهم .

37-إن تحرص على هداهم ...وما لهم من ناصرين .

هذه الآية تنادي بما جمع الله في رسـوله مـن سـامي الأخـلاق. إن قومـه رغـم شـدة مقاومتهم له، ومجاهرتهم له بالعداء، هو حـريص أشـد الحـرص علـى هـدايتهم يتـألم

من استمرارهم على عبادة الأصنام، لا ينِي من معـاودة تـذكيرهم وتقـديم النصـح لهـم، لا يصده عن مواصلة مهمته أي عائق، هو نافذ العزيمـة صـابر علـى المضـي. فيقـول الله له مسليا : إن شدة حرصك على إيمانهم لا يبلغـك أن تُسَـرَّ بإيمـانهم .ذلـك أن مـن سبق في علم الله أنه ثابت على ضلاله، لأنه أصم أذنيـه وصـرف ملكاتـه عـن النظـر، ورضي بالتقليد الأعمى، لا تسـتطيع أن تهديـه. وهـذه الطائفـة مـن المصـممين علـى الكفر وعبادة الأوثان لا يجدون نصيرا يـوم القيامـة. وقـراءة الجمهـور: لا يُهـدى مـن يضل بضم ياء المضارعة. فحذف الفاعل وبنـي الفعـل لنائـب الفاعـل، وذلـك لتقـدير الفاعل عاما يتناول كل من يحاول هداية هؤلاء الـذين اختـاروا الضـلالة علـى الهـدى، أي لا يجد أي هاد طريقة يهديه بها.

وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

جهد أيمانهم : أغلظ الأيمان وأوثقها.

يبعثون : يحضرون لمحاسبتهم عما قدموا.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم المشركون قسما مغلظا: أنه يستحيل أن يُبْعَـث المـوتى بعـد أن تتحلـل أجسـامهم، وتتناثر أجزاؤهم في الكون. وكذبهم القرآن فأثبت أن البعـث حقيقـة لا شـك فيهـا. وأنـه وعد صادق التزم الله به، ووعده لا يخلـف. وكـل مـا فـي الأمـر أن المشـركين وهـم أكثر الناس وقت نزول الآية جهلة لا يعلمون الحقائق.

وسيكون يوم القيامة مبينا للناس وجه الحق ووجه الباطل فيمـا كـان يحـدث مـن خـلاف حولهما في الدنيا، ليعلم الذين كفـروا أنهـم كـانوا كـاذبين فـي نفـيهم لإحيـاء المـوتى وليوم الجزاء .

استبعد الكـافرون البعـث لتصـورهم أن الأجسـام إذا تحللـت وانتشـرت أجزاؤهـا فـي الكون يستحيل أن تعود إليها الحياة. فأعلن القـرآن عـن حقيقـة تشـمل البعـث وغيـره، هي أن إرادة الله تنفذ محدثة ما سبق أن تقرر فـي علـم الله . ويـتم الإحـداث بصـفة لا يكون للمُحْدَثِ أي ممانعة بمجرد ما تتعلق الإرادة بالإحـداث يـتم فـي الحـال، كـالقول للشيء كنْ، فيكون موجودا حالا .

بيان المعنى العام :

38- وأقسموا بالله جهد أيمانهم ...لا يعلمون.

لا يترك المصممون على الكفر أي وسيلة لـرفض الـدعوة إلا اسـتعملوها، فزيـادة علـى التكذيب الصريح، والاسـتهزاء، والاخـتلاق، هـم فـي هـذه الآيـة يحـاولون الإقنـاع بالحلف بالأيمان المغلظة، ويقسمون باسم الله، الذي جعلـوا لـه شـركاء، ولكـن تخيـروا الحلف به، لما يعلمون من تصديق مخاطبيهم بمـا يقسـم عليـه باسـمه العظـيم. كـان مضمون قسمهم أن الله لا يحيي مـن يمـوت وتخـرج منـه الـروح ليحاسـب، اسـتبعادا منهم لعودة الحياة بعـد المـوت، وقـد تحللـت الأجسـاد. كمـا سـجل علـيهم القـرآن: (يقولون أئنا لمردودون في الحافرة أءذا كنـا عظامـا نخـرة)[1] . وكـان الـرد علـيهم بكلمة (بلى) التي تفيد نقض ما صرحوا به، أي يبعـث الله مـن يمـوت .ثـم أكـد أمـر البعث بأن الله وعد بذلك وعدا حقـا صـادقا، كأنـه أمـر التـزم بـه، ووعـده سـبحانه يستحيل أن يتخلف .

ومع التحقق الكامل ونفي كل شك: أن بعث الله المـوتى سيحصـل لامحالـة فـي الوقـت الذي قدره سبحانه في سابق علمه. ولكـن أكثـر النـاس، وهـم المشـركون فـي وقـت نزول الآية لا يعلمون هذه الحقيقة وينكرونها، والإنكار لا ينفي الواقع.

39- ليبين لهم الذي يختلفون فيه...كانوا كاذبين .

من حكمة الله في خلق الإنسان أن جعله قابلا للمعرفـة، ومكنـه مـن الطـرق التـي يبلـغ بها الوصول إلى معرفة الحـق، بحواسـه، وبعقلـه، وبـالوحي المنـزل. إنـه إذا اعتمـد هذه الطرق وجرى على قوانين المعرفة التي نظـم بهـا الله أمرهـا، فإنـه سيصـل إلـى الحق. ولكن بعض الناس يسـلكون السـبيل الموصـل، وبعضـهم يسـلك السـبيل الـذي يبعد به عن إدراك الحق، بإهمالـه بعـض الطـرق، أو بإجرائهـا علـى غيـر القـوانين الصحيحة. وبناء على ذلك كان الاختلاف بـين مـن أدرك الحقيقـة وعمـل بهـا، وبـين من أدركها ولم يعمل بمقتضاها، وبين من ضل فغابـت عنـه. والغايـة التـي مـن أجلهـا أوجد خالق الكون النظام الموصـل لـم تتحقـق فـي الـدنيا؛ فكـان يـوم القيامـة يـوم الانكشاف والتمييز بين الحـق والباطـل فـي المـدارك، وفـي الـدعاوى فـي الحقـوق المادية، وارتفاع الحجب التي كانت تغطي الحق في الدنيا.

---

[1] سورة النازعات آية 11

ومن ذلك أن الذين كفروا بـــالله وكـــذبوا بـــاليوم الآخـــر والحســـاب، ســـيواجهون بالبعـــث واقعا يكذب دعاويهم في الدنيا : أنه ليس بعد الحياة الدنيا حياة أخرى .

40-إنما قولنا لشيء ...كن فيكون.

هذه الآية توضح أن تصور المكذبين بالبعث تصور ساذج، وأنهم علـــى حـــظ كبيـــر مـــن الجهل. لقد استبعدوا أن تعود الحياة إلى الأجساد بعـــد تحللهـــا وتفـــرق أجزائهـــا. توهمـــوا أن الإيجاد لا يتم إلا بالتغلب على امتناع موضـــوع الخلـــق، فـــإن التـــأثير حســـب قـــانون الكون يتم بعد تغلب المؤثر علـــى عصـــي مقاومـــة الموضـــوع القابـــل للتـــأثير. فالحـــداد مثلا إذا أراد أن يكـــون شـــكلا، لا يحقـــق إرادتـــه إلا بالتغلـــب علـــى الحديـــد بإحمائـــه وطرقه، أو إدخاله تحت ضغط الآلات التي تعطيه الصـــورة التـــي يريـــدها الصـــانع. ثـــم لا بد قبل هذا أن تكون مادة الحديد موجـــودة وقابلـــة حســـب خصائصـــها للصـــورة التـــي يريد أن تكون عليها. ومرجـــع ذلـــك هـــو عجـــز الإنســـان أن يحقـــق إرادتـــه إلا باتبـــاع القوانين التي بني عليها الكون. فكانت هذه الآيـــة كاشـــفة عـــن اخـــتلاف الحـــادث عـــن الخلاق القديم القادر التـــي لا تحـــد قدرتـــه ولا يعترضـــها شـــيء .والســـماوات والأرض وما فيها خاضعة تستجيب للإرادة الإلهية بطبعها .إنـــه إذا كانـــت بطبعهـــا عصـــية عـــن المؤثر الحادث، فهي بطبعها طائعة للمؤثر القديم .

عبر عن هذا المعنى القرآن الكريم بتحميل اللغة في وُسْـــع قـــدراتها مـــن ناحيـــة، والعقـــل البشري من ناحية أخرى . إنمـــا قولنـــا المعبـــر عـــن إرادتنـــا لإحـــداث أي شـــيء : أن تتوجه إرادتنا لإبراز ما أردناه مـــن العـــدم إلـــى الوجـــود أولا، وعلـــى الصـــورة التـــي سيكون عليها ثانيا، وفي الظرف الزماني والمكـــاني اللـــذين خصصـــناهما ثالثـــا. فيحـــدث ما أردناه دفعة واحدة أو على مراحـــل كـــل مرحلـــة هـــي اســـتجابة لإرادتنـــا . إن إرادة الله قديمة وليس بينها وبين العلم خلاف بـــل هـــو التوافـــق الكامـــل. فمـــا علمـــه الله منـــذ الأزل يكون داخلا تحت سلطان الإرادة حسب العلـــم القـــديم، يـــتم إنجـــازه عنـــدما تتعلـــق الإرادة بإنجازه وتحقق القـــدرة مـــا تعلقـــت بـــه الإرادة دون فصـــل بينهـــا. وعبـــر عـــن طواعية جميع ما يراد خلقه في الدنيا أو فـــي الآخـــرة بصـــدور الأمـــر (كـــن) لتحْـــدُثْ لتخرُجْ إلى الوجود، فيتم ذلك بدون تصور للتخلـــف أو أي فاصـــل زمنـــي . وهكـــذا أمـــر البعث . فإنه في الزمن والمكان الذي أراده الله تتجدد الحيـــاة فـــي كـــل مـــن عـــاش علـــى ظهر الأرض ثم مات عند حضور أجله.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42)

بيان معاني الألفاظ :

المهاجرة: متاركة الديار .

لنبوئنهم : لنسكننهم ما يجزيهم الجزاء الحسن عن مهاجرتهم .

حسنة: عامة في كل أمر مستحسن يناله ابن آدم .

بيان المعنى الإجمالي :

تنوه الآية بالمهاجرين الأولين إلى الحبشة، وكذلك الذين سبقوا إلى الهجرة إلى المدينة بعد أن ظلمهم المشركون أشد الظلم فثبتوا على دينهم، كما تتناول كل من يهاجر ابتغاء مرضاة الله فيما يستقبل من الأزمان، وتعدهم بحسن الجزاء في الدنيا وأكبر منه وأتم في الآخرة . إنهم صبروا وصمدوا ولم تهنْ عزائمهم في الماضي، وهم معتمدون على الله في مستقبل حياتهم.

بيان المعنى العام :

42/41- الذين صبروا...وعلى ربهم يتوكلون.

تحدثت الآية عن خُطوة المهاجرين، والسورة مكية، فلذلك حملها المفسرون على الذين هاجروا إلى الحبشة، وحملها بعضهم على المهاجرين الذين سبقوا إلى المدينة قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم إليها. وهي تتضمن وعدا صالحا لكل مهاجر تحققت فيه المواصفات التي بينتها الآية.

يقول القرآن : إن الذين تركوا ديارهم وتحولوا عن مواطنهم، هجرة سامية عن الأغراض الدنيوية، ورغبة في التحصيل على مرضاة الله، وإيثارا لما عند الله على ما هو بين أيديهم من المال ، ومن المتاع، ومن الإلف لمرابع الصبا، وقاموا بهجرتهم تلك بعد أن سُلّط عليهم الظلم فلم تهن عزائمهم ؛ هؤلاء المحصورون في هذا الإطار، أؤكد وأنا الله العزيز الحكيم، أني سأعوضهم عما فاتهم من حظوظ في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فسأيسر لهم مساكن يرضونها، ونجاحا شاملا في بيئتهم الجديدة، سأعوضهم عما فاتهم من مال ومن أهل، ومن تعلق فطري بموطنهم، فزيادة على الغنائم التي كانت أثر نصر الله،سأبارك في ذرياتهم، وأجعلهم يأنسون بسكنى المدينة المنورة .

وأما في الآخرة فهو فوق ذلك بكثير، هو الجزاء الذي لا تحده حدود، ولا يعلم مقداره إلا مسديه رب العالمين.

يمكن أن يحمل المعنى ولكن لا يعلمون على معنى، أن المهاجرين لو كانوا يعلمون ما قدره الله لهم من حسن الجزاء، لما حزنوا أول الأمر على مفارقة مكة. كما يحتمل أن الكفرة لم يلحقوا بهم لأنهم لا يعلمون ما أعد الله للمهاجرين.

ثم نوهت الآية بالمهاجرين وأبرزت خصلتين عظيمتين: إحداهما ما تحلوا به من قوة العزيمة والصبر على الأذى، والثبات على نصرة الدين، والثانية هي الاعتماد على الله الاعتماد الذي جعلهم يأخذون بالأسباب. ويشعرون أنهم في جميع المراحل يجدون الثقة في قلوبهم بعون الله وتأييده .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (47)

بيان معاني الكلمات

أهل الذكر : أصحاب كتب الشريعة.

الزبر : الكتب التي سجلت الوحي.

أنزلنا إليك الذكر: أنزلنا إليك الكلام الذي من شأنه أن يتلى.

لتبين : لتوضح.

مكروا : أعدوا في خفية ما يضر .

يخسف : يحدث زلزالا شديدا تبتلع به الأرض ما فوقها.

من حيث لا يشعرون : يأتيهم بغتة لا يستطيعون له دفعا.

يأخذهم : يهلكهم.

التقلب : السعي في شؤون الحياة.

التخوف : التنقص، أو الخوف .

معجزين : منفلتين من العقاب

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن على حقيقة :هي أن سنة الله في إصـــلاح البشـــر ، أن يرسـل إلـيهم رسـلا رجالا يبلغونهم وحيه .واسألوا علماء يهـود وقساوسـة النصـارى هـل بلـغ رسـالة الله غير الرجال؟ أرسل رسله مصحوبين بالأدلـة البينـة ممـا تقتضـيه العقـول الصـالحة، وبالكتب المدونة للشرائع . وتوجه إلى الرسول الأكـرم صـلى الله عليـه وسـلم مخاطبـا له بأنه نزل عليه الكتاب الـذي يتلـى ليثبـت مفاهيمـه فـي العقـول والمشـاعر، فتـتم الاستجابة له بالعمل والتطبيق.

والعجب من الغفلة التي عليها الذين يدبرون فـي خفـاء مـا يسـيء ويضـر المـؤمنين، مع أنهم يعلمون ضـعفهم وأنهـم لا يقـدرون علـى حمايـة أنفسـهم مـن أن يزلـزل الله الأرض تحت أقدامهم فتبـتلعهم ومـا يملكـون، أو أن يـأتيهم عذابـه فيستأصـلهم، دون أن يتوقعوا الجهـة التـي أتـاهم منهـا، أو أن يأخـذهم وهـم ناشـطون مقبلـون علـى تجاراتهم وفلاحتهم ولهوهم، أو يهلكهم شيئا فشيئا كلما نقـص مـنهم جانـب تبعـه جانـب آخر وهم مستسلمون لا يعرفون كيف ينقذون أنفسهم، إلى أن يهلكوا جميعا.

ثم يدعوهم إلى أن يقلعوا عن العناد والكفر، فـإنهم إن فعلـوا ذلـك فـإن الله يـرأف بهـم فيسعدهم بعونه، ويرحمهم فيكفر عنهم ما سبق من آثامهم .

بيان المعنى العام :

44/43-وما أرسلنا قبلك إلا رجالا...ولعلهم يتفكرون.

لا يقلع المشركون عن تكرار اعتراضاتهم علـى رسـالة النبـي ﷺ . ويعملـون جاهـدين على إدخال الشك في قلـوب السـابقين إلـى الإسـلام . ومـن اعتراضـاتهم قـولهم: إن الرسول الذي يتلقى الوحي من الله ويكلفـه بـإبلاغ شـرعه للعـالمين لا يصـح أن يكـون إنسانا تتحقق فيه خصائص البشرية. ولذلك نزلت هـذه الآيـة مؤيـدة للرسـول صـلى الله عليه وسلم أولا موجهة إليه الخطاب، ليكون دعمـا لحجتـه فـي رد مـا يقولـون، فثبتـه الله بقوله :إن سنة الله في بعثة الرسل إلى البشرية أنـه لا يكلـف بمهمـة تقبّـل الـوحي ثم إبلاغه إلا رجال من البشر .

ثم توجه القرآن إلى الكفرة المشاغبين فقال لهم: أسألوا أهـل الكتـب السـابقة مـن علمـاء اليهـود والنصـارى، إن كنـتم جـاهلين بجـنس الـذين أرسـلهم الله، أكـانوا رجـالا أم ملائكة؟ وهؤلاء لا يستطيعون أن يخبروا إلا بأنهم كـانوا بشـرا؛ فمقالـة الأحبـار حجـة على الكفرة لأنهم يصدقونهم، ولا يتهمـونهم بالانحيـاز للمسـلمين لأن عـداوتهم للإسـلام

متأصلة، فلا دلالة فيه على أنا افتقرنـــا لشـــهادتهم. وقـــد ثبـــت أن قريشـــا أرســـلت إلـــى أحبار اليهود يسألونهم.

وقوله تعالى : **بالبينات والزبر**، كأنـــه جـــواب ســـؤال مفهـــوم مـــن الكـــلام تقـــديره والله أعلم: بمَ أُرْسِلُوا ؟ أرسلناهم مصحوبين بالبينات والزبـــر . أمـــا البينـــات فهـــي مـــا يـــدل على صدقهم من شـــواهد العقـــل، وكـــذلك المعجـــزات الواضـــحة أن مخالفتهـــا للعـــادة لا تكون إلا من خالق العادة، أقامها مؤيدة للرسول شاهدة بصدقه.

وأما الزبر، فهي الكتب التي وثقت ما أوحاه الله لرســـله، كقولـــه تعـــالى : (**إن هـــذا لفـــي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى**)[1]، وكـــذلك مـــا ســـجله الحواريـــون مـــن كـــلام عيسى عليه السلام بعد رفعه . فبعض الرسل تم تأييـــده بالبينـــات، وبعضـــهم جمـــع إلـــى البينات الكتاب.

وسيدنا محمد ﷺ أيده الله بمعجزات كثيـــرة اعتنـــى بهـــا وجمعهـــا القاضـــي عيـــاض فـــي الشفاء. ومعجزته الكبرى القرآن . فنوهت الآيـــة بـــه، علـــى أنـــه أنـــزل عليـــه القـــرآن الموصوف بأنه ذكر، يتلى وتعاد تلاوته لتكـــون معانيـــه ودلالاتـــه حاضـــرة فـــي عقـــول الناس. وإن من أهداف المنزل أنه يتم به بيـــان مـــا نزلـــه الله إلـــى النـــاس مـــن الشـــرائع التي أرسل بها النبي ﷺ . ولما كان المبلـــغ للتبييـــن والموضـــح للمشـــكل والرافـــع لغيـــر المراد والهادي إلى الغاية والمفصل للأحكام هو الرسول ﷺ أسند إليه التبيين .

ويؤكد القرآن على إيقاظ العقول لتتأمل ثم تفكر فيما أنزل، ليبلغوا بتأملهم وضوح العقيدة، ولتتعمق الهداية في قلوبهم فيلتزموا في سلوكهم الصراط المستقيم المحقق لرضوان الله، والمساعد على النجاح في الاستخلاف في الأرض . والبعد عن الفساد والشر. وليتأملوا في بيانك فتتشربه عقولهم ومشاعرهم. فيكون بيان الرسول بالإبلاغ ليتأملوه بأنفسهم، وبالكشف عنه وتوضيحه، وهما جناحا الفوز في الدنيا والآخرة.

45←47، أفأمن الذين مكروا... لرؤوف رحيم.

هذه الآيات تهز الكفرة هزا شديدا، وتـــوقظهم معتبـــرة أن الغفـــلات قـــد أحكمـــت حجـــب المآلات عن تصورهم، إنهم دبـــروا وهيـــأوا . إنهـــا تنـــبههم علـــى أنهـــم مســـتعدون لأن ينزل بهم وجه من وجوه الانتقام . فما أشـــد غفلـــة هـــؤلاء الـــذين هيـــأوا مخـــادعين مـــا يلحق الضرر بالمسلمين، ففعلوا الأفعال السيئة وظنوا أنهـــم فـــي مـــأمن لا يلحقهـــم ضـــر، مع أنه قد تنزل بهم نقمة من النقم الآتية :

[1] سورة الأعلى آية 19/18

1)أن تتزلزل بهم الأرض وتنشق عن فراغ عظيم يبتلعهم، ثـم تطبـق علـيهم فـلا يبقـى لهم أثر على ظهرها. إنهـم لا يملكـون ثبـات الأرض التـي تحـت أقـدامهم، فكيـف لا يحصنون أنفسهم بالتوبة إلى الله من هذا الاحتمال الذي وقـع فـي الكـون ودمـر الله بـه المفسدين، كما وقع لقارون قال تعالى: (فخسفنا به وبداره الأرض)[1]

2) أن يصابوا بعذاب في أبدانهم فيقـيم فـيهم الألـم الـذي لا يبـرح أجسـادهم، ويـأتيهم من ناحية لا يشعرون أنه يأتيهم منها. علـى معنـى أنهـم لا يسـتطيعون لـه دفعـا، ولا يكون في طوقهم التوقي منه.

3) أن يهلكهم الله في الوقت الذي يكونون على حـظ كبيـر مـن النشـاط والحركـة، فـي تجاراتهم، أوفي مزارعهم، أوفي تجمعات لهـوهم ومـرحهم، ولشـد مـا تكـون دهشـتهم إذ يباغتون بالعذاب فلا يجدون منه حماية.

4) أن يسلط عليهم متتابع النقم فيهلكون شيئا فشيئا حتـى يـتم تـدميرهم، فمعنـى علـى تخوف: على تنقص، تتوالى عليهم المحن ولا يجـدون منهـا مخلصـا، وهـذا مـن أشـد العذاب، إذ لا يقضى علـيهم قضـاء واحـدا، ولا يجـدون مـا يـدفعون بـه المصـائب المتتابعة التي تصيبهم في أنفسهم وفي أموالهم وفـي حيـاتهم بصـفة عامـة . أو يأخـذهم وقد تحققوا نزول العذاب بهم، وأخذوا ينتظـرون حلولـه وهـم خـائفون. ويكـون معنـى على تخوف: على خوف.

وختمت الآية بتحريضهم على ترك العناد والإقبال على الإسلام، ذلك أن الله قد اتصف بالرأفة والرحمة، فمن رجع إليه وأقبل على شرعه الذي أنزله، فإنه يلقى من رب العالمين ما تقتضيه صفة الرأفة بالمستضعفين فيمكنهم بفضله ما يرقون به إلى منازل المهتدين، وصفة الرحمة التي تشمل كل شيء، تبدو مظاهرها في الدنيا والآخرة .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (50)

بيان معاني الكلمات

يتفيأ : عود الظل بعد أن أزاله ضوء الشمس،

داخرون : خاضعون، متصاغرون، متواضعون .

---

[1] سورة الروم آية81

بيان المعنى الاجمالي :

ما لهؤلاء الكفرة لا يتأملون فيما يرونه بأبصارهم من مظاهر الكون الدالة على خضوع كل ما خلق الله من الأجسام على وجه الأرض، رغم أنه يتكرر كل يوم !كل الأجسام التي على وجه الأرض تلقي ظلالها في الجهة المعاكسة لأشعة الشمس تبدو ممتدة عند مشرقها . ثم تأخذ في الانحسار فتمحي عند الزوال، لتعود منطلقة في الجهات المقابلة بعد ذلك إلى مغيب الشمس. كلها ساجدة لله مطيعة لقوانينه خاضعة لذلك.

إنه لله وحده تسجد جميع الكائنات العلويـــة الســـماوات بمـــا فيهـــا مـــن أجســـام عظيمـــة وكائنات صغيرة جدا، وسجودها بسيرها في المسار الـــذي حـــدده لهـــا مـــن بـــدايتها إلـــى فنائها. خاضعة لكل ما قدره لها في الأزل. وكـــذلك مـــا علـــى الأرض مـــن الـــدواب،فلكل نوع من أنواع الدواب تسبيحة هي سجودها لخالقهـــا، قصـــرت إمكاناتنـــا عـــن الإحســـاس بها، أخبرنا رب الخلائق بأنه يتلقاها منها .

وكذلك ملائكة الرحمن يسجدون لله سجودهم اللائق المأمورون بالقيام به، مستشعرين الطاعة والبعد عن الكبر الذي أهلك إبليس، عندما دعوا إلى السجود لآدم. فمن طبيعة الملائكة أنهم ينفذون ما يؤمرون به في خوف من أن ينزلهم عن المكانة التي رفعهم إليها.

بيان المعنى العام :

48-أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء.....وهم داخرون.

هذه الآية تنبه الغافلين ليتأملوا في أحد مظاهر الكون التي تدل على تفرد الله بالتصرف فيها، فتقوم منادية بعظيم حكمته. وهو مشهد يتكرر كل يوم، هي المخلوقات المجسمة من الجماد والشجر والحيوان والإنسان، تطلع عليها الشمس فتبدو صورتها في ظلالها متجهة إلى الجهة المقابلة لأشعة الشمس، وتنحسر تلكم الظلال شيئا فشيئا إلى أن يمحي الظل عند زوالها، ليعود إلى الجهة الأخرى. فما كان من هذا الأثر قبل الزوال فهو ظل، وما كان بعد الزوال هو فيء. يتفيأ ظلالها أي تعود ظلالها إلى جهة اليمين أو جهات الشمال إلى أن تغيب الشمس .وعبر عن الجهات باليمين مفردا والشمال جمعا تفننا في التعبير. وقد يكون مرد ذلك أن مستقبل الشمس بعد الزوال يكون الفيء المتجه إلى يمينه ثابتا في أصله ويتسع فالمكان المظلل لا يمحي الظل منه، وأما ما كان عن شماله فهو يتناقص، فهي مواقع مختلفة له فعبر عنها بالشمائل . والله أعلم .

إن الأجسام التي تظهر ظلالهـــا علـــى وجـــه الأرض كلهـــا خاضـــعة منقـــادة للتصـــرف الإلهي، أعطاها قوانين وجودها وتحولاتهـــا وقبولهـــا لأشـــعة الشـــمس وظهـــور ظلالهـــا على وجه الأرض، وتستجيب لتلكم القوانين خاضعة ذليلة طائعة أو مكرهة .

49—50- ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض....ويفعلون ما يؤمرون .

ولله لا لغيره يسجد كل شيء سجودا يختلف من جنس إلى جنس ومن نوع إلى نوع، فيعبر عنه بما يتلاءم مع خواصه . يسجد له سبحانه ما في السماوات من المجرات العظيمة، والمجموعات، وما في كل مجموعة ومجرة من وحدات، إنها تجري خاضعة معترفة بخالقها مسخرة للمسار الذي حدده لها، إلى أن ينتهي الأمد الذي قدر لوجودها . وكذلك ما تحويه الأجرام السماوية من كائنات دقيقة أو عظيمة قصّر العلم البشري عن إدراكها . وكذلك ما في الأرض من الدواب، فكل نوع من أنواع الدواب يعبر لخالقه بسجوده الذي يلائم قدراته مع إحساس بلذة في ذلكم السجود، قد تعبر عنه بأصواتها أو بحركاتها أو برقصاتها أو بوقفات لا ندركها فيها تسبيحة بجلال الخالق وخضوع له .

وكذلك ملائكة الله هم يسجدون لله سجودا يناسب خصائص خلقهم، شاعرين بفضل الله عليهم أن نزع منهم الكبر الذي ظهرت لهم آثاره في إبليس لما استكبر وكفر فلعن .

إن الملائكة على ما فطروا عليه من التجرد عن الهوى، وانغماسهم في الطاعة وتنفيذهم لما يؤمرون به على الوجه المرضي، هم يخافون ربهم المتصرف فيهم تصرف الاستعلاء، من أن يسقطوا عن المكانة التي بوأهم إياها، وهم يفعلون ما يؤمرون به بصفة دائمة، دون أن يشعروا أي يكون منهم أي تباطؤ أو تأجيل للتنفيذ.

وفي هذا إيماء لمنزلة المؤمنين الذين بتطبيقهم لما أنزل إليهم يرقون إلى منزلة الملائكة، وأن الكفرة الذين لا يسجدون لله، ويخضعون للأصنام، أنهم في درجة أقل قيمة من الحيوانات.

وهذه الآية، عند تلاوة القارئ: ويفعلون ما يؤمرون موضع سجود مجمع عليه.

۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ :

ارهبوني : خافوني.

الدين : الطاعة.

واصبا : ثابتا دائما .

تجأرون : تصرخون متضرعين .

بيان المعنى الإجمالي :

نهت الآية عن عبادة إلهين اثنين كما ضلت القبائل العربية المجاورة لبلاد فارس فاتبعوهم في عبادة إله النور وإله الظلمة. والله واحد لا شريك له. من التناقض أن يوصف بالألوهية ثم يعتقد أنهما اثنان. فخافوني ولا تخافوا غيري. فأنا المتفرد بالنفع والضر. والنورُ والظلمةُ حالتان للأرض، والله مالك السماوات والأرض فلا يعقل أن يكون المملوك إلها. ومن مقتضيات الألوهية أن يتفرد بوجوب طاعته، وأن يتفرد بالتشريع وأن يكون مالك يوم الجزاء.

وهو سبحانه الذي تفضل عليكم بالنعم التي لا تحصون لها عدا، ولا تصل إليكم أي نعمة إلا منه. وفوق هذا فإنه إذا مسكم الضر ترفعون أصواتكم بالدعاء ملتجئين إليه ليكشف ما حل بكم، ثم إذا كشف ضركم، أعلن فريق منكم كفره بنعمة الله وعاد إلى ما كان عليه من الشرك.

كانت عاقبة ما أنعمنا به عليهم ولطفنا بهم فسلمناهم بعد الضر، أن بدلوا شكر النعمة بكفرانها، يهددهم القرآن بقوله : تمتعوا بالنعم التي رزقتم والعافية التي سلمتم بها بعد الضر مع كفركم، فسوف تعلمون العاقبة علم اليقين .

بيان المعنى العام :

51- وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ....فإياي فارهبون.

افتتحت الآية مصرحة بأن هذا القول صادر ممن يقول الحق ويبطل الباطل، وتهز السامع بذلك للانقياد لمضمون القول. فماذا قال الله ؟

اولا :لا تتخذوا إلهين اثنين .وخص النهي بعبادة إلهين إبطالا لما تسرب لبعض القبائل العربية المجاورة لفارس من محاكاتهم لهم في عبادة إلهين اثنين إله الخير وإله الشر (دين المزدكية) . وأفردهم بالنهي بناء على أنهم لا يدخلون في النهي العام لعباد الطاغوت، لأنهم لا يمثلون الإله في صورة مجسمة. إذ يعتقدون أن إله الخير هو النور، وأن إله الشر هو الظلمة. إن عبادة إلهين هو تناقض، لأن الإله لا يكون إلا تام القدرة ينفذ ما أراد، وإذا كان لا يتحكم في كل شيء فهو عاجز.

فالإقرار بالألوهية، ثم اعتقاد التعدد هو تناقض عقلي مرفوض. ولذلك صرح بعد ذلك تأكيدا لما فهم من قوله: لا تتخذوا إلهين اثنين من النهي عن اعتقاد التعدد : اثنين بمنطوق الكلام وما فوق ذلك بمفهومه .فهو الواحد الأحد، تعالى أن يكون له شريك له في الألوهية . وانبنى على ذلك حقيقة أخرى أتبع بها الحقيقة الأولى : هي دعوته للبشر جميعا : إياي فارهبوني: لا تخافوا أحدا إلا أنا .

52-وله ما في السماوات والأرض... أفغير الله تتقون .

تحقيقا لما تضمنته الآية السابقة بأنه هو الله الواحد الأحد، أثبتت هذه الآية ما يلزم عن ذلك: أنه المتفرد بملك السماوات والأرض. فمن الضلال اعتقاد النور والظلمة إلهين، مع أنهما حالتان من حالات الكون المملوك لله وهو خالقه. وإذ تفرد سبحانه بملك جميع المخلوقات وجب أن ينتفي وجود إله غيره . إذ لا معنى للألوهية بدون ملك. ولما كان هو الخالق المتفرد بالملك وجب أن يتفرد بوجوب الطاعة على جميع الأحوال. ولا مانع من أن يفهم تفرده بالدين، تفرده بالتشريع، أو تفرده بالتمكين من الجزاء. فيكون معنى الآية لله وحده الطاعة ثابتة، أو أنه هو المشرع الذي يجب أن يطبق ما شرع. أو أنه مالك الجزاء يوم القيامة ملكا ثابتا محققا. واختتمت الآية بالإنكار عليهم إنكارا توبيخيا خشيتهم من إله الشر وتقربهم إليه، فإن الفاعل المنجي من الشر هو الله، فعليهم أن لا يتقوا أحدا غيره.

53—54-وما بكم من نعمة...إذا فريق منكم بربهم يشركون.

واصل القرآن هدم العقيدة المزدكية بإثبات أن جميع النعم والخيرات التي يتمتع بها الإنسان هي واصلة من عطاء الله وفضله . وفوق هذا فإنه إذا أصابكم أي ضر من مرض أو سوء أو ضيق أو مشاكل عصبيّة، فإنكم لا تلتجئون إلا إليه، ولا ترتفع أصواتكم إلا بدعائه ليرفع عنكم ما نزل من بلاء . نعم قد استقر في نفوسكم أن الآلهة التي تدعونها من دون الله عاجزة عن تخليصكم من الوضع الحرج الذي دخلتم فيه.

أبطلت الآية عقيدة إله الخير وإله الشر. وأثبتت أنه لا فاعل في الكون إلا الله. وبعد هذه الألطاف التي شملت البشرية كلها من الخير والاستجابة لرفع الضر يرتقي القرآن مسجلا أنه إذا أزال ما لحقهم من ضر، وهذا يتكرر لأن الإنسان معرض لمختلف أنواع الأضرار من ميلاده إلى حين وفاته، إنه ما بقي أي فرد فاعلا في الحياة إلا بفضل ما أسعفه به ربه من اللطف الذي أزال ضره . فكما أن النعم تتابع من الإيجاد والحياة إلى من يعنى به حتى يكبر، بل في كل لحظة من لحظات حياته،

إنه لو تأمل، ما استطاع إحصاء ما أحاطه بــه الله مــن نعــم فــي كــل لحظـــة، وكــذلك الأضرار، بالحماية منها أو بخروجه منهــا ســالما، يتكـــرر ذلــك ولطــف الله هــو الــذي يبقى عليه .

ولكن فريقا من البشر إذا عــادت إلــيهم العافيـــة، التـــي هـــي مـــن عنايـــة الله وتقـــديره، يفجأوون بنكران الفضل ، ويعودون إلى التعلــق بــآلهتهم يشــركونها فـــي الألوهيـــة .إنـــه مع أن الله يعلم علما أزليا ما يؤول إليـــه هــذا الفريــق مـــن الشــرك، إنـــه مـــع ذلــك لا يمنعهم ألطافه التي قدر أن تمس البشر جميعا.

55- ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون.

تحتمل وجهين من المعنى:

الوجه الأول: أن عاقبة ما رزقهم من العافية بعــد الضـــر كـــان الكفـــر بنعمـــة الله وعـــدم شكرها. فهذا كقوله تعالى: (فالتقطه، موسى آل فرعــون ليكــون لهــم عــدوا وحزنـــا)[1] فبينت أن عاقبة التقاطه انقلابه عدوا لهم، وسببا لكثيــر مـــن الحـــزن والأســـى. وهـــم لـــم يقصدوا ذلك بالتقاطه. وعلى هذا النحو تفهم الآية.

الوجه الثاني : أن يكون المعنى على التهديـــد، أي اكفـــروا بمـــا آتينـــاكم فســـوف تعلمـــون العاقبة .

ومعنى الآية : أن القرآن يسجل على ذلك الفريــق الــذي لـــم يشــكر نعمـــة الله وتفضـــله بإزالة الضر، وعاد إلى عبادة الأصنام ، يسجل عليـــه كفـــره بمـــا آتـــاه الله مـــن فضـــل. ونقول لهذا الفريق انتفعوا مما أنعمنا به عليكم من متـــاع الحيـــاة الـــدنيا، ناســـين المـــنعم الحقيقي . فسوف تعلمون علم اليقين عاقبة أمـــركم . ولـــم تبـــين الآيـــة مـــا ذا ســـيعلمون، ليذهب التصور في فظاعته كل مذهب، وبذلك يكون التهديد أقوى .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

---

[1] سورة القصص آية 8

بيان معاني الألفاظ :

يجعلون : يصيرون ويعطون.

ما لا يعلمون : الأصنام.

نصيبا : قسما.

ظل وجهه : صار وجهه صيرورة دامت معه.

مسودا : عابسا كئيبا.

كظيم : غاضب أشد الغضب.

يتوارى : يختفي.

هون : ذل.

يدسه في التراب : يدفنه في الأرض.

المثل : الحالة العجيبة .

بيان المعنى الإجمالي :

عددت الأيات صورا من ضـــلال المشـــركين. منهـــا أنهـــم يخصصـــون لآلهـــتهم، التـــي يجهلـــون حقائقهـــا ويجهلـــون مآلهـــا، ولا يعلمـــون مـــنْ أمرهـــا شـــيئا علمـــا واضـــحا، يخصصون لها شيئا ممـــا رزقهـــم الله يتقربـــون بـــه إليهـــا. قســـما بـــالله يثبـــت: أن الله سيوقفهم بين يديه ويسألهم عما قدموه ويجـــازيهم الجـــزاء العـــادل. ومنهـــا أنهـــم ينســـبون لله بناتا هى في نظرهم أحط من الذكران . وبالنسبة لهم تجـــدهم يعتـــزون بمـــا لهـــم مـــن بنين. وتوضيحا لذلك تذكر الأية التالية :أن أحـــدهم إذا بشـــر بـــأن زوجتـــه ولـــدت أنثـــى عد ذلك الخبر مصيبة، تظهر علـــى وجهـــه علامـــات الحـــزن والكآبـــة ويغضـــب أشـــد الغضب، يتباعد عن أنظار الناس، في حيرة من أمره :أيبقـــي علـــى المولـــودة بمـــا يتبـــع ذلك من هوان، أو يدفنها حية في الأرض ويستريح .هـــذا حكمهـــم العـــام، فمـــا أســـوأ مـــا حكموا به .إن الفاقدين للإيمان لا يتصـــورون إلا تصـــورا ســـيئا، ويجـــب أن يكـــون مـــا يرتسم في عقولكم عن الله الصورة الأعلـــى المنزهـــة عـــن كـــل نقـــص. كيـــف لا وهـــو العزيز الذي لا يغلب الحكيم في كل ما يصدر عنه.

بيان المعنى العام :

56- ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا....عما كنتم تفترون.

يواصل القرآن تسجيل أوهام المشركين ليفضحهم بفساد تفكيرهم، وضحالة عقولهم فذكر :

أولا: أنهم عمدوا إلى ما رزقهم الله مـــن خيـــرات،وهم لـــم يحصـــلوا عليهـــا لا بقـــواهم ولا بتدخل آلهتهم، أخذوا تلك الأرزاق فقسموا قســـما منهـــا خصصـــوه لمـــن لا يعلمـــون

أن له حقا ولا منة ولا فضلا ؛ فهـذا المجهـول تـأثيرُه، المجهـول حقيقتُـه، ولا أسـاس لوجوده إلا الخيال والوهم والتقليد، خصصوا له مـن الـرزق الـذي أعطـاهم الله قسـما وتقربوا به إليه .

أنكر عليهم القرآن وهـددهم تهديـدا حققـه بالقسـم عليـه (تـالله) سيسـألكم الله يـوم القيامة عن هذا الكذب الذي اشـعتموه، وعضـدتموه بـتلكم القـرابين. معنـى ذلـك أنـه ينزل بكم من العذاب ما يتناسب مـع فظيـع كـذبكم. وفيـه إشـارة إلـى أن الله لا ينـزل عذابه إلا بعد أن يوقـف المجـرم ويقـرره بالسـؤال الـذي لا يسـتطيع أن يـراوغ فـي الجواب أو أن ينكر الحقائق .

57- ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون.

ثانيا : مقالة أخـرى منكـرة وعقيـدة سـخيفة، شـاعت فـي بعـض القبائـل العربيـة، فزعمت قبيلتا كنانة وخزاعة، أن الملائكة بنات الله مـن خيـار وشـريفات إنـاث الجـن، فهم قد جمعوا في مقالتهم هذه بين منكـرين : نسـبتهم إلـى الله التناسـل، وجعـل نسـله ملائكة هم بنات من نساء الجـن. ولـذلك عجّـل القـرآن بقولـه سـبحانه، أي تنـزه الله تنزيها مطلقا عن افتراءاتهم . ثم شنّع بقـبيح عقيـدتهم هـذه، أن جعلـوا الله مـا يـأنفون منه، لأنهم يفضلون الذكور على الإناث، وجعلوا لله بناتا .

58-+59-وإذ بشر أحدهم بالأنثى ...ألا ساء ما يحكمون .

ثالثا: ومن اختلال القيم عندهم، أن بعض العـرب يعتبـر البنـات، التـي ينسـبونها إلـى الله، مصيبة. فإذا جاء المخبـر لأحـدهم فـأخبره بـأن زوجتـه ولـدت أنثـى، تقطـب وجهه، وجلله الحزن كأنما غطي سوادا . وانطوى علـى غضـب شـديد. ثـم إن شـعوره في صلته بالناس يتحول إلى حياء وحذر من لقـاء قومـه. يختفـي عـن أنظـارهم بسـبب هذه البشارة. وإنها لبشـارة فـي الحقيقـة، وإن كـانوا يعتبرونهـا مصـيبة، إذ بالإنـاث يتواصـل الإنجـاب وتسـتمر الحيـاة، وتتسـع الأسـر بالمصـاهرة، ولا فـرق فـي الخصائص البشرية بـين الـذكر والأنثـى. ولا يفضـل عمـل الـذكر علـى الأنثـى ولا العكس، إذ القيمة في ذات المنتج لا عمن صدر.

ثم إنه بعد ذلك تتفاعل الأوهام في نفسه، وتعظـم لـه مصـيبته، ويـرى أنـه قـد أصـبح مهينا بما ولدته زوجته، فيسول لهم ضيق التفكيـر ووسـواس الشـيطان أنـه قـد أطبـق عليه الهم، فهل يمسك البنت على مـا يصـحب إمسـاكها مـن ذل، أو يـتخلص بـدفنها حية في الأرض. هذه سلسلة مما اقتنع بـه الجـاهليون وحكمـوه فـي أنفسـهم مـن سـلم للقيم. تنبهوا فإن حكمهم هذا حكم سيء فاسد .

60-للذين لا يؤمنون بالآخرة ...وهو العزيز الحكيم .

تختم الآيات بالتعليق عليها ممن يعلم حقائق الأمور. فبعد أن توالى تسجيل فساد ما يعتقدون وانحطاط تفكيرهم، عقبه بأن الذين من صفتهم أنهم خلت عقولهم من نور الإيمان، هم أحرياء بأن لا يكون تصوركم لهم إلا تصورا جامعا للقبح والفساد والدناءة. وسما بكم سبحانه، فتصوركم لجلاله هو تصور أعلى وأكمل من كل ما يمكن أن يجري في العقول . كيف لا، وهو العزيز المتصرف في الكون تصرفا لا يغلبه عن مراده شيء ولا يعترض عليه معترض، نافذ ما يريده ؛ الحكيم الذي ثبتت حكمته التامة في كل شيء خلقهُ وقدره .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

بيان معنى الألفاظ :

يؤاخذ : يجازي جزاء فيه شدة.

الظلم : الاعتداء على الحق وأعظمه الإشراك بالله.

الأجل : الزمن المحدود الذي يؤخر إليه الشيء .

المسمى : المُعين.

ساعة : اللحظة التي تأجل إليها العذاب.

لا جرم : حقا، لا شك فيه.

مفرطون : بالغون غاية الجراءة وارتكاب المعاصي.

زين لهم الشيطان : حسن لهم القبيح والسيء .

بيان المعنى الإجمالي :

إن ما بني عليه استخلاف الإنسان في الكون أنه مختار وأنه سيحاسب على ما قدم يوم القيامة، وأن الله لا يعجل له العذاب بمجرد ما يعصي . وإن أعظم معصية هي

الشــرك. فتقـدير الله أنـه لا يسـتحق المشـركين وممتلكـاتهم مـن دواب وغيرهـا فـي العاجل، ولكن يمهلهم إلى الأجل الذي قدّره. إنـه عنـد حلـول الأجـل المقـدر والمحـدد في علم الله، ينفذ فيهم العذاب دون تقديم ولا تأخير.

ومن سوء عقيدتهم وفساد تفكيرهم، أنهم يخصصـون مـا يكرهونـه ولا يرضـونه بـالله، ثم يزينون بألسنتهم الكذب ليروج على الدهماء، أن الأمور الحسـنة هـي لهـم. إنـه حقـا لا شك فيه، أن لهم النـار لا الحسـنى، وأنهـم يسـرعون إلـى جهـنم. كـأن عقيـدتهم وأعمالهم مغناطيس ينجذبون به إلى النار.

تأكيد بالقسم المغلظ: أن الله بعـث قبلـك للأمـم رسـلا فكـذبوهم، وقـبّح لهـم الشـيطان هداية الله وزين لهم الشـرك والمعاصـي فـاتبعوه وأعرضـوا عـن هدايـة الله. وكـذلك فعل المشركون من أهل مكة فاتبعوا الشيطان فهـو اليـوم سـندهم فـاتبعوه. وعـاقبتهم أن الله سيعذبهم العذاب الشديد الألم.

وتعقيبا على ما فصله من ضلال المشركين، أعلـن القـرآن الغايـة مـن إنـزال القـرآن وتأييد الرسول ﷺ به، هذه الغاية هي أن يكشف لهم الحـق ويفصـل فيمـا شـجر بيـنهم من خلاف من شـرك ظـاهر وخفـي ، ومـن عبـادة للشـهوة والمـال، ومـن طاعـة لدواعي الأهواء، ليجدوا في هذا القرآن الهدايـة لطريـق السـلامة فـي الـدنيا والآخـرة، وليرحمهم فيطمئنوا بعد الحيرة ويأتلفوا بعد الاختلاف .

بيان المعنى العام :

61-ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ...لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

اجتمع في هذه الآية أمران :

الأول: تهديد للذين سجلت الآيات السابقة فساد ما يعتقـدون، وقـبح مـا يفعلـون، فـإن الله قادر على أن يسحقهم سحقا يقضي عليهم وعلى مكاسبهم.

الثاني: أن الإمهال لا يقتضي عدم المؤاخذة. فـإن الله قـد أحسـن التقـدير فلكـل شـيء أجله الذي تنفذ فيه القدرة الإلهية.

معنى الآية : مضت سنة الله فـي جـزاء المشـركين: أنـه لا يعجـل لهـم العقوبـة، ولا يسلطها بمجرد ما يبدو منهم مظاهر الإشراك بـالله ،فـالظلم هنـا معنـاه الشـرك، لأنـه لو عاجل المشركين بالعقوبة لمـا تـرك علـى ظهـر الأرض دابـة تتحـرك، ولقضـى على الحياة في الأرض . وقد مضى الشـرك فـي الأرض، والحيـاة باقيـة، فثبـت بـذلك ما تدل عليه الآية. وهذا قضاء عادل، لأن من جحد مـن أعطـاه الوجـود أو أشـرك بـه فقد بلغ به الفساد الفكري ما يستحق به أن يسلب منه الوجود.

وإذ انتفى تعجيل العقوبة، فإن المؤاخذة علــى جريمــة الشــرك ثابتــة يــتم تنفيــذها فــي الأجل الذي قدره الله. وهو موعد مضبوط في علمــه ضــبطا يــتم فــي الوجــود بكامــل الدقة، فلا يتأخر لحظة عن أجله، ولا يتقدم.

62-ويجعلون لله ما يكرهون ....لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون.

يتتابع في هذه الآية تسجيل القرآن علــى المشــركين ضــلالاتهم، وفســاد عقيــدتهم، فقــد قسموا ما مكنهم الله منه، فجعلــوا القســم الأحــط والأدون لله، وقــدموا لآلهــتهم الأجــود والأفضل، خصوا الله بأسوئها لأنهــم يخشــون آلهــتهم خشــية أشــد مــن خشــية الله . وأيضا هم يكرهون البنات فجعلوا لله نسلا من البنات . وقــد علــق أحــد الظرفــاء علــى توجيه كثير من الأسر أولادهم الموهــوبين للدراســة فــي المعاهــد العصــرية، وأولادهــم المحدودي الإمكانات إلى المعاهــد الدينيــة، بقولــه : ويجعلــون لله مــا يكرهــون. ومــع ذلك هم أهل فصاحة وبيان، فأطلقوا مــواهبهم اللســانية، لتزييــف الحقيقــة، والاســتهزاء بالرسالة المحمديــة وبالعقيــدة الصــادقة، وتمويــه الكــذب علــى الله مصــورين لكــذبهم بصورة تغطي ما فيه من باطــل وافتــراء، كقــولهم : (وإن رجعــت إلــى ربــي إن لــي عنده للحسنى)[1] -ومثله ما يتجــرأ بــه مــلا حــدة العصــر ممــا لا يســمح بــه أدبــي وتوقيري أن أسجله ؛ وفي المقابل يبرزون أن الوضــع الأفضــل والحالــة الحســنى هــي لهم .

ويرد عليهم القرآن بما يشاكل دعواهم : إنــه لا شــكّ ومــن المؤكــد أن مــآلهم النــار، وأنهم يسرعون إليها، يدفعهم دفعا شديدا إليها ما قــدموه فــي حيــاتهم مــن منكــر القــول وتضليل الناس والجراءة على الله .هــذا إذا قرأنــا الآيــة علــى أنهــم مفرَطــون بفــتح الراء وأما على قــراءة وأنهــم مفرِطــون بكســر الــراء أي متجــاوزون للحــد فــي المعاصي .

63-تالله لقد أرسلنا إلى أمم...ولهم عذاب أليم .

تأكيدا بالقسم المغلظ المبرز لصدق مضمونه ؛ هــذا المضــمون المقســم عليــه : هــو أن الله بعث للأمم التي سبقت قبلك في التــاريخ، يــا محمــد، رســلا قصــد إرشــادهم إلــى العقيدة الصحيحة، والتشريع الصالح لعمــارة الأرض . فــدعوهم إلــى الطريــق المســتقيم ووضحوا لهم ما نزل إليهم، وبذلوا غاية جهــدهم لهــدايتهم، فرفضــوا عنــادا واســتكبارا رسالة رسلهم وكذبوا . ذلــك أن الشــيطان خلــط علــيهم الميــزان فقــبح لهــم الحســن،

---

[1] سورة فصلت آية 50

فأطاعوه واتبعوا غوايته. وكذلك المشــركون بمكــة زيــن لهــم الشــيطان الشــرك ومــا جرت عليه حياتهم مما يرفضه العقل السليم والحكمــة، فكــان الشــيطان ولــيّهم يعتمــدون عليه ويركنون إليــه فــي هــذا الزمــان. وســتكون عــاقبتهم لعصــيانهم لــك واتبــاعهم للشيطان أن ينزل بهم العذاب الأليم .

64-وما أنزلنا عليك الكتاب...ورحمة لقوم يؤمنون.

هذه الآية تعتبر النتيجة لما تقدم توضيحه فــي الآيــات الســابقة مــن ضــلال المشــركين، وما رتب عليه. فهي تأتي معلنة المهمة التــي بعــث بهــا النبــي صــلى الله عليــه وســلم وما تأيّد به. إن الغاية الكبرى من تأييــدك بــالقرآن الــذي أنزلنــاه علــى قلبــك هــي أن تبين للناس الطريق الذي يرضاه الله لعبــاده، الــذي بــه يصــلون إلــى مرضــاته، هــذا الطريق الذي غمره كثير من الشبهات فاختلطت معالمــه، وجــرّهم عــدم الوضــوح إلــى الاختلاف، شأنه شأن الباطل الذي تكثــر مســالكه ؛ أمــا الحــق فهــو واحــد ولا يكــون أكثر من واحد . إن هذا الهدى الذي حمله القــرآن للنــاس هــو الهــدى الكامــل للبشــرية المنقذ لها من طرق الضلال، وإنــه رحمــة للقــوم الــذي يؤمنــون بــه، يخــرجهم مــن الحيرة إلى الوثوق، ومن الشك إلــى اليقــين، ومــن التيــه إلــى الطريــق الســالك الــذي يجدون معه الأمن والرضا الباطني .

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأنعام : اسم يجمع كل جماعة من أحد أصناف الإبل والبقر والضأن والمعز.

العبرة : الموعظة

البطون : جمع بطن بما يحويه من أجهزة الهضم.

الفرث: الفضلات التي يدفعها الجهاز الهضمي لتنحدر إلى المصير .

الخالص : الذي لا شوب فيه يكدر صفاءه.

السائغ : السهل مروره في الحلق .

السكر: الشراب المسكر.

الرزق : الطعام.

بيان المعنى الإجمالي :

يلفت القرآن نظر الإنسان ليتأمل في كتاب الكون فيهتدي، ويذهب الخلاف الذي مزق البشرية. الله وحده هو الذي أنزل من السماء الماء فبطل الشرك، وقدر أن يحيي بذلكم الماء الأرض بعد أن كانت جرداء ميتة، فتخرج نباتها وينتشر على سطحها. فثبت وجه من البعث بعد الموت. إن في هذه الظاهرة دليلا على تفرد الله بالخلق وأن الحياة يمكن أن تعود بعد الموت.

ولفت نظر البشر إلى منة أخرى أصلها الماء المنزل من السماء، الذي تنبت به الأعشاب، وترعاها الإبل والبقر والغنم والمعز، فتتحول في بطونها تحولات مقدرة بضبط حكيم إلى لبن كان مختلطا بالفرث الذي تلقيه الأنعام من الفضلات وبالدم الذي يتحول إلى الخلايا فيغذيها بما تستطيع به أن تباشر وظائفها في الجسم وكلاهما مستقذر. ويتميز اللبن بكونه خالصا لا قذارة فيه، يسهل شربه .

والمنة الثالثة من نزول الماء من السماء ، تحوله باختلاطه بعناصر من الأرض تمر عبر عروق الشجر فتتولد الثمار من النخيل والأعناب، تقطفونها فتأكلون منها وتدخرونها تمرا وزبيبا وذلك الرزق الحسن ، وتتخذون من عصيرها سكرا .

وفي تحول ماء المطر إلى لبن وتحوله إلى ثمرات النخيل والأعناب ما يقوم دليلا على تفرد الله سبحانه بالخلق والحكمة .

بيان المعنى العام :

65- والله أنزل من السماء ماء ...لآية لقوم يسمعون.

هذه الآية وما تبعها قد سبق في صدر السورة من آية 10إلى آية 13 ما يتفق في الظاهر معها . ولكن لهذه الآيات موقع خاص في الارتباط بما سبقها قريبا. فالآيتان 64/63- أهم ما ورد فيهما: أن الشيطان أثر في البشر فأضلهم بتزيين الشرك ورفض عقيدة البعث فاختلفوا، وأن القرآن يهدف إلى إخراجهم من الاختلاف، وفي ذلك أعظم رحمة.

وتهدف هذه الآية إلى تأكيد الدور الذي قام به القرآن بلفت النظر إلى كتاب الكون الذي يحقق أن الله واحد وأن البعث حق. في كتاب الكون لا يجادل أحد في أنه لا يُنزل الماء من السماء إلا الله. فكل ما عبد من دون الله باطل فهُزم الشرك. وهذا الماء النازل من السماء يسري في باطن الأرض فإذا الأرض الجرداء الهامدة تتحرك فتربو، ويتخلل الماء باطنها، فإذا الزريعة تتفلق وتحيا بعد أن كانت ميتة، فيمد النبات جذوره في الأرض ويشق رأسه قشرتها الظاهرة ليشارك الكائنات الحية

في الوجود. وهذا يثبت أن البعث حق. وختمت الآيـة بقولـه تعـالى: إن فـي ذلـك لآيـة لقوم يسمعون –لارتباطها بالآية السابقة فإن القـرآن يـؤثر تـأثيرا عامـا فـيمن يسـمعه، وكذلك يؤثر فيمن يسمع هذه الآية ليستيقظ للتدبر في تلكم الظاهرة الكونية فيهتدي .

66-وإن لكم في الأنعام لعبرة....خالصا سائغا للشاربين.

عطف القرآن على الظاهرة السابقة التي تدل على تفرد الله بالألوهية وإمكان البعث، عطف هذه الظاهرة العجيبة الدالة على إحكام الصنعة الإلهية في الكون. وترتبط بالآية السابقة، إذ أن محل الاعتبار هو ما ينشأ عن إحياء الأرض بالنبات ورعي الأنعام له، ثم صيرورته لبنا، وما بين مرحلة الرعي والتحول إلى لبن يشربه الإنسان .

تقرر الآية: أن ظاهرة امتلاء الضروع باللبن بعد رعـي الأنعـام للنبـات، تجـدون فيهـا عبرة تتجاوزون بها الظاهرة إلى ما وراءها مـن بـديع صـنع الله ودقـة الخلـق. الـذي يقوم دليلا على الوحدانية.

وأول ما تواجه به الآية العقل لتهزه هزا، هو الربط بين ماء السماء والأرض والأنعام والإنسان ربطا، عاجل بأن الله هو الذي يسقيكم هذه الألبان التي تدرها الضروع.

وتوضح الآية مناطق التأمل في الصنع الـدقيق العجيـب : أن تلكـم الألبـان تخـرج مـن بطون الأنعام، بما تحويه من أجهزة دقيقة ، مـع ضـوابط محكمـة فـي عمليـة التحـول من أعشاب هضمتها المعدة وبعثت بها إلى أجهـزة أخـرى فـي الـبطن، فحولـت قسـما منها إلى دم به يتم النشاط، وحولت قسما آخر إلى لبن، وحولـت قسـما ثالثـا إلـى فـرث تقذف به إلى المعـى الغلـيظ . فضـلات تلقيهـا الحيوانـات لتنقلـب أسـمدة تضـاعف خصوبة الأرض .ويبدو التقـدير المحكـم فـي خصـائص اللـبن الـذي كـان مختلطـا بالفرث والدم . فالفرث لو بقي في الحيوان لأسرع إليـه المـوت، وهـو مسـتقذر، والـدم به يتم النشاط ويتحول إلـى عنصـر تغذيـة لكـل خليـة مـن خلايـا الجسـم، ولكنـه مستقذر. ومن بين هذين يمر اللبن إلى الضرع فيـدخل فـي بنيـة الإنسـان خالصـا مـن القذارة سهل التناول، يمر من الحلق إلى داخل الجسم.

67-ومن ثمرات النخيل والأعناب ...إن في ذلك لآية لقوم يتقون.

آية ثالثة من كتاب الكون تتبع نزول المـاء مـن السـماء، يمـتن الله بهـا علـى البشـر. أخرج الله لكم بسقي السماء للأرض من ثمـرات النخيـل والأعنـاب مـا تتفكهـون بـه، وتتخذون من تلكم الثمرات سكرا أي مسـكرا . والآيـة مكيـة والخمـر حـرم بالمدينـة. وعطف على السكر الرزق الحسن، وفي ذلك إيماء إلـى أن الـرزق الحسـن فـي هـاتين

الثمرتين هو الانتفاع بأكلها وقت القطاف أو بادخارهــا تمــرا وزبيبــا، ممــا يشــير إلــى أن اتخاذ الخمر منهما ليس بالرزق الحسن مما يفتح الباب للنهي .

ثم الإشارة بأن ذلك آية للقوم الذين يعقلون، فيهــا إعــداد آخــر لتحــريم الخمــر وقصــر المنة على الأكل، باعتبار أن الخمر يحجب العقل.

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

أوحى : ألهم.

يعرشون : ما يرفعونه في مكان مرتفــع علــى أعمــدة وبســقف أعــلاه بجريــد النخــل ونحوه، فيستمتع صاحبه بظله وبالمشهد .

السلوك: المرور وسط الطبيعة.

ذللا: جمع ذلول بمعنى مسخرة .

شراب : العسل .

بيان المعنى الإجمالي :

ألهم ربك النحل يا محمد إلهاما عجيبا فأعملوا فيه فكركم. تأملوا في هذه الحشرة الصغيرة كيف غرس الباري في طبيعتها، أن تتخير الأماكن العالية من الجبال ومن الشجر ومن المعروشات لتتخذ منها مساكن على خلاف طبيعة الحشرات الأخرى، وذلك لارتباطها بالإنسان فيما تصنعه .ثم ألهمها أن تسلك الطرق التي يسّرها للسلوك فيها دون أن تضيع عن الخلية التي خرجت منها . تنتشر في الطبيعة فتتناول مما تخرجه الأشجار من ثمار عند نوْرها وبعد نضجها ما تتمثله، فتحيله في المعمل الدقيق في بطنها إلى شراب حلو المذاق مختلف الألوان تبعا للمراعي والفصول، يشفي من كثير من الأسقام.

بيان المعنى العام :

68←69، وأوحى ربك إلى النحل....إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .

وأوحى ربك إلى النحل. بهذا الافتتاح المثيــر يلفــت القــرآن الأنظــار إلــى مشــهد فــي كتاب الكون. ثــلاث كلمــات متتابعــة – الــوحي – ربــك – النحــل. فلنأخــذها واحــدة واحدة، ثم نعطف بالجمع بينها:

1)الوحي: أصله الكــلام الخفــي، والإشــارة الدالــة كغمــز العيــون، وتقطيــب الوجــه، وحركة خاصة في اليد. والمراد به هنا ما أودعه الله في النحــل مــن إلهــام غرســه فــي جينومه، فسار به النحل في حياته . هــذا الإلهــام العجيــب الــذي عكــف عليــه علمــاء متتبعين للضبط الدقيق من التخصيب، إلى تنــوع الانتــاج إلــى ذكــور وإنــاث وخنــاثى، إلى مراحل النمو، إلى توزع الأعمال والمهام ، إلى ما تفــرزه مــن عســل، إلــى انتفــاع الإنسان منه. كل ذلك يسير بحكمة الخلاق العليم ويستمر مــع الــزمن. كــل نحلــة تــرث خصائص جنسها وتنفذ مهامها، وتتابع الحياة في هذا النوع من الحيوان الصغير .

وأول الخصائص التي لفتت الآية نظرنا إليهــا بيــوت النحــل المعبــر عنهــا بالأجبــاح، التي ألهمت طريقة في بنائها على أشكال مسدســات هندســية لا تختــل مقاييســها وتلــتحم فيما بينها، فلا يتخللهــا فــراغ بخــلاف بقيــة الأشــكال فإنــه إذا التأمــت قــد لا يكــون التحامها محكما، وبذلك يتم تحصــينها مــن الحشــرات ومــن تســرب الميــاه وتحــولات الطقس، وبعد امتلاء المســدس مــن العســل،تغطي عليــه لحفظــه بمــادة تفرزهــا هــي الشمع نفس المادة التي غطت بهــا المســدس . وللفتحــات التــي تخــرج منهــا وتــدخل مكان مخصوص يحفظ الخلية.

2) اختار القرآن لفظة ربك فجمع بذلك بين أمــرين : أن الــذي ألهــم النحــل هــو الــذي تتابعت عنايته بمخلوقاته فلا يهمل صغيرة ولا كبيرة، من قليــل مــا علمــه النــاس ومــن كثير ما جهلوه، فإن الدقائق التي أودعها فــي النحــل تقــوم شــاهدا علــى بــالغ العنايــة وحكيم التقدير .

2)أسند لفظ الرب لمحمد، ربــك) ليزيــده وثوقــا بكمــال عنايتــه بــه صــلى الله عليــه وسلم. فإنه إذا كان الرب قد اعتنى بالنحلة الحشرة الصــغيرة عنايــة مــا تــزال أســرارها تتكشف مع البحث عبر الزمن، فإن عنايته بك أعظم وأعظم.

3) النحل، أنقل عن الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بعــض مــا ذكــره رحمــه الله فــي التحرير والتنوير. النحلة ذباب، جرمــه ضــعفي جــرم الــذباب المتعــارف. لــه أربعــة أجنحة، وتحت خرطومه شوكة يلسع بها للدفاع عــن نفســه، ســمها ضــعيف، تمــوت إذا انفصلت شوكتها منها. وهي ثلاثــة أصــناف ذكــر، وأنثــى، وخنثــى ،وظيفــة الــذكور حماية الجبح تحوم حوله وتلقح الإناث لتلد به الإناث إناثا.

اليعسوب : وهي أضخم جرما من بقية النحل وهــي التــي تلــد الإنــاث إذا لقحــت وتلــد الذكور بدون تلقيح .وهي ملكة الخلية فهي واحدة فيها .

الخنثى : هي التي ترعى الزهور والثمـار وتفـرز العسـل، وهـي أصـغر جرمـا مـن الذكور، وهي معظم سكان الخلية .

ومن الإلهام تخيُّرها للأماكن الرفيعة لبنـاء بيوتهـا. مـن الجبـال، ومـن الشـجر، ومـن المعروشات التي يرفع عليهـا الفلاحـون الأغصـان لينعمـوا فيهـا بالظـل مـع حفـظ الثمرة.

– وفوق ما تقدم من تخير الأمكنـة الرفيعـة لبنـاء بيوتهـا، إبـراز مـا ألهمتـه لبقائهـا والقيام بدورها في الكون. إذ سجلت الحكمـة الإلهيـة فـي جينومهـا تتبـع الثمـار مـن بداية نورها إلى تمام نضجها لتتمثل مـن رحيـق الأزهـار ومـن سـائل الثمـار المـادة التي تصنع منها العسل .

كما أعانها تبعا لطبيعة أجنحتها أن تتنقـل مـن زهـرة إلـى أخـرى ومـن شـجرة إلـى شجرة ومن مكان إلى مكان أبعد دون أن تُضـيع خـط سيرها، لتعـود بعـد أن تمتلـئ من المادة التي تحولت في بطنها إلى عسل فتعمر به مسدسا من الجبح .

وقد سخر الله طرق سيرها. ورأيت لبعض العلمـاء أن النحلـة إذا كشـفت مرتعـا جيـدا أو أحست بما تريد أن تبلغه إلى أخواتها، تطير حسـب حركـات وخطـوط مقـدرة، يفهـم منها بقية النحل الرسالة التي أرادت إبلاغها. وهو مـن التقـدير العجيـب الـذي لـم يبلـغ البشر إلى اليوم حل شفرته .

فأشارت الآية إلى الترتيب المحكم في تـرابط الكـون بتقـدير مـن خالقـه؛ فـإذا مـاء السماء يسري من الأرض إلى الأشجار، فتخـرج منـه الأزهـار والثمـار التـي ترعاهـا النحل، وإذا النحل يفرز من بطنه ما جمعه برعيـه عنـد سـيره فـي الطبيعـة، يفـرزه عسلا يتناوله البشر، فيجدون فيه شفاء من أسقامهم .

ومن الدقة في التعبير القرآني تنكير كلمـة شـفاء، فعـدم تعريفهـا يـؤذن بوجـود شـفاء غير عام لجميـع أنـواع الأسـقام. وهنـا تـدخل عوامـل كثيـرة قـدرها رب العـالمين ليحصل التأثير، كمرعى النحل، ومزاج المتنـاول، والمقـدار الصـالح للتـأثير، والظـرف الزماني الذي يتم فيه التناول وغير ذلك.

وتختم الآية، بلفت الأنظار لتتبين ما نظمه الباري في حياة النحل وصلتها بالإنسان، حتى يتعمق في ذلك بواسطة تفكيره، فيجد فيه دليلا إضافيا على القدرة والإحكام، وما في بناء الكون من ترابط أوسع من أن يستطيع الإنسان جمع خيوطه.

وكان بعض المتملقين في مجلس المهـدي قـال : إنمـا النحـل بنـو هاشـم يخـرج مـن بطونهم العلم فقال له رجـل :جعـل الله طعامـك وشـرابك ممـا يخـرج مـن بطـونهم.

فضحك المهدي وحـدث بـه المنصـور، فاتخـذوه أضـحوكة مـن أضـاحيكهم. وحقـق الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: أن الذي رد عليه الـرد المناسـب لتجرئـه علـى كتـاب الله، وتحميله ما لا يتحمل تقربا من السلطان، هو بشار بن برد.

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

أرذل العمر : حال هرم البدن وضعف العقل. والرذالة أخس من الرداءة.

الراد : المعطي.

أنفسكم : من نوعكم.

الحفدة : جمع حافد يراد به ابن الابن.

الطيب : الحسن الخالص من النكد.

بيان المعنى الإجمالي :

هو الله وحده الذي خلـق كـل إنسـان علـى وجـه الأرض دون أن يكـون للمخلـوق أي اختيار لا في إيجاده ولا في سماته الخاصة المميزة لـه عـن بقيـة أفـراد النـوع. وهـو الذي يسلبه الحياة في مرحلة من مراحل قوته، أو يمهلـه إلـى أن يغلـب عليـه الضـعف والوهن في بدنه وفي قواه العقلية حتى يكاد لا يـذكر شـيئا ممـا كـان يعلمـه. إن ذلـك أوضح دليل على اتصاف الله بالعلم الشامل والقدرة على إنجاز ما علم أنه سيوجد.

مما تفرد الله به من التصرف فـي قضـايا البشـر، أنـه هـو الـرازق لكـل نفـس مـا تحصل عليه، وتفضيله بعضهم على بعـض، فمـنهم غنـي وفقيـر. والفقـر والغنـى وإن كانا أثرا لأسباب بها تحققت التوسـعة أو التضـييق ، إلا أن الإحاطـة بهـا فـوق طاقـة البشر . وتخلصت الآيـة للاحتجـاج علـى انحـراف تفكيـر الكفـرة، فهـم يـدعون لله شركاء، مع أنهم لا يعطون عبيدهم مـن أمـوالهم مـا يشـركونهم بـه، فكيـف يشـركون بالله أصنامهم؟ والله وحده هو الـذي جعـل للرجـل امـرأة وللمـرأة رجـلا يـتم بينهمـا التكامل حتى يصبحا كأنهما نفس واحدة علاقتهمـا تتجـاوز الإشـباع الجنسـي إلـى بنـاء

أسرة تقوم على العواطف النبيلـة والـود والرحمـة . يسـتمر هـذا الامتـزاج بالإنجـاب الموصول فيجد الزوجان في أحفادهما عونا عند الكبر والحاجـة، وأتـم منتـه بمـا يسـره من مال وما وفره من مـأوى وطعـام ولبـاس ومـن رفاهيـة تتسـع أو تضـيق تبعـا لتقديره سبحانه .

والعجب من أمر الإنسان الذي يعتقد في الباطـل الـذي لا أسـاس لـه ولا حقيقـة، يعتقـد في الأصنام ويتقرب إليها ويكفر بالله.

بيان المعنى العام :

70- والله خلقكم ثم يتوفاكم ...إن الله عليم قدير.

تتابع هذه الآيات كاشفة عن انفراده سبحانه بالتصـرف فـي ذات الإنسـان وفـي رزقـه تصرفا ليس للإنسان فيه اختيار ولا تأثير . فلنتأمل في مضـمون الآيـة التـي كثيـرا مـا يغفل الإنسان عن التأمل والاعتبار به .

أولا : خَلْقُ الإنسان: خروجه للحياة بنفخ الـروح فيـه، صـفاته الخاصـة مـن طـول أو قصر، ومن لون، ومن جمال أو دمامة، ومـن ذكـاء أو غبـاء، وجنسـه ذكـرا أو أنثـى إلى آخر ما يميز كل فرد عن غيره. فهل كان لأي فرد اختيـار فـي الوضـع الـذي هـو عليه . إن الله وحده هو الذي خلق . وكما دخـل الإنسـان للحيـاة فكـذلك يخـرج منهـا بدون إرادته. وكيف يقضي الإنسان حياتـه ؟ يقضـي ردحـا مـن الـزمن وهـو مقبـل عليها مسرورا بها ومنعما راغبا أن تطول أيامه، ثـم ينحـدر فتتهـدُ قـواه شـيئا فشـيئا، وتضعف شهيته للأكل، وتيبس مفاصـله، ويضـعف بصـره وسـمعه ، ويتتـابع سـقوط أسنانه، ويصيبه الوهن، وما يـزال النسـيان وضـعف الـذاكرة يغـزوان بريـق فكـره حتى يكاد لا يرتسم في ذهنه شيء إلا ليسقط سـريعا. ومـن حكمـة القـرآن تخصيصـه لوضع الفكر من بين أعراض الهرم، لأن تميز الجنس البشري بعقله لا ببدنه.

إن من ينظر في تاريخ البشرية التي تواصل أفرادها من آدم إلى اليوم، لا يظفر بفرد هو نسخة مساوية لغيره من أعضاء العائلة البشرية. فمن قسم لكل حظه وخصائصه وحياه بألطافه إلى أن اشتد عوده وأسهم في خلافة الأرض، ثم هدّم تلك القوى شيئا فشيئا إلى قبض روحه؟ أفلا يقوم هذا التدبر في خلق الإنسان شاهدا على تفرد الله بالعلم الكامل، والقدرة التامة على إنجاز ما ثبت في العلم إيجاده . وصدق الله: إن الله عليم قدير .

71- والله فضل بعضكم على بعض ...أفبنعمة الله يجحدون .

ثانيا: في نفس سياق الآية -70- تلفت النظـر إلـى تفـرد الله بالتصـرف، وتـدمج فـي اثناء الاستدلال توبيخا للمشركين .

تثبت الآية أولا: أن الله أعطى لكل كائن رزقه، ولولا رزقه لما سار لحظة في الوجود.

وثانيا: إن الأرزاق تضيق وتتسع تبعا لتقدير إلهي تعجز مداركنا عن كشف الأسباب الحقيقية التي ترتب عنها الثراء أو الفقر. فهو قد فضل بعضنا فوسع عليه فيما آتاه من مال، وضيق على آخرين فهم يعانون من الخصاصة .تجد الذكى العالم يحارب الفقرُ سعادته، وتجد الغبي الجاهل يكثر ماله وتنمو ثرواته، ويحالفه الحظ في معاملاته . وفي كثير من الأحوال تجدهما من أسرة واحدة اتحدت تربيتهما، واتحدت البيئة التي يعملان فيها . أفلا يقوم ذلك دليلا على أن الموسع والمضيق هو الله، وأن التصرف بيده تبعا لحكمته وإن كانت إمكاناتنا تقصر عن إدراك الأسباب الخفية التي تحقق بها الأثر من الغنى أو الفقر . وينسب إلى الإمام الشافعي قوله:

ومن الدليل على القضاء وكونه *** بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ثم أدمجت الآية مفرّعة على التفاوت في الرزق وحرص الإنسان على مكتسباته، أن الإنسان الموسع عليه في المال يمسك ماله لنفسه ولا يرضى أن يشاركه فيه عبيده الذين يتصرف فيهم، فقوله تعالى : [ما ملكت أيمانهم] تعبير يساوي كلمة عبيده، لما كانت العبودية المفيدة لملك السيد تتحقق بأحد أمرين: إما أسر العدو فينقلب رقيقا. والأسر هو قهر أحد المتحاربين من يقاتله فيمسك به بقوة يمينه، وإما أن يشتريه بدفع ثمنه الذي يكون عادة باليمين .

إن هؤلاء الأثرياء لا يرضون بأن يعطوا رزقهم إلى عبيدهم حتى يكونوا شركاء فيه متساوين. فكيف يثبتون لله شركاء يساونه في ملكه؟ أفلا يدل هذا على مناقضة الشرك للعقل والفطرة.

وحق أن يتوجه لهم التوبيخ والتقريع على مقابلتهم النعم بكفرانها، فسألهم سؤال إنكار وتوبيخ أيجحدون نعمة الله عليهم ؟

72-والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا..وبنعمت الله هم يكفرون .

ثالثا: في نفس سياق الآيتين السابقتين يظهر النص القرآني منة ثالثة وتأثيرا مباشرا لله وحده في حياة الإنسان يتمثل في :

أن الله جعل لكل من الجنسين ما يربطه بالجنس الآخر ربطا أخص من التوافق في الخصائص الإنسانية، إذ هو ارتباط يقوى حتى يكون به الزوجان كأنهما نفس واحدة. إن هذا التكامل مع التمازج بلغ به التعبير القرآني (من نفس واحدة) صفاء وشفافية تقتضي لبيان أبعادها كلاما مطولا وتفصيلا، ولكن الظلال التي يوحي بها تفتح آفاقا واسعة، كلما أعاد التالي تمثلها غذته بلطيف المعاني وبديع الأحاسيس.

وهي نعمة من جعْل الله، ليس للإنسان فيهـا يـد. فلـولا تلكـم الرعايـة الربانيـة لكـان البحث عن الجنس الآخر يثور عند السّـبق الجنسـي، حتـى إذا خفتـت داعيـة الشـهوة انفصل كل واحد منهما عن الآخر، كما هو شأن الحياة الحيوانية.

ثم تحققت المنة، بجعلٍ آخر مقرون بالأصـل :هـي الصـلة المسـتمرة مـع المسـتقبل في أولاد الأولاد (الحفدة)، منـة الأسـرة المحضـن الـذي يمتـد مـن الأبـوين إلـى الأولاد وإلى ما ينجبونه . إنه إذا ربيت الأسـر علـى الأصـول الإسـلامية فـإن الجـدود والجدات يجدون في الجيل الثاني أعوانا ومساعدين، وكلمـة الحفـدة أصـلها يـدل علـى الإسراع في الخدمة، فتشير الكلمة حسب بنائها إلى ما غـرس فـي الفطـرة مـع حسـن التربية من إسراع إلى الأخذ بأيدي الكبار من الصغار، وتيسير حياتهم .

و هذه النعمة يتم بها صلابة الارتباط النسبي . فيحمـل الأولاد اسـم العائلـة، ثـم يسـير به الأحفاد مع المستقبل. وكون الإنسان يعـرف نسـبه نعمـة كبـرى يغفـل عـن التنبـه إليها معظم الناس.

-إنه لا تتم السعادة والأنس في العائلة إلا بفضل ما يسّره الله مـن مـال ومـا مكنهـا مـن أرزاق ؛ من المأوى إلى الطعام واللباس، إلى مـا يتـوفر مـن أسـباب الرفاهيـة علـى ما تم تقديره كما جاء في الآية-71-

وتختم الآية كما ختمت الآية السـابقة بسـؤال إنكـاري يـوبخ المشـركين كيـف يقـابلون هذه المنن باعتقادهم في الأصنام الباطلة، ويكفـرون بحـق المتفضـل علـيهم، حقـه فـي اعتقاد وحدانيته، وفي عبادته، وفي التقرب إليه.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

يملكون : يقدرون.

مثلا : مماثلا.

العبد : المملوك الفاقد لحرية التصرف في نفسه وفي ماله.

الكل :العاجز عن القيام بشؤونه ويقوم بها عنه غيره .

مولاه : كافله .

يأمر بالعدل : يأمر بالحق والصواب.

الصراط المستقيم : الطريق الواضح الذي لا التواء فيه .

بيان المعنى الإجمالي :

ينكر القرآن على المشركين عبادتهم لمن لم يستطع أن يعطيهم أي شيء لا من السماوات ولا من الأرض، ويصاحبهم العجز في المستقبل، مما يدل على فساد عقولهم . فإياكم أن تُقرّبوا ما اختص الله به، بمحاولة تشبيهه بما يرتسم في أذهانكم. لا من الموجودات المادية ولا الخيالية. فإن علمكم محدود، وعلم الله لا محدود ولا يستطيع المحدود أن يدرك اللامحدود.

قرب الله الحقيقة بضرب مثل حاصله التنظير بين رجلين : الأول : عبد فاقد للحرية عاجز لا يتصرف في نفسه ولا يملك شيئا، والثاني : حر ذكي رشيد رزقه الله رزقا واسعا من خير ما يتنافس فيه أصحاب الثراء، لا أحد يحدد له التصرف فيما يملك، ثم هو يستمتع برزقه ينفق منه بحكمة وذوق .فهو محبوب من عائلته مشكور ممن لحقهم سخاؤه . هل الرجلان مستويان؟ ولما كان التنظير المقرب في القسم الأول هو للأصنام العاجزين، وفي الثاني مثل للتصرف الإلهي، فإن اللسان يسرع بحمد الله وشكره. وما صرفهم عن شكره وإخلاص العبادة له إلا جهل كثير منهم وهم الدهماء، والأقل يعلم الحقيقة ويخفيها إيثارا لمتاع الحياة الدنيا.

وضرب الله مثلا ثانيا يظهر عجز معبوداتهم التي مثلها القرآن منظّرا لها برجل أخرس لا ينطق ولا يستطيع أن يعبر عما في نفسه، وهو عاجز عن تدبير أمره، فيقوم مالكه بجميع شؤونه .ثم إن مالكه إذا أراد أن يستعين به في قضاء حاجة من حاجاته لا يأتيه بما طلبه منه لغبائه . هذا الرجل التي مواصفاته ما بينته الآية هل يدعي من له عقل، أنه هو ومن يكون عاقلا حكيما لا يغيب عنه أي جانب من جوانب الحقيقة ويأمر بها. وهو سائر في طريق واضح لا خفاء فيه ولا التواء أنهما سواء ؟ وكذلك من يعبد الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئا، ومن يعبد الله المتفضل على الإنسان بتبيين الحق والهداية إلى الصراط المستقيم المنجي .

بيان المعنى العام :

73- ويعبدون من دون الله ما لا يملك...ولا يستطيعون .

سياق الآيات واحد، الدعوة لتوحيد الله ونفي الشرك، وتثبيته بالنعم التي اختص بإسدائها رب العالمين. فهذه الآية تنكر على المشركين عبادتهم للأصنام، والإعراض عن عبادة الله، مع أن تلكم الأصنام لم تقدر على إعطائهم أي مقدار من الرزق الذي ينعمون به من بدء إيجادهم إلى بلوغهم مستوى النضج والقوة. هي عاجزة عن تمكينهم شيئا من الرزق أيا كان مورده، لا من السماوات ولا من الأرض، وهي لا تستطيع أن تنيلهم شيئا في المستقبل، والآية تتضمن توبيخا مبطنا لما قادهم إليه سخافة تفكيرهم.

74-فلا تضربوا لله الأمثال...وأنتم لا تعلمون.

تتابعت الآيات السابقة معرفة بما اختص الله به من القدرة والحكمة والإنعام، وتأكد فيها أنه هو المتصرف في شؤون الخلق لا رب غيره ولا معبود سواه .ومن لوازم التفرد بالخلق أن يأمر عبيده ويوجههم إلى ما فيه خيرهم، وأن ينهاهم عن سلوك الطرق المضللة . فجاءت هذه الآية متضمنة نهي الناس جميعا أن يقيموا أي مقارنة بين الله وبين كل تصور يأتي من الواقع أو من الخيال. ويُقرّبُ هذا المضمون للأذهان ببيان علة النهي؛ إن الله تفرد بالعلم الشامل لما وجد ولما سيوجد وللواجب وللجائز وللمستحيل. وعلْمُ البشر قاصر، لا يستطيع أن يبلغ في أي جزئية من عالم المشاهدة، فضلا عن غيره، الكشف الكامل الذي يتجلى به الموضوع تجليا لا يبقي أي غموض. فإذا كان علم الإنسان يحجبه عن إدراك حقائق الموجودات الحادثة حُجُب هو عاجز عن النفاذ لما وراءها، فمحاولته تمثيل الله ضلال مبين. لأنه من الحقائق العقلية أن القاصر والمحدود لا يصل إلى أن يسع الكامل واللامحدود.

75- ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر ...بل أكثرهم لا يعلمون.

يواصل القرآن بطرق شتى إقناع البشر بحقيقة تفرُّد الله بالخلق والتصرف والرزق. فصيغت هذه الآية صياغة تمثل ذلكم المفهوم بما حاصله : يقرب الله لأذهانكم بالتنظير بين رجلين مختلفين اختلافا كبيرا .

الأول: عبد مملوك فاقد لحرية التصرف في ذاته، ولا يملك شيئا فضلا عن أن يتصرف فيه. أحاط به العجز فأفقده كل قدرة ؛ تصور ما شئت فيه من النقائص كالعمى والصمم والزمانة وفقدان العقل .وهذا ما يمثل أصنامهم، إذ هي حجارة منحوتة في الغالب .

الثاني : حُرٌّ مالك أمر نفسه، وسع الله عليه في رزقــه، فأتــاه المــال الكثيــر الجيــد مــن أفضل ما يتنافس فيه النــاس ؛ ثــم إنــه تبعــا لحصـــافة رأيــه وحســن ذوقــه، ونبيــل عاطفته، لا يختزن ذلك المال كحارس عليه، ولكنه يســتمتع بــه فيتصــرف فيــه تصــرف العاقل السمح، ينفق منه حسبما يهديه إليه حسن تــدبيره ينفــق ســرا وجهــرا دون رقيــب عليه .

يختم التنظير بين المثلين بسؤال، هل يستويان ؟ لا يســتدعي الســؤال جوابــا لأنــه لشــدة وضوحه ليس له إلا جواب واحد، لا مساواة بينهما.

ولكن القرآن بإعجازه يحــول الجــواب إلــى إعــلان مــا ترســخ فــي ضــمير النــاظر والتالي،" الحمد لله " تفرد الله بالحمد والثناء والشــكر فهــو الكامــل المتفضــل، وســبحانه أن يكون له شريك .

ثم ختمت الآية بإعلان: أن أكثر المشركين ما ســوغ لهــم اعتقــاد شــركاء لله إلا ترســخ الجهل فيهم؛ والتعبير بالأكثر جار علــى الدقــة القرآنيــة، فــإن بعــض المشــركين يعلــم الحقيقة ولكن لا يظهرها ولا يعلن عنها تغليبا لحظوظهم الدنيوية.

76- وضرب الله مثلا رجلين أحدهما....وهو على صراط مستقيم .

أضاف القرآن للمثل الأول مثلا آخر تأكيدا للبيان والتوضيح. فضرب الله مثلا برجلين :

1) رجل أبكم، فاقد لما تميز به الإنسان باعتباره كائنــا اجتماعيــا، هــذا الكــائن الــذي لا يمكنه أن يندمج في المجتمع إلا بفضــل مــا رزق مــن النطــق، ولــذا عــرف المناطقــة الإنسان بأنه حيوان ناطق، والنطق قد يكــون بالفعــل؛ وهــو الــذي يســتطيع أن يتحــدث بالكلمات ويبلغ ما في نفسه بالكلمــات والجمــل، ويُســمعها غيــره . وقــد يكــون بــالقوة وهو الذي في لسانه حبسة أعجزته عن الــتكلم بالصــوت ولكنــه يســتطيع أن يبلــغ مــا في نفسه بالإشارة والكتابة والحركات. والقســم الثالــث هــو العــاجز عــن التفاعــل مــع غيره لا بالصوت ولا بالإشارة. وهــذا هــو المــراد بــالأبكم الأخــرس فــي الآيــة .لأن الأصنام المعبودة للمشركين هي كالنوع الأخيــر. وهــو مــع ذلــك عــاجز لا يســتطيع أن يقوم بأي شأن من شؤونه، بل هو يعتمــد علــى مالكــه **(كَـلٌّ علــى مــولاه)** لا يهتــدي للخير أبدا. فكلما طلب منه سيده قضاء أمر لا يرجع إليــه بمــا طلبــه، ومــا أشــد شــقاءه بهذا العبد، وهو مثل للأصنام التي يجهــد عُبّادهــا فــي نقلهــا وتنظيفهــا وحراســتها ولا يستفيدون منها شيئا ولا تعقل عنهم شيئا.

2)أما المعادل فلم يبسط القرآن صــفاته كمــا تــم فــي الآيــة الســابقة ثقتنــا فــي تبليــغ المقصود، واكتفى القرآن بالسؤال عن التسوية بين هــذا المثــل الســيء وبــين مــن بلــغ

من الحكمة أنه لا يأمر إلا بالعـدل، علـى أن الميـزان عنـده لا اخـتلال فيـه، فمعرفتـه بالصواب في كل أمر معرفة كاملة، ولا يتوقع أنه يغفـل عـن أي جانـب ممـا يمكـن أن يلابس ما أمر به . وبالجملة فهو متمكن مـن السـير علـى الطريـق الهـادي الواضـح، الطريق الذي تبدو غايته منذ البداية لا التواء فيه ولا عوج.

والمثل الأول المضروب يمثل وضـع المشـركين مـع أصـنامهم التـي لا تـدرك شـيئا وحاجتها إلى عُبّادها محققة وحاجة عُبّادها إليها معدومـة، وبـذلك تمكـن فـي ضـلالهم، وتنزل بهم عن المستوى الإنساني. والمثـل الثـاني لكمـال الله تعـالى فـي ذاتـه وفـي هدايته للبشرية وتـمكينهم من النعم الجليلة.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)﴾

بيان معاني الألفاظ :

غيب السماوات : ما هو موجود فيها ولا تستطيع مدارك الإنسان أن تصل إليه.

أمر الساعة : الشأن العظيم في لحظة فناء الكون كله .

لمح البصر :إدراك البصر للمرئي.

الفؤاد :العقل

بيان المعنى الإجمالي :

تفرد الله بعلم كل دقيقة من دقـائق مـا حوتـه السـماوات والأرض. والإنسـان لا يـدرك إلا بعض الظواهر، وهو محجوب عن الإحاطة بكل ما حـواه الكـون .إنـه ممـا اخـتص الله بعلمه، وهو الغيب . هذا الكون الواسع الأبعـاد المتغيـر فـي كـل حـين، وُجـد مـن عدم وسينتهي في الوقت المحدد لـه مسـبقا الـذي لا يعلمـه إلا الله، سـيتم إعدامـه فـي لحظة وجيزة بمقدار ما ينقل البصر صورة ما يراه ، بـل أقـل مـن ذلـك وهـذا لـيس بعيدا لأن قدرة الله لا يعجزها شيء .

إنه بقدرة الله وإرادته خرج كل واحد منكم من بطن أمـه صـفحة بيضـاء لا يعلـم شـيئا من هذا الكون، والله هو الذي أودع فـيكم الحـواس الخمـس التـي بهـا اسـتطعتم إدراك ما يجري حولكم، وجعل لكم عقـولا تختزنـون بهـا المحسوسـات وتُركّبـون بهـا مـع المعقولات ما يمكنكم من الاستخلاف فـي الأرض وتوسـيع المعـارف البشـرية. رجـاء أن تدركوا هذه النعمة فتنطلق ألسنتكم بشكر الخلاق العظيم .

بيان المعنى العام :

77-ولله غيب السماوات والأرض...على كل شيء قدير.

علْمُ الإنسان بما حوته الأرض وما حوته السماوات محدود جدا، وما يجهله عنها أكثر مما يعلمه. والله لا يغيب عن علمه شيء، ما كان صغيرا تافها وما كان عظيما جدا كالمجرات .ومما هو مغيب عن علم البشر الوقت الذي حدده الله لفناء الكون .إن فناء الكون أمر ثابت لا شك فيه أخبر بذلك خالقه، الله رب العالمين. ويشهد العقل بذلك لأن التغيرات التي تجري على العوالم تُثْبِتُ بما لا مجال للشك حدوثها، وأنها خرجت من عدم، والقدرة التي أوجدتها لا تعجز عن إنهاء وجودها. وقدر الله أن يتم ذلك بغتة فلا يعلم أحد متى حدوث الساعة، وفي سرعة كبيرة جدا، قرب ذلك بالزمن الذي يحصل فيه ارتسام صورة أي شيء في البصر. وللتدقيق فإن إفناء العالم يتم في لحظة أقل من ذلك. ومما يحقق ذلك وينفي عنه كل بعد أن الذي يفني العالم هو الله الذي لا يوجد ما يعاكس قدرته بل ينقاد كل شيء لما يريده.

78- والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ....لعلكم تشكرون .

تحقق هذه الآية الألطاف التي انفرد الله بإسدائها لخلقه. ساعد الإنسان على المعرفة، هذه المعرفة التي تنمو شيئا فشيئا، وتتكون منها شبكة متلاحمة، هي حظ الإنسان المقدر له منها. يُذكر القرآن كل فرد أنه ولد فنزل من بطن أمه إلى الأرض، وحواسه تكون غير ممرنة على الإدراك وقت خروجه. ؛ ثم تحصل له المعلومات الحسية ثم المعنوية شيئا فشيئا. وأول قنوات المعرفة هو ما يأتي عن طريق الحواس الخمسة، التي من أقواها في المخزون المعرفي ما وصل عن طريق السمع والبصر ولذلك خصت بالذكر. ثم إن هذه المدركات الحسية تختزن في العقل الذي يولد منها ومن المجردات معارفه التي تضيق أو تتسع تبعا لتجاربه، و نباهة فكره، وقدرته على التركيب من الأوليات النتائج التي فيها يتمايز البشر بمقدار ما يبلغون من صواب الاستنتاج .

وهذه النعمة التي سمت من الحواس إلى العقل ناسب أن يتبعها رجاء أن يقدرها البشر حق قدرها فيشكرون الله على ما أنعم ويقبلون على الإسلام .

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا

وَأَشْعَارِهَا أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الجو : ما يلي الأرض من السماء .

يمسكهن : يحميهن من السقوط .

سكنا : مكانا للسكنى والاستقرار .

تستخفونها : تجدونها خفيفة .

الظعن : السفر .

الأثاث : ما يفرش في البيوت كالزرابي، والوسائد .

المتاع: ما يساعد الإنسان في حياته كالأعدال، وخطام البعير، واللبد .

أكنان : جمع كن، ما يقي من البرد والحر في الغيران والكهوف .

السرابيل : جمع سربال، القميص الواقي للجسد .

البأس : الشدة في الحرب.

التولي : الإعراض.

بيان المعنى الإجمالي :

ما بال البشر لا يتأملون في التقدير الإلهي العجيب، في تنظيمه لأمر الكون ؟ فتلك الطيور تسبح بين السماء والأرض، لا يمسكها في الجو إلا القانون الدقيق الذي ركبه الله عليها. إن في طيرانها وما يرتبط به من صنعة تم تدبير كل جزء منها ليقوم معرفا بالدلائل على تصرف الله وحده بالخلق وحكمته فيه، ويجد فيه المؤمنون الطمأنينة الراضية.

والله هو الذي هداكم للعمل فيما بين أيديكم، فاتخذتم منه بيوتا تسكنون فيها، كما هداكم لا تخاذ بيوت هي قباب من جلود الأنعام، أو من الخيام التي تنسجونها من الوبر والشعر والصوف، خفيفة الحمل سهلة الطي والنشر، في السفر والإقامة. كما هداكم لاعتماد أصواف الأنعام ووبر الجمال وشعر المعز لتتخذوا منها الأثاث كالزرابي والبسط والوسائد، وتنتفعون بها ما تكونون منه ما تستمتعون به متاعا هو إلى أمد محدود.

والله قدر أن تبسط المخلوقات القائمة ظلالها فتأوون إلى ظلالها لتلطف عليكم وهج الحر وأشعة الشمس الحارقة ؛ كما قدر أن تنفتح في الجبال كهوف تجدون فيها ما يحميكم من الأعاصير وتقلبات الطقس .كما ألهمكم اتخاذ اللباس الذي يقيكم الحر ويقيكم البرد، ونسج الحديد ليحصنكم من ضرب أعدائكم في القتال، هي نعم تجدون فيما تجمع فيها من ألطاف ما ينفذ إلى عقولكم فتكونون أقرب إلى اعتناق الدين الإسلامي .

لا تتأسف يا محمد ولا تحزن بسبب عناد من لم يسلم فمهمتك لا تتعدى إبلاغ الوحي وتبيينه، وقد قمت بمهمتك على أكمل وجه .

يسلي الله نبيه بإعلامه أن الذين لم يسلموا، بعضهم تبين له أنك على حق وعرف نعم الله، ولكنه أعرض معرضا ومنكرا لها في الظاهر خوفا على ذهاب حظوظه الدنيوية، والأكثرية من الدهماء لم يتأملوا فيما لفت الوحي إليه أنظارهم فثبتوا على الكفر .

بيان المعنى العام :

79- ألم يروا إلى الطير مسخرات...لقوم يؤمنون .

في كل صفحة من كتاب الكون مشاهد تنادي بأن وراء نظامها مدبر حكيم، ولكن تعوُد الإنسان بالمشهد، قد يحجب عنه ما فيه من تقدير عجيب وتدبير بالغ أعلى درجة من الإتقان. يلفت القرآن الأنظار ليكون ما تنقله إليهم حواسهم ينفذ إلى العقل فتسمو مداركهم عن إدراك الحيوانات. إن هذا التأمل مفتاح للتقدم العلمي، ومفتاح ليكون الإيمان أوضح وأشمل.

هذه الآية تُفتَحُ باستفهام لتحرك التالي للتأمل في الطيور التي يراها صباح مساء تخترق الأجواء صاعدة نازلة في يسر وحفظ. إنها قد استطاعت أن تنفلت من جاذبية الأرض، التي ما ارتفع جسم في السماء بقوة دافعة، إلا وتضعف الجاذبية القوة التي رفعته شيئا فشيئا حتى يسقط على الأرض. وترى الطيور تعلو في السماء حتى يبلغ بعضها أعلى قمم الجبال، ولا يمسكها إلا القانون الذي خلقها عليه بارئها . وتصرح الآية في خاتمتها بأن في طيران الطيور دلائل تزيد المؤمنين إيمانا، كخفة عظامها، والأجنحة والريش والذنب، والإرادة التي تحرك أجهزة معقدة فتحركها الحركة التي تندفع بها وتعلو في الجو وتسير يمنة ويسرة وارتفاعا وانخفاضا، وعودة إلى الأرض ثم الطيران من جديد . في كل جزئية من التركيب المتقن للطائر الذي تمكن به من الطيران مع تحقق سلامته، دليل على أن الوضع الذي عليه يستحيل أن يكون من باب الصدفة ؛ وأن الذي رتب تركيبه هو الله سبحانه الذي أحسن كل شيء خلقه .

80 -والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ...ومتاعا إلى حين .

تواصل الآية لفت الأنظار لنعم الله على الإنسان؛ فمنها أنــه ألهمــه الســعي لتشــييد بيــت يجد فيه راحته، ويحفظه من تقلبات الطقس، وتجتمع فيــه الأســرة، وتتحقــق بــه رعايــة الأصول لفروعها. وتتجاور البيوت فتنشأ المدن ومــا يتبعهــا مــن التعــاون ســبيل التقــدم الحضاري .

ونظرا للتركيب الإنساني الخاص الذي هو بين الإقامــة والارتحــال، ألهمــه فــي الحالــة الأخيرة اتخاذ القباب من جلود الأنعام الحافظــة للســاكن داخلهــا حفظــا يقــارب البيــوت المبنية، أو اتخاذه الخيام ممــا ينســجه مــن الــوبر والشــعر والصــوف. وعلــى هــذين النوعين من المرافق التي عليها اعتمــاد ســكان البــوادي الــذين يتبعــون مــواطن الكــلأ لأنعامهم. وكذلك الجيــوش، وكــذلك الفــرق التــي تبعــد عــن المــدن لإنجــاز بعــض المشاريع العمرانية. إن هذه الأنواع من البيوت تحقــق الحمايــة للنــازلين فيهــا، ويســهل نصبها عند النزول، كما يسهل طيها وحملها عند الارتحال.

كما ألهم الإنسان أن يتخذ مــن الــوبر والشــعر والصــوف أثاثــا يبســطه فــي البيــوت كالزرابي، والبسط والوسائد. كما يفتل من الــوبر والشــعر والصــوف مــا يســتعين بــه في شؤون حياته، ويتمتع به متاعا آئل إلى الزوال . إشــارة إلــى أن متــاع الحيــاة الــدنيا هو إلى الأجل الذي قدره الله لبقاء الإنسان الخاص، ولبقاء الكون بصفة عامة .

81- والله جعل لكم مما خلق ظلالا...لعلكم تسلمون .

مواصلة لتعداد الألطاف الإلهية وعونه سبحانه للإنسان، من الأمور التي خلق الله عليها الكون، مع أن معظم البشر لا ينتبهون لها . فالله سبحانه هو الذي مد الظل الحاجب لقوة حرارة أشعة الشمس في الجهة المقابلة لمكانها، والسائر في الصحاري وفي الأوقات التي يشتد فيها حر الشمس يدرك جيدا قيمة هذه النعمة . كما أن الجبال لم يخلقها مصمتة بل جعل فيها مغاور وكهوفا يأوي إليها الإنسان فتحميه من الأمطار ومن الرياح العاتية ومن وهج الشمس، فتكون له سترا وحاميا يأوي إليها كما يأوي إلى بيته الذي بناه .

كما ألهمكم ستر أجسامكم بما تنسجونه من ثياب تقيكم حر الشمس وزمهرير البرد، وتحميكم من ضرب السيف وحد النبل بالدروع التي كان يلبسها المقاتل فيرتد عنها سلاح العدو، وكذلك الخوذات التي تحمي رؤوس الجنود اليوم من الشظايا والرصاص .

إنه على هذا النحو الذي إذا ما تأملتم فيه، يتبين لكــم مــا أكملــه الله علــيكم مــن الــنعم. إن إدراك هذه النعم من شأنه أن يجعل قبــول الــدين الإســلامي واعتقــاد مــا جــاء فيــه قريبا جدا.

82- وبناء على أن النظر في كتاب الكون يفتح للناظر قبول الدين الإسلامي، وأن العناد هو الحائل بين الإنسان وبينه، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على هداية الخلق وإنقاذهم من شر الكفر وسوء عاقبته، وأنه كان يتألم من إصرار قريش على الشرك، تولى القرآن تسليته عن إعراضهم، بتذكيره أن مهمته التي ما قصر فيها، والتي أداها على أكمل وجه، هي فقط عرض ما أنزل عليه على أكمل ما يكون من البيان والوضوح نقيا من الشبهات. مما يشير إلى أن الله راض عنه، وأنه لا يتحمل تبعات المعاندين.

83-يعرفون نعمت الله ... وأكثرهم الكافرون .

تصور الآية دخائل نفوس الكفرة . فعَددٌ منهم كانوا أصحاب فطنة وتيقنوا بأن واهب تلك النعم والهادي إليها هو الله ؛ ولكنهم فوق ذلك عوض أن يقبلوا على الإيمان بقلوب طائعة، وبالشكر لمسديها، اختاروا إظهار الشرك تغليبا للحظوظ الدنيوية، من مال ورئاسة، التي يخشون ضياعها منهم إن هم دخلوا في الإسلام. وأكثر الممتنعين من الإسلام من الدهماء كفرة انصرفوا عن التأمل في براهين الحق فطبعوا على الكفر .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

نبعث : نحضر.

الشهيد : الشاهد.

يستعتبون : الرضا بعد اللوم.

السلم : الاستسلام.

ضل عنهم : غاب عنهم.

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر محذرا لهم، اليوم الذي يُحْضـرُ الله فـي المحشـر مـن كـل أمـة شـاهدا يشـهد بالحق، يقتنع المشهود عليهم بصدقه، فيكشف مـواقفهم فـي الـدنيا، وفـوق هـذا تخـرس أفواه الكافرين فلا يؤذن لهم فـي الكـلام ولا يتوقعـون أن يحصـلوا علـى الرضـا بعـد تقريعهم. وبعد ذلك يرون مكانهم فـي جهـنم وقـد فُتحـت أبوابهـا، فيسـألون ربهـم أن يخفف عنهم من عذابها أو يـؤخرهم؛ ولكـن يسـتقر فـي نفوسـهم اليـأس مـن قبـول توسلاتهم ، فيكون ذلك العذاب النفسي .

ويُحضر الله مـا عبـد مـن دونـه فيفجـأ المشـركين حضـورها، ويخيـل لهـم أنهـم يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسـهم بتحميـل الشـركاء جـزءا مـن المسـؤولية فيقولـون: ربنا! هؤلاء الشركاء أغرونـا بعبـادتهم، وينطـق الله المعبـودات مـن دونـه فيعلنـون: إنكم كاذبون ما دعوناكم لعبادتنـا. وعنـدها يستسـلم الكـافرون ويغيـب عـنهم كـل مـا افتروه على الله. وخُص الكافرون الذين كانوا يمنعـون مـن يرغـب فـي المبايعـة علـى الإسلام بمضاعفة العذاب، لأنهـم كـانوا يفسـدون علـى الـراغبين فـي الإسـلام مـا تفتحت له قلوبهم .

بيان المعنى العام :

84-ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ....ولا هم يستعتبون .

بعد أن لفتت الآيات السابقة الأنظار لما فـي مشـاهد الكـون مـن أدلـة علـى تفـرد الله بالخلق والتدبير والحكمة البالغة وختمت بأن الرسول قـد قـام بمهمتـه أتـم قيـام، وهـو غير مسؤول عن كفر المعاندين، وعمن يعلـم نعمـة الله ولكنـه ينكرهـا تقـديما لحظـوظ الدنيا ؛ واصل القرآن تنبيه المشركين إلى بعـض مشـاهد يـوم القيامـة كأنهـا حاضـرة أمام أعينهم . واذكر يا محمد يوم تحضر الأمـم إلـى المحشـر، ونـدعو مـع كـل أمـة شهيدا يشهد عليهم يكشف عن مـوقفهم مـن رسـالات الله، إنـه لمشـهد عظـيم: :البشـر موقوفون، والشاهد الصادق الذي قد اقتنع بصدقه المشهود علـيهم يعلـن مـا شـاهده فـي الحياة الدنيا . وفي ذلكم مشهد لا يستطيع أحـد أن يـتكلم إلا لمـن يـأذن لـه رب العـزة بالكلام . ولكنه في هذا اليوم لا يأذن للكفرة بالـدفاع عـن أنفسـهم، ولا يطمـع أي مـنهم أن يحصل على الرضا بعد ما يسـمعون الشـهادة، فليسـت شـهادة يعقبهـا الرضـا بعـد اللوم، ولكنها شهادة تطأطئ الرؤوس وتذل المتكبرين .

و في يوم القيامة مواقف :

موقف تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتقدم مــا تظــن أنــه ينفعهــا قــال تعــالى: (يــوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها)[1] - وموقف بعد ذلــك هــو مــا فصــلته الآيــة، يــدعو الله شهيدا يشهد على موقــف كــل أمــة مــن الأمــم مــن رســالة الله إليهــا، المــؤمنين والكافرين، وفي هذا الموقف تخــرس ألســنة الكفــرة فــلا يــؤذن لهــم فــي الكــلام ولا يطمعون في قبول المعاذير قبولا يصحبه الرضا . وهو معنى ولا هم (يستعتبون).

85-وإذا رأى الذين ظلموا العذاب ...ولا هم ينظرون .

بعد الموقف الذي خرست فيه ألسنة الكفار يــوم القيامــة بظهــور الحقيقــة الفاضــحة لهــم وانكشاف ظلمهم ، يحضــر أمــام أعيــنهم مــا أعــده الله لهــم مــن منــازل العــذاب، فينزعجون كأشد ما يكون الانزعــاج، وتنطلــق ألســنتهم بالســؤال أن يخفــف عــنهم، أو أن يؤخروا ولا يسرع بهــم إلــى جهــنم. وحقــق القــرآن أنــه لا يســتجاب لتوســلاتهم، فيكون عذاب اليأس هو أول عذاب يسلط عليهم بعد الموقف السابق المذل.

87/86-وإذا رأى الذين أشركوا....وضل عنهم ما كانوا يفترون.

يتابع القرآن عرض مشاهد يوم القيامة بالنسبة للكافرين. إنــه فــي ذلكــم اليــوم يحضــر الله الآلهة التي عبدها المشــركون مــن دون الله، ويفجــأ المشــركون حضــورها معهــم، وتسول لهم أنفسهم أنهم قد يجدون في حضــورها معهــم مــا يخفــف عــنهم المســؤولية، بتحميل الآلهة ذنب دعوتهم إلى عبادتها . فيقولــون: ربنــا هــذه الآلهــة هــي شــركاؤنا في الذنب أغرتنا بعبادتها، فكنــا نــدعوها مــن دونــك. وهنــا يلقــي الله علــى الأصــنام المعبودة قولا قاطعا يعلنونه: إنكــم أيهــا المشــركون كــاذبون، فمــا كنــا نــدعوكم إلــى الإشراك بالله، ولكنكم اتبعتم خيالاتكم فأســبغتم علينــا صــفة الألوهيــة. وبعــد أن كــذبتهم آلهتهم، ورأوا العجب من نطقها بالحقيقــة، يُظْهــرُ الــذين كفــروا استســلامهم ؛ بمعنــى أنه لم يبق عندهم أي أمل فــي النجــاة، كحالــة الجنــدي المغلــوب المقهــور وقــد ألقــى سلاحه، ومد يديه للقيد . وغاب عــنهم فلــم يجــدوا شــيئا لــه حقيقتــه مــن افتــراءاتهم وكذبهم .

88- الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله...بما كانوا يفسدون.

إذا كانت الآية السابقة كشفت عن الخوف الشــديد الــذي أطبــق علــى المشــركين وقــد صاحبه اليأس من تخفيفه أو إنظارهم . فإن القــرآن فــي هــذه الآيــة قــد أضــاف إلــى الوصف السابق أن العذاب الــذي وجلــوا منــه فســألوا تخفيفــه أو إنظــاره، سيضــاعف

[1] سورة النحل آية 111

على الذين جمعوا بين الكفر وبين منع من حصل منه ميل للدخول في الإسلام. وقد روت كتب السيرة ما كان يقوم به مشركو مكة من الحيلولة بين الوافدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين المبايعة على الإسلام، بالكذب وتصوير الإسلام بصورة مشوهة، وبالإذاية لمن رأوا منه عزما مؤكدا. وحق عليهم مضاعفة العذاب، لأنهم ما اقتنعوا بما هم عليهم من الفساد حتى تحولوا إلى نشر الضلالة والفساد.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (89)

بيان معاني الألفاظ :

التبيان : البيان الكامل.

بيان المعنى الإجمالي :

يطلب الله من نبيه أن يذكر الناس بما يحصل يوم القيامة من دعوة شهيد من أنفسهم لا يستطيعون الطعن فيه يشهد معلنا موقفهم من رسالة الله جل وعلا إليهم. وأنه ﷺ سيكون الشاهد على المؤمنين بما يسرهم، والشاهد على هذه الزمرة التي أشركت بالله وأعرضت عن هدايته. ومع ذلك يُذَكِّرُ الله لنبيه ويخاطبه: إني أنزلت عليك الكتاب القرآن فيه بيان كل شيء يحتاجه الإنسان في حياته الدنيا والأخرة. وهو الكتاب الذي يهدي المسلمين إلى الخير وإلى الصراط المستقيم، ويرحمهم بإعدادهم لفعل الحسن وبصدهم عن القبيح، ويبشرهم بحسن العاقبة .

بيان المعنى العام :

89 - ويوم نبعث من كل أمة شهيدا عليهم ....ورحمة وبشرى للمسلمين .

هذه الآية متصلة بالآية 84 أعيدت فاتحتها لينبني القرآن عليها شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على الأمة التي بعث لهدايتها، وهي تتضمن تهديدا لمشركي مكة بشهادة الرسول عليهم، و قد استحضرتهم الآية بالإشارة إليهم . وهذا التهديد لا يقصر شهادته على من كان حاضرا يوم نزول الآية، بل شهادة الرسل على من بعثوا إليهم تنسحب على الحاضر والمستقبل. والشهادة هنا ليست على وزان الشهادة في الدنيا، إذ أن الشهادة في الآخرة تبنى على علم يقيني عند الشاهد، حصل له إما بالمشاهدة في الدنيا، وإما بما يلقيه الله في نفسه إلقاء يتم به استحضار ما وقع في

الدنيا كأنه يراه رأي العين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المشهود عليه لا يجد مطعنا يطعن به في الشهادة كما نصت عليه الأيتان السابقتان 87/84.

ومع تشريفه صلى الله عليه وسلم بأن شهادته هي المظهرة للحقيقة فتُخْرِسُ المكذبين وتجلي صدق المؤمنين، نوهت الآية بكتاب الإسلام القرآن الذي جمع من المزايا ما لم يجتمع في أي كتاب آخر:

هو مبين أتم بيان وأكمله لكل شيء يرغب الإنسان في الوصول إليه مما اهتمت به الشرائع السماوية. وهذا مما يتطلب بيانا ولو مختصرا يرد اعتراض المعترضين، فأقول: إن القرآن هو الذي يرفع حيرة الفكر فيجيبه عن تساؤلاته عن المبدأ والمصير، ويبين للإنسان منزلته في الكون وصلته ببقية الكائنات، ويفتح للروح قبسا من النور يكسبها الطمأنينة والرضا. إنه يعمق الإحساس بوحدة الإنسان مع الكون، وبوحدة المؤمنين، وبالوحدة الإنسانية بغرسه للفضيلة وقلعه للرذيلة، ونشر القيم الخلقية الرفيعة وتقويم ما اعوج من العادات والسلوك. والقرآن يقيم العدالة ويقتلع الظلم والاستبداد، ويبين الحقوق بيانا يحميها به من الاختلاط. ويربي البشر على الفضيلة ويجعلهم يمقتون الرذيلة ويقاومونها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بما يحقق بناء المجتمع الفاضل. ويقيم العقل على المنهج العلمي الدقيق (ولا تقف ما ليس لك به علم)[1] بما يفتحه هذا المنهج من اقتدار على السمو بما هو تحت تصرف الإنسان في الكون. إن تحليل مضمون هذه الآية أوسع من هذا المقام ولكن في ذلك إشارة مجملة لبركات القرآن التي لا يحد عطاؤها. وخصصت الآية من تلك الآفاق على ثلاثة أشياء :

1)الهدى : فإنه وإن كان داخلا تحت مظلة "بيانا لكل شيء " إلا أن المقصود الأهم من تشريع الشرائع هو هداية الإنسانية التائهة الضالة، والقرآن هو المنهج الكامل في هذا الباب، كما بينا شيئا من ذلك في قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) وبقية الرسالات بين رسالات بادت ولم يبق منها شيء، وبين رسالات حرفت يمعن متبعوها في الضلال .فالتنبيه على القرآن بكونه هدى يبرز هذه الصفة التي اختص بها القرآن، والتي هي أنفس ما تفضل الله به على الناس، وأحوج ما يكون الإنسان إليها.

2) الرحمة :من أحسن ما فسرت به الرحمة وصفا لله تعالى، ما جاء في كلام القاشاني الرحمة على قسمين :امتنانية ووجوبية . فأما الامتنانية فهي الرحمة

[1] سورة الإسراء آية 36

المفضية للنعم السابقة على العمل، وهـــي التـــي وســـعت كـــل شـــيء، وأمـــا الوجوبيـــة فهي الموعودة للمتقين والمحسنين فـــي قولـــه تعـــالى : (فســـأكتبها للـــذين يتقـــون)[1] – وفي قوله تعالى :(إن رحمـــة الله قريـــب مـــن المحســـنين) [2]– ولمـــا كانـــت فـــي الآيـــة حديثا عن القرآن وهـــو كـــلام الله، فيكـــون المعنـــى: إن القـــرآن يعـــد الإنســـان للعمـــل الصالح الذي يسعده في دنيـــاه وأخـــراه . والقـــرآن رحمـــة بمـــا يحقـــق وعـــد الله علـــى تلاوته والعمل به من الثواب ورفيع المنزلة .

3) البشرى : ما يحصل للمتدبر وهو ينتقل بين الآيات الدالـــة علـــى حســـن ثـــواب الـــدنيا والآخرة للمؤمنين، وما يفتح مـــن الأمـــل الرحـــب فـــي فضـــل الله، ومـــا ينشـــرح بـــه الصدر كلما ألم به الحزن أو الضيق بما يجـــد فيـــه مـــن وعـــد الله بأنـــه مـــع المـــؤمنين وإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا[3] .

وهذه الهبات القرآنية الثلاثة لا تحصل إلا للمسلمين.

• إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

العدل : إعطاء الحق لصاحبه.

---

[1] سورة الأعراف آية 156

[2] سورة الأعراف آية 56

[3] سورة الشرح آية 6/5

الإحسان : مرتبة فوق العدل يكون بها العدل أتم.

ذوو القربى: من يجمعك به صلة نسب أو مصاهرة .

الفحشاء : ما عظم قبحه من العقائد والأفعال والأقوال.

المنكر : ما ترفضه الشريعة والفطرة السليمة وتستقبحه .

البغي : الاعتداء.

الوعظ : كلام يقصد منه التأثير في المخاطب ليبتعد عن الشر، ويفعل الخير.

التذكر : مراجعة ما استقر في النفس وحصلت غفلة عنه.

أوفوا: أنجزوا ما عاهدتم عليه.

العهد : الالتزام، وقد يؤكد باليمين .

نقض اليمين : إبطال المحلوف عليه .

بعد توكيدها: مع ما صحبها من توثيق.

الكفيل : الضامن والرقيب.

نقضت : حلت ما غزلته وأعادته على الحالة التي كان عليها قبل غزله.

الغزل : المغزول من الصوف أو الشعر أو القطن.

من بعد قوة: من بعد إحكام الغزل.

أنكاثا : جمع نكث بمعنى نقض .

دخلا: فسادا. ذريعة إلى الغدر.

أمة: طائفة مترابطة من الناس، أو قبيلة، أو ما هو أوسع منهما.

أربى : أزيد.

يبلوكم : يختبركم.

الزلل : انزلاق الرجل لعدم ثباتها وقد يعقبها السقوط.

تذوقوا السوء : تحسوا إحساسا قويا بالألم.

صددتم : أعرضتم.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية تمثل ميثاقا غليظا، على كل مؤمن أن يواصل تذكره له، ويراجع نفسه دائما ليطمئن أنه عامل به. أول بند هو التزام العدل في علاقته بالله، وفي علاقته بأعضاء أسرته، وفي علاقته بمن يتعامل معه، وفي علاقته بالمحكومين إن كان حاكما من السلطة التنفيذية أو القضائية. وفي علاقته بالكون، وحتى في علاقته بنفسه. وثاني بند هو الإحسان أن يسمو إلى مرتبة في التعامل فترقى همته إلى ما هو فوق الواجب عليه. والبند الثالث أن تكون علاقته بأعضاء أسرته الأقرباء

والبعيدين، ممن تربطه بهم آصرة النسب أو الصهر، أن يكون ذاكرا لهم ذكرا ينيلهم من لين كلامه ومن ماله إنفاقا أو إهداء في حدود ما أنعم الله به عليه ،حتى يكون بناء الأسرة قاعدة البناء الاجتماعي قويا متماسكا .

كما نهت الآية عن ثلاثة أشياء معاكسة للثلاثة المأمور بها، مهدمة للمجتمع. فنهت عن الفحشاء ما كان قبحه فظيعا، إذ الإتيان بما هو مستفظع يفسد الخلق العام ويسفل المجتمع به .وكذلك المنكرات التي يرفضها العقل والشرع وتؤثر فسادا في الأفراد وفي المجتمعات .والطامة الكبرى هي البغي والاعتداء على حقوق الآخرين. كان الدافع لذلك التسلط على الناس بالمركز السياسي أو بالقوة المالية أو البدنية، أو كان الدافع رد الاعتداء بما هو أشد عنفا وتسلطا.

ثم دعا القرآن إلى الالتزام بالوفاء بالعهود، ما كان منها بين الإنسان وربه وما كان بين البشر في تعاملاتهم. خاصة إذا تأكد العهد بالقسم بالله الذي جعله الحالف شاهدا عليه وضامنا لوفائه . وليعلم ناقض العهد المقسم عليه أن الله يعلم حقيقة ما تنطوي عليه نفسه، والظروف التي تبعها نكث العهد. ولا يروج على الله المعاذير الكاذبة، فإنه سيجزي الناكث، ولو استطاع أن يفلت من العقاب العاجل.

ثم شبه الناكثين بامرأة بلهاء كانت تجمع جواريها كل صباح فيغزلن ما بين أيديهن من الصوف أو الشعر أو الوبر إلى الظهر، ثم تأمرهن بنقض ما غزلنه ليعود إلى الحالة التي كان عليه قبل الغزل. وهذا هو شأن الذي ينقض عهده ويجعل أيمانه الموثقة سببا لحصول القطيعة والخصام. وقد يحمله على هذا أنه تراءى له أن الجماعة التي يريد أن ينتسب إليها وينقض عهده ليرتبط بها أنفع له، لقوتها أو كثرة مالها أو عددها، من الجماعة التي نقض معها عهده . إن في ذلك اختبارا من الله ليتبين الصادق العهد من الخائن، وسيجزى كلا بما فعل فيجد الناكث خسارته والموفي حسن جزائه.

إنه لو شاء الله أن يخلق البشر على نمط واحد مفطورين على الخير عاجزين عن الشر لخلقهم كذلك، ولكنه بحكمته أراد أن يخلق البشر ممكنين من الخير والشر مختارين لا ملجئين. ولكن الله المتحكم في الكون كله وفيما يجري فيه يحيط بألطافه من شاء له الخير فيميل إليه ويسعى لتحقيقه ويعقب ذلك إنه سبحانه بإنجاز ما جمع له المكلف الأسباب التي في مقدوره . وبالعكس فإنه قد يمنع ألطافه عمن يشاء فيسبق إلى المعصية فيقع ما يقع منه من الشر بخلق الله، ويُحاسب الفريقان، كل على ما هيأ وأعد .وهو العدل والله لا يظلم أحدا.

ولليمين نفاذهـا وقوتهـا فـلا تتوسـلوا بهـا لإدخـال الفسـاد فـي نفوسـكم أولا وفـي مجتمعاتكم ثانيا. فإن نقض الأيمان يترتب عنه فساد فـي النسـيج الجـامع لكـم، ويكـون حال المستهين بما حلف عليه كحـال السـائر فـي الطريـق تنزلـق بـه قدمـه فيسـقط. والسقوط تتبعه مساوئ خاصـة إذا كانـت اليمـين علـى الالتـزام بشـرع الله، إذ يعتبـر المستهين بيمينه معرضا عن طريق الله، وخاتمته العذاب العظيم يوم القيامة .

بيان المعنى العام :

90- إن الله يأمر بالعدل والإحسان...يعظكم لعلكم تذكرون .

هذه الآية تمثل ميثاقا جامعا للفضـائل، مقـررا للمـنهج الـذي يرضـاه الله ويـأمر بـه المؤمنين ليلتزموه، شاملا لأصول الشـريعة . فقـد أمـرت المـؤمنين بثلاثـة أشـياء – العدل – الإحسان – إيتـاء المعـروف لـذوي القربـى– ونهـتهم عـن ثلاثـة أشـياء – الفحشاء – المنكر – البغي – ولما جمعتـه مـن أصـول الهـدى والخيـر، ومـن تحديـد واضح للمنهج الإسلامي الـذي يتحـتم علـى المـؤمنين أن يكونـوا ذاكـرين لـه، كتـب الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضـي الله عنـه إلـى الخطبـاء أن يختمـوا خطـبهم يوم الجمعة بهذه الآية .

- بكل تأكيد يأمر الله، وأمره سبحانه واجب لا خيـرةَ فيـه، بـأن يلتـزم النـاس فـي حياتهم الوفاء لما تضمنته الآية، فقدم العدل.

والعدل هو العدل الشامل لجميع علاقات الإنسان. فالعـدل فـي علاقـة الإنسـان بربـه أن يقر بأنه هو الله الواحد الأحد ولا يشرك به شـيئا، ويقابلـه الشـرك وهـو أعظـم الظلـم. وأن يخلص له في عبادته ألا لله الـدين الخـالص، والتقـرب لغيـر الله أو تعليـق الآمـال به انحراف عن الصراط السوي الذي هو العدل. والعـدل فـي علاقـة الإنسـان بأسـرته الوالدين والزوجـة والأولاد. وذلـك بمراعـاة مقتضـيات الكرامـة الإنسـانية، وتمكيـنهم من حقوقهم التي ضبطها الإسلام، وعـدم التمييـز بيـنهم تمييـزا يغـرس فـي نفوسـهم الحقد والفرقة. والعدل فـي علاقـة الإنسـان بأخيـه الإنسـان باحترامـه، وأن لا يظلمـه بالتعدي على ماله أو عرضـه ظلمـا مسـتندا إلـى القـوة، أو إلـى الخبـث والاحتيـال. والعدل في علاقة الإنسان بالكون بأن لا يسمح لنفسه بإفسـاد مـا فـي هـذا الكـون مـن جمال ومن توازن، ومن خيرات ينتفع بها ولا يبـددها، كمـا لا يكتنزهـا لنفسـه ويحـرم البشرية مما أفاء الله عليه. والعدل فـي علاقـة الحـاكم بـالمواطنين فـلا هـو يظلـم أي فرد منهم أو ينتقص من حقوقه، أو يميزه تمييزا يغمـط بـه حـق غيـره .كمـا لا يظلـم المواطنون من ولي الحكم فيهم بالطعن فيه أو العمل علـى الانتقـاض عليـه مـا دام يقـيم

العدل فيهم. وعلى هذا النسق يفهم العــدل . وإن مــا تتغنـــى بــه البشــرية اليــوم مــن الديموقراطية لا يكون بها العالم سعيدا إذا لم يُحتَــرَم العــدل احترامــا صــارما لا تهــاون فيه.

وثنّى بالإحسان: وهو مرتبة أرقى من العدل، ذلك أن العدل هــو الحــد الفاصــل بــين مــا يحل للإنسان عمله، وكسر ذلك الحد حرام منهــي عنــه، صــاحبه غيــر مطبــق لشــرع الله. فالإحسان أن تسمو بالعدل إلى مرتبــة مــن الســماحة والرفعــة، فيتنــازل المحســن عن بعض حقوقه، أو يحمل نفسه مرتبة أرفع هي غيــر واجبــة عليــه رغبــة فــي نيــل درجة الإحسان. فالإحسان في علاقة الإنســان بخالقــه مــثلا: أن يكــون مستحضــرا فــي وعيه أن الله معه في كل لحظة وفي كل عمل يقــوم بــه، وفــي عبادتــه بصــفة أخــص، قال صلى الله عليه وسلم: الإحسان أن تعبد الله كأنك تــراه. ومــن الإحســان فــي الأســرة أن يربيها على الحب وينفق عليها بسماحة في غيــر ســرف. وعلــى هــذا النحــو يــذهب العقل في تصور سيرورة الإحسان في كل شيء، حتــى فــي ذكــاة الحيــوان بــأن تشــحذ السكين ليكون ذبح الحيوان أقل إيلاما .وقــد قــال صــلى الله عليــه وســلم: إن الله كتــب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحســنوا القتلــة وإذا ذبحــتم فأحســنوا الذبحــة. وليحــد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته. رواه مسلم وأحمد عن شداد بن أوس[1].

وثلث بإيتاء ذي القربى، أي إعطاؤهم المال عــن ســماحة. وخــص القرابــة نظــرا مــن القرآن إلى تمتين بناء الأسرة، فأمر سبحانه أن يذكر كــل واجــد أعضــاء أســرته الــذين لا يجب أن ينفق عليهم، وهم في حاجة بــل حتــى الــذين يملكــون الكفــاف يهــدي لهــم، وبذلك تقوى لحمة القرابة والنسب . ويكون البناء الاجتماعي بناء متماسكا.

ثم عطف القرآن على المقومات الإيجابية الثلاثة ما يحصــنها بــالنهي عــن مفاســد ثــلاث هي: الفحشاء – المنكر – البغي –

أما الفحشاء فهي كلمة يدخل تحت مدلولها كل عمــل أو قــول تســتقطعه الفطــرة، فيســقط صاحبها إلى المنازل الســاقطة فــي نظــر الجماعــة. كالزنــا والقــذف والتطــاول علــى الصالحين وأهل العلم، وترويج الشائعات المحيرة، وقطع الطريق .....

وأما المنكر فهو ما ترفضه الفطرة الســليمة وتكرهــه الشــريعة مــن الأفعــال والأقــوال. ومن المنكرات مــا هــو محــرم كشــرب الخمــر والقمــار والكــذب، وكاللبــاس الــوقح الكاشف ونحو ذلك مما نهت عنه الشريعة ورفضته الفطرة والعقل.

---

[1] فيض القدير ج2 ص245 ح1761

وأما البغي الذي هو الاعتــداء علــى الآخــر. فإنــه قــد يكــون ابتــداء دون إثــارة مــن الطرف المقابل، كشأن الشطار والبلطجية الــذين يقصـــدون بــث الإرهــاب فــي النفــوس ليطوعوا أكثر ما يمكن لإرادتهــم الشــريرة . وكشــأن الحكــام الظلمــة الــذين يقرنــون الظلم بالتخويف من الــبطش والإهانــة. وكقطــاع الطــرق. ومنــه مــا يكــون رد فعــل فيبالغ المعتدى عليه في الانتقــام فينقلــب معتــديا، قــال تعــالى :(فمــن اعتــدى علــيكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين)[1]

إن ما جمعته الآية من الأوامر، وما ساقته من النــواهي، كلــه يســتجيب للفطــرة وللعقــل المستنير وللميزان الذي يقوم عليه نظــام المجموعــة البشــرية، وباختلالــه يختــل البنــاء الاجتماعي، وتنتشر الفوضى . فلذلك ختمت الآيــة بــأن المقصــود ممــا ذكرتــه أن تنفــذ إلى القلوب فتحركها لتكتسب حماية من السقوط فــي الســفالة، وتبقــى فــي منزلتهــا مــن الكمال النفساني المقترن بالتزام ديــن الله. إنــه بتنزيــل هــذه الآيــة، وبمــا أن المــؤمنين يلتزمون تلاوة القرآن، فإنه يترتب على ذلك أن يكونوا ذاكــرين لمــا أمــرهم بــه القــرآن وبما نهاهم عنه ذكرا فاعلا في عقولهم ثابتا في نفوسهم.

91-وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ....إن الله يعلم ما تفعلون .

يواصل القرآن تفصيل الميثاق الخلقــي، فيــأمر مــن التــزم التزامــا وثقــه علــى نفســه باختياره مما هو غير منهي عنه، يــأمره بــأن يــوفي بمــا التزمــه . وهــذه الالتزامــات على مراتب: الالتزام بما عاهد عليه المــؤمن ربــه. وقــد أخــذت هــذه العهــود علــى المؤمنين الأولين بالطاعة للتشريع والآداب ونصر الــدين، ممــا يــبلغهم إيــاه رســول الله صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك ما بــايع عليــه المســلمون تحــت الشــجرة، ومــن ذلــك أيضا ما ذكر في سورة الممتحنة مــن مبايعــة المهاجرات.....ويســري هــذا علــى كــل مسلم إلى يوم القيامة. فــإن الإســلام معنــاه الالتــزام بشــرع الله المبنــي علــى عقيــدة التوحيد. وكذلك ما يلتزم به المؤمن من العقود والمواثيق بينــه وبــين مــن يتعامــل معــه. إن الطمأنينة في ساحة المعاملات هــي قاعــدة النجــاح الاقتصــادي، بمــا يصــحبه مــن وفرة فرص العمل، وهي من ناحية أخرى داعية للدخول فــي ديــن الإســلام، فــإن غيــر المسلمين إذا استقر في نفوسهم وفاء المسلمين لعهــودهم، فإنــه ينتهــي بهــم الأمــر إلــى أمرين : أحدهما مؤكد مواصلة التعامل وتقدير أخــلاق الإســلام، وثانيهمــا الــدخول فــي دين الله تقديرا لما وجدوه من المسلمين من الثقة بهم.

---

[1] سورة البقرة آية194

وقد تكون العهود موثقة بالقسم على الوفاء، فيكون عدم الوفاء بها جامعا لمنكرين : منكر إخلاف العهد، ومنكر الاستهانة برقابة الله التي جعلها الحالف موثقة لوفائه وبضمانه سبحانه الضمان الذي رضي المتعامل به وثيقة في تحقق ما تم عليه الاتفاق . وليتيقن كل معاهد حالف بالله أن الله يعلم حقيقة ما يفعله المعاهدون. وفي هذا إشارة إلى أن بعض ناقضي العهد قد يقدمون من المعاذير الكاذبة، والتي يحسنون تزويقها فتروج عند الطرف المقابل، ولكن الله يعلم بواطن الأمور . ولئن استطاعوا خداع البشر فإن الله لا يخدع وسيحاسب المعاهد الناكث على فعله.

92-ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها...ما كنتم فيه تختلفون.

تشوه الآية صورة الناكثين بما يشمئز منه كل كريم طبع مستقيم الفكر. تعرض الآية حال امرأة قرشية معروفة بالبله وقت نزول الآية، قيل اسمها ريطة التيمية، ولم يذكر القرآن اسمها بل عرفها باسم الموصول [التي نقضت غزلها] لاستحضار خرقها واختلال مداركها . كانت تجمع جواريها عند الصباح لغزل الصوف أو الشعر غزلا محكما، حتى إذا جاء وقت الظهيرة أمرتهن بنقض ما غزلن وإعادته إلى ما كان عليه. وهكذا كان شأنها كل يوم .

إن الناس يتعاملون فيما بينهم فيحصل من ذلك نسيج اجتماعي يقوي الروابط بينهم، وكذلك يدخل الناس في دين الله فتتمتّن روابطهم بالعقيدة ويصبحون إخوة .فيكون الذي ينقض العهد الإيماني، أو المواثيق التي أخذها منه المتعامل معه، شبيها بهذه المرأة الخرقاء التي كلما تحولت المادة التي عملت فيها مع جواريها إلى ما يصْلُحُ لحمة أو سدى تعيده منقوضا على الحالة التي كان عليها قبل أن يبذلن فيه الجهد طيلة الفترة الصباحية.

ثم رفعت الآية إلى السطح أثر ذلك وعلته. فأما الأثر فهو أن نقض العهد يفضي إلى انقلاب الصلات الاجتماعية إلى وضع من الفساد ترتفع به الثقة والطمأنينة وهو غدر بمن أخذ العهد واطمأن يفضي إلى الخصام . فارتفاع الثقة بين الناس فيه فساد كبير [دخلا بينكم] وأما العلة، فهي أن الناقض للعهد قد يكون يبغي من ذلك أن يحقق ارتباطه بأمة لها مكانة أرفع، أو ثراء أوسع، أو قوة أظهر، ويبطل عهده لأجل ذلك مع من سبق أن عاهده ووثق ارتباطه به . وقد كان فاشيا في العرف الجاهلي أن يفسخ المعاهد عهده إذا دعته قبيلة يرى أن انقلابه على عهده مع الأولى خير له. ثم حذرهم من الانسياق مع العواطف، التي من أخسها وأسوئها، الافتتان بما كان عليه بعض المشركين من ثراء وقوة، وأعلمهم أن تلكم المظاهر هي

اختبار يتميز به الصادقون من الكاذبين . ثم إن الله مظهر يـوم القيامـة مـا اختلفـتم فيـه في الدنيا، يظهر سبحانه صلاح عاقبة الثابتين على عهودهم وسوء مآل الناكثين.

93- ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً...ولتسألن عما كنتم تعملون .

لقد مضى شأن البشر مع المواثيـق والعهـود علـى منهجـين : مـنهج المتمسـك بعهـده الثابت عليه، له ميزان واحـد هـو الوفـاء ؛ ومـنهج الـذين لا أيمـان لهـم ولا عهـود يبحثون عـن مصـالحهم العاجلـة فـلا يعيـرون لأيمـانهم وعهـودهم أي قيمـة، بـل يطرحونها كأن لم تكن، ثم يندمجون مع من يظنون أنه يحقق مصالحهم العاجلة .

إنه لو شاء الله أن يكون البشر نمطـا واحـدا مـن الخيـر والوفـاء بـالعهود والأيمـان، لركب خلقتهم تركيبا لا تستطيع معـه أن تخـرج مـن الفضـيلة إلـى الرذيلـة ولا مـن الوفاء إلى الغدر. ولكن خلقهم مـؤهلين للمنهجـين يختـارون مـا يشـاؤون دون ضـغط عليهم أو إلجاء، وإن الله بحكمته، التـي يعجـز البشـر عـن إدراكهـا إدراكـا حاصـرا وكاملا، يحيط سبحانه البعض بالألطاف التي بهـا يسـبق إلـى الإيمـان وإلـى الأعمـال الصالحة، فتتعلـق إرادة الفـرد بالثبـات علـى الطريـق المسـتقيم، ويجاهـد وسـاوس الشيطان، وتعظم أشواقه إلى الطاعـة و يشـرق فـي قلبـه حـب الخيـر. كمـا يحـرم البعض الآخر من تلكم الألطاف فإذا هو يجنح إلى الإلحاد وما يتبعه من فساد.

إنه إذا ما اختار الإنسان طريق الهدى وكـل عمـل جزئـي يـدخل فـي نطاقـه وتوجـه إليه، فإن الله يقدره عليـه ولا يحـول بينـه وبـين مـراده ويـأذن الله بتحقـق مـا أراده المُوفّق . كما أنه في الجهة المقابلة إذا اختار مسلك الضـلالة وكـل عمـل جزئـي يـدخل في نطاقها فإن الله لا يحـول بينـه وبـين مـراده ويـأذن بتحقـق مـا أراده المخـذُول . وحسبما أفهم ختمت الآية بالتأكيد على أبلغ وجه أن الإنسـان مسـؤول عـن أعمالـه فـي الدنيا. ويتحقق من ناحية أخرى العدل الإلهي. لقد نفـى الله عـن نفسـه خمـس مـرات في القرآن أن يكون ظلاما للعبيد.

94-ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ...ولكم عذاب عظيم .

أولى القرآن عناية شديدة بالوفاء بالعهود والحفـاظ علـى الأيمـان وعـدم نقضـها؛ فـأمر بذلك في الآية91 أمرا أحاطه بتأكيـدات متنوعـة، ثـم صـور فـي الآيـة 92 بشـاعة الناكثين المتحللين. وفي هذه الآية صرح بالنهي عـن نقـض الأيمـان قارنـا للنهـي بمـا يؤثر في التالين تأثيرا يبلغ بهم حد الاشمئزاز من عدم الوفاء بالأيمان .

إياكم أيها المؤمنون أن تتوسلوا بالأيمان إلى إدخال الفسـاد فـي بنـائكم الاجتمـاعي، لمـا يعقب نقض الأيمان من البغض والكراهية والنزاع، وبالتـالي ارتفـاع الثقـة فيمـا بيـنكم.

إن اتخاذ الأيمان سبيلا للخداع والغش يزعزع قبل كـل شـيء ضـمير المخـادع فيجعلـه غير واثق من نفسه متقلقلا غير ثابت، ومـن إعجـاز القـرآن أنـه مثـل المخـادع بمـن يسير ثابتا في الطريق فتزل قدمـه، ويفقـد توازنـه. وهـذه الصـورة الحيـة المتحركـة تثير في الخيال ما ينفر منها، إذ زلل القدم بعد ثبوتهـا كثيـرا مـا يعقبـه تهشـم العظـام وتسلخ الجلد وتلوث المظهر العام، إن نقض الأيمان نهايتـه إحسـاس شـديد بـالألم لمـا يصحبه من تفكـك الـروابط وتقلـص المعـاملات، ويتبعـه خـراب اقتصـادي ووفـرة البطالة في الدنيا، وخاتمته اعتبار النـاكثين مـن المعرضـين عـن طريـق الله، خاصـة إذا كانـت العهـود والأيمـان علـى الالتـزام بالإسـلام وتطبيـق شـرع الله. وإنـذار بالخسران العظيم يوم القيامة، بأن المآل هو عذاب عظيم لا يقدر قدره إلا الله.

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (95) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96)

بيان معاني الألفاظ :

ثمنا : عوضا.

ما عند الله : ما ادخره الله للمسلمين في الدنيا والآخرة .

ينفد : ينقرض ويفنى.

باق : مستمر لا يفنى.

بيان المعنى الاجمالي :

تواصلت عناية القرآن ليكون المسـلمون أوفيـاء لعهـودهم وخاصـة مـا عاهـدوا عليـه رسول الله ﷺ من الالتزام بعقيدة الإسـلام وبشـرعه. وكـان المشـركون يعملـون علـى فتنة بعض المسلمين، ويُغـرُونَهُمْ بشـيء مـن أعـراض الحيـاة الـدنيا. فنهـاهم الله أن يدخلوا في هذه الصفقة الخاسرة وأن يبيعوا مـا رزقهـم الله مـن نفـيس الهدايـة للإيمـان بثمن قليل مؤكدا: أن ما ادخره الله للمؤمنين هو خير مـن كـل مقابـل يبـذل فـي سـبيل التفريط فيه. يتضح لكم ذلك أن ما يملكه البشر يزول ويفنـى قريبـا. أمـا مـا ادخـره الله وما يملكه سبحانه فهو باق لا يفنى . وإنـه سـبحانه لكرمـه سـيجزي الصـامدين الـذين أقاموا على ما عاهـدوا الله عليـه، سـيجزيهم جـزاء علـى جميـع أعمـالهم الصـالحة ويكون الجزاء لكل عمل على مستوى أحسن الأعمال .

ويؤكد القران أن مـــن يتوجـــه إلـــى صـــالح الأعمـــال بميـــزان الشـــرع، يكتـــب الله لـــه جزاءين، جزاء في الدنيا هو الشعور بالسعادة والرضـــا . وجـــزاء فـــي الآخـــرة بتســـجيل جميع أعماله بميزان أحسن الأعمال، فضلا من الله، يستوي في ذلك الذكر والأنثى.

بيان المعنى العام :

96/95- ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ...أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

يواصل القرآن حث المـــؤمنين علـــى الوفـــاء بـــالعهود التـــي يقطعونهـــا علـــى أنفســـهم، وأهمها العهد على الإسلام.

بذل المشركون بمكة كل طاقاتهم لتحويـــل مـــن أســـلم عـــن الإيمـــان، وكـــانوا يعتمـــدون الإغراء تارة، والتهديد تارة، والتعذيب تارة أخرى، حســـب مـــا يظنـــون أنـــه يـــؤثر فـــي الشخص الذي يرومون فتنته . فكـــانوا يغـــرون ضـــعفة المســـلمين بالمـــال أو المســـاعدة في نشاطه إن هـــو أقلـــع عـــن الإســـلام وعـــاد إلـــى الشـــرك .فاهتمـــت الآيـــة بهـــؤلاء المُعْرّضين للفتنة وأيقظتهم بالنهي أولا عن نقـــض العهـــد، وثانيـــا بتنبـــيههم أن مـــا يبـــذل لهم من المشركين هو عوض قليل تافه لا قيمة لـــه مهمـــا غـــلا فـــي مقابـــل مـــا يبغونـــه منهم من الكفر، لأن المبذول يخرجهم مـــن رحمـــة الله ومـــا يـــنعم بـــه المؤمنـــون مـــن خيرات وفضل من ربهم . وأخرج النهي في صورة صفقة خاســـرة لمـــن بـــذل دينـــه فـــي مقابل إغراءات المشركين .

إنه إذا حركتم عقولكم ونظرتم نظرة معمقة فإنـــه يحصـــل لكـــم العلـــم اليقينـــي بـــأن مـــا ادخره الله للمؤمنين خير لا يقارن بمـــا يبذلـــه المشـــركون. إنـــه الوعـــد المـــبطن بنصـــر دينه وانهزام الشرك، والفوز يوم القيامة. وجلت الآية96 ذلكـــم المفهـــوم بـــأن مـــا عنـــد المشركين هو محدود يسرع إليه الذوبان والفنـــاء، وأمـــا مـــا ادخـــره الله لكـــم فهـــو بـــاق مستمر لا ينفد. إنه عطاء الـــدنيا بمـــا وعـــد الله بـــه مـــن نصـــر دينـــه وهـــزم الشـــرك والقضاء عليه، وإنه الفضل الإلهي الـــذي يـــنعم بـــه المؤمنـــون فـــي الحيـــاة الـــدنيا بمـــا يسكبه في بواطنهم من السكينة والطمأنينة والرضـــا، وفـــي الآخـــرة بـــالنعيم المقـــيم فـــي جنة الخلد . وكل ذلك نعيم باق مستمر. وتؤكد الآيـــة فـــي نهايتهـــا تأكيـــدا بالغـــا الوعـــد الإلهي وتفصله: إن الله سيجزي الذين صـــبروا علـــى الوفـــاء بعهـــودهم وصـــمدوا لفتنـــة المشركين بأحسن ما قدموه من أعمال . إنـــه لا شـــك أن الأعمـــال الخيـــرة تتفـــاوت فـــي قيمتها من حيث الإخلاص وتبعا للآثار الطيبة المترتبـــة عليهـــا. وفضـــل الله عظـــيم، إنـــه يجزي المؤمنين عـــن جميـــع أعمـــالهم بمقيـــاس الأعمـــال البالغـــة درجـــة الكمـــال فـــي الحسن.

97-من عمل صالحا من ذكر أو أنثى...ما كانوا يعملون .

هذه قاعدة من القواعد التي يمضي عليها الله جزاء من صلح عمله من المؤمنين صرحت بها الآية. قضية عامة تتناول كل ذكر وأنثى، تفيد التسوية التامة بينهم في ما ينالهم عن صالح أعمالهم. إن جزاءهم يتحقق في تيسير الله لهم الحياة الرضية الآمنة في الدنيا. هي الحياة التي يشعر فيها صاحب العمل الصالح بالرضا وذهاب اللهفة على المفقود. نعم إن ما يرزقه الله للمؤمنين يتفاوت في متاع الحياة الدنيا. والهناء والسعادة الحقيقيّان، محصوران في القناعة بما يحصل الإنسان عليه. إن المؤمنين الذين صلحت أعمالهم بمراقبة الله وتطبيق شرعه، وتعلقت أشواقهم بما ادخر لهم في الآخرة من كرامة في جناته، لا تجد الغنيّ منهم أسعد من الفقير، ولا من يسكن القصر أبلغ هناء ممن يسكن الكوخ، تجد الاستقرار يسري في بواطنهم فلا هم يشعرون بالنقص المؤلم، ولا بدوافع الحاجة الحارقة ولا بالنهم الذي لا يشبع صاحبه. فهذه هي الحياة التي يجد صاحبها من نفسه أنه منعم. وفوق ذلك أن ما أعد لهم من الأجر هو أجر مضاعف بتقديره على ميزان أحسن الأعمال وأتمها. والله ذو الفضل العظيم. وهذه الآية تفيد أولا أن العدل في الجزاء عن الأعمال، فالعمل لا تتأثر قيمة جزائه بالجنس، فأجر الذكر وأجر الأنثى واحد ما دام العمل المقدم واحدا. كما تثبت ثانيا أن السعادة في القناعة، وأن التكالب على جمع الثروات الكبيرة يسبب لصاحبها التعاسة ما دام محروما من القناعة .

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

استعذ : اطلب التحصين.

سلطان : التسلط والتصرف المكين.

يتولونه : يتخذونه وليا ونصيرا، يطيعونه .

بيان المعنى الإجمالي :

خلق الإنسان ضعيفا ؛ إنك إذا وزنت قوته البدنية، وجدت أن جرثومة لا ترى إلا بالمجهر تهد قواه بل قد تقضي بإذن الله على حياته . وكذلك الأمر في قواه العقلية

وتحكمه في مداركه. يتسلط عليه الشـيطان فيذهلــه عمــا هــو فيــه، يفــرق بينــه وبــين كتاب الله. فأمرت الآية المؤمنين ليتحصـــنوا مـــن وسوســـته، ويهزمـــوا ســـلطانه وقوتـــه على النفوس بأن يفتتحوا تلاوة القرآن بقولهم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

إن الشيطان مهزوم بقوة الإيمان، يرتد خاسئا حقيرا ذلـيلا إذا مـا كـان المـؤمن صـادق التوكل على الله، وإعلانُه بالاستعاذة مظهرُ حسن توكلـه. إن الشـيطان لـيس لـه سـلطان يتحكم به في النفوس، إلا النفوس التي وجد منهـا مـيلا لإغوائـه وإسـلاس القيـادة لمـا يزينه من الشهوات، وكذلك النفوس الذين بلغت بهم طاعته إلى الشرك .

بيان المعنى العام :

98-فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .

ترتبط هذه الآية بقوله تعالى: وَنَزَّلْنا عليك الكتـاب تبيانـا لكـل شـيء وهـدى ورحمـة وبشرى للمسلمين -89- والتي أتبعت بما يؤكـد مضـمونها فـي الآيـة الجامعـة -90- إن الله يأمر بالعدل .... كما أكد مضمونها بالتشـديد علـى الوفـاء بالعهـد الـذي فصـله القرآن واهتم به. وإنه إذا أرادت معرفة ما يعينـك علـى أن تنفـتح روحـك فتتـأثر بمـا تضمنه القـرآن مـن البيـان والهـدى والبشـرى، فاسـتعذ بتطهيـر نفسـك، وتحريـك انتباهك، واستعن لذلك بأن تقول عنـد إرادة قـراءة القـرآن: أعـوذ بـالله مـن الشـيطان الرجيم. فقوله تعالى فإذا قـرأت، أي: إذا أردت قـراءة القـرآن. هـو علـى وزان قولـه تعالى: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا: أي إذا أردتـم القيـام. ونحـوه كثيـر فـي القـرآن. وكقولك إذا أحرمت فاغتسل .

استعذ بالله: أي تحصن بقدرة الله، واطلب منه أن يسـعفك بتأييـده ليحميـك مـن وسوسـة الشيطان الصارفة لمداركك عن التأمل فيما تتلوه، وعـن الـذهول عـن إرشـاده وأوامـره ونواهيه . قد تجد القارئ إذا لم يصـحبه عـون مـن الله علـى التغلـب علـى وسـاوس الشـيطان يتحـرك لسـانه ولا ينفعـل عقلـه ومشـاعره، لا بالوعـد ولا بالوعيـد، ولا بالبشارة ولا بالنذارة، ولا بما في القصص من عبـر زيـادة علـى مـا فصـل فيهـا مـن صادق الخبر، إلى غير ذلك من محتويات القـرآن التـي لا يحـد عطاؤهـا. وقـد قـدمنا بعض ما يتعلق بالشيطان الرجيم في الآية 17 من سورة الحجر .

والاستعاذة مأمور بها عند إرادة قراءة القرآن، في غير الصلاة، وأما في الصلاة فالذي عليه الإمام مالك أنها غير مندوبة، ذلك أن الصلاة قد جمع المصلي لها فكره وقلبه بالإقامة فلا تندب الاستعاذة. وبعض العلماء ندب إليها في كل ركعة وبعضهم ندب إليها مرة واحدة في الصلاة. وحمل الإمام الثوري الأمر على الوجوب في الصلاة وفي غيرها.

100/99 -إنه ليس له سلطان ... وعلى ربهم يتوكلون .

عللت الآية الأمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، بأنها تصرف الشيطان فلا يتمكن من التسلط على الذين آمنوا بالله وتوكلوا عليه .وإفصاح المؤمن بقوله : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم تصريح بالتوكل . وقد ضمن الله بفضله منع الشيطان من التسلط بالتشويش على المؤمن لفكره وروحه وتركيزه، إذا هو افتتح قراءته بالاستعاذة. وفي المقابل فإن الشيطان لا يكون له سلطان وتأثير إلا على الذين يطيعونه و يتخذونه وليا، من أهل الكتاب ومن الفسقة، وكذلك الذين استولى عليهم فأصبحوا مشركين بسبب إغوائه .

وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (102) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (103) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (105)

بيان معاني الألفاظ:

الآية : الكلام الموفي بالغرض من القرآن.

المفتري : المختلق للكلام .

روح القدس : جبريل .

القدس :المطهر.

يلحدون : مضارع ألحد بمعنى مال.

لسان : كلام.

الأعجمي : الذي لا يبين عن مارده .

بيان المعنى الاجمالي :

يتصيد المشركون الشبهات ليشككوا بها في القرآن يهدفون من وراء ذلك إلى تكذيب رسول الله ﷺ ، فإذا بدل الله حكما رعاية لمصلحة البشر ولطفا بهم، أعلنوا أن ذلك دليل على أن القرآن من تأليف محمد وليس من عند الله. ولله حكمة فيما ينزله من الحُكم الأول والحكم الذي حوله إليه. ولكن أكثر المشركين جهلة تغيب عنهم حكمة

الله في ما ينزله. ولذا أمر الله رسوله أن يرد عليهم وأن يجاهرهم : إن الذي أنزل القرآن على قلبك وأتى به من عند ربك مصاحبا للحق الذي لا باطل فيه هو ملك الوحي المطهر جبريل عليه السلام . وأن نظم القرآن وترتيب ما يأتي به وتوقيته كل ذلك ملتبس بالحق لا باطل فيه، يثبت المسلمين على الإيمان، ويمكن للهداية في نفوسهم، ويبشرهم تبعا لذلك بحسن العاقبة. ومن الباطل الذي روجه المشركون أن النبي صلى الله عليه وسلم يتعلم القرآن من غلام رومي مسيحي، وزيف القرآن ما روجوه .ذلك أن هذا الغلام كان غير فصيح فكيف يمكن أن يصدر القرآن البالغ أعلى درجات الفصاحة عن رجل عَيِيّ لا يكاد يستطيع إبلاغ مراده .

ثم بالغ القرآن في الرد على المشركين بأنهم هم وحدهم الذين يفترون الكذب ولا يقصرون عن ترويجه، لأنه لا ينشئ الكذب ويروجه إلا الذين خلا قلبهم من الإيمان بآيات الله، وهم وحدهم الكاذبون . فالكذب مقصور عليهم .

بيان المعنى العام :

101 -وإذا بدلنا آية مكان آية ...بل أكثرهم لا يعلمون.

في هذه الآية إبطال لما كان يقوله المشركون في القرآن إذا حصل ما ظاهره الاختلاف فيه، وإن كان هذا الظاهر مرده إلى قصر النظر وقلة التأمل، مع أنه لا اختلاف فيه لمن كان يرغب في الوصول للحقيقة، ويتعمق .

إن القرآن يربي أمة، ويوجد تشريعا، ويبني عقيدة . أما العقيدة فهي واحدة لا تراعي ظروفا ولا تنتقل بالمرسل إليهم من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها، إذ الحق العقدي واحد، ولم يتبدل ما أنزل على رسول الله ﷺ في هذا الباب لا قليلا ولا كثيرا. وما كان بالتشريع فإن معظمه ثابت، وتارة يكون تحويل المرسل إليهم مما كانوا عليه إلى التشريع الجديد فيه نوع من الصعوبة، فيتم التشريع على مراحل، تصل بالمؤمنين من درجة إلى درجة أكمل. وما كان من باب التربية فقد يكون بواسطة القصص القرآني. وطريقة القرآن في قصصه أنه يعيد القصة وفي كل مورد يكون العرض غير العرض السابق يحقق موعظة ويفصل حدثا يتناسب مع الجو العام للنسق الذي ورد فيه. فاعترض المشركون على هذا واتهموا الرسول ﷺ ، بأنه يختلق القرآن من عنده، إذ لا يمكن أن يكون الاختلاف في كلام الله. فرد القرآن عليهم: بأن الذي نزله على قلب رسول الله هو الله، والله أعلم بما ينزل لهم فيصلحهم به، فيراعي ظروفهم شيئا فشيئا حتى يبلغوا في النهاية درجة ما أراد الله أن يثبت عليه التشريع. وعند ذلك لا يقع التبديل. كما أن القرآن ليس كتاب قصص

حتى يكون نسج قصصه واحـدا، بـل يحقـق أمـرين : أولهمـا أن لا يخـالف الحقيقـة، وثانيهما: أنه يبرز في كل مناسبة المقطـع الـذي يـتلاءم . فتجـرأ المشـركون لقصـر نظرهم على رسول الله وقالوا هذا اختلاف، والقرآن مـن عنـدك ولـيس مـن عنـد الله . مع أن التغيير في التشريع هو لمصلحة الناس الـذين يسـمو بهـم شـيئا فشـيئا إذا انتقـل التشريع من الأخف إلى الأشد، أو لإظهار الفضـل والرحمـة الإلهيـة بتحويـل التشـريع الأشد إلى الأخف بعد أن تبين المسلمون ثقل التشـريع الأول الـذي كـانوا لقـوة إيمـانهم يرغبون فيه .

وحقق القرآن أن أكثـر المشـركين جهلـة لا يعلمـون، فاسـتندوا لجهلهـم ونسـبوا لـك الافتراء، وفي التعبير، بـأكثرهم. مـا يفيـد أن بعـض المشـركين يجـدون فـي قـرارة نفوسهم أنهم يشاغبون وأن ما رفعـوه كـاختلاف هـو لا اخـتلاف فيـه، ولكـنهم فعلـوا ذلك مكابرة منهم .

102 -قل نزله روح القدس من ربك بالحق ...وبشرى للمسلمين .

قل لهم قولا يرد شغبهم ويقمعهـم ويرفـع تلبيسـهم: الـذي نـزل بـالقرآن فبلغـه هـو جبريل (روح القدس) وسـمي جبريـل بـروح القـدس، المضـاف "روح" باعتبـار أن الله فضله فجعل مكانتـه مـن الملائكـة مكانـة الـروح مـن الجسـد، وأضـيف الـروح الموصوف إلى "القدس " الصفة أي المطهـر بـإطلاق . مقترنـا وملابسـا بـالحق الـذي لا باطل فيه . فالمنسوخ حق وقـت نزولـه، وكـذلك الناسـخ. ومـا اقتصـر عليـه مـن مقاطع القصص حق. ومما يستع التالي قولـه تعـالى " مـن ربـك "فهـذا التعبيـر جمـع بين الإفصاح عن عنايـة الله برسـوله بمـا تـدل عليـه كلمـة الـرب حسـب اشـتقاقها الأصلي، وبين قوة الارتباط بين الله ورسوله بإضافة الـرب إليـه، وبـين الإشـارة إلـى ما يقتضيه اسم الرب من مراعاة الصلاح في التبديل والاقتصار .

ونبهت الآية إلى أن ما اعترض به المشـركون وقـدروه نقصـا فـي القـرآن هـو علـى العكس من ذلك، فإنه يثبت الذين آمنوا بما في التـدرج مـن تـأليف بـين المـؤمن وبـين ما هو مطالب به من ربه، ويقوى إيمانه بأن الله يرعـى مـا يصـلح بـه . وهـو أيضـا تيسير لاتباع الهدى والتمكن من السير علـى طريقـه . ولا شـك أنـه بحصـول الثبـات واتباعه بيسر ورغبة تتحقق البشارة بحسن العاقبة .

103 - ولقد نعلم أنهم يقولون ...لسان عربي مبين .

نوع آخر من التزييف والشغب الـذي يقـوم بـه المشـركون ؛ ذلـك أنهـم أشـاعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ القرآن عـن غـلام رومـي مسـيحي يحفـظ شـيئا مـن

الأدعية التوراتية . وكان هذا الغلام قد مال إلى لإسـلام فكـان النبـي ﷺ يعلمـه عقيـدة الإسلام وأحكامه. فرد القرآن علـيهم مـا روجـوه بأنـه سـخيف يرفضـه كـل عاقـل متبصر. إذ الغلام المسيحي كان معروفـا ببعـده عـن الفصـاحة، ضـعيف البيـان عـن مراده، والقرآن قد بلغ أسمى مستوى فـي البلاغـة، فـلا يعقـل أن يصـدر عـن رجـل عيي، والقرآن قد تحداهم بأن يأتوا بمثله فعجزوا .

105-إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون ...هم الكاذبون.

ردت هذه الآية على المشركين ردا فألبستهم خـزي مـا رمـوا بـه الرسـول ﷺ، وذلـك بذكر قاعدة حاصلها : أنه لا يفتـري الكـذب، ولا ينشـئ كلامـا غيـر صـادق يـزوره ويشيعه إلا الذين خلت قلبهم من نـور الإيمـان وأظلمـت بـالكفر ورفضـوا النظـر فـي آيات الله التي تستجيب لها الفطرة السليمة، إنهـم هـم المنفـردون بالكـذب، ويفهـم مـن ذلك انتفاء الكذب عن رسول الله ﷺ.

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإكراه : هو الضغط على الإنسان لكسر إرادته ضغطا فيه إيلام كالسجن والقيد.

الغضب : هو الانتقام إذا اسند إلى الله.

الطبع : حجاب مختوم بختم بحيث لا يصل إليه أي خارج عنه.

لا جرم : لا محالة، لابد.

هاجروا : خرجوا من موطنهم محافظة على دينهم.

فتنوا : الفتنة العذاب والأذى المتكرر الذي يتجاوز حدود الصبر عليه.

المجاهدة : المقاومة بكمال الطاقة .

الصبر : الثبات على الأمر مع تحمل المكروه.

تجادل : تدافع. وتُطْلَقُ بمعنى تناقش.

توفّى: تعطى شيئا كاملا غير منقوص.

بيان المعنى الإجمالي :

قاوم المشركون الإسلام كما دلت عليه الآيات السـابقة، وتسـلطوا علـى المسـلمين الـذين ليس لهم قوة عصبية تمنعهم مـن بطـش الكفـرة. فمـنهم مـن قـاوم وصـمد وتحـدى، ومنهم من خلص نفسه بكلمة كفر ترفع عنه العذاب، ولكـن قلبـه مطمـئن بـأن الإسـلام هو الدين الحق. فبينت الآية أن من كفر بلسـانه لا بقلبـه، لـيخلص نفسـه مـن العـذاب، فإنه لا يأثم على ما نطق به وهو ناج عند الله .ولكن مـن ارتـد وعـانق الكفـر واطـرح الإسلام ظاهرا وباطنا فإن مقت الله سينزل بـه ولـه عـذاب عظـيم . إنـه جـزاء عـدل لأنه أحب حبا شديا نعيم الحياة الدنيا ورفاهية العـيش وقدمـه علـى الآخـرة . وسـيهمله الله فلا يفتح له شيئا من ألطافه التـي تعيـده إلـى الحـق. لأن الله يحـرم الثـابتين علـى الكفر من الألطاف المساعدة. إن هؤلاء قد طبع الله علـى قلـوبهم فانقلبـت لا ينفـذ إليهـا شيء من الهدى على قوته ونصاعته، وكذلك على سـمعهم فـلا ينقـل لهـم المسـموعات من القرآن والسنة ما يحـرك القلـوب والأرواح إلـى الخيـر، وكـذلك أبصـارهم طبـع عليها فلا تنقل المبصرات التي تبعـث فـي العقـل التأمـل الـذي يعقبـه الاهتـداء . ولا محالة أنهم كانوا في الآخرة أعظم الناس خسرانا. ثـم إن ربـك يـا محمـد ضـمن لمـن أسلم وفتنه المشركون بأنواع التعذيب فقاومهم ودافـع ليثبـت علـى إيمانـه وصـبر علـى تحمل المشاق والأذى، وترك دياره وأهله وماله وخرج بعـد فتنتـه فخـرج مهـاجرا إلـى أرض الحبشة ليسلم له دينه، إن ربك بعد تحقق الهجـرة مـنهم ضـامن مغفـرة ذنـوبهم ورحمتهم . يجدون فضله يوم القيامة وهو اليوم الذي يمكـن الله كـل إنسـان مـن الـدفاع عن نفسه، الذي ينتهي بإدراك الكافرين والمذنبين بكفرهم وذنـوبهم عدالـة مـا يحكـم بـه عليهم. ويدرك المؤمنون فضل الله عليهم وحسن جزائه .

بيان المعنى العام :

106 - من كفر بالله من بعد إيمانه ... ولهم عذاب عظيم .

يضاف إلى ما تقدم من محاولة المشـركين فتنـة المسـلمين بالتكـذيب وتـرويج الباطـل وتزييف الحقائق، يضاف إلـى ذلـك التجـاوزهم إلـى إكـراه مـن هـو تحـت سـلطانهم كالمستضعفين من المؤمنين الذين ليس لهم قبيلـة تحمـيهم أو الأرقـاء الـذين كـانوا فـي

ملكهم. كان لما روجه المشركون مــن تشــكيك قــد أثــر فــي الــبعض فاســتجاب لهــم وارتد عن الإسلام، وهؤلاء قد بين القرآن مآلهم، كما سنشرحه في ختام الآية .

وطائفة أخرى من المــؤمنين تســلط علــيهم المشــركون فــأكرهوهم علــى العــودة إلــى الكفر، فمنهم من تحدى التعذيب وصبر، وكانت إرادتــه أصــلب مــن أن يهزمهــا الألــم، ومنهم من نطق بما أكرهه عليه المشركون. فبينت هذه الآيــة أن مــن أكــره علــى قــول كلمة الكفر، لكن قلبه مطمئن بالإسلام غير رافــض لدينــه، فــإن الله، بفضــله ورحمتــه بعباده المؤمنين، أعلم أنه لا يؤاخذ من لــم ينفــذ الكفــر إلــى قلبــه وبقــي قلبــه مطمئنــا بالإيمان وبصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن الذين ارتدوا ونطقوا بكلمة الكفر رافضين للإســلام، وعقــدوا قلــوبهم علــى الكفــر، سواء أكــان ذلــك تحــت التعــذيب أم بمجــرد الخــوف منــه أو بــإغراء الكــافرين أو بتلبيسهم، فإن الله يؤاخذهم بما استكانت إليه قلوبهم ورضوا به، وذلك بانتقامه منهم.

والغضب إذا أسند إلى الله فالمراد منه الانتقــام لا غيــر، كمــا حققــه الراغــب. وأكــدت الآية الغضب بأن الله سيعذبهم العذاب العظيم.

وهذه الآية أثبتت رفع الإثــم عمــن أكــره بالتعــذيب الجســمي أو الســجن أو التقييــد، أو كشف عورته ونحو ذلك. ومــن أكــره علــى فعــل مــا يعــد كفــرا كالســجود للصــنم فالجمهور على أن الفعل والقول سواء إذا كــان قلبــه رافضــا لمــا فعلــه، ورأى بعضــهم أن الإكراه يسلم به الفاعل بينه وبين الله، ولكن تجــري عليــه أحكــام الكفــر فــي الــدنيا فلا يرث أباه المسلم مثلا ولا يصلى عليــه إن مــات ولا يــدفن فــي مقــابر المســلمين .

ومن أكره على قتل غيره فإن الإكراه لا يرفــع عنــه الإثــم ولا الحــد. وأحكــام الإكــراه مفصلة في كتب الفقه.

107 - ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا ....لا يهدي القوم الظالمين .

تعليل وتوجيه لما تضمنته الآية الســابقة : إنهــم اســتحقوا الانتقــام والعــذاب العظيمــين، لأنهم بانشراح قلوبهم للكفر قد أحبــوا حبــا كبيــرا متــاع الحيــاة الــدنيا، فتحولــوا عــن التعلق بالحق، وعما يوجب النجاة يوم القيامة، إلى مــا يجلبــه إلــيهم الكفــر مــن رفاهيــة العيش في الدنيا .ثم هددتهم الآيــة بــأنهم لا يترقبــون أن يســعفهم الله بألطافــه ليعــودوا إلى الإيمان، بل يتركهم لأنفسهم التي انحرفت فضلت .

109/108 - أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ...هم الخاسرون.

هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان بعد أن آمنــوا، والــذين هــم بــذلك أســوأ حــالا من المستمرين على الكفر، لأنهم قد عاشوا مع الإيمــان وجربــوا مــا فيــه مــن صــلاح،

ثم أعرضوا عنه ترجيحا لمصالح دنيوية على النعـيم الأخـروي. هـم فـي الحقيقـة قـد كونوا على قلوبهم حجابـا لا يفـتح ولا ينفـذ إليـه شـيء مـن نـور الهـدى؛ فقلـوبهم كالرسالة التي يكتبها صاحبها ثم يطويها ويضع عليهـا شـمعا يطبعـه بطـابع حتـى لا يتجرأ أحد على فتحها. فالقلب المطبـوع هـو قلـب لا ينفـذ إليـه شـيء مـن الإيمـان وأدلته. فقلوبهم لا تعقل شيئا من الحـق الـذي جـاء علـى لسـان رسـول الله، ذلـك أن العقل إذا أغلقه صاحبه عن التأمل، وصـرفه لمعـاداة الـدين، فإنـه ينتهـي بـأن لا ينفـذ إليه شيء من الوحي ولا يلتفت إلى النذر. وكذلك السـمع، فـإن السـمع حاسـة لا تعقـل المسموع إلا إذا وجه العقل الحاسة للإحساس، ولـذلك تجـد اللاهـي يحـدث حولـه مـن الأصوات والكلام ما يحدث، ثم إذا سألته عما كان يضج حولـه يجيبـك بأنـه لـم يسـمع شيئا. فهم بإعراضهم عـن اسـتماع القـرآن وهـدي الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم يكونون قد أقفلوا سمعهم، وكذلك الأبصار لا تنقل لهـم مـا وراء المبصـرات مـن نظـام ودلائل يعقولهم. ومن إعجـاز القـرآن قصـر الغفلـة علـيهم، إذ الغافـل لا يـدرك مـا حوله: أولئك هم الغافلون. ولا بد أن يكـون حظهـم فـي الآخـرة الحـظ الأعظـم مـن الخسران.

110-ثم إن ربك للذين هاجروا...بعدها لغفور رحيم .

كان للبشر من الرسالة المحمدية في مكة مواقف مختلفة :

1)الكافرون الرافضون وقد فصلت آيات من هذه السورة تركيبهم الفكري وعنادهم.

2)من أسلم ثم فتنه المشركون فارتد ورضي الشرك دينا.

3) من أسلم وكان له من مكانة قومه ما دفع عنه أذى المشركين.

4)من أسلم وعذبه المشركون وصبر على الأذى وهو صامد لم يتزحزح.

5)من أسلم وعذبه المشركون، فقال كلمة الكفـر لينقـذ بهـا نفسـه مـن العـذاب وقلبـه مطمئن بالإيمان.

وهذه الأنواع الخمسة قد فصلت الآيات أحـوالهم . وبقـي صـنف سـادس اعتنـت بـه هذه الآية. وهم الذين أسـلموا وحسـن إسـلامهم وفتـنهم قـومهم بـأنواع مـن العـذاب والأذى والمقاطعة، ولم يلينوا لإرضاء المشركين بلسـانهم وبقيـت عقيـدتهم ثابتـة علـى دين الله. ولكنهم لدرء الفتنة المتواصـلة مـن قـريش، تركـوا مـوطنهم وخرجـوا إلـى الحبشة ليعيشوا الغربة عن الأهل ومرابع الصـبا، ويقيمـون ديـنهم فـي أمـن . فعطفـت الآية هذه الفئة بما يدل على علو مرتبتها. والمعنـى إن ربـك يـا محمـد محقـق رعايتـه بواسع المغفرة وعظيم الرحمة للـذين هـاجروا فتركـوا ديـارهم وأمـوالهم ليسـلم لهـم

دينهم من بعد مـا فتـنهم المشـركون، وقـاوموا الكفـر بمـا أوتـوا مـن قـوة وجهـد (وجاهدوا) وأحبطوا كل المؤامرات التي أعدها المشـركون ليفتنـوهم عـن ديـنهم ابتغـاء مرضاة الله . وليس الجهـاد بالجهـاد الحربـي، لأن الآيـة مكيـة ولـو يشـرع الجهـاد وقتها. وقد تحلوا بالصبر علـى تحمـل المكـاره والمشـاق، والعزيمـة علـى المضـي على إيمانهم . إن ربك من بعد الهجرة، التـي كانـت مظهـرا واضـحا علـى التـزامهم السير على الصراط المستقيم، لغفور رحيم.

111 -يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها...وهم لا يظلمون.

هذه الآية مرتبطة بما ختمت به الآية السابقة، أي إن الله لغفـور رحـيم يـوم تـأتي كـل نفس تجادل عن نفسها. فتكون هـذه الآيـة مبشـرة للمهـاجرين إلـى الحبشـة أن ربهـم سيكون غفورا لذنوبهم رحيما بهم يوم القيامة، إذا كل إنسـان مهمـا كـان صـالحا لا بـد له من فلتات، فيقدمون على ربهم في ذلـك اليـوم وقـد امحـت ذنـوبهم ودخلـوا تحـت مظلة غفران الله ورحمته .

وتفيد الآية: أن كل إنسان مؤمن أو كافر يُعْـرضُ علـى ربـه يـوم القيامـة، ويمكنـه الله من الدفاع عن ذاته. وينتهي الدفاع بـإقرار المشـرك بشـركه والكـافر بكفـره والمـذنب بذنوبه، ولا يبقى له حجـة. وعنـدها يعطـي الله لكـل نفـس جزاءهـا المقـرر الجـزاء العادل الذي لا يشوبه نقص من الإكرام أو زيـادة مـن العـذاب والمهانـة. والله لا يظلـم أحدا. والشعور بالعدالة الإلهية في ذلك اليوم يقتنع بـه مـن اسـتحق العـذاب، فيجـد فـي نفسه أن الله لم يظلمه ولم يعذبه إلا العذاب الذي هو جزاء عـادل لمـا قدمـه فـي الـدنيا. كما يقتنع به المنعمون الذين يضـفي علـيهم ربهـم مـن فيـوض رحمتـه وغفرانـه مـا ترتفع به درجاتهم.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأمن : السلامة من تسلط العدو.

مطمئنة : غير خائفة مطمئنة البال.

رزقها : أقواتها.

رغدا : وافرا هنيئا.

أنعم : نعم .

أذاقهم : أصله الإحساس بالطعم. والمقصود بها هنا الإحساس بالألم .

لباس : أصله ما يلبس من الثياب. والمقصود به المحيط الملازم.

الأخذ : الإهلاك

الحلال : المأذون فيه شرعا.

طيبا : تميل له النفس لملاءمته للذوق .

بيان المعنى الإجمالي :

في هذه الآية إيقاظ لأهل كل بلد ليتأملوا في هذا المثل الذي قدمه القرآن للناس كي يتعظوا به. قرية تفضل الله عليها بالأمن، وهناء العيش فلا خوف ولا قلق، وحقق لها الأمن الغذائي الذي يأتيها واسعا من مختلف الأماكن .قابل سكانها النعم بالكفر وجحود الفضل الإلهي، فسلط الله عليها الجوع فتمكن منهم وأحسوا به إحساسا بليغا وبدل أمنهم خوفا .فكان جزاء عادلا بسبب ما صنعوه بأنفسهم . ومع ذلك فقد بعث الله لهم رسولا منهم يعرفونه وكان قبل بعثته محل تقدير لكمالاته الخلقية، فلما دعاهم لما أمره الله أن يدعوهم إليه، بادروا بتكذيبه، فأهلكهم الله بالعذاب، وهم منغمسون في ظلمهم .

أذن الله بأن يأكل الناس مما رزقهم إذا كان حلالا فـي ذاتــه وكسـبه لا قـذارة فيـه، وأن يشكروا الله على نعمه فإن الشكر قرين العبادة.

وبين القرآن ما هو محرم وقت نزول الآية في العهد المكي، فعدد المحرمات في ذلك الوقت: الميتة والدم ولحم الخنزير وشحمه وغضاريفه وجلده، وكذلك ما ذكر عليه عند تذكيته غير الله تعالى. ولما كان الإسلام مبنيا على التيسير فإنه رفع الإثم عن المضطر الذي يخشى على نفسه الهلاك أن يأكل من هذه المحرمات ما دام مضطرا

بيان المعنى العام :

112- وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة ...بما كانوا يصنعون .

تعرض الآية صورة تتبع القرآن جزئياتها وتفاصـيلها، وأحكـم نسـجها لتكـون مجسـمة لمضمونها، تنفذ إلى المشاعر وتحرك الحس، وتُجلي ما قصد بها جلاء معجزا .

هي قرية لم يعينها القرآن فالأولى أن تبقى منكرة غيـر معينـة، إذ تعيينهـا لا يزيـد فـي الموعظة شيئا. خلافا لما اعتمده كثير من المفسـرين أنهـا مكـة . قريـة كانـت السـعادة تغمر سكانها، أنعم الله عليها بالأمن على مالهـا وعلـى حياتهـا، لا تخـاف غـزو عـدو، والأمن هو الركن الأول للتنعم بالحياة. ومع الأمن حلـت الطمأنينـة فـي قلـوب سـكانها، والطمأنينة بما تدل عليه من ذهاب القلق والخوف، وقـد اسـتقر النظـام الاجتمـاعي بمـا يوفر راحة البال، وذلك نعمة فوق نعمة الأمن وإن كانـت لا تحصـل إلا تبعـا لـه. وقـد تحقق لها الأمن الغذائي، فترد عليها ما تحتاج إليه من الطعـام وافـرا هنيئـا، بمـا يـذهب اللهفة وتوقع الجوع والخصاصة. ليـذهب الفكـر فـي تصـور نعمـة الحيـاة فـي هـذه القرية كل مذهب. ويعقب هذا النعيم المتعدد الجوانـب فسـاد روحهـا وعقلهـا، إذ قابلـت ذلكم الفضل بجحدها لنعم الله عليها، فبرز في المشـهد جانبـان متناقضـان، جانـب كلـه إشراق وخيرات متتابعة، جانب كالح هو كفر وجحود .

ويتم المشهد بإبراز نتيجة ذلكم التناقض المقيت. إن الله رفع مـا كـان يرسـله إليهـا ممـا تقدم في الصورة الأولى، فأثر فيها الجـوع وأحـاط بهـا ولازمهـا كمـا يحـيط اللبـاس بصاحبه وهو على مقاسه. واستولى الخـوف علـى النفـوس والمشـاعر. وتؤكـد الآيـة مظهرة أن ذلك كـان نتيجـة لمـا صـنعوه، ومـن شـأن النتيجـة أن لا تتخلـف عـن المقدمات فهي نتيجة ملازمة لهم .

113- ولقد جاءهم رسول منهم ....وهم ظالمون.

وواصل القرآن تشنيع أهـل هـذه القريـة. ذلـك أن الله بعـث لهـم رسـولا يعرفونـه، خبروه قبل دعـوتهم لـدين الله، فكـان محـل تقـدير لكمالاتـه الخلقيـة واسـتقامته، لـم يجربوا عليه كذبا ولا موقف خسة . ومع ذلك فإنـه بمجـرد مـا دعـاهم لاتبـاع الـدين الذي يرضاه الله لهم، سارعوا بتكذيبه ورفـض مـا يـدعو إليـه. فـأهلكهم الله بالعـذاب، في الوقت الذي هم فيه مقيمون على ظلمهم.

إن هذا المثل ينطبق تمام الانطباق علـى أهـل مكـة دون أن تكـون قاصـرا عليهم، ففيـه لذلك أشد التحذير لهم من مواصلة الإعـراض عـن الاسـتجابة للإسـلام، وأن مصـيرهم إذا لم يتوبوا ويقلعوا عن عنادهم، هو مصير أهل تلكم القرية.

114 -فكلوا مما رزقكم الله حلالا....إياه تعبدون .

بعد أن تابع القرآن مراحل القرية المنعمـة التـي مـن الله عليهـا فيمـا مـن بـه الأمـن الغذائي، وأنها انتهت إلى الكفر بنعم الله وحل عليهـا العقـاب. أتبـع ذلـك بالتأكيـد علـى أن التنعم بما يتفضل به الله من الخيرات مأذون فيـه بشـرط أن يكـون حـلالا فـي ذاتـه

وكسبه، وأدمج في التوجيه أن لا يكون مستقذرا بقولــه (طيبــا) وكــان هــذا الإذن مــدخلا للمقصود من الآية، فأمر المنتفعين بما يتفضل الله بــه علــيهم مــن الحــلال الطيــب أن لا يغفلوا عن شكر الله على نعمه . وأول مراحل الشــكر الاعتــراف للمــنعم بفضــله علــى ما يسره ومكن منه، وحرض على الشكر بأنــه مــن موجبــات العبــادة الحــق لله، وأنــه مقترن بها، ومن يغفل عن شكر ربه فهو غافل عــن حقــوق المعبــود علــى العابــد. قــال تعالى: وسنجزي الشاكرين[1] –

115-إنما حرم عليكم الميتة ...فإن الله غفور رحيم .

هذه الآية شديدة الاتصال بالآية التي قبلها. إذ كانت الآيــة ســابقة تتضــمن إذنــا مــن الله تعالى في أكل الحلال الطيب، ولما كان الحلال هــو القاعــدة فيمــا رزقنــا الله، حصــرت هذه الآية المحرمات، ليبقى ما سواها في نطاق الحلال على سعته.

المذكور في هذه الآية من المحرمات نوعان: ما كان تحريمه لأنه خبيث مضر للإنسان بخلقته؛ الميتة وهي ما مات من الحيوان البري الذي له نفس سائلة (ترتبط حياته بالدورة الدموية) وذهبت حياته بغير تذكية. وكذلك الدم الذي يسيل من الحيوان عند ذبحه أو يخرج منه أومن الإنسان إثر الجراحة . ولحم الخنزير وعظامه وغضاريفه وجلده. وقد قدمنا تفصيلا أوفى . انظر الآية 173 سورة البقرة والآية 4/3 من سورة المائدة– والنوع الثاني ما كان تحريمه بسبب التوسل به لغير الله. وقد قدمنا أيضا في سورة المائدة ما يتعلق بخبث تناول هذا النوع من اللحوم.

ونذكر بأن هذه السورة مكية، وأن الاقتصار علــى هــذه المحرمــات معنــاه أن لا يوجــد محرم غيرها عند نزول الآية، والتشريع الإسلامي يرتقــي بالمســلمين مــن مرتبــة إلــى مرتبة أسمى منها. فإذا أبقى ما عدا المذكور فــي هــذه الآيــة علــى الإباحــة الأصــلية، فإنه يتمم بقية المحرمات في الوقت المقدر لتحريمهــا وعنــدها ترتفــع الحليــة. فاحتجــاج بعض الفسقة أن الخمر ليس محرما بنــاء علــى أنــه لــم يــذكر تحريمــه فــي الآيــة ضلال وفسق ينتهي بصاحبه إلــى الكفــر لأنــه يحــل مــا ورد تحريمــه فــي نصــوص أخرى؛ فكان مسلكه مسلك اليهود الــذين قــال الله فــيهم : (أفتؤمنــون بــبعض الكتــاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلــك مــنكم إلا خــزي فــي الحيــاة الــدنيا ويــوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون)[2] .

---

[1] سورة آل عمران آية 145

[2] سورة البقرة آية84

وعقب الآية بتقرير التيسير في الإسلام على الإنسان الذي كان في ظروف حرجة جدا: إما أن يأكل من المحرمات ما يبقي به على حياته، وإما أن يموت جوعا، فرخص له القرآن أن يبقي على حياته، وأن تناوله من المحرم لا يترتب منه عليه إثم . وقد قدمنا في سورة البقرة والأنعام تفصيل المراد من قوله تعالى **غير باغ ولا عاد**، في المرجع المذكور أعلاه مما يغني عن إعادته.

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

لما تصف ألسنتكم : عن الذي تذكرونه مفصلا بألسنتكم.

لا يفلحون : لا يبلغون آمالهم.

بجهالة : ملتبسا بعدم علم، أو بالتحدي وركوب الرأس .

بيان المعنى الإجمالي :

نهى الله المشركين أولا ويسري النهي لجميع الناس بعدهم، أن يحكموا بحرمة أو تحليل مأكول أو مشروب، وأن يعبروا عن ذلك بأقوال لا تستند لحقيقة، وإنما هو اختلاق. إن الذين يفترون تلكم الأحكام ويروجونها مآلهم الخسران. ولا يغرنكم ما تمكنوا منه من خير فإن ذلك هو نفع زائل غير ثابت، خصهم الله بعذاب أليم .

ولا يصح الاستناد في التحريم على شريعة موسى لبني إسرائيل مما ذكر القرآن أن الله حرمه عليهم. لأن ذلك التشديد القصد منه تربيتهم لتلين قلوبهم بعد قسوتها، فهم الذين ظلموا أنفسهم بتمردهم على نبيهم فشدد الله عليهم، وما ظلمهم الله.

ويخاطب الله نبيه مخاطبة الإيناس إظهارا لفضله على البشرية فيعلمه : أن الذين عملوا عملا سيئا من قول أو فعل، وكانوا عند اقترافهم للإثم جاهلين لم يعلموا أو متحدين مستكبرين، ثم استيقظوا بما أتاهم عن طريقك، فأصلحوا أنفسهم وأصلحوا أعمالهم وتابوا راجعين إلى الله، فإن الله الكريم يتفضل عليهم أولا بستر ذنوبهم كأنها لم تصدر عنهم، ويرحمهم بفضله ثانيا بما يغدق عليهم من خيرات .

بيان المعنى العام :

116-117 -ولا تقولوا لم تصف ألسنتكم الكذب ...ولهم عذاب أليم .

لما حددت الآية السابقة ما حرمه الله، ويفهم من ذلك أنها أبقت سوى ما نصت عليه على حكم الأصل، وهو جواز الأكل منه ؛ جاءت هذه الآية موضحة لهذا المفهوم مبينة حكم التعدي بتغيير الحكم الذي حكم الله به .

فنهى سبحانه كل إنسان أن يغير ما حكم الله بتحريمه فيحله، أو ما حكم بحليته فيحرمه، ذلك أن الحكم على الأشياء هو من خصائص الخالق، فهو الذي خلق وهو الذي يبيح ما يشاء ويحرم ما يشاء تبعا للحكمة التابعة للعلم المحيط بالماضي والحاضر والمستقبل .ولما كان علم الإنسان قاصرا لا يبلغ إدراك جميع الجوانب التي يعتمدها ليكون حكمه صالحا وصحيحا ومؤثرا، حُرم عليه تغيير ما حكم الله به. وليس النهي منصبا على الأكل، ولكنه على إعطاء حكم موهوم للأكل، مفصح عنه بتوضيح وبالغ بيان، كأن المتكلم به يصفه وصفا يخيل لمن توجه إليه أنه حقيقة، ولكنه وصف كاذب، فقوله تعالى:" الكذب" مُساو : لتصف ألسنتكم. ولا تقولوا قولا منمقا هو كذب، عن أي شيء يمكن تناوله بالأكل أو الشرب، هذا حلال أو هذا حرام. لأن الوصف بالحلية أو الحرمة هو لله وليس لأحد غيره، فمن تجاوز قدره وحلل أو حرم بقوله قد حصل منه الكذب على الله. ويؤكد القرآن أن مآل هؤلاء الكذبة المفترين :الخسران، لا يفلحون . ولا تعجب من تجاح بعضهم فإنما هو نفع قليل أمد الانتفاع به، سيزول عن قريب، وقد اختصوا بعذاب أليم .

118 - وعلى الذين هادوا حرمنا...كانوا أنفسهم يظلمون .

نفت الآية صحة اعتماد التحريم على ما هو محرم على اليهود واتباع الأحكام التي خصوا بها . فقد حرمنا على بني إسرائيل ما ذكر في سورة الأنعام في قوله تعالى: وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر......[1] – فما حرمناه عليهم ليس من سنة إبراهيم، ولا من الأحكام التي أردنا أن يكون معمولا بها أبد الدهر. ولكن كان تأديبا لهم، فأردنا تقويمهم بسبب ظلمهم لأنفسهم وتمردهم على التوراة وعلى نبيهم موسى ﷺ . والله لا يظلم أحدا، فهو الذي يعلم انحراف البشر وما هو أفضل ليعودوا إلى الصراط المستقيم. ولذا كان من مهام المسيح ﷺ أن يخفف على بني إسرائيل بعض الأحكام التي شددت عليهم لتلين قلوبهم بعد قسوتها.

---

[1] سورة الأنعام آية 146

119-ثم إن ربك للذين عملوا...من بعدها لغفور رحيم .

لقد شددت الآيتان -118/117-التحذير من القــول علــى الله بغيــر علــم فــي التحليــل والتحريم، وأبـــرزت صـــورة مـــن معاملـــة اليهـــود المتمـــردين معاملـــة شـــديدة تكســر عنادهم، وشأن القرآن أنه يصحب التحـــذير بالترغيــب، والشـــدة بالتيســـير، بـــل يؤكــد في التيسير ليجلب الناس إلى الخير ويحولهم عـــن الفســـاد إلـــى الصـــلاح . وهنـــا يلـــين الخطاب فيأتي بكلمة الرب، بما توحي به من العنايـــة والألطـــاف، ويســـندها إلـــى النبـــي ﷺ إبرازا لإكرامه وأنه ســـبب الخيـــر للنـــاس، إذ كـــان علْمُهُـــمْ قبـــل بعثتـــه بـــالحلال والحرام غير مستند إلى أصل، كما أن تركيبهم النفسي فيـــه كثيـــر مـــن التحـــدي وعـــدم الانصياع للحق ؛ فألان الله من غلظ تلكـــم الطبـــاع، وقـــرر مـــا هـــو ديـــن يرضـــى الله عنه، فأزال عنهم الجهل بمعنى عدم المعرفة، وأزال عـــنهم الجهـــل بمعنـــى الجهالـــة؛ ثـــم إن الذين عملوا ما هو سيء من قول أو من فعل، عن جهـــل أو عـــن جهالـــة، ثـــم أعقـــب ذلك بتيقظه لسوء فعله، وعدم رضاه به، وأصـــلح ســـلوكه فـــي المســـتقبل، وســـار فـــي طريق الخير وتنكب طريق الشر، تؤكد الآية تأكيدا بالغا: إن ربـــك يـــا محمـــد بعـــد ذلـــك التحول من الضلال إلى الهدى غفور للـــذنوب الســـالفة، ينـــزل رحمتـــه العظيمـــة علـــيهم فيسعدهم بحسن المآل .

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

أمة : كمالاته كثيرة كأن جمع منها ما تفرق في أمة .

قانت : مطيع.

حنيف : مائل عن الباطل إلى الحق.

أنعمه : نعمه.

اجتباه : اختاره.

بيان المعنى الإجمالي :

أثنى الله على إبراهيم ثناء يبطل كل ما ألصقه المشـركون بـه. أثبـت أنـه كـان جامعـا لأوصاف النبل والفضل فكأنه ضم ما تفرق في أمـة، مقـدما لطاعـة ربـه خاضـعا لـه، مائلا عن الطرق الضالة التي كانت عليها البشرية في عهـده منفـردا عـنهم، مـا تلـوث بالشرك، ومبعدا كل صلة له بالمشركين. كان يذكر نعم ربـه عليـه ويثنـي الثنـاء الـذي يستحقه واهبها. كل ذلك يشهد على أن الله تخيره من بين البشـر فـي زمنـه. حفـت بـه ألطافه فهداه إلى الصراط المستقيم المبلغ للغايـات الشـريفة الحـق مـن أقـرب طريـق. وجازاه ربه بأن يسر له الحياة الطيبة الآمنـة فـي الـدنيا وبـارك لـه فيهـا، وهـو فـي الآخرة في الزمرة الممتازة من عباد الله الصالحين.

بيان المعنى العام :

120 –>122 : إن إبراهيم كان أمة ....وإنه في الآخرة لمن الصالحين.

كان المشركون بمكة يدّعون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام، ونسبوا ما صوّرته خيالاتهم وأوهامهم الدينية إليه. وقد وجد النبي صلى الله عليه وسلم داخل الكعبة صورة إبراهيم وهو يستقسم بالأزلام، كما نسبوا بعض ما حرموه إليه عليه السلام. فليتضح الأمر اتضاحا كاملا بين القرآن ما حرمه على اليهود وأن ما حرمه عليهم لا يسري على من بعدهم، وأن عيسى عليه السلام خفف كثيرا مما شدد الله به عليهم ؛ وإذ انتفى الاقتداء باليهود فيما حلل وحرم، فكذلك تحتّم نفي ما نسبوه إلى إبراهيم ﷺ. فعرض القرآن ما يتميز به إبراهيم وأن سنته عليه السلام إنما أقامها محمد ﷺ.

وصفت الآيات وأثنت على إبراهيم :

أولا: إن إبراهيم كان أمة، وأصل الأمـة الجماعـة الكثيـرة مـن النـاس التـي تجمعهـا رابطة، والمقصود أنه كان جامعا لكمالات كثيـرة، فيصـدق مـن يصـفه أنـه جمـع مـا تفرق في أمة كاملة من الفضل والخيـر والفتـوة . كمـا تقـول رجـل كـألف. كمـا أن جهاده لتقرير التوحيد وثباته رغم ما لاقاه من المشركين مـن إذايـة وتـأليبهم عليـه كـان بمثابة جهود أمة كاملة .

ثانيا : قانتا مطيعا لربه خاضعا له . فليس إبراهيم هـو الـذي صـوره المشـركون علـى صورة من يستقسم بالأزلام، ولكن حضوره مع ربه كـان حضـورا ملازمـا لـه، يـربط كل فعل وحركة وكل جسم وكل ما هو مبثوث في الكون بالله.

ثالثا: حنيفا أي منحرفا عن كل المـذاهب التـي تاهـت وضـلت فـي عقيـدتها. فالآيـة تكذب المشركين في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم.

رابعا: وتأكيدا لكذبهم في دعواهم لصلتهم بإبراهيم صرح القرآن بأنه عليه السلام لم يكن بينه وبين المشركين أي صلة، وذلك أبلغ من: لم يكن مشركا.

خامسا: شاكرا؛ مدركا فضل الله مثنيا عليه، لا يحجب عن بريق ذهنه تواصل النعم، رغم أن النعم إذا ما تتابعت خف الشعور بها. أما إبراهيم فإن صلته القوية بالله جعلته يقظا لأنعم الله عليه يواصل شكره وثناءه.

إن تجمع تلكم المزايا كان شاهدا على أن الله قد اختاره فوفر فيه ما تفرق في غيره من معالي الأمور، والله أعلم حيث يجعل رسالاته. وفوق ذلك أحل الله الهداية في قلبه فأسرع إلى التوحيد، وسلك الطريق الذي يرضى الله عن سالكها فلم يحد عنه.

وأتبع ذلكم الثناء ببيان ما أغدق الله على رسوله إبراهيم من حسن الجزاء، فقال تعالى: لقد آتيناه في لطف ويسر الحسنة في الدنيا بما يشمل طمأنينة القلب وكفاية الرزق، وصلاح الذرية، وجمال الذكر، وتعلق الناس بالقرب منه على أنه مثال الخير والتقوى والفضل . وهو في الآخرة منضم إلى زمرة الصالحين المقربين من الله، وأجاب دعاءه الوارد في سورة الشعراء (رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين) [1].

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

اتبع : أصل الاتباع في السير على خطى السابق، والمقصود بها العمل على النهج والطريقة التي سار عليها إبراهيم.

الملة : الطريقة العقدية .

بيان المعنى الإجمالي :

مزية هي أعظم من المزايا السابقة لإبراهيم أن أوحى الله لمحمد ﷺ الحقائق التي أحيت صفاء العقيدة الإبراهيمية والمنهج الذي سار عليه في الاحتجاج على الوحدانية لله. فإن العقيدة التي كان يدعو إليها إبراهيم كانت سائرة على نهج مخالف لجميع المناهج المعروفة في عصره (حنيفا) وهو أبعد ما يكون عن الشرك فلم يخالط الشرك قلبه ولا دعوته من يوم عقل إلى أن توفاه الله.

---

[1] سورة الشعراء الآية 83

بيان المعنى العام :

123-ثم أوحينا أليك أن اتبع ملتــوما كان من المشركين .

كلمة ثم، أصلها أنها تعطف لاحقا على ســابق متراخيــا عنــه، تقــول جــاء محمــد ثــم صالح، فيفيد العطف بكلمة ثم أن مجــيء صــالح كــان بعــد مــدة زمنيــة مــن مجــيء محمد. وقد تكون للتفاوت في الرتبة فتدل على أن مــا عطــف بهــا هــو أعلــى مرتبــة. وبناء على ذلك فقوله تعالى ثم أوحينــا إليك يقتضي أن فــوق المزايــا التــي ذكــرت فــي الآيات السابقة، والتي خص الله بها إبراهيم: أن أوحيــت لــك يــا محمــد التشــريع الــذي يقوم في أصوله على ما يوافق أصول ملة إبــراهيم. فيكــون إحيــاء ملــة إبــراهيم إحيــاء يمضي مع الزمن دون أن تفسده شبهات أو تحريف، لــم يتحقــق إلا فــي الإســلام الــذي حُمّلت نشره في العالمين، وهذه مزية لإبراهيم فوق المزايــا التــي ســبقت إذ كــان الــذي خلص ملته مما اختلط بها عبــر الأزمــان، وصــفاها تصــفية لا يلحقهــا بعــد ذلــك أي خلط، هو محمد بما أوحى الله إليــه. ولــيس معنــى ذلــك أن التشــريع الــذي أوحــى الله لإبراهيم هو عين التشــريع الإســلامي، ذلــك أن تشــريع الإســلام هــو التشــريع الــذي ارتضاه للبشرية من عهد محمد إلى قيام الساعة. ولكن الاتفــاق هــو فــي ناحيــة العقيــدة التي انحرفت من بعد عهد إبراهيم، فاليهود حرفوا التــوراة تحريفــا وصــل بهــم إلــى أن جسموا الله تجسيما قريبــه مــن البشــر، والنصــارى حرفــوا الإنجيــل وجعلــوا الله أبــا. فأوحي الله لنبيه محمد أن يعلن في العالم التوحيد صــافيا كمــا أعلنــه إبــراهيم مــن قبــل وأن يؤيده بالأدلة والبراهين تأييدا ينفي كل شرك لله . وأكد ذلــك بقولــه: ومــا كــان مــن المشركين، بما يقتضيه من نفي أي صــلة فــي تصــور مفهــوم الألوهيــة بــين إبــراهيم وبين اليهود والنصارى والعرب، فقد لصق بكل واحد منهم لوثة من الشرك.

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

السبت : يوم السبت .

اختلفوا فيه : في الطريقة التطبيقية لاحترامه.

بيان المعنى الاجمالي :

ادعى اليهود أن تقديس السبت من الثوابــت العقديــة التــي كــان عليهــا إبــراهيم. فــرد القرآن زعمهم هذا بأن تقديس السبت فرض على اليهــود الــذين اختلفــوا فــي مــا يجــب

لتقديسه. وبقي الأمر مشتبها عليهم .وسيكشف الله لهم الحقيقة يوم القيامة لترتفع الأوهام وينجلي الحق .

بيان المعنى العام :

124-إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه...كانوا فيه يختلفون .

تحقيقا لما تضمنته الآية السابقة: أن أعظم مزايا إبراهيم ﷺ هو وحي الله لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يكون متبعا لصافي العقيدة التي دعا إبراهيم عليه السلام البشر إليها. وجاءت هذه الآية ترد مزاعم كان اليهود يشغبون بها على المسلمين، بيان ذلك :أن اليهود يزعمون أنهم ورثة الشريعة الإبراهيمية، وأن من القضايا الأساسية التي جاء بها تعظيم السبت، وهم ما يزالون ثابتين عليه إلى اليوم، ويقولون :لو كان محمد وارثا لدين إبراهيم لعظم السبت كما يعظمونه . فكان الرد عليهم بهذه الآية :إن تعظيم السبت لم يكن من شريعة إبراهيم، وما كان دعامة من دعائم العقيدة، وإنما جعله الله على بني إسرائيل الذين اختلفوا في تطبيق تقديسه، إذ كان منهم من استعمل الحيل لينتفع بحاصل ما يأتيه يوم السبت مما أعد له يوم الجمعة، ومنهم من نهى عن التحيل، ومنهم من اعترض على النهي عن هذا المنكر. واختلف أهل القرية في وعظ هؤلاء المتحيلين، حتى انتهوا إلى نسيان ما ذكروا به كما فصل ذلك في سورة الأعراف 163/166- فتقديس السبت فرض على اليهود واختلفوا في الطريقة العملية في تقديسه، وليس من شريعة إبراهيم في شيء، وليس تقديسه من ثوابت العقيدة كما يدعيه يهود. وتكون الآية متصلة بسابقتها وبالآية 118- ثم إنه سيكشف الله يوم القيامة الحقيقة التي اختلفوا فيها، إذ في ذلك اليوم ترتفع الشبه وينجلي الحق غير مختلط بالأوهام والظنون الكاذبة.

ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

سبيل الله : كل عمل من شأنه أن يوصل إلى رضا الله، وهو دين الإسلام.

الحكمة : المعرفة الصواب، الذي لا يشوبه خطأ.

الموعظة الحسنة: القول اللين الذي يخاطب المشاعر فيساعدها على عمل الخير.

المجادلة : عرض الحجة ليثبت الرأي ويسقط رأي المخالف.

المعاقبة : الجزاء على فعل السوء بما يردع المسيء.

الضيق : الجزع والكدر .

بيان المعنى الإجمالي :

هدت الآية للمنهج في الدعوة المحقق لنجاح الداعي في نشر الإسلام وإقامة الناس على طريق الصلاح. فأمر الرسول ﷺ وأمر المسلمين أن يكون القصد الأول للداعي هو الهداية للطريق المستقيم، وأن لا يراعي حظ نفسه ولا حظ قومه، وإنما يخلص قصده لسيادة السبيل الموصل لمرضاة الله. فيعتمد الحكمة المبنية على العلم، ومراعاة حال المدعو والطريقة الأمثل للتأثير فيه، ويعتمد الموعظة التي ترقق القلوب وتحرك الروح، وإن حصل جدال فليلتزم الجدال بالتي هي أحسن، فإن الغلظة تفصل بينهما وتثير إصرار الطرف المقابل على ما هو عليه. وعلى الداعي أن لا ييأس وليواصل هدايته للخير، فإن العاقبة لا يعلمها إلا الله، فعسى أن ينتهي المدعو بعد رفضه الأول إلى اتباع الطريق المستقيم .

وإن أوذيتم فترجح لديكم أن الخير في ردع المعتدي بمعاقبته، فتحروا أن لا تبلغوا بالعقوبة أكثر مما عوقبتم به . والصبر خير إن كان مآله افضل عاقبة

وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر وأعلمه أن الله ثبت قلبه وقواه بعون منه فقدرته على التحمل تفوق الطاقة البشرية. وسكب في قلبه الأمن والتفاؤل فلا يحزن عليهم إذا هم مردوا على العناد والكفر وتدبير المكائد له .

وقوى المؤمنين الداعين للإسلام بأن الله ناصر ومؤيد للذين تمكنت التقوى من قلوبهم، وثبت الإحسان في فعالهم وعزائمهم وقلوبهم.

بيان المعنى العام :

125- أدع إلى سبيل ربك بالحكمة...وهو أعلم بالمهتدين.

ترتبط هذه الآية بمطلع السورة التي افتتحت بأن ما قدره الله من نصره دينه حاصل لا ريب فيه، يحققه سبحانه في أجله فلا تستعجلوه . ومهمة الرسول صلى الله عليه وسلم ومهمة كل مسلم قادر على تبيين الهدى لغيره أن يسير في الدعوة إلى الحق على هذا المنهج الذي حددته الآية .

يتوجه الخطاب في البداية إلى رسول الله ﷺ إذ هو الداعي الأول للإسلام. وينسحب على المؤمنين الذين لهم من العلم ما يستطيعون معه نشر دين الله في آفاق الكون. فلنتتبع هذا المنهج كما فصلته الآية :

أولا : أن يكون القصد من الدعوة هداية المدعوين إلى الطريق الذي يرضي الله، (ادع إلى سبيل ربك) وهو دين الإسلام. لاحظّ لشخص الداعي ولا لقومه فيما يقوم به، تذوب شخصية الداعي لتسمو إلى أفق رفيع هو لسان الحق يؤثر في البشر فيهديهم ويُكوِّن معهم صلة الأخوة في الدين .

ثانيا : اعتماد الحكمة فتكون الحكمة ملابسة للداعي، فلا يدعو إلا بما يتقين أنه حق لا لبس فيه ولا شك، يراعي إصلاح حال المخاطب واعتقاده إصلاحا مستمرا.

ثالثا: بالموعظة الحسنة في مقامات الموعظة . والموعظة هي الطريقة التي يعتمد فيها الواعظ تليين القلوب وتحريك المشاعر، اللطف سبيلها، والتأثير الصالح هدفها، وتقريب الموعوظ من الواعظ مسلكها. وإتباع الحكمة بالموعظة الحسنة فيه إرشاد إلى أن الوعظ ليس نمطا واحدا، ولكن الواعظ الناجح هو الذي يعمل على معرفة من يقصد إصلاحه أولا، والنفوس مختلفة فيما تتأثر به، فليعمل الواعظ على أن تكون موعظته مناسبة للتركيب النفسي للشخص الذي يعظه. وبصفة عامة ترقيق القلوب واللين في الخطاب، والبعد عما يجرح وعن المواجهة بما يكره، هي قواسم مشتركة تهدي للموعظة الحسنة .

رابعا: المجادلة بالطريقة التي هي أحسن، فإذا كان الغرض من إقامة الحجة يتحقق بطريق حسن وهناك طريق أحسن فالداعي مطالب بأن يسلك الطريق الأحسن من غيره. إن المجادلة تعني أن يبرز الداعي شبه الطرف المقابل ليبطل حجته ويظهر تهافتها، وقد يصرح بقوله مثلا أخطأت، وكلامك متناقض، وينفي ما تقول كذا وكذا، ونحو ذلك مما يثير الطرف المقابل ويحمله على الرد بكل وسيلة دفاعا عن ذاته . ويتحول الأمر من الاستدلال بما يحكم به العقل إلى التمسك بإثبات الذات، ومن الموضوعية إلى الشخصية . وهو ما يضيع على الداعي الهدف الذي يجادل من أجله . وكذلك ما يصحب المجادلة من رفع الصوت، فتحكم الداعي في صوته يجلب الخصم إلى الإذعان للحق. ورفع الصوت يثيره ويضيع الحق في الجلبة. وليس معنى ما قدمناه أن يجمع الداعي بين الطرق الثلاثة الأخيرة في كل مقام، بل الرشد أن يعتمد في كل موقع ما يناسبه، جاعلا قصده أن يعلي الحق لا أن يظهر قدرته.

وصدر الآية يقتضي الأمر بالدعوة إلى الإسلام، وخاتمتها تقتضي مواصلة الدعوة وعدم اليأس. فالداعي مطالب بأن يواصل الهداية إلى الإسلام وإلى السلوك الصالح، وإعراض المدعو في أول الأمر لا يعتبر مبررا للتوقف عن القيام بواجب التذكير والتنبيه والدعوة، ذلك أن العاقبة مجهولة لا يعلمها إلا الله، والوقت الذي تتفتح فيه الروح للهداية وللسلوك الراشد غير معلوم فالله هو وحده العليم بمن يلازم الضلال عن سبيله، ومن سيهتدي إليه .ولما كان العلم المستند إلى القرائن ليس علما يقنيا وصف الله بأنه أكمل علما لأن علمه علم ثابت لا يتغير، والحاصل الذهني لغيره علم قد يثبت وقد لا يثبت .

126-وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ....لهو خير للصابرين .

موقف المسلم من المخالفين له في الدين هو ما فصلته الآية السابقة من الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن. ولكن بعضا من المخالفين قد تحملهم العنجهية على استعمال العنف ومحاولة إخضاع المسلم لإرادتهم الخبيثة فيعتدون، والعنف المادي يصحبه غالبا قصد إذلال وسحق للشخصية، والمؤمن عزيز فيأذن له ربه إما، أن يرد الاعتداء بالمثل ولا يفرط في العقاب عند القدرة، ولا يتجاوز فينقلب معتديا . كما يرشده إلى الصبر على الأذى إذا كان يعلم أن صبره سيترتب عليه ما هو خير وأفضل عائدة. كما جاء في قوله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)[1] – والمعول عليه في التفضيل بين رد الاعتداء بمثله أو الصبر والتجاوز، النظر في المآلات فإذا علم المعتدى عليه أن رد الاعتداء بمثله هو الطريق الأمثل لإيقاف الاعتداء، وتثبيت المهابة فليفعل، وإن ترجح عنده أن الصبر ينتهي إلى تأليف القلوب ولا يفهمه المعتدي على أنه ضعف وخوف فليصبر والصبر يكون خيرا .

127- واصبر وما صبرك إلا بالله ....في ضيق مما يمكرون .

الآية السابقة كما قدمناه تتناول النبي ﷺ وتنسحب على كل من تصدر للدعوة. سواء فيما يخص المنهج أو رد الفعل. وهذه الآية تخص النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كانت حياته تمثل الدعوة إلى الله. ولذا فإن ما لقيه النبي ﷺ من الأذى المعنوي والمادي من قومه كان على وزان المهمة التي كلف بها، ولم يتحملها غيره. وقد ذكر القرآن، كما فصلت كتب السيرة قوة شخصيته ﷺ ومواصلته للدعوة، ومثابرته

[1] سورة فصلت آية 34

على إبلاغ ما أوحي إليه ؛ بالرغم مـــن عنـــاد قـــريش وتفنـــنهم فـــي إذايتـــه . إن المهمـــة مهمة ثقيلة لو لم يؤيد بتوفيق من الله، وتقوية لعزمه، ومـــا ركـــزه فـــي قلبـــه مـــن يقـــين بأن كل ما يلقاه في سبيل نشر الإسلام وتركيـــز التوحيـــد يهـــون عليـــه كـــل ذلـــك، وأن مهمته أعظم وأنبل من أن يؤثر فيها المشـــركون بوقـــاحتهم وصـــلفهم وكبريـــائهم . إنـــه الصبر الذي أفرغه الله في قلبه، فكلما ضاعفت قـــريش مـــن إذايتهـــا زاده ذلـــك تصـــميما وصلابة وقوة . إنه يجد في نفسه الشريفة مدد هذا التأييد فأكـــد لـــه القـــرآن ذلـــك بقولـــه: (وما صبرك إلا بالله) بعـــون مـــن الله. وكـــان هـــذا التأييـــد الـــذي يحـــس بـــه ضـــاعف إحساسه وحبه لدخول المدعوين كلهم فـــي ديـــن الله، وكـــان يأســـف شـــديد الأســـف إذا تغلب العناد على ما يبشر به من حق، فسلاه ربـــه ودعـــاه أن لا يبلـــغ بـــه التـــأثر علـــى كفر من كفر مبلغ الحزن المقيم، وأن لا يجزع ولا يتكـــدر بســـبب مـــا يطلـــع عليـــه مـــن مخططاتهم التي يُعِدُّونها لتعطيل ما حققه من نجاح فـــي الـــدعوة إلـــى الله ، المعبـــر عنـــه ولا تك في ضيق ممـــا يمكـــرون . علـــى معنـــى أن عليـــه مواصـــلة الـــدعوة بقـــوة وأن الهداية في النهاية مرتبطة بألطاف هي من حكمة القدر الإلهي.

128-إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

تنعطف هذه الآية على ما سبقها تؤكـــده وتثبتـــه، وتســـكب فـــي قلـــوب الـــدعاة، وعلـــى رأسهم رسول الله ﷺ، الثقة بالنصر والتأكد مـــن أن العاقبـــة لهـــم. ذلـــك أن الله ينصـــر ويؤيـــد الـــذين تحقـــق مـــنهم تقـــوى الله، وكـــانوا ملتـــزمين بالإحســـان فـــي ســـلوكهم وضمائرهم .

أكملت بحمد الله وحسن عونه وجميل توفيقه مـــا فتحـــه علـــي بمنـــه وفضـــله فـــي بيـــان سورة النحل هذه. أسأله في ضراعة أن يوفقني لإكمال بيـــان مـــا يشـــرح لـــه قلبـــي مـــن فهم لآيات كتابه – وذلك يوم الثلاثاء 20 صفر الخير 1433– 2011/12/27.

ســـــورة الإســراء

لهذه السورة أسماء – كتبت سورة "الإسراء" فـي المصـاحف، واشـتق لهـا هـذا الاسـم من افتتاحها بذكر إسراء النبي ﷺ من المسجد الحـرام إلـى المسـجد الأقصـى الـذي لـم يذكر في غيرها من سور القرآن. كما سميت بسورة "بنـي إسـرائيل" إذ ذكـر فيهـا مـن أحوال بني إسرائيل ما لم يذكر في غيرهـا. وسـميت أيضـا بسـورة "سـبحان " لافتتـاح السورة بذلك. هي السـورة السـابعة عشـرة فـي ترتيـب المصـحف. وعـدت حسـب ترتيب النزول السورة" الخمسين ". نزلت بعـد سـورة القصـص وقبـل سـورة يـونس. وهي من السور المكية عنـد الجمهـور. واسـتثنى بعضـهم آيـات نتعـرض لهـا عنـد شرحها إن شاء الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١

بيان معاني الألفاظ:

سبحان: أصل سبحان أن تكون للدلالة على التنزيه من النقائص.

أسرى : سار في الليل.

بعبده : بمحمد ﷺ.

باركنا : البركة نماء الخير والفضل في الدنيا والآخرة.

حوله: تفيد سعة بركته إذ تتعدى المسجد إلى ما يحيط به.

بيان المعنى الإجمالي :

تنزه الله أن يعترض قدرته معوق، فهو الفاعل لمـا يشـاء. وقـد شـاء أن يحـيط محمـدا بألطافه فيحقق له السرى في جزء قليل مـن الليـل ليصـل مـن المسـجد الحـرام إلـى المسجد الأقصى بأرض فلسطين ثم يعود إلى فراشه قبـل أن يبـرد. وعبـر عـن محمـد بعبده فأضافه لنفسه تشريفا له.

وفي جمعه في وقت قليل مـن الليـل، بـين المكـان الـذي انطلقـت منـه الـدعوة إلـى التوحيد على لسان إبـراهيم وإسـماعيل، وبـين المكـان الـذي تجـددت فيـه الـدعوة

للتوحيد وعميت على الناس بعدهم، ثم العــودة إلـــى المنطلــق الأول مـــا يشــير إلـــى أن الله جمع لمحمد الكمالات التي تفرقــت فـــي غيـــره والتـــي مكنـــه مـــن تثبيتهـــا تثبيتـــا لا يلحقها بعده اختلاط. فقد صاحبته عنايـــة الله وألطافـــه فـــي هـــذه الرحلـــة الليليـــة ليطلعـــه على مغيبات تجمع بين كونها أدلة وبراهين علـــى صـــدقه، كإخبـــاره عـــن قافلـــة قـــريش ووقت بلوغها مكة، ووصف بيت المقـــدس لقـــريش فلـــم يجـــدوا فـــي وصـــفه أي خلـــل، وإمامته المرسلين في بيت المقدس، وما كشف له مـــن أحـــوال يـــوم القيامـــة .وفرضـــه الصلاة عليه في السماء خمسين صلاة، ثم اســـتجابة الله ســـؤاله التخفيـــف فكانـــت خمـــس صلوات في اليوم، يتضاعف ثوابها عشر مرات فتساوي الخمسين المفروضة أولا.

بيان المعنى العام :

1-سبحان الذي اسرى بعبده ليلا ... هو السميع البصير .

افتتحت السورة بقوله تعالى : "سبحان" والشأن أن يـــرد لفـــظ التســـبيح لرفـــع التبـــاس أو وهم يتعلق القصد بنفيه كقول الملائكة في ســـورة البقـــرة: (ســـبحانك لا علـــم لنـــا إلا مـــا علمتنا)[1] – لنفي ما في إجابتهم السابقة أتجعل فيها مـــن يفســـد فيهـــا مـــن التعجُّـــل فـــي الحكم على خلق آدم .وكقوله تعالى: (وقـــالوا اتخـــذ الله ولـــدا ســـبحانه)[2] إبطـــال اتخـــاذ الولد لمنافاته للتنزيه . أما افتتاح السورة بـــ" سبحان" فنبينه فيما يلي:

أولا: قال سيبويه: سبحان، علم على التنزيه: أي إنـــه كثـــر اســـتعماله فـــي الدلالـــة علـــى التنزيه حتى تفرد بالدلالة على ذلك المعنـــى شـــأنه شـــأن الأعـــلام كمحمـــد وصـــالح ولا يلحقه التنوين لاجتماع الألف والنـــون فـــي آخـــره مـــع العلميـــة . فافتتحـــت الآيـــة ب " سبحان " دون أن يتقدم ما يقصد نفيه.

ثانيا: لما لم يتقدم لفظ "سبحان" شيء فقد خرجـــه فـــي التحريـــر والتنـــوير علـــى أنـــه للتعجيب من خبر الإسراء .

ثالثا: إن الذي ترجح عندي : أن الإعـــلان بالإســـراء وإشـــاعته فـــي المجتمـــع القرشـــي يوم وقوعه، ثم إثباته قرآنا يتلى ليستقر في العقـــل البشـــري، كـــان وســـيبقى للنـــاس منـــه موقفان :

أحدهما: الرفض له على أنه من المستحيل أن ينتقـــل الإنســـان فـــي لحظـــات مـــن الليـــل من المسجد الحرام إلى فلسطين ثم يعـــود مـــن حيـــث خـــرج. والاشـــتباه الـــذي جعلهـــم يسرعون بالرفض هو الخلط بين المستحيل عقـــلا والمســـتحيل عـــادة. إن العقـــل لا يمنـــع

---

[1] سورة البقرة آية32

[2] سورة البقرة آية116

انتقال الإنسان من مكان إلى آخر بسرعة تتجاوز سرعة الضوء. ولكن الذي يمنع من ذلك هي القوانين العادية التي يظهر في الحياة تمكّنٌ الإنسان من التغلب على بعضها بقوانين أخرى. خذ لذلك مثلا رؤية ما وراء الحواجز الكثيفة والكثيرة والمسافات البعيدة، وسماع الأصوات الصادرة عنها . كان ذلك مستحيلا عادة وأصبح اليوم واقعا في أجهزة التلفاز، والسكايب .و سينبئنا العلم مستقبلا عن أمور هي الآن من فروض الخيال . ولكن العلم لا يأتي بما يناقض العقل ويقلب المستحيل عقلا جائزا، وإلا لفقد ذاته. إن أولئك الذين وقفوا من الإسراء موقف الرفض، عجل لهم القرآن في مفتتح السورة بتنزيه الله سبحانه عن العجز، أو أن تكون قدرته محدودة بما تعارف عليه الناس، ليكون هذا المفهوم هو المنطلق للنظر فيما يأتي بعد مما أكرم به نبيه . وعندي أيضا في قدرة انطلاق الفكر من حدود الزمان والمكان الضيقة ما يفتح له تصور الإسراء. تجد أحدنا وهو في بيته يتابع عرضا لوقائع بعيدة عنه في الزمان والمكان من كتاب في التاريخ، ومع ذلك هو يستطيع أن يعيش مع تلكم الأحداث كأنه يراها بمقدار ما وُفِّق الكاتب في حسن العرض. فانطلاقة العقل إلى الأبعاد الفسيحة زمانا ومكانا يرينا إمكان انتقال الإنسان متى توفرت المساعدات.

ثانيهما: أن المؤمنين زادهم خبر الإسراء إيمانا بصدق رسول الله. ذلك أن النبي ﷺ، لما أراد الخروج من بيت أم هانئ إلى المجتمع القرشي ليخبرهم، مسكته أم هانئ من طرف ثوبه متوسلة أن لا يخبر قريشا فيتخذوا ما يحدث به مطعنا في نبوته ؛ وذلك ما تم فعلا فإنه بمجرد ما دخل جلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء . فقال أبو جهل : يا معشر بني كعب بن لؤي هلُمّ! فحدثهم فمن بين مصدق وواضع يده على رأسه تعجبا وإنكارا، وارتد ناس ممن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر فقال: إن كان قال ذلك: لقد صدق. قالوا أتصدقه على ذلك ؟ فقال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك فسمي الصديق رضي الله تعالى عنه[1]. وهذا من فيض النور الذي غمر روح أبي بكر. فإن قطع المسافة بين المسجد الحرام وفلسطين أقل قيمة بكثير من تلقي الوحي عن الله، فتلقي الإنسان الوحي عن الله أعظم درجة، وأبعد منالا، ولم يتأتَّ لأحد بعد رسول الله ﷺ . أما قطع تلك المسافة في جزء من الليل فقد أصبح اليوم واقعا . فيكون الافتتاح بكلمة "سبحان"

---

[1] البحر المحيط ج6ص9

تعبر عما مكنته حادثة الإسراء مــن نصــاعة إيمــان المــؤمنين الصــادقين. وتنزيــه الله من أن يحول بينه وبين تنفيذ إرادته أي معوق مــن المعوقــات التــي تحــول بــين البشــر وتحقيق ما يريدونه.

وأضيف "سبحان" إلى اسم الموصول وصلته ســبحان الــذي أســرى دون " الله" فلــم يقــل "سبحان الله " للتعجيل بموجب التنزيه.

والذي أسرى مساوية لسرى، وزان ذهب به ليلا، وأســرى أعمــق دلالــة علــى العنايــة الربانية، فإنه لو قيل سرى عبدُه فإنه يفوت ما يدل عليــه التعبيــر القرآنــي" بعبــده"، مــن أن سراه ﷺ صحبتْه فيها ألطاف الله ورعايته. ومن أكرم مــا يــدل علــى ذلــك إضــافة الرسول ﷺ إلى نفسه إضافة تشريف[بعبده].

والسرى لا يطلق إلا على السفر ليلا، فيكون التصــريح بقولــه " لــيلا" منكــرا يفيــد أنــه وقع في جزء من الليل قليل .

وعين مبدأ السرى ومنتهاه . فالإسراء مبدؤه المســجد الحــرام؛ والنهايــة كانــت بــأرض فلسطين في موقع المسجد الأقصى اليوم. ثم تمــت العــودة فــي زمــن غيــر طويــل؛ إذ ذكر في السيرة أنه عاد قبل أن يبرد فراشه.

والمسجد الحرام هو الكعبة ومــا حولهــا. ســمي مســجدا لأنــه المكــان الــذي ميــز الله الصلاة فيه بمضاعف الثواب ممــا جعــل المســلمين يتنافســون فــي أداء الصــلاة بــه. وتحصل تلك المزية إلى الحدود التي يتسع إليها. وقد كــان عمــر بــن الخطــاب رضــي الله عنه أول من حوط المسجد الحرام بجدار يحفظه ســنة ســبع عشــرة مــن الهجــرة . ووُصف المسجد بالحرام تنويها بشــأنه ومنعــا مــن الاعتــداء فيــه بالقتــل أو الغــزو أو عمل السوء. إذ تتضاعف عقوبة من ينتهك حرمته. ويقــول الشــيخ محمــد الطــاهر ابــن عاشور: ولا أعرف أنه كان يعرف في الجاهلية بهذا الاسم.

والمسجد الأقصى هو المسجد الذي بناه سليمان ﷺ ببيــت المقــدس، فــي المكــان الــذي بناه فيه إبراهيم. ثم إن نبــي الله داود ﷺ تــوخى أن يضــع عليــه الخيمــة ، وأوصــى ابنه سليمان ﷺ أن يبني عليه المسجد . ثــم إن الملكــة هيلانــة أم إمبراطــور بيزنطــة قسطنطين لما تنصرت، وزارت مدينــة أورشــليم، وكانــت متعصــبة لــدينها ومتعصــبة ضد اليهود لاعتقادها أنهم قتلــوا المســيح ﷺ، أمــرت بهدمــه ونقــل أســاطينه إلــى الموضع الذي ظنت أن المسيح دفــن فيــه، وبنــت فيــه معبــدا ســمته : كنيســة القيامــة .ومبالغة في النكاية باليهود أمرت أن يحول موضع المســجد إلــى مجمــع أزبــال البلــد . ولما عقد عمر بن الخطاب ﷺ الصلح مــع أهــل تلــك المدينــة، وكــانوا نصــارى قــال

لبطريق لهم اسمه (صفرونيوس) : دلني على مسجد داود، فانطلق به حتى انتهى إلى مكان الباب وقد انحدر الزبل على درجه ؛ فتجشم عمر حتى دخل، ونظر وقال : الله أكبر ، هذا والذي نفسي بيده مسجد داود الذي أخبرنا رسول الله أنه أسري به إليه . ثم أخذ عمر والمسلمون يكنسون الزبل عن الصخرة حتى ظهرت كلها، ومضى عمر إلى جهة محراب داود فصلى فيه . ثم إن عبد الملك بن مروان أمر بابتداء بناء القبة على الصخرة وبناء المسجد، ووكل عليه رجاء بن حيوة الكندي سنة ست وستين وكان الفراغ منه سنة ثلاث وسبعين [1].

والمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بناه إبراهيم عليه السلام ففي الصحيحين أن أبا ذر قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولُ؟ قال: المسجد الحرام؛ قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة [2].

وحسب قواعد اللغة فإن الأقصى صيغة تفضيل، فالمبدأ هو المسجد الحرام، والنهاية المسجد الأقصى، وذلك يقتضي أن يكون هناك مسجد بينهما هو القصيُّ. ووقت نزول الآية لم يكن هناك مسجد آخر، فعد هذا التعبير من إخبار القرآن بالغيب، إذ بني مسجد رسول الله ﷺ بعد ذلك بينهما فكان المسجد القصي، ومسجد فلسطين المسجد الأقصى. وقد يكون من الحكمة في جعل طرفي الإسراء المسجد الحرام والمسجد الأقصى الإيماء إلى أن الإسلام جدد شرائع التوحيد من عهد إبراهيم عليه السلام، الذي بنى المسجد الحرام كما بيناه في سورة البقرة 124/134 – ثم تتابعت الأنبياء بأرض فلسطين. فقد هدى الله البشر إلى الحنيفية ببعثة إبراهيم وابنه إسماعيل، ثم تأكدت بالرسل الأكرمين عليهم السلام الذين قاموا بذلك في أرض فلسطين ثم عادت إلى منبعها الأول على يد خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه .

والبركة التي أنزلها الله حول المسجد الأقصى تدل على أن البركة تشمل المسجد الأقصى أولا، وكذلك ما حوله، والبركة هي ما أنزل في تلكم الأرض من الوحي على رسله، وما خص الصلاة فيه بمزيد من الثواب. فإن جميع الأماكن تتساوى في الثواب على الصلاة فيها إلا المسجد الحرام أفضلها، ثم مسجد رسول الله بالمدينة المنورة، ثم مسجد بيت المقدس .

[1] التحرير والتنوير ج15ص 19/14، والبداية والنهاية ج9 ص657/655–

[2] اللؤلؤ والمرجان ح 298–

وحكمُ الإسراء، وما نال النبي ﷺ من عناية وتقريب، خُـص ذلـك بعنايـة العلمـاء الـذين توسعوا فيه وكشفوا أبعاده. ونصت الآية على أن الله تفضل علـى نبيـه فـأراه فـي تلكـم الليلة من الآيات الشيء الكثير، الدالة على تقريبـه وتكريمـه ، فقـد أمّ الرسـل، ومكنـه من الرقي إلى السماوات العلى وفرض عليـه وعلـى أمتـه الصـلاة، وكشـف لـه عـن مآلات الصالحين، وعن بعض ما يلقـاه المشـركون والمسـيؤون ممـا هـو مـن أحـوال يوم القيامة . وأطلعه على ما هو خارج عن مقدور البشـر، فكـان الإسـراء معجـزة لـه. إذ أن قريشا لما طلبت منه أن يصف لها مسراه وبيـت المقـدس، رفعـه الله أمامـه فأخـذ يفصل جزئياته المميزة، وطلبت منه أيضا أن يخبرهـا عـن قافلتهـا العائـدة مـن الشـام، فأخبرهم أن عيرهم ستصل إلى مكة عند شـروق الشـمس يتقـدمها جمـل أورق، وكـذلك كان .

وإذ انتقل الرسول ﷺ في تلك الليلة إلـى مشـاهد تفـوق الطاقـة البشـرية، فـإن وعيهـا وتقررها في سمعه وبصره ﷺ، كان بإقدار الله له بجعل بصـره وسـمعه يسـجل كـل مـا رأى وما سمع في تلكم الليلة .

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكتاب : التوراة.

الوكيل :من يفوض له الأمر. والمعنى لا تتخذوا شريكا

قضينا : حكمنا وقدرنا مع تبليغ.

لتعلن : العلو بمعنى الطغيان في العصيان.
بعثنا عليكم :سيرنا من يتسلط عليكم .
أولو بأس : أصحاب قوة في الحرب .
جاسوا : تتبعوا المهزومين في كل مكان فـي الطـرق والأزقـة والمنعطفـات، وهومـا يعبر عنه في لغة العصر بالتمشيط.
خلال الديار : جميع المسالك المؤدية إلى الديار .
رددنا لكم الكرة : أعدنا لكم الغلبة.
النفير : المسرع للمساعدة في الحرب.
تبر : أهلك وأفسد.
ما علوا : ما تغلبوا عليه.
الحصير : المكان الذي يحصر فيه

بيان المعنى الاجمالي :

اعتنى الله بمحمد ﷺ فأسرى به وأراه من الآيـات التـي مـا لـم يطلـع عليـه نبـي ولا رسول في حياته. وآتى موسى عليه السلام كتاب التوراة الذي جعلـه القـبس الـذي يقتـبس منـه بنو إسرائيل الهداية، ويقيم من يعمل منهم بما جاء فيـه علـى الصـراط المسـتقيم .ونبـه إلى أن أهم ما تضـمنته التـوراة أن يخلصـوا لله فـي العبـادة ولا يتخـذوا مـن دون الله شريكا يعتمدون عليه. ثم حركهم بندائـه لهـم مـذكرا لهـم أنهـم مـن ذريـة نـوح عليه السلام الذي أخذ أباهم سام معه في السفينة، في الوقت الـذي أهلـك الله مـن كـان علـى الأرض من الذين اتخذوا شركاء من دون الله. نوح هذا النبـي الـذي كـان شـعوره بأنـه عبـد لله شعورا حيا قويا جدا، فاهتدى إلى شكر الله على كل نعمة أنعم بها عليه.

أخبرهم الله في التوراة أنهم سـينحرفون عـن التعـاليم التـي بلغهـا إيـاهم موسـى عليه السلام، وأنهم سيطغون في الضلال طغيانا كبيـرا. فتـذوب مقومـات القـوة والمناعـة، ويصـبح وضعهم قابلا للغزو والتنكيل، وأنه سيسـلط علـيهم بسـبب مـروقهم مـن الـدين وفسـاد سلوكهم المشين مخلوقـات لله تمرسـوا بالقتـال وعمـرت قلـوبهم بشـجاعة لا تعـرف سوى الإقدام، وخبرة قتالية قاسية ؛ فيـدخلون ديـاركم ويتبعـون فلـولكم المهزومـة فـي كل مكان ويخربون مبانيكم، ويتمكنون منكم أشد تمكن .وسـيتم ذلـك فعـلا فـي الأجـل المحدد . وكذلك كان فبعد الـدمار الشـامل لمـدينتهم أخـذ الأشـوريون الغـزاة البقيـة الباقية منهم أسرى إلى بابل، وهناك ضاعت جميع مقومـاتهم حتـى اللغـة العبريـة التـي كانت التوراة مكتوبة بها اختلطت بالبابليـة، فأصـبحت لغـتهم لغـة هجينـة هـي أصـل

اللغة العبرية التي يتحدث بها اليهود في عصرنا، وتبعـا لـذلك حرفـت التـوراة بعـد أن عم الجهل باللغة العبرية القديمة التي كتبت بها.

ثم إنهم بعد هذا القهر أصـلحوا مـا فسـد مـن سـلوكهم واسـتقاموا، فكثّـر الله نسـلهم وبارك في أرزاقهم، ويسّر الله من أخذ بيدهم فتغلب ملـك الفـرس علـى البـابليين ومكـن اليهود من العودة، وعمارة فلسطين في سـنة 530 قبـل المسـيح.. وممـا قضـاه معلمـا به في التوراة، أن ذكرهم بسـنة الله: أنهـم إن أحسـنوا غنمـوا نتـائج إحسـانهم فكانـت لهم، وأنهم إن أساؤوا فإن شر فسادهم سيكون علـيهم . كمـا أعلمهـم أنـه تحقيقـا لهـذه السنة فإنه بعد رجوعهم وقيام حضـارتهم فـي أرض فلسـطين أنهـم سيفسـدون فيسـلط الله عليهم كما سلط عليهم في المـرة الأولـى مـن يقهـرهم فيظهـر أثـره البـين علـى وجوههم كآبة وذلة، وليدمروا مسجدهم، ويخربوا كل مـا تغلبـوا عليـه تخريبـا مظهـرا استئصالهم من بيت المقدس فيتشتت البـاقون مـنهم فـي أرجـاء الـدنيا . والرجـاء فـي ربكم أن يرحمكم، وستمضي سنته فـي الاجتمـاع أن العـزة والأمـن، مرتبطـة بقوانينـه فإن عدتم إلى الخير عدنا لكم بالتأييد، وإن فسـدتم وغلـب شـركم خيـركم انتقمنـا مـنكم في الدنيا. وفي الآخرة يكون مصيركم مع مصير أمثـالكم فـي جهـنم التـي لا يجـد مـن دخلها منفذا للخلاص. (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا).

بيان المعنى العام :

2- وآتينا موسى الكتب وجعلناه هدى... من دوني وكيلا.

هذه الآية معطوفة على ما يفهم من الآية السابقة، التي هـي فـي قـوة : أسـرينا بعبـدنا، وآتينا موسى الكتاب . وعطفت على ما تضمنته الآية الأولى بجامعين:

الجامع الأول: أن الآية (1)ذكر فيها المسـجد الأقصـى وقـد ارتـبط بـه موسـى عليـه السلام، إذ قال لقومـه ادخلـوا الأرض المقدسـة، وأنهـم تمـردوا علـى موسـى فبقـوا تائهين في صحراء سيناء. وأنهـم عاشـوا فـي جـواره بعـد ذلـك، ثـم أخرجـوا مـن فلسطين على ما ستفصله السورة.

الجامع الثاني: أن الله قد امتن على موسى بإيتائه الكتـاب (التـوراة) فـي المقـام الـذي ابتدأ بالامتنان على محمد بالإسراء .والمقابلة بين المنتّـين تبـرز مـا حظـى بـه محمـد من فائق العناية، ومضاعف المنن، التي أشير لها بقوله تعالى : لنريه من آياتنا.

تفيد الآية أن الله أوحى بالتوراة لموسى ﷺ، وجعل ذلك الكتاب سببا لهدى بني إسرائيل، باتخاذ نصوصه أساسا للعقيدة، ودليلا على أحكام المعاملات ومنهجا للسلوك. وفي جعل

الاهتداء به قاصرا على بني إسرائيل ما ينبه إلى مزية ثالثة لسيدنا محمد ﷺ: إذ شريعة موسى قاصرة على بني إسرائيل، بينما الإسلام هدى للبشرية جميعا.

ثم وقع التنصيص على أهم ما جاءت به التوراة، وهو التوحيد الخالص : **ألا تتخذوا من دوني وكيلا** ؛ المفتتحة بأنْ المدغمة في "لا"، أن لا، فتكون أن مفسرة لما تضمنه (الكتاب) تسجيلاً لما بالغ موسى ﷺ في التأكيد عليه، ذلك أن بني إسرائيل قالوا لما أتوا على قوم يعبدون أصناما لهم: **يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة**. سورة الأعراف آية 138-وعبدوا العجل لما ذهب موسى للميعاد. مما يدل على أن تربيتهم طبعتهم على التعلق بالمحسوسات فلا يرتفعون بسهولة، إلى عقيدة التوحيد المبني على التجريد، ولذلك فسرت مهمة التوراة الأولى أن لا يتخذوا أحدا غير الله يعتمدون عليه، ويفوضون له أمرهم .

3- ذريةَ من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا.

راعت الآية غلظ قلوب بني إسرائيل من شدة تعلقهم بالمحسوسات كما بيناه، فنادتهم بوصف علّة يحركهم فيخلصوا في توحيد الله والتعلق به ؛ فقوله تعالى : **ذرية من حملنا مع نوح**، منادى حذف منه حرف النداء أي يا ذرية من حملنا مع نوح وهو سام بن نوح . وأدمج في النداء تذكيرهم بأنهم تناسلوا من نوح ﷺ الذي نجاه الله من الغرق وبارك في نسله لإخلاصه في عبادة الله أولا، وثانيا لأنه كان شاعرا شعورا ملازما، بأنه عبد لله، شرفُهُ في هذه العبودية، وأن شعوره هذا وقوة إحساسه به جعله لا يغفل عن شكر ربه عن كل نعمة باللسان وبالعمل .إذ كمال الشكر في صرف النعمة فيما خلقت له .ولذا فالآية تحرك بني إسرائيل ليسيروا على النهج الذي سار عليه أبوهم نوح من التوحيد الخالص الذي ضعفت التوراة بما أدخل عليها من تحريف عن الوفاء به، ومن لوازم ذلك أن يدخلوا في دين الإسلام الذي جلّى التوحيد وقام على بيانه قياما تفرد به، وهو دين الفطرة التي كان عليها نوح أبو البشرية الثاني، ومن شأن النفوس الزكية أن تلازم المنهج الصالح لأصولها .

4--5، وقضينا إلى بني إسرائيل .....وكان وعدا مفعولا.

مع إيتاء موسى التوراة، كشفَ من الله في هذا الكتاب إلى بني إسرائيل (اليهود) ما سيؤول إليه حالهم من الفساد وما سينالهم من العقاب أولا وثانيا.

فقد سجلت التوراة على اليهود أنهم سيفسدون في أرض فلسطين مرتين.

أما المرة الأولى فسيبلغ بهم العصيان ما تقسو به قلوبهم، ويتمكن منهم الطغيان والإسراف في اقتحام حدود الله مبلغا كبيرا. ثم فصلت ما يلحقهم من العقاب .

فعندما يحل الأجل الذي يمهلهم الله إليه في هذه المـرة، يسـلط الله علـيهم مـن مخلوقاتـه أصحاب شدة في الحرب ومران علـى القتـال، وشـجاعة عظيمـة، فـلا يسـتطيعون أن يوقفوا زحفهم . أقدرهم علـى القيـام بمعـاقبتهم فهزمـوهم وتتبعـوهم فـي كـل مكـان، واستباحوا ديارهم وأمـوالهم، وهـدموا المسـجد، وأخـذهم بختنصـر القائـد الأشـوري أسرى. ونقلهم إلى بابل. وفي مـدة أسـرهم اختلطـت لغـتهم باللغـة البابليـة وأضـاعوا اللغة العبرية التي كتبت بها التوراة. وحرفت التـوراة تبعـا لـذلك كلـه، وانقطـع السـند بينهم وبـين موسـى عليه السلام. فـدمرت حضـارتهم، ومعابـدهم، وانقطعـت صـلتهم ببيـت المقدس.

6—7، ثم رددنا لكم الكرة عليهم ...وليتبروا ما علوا تتبيرا.

وأعلمهم الله في التوراة أنهم بعد تدميرهم في المـرة الأولـى، سينهضـون مـن كبـوتهم وأنهم ستكون لهم الدولة علـى الـذين أخرجـوهم. وعبـر عـن هـذا الطـور بالماضـي "رددنا" دون "نرد" مع أن الأمر لم يقـع بعـد باعتبـار أنـه إخبـار بمـا فـى علـم الله، ويستوي في علمه سبحانه الماضي والحاضر والمسـتقبل فـي مفاهيمنـا . وقـدتم فعـلا ذلك، إذ أن ملك الفرس (داريوس) غزا بابل وانتصـر علـى ملكهـا، وقـد كـان اليهـود أعوانا لجيشه في غزوهم للبابليين. ويفهم مـن الـنص أن اليهـود بعـد أذلهـم البـابليون غيروا ما فسد من سلوكهم، واستقاموا فأنزل الله البركة فـي أمـوالهم وفـي بنـيهم وأكثـر عددهم، وربوا بنيهم تربية حربيـة يسـرعون إلـى نصـرة الـداعي لهـم مـن قـومهم، فتجمعت الممهدات لعودتهم إلى بيـت المقـدس، وفعـلا أذن لهـم كـورش بـالعودة إلـى بيت المقدس سنة 530قبل المسيح.

وذكر في التوراة خطاب الله لهم عقب عودتهم إلـى بيـت المقـدس بقولـه : إن أحسـنتم أحسنتم لأنفسكم، على معنى أن الإحسـان يتوجـه مـنكم إلـى ذواتكـم، ذلـك أن أصـل الإحسان أن يمضي من المحسن لغيره، ولكن الله حـرك بنـي إسـرائيل ليسـمو إدراكهـم فيعلموا أن الإحسـان والعمـل الصـالح ينتفعـون بـه فكـان سـببا لعـودتهم واسـتقرار أحوالهم بعد الشتات والقهر . وكـذلك بالمقابـل إن أسـأتم وتمـردتم علـى النظـام الـذي كلفتم باتباعه وبالحفاظ عليه أسـأتم لأنفسـكم . فـدل التعبيـر القرآنـي علـى أن الـنفس تصبح فاعلة ومنفعلة، وهو من بالغ التحريض على الامتثـال. وأفهـمُ مـن هـذا: تكـذيب اليهود فيما يشيعونه من أنهم شعب الله المختار وأنهم أحبـاء الله. فـأظهر مـا قضـاه فـي التوراة وأنبأهم به: أن سنة الله في الاجتماع واحـدة، وأنهـم إن أحسـنوا جنـوا ثمـرات إحسانهم، وإن أساؤوا خسروا بسبب إساءتهم.

كما أعلمهم أنهم سيعودون بعد الفرج إلى مــا كــانوا عليــه مــن الفســاد وطغيــان الشــر فيهم، كما أشار إليه قولــه : [وإن أســأتم فلها]. وأن الله سيسـلط علـيهم فـي المـرة الثانية من عباده الذين لهم من صفات القـوة وشـدة البـأس مثـل مـا كـان فـي المـرة الأولى[فإذا جاء وعد الآخرة] من يـذلهم ويخـزيهم ويقـتلعهم مـن بيـوتهم ويشـردهم. وجسم القهر: أنه سيظهر على وجـوههم كآبـة وحزنـا وذلـة، وأن القـاهرين سـيدخلون المسجد كما دخله من قبلهم ويخربونه، وأنهم سـيُهلكون ويفتّتـون مـا اسـتولوا وغلبـوا عليه من ممتلكات اليهود ومعـالمهم الحضـارية فيـدمرونها تـدميرا. وتـم تـدمير بيـت المقدس وإجلاء جميـع اليهـود منهـا سـنة 155بعـد المـيلاد علـى يـد الامبراطـور الروماني أدريانوس، وبقيت تحت سلطان الرومان إلـى أن فتحهـا المسـلمون فـي عهـد عمر بن الخطاب ﷺ..

8-عسى ربكم أن يرحمكم.... وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا.

لم يذكر في التوراة أنه من بعـد تشـريدهم وتخريـب عمـارتهم، أن الله سـيمكنهم مـن العودة إلى ما كانوا عليه، وغاية ما ورد في القضـاء فـي الكتـاب، التحـذير مـن أنهـم إن فسقوا وفسدوا، في البلدان التي تأويهم، أنه سيسلط علـيهم مـن ينـتقم مـنهم كمـا تـم في المرتين الأولى والثانية . فتضمّن ختـام الآيـة إعـلان رجـاء أن تشـملهم رحمـة الله فيعيشوا في الأماكن التي يقيمون فيها عيشـة عاديـة لا خـوف فيهـا. وأنهـم إن فسـدوا وطغوا في الشر فإن القهر يترصدهم وسيحل بهـم مـا مثـل مـا سـلطه الله علـيهم لمـا عمروا بيت المقدس . وقد تمردوا وحبكوا المؤامرات بعد ذلـك فكـان آخـر مـا أوعـدهم الله أن سلط عليهم فـي النصـف الأول مـن القـرن العشـرين الحكـم النـازي، الـذي ضخموه بعد الحرب العالمية الثانيـة، واسـتدروا عطـف العـالم علـيهم، ورجعـوا إلـى إجرامهم واستلبوا أرض فلسطين مـن أهلهـا وشـردوهم، وحرمـوهم مـن العـودة إلـى ديارهم، ومكنوا كل يهودي من الاسـتقرار فـي ممتلكـات الفلسـطينيين، ومنعـوهم مـن تكوين دولتهم، ثم تابعوا التنكيل بهم والتقتيـل والاغتيـال، وتسـلطوا علـى العـالم بقـوة إعلامية خبيثة، فصاغوا العقـول صـياغة منحرفـة تخـدم مخططـاتهم .وسـينفذ الله مـا أوعدهم لا محالة . هذا في الدنيا، وأما فـي الآخـرة فالمـآل هـو مـا جعلـه الله مـن أن جهنم ستكون جامعة حاصرة للكافرين لا يجدون عنها مخرجـا. وهـم قـد كفـروا برسـل الله في تاريخهم، واستباحوا دماء بعضهم، ثم كفـروا بمحمـد، فختـام الآيـة يشـملهم أولا وينسحب على من كان مثلهم.

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝

معاني الألفاظ :

للتي هي أقوم : للطريقة للتي هي أقوم.

الأجر الكبير : هو الجنة أولا ويصحب ذلك الرضا في الدنيا والآخرة .

أعتدنا : أحضرنا وأعددنا

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد إن القرآن الحاضر في قلوبكم المستمكن هـداه فـي بصـائركم الـذي لا يشـتبه بغيره، يسير بكم إلى الطريقة التي هي أقوم مـن جميـع الطرائـق .وينبنـي علـى ذلـك تقديم البشارة للمؤمنين الملتـزمين بالعمـل الصـالح بـأن الله كتـب لهـم أجـرا لا تحـد حدوده. ويبشرهم بأن الذين يسيرون فـي طريـق معـاكس فيكـذبون بالبعـث أن الله هيـأ لهم عذابا يحسون بألمه العظيم .

بيان المعنى العام :

9—10 :إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم... أعتدنا لهم عذابا أليما.

ذُكرتْ التوراة في الآيات السابقة، وسجل القـرآن بعـض مضـامينها، وقـد نبهنـا فيمـا مضى أن الله ادخر للإسلام ولنبيه من المزايا ما لـم يجمعـه لأحـد قبلـه. وجـاءت هـذه الآية معلنة بما استنبطناه، فأُحضر القـرآن حضـور المشـاهد المرئـي الـذي لا يخـتلط بغيره **(إن هذا القرآن)** وأجرى عليه الأوصاف المميزة:

أولا: هو يرشد البشر، جميعهم من حضر منهم زمن الوحي ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، ويدعوهم إلى الطريقة التي هي أقوم الطرق، وأبلغها سدادا وخيرا. ومعنى تفضيلها (أقوم) أي من كل الطرق الأخرى. فتلألأ القرآن مفضلا مشرقا وهاجا تلألؤ النجوم التي تهدي السائرين أينما كانوا. وتزداد المقارنة بين القرآن وبين التوراة وضوحا باعتبار أن القرآن يحمل إلى المؤمنين به الذين يعملون الصالحات بشارة هي أجلُ من أن توصف أو تحدد أبعادها، هي أجر وثواب كبير. واستحضرْ أيها التالي ما قُضي به في التوراة: **وقضينا لبني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ... وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا.**

تكشف لك المقارنة بُعْد ما بين الأمة الإسلامية وبني إسرائيل.

وما ذكر في الآية (9) هو بشارة للمـؤمنين، إذ أعلـن القـرآن عاقبـة الـذين يقصـرون تصورهم للحياة على الحياة الدنيا، الذين يتسـاندون فـي قيـادة موكـب الشـر والفسـاد،

ويتجهون إلى الشـــهوة واللـــذة ولا يقيمـــون للبعـــث حســـابا، يبشـــر الله المـــؤمنين بـــأن هؤلاء الذين يسيرون في خط معاكس لهم أن الله قد أعـــد لهـــم عـــذابا أليمـــا، هـــم نـــاجون منه .

وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا

بيان معاني الألفاظ :

دعا بالشيء : طلب إحضاره.

المحو : الطمس بمعنى انعدام النور.

مبصرة : مساعدة على إدراك المبصرات .

التفصيل : التبيين والتمييز .

طائره : حظه، وما قدر له .

كتاب : ما سجل من عمله.

الحسيب : الحاسب.

تزر : تحمل ثقل تباعة المعصية أي الإثم .

بيان المعنى الإجمالي :

رغم أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، فإن العجلة التـــي خلـــق عليهـــا الإنســـان، تجعلـــه لا يتريث في أخذ قرار الاختيـــار ولا يعمـــق النظـــر فيمـــا يريـــد أن يحصـــل عليـــه بتبـــيُّن المآلات البعيدة في الدنيا والآخرة. فتدفعه السرعة إلى العمـــل علـــى تحقيـــق مـــا يطلبـــه، فيستولي عليه عامل الجهل بالعواقـــب وعامـــل الســـرعة، فينتهـــي إلـــى أن يكـــون طلبـــه للخير مساويا لطلبه للشر في المـــآل. وجعـــل الله الليـــل والنهـــار يتعاقبـــان علـــى الكـــون وفي كل منهما دليل على الحكمة والدقـــة ورعايـــة مصـــلحة الإنســـان فـــي الوجـــود. إن الليل يستر الكون بظلامه وتسكن فيه الحركـــة ســـكونا يُمكّـــنُ الإنســـان مـــن الاســـتجمام،

ومن التأمل العقلي والروحي في عمق وهدوء، والنهار تكون قدراته على العمل والحركة والإنجاز أتم وأكمل.

ومن أسرار هذا التعاقب بين الليل والنهار، أن ملاحظتهما مكنت الإنسان من ضبط المواقيت والآجال في المعاملات وفي الزراعة وفي التقديرات بمختلف أنواعها، كما ارتقى بتلكم الملاحظة إلى اكتشاف قوانين الحساب التي ما تزال تتطور تطورا جعلها الركن في كل تقدم للعلوم الصحيحة، وما تبعها من خيرات .

ويثبت القرآن أن حظ كل إنسان من العمل الصالح أو من عمل السوء ومن الطاعة أو المعصية ثابت في علم الله، وعلم الله لا يقبل التبديل فذلك الحظ كالقلادة المحيطة بالعنق، لازمة له خاضع لها خضوع من يُمْسِكُ من عنقه. هذا في الدنيا، وفي الآخرة سيجد كل ما قدمه حاضرا أمام عينيه بينا واضحا، فيحكم على نفسه؛ إنه لا يوجد حساب مقنع كحساب الإنسان نفسه. ومن ألطافه سبحانه أنه كتب على نفسه أنه لا يعذب البشر بالعذاب الماحق على كفرهم، إلا بعد أن يبلغهم وحيه عن طريق رسله. فله الحمد والشكر على ألطافه.

بيان المعنى العام :

11 -ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا.

هذه الآية مثار تساؤل من المفسرين في موقعها وفي المراد منها. يقول الشيخ ابن عاشور : موقع هذه الآية غامض، وانتزاع المعنى من نظمها وألفاظها أيضا. ولم يأت المفسرون بما ينشرح له الصدر [1].

قد يكون ذلك تابعا لفهم الكلمة التي افتتحت بها الآية "يَدْعُ" المكتوبة بدون واو تبعا لخط المصحف الأول. إذ حملوها على الدعاء بمعنى الطلب من الله . ولا أريد أن أطيل بجلب كلامهم، ولكني أعرض ما لاح لي في الآية.

جاء في تاج العروس: ودعا بالكتاب :استحضره [2] فيكون المعنى : إن من شأن الإنسان أنه يدعو، يطلب تحصيل ما ليس عنده، وهذا المغيّب عنه قد يكون فيه الخير وقد يكون فيه الشر، فهما مستويان في علمه لجهله بالعاقبة، وإن كان الأمر معلوما على الحقيقة عند الله. ولما كان من طبع الإنسان أنه حريص على الوصول سريعا إلى ما مال إليه. فإن هذا الحرص الذي جبل عليه البشر من العجلة يجعل

---

[1] التحرير والتنوير ج15ص41

[2] ج38ص52

تأملهم قاصرا في موضوع ما هو مفقود عندهم ومطلوب لهم، تغلبهم الشهوة لنيله فلا يتبينون المآلات البعيدة، فيستوي الشر والخير. وقد ألمسُ أن داعية هذه العجلة مترتبة عن استحضار الإنسان قصر عمره في الكون، وأن كل لحظة تذهب لا تعود، وأن الفناء يلاحقه. فإذا أردنا ربط هذا المفهوم بالآية السابقة يلوح لنا: أن الآية السابقة حققت أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، أي للمسلك الذي هو أقوم من جميع المسالك الأخرى، ويتفرد بأنه يقيم التفكير البشري على الموازنة بين الدائم الباقي من رضا اللهوبين البرّاق الفاني الذي تدفع إليه العاطفة والشهوة. فيدعو القرآن بذلك اتخاذ قرار الاختيار على التأمل والنظر البعيد، والتؤدة لا على العجلة ويحذر منها. فتكون هذه الآية متممة لمضمون سابقتها، تكملها من حيث أن القرآن إذا كان يهدي للتي هي أقوم، فما يقع الناس فيه من شر رغم هداية القرآن، هو مسبب عن اندفاعهم لتحصيل ما يطلبونه بسرعة، دون أن يتريثوا حتى يتبين لهم ما يكمن فيما يطلبونه من عواقب مشتملة على شر توجب انصرافهم عنه.

12- وجعلنا الليل والنهار آيتين ....فصلناه تفصيلا.

التقابل في بناء الكون كالتقابل في قيم الأشياء، يهدي القرآن لتبين كل ذلك. كان القرآن هاديا للإنسان هداية عامة، وأنه إذا تُرك لنفسه قد يختلط عليه الخير بالشر. وعلى هذا الوزان ظاهرة تقلب الليل والنهار. توالي الليل والنهار جعل الإنسان يغفل عما في ذلك من صنع الله العجيب. وعمل القرآن على إيقاظ الذهن وتكرُّر لفت النظر إلى هذه الظاهرة ليقوده النظر إلى الإيمان بالخالق وحكمته.

الليل والنهار وهما يتعاقبان على الإنسان والكون: التأمل فيهما يقيم دليلا على بديع الصنعة والتقدير المحكم. فإذا تأملت أيها الإنسان في الليل تجده يلف الكون بظلامه، فتتأثر علاقتك به، ويحجبه عنك فيختفي كأنه غير موجود. فيكون الليل مؤثرا في الكون وفي علم الإنسان به في وقت واحد. وبالمقابل فإن النهار يجعلك تحس بما أودعه الله في هذا الكون حسب قانون الرؤية الدقيق. فتبصره ويصل بينك وبينه.

ومن بالغ الهداية القرآنية إظهار الغاية من تقلب الليل والنهار في قوله:

أولا: لتبتغوا فضلا من ربكم – ففي النهار ينشط الإنسان ويُولّد بعمله الخيرات، وذلك فضل، وفي الليل يستريح فتتجدد طاقاته من ناحية، ويجد العالِمُ في سكونه عونا على التعمق في النظر، وكثيرا ما تفتح له مغالق كان باب الولوج إليها مسدودا. وفي قيام الليل فضل عظيم لمن يوفقه الله وييسره له. ولذا فإني أرجح أن يكون التعليل (لتبتغوا فضلا من ربكم) في النهار والليل.

وثانيا: لتعلموا بمتابعة التحول بين الليـل والنهـار علـى نظـام دقيـق لا يختـل، تعلمـوا عدد السـنين، أي والشـهور والأيـام، فتضـبطوا أعمـالكم وتربطـوا علاقـاتكم بمسـار الكون كله. وهو باب مادي ملحوظ تجاوزه الإنسان إلـى التجريـد، فبلـغ علـم الحسـاب الذي طوره الإنسان عبر الأحقاب، وما يزال البشـر يكتشـفون مـن قواعـده مـا ينفـذون به إلى المعرفة الصحيحة لا التقريبية.

وما لفت إليه الأنظار يدخل تحت قاعـدة أساسـية تـربط تلكـم المظـاهر كلهـا بالنظـام الصارم الذي لا تداخل فيه، فصلّهٔ متميزا صادرا عـن علـم. وتجـد فـي القـرآن منهجـا يحقق لهذا التفصيل بلوغ الغايات التي ترقى بها المعرفـة، ولا يعزلهـا عـن خالقهـا ممـا يتبعه نجاح الإنسان في خلافته. فارتبطت الآيـة بقولـه تعـالى: إن هـذا القـرآن يهـدى للتي هي أقوم.

13 —14، وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه... عليك حسيبا.

وهذا من هداية القرآن، إذ كشف لكل فرد أن عمله في الـدنيا وحظـه مـن الأجـر علـى صالح عمله والإثم على ما قارفه من سيئات، موثـق مـلازم لـه لا يفارقـه. هـذا هـو معنى الجزء الأول من الآية . ولـربط هـذا المعنـى بصـياغة الآيـة أقـول :إن كلمـة طائر مرتبطة بما جرت عليه الحياة العربيـة، إذ كـانوا كلمـا أرادوا سـفرا، أو رغبـوا في التعرف على الغيب، نظروا في أول طائر يأتيهم فإن كـان مـن جهـة اليمـين تيمنـوا بذلك ومضوا، وإن أتاهم من جهة الشمال تشـاءموا وأعرضـوا . وكـذلك كـانوا يفعلـون إذا اقتسموا ما هم فيه شركاء رمـوا بقـراطيس مكتـوب فـي كـل واحـد منهـا اسـم صاحبه، ثم يرمون بها، فكل واحد يأخـذ السـهم الـذي وقـع عليـه القرطـاس المرقـوم باسمه. وقد يفعلون ذلك بسهام مكتـوب عليهـا فيطيـر السـهم الـذي ركـب فـي قناتـه الريش ليساعده على الطيران . ومن ذلـك توسـعوا فـأطلقوا علـى حـظ الإنسـان مـن خير أو شر طائره. وقوله: في عنقه يقصد منه عـدم مفارقـة حظـه لـه، هـو كـالقلادة المحيطة بالعنق فما عمله من خيـر أو شـر ثابـت مقـرر لا يسـقط بحـال. ثـم إن مـا تطوق به عنقه، سينكشف في كتاب يقرأه صـاحبه، سـواء أكـان أميـا أم قارئـا، يظهـر فيه جميع أعماله خيرها وشرها. وإن كان التعبير بكتـاب فـإن الـذي أرجحـه أنـه لـيس من نوع الكتابة المعروفة في الـدنيا بحـروف فـي قرطـاس، ولكنـه ثبـت مـن أمـور الأخرة يختص بالشمول والوضوح، يجده كل إنسـان حاضـرا بـين يديـه، فينظـر فيـه فيتبين كل عمل قام به في الدنيا. وأطلق النشر : منشورا لتأكيد مـا فهمتـه مـن أنـه لـيس قرطاسا يطوى أو يمكن إخفاء صفحة من صفحاته. ثـم يقـال لـه: اقـرأ كتابـك وتثبـت

فيه وكن حاسبا لنفسك ما قدمت من خير أو مـــن شـــر. ومحاســـبة الإنســـان لنفســـه بنـــاء على الثبت المنشور أو ضح محاسبة فلا مراوغة ولا معاذير.

15-من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ...حتى نبعث رسولا.

عقبت الآية السابقة بما يؤكد مضمونها فـــي صـــورة قاعـــدة عامـــة توقـــف كـــل إنســـان أمام مسؤولياته مع جرياتها على العدل الإلهي .تقـــول الآيـــة : مـــن ســـار علـــى طريـــق الهدى والتزم مطبقا ما بلغ إليه عن طريق رسله، ولـــم يطـــع هـــواه وحكـــم شـــرع الله، فإن صلاحه ينتفع به، زكاة في نفسه وطمأنينة في قلبه وراحـــة فـــي ضـــميره، ثـــم ثوابـــا في الآخرة، ورضوان من الله أكبر . وفي المقابـــل فمـــن أضـــاع طريـــق الهـــدى وســـار في منهج الضلال من الكفر والمعاصي، فإن ضلاله ســـيجد نتائجـــه فـــي الـــدنيا والأخـــرة عكس ما يلقاه المهتدي. إن العدل الإلهي فوق ذلـــك : قضـــى الله أن لا يحمـــل أحـــد ثقـــل الإثم الذي يرتكبه غيره، وكل إنسان مسؤول عن عملـــه .نعـــم مـــن تســـبب فـــي الشـــر ونهج للناس طريق الفســـاد وضـــللهم، فإنـــه يتحمـــل وزرهـــم باعتيـــاره متســـببا . وفـــي المقابل فإن الإنسان لا ينتفع من أجر ما عمله غيره مـــن خيـــر إلا إذا كـــان متســـببا فيـــه، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم والترمذي عـــن أبـــي هريـــرة رضـــي الله عنـــه : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جاريـــة، وعلـــم بثـــه فـــي صـــدور الرجـــال وولد صالح يدعو له[1].

وختمت الآية بإعلان اللطف الإلهي الذي اقتضـــى أنـــه ســـبحانه لا يســـلط عذابـــه علـــى البشر عذاب استئصال في الدنيا، وعذاب جهـــنم فـــي الآخـــرة إلا بعـــد أن يبعـــث رســـله ويبلغ وحيه للذين أرسل إليهم.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

[1] إكمال الإكمال ج 5 .

وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

قرية : المجتمع السكاني الذي يسكن الدور المبنية.

المترفون : أهل النعمة وسعة العيش.

فسقوا: خرجوا عن المنهج المسطر لهم.

القول : الوعيد الذي أنذرهم به رسولهم.

التدمير : أصله هدم البناء وإزالة آثاره، والمراد به الاستئصال.

العاجلة : متاع الحياة الدنيا.

ما نشاء : ما نختار إعطاءه .

يصلاها : يحترق بها.

مدحورا : مطرودا.

السعي : أصله، مرتبة في المشي أقل من العدو. والمقصود: مواصلة العمل.

الإمداد : استرسال العطاء وتتابعه.

محظورا : ممنوعا.

النظر: الرؤية البصرية التي يعقبها التدبر فيما وراء المبصرات.

الدرجات : مراتب المؤمنين في الجنة.

المذموم: المذكور بالسوء والعيب.

مخذولا : الذي تخلى عنه ناصره.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه هي سنة الله: أنه يبعث الرسول لأهل أي قرية من القرى ليهديهم إلى التوحيد ويقرر التشريع الذي يصلح الأفراد والمجتمع، فيقابله المترفون الذين أفسد فطرتهم النعيم بالرفض ويتبعهم الدهماء. ويعد أن كانوا غير عالمين بالحلال والحرام والصلاح والفساد، ينقلبون بما بلغهم الرسول مكلفين بما جاءهم عن ربهم، فمن أطاعه كان صالحا ومن عصاه كان فاسقا. فإذا ظهر الفسق في القرية وعم واستشرى الفساد، يحقق الله ما أنذروا به، فتتعلق الإرادة الإلهية بإنجاز إهلاكهم فيدمرهم تدميرا يأتي على جميعهم. ويحقق القرآن أن هذه سنة الله مضت مع القرون التي تتابعت بعد نوح، فكلما تمرد قرن على رسوله تعرض للانتقام. وربك

يا محمد يكفيك شرهم فلا حاجة لك بمن ينصرك، إنــه يعلــم مــا تكنــه صــدورهم ومــا يقومون به من أعمال شريرة يحصيها عليهم، ليجــري علــيهم سـنته فــي القــرون التــي أهلكها قبلهم.

إن القانون الذي بنى عليه الله أمــر الخلــق أنــه جعلهــم مختــارين. فمــن اختــار متــاع الحياة الدنيا، وقصر همه على المنظور القريب من ذلك، فــإن الله يُقَــدِرُ مــن يشــاء ذلــك ولا يجعله عاجزا عن تحصيل مــا لا يريــد الله منعــه منــه، وســتكون عاقبتــه عــذاب جهنم مع ذمه وطرده من رحمة الله . وبالمقابل فــإن مــن تعلقــت همتــه بــالفوز فــي الحياة الآخرة فامن وعمل بما يقتضيه الإيمان فإنه ينــال جــزاءه ثنــاءً علــى عملــه فــي الدنيا والآخرة.

إن رحمة ربك يا محمد يتتابع بها إمداد من وقف حرصه علــى متــاع الحيــاة ممــا قــدره له، ويواصل إمداد المؤمنين بخيرات الــدنيا والآخــرة. إن ســعة رحمتــه لا يحــرم منهــا كافر ولا مؤمن. كل ينال حظه منها حسبما قدره ونظمه بعلي حكمته.

انظر يا محمد متدبرا فيما يجري في الكون أمامــك، تجــد مؤمنــا صــالحا موســعا عليــه وآخر مضيقا عليه، وإن كان نشاطهم واحــدا. وكــذلك مقابلــة رزق الكــافر بــالمؤمن أو بالكافر. مما ينادي أن ما يمكن الله منه الإنسان مــن حظــوظ الــدنيا هــو مــن صــنع الله وحكيم تدبيره. يعجز البشر عن إدراك أسراره. ولكــن الأمــر فــي الآخــرة تتفــاوت فــي الدرجات التي يرقى إليها أهلها، كمــا يختلفــون فــي الفضــل الــذي يتفضــل بــه ربهــم عليهم، وللصلاح أثر في ذلك.

ثم توجه القرآن لكل من يمكن أن يتخــذ إلهــا مــن دون الله ناهيــا لــه أن يفعــل ذلــك، مبينا العاقبة: أنه سيكون أسير الــذم مــذكورا بســوء تــدبيره وخســة عقلــه، وأن مــن اتخذه إلها فعبده لا يعينه ولا يدفع عنه سوءا ولا يجده عند الأزمات .

بيان المعنى العام :

16 - وإذا أردنا أن نهلك قرية...فدمرناها تدميرا.

هذه الآية تعطي صورة تطبيقية لما جاء في الآيــة الســابقة -15- وحاصــل مــا تفيــده: أن الله إذا أراد أن يهلك أي قرية فلا دافع لمــا أراد. فكيــف يتحقــق ذلــك فــي الوجــود وما هي سنته في ذلك؟ إن الله يبعث من يبلغ رســالته التــي يعلــن المترفــون مــن أهــل القرية، وهم الأغنياء الــذين انغمســوا فــي ملــذاتهم واتبعــوا شــهواتهم، يعلنــون عــن رفضها ويؤثرون في أتباعهم وفي الــدهماء ليســيروا علــى طــريقتهم، فيصُــمُّ المترفــون وأتباعهم آذانهم عن قبول مــا جــاء علــى لســان الرســول، ويرفضــون الإيمــان بــالله

وباليوم الآخر وبالحساب، ويعلو المنكــر ويسـتفحل، ويعــم الفســاد وانحطــاط الأخــلاق، وعند ذلك يحين أجل مــا أنــذرهم بــه الرســول فتتعلــق إرادة الله بإنجــاز مــا أوعــده، ويدمر القرية تدميرا لا يبقي لها أثرا.

فالإرادة معناها تعلق إرادة الله بإنجاز وعيده وتحقيقه مــن إهــلاك القريــة التــي عصــت وأعرضت عن قبول ما جاء به الرسول.

أمرنا مترفيها : هو الأمر باتباع كل مــا جــاء بــه الرســول، وهــو فــي الحقيقــة أمــر لجميع سكان القرية، ولكن الذين يتقدمون لمحاجة الرســول وتحديــه، هــم الــذين أفســدهم النعيم ووفرة المال، وبرزوا في المجتمــع قــادة يُتّبَعُــون، لأن شــأن الاجتمــاع البشــري أن الدهماء لا يسبقون بعرض آرائهم ولا يعلو صــوتهم بــالرفض فــي البدايــة، إذ يقــوم بهذا الدور أصحاب الثراء المنهمكون في اتبــاع شــهواتهم، الــذين يشــرّع الرســول مــا يلجمهم عن الاستمرار، ويقيّد حــريتهم الفوضــوية بقــانون الــوحي المحقــق للمصــلحة . ثم يتبعهم الضعفاء .

ولما كانوا غير مسؤولين عن أعمــالهم قبــل بعثــة الرســول، لقولــه تعــالى فــي الآيــة السابقة: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا- فإنهم بعــد بعثتــه وقيامــه بتبليــغ شــرع الله يعتبر من لا يطبق ما أمر به فاسقا : أي خارجا عــن هــدي الله . ويعمــل الرســول فــي صبر على إقناعهم، وتوضيح أن صلاحهم هو في التحــول عــن الرذيلــة إلــى الفضــيلة، وعن الكفر إلى الإيمان. ولكنهم في النهايــة يصــرون علــى مــاهم عليــه ، فيعــاجلهم الله بما أوعدهم وتدمر مساكنهم ويستأصلهم العذاب استئصــالا لا قيــام بعــده . فقطــع دابــر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

17- وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح...خبيرا بصيرا .

تأكيدا لسنة الله في تدمير قرى الفاســقين المتمــردين بعــد الإنــذار، يــذكر القــرآن أن الله قد أهلك أقواما في قرون كثيرة متلاحقة، بعد أن أهلــك قــوم نــوح بالتــدمير الــذي أتــى على الأرض كلها فأغرقها ومحق الكافرين منهــا. فقولــه وكــم أهلكنــا: يفيــد أن الــذين سُلّط عليهم التدمير بعد نوح كانوا كثيرين فــي قــرون عديــدة؛ والقــرن المــدة الطويلــة اختلف في تقديرها من أربعين سنة إلى مائة وعشــرين. ولكــن معناهــا فــي الآيــة مــدة طويلة غير محددة بعدد من السنين.

وختمت الآية بما جرى عليه القرآن فــي مناســبات كثيــرة مــن إظهــار عنايــة الــرب برسوله وتثبيته. إنه سبحانه عليم بما تكنه صدور الكــافرين، ومــا يدبرونــه فــي خفــاء، وما يقومون به من الأعمال الخبيثــة لتوقيــف مــد الــدعوة .لا يغيــب عــن علمــه مــا

يجري في بواطنهم، ولا يخفى عنه أي شـيء صـدر للوجـود .إن ذلـك التأييـد يكفيـك عن طلب العون من غيره سبحانه، فأنت غير محتـاج لمـن ينتصـر لـك ويـدافع عنـك، فقد تولى أمرك ربك. وفي ذلك تلـويح بالتهديـد للمشـركين بـأنهم معرضـون لتنسـحب عليهم سنة الله في القرون المكذبة التالية لعهد نوح.

18—19من كان يريد العاجلة عجلنا له...سعيهم مشكورا.

بين القرآن من الآية13 عاقبة المكلفين تبعـا لصـلاحهم أو فسـادهم، وصـرح فـي هـذه الآية بحقيقة: هي أن الإنسان مختار لا مجبر. وأنـت إذا تتبعـت أحـوال الخلـق وجـدتهم على نوعين :

النوع الأول: الذين اختاروا نعيم الحياة الـدنيا، وجعلـوه كـل همهـم والمقـدم علـى مـا سواه، ونفوا من تقديرهم ومن سلم قـيمهم مـا يتعلـق بمـا وراء الحيـاة العاجلـة التـي يعيشونها. هـؤلاء لا يحققـون طموحـاتهم الدنيويـة بقـدراتهم، ولكـن الله هـو الـذي، لحكمة مستورة عنا، يعطي من متـاع الـدنيا لـبعض أحيـاء الـدنيا مـا قـدر أن يصـل إليهم. فهم لا يحققون من طموحاتهم تلـك إلا مـا قـدر الله أن لا يحـول بيـنهم وبينهـا. ثم هم في النهاية يوم القيامة سيصلون نـار جهـنم مـذمومين، تُعلَـنُ مخـازيهم ويُـدفعون عن منازل الكرامة.

النوع الثاني: الذين تعلقـت همـتهم سـامية إلـى الفـوز بالسـعادة فـي الـدار الأخـرة. يتمتعون بعزيمة ماضية، تقاوم مغريات الحيـاة الـدنيا، ونـوازع الشـهوة، وتعمـل بجـد ملتزمة بتطبيق شرع الله، وتجد لذتها في جمال الطاعـة. هـم يسـيرون سـيرا موصـولا بدون إبطاء، السير الموصل لمـا يحقـق الفـوز فـي الحيـاة الأخـرة. الإيمـان الفاعـل واضح في عقولهم وأرواحهم. ولـيس الإيمـان بـالتمني ولكـن الإيمـان المحـرك لفعـل الخير والابتعاد عن الشر، هو معنـى وسـعى للآخـرة سـعيها، الخـاص بهـا الـذي لا تغشاه لوثة من الغرور والفساد والرذيلة. هم متميـزون إذن، ولـذلك أشـير إلـيهم بقولـه تعالى: أولئك كان سعيهم مشكورا. سعيهم مقوّم بقيمة الشـكر عليـه والرضـا عنـه مـن مبدئه في الدنيا إلى يوم القيامة.

20- كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا.

هذه الآية مؤكدة لمضـمون الآيتـين السـابقتين لطـرد أي تصـور ينـافي مضـمونيهما فبالنسبة للنوع الأول، فإنه وإن كان منحرفا عـن طريـق الهـدى، تغلـب عليـه الأنانيـة والنظرة القصيرة، ويشيع الفساد بسلوكه ؛ فـإن الله رغـم ذلـك يواصـل إمـداده حسـبما

قدره وثبت في سابق علمه فلا يحول بينه وبين التحصيل على متع الحياة الدنيا، ولا يعاجله بقطع الأرزاق.

وكذلك النوع الثاني هو يستمد من فضل الله أيضا سعادة في الدنيا، وسعادة في الحياة الآخرة. إن عطاء ربك يا محمد وفضله على خلقه عام شامل لا يحرم منه أحد حرمانا كاملا. ولا مقايضة في الحياة الدنيا ونعيمها بين فعل الخير والتفضل، وبين فعل الشر والحرمان. إنه لوكان الأمر كذلك لترتب عنه انتهاء التكليف والاختيار. لأنه إذا كان كل من ضل الطريق يحرم سريعا حظه في الدنيا، وكل من يفعل الخير يعطى العطاء الوفير في الدنيا، لكان البشر كلهم يسعون إلى الخير .

21-انظر كيف فضلنا ...وأكبر تفضيلا.

أمر الله رسوله أن يستعرض أحوال الناس استعراضا يفضي إلى إدراك ما جاء في الآية السابقة. راقب ما تفضل الله به على البشر تجد أنه لا يوجد محروم، وأن حظوظ الناس مختلفة، فبعض المؤمنين قد وسع الله عليه وبسط له في الرزق، وبعضهم قد ضيق عليه، وكذلك عندما تقارن بين الكافرين فيما بينهم وفيما بينهم وبين المؤمنين. مما يخلص منه الناظر إلى أن الغنى أو الفقر على مختلف درجاتهما لا يرتبط شيء من ذلك بالصلاح أو الفسق.

وينطلق التدبر في ذلك إلى قضية من قضايا الآخرة التي يظهر فيها التفاضل المرتبط بالتقوى وبالعمل الصالح. فجزاء الآخرة وما يناله كل فرد من نعيم الجنة تختلف فيه درجات النعيم بصفة أكبر، كما تكون مراتب الفضل التي يعطيها الله متفاوتة تفاوتا عظيما. أخرج البخاري ومسلم بسندهما إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : إن أهل الجنة ليتراءون الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم .قالوا :يا رسول الله تلك منازل الأنبياء . قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا وصدقوا المرسلين [1].

22-لاتجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا.

قرر معظم المفسرين أن الخطاب أولا لرسول الله ويتناول كل البشر. والذي اطمأننت إليه أنه خطاب لكل من يتأتى خطابه ويسمع هذا النص القرآني . كقولك لا تكثر الكلام فيكثر سقطك، وعلى هذا تجري صياغة النصح .

---

[1] إكمال الإكمال ج 7 ص211

فالآية نهي لمن يمكن أن يتأتى منـــه فعـــل المنهــــي، أي الإشـــــراك بـــالله وإعطـــاء صـــفة الألوهية لغيره سبحانه. لأن ذلـــك ممـــا يتبعـــه أن يتســـلط عليـــك تســـلطا لا تســـتطيع الانفكاك عنه، اللوم والخذلان. أما اللـــوم فهـــو الـــذم ومـــا يصـــحبه مـــن اســـتهزاء بمـــن أشرك بالله ما لا يبصر ولا يسمع وهو أضعف مـــن أن يـــدفع الســـوء عـــن نفســـه. وأمـــا الخذلان فإن من أشرك بالله واتخذ إلها من دونـــه فقـــد اعتمـــد علـــى مـــن لا يقـــدر علـــى نصره، ولا يسعده بالعون عند ضعفه.

۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ

ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

قضى : أمرَ أمْرَ إلزام.

أف : اسم فعل يدل على الضجر أو التقذر.

النهر : إظهار الغضب في الصوت، أو في صيغة الخطاب.

القول الكريم : الجامع بين اللين وجمال اللفظ والمعنى.

جناح الذل :لا تتعاظم عليهما، بل ليكن مظهرك مظهر الذليل الراحم لهما.

صالحين : الصلاح في هذه الآية يدل على الامتثال لما سبق بسطه في الآية.

أواب : كثير الأوبة بمعنى الرجوع إلى الله.

التبذير : إنفاق المال في غير الوجوه النافعة الصالحة.

الإعراض : ضد الإقبال قصد به عدم الإيتاء.

الميسور : اليسر بمعنى اللين المقبول .

مغلولة : مقيدة بالغل وهو السير الذي تقيد به يد الأسير.

المحسور : المنهوك القوى .

يبسط الرزق : يوسع فيه.

يقدر : ضد يوسع: يضيق.

الإملاق : الفقر.

الخطء : الإثم .بالحق : بالعدل .

سلطانا: قوة .

السرف : الزيادة على ما يقتضيه الحق .

أشده : قواه في العقل والتجربة والنظر لنفسه.

وفى: أعطاه كاملا غير ناقص.

القسطاس : آلة الوزن .

المستقيم : السوي، المعتدل .

لا تقف : لا تتبع.

مسؤول : محاسب.

مرحا: مشية تنبئ عن زهو المر بنفسه، وتكبره .

تخرق : لن تمزق أديم الأرض.

الحكمة : معرفة الحقائق معرفة عميقة كاشفة لا خطأ فيها.

تلقى : تطرح في الأسفل مهانا.
مدحورا : مبعدا من رحمة الله.

بيان المعنى الإجمالي :

لقد ألزمكم ربكم بأمور لا مثنوية فيها تشمل :

أولا: إفراده بالعبادة فلا تعلّق الآمال إلا به ولا يخضع أحد إلا لشرعه.

وثانيا طاعة الأبوين ومعاشرتهما بالطريقة التي هي أحسن من غيرها. وخاصة عندما يبلغ الكبر أحدهما أو كلاهما، فيضعف الكبير عن القيام بما كان يستطيع أن يستقل به قبل ذلك. فلا يباشرهما بكلمة أو إشارة تدل على التضجر أو خارجة عن حدود الاحترام. وليتلطف في توجيههما إلى التي هي خير فلا ينهرهما، وليختر من الصيغ ما يعتبر من الأدب في عرف التخاطب. وليكن لينا معهما غير متغطرس تبدو الرحمة من مجلسه وخطابه وطريقة تعامله. ثم إنه يدعو لهما بالرحمة، الرحمة الصادرة عن الطبع كما ربياه ورحماه عندما كان صغيرا. والله يعلم ما هو كامن في صدوركم أكثر من علمكم به . وأنه سبحانه لعظيم فضله يقبل من التوابين العائدين إلى السلوك الراشد ويغفر لهم تقصيرهم. ويشمل هذا حالات التقصير مع الأبوين وحالات الانحراف الأخرى عن الجادة.

ثالثا: مساعدة الأقرباء، الواجب منها كالإنفاق على الوالدين والزوجة والأولاد، والمندوب إليه ممن تتصل بهم بنسب أو قرابة.

رابعا : مساعدة المساكين والمسافرين المنقطعين عن أموالهم.

ويتولى القرآن إرشاد المؤمن إلى المسلك الذي عليه أن يتبعه في بعض الظروف الاستثنائية. في صورة ما إذا كانت إمكاناتك لا تقدر معها أن تقوم بما ينبغي نحو ذوي القربى والمساكين، فلتكن راجيا أن يسعدك ربك من رحمته الواسعة بفضله، وخاطبهم بالقول اللين الذي يفسح في أملهم ويعوضهم عن مرارة الحرمان من العطاء بالأمل في المستقبل .

خامسا: التوسط في التصرف في المال بين الشح والتبذير. إياك أن يستولي الشح على قلبك فتكون صورتك صورة الأسير المقيدة يده إلى عنقه، فينصب عليك اللوم بما لا تجد له مدفعا. ولا تبذر مالك تبذيرا فتنتهي إلى وضع تعجز فيه عن القيام بحاجاتك .

ولتعلم أن الشح لا يغنيك، وأن التبذير لا يقلب من تتولى عطاءهم إلى أغنياء غنى لا تلحقهم الحاجة بعده ؛ ذلك أن الغنى والفقر والعطاء والمنع، بيد الله وحده

يصرّف ذلك بحكمته، فهو العليم أزلا بما يخفى عليكم، البصير بكل حالة على الوضع الذي تتم فيه قبل حصولها.

سادسا: النهي عن قتل الأولاد خوف الفقر. إن احترام الحياة والحفاظ عليها من الأسس التي جعلها الإسلام في مقدمة ما اعتنى به. والنهي قوي رادع لمن قسا قلبه فحدثته نفسه بقتل ولده خوفا من الفقر، إن الله واسع الرحمة كبير الفضل فهو يرزق الولد كما يرزق والديه وليس رزقه مكفولا من والده، فالله أرحم بعباده ممن تحجر قلبه .إن قتل الولد خطيئة عظيمة .

سابعا : تحريم الاتصال الجنسي غير المشروع – فنهى القرآن في أكثر من مناسبة عن الزنا وأدخله في هذا الميثاق وعلل النهي بأن الزنا قبيح جدا مناقض للفطرة وهو أسوأ طريقة للإشباع الجنسي.

ثامنا: المحافظة على الحياة: نهت الآية عن قتل النفس التي أعزها الله فحرم التعدي عليها بغير حق. والحق المسوغ لذلك هو لسلطة القضاء وحدها، وهو مفصل في كتب الفقه. ثم إن ولي المقتول ظلما قد مكنه الله من المطالبة بالقصاص، أو الرضا بالدية. ولما كان مُمكنا من رفع الأمر للقاضي الذي يتولى الإثبات ويقتص له من الظالم الذي قتل وليه، فلا يتعدى ما مكنه منه الإسلام فيعمل على قتل القاتل وغيره لو هم أن المقتول له مكانة اجتماعية أرفع من قاتله.

تاسعا: حفظ مال اليتيم. أمر القرآن بالحفاظ على مال اليتيم، ولا يتصرف فيه إلا بالوجه الذي هو أفضل لليتيم، لينميه له حتى يصل إلى سن الرشد المفصلة في الفقه

عاشرا: الوفاء بالالتزامات الموثقة . أمر بالوفاء بالعهود التي وثقها المؤمن مع غيره وأنه مسؤول عن الوفاء بها في الدنيا والآخرة . إن الحفاظ على العهد إذا أصبح ظاهرة عامة نجحت الأمة خلقيا واقتصاديا.

حادي عشر: إيفاء الكيل والميزان. يتلاعب بعض الناس بحق المتعاملين معهم، فيُنقّصون بحيل متنوعة ما يجب عليهم دفعه لهم. فنهت الآية نهيا مؤكدا عن هذا الخلل في التعامل وعن غش الطرف في الآخر بإعطائه أقل مما يستحق، وتخييل أنه اقتضى حقه كاملا . يدفع إلى هذا الفساد استعجال الربح، فنبهت الآية الناشطين في هذا الميدان إلى أن إعطاء المكيل والموزون وافيا غير منقوص هو خير لهم في الحقيقة ،يدركون هذه الخيرية ببركة وإقبال من الحرفاء وطيب سمعة لهم ولوطنهم، كما أن مآلهم في الآخرة مآل حسن.

ثاني عشر: ليكون المؤمن يقظا لمسؤوليته فيما يتخذه من قرارات بناء على حاصل ذهني أو سمعي أو بصري. فالمقوم الأول العلم بأن لا يعتمد المؤمن الأوهام والخرافة والخيالات في الميادين العلمية والتجريبية والقضائية. والمقوم الثاني، تقويم أعماله بعد اليقين بميزان المسؤولية ومآلات أفعاله.

ثالث عشر: التواضع والنهي عن التكبر. وجلب القرآن الصورة المقيتة أن يتصور الشخص نفسه أعظم من الناس، فيمشي مشية فيها خيلاء وتحد واحتقار .هذا المغرور وهو يطأ الأرض بشدة واهمٌ، لأنه لا يستطيع أن يخرق أديم الأرض، يمُرُ عليها كما سيمر عليها من يأتي بعده، ويرفع رأسه معرضا عن الناس، وهو قزم بالنسبة للجبال .

كل ما بيّنه هذا الميثاق مما نهى الله عن إتيانه أو عدم القيام به، يتحتم الابتعاد عنه بترك المنهي وفعل المأمور به. وينبه القرآن إلى أن التهاون بأي منها يُحْصَى على صاحبه ويسجل في كتابه عملا سيئا ومكروها عند الله يترتب عنه البعد عن رحمته.

إن تلكم الوصايا التي وردت في الميثاق هي من الحكمة الكاشفة عن الحقيقة في أعمق أبعادها، ما كان للأميين أن يدركوها إلا بفضل الوحي الإلهي إلى رسول الرحمة ﷺ . وإياك أيها الإنسان أن تتخذ إلها من دون الله فإنك ستقضي على مستقبلك قضاء مبرما، وتلقى في جهنم يوم القيامة مذموما مبعدا من رحمة الله .

بيان المعنى العام :

23-24، وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه.... كما ربياني صغيرا.

هذا المقطع من القرآن يهدف إلى بيان الأسس التي يُبنى عليها المجتمع الإسلامي، المجتمع النظيف القوي الذي يستطيع أن يقوم بدوره في الخلافة بنجاح في الأرض. ويتواصل التركيز على تلكم الأصول من هذه الآية إلى الآية 39. وهو بمثابة الميثاق الاجتماعي العام الذي يتعين على كل مسلم مراعاته، ويتعين على من يتولى أمور الأمة الإسلامية أن يكون منه على بصيرة يصدر منه ويعود إليه، ويحمل تربية الأمة على منهاجه الراشد. فلنتتبع ما تضمنه الهدي القرآني في هذا المقطع:

-أولا: أمرك ربك أيها الإنسان أمرا مؤكدا لازما لزوم القضاء الواجب التنفيذ، أن تفرده بالعبادة. وأتت صياغة هذا الأمر على صورة في الكشف عنها ما يثبتها ويبرز بلاغتها المعجزة. تخير القرآن لفظ (ربك) ليحدد من أول العرض المسار الذي تهدف إليه هذه الأوامر الملزمة. إنها صادرة من ربك الذي أحاطك بألطافه

وعونه ونمّى قدراتك ويسر لك ما بلغت به الدرجة التي تستمتع بها إلى هذا الأمر، وكل ذلك مما يوجب على المخاطب الطاعة والامتثال. أمرك أن تفرده بالعبادة، وإفراد الله بالعبادة مرتبة فوق العقيدة بالوحدانية، ذلك أن العبادة هي المظهر لما يجري في الفكر من تصور لمنزلة الإنسان في الكون، وهي الصورة العملية للعقيدة الباطنة، وهي المطوّعة للسلوك . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر[1] إن الفكر الذي يخضع لغير الله ويعبده هو فكر مختل، أسند العبادة لمن لا يستحقها وليس له على الفرد أي مزية تدعو للخضوع له. وإفراد الرب بالعبادة يتبعه القيام بكل ما جاء من تشريع وأدب وعلاقات اجتماعية وإنسانية.

ثانيا بناء الأسرة. المجتمع المتماسك الصالح للحياة، هو المجتمع الذي يكون فيه بناء الأسرة بناء قويا، تقوم العلاقة فيه على قيم خلقية. والأسرة تتكون أولا من الأبوين فأمرت الآية بالإحسان لهما، وفي اختيار التعبير عن الأبوين بالوالدين حكمة التذكير بمنتهما عليك، فكما أن الحياة التي هي أعز ما يملكه الإنسان هي عطية الرب الذي يرعاك في جميع تقلباتك، فإن الواسطة لحياتك الوالدان. فيختار في التعبير عنهما بما يربط بين الإنسان وبينهما (الولادة) وهنا يكون الأمر بالإحسان الذي هو مرتبة فوق القيام بالواجب. فأنت مطالب في كل مناسبة، بالتعامل الذي هو أحسن . وهنا يدخل الاجتهاد في التطبيق لينساق إلى الأفضل والأكمل. ولمزيد من البيان في هذا الركن يعرض القرآن أوضاعا قد تذهل الولد فلا يوفي فيها بحقهما. فمن ذلك حالة الضجر، سواء أكان ذلك مسببا عن ضعفهما كحالة الكبر التي تقتضي من العناية بمقدار ما ينتاب المعمّر من الأسقام، وضعف الذاكرة، ووهن العظام وتراخي المواسك. أوعن أحوال غير طبيعية في الولد كالضغوط النفسية من متاعب الحياة، فينبهه القرآن إلى أن لا يبلغ به الضجر التصريح بما يدل على عدم احتماله لهما ككلمة : أف- ونحوها مما يؤذيهما نفسيا، ومن باب أولى وأحرى ما كانت الإذاية أشد .

-كما صرحت الآية بتحريم زجرهما، إن رأى من أي منهما ما هو غير مقبول، فإن ذلك لا يبرر العنف في النصح بقوة، وإن ظن أنه يحقق الردع. وجسم حسن المعاملة بتصوير العلاقة بين الولد وأبويه بالطائر الذي يخفض جناحه أمام الطائر الذي هو أقوى منه. وهذا التذلل لهما ليس ناشئا عن الخوف أو المداهنة، ولكنه

---

[1] سورة العنكبوت آية45

وليد الرحمة لهما والعطف عليهما. وهو ما يدعو الولد إلى الترحم عليهما والدعاء لهما بعد موتهما، وبر أصدقائهما. والدعاء من الولد لأبويه بالرحمة بعد وفاتهما مرجو القبول، لأن الله أذن فيه وأمر به: وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا- ولما أكده حديث رسول الله ﷺ، أن دعاء الولد الصالح لوالديه يصل إليهما بعد موتهما. وبقيام الولد بذلك ينتفع الوالدان بالدعاء وينتفع الولد الداعي بامتثاله للأمر الإلهي.

25- ربكم أعلم بما في نفوسكم....للأوابين غفورا.

لا شك أن العناية الكبيرة بشأن الأبوين التي أمر بها القرآن، والبسائط التي ذكرت فيها، وقرنها بعبادة الله، ثم ما يلحق الإنسان من الضعف في حسن القيام على أبويه، خاصة إذا كان في طبعهما أو في طبع أحدهما حزونة، وسرعة انفعال، فقد مهدت هذه الآية إلى أن ما يبدر من الولد نحو أبويه قد يكون ناشئا عن ضعف بشري، ولكنه يكن لهما الحب والتوقير، فتلطفت الآية ببيان أن الذي يحاسب عليه الإنسان أولا وبالذات في هذه العلاقة هو ما وقر في قلبه من تقدير واعتراف بفضلهما. فربكم لا يخفى عنه شيء مما انطوت عليه نفوسكم وهو أعلم بها منكم، وإنه لعظيم وفضله يغفر ذنوب من تاب فأب ورجع إلى ربه وتذكر تقصيره وتفريطه، فعمل على تدارك ما فات واهتدى بهدي القرآن. وهذه الخاتمة تعم التقصير الذي وقع فيه المكلف في علاقاته مع أبويه، أو في التزامه بشرع الله.

26 –27، وآت ذا القربى حقه والمسكين....وكان الشيطان لربه كفورا.

في إطار العناية بالأسرة يطلب القرآن من المكلف أن يعطي لكل قريب حقه بموجب القرابة. وحقوق الأقارب تشمل الحقوق المادية والحقوق المعنوية، وتشمل الواجب والمرغب فيه. فمن الحقوق الواجبة ماديا النفقة على الوالدين والزوجة والأولاد في الحدود التي حددتها الشريعة، ودوّن تفاصيلها الفقهاء.

ومن المرغب فيه الإحسان لمن تربطك به آصرة قرابة أو نسب بما يشمل العون المادي للمحتاج والهبة للغني والفقير. وللصلة المادية أثر كبير في تمتين العلاقات وتعميق الود. ومن مجموع الوصاية بالوالدين، وبر ذوي القربى، يبرز حرص الإسلام على تمتين الروابط في قاعدة البناء الاجتماعي "الأسرة" وهو المقوم الثاني للميثاق الاجتماعي.

ثالثا: السماحة بإعطاء الفقراء والمحتاجين ما يساعدهم على تجاوز الظرف العسير الذي هم فيه. والإيتاء إعطاء عن طواعية وسماحة نفس وشعور بالتضامن بين

الغني المرفه، والمحتاج الذي عضه الفقر. وفي ذلك قوة للمجتمع باستئصال مرضين خطيرين من الأمراض الموهنة له : مرض الحسد من الفقراء، ومرض القسوة وعدم الإحساس بآلام المحاويج من قلوب الأغنياء .

رابعا: يكاد التشريع الإسلامي ينفرد بالتأكيد على حق المسافر الذي تقطعت به السبل وبعد عن بلده وأهله وعشيرته، ولم يكن معه من المال ما يستطيع به تلبية مطالبه الحياتية ليواصل سفره ويعود إلى موطنه، وإن كان غنيا في بلده. فيعطف القرآن هذا النوع من الناس على ذوي القرابة والفقراء، مؤسسا مفهوم التواصل بين أعضاء المجتمع الإسلامي، الداخل تحت قوله تعالى: إنما المؤمنون إخوة[1]. فأخوة الإيمان دائرةٌ وراء دائرة الرابطة الموطنية التي تتلو دائرة الأسرة.

-خامسا: النهي عن الإسراف في الإنفاق. وهو أحد الأسس في بناء النظام الاجتماعي في الإسلام . نعم تختلف طبائع الناس في تصورهم للمال، فبعضهم يشح بالقليل فضلا عن الكثير، ويحرم نفسه ويحرم أسرته مما آتاه الله، ويقدم المال على صلته بأقرب الناس إليه، وكثيرا ما تجدونهم ينتظرون موته . وبعضهم يرى المال وسيلة لإشباع الرغبات في توسع مفرط، فلا يعطي للمال أي قيمة، ويشعر بالراحة واللذة عندما يسرف في الإنفاق. إنه إذا كان التقتير ينقلب به الموسع عليه إلى حارس لئيم، فإن الإسراف يؤول بصاحبه إلى أن يكون حليف الشياطين .إذ الإسراف يقترن بتراخي العزيمة، والضعف عن إلجام الشهوة وإدخالها تحت التقيد بميزان المصلحة والخير . والمسرف تطغى شهواته وتكون لها القيادة وينتهي بأن يصبح الإسراف له خلقا والشهوة العارمة قائدا. إن الباب الذي ينفذ منه الشيطان فيقود بوسوسته إلى الشر والرذيلة، هو العاطفة لا العقل، فبتنويم صرامة العقل والروح، يجد إبليس مسرح التأثير بدون حارس، والمقاومة للشر هزيلة، فتنعقد بينه وبين الغاوي المسرف المتراخي صلة فيهون عليه الخروج عن حدود الله. وإذا انزلق المرء في المهواة فكل مرحلة سوف تتبعها مرحلة أشد فسادا . ويبلغ التحذير أرقى مداه بالتذكير بأن الشيطان الذي آخاه المسرف وأسلس له قياده، وانساق إلى مسارح فساده، هذا الشيطان هو كفور شديد الكفر. لعن منذ الأزل وحقت عليه كلمة الطرد والخسران. فأي رفيق اتخذه المسرف !

---

[1] سورة الحجرات آية١٠

تبتلى بمرض الإسراف الدول والقائمون على توجيه الاقتصاد كما يبتلى به الأفراد. أخذت الدول الغنية بسياسة التوسع المفرط في الإنفاق مبررة سياستها تلك بأنه بذلك تدور عجلة الاقتصاد، ويتم استيعاب اليد العاملة ، وكان لهذه السياسة التأثير السلبي على الوضع المالي العالمي، ثم تأثر به الاقتصاد تبعا .ودخل العالم في أزمة شديدة لمّا يظهر نفق الانفراج إلى اليوم، واهتزت أنظمة وتخلخل الاستقرار، وذهبت الطمأنينة، وبصفة عامة لم يستطع هذا التوجه أن يعمر طويلا. ثم تعرّض القران لأوضاع استثنائية وبين طريقة معالجتها لتحقيق ما اعتنت به الآيات السابقة من تماسك المجتمع.

28-وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك....قولا ميسورا.

شأن السائل أنه يعتمد المظاهر فهو يتوجه لمن مظهره يدل على أنه واجد قادر على مساعدته. ورده بدون شيء قد يؤثر في نفسه انكسارا وبالتالي انفصالا عن المسؤول، ووهن في العلاقة . فوجه القرآن من كان وضعه لا يسمح له بالعون أن يتخير عند الرد القول اللين الميسور الذي يجبر انكسار الرد، ويبعث الأمل بأنه مستعد في ظروف أخرى ينتظر فيها من ربه أن يوسع عليه برحمته .فالإعراض في الآية معناه عدم الاستجابة للسائل، أو عدم إيتاء ما تعودت إيتاءهم من الهدايا، وأن هذا الإعراض ليس مسببا عن شح مطاع، ولكن هو نتيجة عدم الوجد، مع أنك آمل في رحمة الله أن تمكنك من القيام بما يُمتّنُ روابط القرابة والأخوة الإسلامية لمن قربت داره أو بعدت.

ولا تغفل أيها التالي إلى ما تشير له الآية (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) أن تكون في حالات العسر أملا في رزق الله، وأن تتفقد أحوالهم إذا ما تفضل عليك ربك فأجرى لك من الرزق ما كان أحد أسبابه حسن أدبك، ورجاءك في فضله.

29-30-ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك...بعباده خبيرا بصيرا

ان قضية السماحة بالمال في حدود التوسط قضية أعاد القرآن العناية بها ليقيمها على العدل في الأيتين 30/29- فتوجه الخطاب مباشرة لكل من يتأتى منه سماعه بالنهي عن طرفي التفريط والإفراط في التصرف في المال.

الطرف الأول المنهي عنه: التقتير ومثّلهُ: أن المقتر جعل يده، وسيلة الإنفاق التي تتولى البذل، كأنها شدت بقيد إلى العنق، فتعطّلت ولا تستطيع مدها إلى غيرك بالعون والمساعدة، وهي صورة بشعة يزيد في بشاعتها أنها صورة الأسير الذي فقد الحرية وربطت يده بسير من جلد إلى عنقه .

والطرف الثاني المنهي عنه: الإســراف الــذي مثلــه بمــن بســط يــده بســطا كــاملا لا يستقر فيها شيء وفتحها فتحا لا تمسك معه لا ماء ولا مالا.
ثم جسمت الآية عاقبة كل منهما، فصورت مآل المقتر بهيئــة زريّــة :أنــه يكــون قاعــدا ينصب عليه اللوم والعتاب وتهــون مروءتــه . وصــورت المســرف بالقاعــد المنهــوك القوى، غير القادر على القيام بشؤونه.
ولتثبيت هذه الهداية في ضمائر البشر، عــرّف القــرآن أن الشــح لا يحقــق الســعة فــي الرزق والوفر في المكتسبات ولا يجلب الغنى لصــاحبه. وكــذلك الإســراف فــي الإنفــاق لا يقلب الذين يتوسع في تمكيــنهم مــن العطــاء أغنيــاء، ولا يرفــع عــنهم الخصاصــة رفعا أبديا. ذلك أن ربك المتولي لرعايتــك أيهــا الإنســان، الــذي حولــك مــن الوضــع الأول الذي ولدت عليه بفضل ألطافه، لا يــتحكم أحــد فــي أرزاق النــاس ســواه، فهــو الذي يوسع على من يشاء، ويحرم من يشــاء . وكــل ذلــك تــابع لحكمتــه لأنــه الوحيــد الذي يعلم بواطن الأمور ومالاتها . فهو يعلــم مقــدما الأشــياء علــى حقيقتهــا علــم مــن امتحن الشيء حتى انكشف له تمام الانكشاف، وهــو البصــير فــلا يخفــى عنــه شــيء. فكل ما يتم وجوده هو ثابــت فــي علمــه بالصــورة التــي ســيتم وجــوده عليهــا فــي المستقبل.

31-ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق...كان خطئا كبيرا .

سادسا: تحريم قتل الذرية وخاصة الأنثى خوف الفقــر. وحملــه جميــع المفســرين علــى أن الآية تعالج وضعا مقيتا كان عليه أهل الجاهلية: أنهــم كــانوا يقتلــون البنــات ويبقــون الذكور، لأن البنت عندهم لا تعين علــى القيــام بتــوفير أرزاق الأســرة، وهــي مظهــر ضعف لا تستطيع الدفاع عن نفسها، وخوف عار لو سُبيتْ . يقول أحدهم :

أحب بنيتــــــــــي وأود أني *** دفــنــت بــنيــتي في قعـــــر لحـــــــدي
ومــــــــا هذاك عن بغض ولكن *** مخــــــــــافة أن تذوق الــــــــذل بعدي
فربتمــــــا تزوجــها لئــيـــــم *** فيلعن والــــــدي ويــــسب جـــــــــدي
وربتمــــــا يموت الزوج عنهـــا*** فترجع بيتهــــــــــا وتذوق فقـــــــد ي
دعوت الله أن تكسى بلحــــــــــد*** ولو كـــــــــانت أعز الخلــــق عنـــدي

هكذا تصوروا الأنثى أحط قدرة من الذكور، عــاجزة لا تســتطيع القيــام بأمرهــا خلقيــا، وما دروا أن تربية الأسرة، وكذلك المجتمع، هومــا صــيرها إلــى الوضــعية التــي هــي عليها .

والذي ترجح عندي أن الآية عامة في الذكور والإناث، وأنهـا غيـر قاصـرة علـى أهـل الجاهلية، ولكنها تعالج انحرافات تتشكل في كـل عصـر بحسـبه، ففـي عصـرنا هـذا تحللت الأخلاق، وتضاءلت قيمة العفاف عنـد الـذكور والإنـاث، فـبعض الزانيـات إذا حملت تقتل ولدها بمجرد ما تضعه خوف انتقام الأسـرة، وبعـض النسـاء تبعـا للأنانيـة المفرطة، وعدم تقبلهن متاعـب الحمـل والتربيـة، أو للفقـر وضـيق المسـكن، تَسـقط الجنين. والجنين إنسان يحمـل جينومـه مـن أول يـوم تلقحـت فيـه البييضـة، جميـع الخصائص الخلقية والنفسية، والذي يتحقق بعد إنمـا هـو ظهـور مـا هـو كـامن. فـوأد البنات صورة من صـور التعـدي علـى حيـاة الأولاد. ومـا يجعلنـي أكثـر اطمئنانـا للتعميم أن الله عبر بالأولاد الشامل للجنسين، ولم يقل بناتكم.

ولدفع الخوف من الفقر، نبه الله الأبوين :أنه سـبحانه تكفـل بـرزق المولـود كمـا تكفـل برزق الأبوين . وهـذا المفهـوم وإن كـان سـبق فـي سـورة الأنعـام: نحـن نـرزقكم وإياهم. فإنه من بلاغة القرآن: أن العبـارة فـي سـورة الأنعـام نحـن نـرزقكم وإيـاهم، وفي هذه السورة نحن نرزقهم وإياكم. والسر فـي ذلـك أن سـورة الأنعـام كـان الفقـر حاصلا للأبوين فقدم إيصال الرزق لهما وعطف المولـود، وفـي هـذه الآيـة لـم يتحقـق الفقر بعد ولكنه الخوف من حصـوله، فكـان التعبيـر أن رزق المولـود علـى الله، فـلا موجب للخوف.

32-ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا.

سابعا : تحريم الزنا تحريما صريحا معلـلا بمـا لا يقبـل أن يكـون فيـه اخـتلاف، إذ ورد النهي عن القربان منه، على أنـه فعـل مسـتقذر يتحـتم البعـد عـن القـرب منـه بالنهي عن الدائرة المحيطة به حتى يتم التحصن مـن الوقـوع فيـه . ثـم قـوّى التأكيـد ببيان وجوه رفضه:

أولا أنه استقر استقرارا ثابتا كونه عمـلا قبيحـا شـديد القـبح (فاحشـة) وهـو أمـر مركوز في الفطرة، ولكن قوة الشهوة قد تغطي علـى الزانـي قـبح فعلتـه . روى الإمـام أحمد بسنده إلى أبي أمامة قال : إن فتى شابا أتى النبـي ﷺ فقـال : يـا رسـول الله ائـذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقـالوا مـه ! مـه ! فقـال : ادنه.فدنا منـه قريبـا فجلس حتى قال : أتحبـه لأمـك؟ قـال: لا والله جعلنـي الله فـداءك . قـال: ولا النـاس يحبونه لأمهاتهم .قال : أفتحبه لابنتك ؟ قـال: لا والله يـا رسـول الله جعلنـي الله فـداءك .قال : ولا الناس يحبـونهم لبنـاتهم قـال : أتحبـه لأختـك ؟ قـال : لا والله جعلنـي الله فداءك .قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم . قـال أتحبـه لعمتـك ؟ قـال :لا والله جعلنـي

الله فداءك .قال : وكذلك الناس لا يحبونه لعمــاتهم .قــال: أتحبــه لخالتــك ؟ قــال: لا والله جعلني الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لخــالاتهم . قــال: فوضــع النبــي صــلى الله عليه وسلم يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصــن فرجــه. فلــم يكــن بعــد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1]. ثانيا : أنه طريق سيء وسلوك مرفوض لقبحه .

إن الزنا من أكبر الكبائر وأقبح الآثــام المنــاكر وأشــدها تــأثيرا فــي اخــتلال المجتمــع .لأنه إذا كان مع متزوجــة فهــو عرضــة لاخــتلاط الأنســاب، ومعــرض للــذود عــن الشرف بما يصل إلى القتــل، وفســاد العلاقــة بــين الــزوجين وهــدم البيــت والأســرة، ولصق عار بذريتها. وإن كــان مــع عزبــة فإنــه قضــاء شــهوة لحظــة يتبعهــا عــار يصاحبها كامل حياتها، وإثارة للذود عن الشرف مــن أهلهــا، وكثيــرا مــا أزهقــت فيــه أرواح. وقد ينشأ عنه حمل تكون جناية الزانيين عليه لاتقــف آثارهــا الســيئة عنــد حــد، فقد يقتل بمجرد ولادته، وقد يرمى بــه، وهــو البــريء، فــي القمامــة أو فــي أي مكــان للتخلص منه ويلقى حياة نكدة .

33-ولا تقتلوا النفس التي حرم الله ......إنه كان منصورا.

ثامنا : حفظ الحياة وتحريم القتل وتفظيعــه . هــذا التشــريع مــن أعظــم مــا اهــتم بــه الإسلام . كانت الحياة رخيصة في الجاهليــة فشــاع الإقــدام علــى القتــل بمــا يتــراءى للقاتل أنه حق له .وقد تكون صــلة بــين القاتــل وشــخص آخــر مبــررة لقتلــه. وقــد يستبيح القاتل دم المقتول بسبب كلمة. وجرى المســتبدون الظلمــة بعــد العصــر الجــاهلي على بسط سلطانهم بالقتل والإرهاب منــه. نهــت الآيــة عــن ارتكــاب جريمــة التســلط على الغير بسلب حياته هذه الحياة التي هــي مــن خلــق الله هــو الــذي أعطاهــا، وهــو الذي يسلبها متى شاء، هي النفس التي حــرم التعــدي عليهــا (التــي حــرم الله) فكــان نهيا مستمرا عاما، واستثنى من ذلــك القتــل الملتــبس بــالحق. وقــد بــين رســول الله ﷺ الحالات التي يكون الإعدام فيها حقا . روى البخــاري ومســلم واللفــظ للبخــاري بســنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنــه قــال :قــال رســول الله ﷺ : لا يحــل دم امــرئ مسلم يشــهد أن لا إلــه إلا الله وأنــي رســول الله إلا بإحــدى ثــلاث : الــنفس بــالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الــدين التــارك للجماعــة [2].- ولا ينفــذ حكــم القتــل بهــذه الموجبات إلا القضاء، بعد التثبت التام مائة في المائة، وأدنــى شــك يحــرم معــه الإقــدام

---

[1] المسند ج5ص257

[2] اللؤلؤ والمرجان ح1091ص412

على القتل لقوله ﷺ :ادرؤوا "ادفعوا" الحدود بالشبهات. ونية القتل أو الإعداد له دون تنفيذ لأي حائل كان، لا يحل قتل المُعِدُّ لذلك.

وقد جعل الله لولي القتيل الحق الذي يتحتم تنفيذه تبعا لاختياره. والولي هو من ولد القتيل أو ولده أو جمعه وإياه أب على تفصيل عني به الفقهاء وضبطوا ما هو مجمع عليه وما هو مختلف فيه. فلولي القتيل ظلما أن يطلب بالقصاص من الجاني، ويقتل بعد الإثبات من طرف القضاء. كما له الحق في العفو عن الجاني وأخذ الدية. جعل الشرع له هذا السلطان بالمطالبة بالقصاص أو الرضا بالدية. وإذا رضي بالقصاص فلا يتجاوز فيه ويقتل غير القاتل، أو يتعلل بشرف القتيل وأنه يساوي أكثر من شخص واحد فيطلب تنفيذ الحكم في القاتل وفي من له صلة به، أو أن يعجل بالقتل قبل أن يحكم به الحاكم. ولما كان التشريع قد ضمن القصاص من القاتل، فهو قد نصر الولي، وكفاه ما يجده من اعتداء القاتل.

وقد ظن بعض المفسرين أن هذه الآية مدنية لما جاء فيها من تفصيل للتشريع الملائم فقط حسب ظنه للمجتمع الإسلامي بعد أن برزت الجامعة الإسلامية المستقلة. وهذا التوجيه لا يوجب الحكم عليها بكونها مدنية لأن السورة نزلت بعد الإسراء وبعد أن كثر المسلمون وتاقت نفوسهم لمثل هذا البيان التشريعي.

34-ولا تقربوا مال اليتيم ....إن العهد كان مسؤولا.

تضمنت هذه الآية نهيا، وأمرا:

تاسعا: النهي داخل تحت مقوِّم حفظ المال الضروري للاجتماع البشري. وهذا يتصل بما سبق في الآيتين 26/27- من النهي عن التبذير. وتختص هذه الآية بنوع آخر من حفظه. وهو حفظه لمن يملكه ويضعف عن منع الأيدي الظالمة من الاستحواذ عليه. هو وضع اليتيم الذي فقد الوالد الراعي والحامي، كانوا يستسيغون قبل البعثة، أن يستحوذ بعض أقارب اليتيم على ماله زمن صباه، ويسّر لهم ذلك فقدان من يفضح الخائن والسارق فلا يجدون حاميا ولا لهم وازع باطني يقصيهم عن الظلم لليتيم. فأقام الإسلام هذا الوازع الباطني المستند إلى النهي الإلهي في جملة الميثاق .وكان النهي عن قربان مال اليتيم فضلا عن أخذه، مبالغة في التشنيع على الذين يستسيغون الاستحواذ على أموالهم . ولمّا كان لا بد لمن يتولى أمر اليتيم أن يتصرف في ماله تنمية وإنفاقا حدد القرآن ذلك التصرف بأن يكون بالطريقة التي هي أحسن من غيرها، حتى يبقى له ماله عندما يشتد عوده ويرشد. وبناء على

ذلك فإن عليه أن يثمّره حتى لا تأكلــه الزكــاة، ولا يحــبس منــه شــيئا ينتفــع بــه . ثــم يسلمه له عند رشده.

عاشرا : الأمر بالوفاء بالعهد :كل مــؤمن مســؤول عــن الالتزامــات التــي عقــدها مــع الآخرين .وتوجه الطلب للجماعة لما في حفظ العهود علــى نطــاق الجماعــة مــن ائتمــان الأمة والتعامل معها بثقة، يتبعهــا نفــاق تجاراتهــا وصــناعاتها وازدهــار اقتصــادها . كما أن اللحمة بين أعضاء الأمة تقوّى بحفظ العهد وتتراخــى حتــى تبلــغ حــد الانفصــال بعدم احترام العهود.

35 -وأوفوا الكيل ...وأحسن تأويلا.

حادي عشر: احترام المقاييس التي يتم بها التبادل، والتــي تكــون المعيــار لحــق الطــرف المقابل، وهي الموازين والمكاييــل . والمكاييــل تشــمل المقيــاس المتعــارف عليــه فــي نوع السلعة كاللتر والصــاع، فــي الحبــوب والزيــوت ونحوهــا، وكــالمتر والقــدم فــي الأقمشة والأرضين ونحو ذلــك . فــأمرت الآيــة جميــع المــؤمنين أن يعطــوا الطــرف المقابل حقه بالمعيار الذي يتم به التبادل . ومــن الضــبط القرآنــي مــا وصــف بــه آلــة الوزن بالحرص أن تكون مستقيمة لا خلــل فيهــا. وتــم التحــريض علــى الالتــزام بــأن عدم التطفيف خير للوازن في الــدنيا، يتمثــل هــذا الخيــر فيمــا كتبــه الله مــن البركــة للمحافظ على الميزان العادل، وما يترتب عليه من الثقــة فيكثــر زبائنــه وتنفــق تجارتــه. وخير في الآخرة بما سيجده مــن كــرم الله وفضــله فــي الآخــرة. وهــو معنــى قولــه تعالى: وأحسن تأويلا. نعــم قــد اســتعجل فاقــدو الثقــة مــا يــوفره لهــم أكــل أمــوال المتعاملين بــالطرق الخبيثــة والاحتيــال بــالتطفيف ؛ وهــم خاســرون فــي المــآل، لأن التطفيف يمحق البركة، ويطرد المتعامل معهم فــلا يعــود، ويقــل الثقــة فــي المجموعــة فيؤول أمرها إلى كساد، فتنتشر البطالة .

36- ولا تقف ما ليس لك به علم ....كل أولئك كان عنه مسؤولا.

ثاني عشر: هذه الآية تمثــل مــنهج فكــر ومــنهج حيــاة. العقــل فــي نشــاطه الــدائم، والحواس في علاقتهــا الموصــولة بــالكون، يمثــل هــذا وذاك مبــاني للقــرارات التــي يتخذها الإنسان. وينجز تبعا لها ما استقر عليه نظره فيها.

إن الحاصل الذهني قد يكون مبنيا على أوهام وخيالات، يتكرر استحضارها إلى أن تستولي على العقل فتدفعه إلى مواقف والقيام بأعمال، ثم ينكشف فسادها وزيفها بعد التنفيذ.

وكذلك ينقل السمع للدماغ مسموعات، فتتركز فيه، ثــم يتحــرك بنــاء علــى مــا اســتقر فيه إلى اقتناع، فيسلك مسالك يمليها عليه فكره بناء على الحاصل السمعي.

وكذلك يبصر أشياء فيجري الأمر على نفس الطريقة في السمع.

السؤال المطروح :هل ترتفع المسؤولية عن الإنسان في سلوكه إذا اتبع الحاصل الذهني، أو السمعي، أو البصري ؟

أجابت الآية عن هذا السؤال، فبينت أنه لا يرفع المسؤولية عن الإنسان إلا ما قبله أولا بناء على يقين لا على وهم، وثانيا بناء على شعور بالمسؤولية عما يترتب على أفعاله .ولا يعتبر الحاصل المستقر مبررا رافعا للمسؤولية .

إن الحاصل الذهني إذا لم يكن نتيجة علم ويقين يجب طرده من الذهن على أنه وساوس وخيالات. يبين هذا أن كثيرا من العواطف تدفع إلى مواقف من الحب أو البغض وتنمو مترددة داخل العقل الباطن حتى تنقلب حقائق يؤمن بها صاحبها ثم تسوقه إلى نوع من السلوك يعقبه الندم . قال تعالى: وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم [1]- وقال تعالى :وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا [2]- إذن فالتثبت وإدخال البارقة الأولى في مخبر النظر تحصّن المؤمن من الخرافة والأحكام السطحية المضللة، وتفضي في ميدان العلوم والتجارب إلى الظفر بالمعلومة الصحيحة وفي ميدان القضاء إلى الحكم الصحيح العادل .

وكذلك السمع : إن من أشد ما يفسد المجتمع وينشر فيه الخوف وعدم الثقة الإشاعات التي تتناقلها اللهوات فتكتسب من الشيوع قبولا واطمئنانا. ترشد الآية مؤكدة أن الواجب على من يسمع خبرا، أن لا ينقله إلا بعد أن يثق بصدقه، ولا ترتفع المسؤولية بذلك فقط، بل حتى يطمئن إلى أن نقله لا يترتب عنه ضرر. قال تعالى: وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم[3] -ومن الأحكام المقررة أن من سمع بأن فلانا وفلانة بينهما علاقة مشبوهة، ثم أشاع ذلك أنه يجلد ثمانين جلدة ويسقط سقوطا لا تقبل بعده شهادته. وكذلك البصر لا يعتمد ما لم يتحقق تحققا يقينيا وكم من شخص شهد برؤية الهلال دون أن يتحقق، فأفطر الناس بشهادته أو صاموا أو بنوا عليها ووقفوا بعرفة في اليوم التاسع من شهادته، فتحمل وزرا عظيما.

---

[1] سورة البقرة آية 216

[2] سورة النساء آية 19

[3] سورة النساء آية 83

37-ولا تمش في الأرض مرحا....ولن تخرق الجبال طولا.

ثالث عشر :أسست الآيــة الســابقة للواقعيــة باعتمــاد الإنســان علــى صــحيح العلــم، وتقويم المبصــرات والمســموعات بميــزان الآثــار العمليــة المترتبــة عنهــا، وإبطــال الأوهام، ومن الأوهام ما يحصل في نفوس بعض الناس مــن كثيــر وزهــو بمــا جمعــوه من مال أو سلطان، أو أتباع، يؤثر ذلك فــي تفكيــره كمــا يــؤثر فــي ســلوكه وطريقــة حياته، وصورت الآية مظهرا مــن ذلــك فــي المشــي الــذي يصــحبه خــيلاء ونظــرة متعالية لمن يلقاهم من النــاس وبعضــهم تصــل بــه ســخافة تفكيــره إلــى التمايــل . إن إظهار الكبر على البشر يعبــر عــن احتقــار للآخــرين وتحــد، وهــو جنــون بالعظمــة وتصور زائف، لا يزيد المتكبر إلا انفصالا عــن المجتمــع، وشــماتة بــه عنــد ســقوطه. والضــعف يصــاحب الإنســان، وإن حــاول إخفــاءه، فــأديم الأرض ثابــت لا يســتطيع خرقه وهو يمر هو عليه، ويمر من يــأتي بعــده كــذلك. وقامتــه تتضــاءل أمــام طــول الجبال . وفي الإشارة إلى هاتين الناحيتين نوع من الــتهكم والســخرية مــن هــذا الــنمط من الناس .

38- كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها.

تمثل هذه الآية فذلكة للنواحي الثلاث عشرة التي مضت فــي تلكــم الآيــة الجامعــة، فكــل ما تقدم من نواهٍ، أو من أوامر تدل على النهي عن ضــدها، نهــي عنــه زيــادة علــى مــا فيه من المفاسد، لأنه سيئة حسب تقويمــه عنــد الله الــذي يمســك بــالميزان الحــق. والله يكرهه ، وكراهة الله للأشياء تدل على أنها تُهوِّن صاحبها وتبعده عن الله.

39-ذلك مما أوحى إليك ربك.....في جهنم ملوما مدحورا.

لقد تجمعت صورة مرتبة من الأوامر والنــواهي تمثــل كمــا قلنــا ميثاقــا، فمــن بلاغــة القرآن أنه ختمها بلفت النظر إلى نفاســتها، ليتأمــل فيهــا المــؤمن تــأملا يوجــب تفهــم أبعادها وتطبيقها عمليا، فهي من الحكمة التــي أنزلهــا الــذي يعلــم الســر، ولا يــدركها الأميون لولا فضل الله عليهم بإرســال ســيدنا محمــد ﷺ برســالة الإســلام التــي تســمو بمعتنقيها وترفع مداركهم . وإن أحط ما ينزل إليــه الإنســان هــو الشــرك بــالله، فنهــى القرآن في الختام نهيا عاما لجميع البشر موجها لكــل فــرد بخصوصــه أن لا يتخــذ إلهــا آخر، وليحذر العاقبة المهينة الســيئة للمشــركين، التــي لا مفــر منهــا، والتــي لا تقبــل غفرانا ولا عفوا، إنه سيطرح مهينا في جهنم يتبعه التشنيع، و البعد عن الرحمة .

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أفأصفاكم: جعل البنين خالصين لكم .

عظيما : قوي الفساد.

صرفنا : نوعنا البيان.

النفور : شدة الإعراض .

بيان المعنى الإجمالي :

اعتقد بعض العرب أن الله اتخذ بنات من الملائكة، وهذا نوع من الشرك بالله يدل على غباء قائله، وجراءته، إن هؤلاء المعتقدين لذلك يقدرون أن الذكور أفضل من الإناث ويخصون أنفسهم بالذكور ويجعلون الصنف الأدون لله . ومن ناحية أخرى فإن ابتغاء النسل لا يكون إلا ممن يخشى من العدم أن يلحقه، فهو يريد أن يبقى في نسله لما كان هو فانيا.

نوع الله سبحانه في القرآن بيان الحقائق بمختلف ضروب البيان، فارتفع الغموض واللبس، وذلك ليساعد البشر على الإدراك الصحيح لمفهوم الألوهية وما تقتضيه، وليذكروا ما نزل إليهم، والعجب أن المشركين مع ذلك مقيمون على شركهم كأنهم دواب كلما حُركوا أمعنوا في النفار وتملكهم الخوف والجزع.

قل لهم يا محمد إنه لو وجد مع الله آلهة، كما تقولون دون روية ولا نظر، فإن هذه الآلهة المزعومة لو وجدت لسعت إلى التقرب من الله والخضوع له. إنه يترتب على افتراض المستحيل الذي تدعون أن تكون تلكم الآلهة خاضعة له. سبحانه تنزه تنزها عما نطقت به ألسنتهم وهو أعظم وأسمى من أقوالهم السخيفة .

كيف لا، وكل الكائنات الحيوان، والجماد الكبير جدا الذي لا تبلغ معرفة حدوده الطاقة البشرية، والتافه الذي لا تدركه الحواس، كلها تنطلق في موكب واحد بتسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص ومنها الشرك. ولكن مداركم عاجزة عن إدراك ذلكم

التسبيح. ولم يعاجل المشركين بالعقوبة لأنه يمهل تبعا لأنــه حلـيم، ومــع قــولهم المنكــر فإن الله يغفر الذنب لمن تاب.

بيان المعنى العام :

40- أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ ....قولا عظيما.

هذه الآية مفرعة على إفراد الله بالألوهية . فإن بعض العــرب ذهــب بــه خيالــه إلــى أن الله اتخذ الملائكة الإناث في زعمهم بناتا له .وهذا الزعم يدل على سذاجة وغباء.

أولا: إنه حسب سلم القيم عند العرب، البنون أفضل مــن البنــات، والأنثــى أحــط رتبــة من الذكر كما بيناه في الآية (31) فمن الغبــاء أن يــدّعوا اختصاصــهم بــالبنين الجــنس الأفضل، وأن الله يختص بالإناث فقط الجنس الأسفل .

وثانيا: إن تصور بنات لله مــن الملائكــة تصــور فيــه تجسـيم واسـتنقاص، لأن ابتغــاء النسل لا يكون إلا ممن كان مجسّـما، مركــبٌ فيــه داعيــة التناســل، وإلا ممــن يلاحقــه الفناء، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فإن مقــالتهم تلــك التــي لا ترتقــع إلــى مســتوى أرفع من الهذيان اللفظي (قولا) هي مقالة قوية الفساد والبطلان .

41-ولقد صرفنا في هذا القرآن ...وما يزيدهم إلا نفورا .

إن أمر المشركين لأمر عجب، فقد بين الله في القرآن بيانا نوعه بمختلف ضروب التوضيح، لينفي كل لبس وغموض وليساعدهم على التأمل وعلى تذكُّر ما أفهمهم إياه من اختصاه بالوحدانية، ومع ذلك فهم ما يزالون يكررون مقالاتهم الزائفة، فكأن البيان القرآني زادهم بعدا ونفورا من الحق . هم كالدواب الذين إذا حصل ما يحركهم أسرعوا إلى الفرار وقد تملكهم الخوف والجزع . هم يخشون أن يغلبهم على عقائدهم الفاسدة.

42-قل لوكان معه آلهة كما تقولون ....ذي العرش سبيلا.

الله رحــيم بعبــاده، ولا يرضــى لعبــاده الكفــر، فهــو يــوقظهم إلــى إدراك الحقيقــة والتزامها بمتنوع الأدلة التي تثير الفكر والضــمير والمشــاعر. ينبــه المشــركين إلــى أن ما اتخذوه من آلهة لو كانوا آلهة لسعوا ليتقربوا مــن الله، وعبــر عنــه بصــاحب العــرش لإفادة أنهم يدركون أنه المتصرف فــي الكــون، فهــم علــى فــرض المحــال لا يقــدرون على الاستغناء عن التقرب إليه. ويمكن حمل الآية على أنه لــو كــان معــه آلهــة لقــاموا بمقاومته، فيشتغل بمحاربتهم ويشتغلون بمحاربتــه عــن تــدبير الكــون، كمــا هــو شــأن القائمين حول ملك الملوك في الأطــراف، همهــم فــي انتقــاص ملكــه والاســتبداد بمــا يمكنهم الاستبداد به . وسيرُ العالم بانتظام كامل لا خلل فيه ينــادي بــأن مــا عشــش فــي أذهان المشركين من وجود آلهة مع الله فــرض لا أســاس لــه. وهــذا التركيــب المفتــتح

بكلمة (لو) يفيد أن الجواب غير متحقق، لأنه مرتبط بما بعد - لو - الذي هو غير متحقق .فقولك: لو طلعت الشمس لعم الضياء. يفيد الكلام أن الضياء لم يتحقق لأن الشمس لم تطلع. فهم لم يبتغوا طريقا إلى ذي العرش (الله) على فرض التقرب إليه مما يفيد عجزهم وعدم ألوهيتهم، أو على فرض محاربته مما يقوم انتظام الكون على نفيه، فعلى الفرضين في فهم (إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا) منتف فانتفى أن يكون معه آلهة كما يقولون .

43- سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

تنزه الله عما تلوكه ألسنتهم، من أن يكون له شركاء، فهو المتعالي الرفيع المقدار الذي هو فوق أن يتصور له شريك، إن البعد بين ما نسبوه لله وبين ما يجب لله من الوحدانية والتفرد، البعد بينهما بعد ينفي ما قالوه.

44-يسبح له السماوات السبع....إنه كان حليما غفورا.

التنزيه الذي افتتحت به الآية السابقة يجد توضيحه في هذه الآية. يثبت القرآن أن السماوات والأرض، وكل كائن على سطح الأرض أو كامن في طبقاتها أو في أي مجرة من مجرات السماوات، ما كان عاقلا وما كان غير عاقل، ما كان حيا متحركا وما كان جمادا، ما كان كبيرا جدا وما كان ضئيلا يدرك حسابيا لا حسيا، الكل يسير في موكب واحد يسبح لله وينزهه .ذهب بعضهم إلى أن كل كائن يهدي بالتأمل فيه إلى أنه مخلوق لله، فيه من الإبداع والإتقان ما يدعو المتأمل إلى التسبيح، وخص بعضهم التسبيح بالنامي كالنبات والحيوان. وذهب فريق آخر إلى أن كل الكائنات الجامدة والمتحركة تنطلق في موكب تمجده وتنزهه عن كل نقص، وهو ما أميل إليه. إني أعتبر أن هذا من الأسرار التي أطلعنا الله عليها ونبهنا إلى أن قوانا تضعف عن إدراك هذه التسبيحة، لكن لا تدركون هذا السر الخفي. وهذا التنزيه ملتبس بإعلان حمده. فكل الكائنات مسبحة حامدة. وهذا الفهم يتلاقى مع ما مر لنا في قوله تعالى: ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته [1].

وانفرد المشركون والكفار عن الموكب، ولم يعاجلهم الله بالعقوبة لأن من أوصافه الثابتة الدائمة أنه حليم فلا يعاجل بالعقوبة. غفور يقبل توبة من أخلص في توبته.

---

[1] سورة الرعد آية١٤

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحجاب : الساتر عن الأعين .ومعناه في الآية الحيلولة بينه وبين الإضرار به.

أكنة : جمع كنان وهو ما غطى الشيء .ومنه كنانة النبل .

الوقر : الثقل المانع من السمع، الصمم.

النجوى : الحديث بين القوم سرا.

ضربوا لك الأمثال : حاولوا أن يقارنوك بما يجسم حالك.

فضلوا : تحيروا ولم يهتدوا.

بيان المعنى الإجمالي :

صور القرآن شدة إعراض المشركين، الـذين لا يؤمنـون بيـوم القيامـة، عـن القـرآن، وأن الله جازاهم بما وطنوا نفوسهم عليـه، فيجعـل منـه سـبحانه كـوّن حجابـا فاصـلا بينهم وبين النبي ﷺ، وأن هذا الحجاب يؤثر في حواسـهم وقـد سـتره الله عـن أعيـنهم. وكما منع حواسهم فكذلك حرم قلوبهم من التعمق في هديـه، فكـأن عليهـا غلافـا صـفيقا لا يستطيعون معه أن يفهموا أسراره. وكـأنهم صـم لا تتحـرك قلـوبهم بمـا يتلـوه ﷺ. كان الظالمون الكفرة يجلسون حول البيت في الوقـت الـذي كـان فيـه الرسـول يـدعو إلى الإسلام ويتلو القرآن، وكان مـا يسـمعونه مـن هديـه يحـرجهم فيتهامسـون فيمـا بينهم، قولوا للذين يتبعونه: إنكم تتبعـون رجـلا اخـتلط عقلـه بعـد أن سـحر فابتعـدوا عنه.

افتضح أمرهم وتجسم كأنه مشاهد لك، إنهم حاولوا أن يقرنوا بينك وبين ما تخيلوه من قلب حقيقتك، فتحيروا ولم يجدوا طريقا يبلغهم ما أرادوا، وكلما ضربوا لك مثلا كان زيفه مكشوفا لا يؤثر ولا يضرك فهم لا يستطيعون أبد أن يشككوا الناس في صدقك .

بيان المعنى العام :

45- وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك ....حجابا مستورا.

بينت الآية السابقة أن تسبيحة الكون تنطلق دون أن يدركها الناس، و قريب من ذلك، أنك يا محمد عندما تقرأ القرآن، أمنّاك من اعتداء المشركين، وجعلنا بينك وبينهم حاجزا يحجبك عنهم، ويحجبهم عن إدراك ذلكم الحاجز. أفلا يقوم هذا مساندا لما بيناه في الآية السابقة أن الكون كله ينطلق في موكب تسبيح لله وتنزيه لا ندركه، وعدم إدراكنا له لا يدل على نفيه كما أن الله حجبهم بحجاب عندما يقرأ الرسول ﷺ القرآن، وحجبهم عن الإحساس بذلك الحجاب .

46-وجعلنا على قلوبهم....ولوا على أدبارهم نفورا.

بينت هذه الآية وجه عدم تأثر المشركين بالقرآن على شدة وضوحه، وإعجازه. فبينت أن الله حرمهم ألطافه التي بسببها يستمعون للقرآن سماعا يتدبرون به في مضامينه؛ فكأن قلوبهم قد غطاها غطاء مانع من حركة التدبر والتفكر في آياته تفكرا يفضي بهم إلى إدراك ما انطوى عليه من المفاهيم. وكأن آذانهم قد أصيبت بالصمم، فتمر الأصوات المرتلة له دون أن تحرك فيهم داعية التأمل والتدبر. إنهم لا يسمعون. لقد نفذ الشرك إلى قلوبهم فتأصل، وأثر في أرجاعهم فهم لا يتحملون سماع ما ينفي ذلك الباطل .صور القرآن هذا، بأنهم إذا نفذت إلى أسماعهم الآيات المثبتة لتوحيد الله المحطمة للشرك الرافعة للشبه لم يصبروا على الاستماع وفروا نافرين كما تنفر الدواب من أي منفر لها .

47- نحن أعلم بما يستمعون به ....إن تتبعون إلا رجلا مسحورا.

كان المشركون يأخذون منازلهم في المسجد الحرام حول البيت، وكان النبي ﷺ يُعلّمُ المؤمنين ويتلو عليهم ما نزل عليه من القرآن. وكانوا يتهامسون فيما بينهم في أكبر أمر أهمهم، وهو ما دعا إليه الرسول ﷺ من التوحيد ونقض أسس الشرك، وإثبات البعث والحساب. وكان عُظْمُ همهم نقض دين الإسلام، ولكنهم قد عجزوا عن ذلك، لأن الإسلام يقوم على ما يؤيده العقل والمنطق . فولّوا اهتمامهم إلى الطعن في الرسول والتشكيك في أنه سما سموا بلغ به نقل خبر الله إلى البشرية. كانوا يتحدثون سرا فيما بينهم، والله مطلع على ما يتحدثون به، وإن كان لم يبلغ صداه مدى أوسع من الحلقة المتناجية. تقول الآية: نحن على تمام العلم بالطريقة التي يستمعون بها إليك، على معنى أنها طريقة تهدف إلى التشكيك لا إلى المعرفة، كما تقول: فلان يستمع باستخفاف. هذا الاستماع الحاصل وهم يتناجون فيما بينهم سرا. ولما لم يجدوا مطعنا في القرآن يمكن أن يروجوه لينفروا الناس منه، حولوا مكرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الظالمون بالشرك، وبالاعتداء عليك باطلا : نعلن أن المؤمنين إن يتبعون إلا رجلا خلط السحر عقله فأتى بما لا يقبل .

48- انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا.

تبدأ الآية بقوله تعالى: **انظر**. إن الذي يروجونــه فيـك، بلـغ حـدا مـن ظهـور فسـاده ووضوح كذبه، أن أصبح وكأنـه شـيء مجسـم ينظـر إليـه النـاظر فيـراه ببصـره. افتضحوا في محاربتك فحاولوا تشبيهك ومقارنتك بأمثـال لـم يسـتقم لهـم منهـا واحـد؛ فضربوا لك المثل بالمسحور فـي الآيـة السـابقة، وبالكـاهن وبـالمجنون فـي أخـرى، وبأن القرآن أساطير الأولـين، وبالشـعر المتخيـل. فكـان شـأنهم شـأن الضـائع فـي الصحراء وقد عميت عليـه المسـالك، فـلا يـدري الطريـق الـذي يبلغـه قصـده. ولا يستطيعون أبدا أن يؤثروا بأقوالهم الزائفة السخيفة، أن يؤثروا فيمن يستمع إليهم.

وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52)

بيان معاني الألفاظ :

البعث : إحياء الموتى .

رفاتا : فتاتا .

الخلق : المخلوق .

يكبر : يعظم.

الإنغاض : تحريك الرأس نحو الغير كالمتعجب منه استهزاء.

يوم يدعوكم : يناديكم بواسطة ملائكته فتساقون إلى المحشر .

تستجيبون : مطاوعة الدعوة.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن ما كان يلاقيه الرسـول ﷺ مـن ضـروب التكـذيب والمحاجـة بالباطـل، فقالوا: إنك تدعي أننا سنبعث من جديد يوم القيامـة . أيكـون ذلـك بعـد أن تحولنـا إلـى عظام ثم تفتت عظامنا وأصـبحنا هبـاء؟ وتـولى الله إفحـامهم فـأمر رسـوله أن يقـول لهم: سواء أتحولتم إلى تراب أو إلى حجارة صلبة، أو إلـى حديـد صـلب، أو إلـى مـا تتخيلونه أكبر من ذلك، فإن الله الـذي خلقكـم أول مـرة بـأمر التكـوين قـادر علـى أن يعيدكم كما كنتم. والإعادة أيسر حسـب العـرف. وإن كـان ذلـك بالنسـبة لله سـواء. إن

هذا الجـواب أفحمهـم ولكـن بقـي العنـاد مسـتوليا علـيهم فهـزوا رؤوسـهم إنكـارا واستهزاء. وإمعانا في العناد بعد أن أفحِمُوا. يقولون متـى يحـل موعـد البعـث ؟ وكـان الجواب حاضرا :يوم يدعوكم الله بواسـطة ملائكتـه إلـى المحشـر فـلا يسـتطيع أحـد منكم أن يتخلف عن تلبيـة النـداء، سـتلبُّون الـدعوة وتسـتجيبون لهـا حامـدين الله، إذ تنتفي في ذلك اليوم كل الشبهات ويظهر الحق جليا لاشك فيه.

بيان المعنى العام :

49-وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا.

مما ظنوا أنهم قد ظفروا به لمواجهـة الـدعوة المحمديـة، قضـية البعـث يـوم القيامـة وإحياء الناس للحساب والجزاء. وإذا كان ادعـاء كونـه مسـحورا ممـا يتهامسـون بـه، فإن إنكار البعث مما أعلنـوه وصـرحوا بـه، ولـذلك فصـلت هـذه الآيـة عـن الآيـة السابقة. قالوا منكرين معلنين: إذا تحولنا إلـى عظـام متفرقـة وانحـل الهيكـل العظْمـي، ثم تفتت عظامنا فاختلطت بالتراب، أبعد هذا الوضع مـن التحلـل نُخْلَـقُ مـن جديـد ؟ إن هذا أمر لا يقبل.

50-–52، قل كونوا حجارة أو حديدا...قل عسى أن يكون قريبا.

تولى القرآن هدم ما اعترضوا به مـن بعـث ذرات العظـام، ظـانين أنـه لقوتـه مفحمـا .فتوجه الخطاب لرسول الله ﷺ أن يقول لهم: كونـوا حجـارة أو حديـدا أو أي نـوع مـن أنواع المخلوقات التي تتصورونه عظيما عصـيا عـن التـأثير فيـه، فـإن عـودتكم إلـى الصورة التي كنتم عليها في الدنيا ممكنة. ومعنى كونـوا تصـوروا أنفسـكم بعـد مـوتكم كما تشاؤون ذرات من العظام أو حجارة صـلبة أو حديـدا شـديد البـأس فـإن أي حالـة ستكونون عليها يتحقق معها عودتكم إلى الحياة مـن جديـد. وإذ يواجهـون بهـذا التحـدي سيقولون: من الذي يسـتطيع أن يعيـدنا إلـى الحيـاة مـع جميـع خصائصـنا؟ وكـأنهم يستبعدون وجود قدرة تُنفِّذ هذا الأمر المسـتحيل فـي مجـاري العـادة ؟ ويـأتي الجـواب من الله جاريا على النسق العقلي: إن الذي أوجـدكم مـن عـدم وصـوركم علـى الهيئـة التي أنتم عليها الآن، هو الذي سيتولى إعادتكم للحيـاة مـن جديـد. ولا شـك أن الإعـادة أقرب في مجرى العادة وفي نظام العقل. والنقطة التـي انبنـى عليهـا الجـواب واضـحة معقولة ما كان ينبغي أن تخفـى . وهنـا لا يجـدون مـا يحاجونـك بـه إلا أن يحركـوا رؤوسهم حركة استهزاء واستبعاد .

ويتحولون إلى السؤال عـن الموعـد، سـؤالا يحتمـل الـتهكم، كمـا يحتمـل أن يكـون عنادهم قد اهتز . ويعاجلهم الله بالجواب ملقنا رسـوله أن يقـول لهـم: أرجـو أن يكـون

الموعد قريبا. إنه اليوم الذي تدعوكم فيه ملائكته الـذين يسـوقونكم إلـى المحشـر وأنـتم طائعون، وتنكشف لكم الحقيقة التـي كنـتم تجـادلون فيهـا فتنطقـون حامـدين لله مثنـين على كماله . وتحسبون أن مدة بقائكم فـي الأرض كانـت مـدة قليلـة ؛ ذلـك أن عمـر الأرض وعمر ساكنيها هو عمر قليل بالنسبة لأيام الله كما قـال تعـالى : **فـي يـوم كـان مقداره خمسين ألف سنة**[1] .

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

ينزغ: يدخل بينهم ليفسد علاقاتهم .

الوكيل : المسؤول عنهم.

بيان المعنى الإجمالي :

قل يا محمد معلما عبادي ومربيا لهم على المنهج الـذي يقـوي رابطـة الأخـوة بيـنهم : أن يتخيروا في كلامهم الطريقة التي هـي أحسـن مـن غيرهـا التـي بلينهـا وسـماحتها وحسنها تجلب المخاطب وتربط بين الطرفين علاقـة الـود .ذلـك أن الشـيطان يتـربص بالبشر أي منفـذ يـدخل منـه بيـنهم بالفسـاد فيحرضـهم علـى القطيعـة والبغضـاء .واللسان هو أعظم باب يدخل منه ليقطع التقـارب بيـنهم. إن عداوتـه للجـنس البشـري عداوة ملازمة متأصلة في طبعه.

إن ربكم أيها المشركون الذي تولاكم بعنايته حتى اسـتمعتم لمـا أنـذركم بـه محمـد هـو وحده الذي علم خفايا صدوركم، وأنه هو الفاعـل المختـار حسـب حكمتـه وعلمـه . إن يشأ بسبب رحمته أن يحيطكم بألطافه فتهتـدوا، وإن يشـأ أن يحـرمكم مـن ذلـك تبعـا لما وطنتم عليه أنفسكم من العصـيان فتعرضـوا ويعـذبكم. ولا تـأس يـا محمـد علـى خاتمة الضالين فإنك مرسل لتبلغهم وحيي ولست مسؤولا عن اهتدائهم.

إن ربك يا محمد عالم العلـم الكامـل بجميـع الكائنـات فـي السـماوات وفـي الأرض، وتبعا لعلمه وحكمته يتخير من البشر من هو أقـدر علـى تحمـل مهمـة الرسـالة، كـذلك

---

[1] سورة المعارج آية 4

يتخير من بين ملائكته من يقوم بالمهمــة علــى أفضــل الوجــوه. وكمــا فضــل الرســل على غيرهم من الناس، فكذلك فضل بعض النبيين على بعــض، وخــص محمــدا بمــا لــم يبلغ إليه غيره إذ ختمت به الرسالة، وكانت رســالته عامــة للعــالمين، وتــولى الله حفــظ الكتاب المنزل عليه. وما يدعيه اليهود من أن التوراة آخــر كتــاب لا حــقّ بعــده، كــذب وتهويش. ذلك أن اليهــود يعترفــون بــأن الله بعــث ســيدنا داود ﷺ وأعطــاه الزبــور كتابا أدمجه اليهود في نص التوراة .

بيان المعنى العام :

53- وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن....عدوا مبينا.

يعمل المشركون بكل ما أوتوا من أساليب المكر ليقــاوموا المــد الإســلامي .ومــن أنجــع ما يخيبهم ويرد كيدهم في نحرهم، قوة مجتمع المــؤمنين. فطلــب القــرآن مــن الرســول أن يعلمهم ويحول التربية التي كانت ســائدة فــي المجتمــع الجــاهلي إلــى مــنهج جديــد يضمن وحدتهم وتكاتفهم، حتى يكونوا سدا في وجــه الشــرك العــاتي أولا، ويعطــي مــن جانب آخر صورة للإصــلاح. إن الإصــلاح يقــوم أساســا علــى تقــويم ســلوك الأمــة وتعميق روابط الأخوة، ومنع كل ما يمكن أن يفرق الكلمة.

لذا أمر القرآن النبــي ﷺ أن يــدعو المــؤمنين إلــى أن يكونــوا حراســا علــى ألســنتهم حراسة تحصنهم من البذاءة وقول السوء، وتمكــن فــيهم عــادة تخيــر القــول الأحســن . فكلما كان لطريق التخاطب وجه حسن ووجه أحســن فــالمؤمن مطالــب بمقتضــى إيمانــه أن يتخير الوجه الأحسن الجالــب للقلــوب المؤكــد للرابطــة الأخويــة . كــان المجتمــع الجاهلي في هذا يمثله قول الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا *** فنجهل فوق جهل الجاهلينا-

وكانوا يرون في اللطف والعفــو ضــعفا وخــورا. ولــذا كثــر القتــال بيــنهم، وتمــزق المجتمع إلى وحدات صغيرة قبلية لا تبنــي أمــة، ولا تســتطيع أن تحمــي نفســها، ولا أن تقــيم حضـــارة. والإســـلام عنـــي بغـــرس المبـــادئ التـــي تحقـــق حضـــارة إنســـانية رفيعة،وتبني المجتمع على أساس السلم والتعــاون بــين أفــراده وشــعوبه ليتوفقــوا فيمــا أوكله الله إليهم من الخلافة الصالحة في الأرض .

لينتبه المؤمنون أن الشيطان يتربص الخلل الذي يســتطيع أن يــدخل منــه ليمــزق نســيج المجتمع، ويفرق بين الإخوة. وفي الكلمة النابيــة والقــول الســيء مــا يفــتح لــه المنافــذ ليضخم ذلــك ويحفــر هــوة الــبغض والكراهيــة، ولا يتبعهمــا إلا الشــر. اعلمــوا أن الشيطان قد محض كل خبثه، وهو الخبيث الــذي لــيس وراء خبثــه مــا يســاويه فســادا،

محض خبثه بناء على عداوته المتأصلة للبشر البينــة والواضــحة، ليفسـد علـيهم حيـاتهم في الدنيا وفي الآخرة.

54- وربكم أعلم بكم ...وما أرسلناك عليهم وكيلا.

ربكم الذي تولاكم فأعانكم بألطافه حتـى بلغـتم المبلـغ الـذي أنـتم عليـه، والأرجـح أن الخطاب للمشركين. يقول الله محركـا ضـمائرهم بإضـافتهم إليـه مـن ناحيـة، وليثبـت تبعا لذلك أنه لا يخفى عليه من أمرهم شيء. وأنه كما حـولكم مـن وضـع إلـى وضـع حتى بلغتم المستوى الذي أنتم عليه الآن، فإنه عـالم العلـم الكامـل بكـم. وأنـه يسـعدكم بألطافه إن شاء ذلك، تبعا لحكمته فيتيسر علـيكم برحمتـه تلـك طريـق الاهتـداء إلـى الحق، كما يحرم من شاء منكم من تلكم الرحمة ويحجـب تلكـم الألطـاف ويتـرككم لمـا وطنتم عليه أنفسكم، فتكونون مؤهلين للعـذاب فيعـذبكم . ولا تحـزن يـا محمـد لمـآل الصادين عـن سـبيل الله الممعنـين فـي العصـيان، فمـا أرسـلناك إلا مبلغـا، ولسـت مسؤولا عن عدم اهتدائهم .

55-وربك أعلم بمن في السماوات ...وآتينا داود زبورا.

تتابعت الآيات من قوله تعالى: وإن مـن شـيء إلا يسـبح بحمـده كاشـفة عـن علمـه سبحانه الذي لا يغيب عنه أي شيء، وعـن أسـرار لا يعلمهـا إلا هـو سـبحانه، منهـا جعله حجابا مستورا لا يدركه الجاحدون، وكون قلـوبهم عليهـا غـلاف حاجـب، وصـفة استماعهم للقرآن، وبيان معقوليـة البعـث وكيـف يـتم، وطريقـة الشـيطان فـي هتـك النسيج الاجتماعي بـين المـؤمنين، وكيفيـة التحصـن منـه بحفـظ اللسـان، وعلـم الله بأحوال النفوس هو علم ارتبط بحكمته فهدى من شاء وحرم من ألطافه من شاء.

وفي هذه الآية يتوجه الخطاب من الله إلـى رسـوله رافعـا لـه إلـى مرتبـة التقريـب، بربط رب العباد جميعا برسـول الله بصـفة خاصـة (وربـك) ليعلمـه بسـر غُـمَّ علـى الناس فلم يهتدوا لسره: ما هو السر في اختيار الـذين اختـارهم لتبليـغ رسـالاته ؟ فكـان ما يذيعه عليهم يذهب بالتساؤل والعجـز عـن الإجابـة .حاصـله : أن الله يعلـم أسـرار مخلوقاته في السماوات، وأسرار مخلوقاته فـي الأرض علمـا دقيقـا، فهـو تبعـا لـذلك يتخير من بين عباده من يوكل إليه أمـر إبـلاغ وحيـه، وشـرحه، وهدايـة النـاس إلـى المنهج الذي يرضى عنه. فتخيُّر شخص معـين مـن بـين سـائر البشـر لـيس اعتباطـا ولكنه صادر عن علم. فكشف أن المختار هـو أفضـل النـاس للقيـام بالمهمـة، وكـذلك يصطفي من ملائكته من يوكله بإبلاغ ما يريد إبلاغه، وكل ذلـك هـو صـادر عـن علـم كامل وحكمة، لا يدخلها زيـغ. قـال تعـالى: الله يصـطفي مـن الملائكـة رسـلا ومـن

الناس[1]- فاعتراض المشركين على اختياره تعالى لمحمد ليكون خاتما لرسله اعتراض مبني على جهل بأسرار الاختيار التي لا يعلمها إلا هو. وهو على نفس المستوى في اختياره الرسل الذين جاؤوا قبله. وأدمج في الآية مع ذلك أن الله لم يجعل رسله على مرتبة سواء، بل فضل بعضهم على بعض. فتفضيل محمد ﷺ بختم الرسالة وإرساله للعالمين جميعا، هو تابع أيضا لعلمه المحيط. وما اعترض به اليهود: إن آخر كتاب هو التوراة المنزل على موسى، اعتراض لا سند له ودعوى كاذبة، لأن اليهود يعترفون بأن الله آتى داود الزبور وهو بعد موسى ويعتبرون كتابه جزءا من التوراة.

قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا يملكون : لا يستطيعون.

كشف: إزالة .

تحويل : نقله عن موقعه.

الكتاب : علم الله .

مسطور : ثابت لا يتبدل .

ما منعنا : الحكمة التي من أجلها لم نظهر ما طلبوه من الآيات.

نرسل : نظهر الآيات.

مبصرة : واضحة الدلالة.

---

[1] سورة الحج آية 75

بيان المعنى الإجمالي :

من الحجج التي مكن الله منها رسـوله ﷺ ليتحـداهم ويظهـر بصـفة واضـحة خطـأهم. قل لهم يا محمد: ادعوا البشر والملائكـة الـذين زعمـتم أنهـم آلهـة ليكشـفوا عـنكم أي ضر يصيبكم، بكل تأكيد لا تجدون منهم جوابا أبدا. إن الـذين تـدعونهم هـم فقـراء إلـى الله يبتغون مرضاته، والأشد قربا منهم من الله يطلـب الوسـيلة التـي تزيـده قربـا منـه فكيف بغيرهم. وهم جميعا متعلقون برحمته التي هـي خيـر مـا يتمسـكون بـه للنجـاة، ويخشون عذابه، وعذاب ربك حقيقٌ بأن يحذره العارفون بجلاله وقدرته.

وليحذروا فإن كل قرية ظالمة سـيهلكها الله قبـل يـوم القيامـة، أو يسـلط عليهـا عـذابا شديدا. إن هذا الحكم ثابت في علم الله لا يتغير ولا يتبدل.

والحكمة التي من أجلها لم نستجب لما طلبـوه مـن الآيـات، أن الآيـات التـي يقترحهـا المصرون على الكفر لا تفيـد ولا تفـتح بصـائرهم إلـى الإيمـان. علـى هـذا جـرى المكذبون من الأمم السابقة. وقرى ثمود المـدمرة، التـي تمـرون عليهـا فـي رحلاتكـم إلى الشام، تكشف لكم نهاية من جاءته آيـة واضـحة فكـذب بهـا. فإنـا قـد أعطينـاهم الناقة آية مع أخيهم صالح عليه السلام فظلموها وعقروها.

بيان المعنى العام :

56-قل ادعوا الذين زعمتم من دونه..ولا تحويلا.

تتابعت الآيات السابقة من قوله تعالى : قل لوكان معه آلهة (42) وما بعدها تبطل الشرك بصفة عامة، أو تبطل مقالاتهم أوتبين إعراضهم عن الحق تعصبا. وانتهت إلى ضرب مجموعة من مقالاتهم ضربة واحدة، عندما بين في الآية السابقة أن تخير محمد والمرسلين من قبله كان مبنيا على علم شامل لمن في السماوات والأرض، وأن كل واحد في وقته هو أفضل من جميع معاصريه. ويتفق كل المرسلين على التوحيد، واقتلاع الأوهام التي عشّشت في العقول فأفسدتها. تولت هذه الآية ردا عاما شاملا لكل انحراف جعل من هؤلاء آلهة يعبدون؛ فقد ألّهوا عيسى عليه السلام، وادعى آخرون أن عزير بن الله، واتخذ بعضهم الملائكة آلهة. فأفادت الآية السابقة أنهم عباد لله تخيرهم الله لتحمل ما حملهم إياه. وأفادت هذه الآية أنهم لضلالهم رفعوهم لمرتبة الألوهية وهم براء منها. ينفي ألوهيتهم أن عبّاد الرسل والملائكة كلما دخلوا في أزمة واستغاثوا بهم لم تفرج كربتهم، إذ ليست لهم قدرة تسعدهم بإزالة الضر النازل بهم عندما تضيق بهم سبل العلاج . وكلما دعوهم لغوثهمْ ما من مجيب، بل لا يستطيعون حتى تحويل ما نزل بهم إلى موطن آخر. وبذلك انتفت ألوهيتهم، لأن شأن

المعبود أن تكون له القدرة على إنقاذ عابديه من الضر النازل بهم إذا استغاثوا به . فإذ لم تتحقق منهم إجابة ولو مرة واحدة فهم ليسوا آلهة.

57-أولئك الذين يدعون يبتغون ...إن عذاب ربك كان محذورا.

بعد أن أبطلت الآية 56 كونهم آلهة، بدليل أنهم لا يستطيعون نصرهم في الأزمات عندما يدعونهم، تأتي هذه الآية مبينة لحقيقة أمر أولئك المتميزين من خلق الله الذين عبدوهم، فيقول القرآن لعبدتهم :إن الذين تدعونهم من دون الله، هم يسيرون في خط معاكس لتصوراتكم، فهم يعملون جاهدين للظفر بالوسيلة التي يكونون بها أقرب إلى الله، هم عبيد له خاضعون، وكل همهم أن يتفضل الله عليهم برحمته، وهم يخشون عذابه. وكيف لا يخشون عذابه ! فإن العذاب الذي يسلطه ربك يا محمد عذاب يعرفون شدته ويحذرونه أشد الحذر.

وبنا أن نفصل في نسج الآية لرفع بعض ما يعترض التالي من غموض، فأقول: أولئك الأنبياء والملائكة الذين يدعونهم من دون الله، هم يطلبون راغبين إلى ربهم بالوسيلة التي يرون فيها أنها تكسبهم رضاه، يفعل هذا أي واحد منهم هو أقرب منزلة من الله، وإذا كان هذا حال الأقرب فإن غيره أشد رغبة في ذلك . ويجمعهم كلهم أنهم يرجون رحمته، لأنهم يدركون أتم الإدراك شدة حاجتهم لهذه الرحمة التي لا يستغنون عنها، بل هي غاية ما يسعون إليه . وهم وجلون من عذابه، فإن من يعرف مكانة المعبود من العابد، ومكانة الإنسان الضعيف بالنسبة إلى الله العلي الأعلى الكامل القوي المتين، لا يكون إلا حذرا من غضبه وعقابه. فاستقام بذلك حصْدُ ما استقر في تفكيرهم، من أن الملائكة والأنبياء أحرياء بأن يقدسوا تقديس العبادة. وفي هذا ما يدعو المسلمين أن يفردوا الله بالتوجه وأن لا يتخذوا وسيلة إليه إلا دعاء هو الإخلاص في عبادته ، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

58- وإن من قرية إلا نحن مهلكوها.....في الكتاب مسطورا.

كل أهل قرية فشا فيها الظلم، وخرج أهلها عن حدود الله، ولم يحصّنوا أنفسهم بما شرعه الله من التحصينات الخلقية والمادية، يسلط الله عليهم ما يهلكهم بشرا أو بشرا ومباني . أو يسلط عليهم عذابا شديدا . فليس المراد من الآية إهلاك جميع القرى، فإن ذلك الإهلاك يكون عند قيام الساعة عندما تتعلق الإرادة الإلهية بإفناء الأرض. والله يقول: وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون [1]– هذا

---

[1] سورة يونس آية 117

محقق لا يتخلف، إنه مسجل في علم الله الأزلي الذي لا يتغير. وفي هذه الآية تهديد للمشركين بأن استئصالهم قد يكون محققا إذا هم لم يؤمنوا.

59- وما منعنا أن نرسل بالآيات....إلا تخويفا.

يواصل القرآن محاجة المشركين ونقض ما يستدلون به. فمن ذلك أنهم برروا عدم إيمانهم بعدم الاستجابة لما طلبوه من رسول الله ﷺ : أن يأتيهم بمعجزات عيّنوها كقولهم : لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا من السماء نقرأه حتى يكون لك بيت من زخرف . حتى يكون معك ملك. وهذا رشح شدة كفرهم وجهلهم بالعزة الإلهية التي لا تنزل إلى استجابة المطالب التي يقترحونها، كما قال تعالى : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء)[1] ولم يجبهم الله لما طلبوه أيضا، لأن المعاندين شأنهم شأنٌ واحد في الحاضر والماضي . وقد طلبت الأمم الرافضة من أنبيائهم معجزات لم تصرفهم عن كفرهم لما جاءتهم . من أمثلة ذلك قوم ثمود الذي يمر القرشيون على ديارهم الخربة المدمّرة في طريقهم إلى الشام. فقد أرسل الله إليهم صالحا ﷺ وأيده بالناقة التي كانت آية واضحة، فما كان منهم إلا أن ظلموها فعقروها ودُمّرُوا إثر ذلك تدميرا.

لتعلموا أنا لا نرسل آياتنا بإظهارها إلا تخويفا بالعذاب الملازم لظهورها وعدم الإيمان بها. والله قد قدّر أن يُبْقِيَ على قريش، لأن من حكمته الأزلية قدّر أن يلينوا للإسلام بعد عنادهم، ويكون منهم ومن ذرياتهم دعاة لدين الله ناشرين له في الآفاق، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ، وبشارة للمؤمنين معه وقت نزول الآية.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم

---

[1] سورة الأنعام آية 91

بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

أحاط بالناس : غلبهم فلا يستطيعون الانفلات مما قضى به عليهم.

الفتنة : اضطراب الرأي .

الملعونة : المذمومة. أو التي هي مكان ملعون لا يطعمها إلا الملعونين.

لأحتنكن : أصله لوضع الفارس اللجام في حنك الفرس ليتحكم في تسييره. كما يطلق على الاستئصال ومنه احتنك الجراد الأرض إذا أكل ما عليها.

موفور: كثير.

الاستفزاز: الإثارة إثارة تمنع التثاقل.

الصوت : الوسوسة.

أجلب : أجمع وألّب.

الخيل : أصله الأفراس، والمقام يصرفه للقادة الذين هم تحت إمرتك.

الرجل : اسم جمع للرجال.

عدهم : أمر بتقديم الوعود التي تطمعهم.

الغرور: إظهار المكروه في صورة المحبوب

السلطان: الملكية والتغلب.

وكيلا: حافظا وقيما على هدايتهم.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يا محمد ما أخبرناك به: أن ربك أحاطت قدرته بالناس فهو يتصرف فيهم تصرفا لا يجدون عنه محيدا، فلا تأسف لما تلقاه منهم فإنهم في قبضتنا. وتسلَّ ولا تحزن من تكذيبك لمّا أخبرتهم بما أكرمناك به في الإسراء والمعارج، فقد جعلنا ذلك سببا لتعميق فتنتهم . وكذلك ما كشفناه في القرآن من شجرة الزقوم في جهنم واستبعادهم مكذبين أن تنبت النارُ شجرة وهي توقد بالشجر. فقد كشفنا عن ذلك لتخوفهم ليرتدعوا، ولكن لكون الكفر قد طبع على قلوبهم،فقد زادوا استكبارا وطغيانا شديدا.

وهذا الاستكبار انجر إليهم من إبليس الذي أمره الله بالسجود مع الملائكة لآدم فأطاعت الملائكة وعصى إبليس. وخاطب رب العزة وقد ملأت نفسه شحنةً من الحسد والاستكبار، فصرح معترضا كيف أسجد لمن هم مخلوق طينا! فأسقط ما

تميز به آدم من العقل والروح والتحولات التي دخلت في الطين وحولته إلى الخلقة الإنسانية الجميلة، وواصل: أخبرني ما هي ميزة هذا المخلوق التي بها كرمته علي! أؤكد تأكيدا كبيرا أنك إن لم تقض عليّ وأخرتني إلى يوم القيامة لأتسلط على ذريته تسلطا يمكنني من التحكم فيهم وقيادتهم إلى حيث أشاء، إلى الكفر والعصيان، كما يقود الراكب دابته بلجامها، وينفلت قسم قليل من قيادتي يكون صالحا.

أثرّهم إثارة قوية يتبعونك بها بواسطة وسوستك وبالناشطين من أتباعك المتمرسين بالإغواء، وبرجالك، وليبلغ تأثيرك أن لا يتصرفوا في أموالهم إلا في الوجه الذي يرضيك شأن الشريك مع شريكه، كذلك اصْرف إنجابهم لأولادهم إلى ما يناقض صفاء الانتساب ويقربهم من الأصنام .وأخرجهم عن الواقع إلى الخيال فعدهم الوعود التي لا تتحقق، والوعود التي ظاهرها محبوب وباطنها خرابٌ لهم ولمجتمعهم . والشيطان لا يعد أتباعه إلا وعدا يَغُرُّهُمْ به.

ويختم المقطع بمخاطبة إبليس ما يفيد أنه عاجز عن إغواء من تعلق بربه تعلق العابد بالمعبود، وأنه لا يتغلب على من عمّر قلوبهم ضوءُ الإيمان بالله وتقواه، وإن ذُهل بعضهم لفترة قصيرة فإنه يستيقظ سريعا ويعود إلى ربه تائبا ضارعا. وكفي بربك يا محمد حافظا للمؤمنين.

بيان المعنى العام :

60-وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس.....إلا طغيانا كبيرا.

واذكر ما يخوف المشركين، أو كن ذاكرا، ما ثبتناه في قلبك: إن ربك أحاطت قدرته بالناس فلا يستطيع أي منهم أن ينفلت من نفاذ ما قدره سبحانه. وفي ذلك تأنيس لرسول الله ﷺ، وتقويةٌ لعزيمته على الصبر، وبشارة بنصره. فلا تحزن من مواقفهم التي فصلتها الآيات السابقة والتي أتت عليها من القواعد.

وبناء على أن الجملة الأولى ترمي إلى تثبيت النبي ﷺ وتأكيد نصره، فقد عطف عليها ما لقيه النبي ﷺ بعد أن أخبر قريشا بإسرائه وما شاهده عندما عُرج به إلى السماء. اتخذ المشركون ما رآه وما أخبر به مغمزا في صدقه، وقالوا : إن المسافة بين مكة وبيت المقدس لا يقطعها التجار إلا في شهر ذهابا وشهر إيابا، فادعاء محمد أنه قطعها في فترة قليلة من الليل دعوى لا يمكن تصديقها. وفُتنَ بعض ضعفة الإيمان .فيقول الله لنبيه لقد رأيت رأي العين ما حققته لك في الإسراء والمعراج. وكانت هذه الرؤيا رؤيا في اليقظة لا في المنام كما ذهب إليه المحققون. ذلك أنها لو كانت رؤيا منامية فإنه لا موجب لاستبعادها ولا للافتتان بها . والقرآن

يثبت أن المشركين فُتنوا وفتنوا ضعفة المؤمنين. فما كانت هذه الكرامة التي أكرمناك بها إلا السبب في عمق فتنة المكذبين الكافرين.

وكذلك ما جاء في القرآن من إثبات أن شجرة الزقوم شجرة في جهنم قال تعالى في وصفها (أذلك خير أم شجرة الزقوم *إنا جعلناها فتنة للظالمين *إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم *طلعها كأنه رؤوس الشياطين)[1] فأخذ المشركون هذا الخبر مثارا للسخرية والتكذيب والاستهزاء، ونسب إلى أبي جهل أنه قال : إن محمدا يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر، والنار تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد، ثم أمر جارية له فأحضرت تمرا وزبدا وقال لصحبه : تزقّموا، استهزاء . ووصفت الشجرة في هذه الآية بالملعونة، باعتبار أن مكانها مكان اللعنة، أو بالنظر إلى أنه لا يأكل منها إلا الملعونون المطرودون من رحمة الله. وبالجملة فقد زادهم هذا الخبر من الغيب فتنة.

إن ما أخبر به القرآن من وصف النار ومن بعض أحوال القيامة، ومما يترصدهم من عذاب الدنيا والهوان إن هم لم يؤمنوا، الغرض منه أن يكسر شيئا من طغيانهم، ويعرّفهم بما يخوفهم ليسرعوا إلى تحصين أنفسهم بالإسلام. ولكن العناد المتأصل والكفر الشديد جعل قلوبهم قاسية لا تلين، بل كان إصرارهم يضاعف طغيانهم.

61—62: وإذ قلنا للملائكة اسجدوا.... لأحتنكن ذريته إلا قليلا.

لما ذكر في الآية السابقة أن تخويفهم ما يزيدهم إلا استكبارا وطغيانا، وصل ذلك بأصل هذا الاستكبار، الذي سرى إليهم من إبليس. فأمر نبيه بأن يذكر لهم قصة إبليس التي قد تقدمت في سورتي البقرة والأعراف. ونخص بالبيان هنا مالم نتعرض له في الموقعين السابقين. سجل القرآن أن إبليس عزم على الاعتراض على الأمر الإلهي بمجرد ما سمعه، وبوقاحة قبيحة استفهم كيف أسجد للذي خلقته طينا، فمن شدة تغيظه واحتقاره لآدم لم ير فيه إلا العنصر الترابي وتجاهل ما ركّز فيه من سلامة الفطرة وتفتح الروح للسمو. ثم واصل بقوله أخبرني ما وجه تكريم هذا الكائن وتقديمه علي؟ فهو يحتقره ولا يسميه باسمه ويشير إليه كشيء لا قيمة له ولا تميز. ثم يواصل: بكامل التأكيد لئن لم تقض عليّ وأمهلتني فسوف أقود بالإغواء ذريته وأطوع الكثرة الكاثرة لما أريده منهم من العصيان والكفر، أو لأستأصل منهم جوانب الخير، ولا يسلم مني إلا القليل .وما أعلنه إبليس هو ما

---

[1] سورة الصافات 65/62

سيقع فعلا، ولكن لا يُظنَّ أنه مطلع على الغيب، فإنه أحقر من ذلك، ولكن العلم الإلهي: أن أغلب بني آدم سيضعفون أمام وسوسته الخبيثة، ويفضلون ما يدعوهم إليه، فألقى الله في نفس إبليس ما نطق به .

63-قال اذهب فمن تبعك منهم ... جزاؤكم جزاء موفورا.

افتتحت الآية بكلمة: اذهب التي هي بمعنى انصرف، وهي مضمّنة معنى الطرد والاحتقار. يقول الله : قدّرتُ أن من تبعك منهم وخضع لإغوائك، أن تكون عاقبته كعاقبتك وأن جزاءكم جميعا جهنم جزاء وافيا غير منقوص .

64- واستفزز من استطعت...وما يعدهم الشيطان إلا غرورا .

تسلطْ عليهم بكل قوتك وإمكاناتك، وفصل ذلك : أثِرْ من استطعت أن تتسلط عليه منهم إثارة تحركهم فيندفعون في متابعتك غير متثاقلين ولا مترددين، بوسوستك التي تبلغ أعماق شعورهم (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) واهجم عليهم بالقادة من أعوانك وبأولي البأس منهم المدرّبين الذين يحسنون الكر والفر، ويحيطون بهم من حيث لا يدرون .(وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) تجسيم لمعركة شرسة بين ما استقر فيهم من الفطرة، وبين نوازع الشهوة وظلام العواطف. ووجِّهْهُمْ توجيها في التصرف في أموالهم، تطوعهم به تطويعا لايخرجون معه عما تحدده لهم كأنك شريك لهم، فتسلبهم الاختيار بين الإنفاق الصالح فيبتعدون منه، وبين الإنفاق الخبيث فيقدمون عليه . فيجعلون نصيبا منها لأصنامهم، ولقضاء شهواتهم، ولمقاومة الإسلام. وتشاركهم في أولادهم، فقد سوّل إبليس للعربي الذي يرغب في نجابة الولد أن يمكن الفتى الذي يراه قد جمع صفات الرجولة من زوجته ويعتزلها حتى تحمل منه، ومن تيسير الزنا بالبغايا، وأن من ألحقت البغي مولودها به من الذين ضاجعوها التحق به . وسموا أولادهم عبد العزى وعبد اللات. ومن ذلك الوأد خوفا من العار، وقتل الأولاد خوفا من الفقر. فإبليس يوجههم إلى طريق الشر بقوة تأثيره فيهم فيتبعونه. وتسلط عليهم بسعة الأماني فيبتعدون عن الحياة الواقعية الخاضعة لصرامة التفكير. وتختم الآية بقول فصلٍ من الله، يصلح أن يكون مثلا يجري على كل من كان غير واقعي[وما يعدهم الشيطان إلا غرورا]. فالشيطان يعدهم بما تكون عاقبته فسادا. فيحبب لهم القتل لشفاء غيظهم، والزنا لإشباع الشهوة، والغارة للاستيلاء على الأموال والنساء، فيغترون بالصورة الظاهرية المحبوبة، ويوقع بينهم بذلك البغضاء وسفك الدماء، والاستكبار، ونحو ذلك.

65- إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا.

هذه الآية تختم الخطاب الذي توجه به الله إلى إبليس ليقمعه، ويعلن رب العزة أن البشر الذين ربطوا عقولهم وأرواحهم بالله مستشعرين دوما أن شرفهم في كونهم

عبادا له، الذين لم ينقطع الخيط النوراني الــذي يصــلهم بخــالقهم. هــؤلاء أنــت عــاجز عن إغوائهم أو التغلب على مقاومتهم للرذيلــة وللكفــر. هــم متحصــنون بعبــوديتهم لــي فأنت مهزوم أمامهم. وكفى بربك يا محمد قيمــا علــى هــدايتهم. ولــيس معنــى هــذا أن عباد الله معصومون من الوقوع في الإثم، ولكــن معنــى ذلــك أنهــم يســتيقظون ســريعا إذا انجذبوا إلى وسوسته فيبادرون بالتوبة التــي تطفــئ ظلمــة الخطيئــة وغــبش الإثــم. قال تعالى : (إن الــذين اتقــوا إذا مســهم طــائف مــن الشــيطان تــذكروا فــإذا هــم مبصرون)[1]

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

يزجي : يسوق سوقا بطيئا.

البحر : الماء الكثير بما يشمل الأنهار الجارية كالنيل.

الابتغاء : الطلب.

فضله : رزقه.

ضر البحر : خوف الغرق.

ضل : فقد.

أعرضتم :تركتم دعاء الله.

كفورا : جاحدا للنعم. غير شاكر.

الخسف : انقلاب ظاهر الأرض في باطنها.

الشق : الجانب .

---

[1] سورة الأعراف آية 201

الحاصب : الرامي بالحصباء .

الوكيل : المدافع عن موكله.

تارة : مرة .

القاصف : المكسر.

تبيع: من يتبع الأخذ بثأركم .

بيان المعنى الإجمالي :

لفت القرآن الأنظار إلى بعض المنن الإلهية وموقف بعــض النــاس منهــا. فمــن ذلــك أن الله هو الذي سخر لكم الفلك في البحر فسيّرها ســيرا هادئــا رفيقــا تســاعدكم علــى نيــل فضل الله عليكم من تجارة وتواصل بشري وأسـفار. كــان ذلــك بفضــله رحمتــه. وقــد يهيج البحر فتخــافون مــن الغــرق، وتجــأرون بالــدعاء طلبــا للألطــاف والعــون ولا تجدون مجيبا لكــم إلا الله . أمــا معبــوداتكم فهــي مغيّبــة، تــدركون أنهــا لا تســتطيع مساعدتكم .وعجب لأمركم أنه بمجرد ما نزلتم إلى البــر تــركتم دعــاء الله وعــدتم إلــى ماكنتم عليه . والإنسان من طبعه كفــر النعمــة التــي تتــردد بــين الســهو عــن شــكر مسديها وبين الإنكار له ولما يمنحه.

أجهلتم أن الله قادر على أن يخسف بكــم الأرض التــي ظننــتم أنكــم تكونــون فــي أمــن على ظهرها ؟. أو أن يرسل عليكم حصى من الســماء يحصــبكم بهــا فتمــزقكم، ثــم لا تجدوا من يدافع عنكم؟ هل تأمنون أن يجلبكم مــرة أخــرى للســفر فــي البحــر فيرســل عليكم ريحا شديدة تكسر صواري سُــفُنكمْ وتحطمهــا فيبــتلعكم البحــر وتــذهبون لا قيمــة لكم ولا من يتبع زوالكم يطالب بتعويض عن ذهابكم .

لقد كرمنا بني آدم من خمسة أوجه : أنا كرمنــاهم، وجعلنــا لهــم حرمــة تمنــع إذلالهــم، وسخرنا لهم البحر لتحملهم السفن، وسخرنا لهم مــا يركبــون مــن الحيوانــات، ومكنــاهم من أطايب المأكولات والمشارب، وجعلناهم مفضلين علــى كثيــر مــن مخلوقاتنــا . فهــي متن تدعو إلى شكر المنعم باللسان، وبصرف النعم فيما خلقت له بالوجه الحلال.

بيان المعنى العام :

66- ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر..إنه كان بكم رحيما.

لَفَتَ لأنظار الناس جميعا إلى نعمــه المتنوعــة، وألطافــه الميســرة للانتفــاع بمــا فــي الكون، فمن ذلك أنه بعنايته قدر الأسباب التي بهــا تســير الفلــك علــى ســطح البحــار والأنهار سيرا هادئا ؛ وبذلك أوجــد لكــم طريقــا مــن طــرق طلــب الــرزق بالتجــارة والاتصال بين القارات، وبلوغ مقاصدكم العباديــة والدنيويــة .إن ذلكــم الترتيــب الــذي

شمل كل جزئية من جزئيات الرحلات البحرية، كدفع المـاء للثقـل الـذي تحويـه السـفن بمقادير محددة مضبوطة، والريـاح المسـيرة والطاقـة المحركـة، والعلامـات الضـابطة للاتجـاه، وغيـر ذلـك، كـل ذلـك لتعلمـوا أن الله رحمكـم رحمـة تشـمل ماضـيكم وحاضركم ومستقبلكم.

67- وإذا مسكم الضر في البحر ...وكان الإنسان كفورا.

بعد أن بسط نعمة السير في الفلك، ذكّر البشـر بـأحوال اسـتثنائية فـي ركـوب البحـر. ذلك أن ركاب البحر قـد يتعرضـون لهياجـه وتلاطـم أمواجـه، ويسـري فـي قلـوبهم الخوف من الغرق. وفي هذه الحالة يُذكّرُ، بصفة خاصـة، المشـركين فيقـول لهـم: إنكـم تدعون الله وحده لكشـف كـربتكم، وغـاب عـنكم كـل الـذين تتوسـلون إلـيهم عـادة. والعجب أنكم إذا أبلغتكمْ ساحل النجاة ونزلتم إلى البر عـدتم لمـا كنـتم عليـه مـن دعـاء الأصنام. ركب في طبع الإنسان كفره بالنعم. هـذا الكفـر الـذي أدنـى درجاتـه نسـيان النعمة ويتبع ذلك الذهول عن شكرها. وأعلى درجاته فـي السـوء الكفـر والعيـاذ بـالله. إن الإنسان لضعفه يكون شعوره حـادا بالنعمـة فـي أول أمرهـا، فـإذا اسـتمرت معـه ضعُف شعوره بها إلى حد نسيان شكر الله عليها. إنه مـن أعظـم المـنن علـى الإنسـان نعمة الإيمان، ثم نعمة العقل، وتتوالى النعم فـي كـل لحظـة بمـا ييسـره للإنسـان مـن التنفس إلى استقامة الحواس إلى ما لا نُحصي له عـدا. ومـا منـا إلا وهـو غافـل عـن الفضل الإلهي بتفاصيله. فليُعوّدْ كـل مـؤمن نفسـه علـى شـكر الله فـي جميـع أوقاتـه بلسانه وبصرف النعم فيما خلقت له. وصدق الله: وقليل من عبادي الشكور[1]-

68- أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر...ثم لا تجدوا لكم وكيلا.

نبّههم إلى غفلتهم بظنهم أنه إذا بلغوا الساحل ونزلوا فقـد نجـوا نجـاة لا خـوف بعـدها ؛ نبههم إلى أن هـذا وهـم وسـألهم سـؤال إنكـار : كيـف تـأمنون أن يخسـف الله بكـم الرصيف الذي نزلتم به فتبتلعكم الأرض، فيكـون إهلاكهـم مـن الأسـفل ؟ أم أمنـتم أن يسلط الله عليكم بردا شـديدا يضـربكم ضـرب الحصـباء المتتابعـة، وفـي الحـالتين لا تجدون وكيلا يدافع عنكم بما يحميكم من قدر الله؟

69-أم أمنتم أن يعيدكم فيه...ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا.

بل هل أنتم في أمن من أن ييسر لكم الأسـباب فتعـودون مـرة أخـرى لخـوض عبـاب البحر، وفي لحظة يرسل عليكم الـريح التـي تكسـر الصـواري وتـدفع أمـواج البحـر

---

[1] سورة سبأ آية13

دفعا يحطم سفنكم وتغرقون؟ إن غــرقكم ورفــع الألطــاف عــنكم هــو بســبب كفــركم، وأنتم في هذه الحالة عاجزون عن رد البلاء، كمــا أنــه لــيس لكــم مــن يأخــذ بثــأركم، فيبتلعكم البحر وتذهب آثاركم. هذا جزاء مــن يغفــل عــن النعمــة ولا يشــكر عنهــا ربَّ العالمين المنقذ اللطيف الكريم.

70-ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم....ممن خلقنا تفضيلا.

عموم بعد خصوص إذ أبرزت الآيات السابقة تمكين الإنســان مــن قطــع البحــار فــي رفق ولين، وإنجائهم عند ما تتلاطم الأمواج وهم يستصــرخون ربهــم، ومــن لطفــه بهــم لم يخسف بهم الأرض بعد أن نزلوا إلــى البــر .وأنســج تهديــد المشــركين بــأنهم فــي قبضة الله . أما هذه الآية فقد بســطت خمــس مــن جليلــة أنعــم الله بهــا علــى البشــر جميعا:

أولا: تكريم الإنسان. ويشمل ذلك أمورا منها –أ- تحريم إذلاله نفسيا أو بدنيا – ب-الصورة التي خلقه عليها في شكله، فهو أجمل المخلوقات على الإطلاق – جــ-في تقلبه في الحياة في مشيه وأكله وشربه –د ــ في ذوقه ورقي حاسة الجمال فيه – هــ -في ارتقائه حضاريا في لباسه وسكنه وأثاثه وفي أنواع طعامه ، وفي نظافته ونظافة محيطه –و– في قدرته على المزج بين قوانين العقل وتجليات الروح، ونبل المشاعر وغير ذلك مما لا يحصى عدا.

ثانيا :الحمل في البر بتسخير الحيوانات ليركب ظهورها فتحمله وتحمل متاعه، ثم ما ولّد بفضل اكتشافه لقوانين القوة من أنواع المركوبات .

ثالثا: الحمل في البحر بإلهام قوانين بناء السفن، والطرق المساعدة على تسييرها من المجاديف إلى المحركات الصغيرة والعملاقة.

رابعا : ما يسره الله للإنسان من التعرف على مختلف أنواع المطعومات، التي تجتمع فيها لذة الطعم وطيب الرائحة المثيرة للشهية .

خامسا : تفضيله على كثير من المخلوقات التي تشرفت بخلقه سبحانه اياها، فجعل الإنسان أفضل منها يستطيع أن يتحكم فيها ويطوعها لتحقيق أغراضه .

وإن كان التكريم يشمل التفضيل، إلا أن التفضيل أخص من التكريم لأن التفضيل منظور فيه إلى جعل مرتبته فوق مرتبة بقية كثير ممن خلق الله. وفي التعبير بكلمة [كثير] تدقيق يشير إلى أن بعض مخلوقات الله قد لا يكون الإنسان مفضلا عليها. قد تكون مساوية له في التفضيل. وهذه الناحية تؤخذ من تنصيص الشارع إذ هو وحده الذي بيده التفضيل. والتعرض للتفاضل بين الملائكة والبشر أعتبره خارجا عن مهمة المفسر ولا دليل عليه يبلغ درجة اليقين.

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72) وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77)

بيان معاني الألفاظ :

الإمام : مبين الدين.

يظلمون : يُنقَصُ من جزاء أعمالهم.

الفتيل :الخيط في شق النواة، تمثيل للتافه.

في هذه أعمى: ضال عن الحق في الدنيا.

يفتنونك : الفتْنُ معاملة يقصد منه إدخال ضر على النفس يعسر دفعه.

الخليل : الصديق الخالص.

ثبتناك : جعلنا اقتناعك ثابتا باقيا على ما أنت عليه.

تركن : توافق.

الضعف : المماثل للمقدار .

يستفزونك : يضيقون عليك ليخرجوك من مكة.

يلبثون : لا يستقرون في مكة.

خلفك : بعدك.

سنة : العادة التي جرى عليها الأمر.

تحويلا : تبديلا وتغييرا.

بيان المعنى الاجمالي :

يأمر الله نبيه أن يعرف البشر بشأن من شؤون يوم القيامة. ينادي المنادي كل الناس باسم قائدهم الديني الذي اتبعوه في الدنيا. فالمسلمون ينادون : يا أمة محمد، والنصارى، يا أمة عيسى، والزرادشتيون يا أمة زرادشت، والمزدكيون، يا أمة مزدك، والبوذيون يا أمة بوذا.

وهكذا ... ويتلقى كل مبعوث صحيفته، يلهم الصالحون تلقيها باليمين فيسرعون إلى قراءة ما هو مثبت فيها، فيجدون كل أعمالهم الصالحة جليلها وصغيرها مسجلا لم ينقص منه شيء. وبالمقابل فإن القسم الآخر الذي عمي في حياته الدنيا فلم ينظر في الآيات البينات وصمم على الرفض، فإنه يجد عماه مصاحبا له يوم القيامة فهو في حال من التردد والحيرة أشد مما كان عليه في الدنيا لا يأمل أن يجد منه مخرجا .

لقد قوي مكر المشركين بك فقاربوا فـــي ظـــنهم أن يفتنــوك عــن بعــض مــا أوحــاه الله إليك من الهدى فتحوله إلى ما يرضيهم مما ينــاقض صــراحة الحــق المنــزل، قصــد أن يتخذوك صديقا خالصا، يقربونك منهم وينتهي الجدل بينك وبينهم .

لقد كانت الشبكات التي دبروها لإنزالك على ما يريدون قويــة جــدا، ولكنــك أقــوى مــن مكرهم وتدبيرهم، فإنني أنا الله القوي العزيز، قــد ثبتــك فــرددت مكــرهم فــي نحــرهم، ولولا هذا التثبيت فإن الناظر فيما دبــروه يكــاد يجــزم أنهــم ســينالون مبتغــاهم فتميــل إليهم ميلا قليلا. ولكن عصمة الله كانت لها الكلمة العليا وسقط ما مكروا به .

ومصانعة الكافرين في الثوابت غير مقبولة، فلــو ملــت إلــى مــا يرغبــون منــك ولــو قليلا لسلطنا عليك عذابا مضــاعفا فــي الــدنيا وعــذابا مضــاعفا أيضــا يصــحبك مــن الممات، والمقصــود تنبيــه المــؤمنين أن لا يتهــاونوا مــع الكفــرة فــي الــدين، وأن لا يبرروا تخاذلهم بمبررات مرفوضــة مــن رب العــالمين. وفــوق ذلــك لا تجــد نصــيرا ينصرك ويخلصك من العذاب.

ومن تأييد الله لك أن مشركي مكــة عملــوا علــى إلجائــك للخــروج مــن مكــة ضــعيفا فريدا، فسلطوا عليك ضروب الإيذاء لينفد صبرك وتتــرك الــدعوة وتتــرك لهــم مكــة . وما علموا أنه لو تحقق لهم ما أرادوا، لحل بهم الهــلاك المــدمر بعــد زمــن قليــل مــن خروجك. ذلك أن سنة الله التي لم تتغير: أن كــل الــذين أخرجــوا رســولهم الــذي بعــث فيهم قسرا، أنهم لا يبقون بعده إلا قليلا ليعاجلهم العذاب المستأصل .

بيان المعنى العام :

71- يوم ندعو كل أناس بإمامهم ...ولا يظلمون فتيلا.

تأتي هذه الآيات رابطة لمظاهر سلطان الله في الآخرة على مظاهر سلطانه تعالى في الدنيا. فيقول القرآن لنبيه : اذكر يوم ينادي المنادي كل الناس مجموعات مجموعات باسم إمامهم الذي كانوا يتبعون هديه في تصوراتهم الدينية، فتدعى أمة الإسلام بأمة محمد، وبنو إسرائيل بأمة موسى، والبوذيون بأمة بوذا. والأحمديون باسم ميرزا أحمد . وبعد أن تنقسم الخلائق إلى مجموعات، يعطى كل فرد كتابه الجامع لأعماله في الدنيا وينقسمون إلى قسمين كبيرين:

القسم الأول: من يلهمه الله أن يأخذ كتابــه بيمينــه، وأخــذ الكتــاب بــاليمين فيــه بشــارة أولى بإقدامه على تناول كتابه بقوة واطمئنان وبدون خــوف، شــأن الإنســان فــي تنــاول المحبوب بيمينه. ويميز الله هؤلاء(أولئك) بتكوين داعيــة فــيهم تَسْــرِعُ بفتحــه وقــراءة ما سجل فيه. وكم يعظم ســرورهم عنــدما يجــدون أن ربهــم ســجل لهــم كــل صــالح أعمالهم ولم يهمل حتى البسيط منها والتافه الذي لم يُلْقِ له صاحبه بالا في الدنيا!

72- ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا.

القسم الثاني هو مقابل القسم الأول، ولم يــذكره القــرآن بوصــف معــاكس لفظــا للقســم الأول، ولكن من بلاغة القرآن أن ذكره بوصــف معبــر عــن ســبب وضــعه الخاســر، وهو أنه كان في هذه الدنيا ضالا لم يبصر الحق الذي جــاءه مــن عنــد الله، فيكــون ذلــك دالا على أنه أوتي كتابه بشماله بسبب اختياره الإعــراض عــن الحــق، ويكــون وضــعه في الآخرة مناسبا لسلوكه الدنيوي، فهو أيضا أعمــى فــي الآخــرة .ولــيس عمــاه عمــى العيون ولكن ما ينشأ عن العمى مــن الحيــرة والتخــبط، بــل هــو أشــد ضــلالا فــي وضعه هذا من وضعه في سابق حياته الــدنيا؛ فتخــتلط عليــه الســبل وتتملكــه الحيــرة وبالتالي الخذلان، فعماه في الآخرة أشد مــن عمــاه فــي الــدنيا إذ يكــون عمــاه الســابق عمى يمكن له أن يرفع الحجاب، فيرى الصواب . وأمــا عمــاه فــي الآخــرة فهــو لازم، وهو النتيجة السيئة لعماه الدنيوي .

73- وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك ...خليلا.

تضيف هذه الآية لضلال المشركين فــي أنفســهم تطــاولهم بمــا مهــدتْ لهــم نفوســهم الخبيثة، أن يؤثروا في رسول الله ﷺ بما يحوله عن الطريــق المســتقيم الــذي هــو ســائر فيه، وعن الخط الواضح البين الذي هو سالكه لا يحيــد عنــه . كــان قصــدهم أن يغــروه بمختلف الإغراءات ليتحــول قلــيلا عــن منهجــه، وأن يصــرح أو يفعــل مــا يرضــي شركهم وكبرياءهم. علموا أن كل هم النبي ﷺ أن يجلــب البشــر إلــى الــدين الإســلامي، فعرضوا عليه، أنه إذا فعل ما يقترحونه عليه يــدخلون فــي دينــه، فممــا روي :أن يبعــد ضعفة المؤمنين مــن مجلســه، إرضــاء لتعــاظمهم وكبريــائهم، أو أن لا يقبــل الحجــر الأسود إلا بعد أن يتمسح بــآلهتهم ليظهــر عظمتهــا وإقــراره بمكانتهــا، أو أن لا يــذكر الآيات التي تحطم قداسة آلهــتهم. وألحُّــوا فــي عروضــهم تلــك، وبــالغوا فــي اللــف والدوران حتى قاربوا في ظنهم أن يصرفوك عــن النــور الــذي أوحينــاه إليــك . لــيس معنى هذا أنهم قاربوا التأثير عليه ﷺ فعلا، ولكن هــو حاصــل مــا اســتقر فــي نفوســهم لقوة إغراءاتهم، ودخولهم عليه من الناحيــة التــي يعتقــدون أنهــا تــؤثر فيــه . هــم لــم

يرغبوا في الصدق، وإنما رغبوا أن يحولوك عما طُبِعْتَ عليه من الصدق والثبات، إلى مستواهم بالكذب على الله وتغيير ما أنزل عليك أو كتمانه أو الرضا بمنهج غير المنهج الذي أنت ملتزم به. ولو أثروا عليك فصرفوك إلى اللين بقبول بعض مقترحاتهم لأقبلوا على تقريبك تقريب الخليل الصديق القريب.

74 -75، ولولا أن ثبتناك لقد كدت...لا تجد لك علينا نصيرا.

من الذي حمى محمدا من أن يلين ويضعف، أو أن يميل إليهم، ما الذي جعله يرفض كل الإغراءات كدخولهم في الإسلام، و إقامة السِّلْم بينهم وبينه واعتباره خليلا مصافيا لهم؟

جاء الجواب في هذه الآية؛ والمقصود الأول هو التأكيد على قوة الإغراء، وأن انتفاء تأثيره كان بتأييد من الله الذي بيده الأمر.

يقول الله تعالى: **لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن**: معنى الآية والله أعلم لولا أنا معك نؤيدك ونثبتك ونحصنك من التأثر لاستطاع المشركون أن يقربوك منهم قربا قليلا. إن كلمة [لولا] في التعبير العربي تدل على أن جوابها لم يقع لوجود الشرط الملاصق لها. تقول : لولا الجفاف لنبت الزرع. فهي تدل على أن الزرع لم ينبت وسبب ذلك الجفاف. وفي الآية أن النبي ﷺ لم يمل إليهم ولم يركن، لأن الله معه ثبت عقله وفكره وعقيدته. فالمنفي الميل القليل، وهو ما يحقق أن إغراءاتهم لم تؤثر فيه ولم يعلق بفكره ﷺ ما يؤثر في اختياراته ليحيد عن منهجه ولو كان ميلا قليلا، فكانت حصانته بفضل التثبيت الإلهي سدا منيعا من بلوغهم ما خططوا له ودبروا.

ثم يواصل القرآن التأكيد على التأييد مع تنبيه المؤمنين إلى أن الثوابت لا تقبل التهاون بها ولا النزول عنها مهما كانت الأسباب .

إنه لو ملت إلى ما يدعونك إليه، وتراخيت فقبلت تفريق مجالسك بين كبراء قريش والمستضعفين من المؤمنين، مبرِّرا أن الضعفة لا يحرمون من هدايتك، ولكن تكون لهم مجالس خاصة بهم فقط، أو أن تمسح بيدك على أصنامهم مع أن قلبك مبغض لهم محتقر غير راض، أو أن تُبقي في سرك بعض ما أنزل إليك من تقريعهم على الشرك، حتى يألفوا الإسلام ويستقر في قلوبهم فتعلن عندها ما كنت أخفيته. إن انهزامك بقبول شيء مما يتناقض مع ثوابت الدين بتعلات، يتبعه حتما العذاب المضاعف في الدنيا، فتتراكم عليك المصائب ويخطئك التأييد الذي وعدتك به من انتشار دعوتك، وحمايتك من أن يصل أعداؤك إلى الإضرار بك كما في قوله

تعالى: واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا[1]- وكذلك العذاب المضاعف عند الممات، وعذاب الممات المضاعف يبدو في الكمد التابع للانهزام . وفوق ذلك لا تجد من ينصرك من الغضب الإلهي، واليأس من الخلاص أقوى من العذاب الأول.

ولقد تحير بعض المفسرين في تأويل هذه الآية. والراجح عندي أن القرآن يهدف من تهويل عقاب الميل إلى الكفار بالإغضاء عن ثوابت الدين، وقبول الحلول الوسطى، إلى أنه أمر مرفوض قطعا، حتى إنك يا محمد، على علو منزلتك وقربك مني، لو فعلت ذلك لواصلت عقوبتك في الدنيا وعند الممات وبعده . فالغرض يقصد به تفظيع مثل هذا الاجتهاد، وتنبيه المؤمنين إلى الخطوط الحمراء التي لا يقبل تجاوزها بأي مبرر كيفما كان حاله . وكتنظير، ولله المثل الأعلى ولكنه لتقريب الفهم، كأن يقول الملك لوزيره إنك لو هادنت عدوي لعلقت جثتك حتى تأكلك الطيور الكاسرة، وهو لا يقصد ولا يخطر بباله أن وزيره وصفيه يقوم بمثل ذلك، ولكن ليبين لكل فرد من أتباعه والداخلين تحت سلطانه المآل الذي ينتظره إذا هو خانه وهادن عدوه. وعلى هذا أفهم قوله تعالى : ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين[2]- أفهم منها شدة الزجر وعدم غفران القول على الله بغير علم.

وقد رأينا في عصرنا هذا تغيير الشريعة والتساهل في الثوابت بتعلات، كإعمال قاعدة التيسير في غير مواضعها، وكاعتماد القول باختلاف الأحكام كلها باختلاف الزمان، حتى انقلبت الشريعة عند بعض المتفقهين إلى هيولى قابلة للتشكل حسب الهوى .

76-،77وإن كادوا ليستفزونك من الأرض...ولا تجد لسنتنا تبديلا.

سجل القرآن ما عزم عليه المشركون وما هيأوا له من إلحاق الأذى برسول الله ﷺ،حتى يضطروه لمغادرة مكة قسرا، بالتضييق عليه وعلى أصحابه، ومنعه بكل الوسائل أن يقوم بمهمة التبليغ .وقد تفنن المشركون في ذلك ما شاء لهم التفنن. وثبت الله نبيه فغرس في عالي نفسه التصميم على تحدي الشرك والمثابرة، ولم يستطيعوا أن يخرجوه كما أرادوا مضطرا بدون ترتيب لما يستقبله من أمره. إنهم لو أخرجوك منها مضطرا مدفوعا، ما بقوا بعدك في مكة إلا قليلا من الزمان ويستأصلهم الله بعد خروجك. على هذا مضت سنة الله في المرسلين من قبلك، أن

---

[1] سورة الطور آية 46

[2] سورة الحاقة آية 44

المبعوث إليهم كلما ضيقوا على رسول وأخرجوه إلا وتبع ذلك إهلاكهم، وهذه السنة هي سنة ماضية طريقة مسترسلة وعادة لا تتخلف، ولا تتحول.

إن هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ليست الخروج الذي تحدثت عنه الآية. ذلك أن الخروج الذي كانوا يسعون لتحقيقه بمختلف أوجه الضغط أرادوه خروجا قسريا، فيغادر مكة وهو ضائع لا يدري ما يفعل، خروجا يقف معه مد الدعوة . وهذا ما لم يحدث، ولذلك لم تعقب هجرته ﷺ إلى المدينة بإبادة قريش. لقد كانت الهجرة إلى المدينة تحولا راشدا في مركز الإشعاع الديني، فقد انتظم أمر المسلمين بها وأصبحوا قوة ولم يكونوا مشردين ضعفاء.

ولذا فإن ما ذهب إليه بعضهم من أن الآية مدنية بعيد عن مضمونها الحقيقي.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ

الإقامة : الأداء على الوجه الأكمل، مع المواظبة.

الدلوك :حالة من حالات مسير الشمس، تطلق بمعنى ميل الشمس عن كبد السماء بما يتبعه من زوال الظل، و تطلق بمعنى وقت بلوغ ظل كل شيء مثله، وتطلق بمعنى غروبها .

الغسق : الظلمة، عند انقطاع شعاع الشمس.

التهجد : الصلاة أثناء الليل.

نافلة : زيادة في الأمر المحبوب.

المقام المحمود : المكان الذي تميز بخلوص الثناء للقائم فيه.

المدخل والمخرج : مكان الدخول ومكان الخروج.

صدق : هو أكمل ما يكون عليه في نوعه. فيرتفع الذم ويعم المدح.

السلطان : يجمع السلطة، والحجة، والقيادة.

النصير : القوي النصرة.

الحق : كل ما جاء على لسان الرسول من الهدى .

زهق : اضمحل.

الباطل : ضد الحق مما محض النبي ﷺ جهده لهدمه.

شفاء : ذهاب الداء الجسدي، ومثله الداء العقدي والتصوري.

الظالمين: المشركين.

بيان المعنى الإجمالي :

أوجب الله على الأمة خمس صلوات في اليوم وذلك ليلة الإسراء، وبينت هذه الآية أوقات الصلوات. فجمعت أوقاتا لثلاث صلوات هي الظهر والعصر والمغرب، من دلوك الشمس، أي من ميلانها عن وسط السماء إلى أن تغيب في الأفق الغربي . ووقت العشاء عندما تتم ظلمة الليل بمغيب الشفق (غسق الليل) ووقت الصبح عند طلوع الفجر وعبر عنها بقران الفجر، لطول القراءة فيها وكثرة من يحضرها مع نشاط يستقر به القرآن في نفوسهم. وهو وقت يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. وأمر ﷺ أن يتهجد في وقت من الليل. والتهجد واجب عليه ﷺ، مرغب فيه لأمته، ووعدهُ جزاء على صلاة الليل: أنه سيبعثه يوم القيامة في المقام الذي يحمده البشر جميعا ويثنون عليه من آمن به في الدنيا ومن لم يؤمن . من جاء معه ومن يجيء بعده، ومن مضى قبل ذلك في تاريخ البشرية، عندما يشفع فيهم فينتقلون من المحشر إلى الحساب بعد العناء الشديد من طول الانتظار.

ويلقن نبيه دعاء جامعا للخير : أن يؤيده كلما دخل مكانا وكلما خرج منه ليكون في رعاية الله وتيسر أمره حتى يلازم الحق. وأن يقوي جانبه في الهدى وينصره فيمكنه من نشر الإسلام والنجاح في مهمته الشريفة. وقل معلنا في وثوق: إن جولات الكفر وما يقوم عليه قد انهزم، وإن الله أظهر الحق الذي جئت به. وهذه سنته في الكون: أنه كلما نشبت المعركة بين الحق والباطل وقام أهل الحق بحقهم، أن يتغلبوا على الباطل ويهزموه. لأن الباطل هو عكس لطبيعة الكون فلا يستقيم له وجود إلا بقوة خارجية، فينحل ويذهب بمجرد ما يضعف التأييد له. وبذلك يكون ما ننزله متتابعا عليك من القرآن يذهب الحيرة والشك والخوف من قلوب المؤمنين. وتشملهم من آياته الرحمة والطمأنينة. ويكون في المقابل زيادة في خسارة المشركين بتضاعف آثامهم وإغراقهم في الضلال.

بيان المعنى العام :

78- أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق ...كان مشهودا.

بعد الآيات التي أفادت عناية الله برسوله، توجه إليه الأمر بالمواظبة على الصلاة، وأدائها على أكمل الوجوه، من الإقبال على الله، والطهارة الجسمية والمكانية، وإتمام أركانها وشرائطها، ليزداد بها سموا وقربا من الله. وكل خطاب توجه به القرآن إلى النبي ﷺ، هو شامل لأمته إلا ما قام الدليل على أنه من خصائصه.

والصلاة فرضت ليلة الإسراء، وبينت هذه الآية أوقاتها بعد الأمر بها:

أولا : دلوك الشمس، وهو ميلان الشمس إلى أن تغرب في الأفق وقسم هذا التوجه إلى الغرب بثلاثة مراحل :

المرحلة الأولى: عندما تزول الشمس عن كبد السماء، وهو الوقت الذي تبدأ فيه مسارا عكسيا لوقت شروقها، وهذا وقت الظهر.

المرحلة الثانية: من الزوال إلى أن يبلغ ظل ما على الأرض مثله، وهو وقت العصر.

المرحلة الثالثة: عندما يختفي الحاجب الأعلى لقرص الشمس، وهو وقت صلاة المغرب. فشمل قوله تعالى لدلوك الشمس أوقات ثلاث من الصلوات حسبما بينه النبي ﷺ قولا وعملا. وإن اتفقت كلمة علماء السنة على وقت الظهر والمغرب، فإنه في ضبط دلوك الشمس الذي يدخل به وقت العصر خلاف.

ثانيا: إلى غسق الليل. وغسق الليل هو اشتداد ظلامه بمغيب الشفق، وهو وقت دخول صلاة العشاء، المعبر عنها بصلاة العتمة.

ثالثا: وقرآن الفجر. أي أقم قرآن الفجر. وهو وقت دخول صلاة الصبح. وأسندت صلاة الصبح للقرآن لما اختصت به من عدم الإسرار بالقرآن فيها، ولأن السنة إطالة التلاوة فيها.

وشهوده، يفسره ما رواه مالك والشيخان وأحمد وغيرهم، واللفظ لمالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين أتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون تركناهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون[1]

ولأن الصفاء الروحي الذي يكون عليه المصلون بعد أن استجموا بالنوم، يجعل استقرار القرآن المجهور به والمطول في صلاة الصبح أكثر نفاذا وتأثيرا.

79- ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا.

عطف بالأمر بالتهجد على الأمر بالصلاة في أوقاتها الخمسة . وأبرز القرآن من أول الآية الوقت (بعض الليل) لأنه وقت يندفع فيه النبي ﷺ وكذلك من يتهجد من

---

[1] ح 472- ج 1 ص 241

المؤمنين، يدفعون داعية النـــوم القويـــة وينشـــطون للقيـــام بالصــــلاة. فالتهجـــد إذن تـــرك الهجود أي النوم والتقرب إلى الله بالصلاة. وهـــذه صـــيغة فـــي اللغـــة العربيـــة نظيرهـــا تحنث أي ترك الحنث، وتأثم ترك الإثم، وتحرج تـــرك الحـــرج. والتهجـــد واجـــب علـــى النبي ﷺ، مرغب فيه للمسلمين.

وقوله تعالى: **عسى أن يبعثك ربـك مقامـا محمـودا** – صـــيغة الرجـــاء مـــن الله تفيـــد الوعد، فهو في قوة أعدك أن يبعثك ربك. والبعـــث هـــو التوجيـــه إلـــى المقـــام المحمـــود الذي يكون من حل به محل الثناء والتقدير. وفســـر المقـــام المحمـــود بالشـــفاعة العظمـــى، وقد ثبت في الصحيح أن الناس يستشفعون بالمرســـلين واحـــدا واحـــدا فكـــل يحيـــل علـــى غيره حتى يستشفعوا بمحمد ﷺ فيؤذن ويقبـــل الله شـــفاعته فينتقـــل البشـــر مـــن المحشـــر إلى الحساب . فيثني عليه البشر جميعا .

80-وقل رب أدخلني مدخل صدق ...سلطانا نصيرا.

تتوالى عناية الله برسوله فبعد أن شرع له الصلاة التي بهـــا يســـمو إلـــى أعلـــى مقامـــات القرب كما قال الشيخ ابن أبي زيد ﷺ: والمصـــلي ينـــاجي ربـــه. أرشـــده للـــدعاء الـــذي يثبته في جميع الأحوال. قل يـــا محمـــد داعيـــا متوســـلا إلـــى ربـــك : رب أدخلنـــي .... إنه من شأن الإنسان أن تكون حياته سلسلة من التنقلات فـــي الأمكنـــة، فمـــا يـــدخل مكانـــا حتى يخرج منه إلى غيره. وكلما ضاقت مســـافة التنقـــل بـــين المـــدخل والمخـــرج فهـــو السجن أو المرض أو العجـــز. وكـــل مـــدخل مجهـــولٌ عاقبتـــه، فـــيلقن الله نبيـــه مـــوالاة الإنعام عليه أن يجعل تنقلاته مصحوبة بالألطاف الإلهيـــة والعنايـــة الربانيـــة ليكـــون مـــا يجده في كل مكان يدخله من الخير واليسر والنجـــاح أحســـن تقـــدير، ويجعـــل مـــا يجـــده في المكان الذي يخرج إليه نفس التوفيـــق والعنايـــة. وحقيـــق بـــالمؤمن أن يواظـــب علـــى هذا الدعاء، فيومن مجامع الكلم التي تتسع آفاق مشمولاته إلى الحياة كلها .

ويختم الدعاء بطلبه أن يهيء له من عنده مـــا يؤيـــده بســـلطان مـــن الحـــق، ومـــن قـــوة الحجة، ومن التمكين في الأرض بقيـــادة الأمـــة إلـــى مـــا يعـــزز جانبهـــا ويعلـــي ديـــن الإسلام وينصر جيوشه، فيبث الرعب في قلوب أعدائه .

81-وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

أمرٌ من الله لنبيه أن يعلن في وثـــوق أن الله اســـتجاب دعـــاءه، ونصـــر الإســـلام فعـــلا. وفي هذا الإعلان ما يثبت المؤمنين ويقـــنعهم بـــأن كلمـــة الله هـــي العليـــا ؛ وأن المعركـــة الدائرة بين ما أتى به النبي ﷺ من العقائد ومن التشريع أنـــه حضـــر حضـــورا ثابتـــا فـــي الكون، وبين ما عمل على هدمه ونقضه من العقائـــد والأحكـــام قـــد تـــم القضـــاء عليـــه .

وتختم الآية بإعلان إلهي هو سنته في الكون وفـي الصـراع الـذي ينشـب بـين الحـق والباطل؛ أن الباطل ينتهي بالاندحار والهزيمة ويتغلب الحق.
وهذه الآية هي التي كان ﷺ يرددها يوم فـتح مكـة، عنـدما دخـل الكعبـة، فأسـقط كـل الأصنام وأكبّها على الأرض وهو يتلو هذه الآيـة. لقـد كانـت تمثـل مـا أنعـم الله بـه عليه من نصر التوحيد والقضاء على الشرك.

82-وننزل من القرآن ما هو شفاء ...ولا يزيد الظالمين إلا خسارا.

إن حضور الحق وظهوره مستند أولاً وبالذات، إلى الـوحي الـذي أنـزل مـن الله علـى قلب رسوله، وأعلاه القرآن . فتثبت الآيـة أن الله يواصـل إنـزال القـرآن علـى قلبـك، الذي هو شفاء للنفوس مـن انحـراف الضـلالات والأوهـام، وتبديـد للشـكوك والقلـق والخوف. فيجد تاليه من الحكم والتشـريع والتـذكير وإحيـاء الـروح وتوضـيح المـنهج ما يأنس به العقـل والضـمير . وبمقـدار مـا يـزداد المؤمنـون بـه قربـا مـن ربهـم وطمأنينة واستقامة، بمقدار ما تبعد الشقة بيـنهم وبـين المشـركين فـي ذلـك، فيـزدادون خسارة في دنياهم بعمق الضلال، وخسارة في آخرتهم بالخزي والعذاب يوم القيامة.

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

أنعمنا : مكناه من النعم الدنيوية .
أعرض : صد.
ونأى بجانبه :صد عن العبادة والشكر.
الشاكلة : الطريقة التي ألفها الإنسان في حياته .
الوكيل: المدافع والشفيع .

بيان المعنى الإجمالي :

بني الإنسان على ضعف يفقد معه التوازن فيخسـر إذا لـم يتحصـن بالإيمـان . فهـو إذا نال النعم أبطرته النعمة أعرض وصدّ عن السـبيل الرابطـة بينـه وبـين الله، ومضـى لا

يشكر ولا يعبد. وليس وضعه خيرا إذا مسه الشــر وسـلبت منـه النعمـة، يحـل اليـأس في كيانه ويقنط وتضيق الدنيا في ناظره رغم سعتها. قل لهم يـا محمـد: كـل فـرد مـن المؤمنين يسير في حياته على الطريقة التـي اختارهـا وألفهـا، وهـو مسـؤول، وربـك عليم بالمنهج الصالح الذي بعث به رسله لهداية البشر.

سجل القرآن أنهم سألوا النبي ﷺ عـن ماهيـة الـروح فـأوحى الله لرسـوله: إن الـروح مخلوق لله، ثم إن المستوى المعرفي للبشـر فـي ذلـك الوقـت لا يسـمح لهـم بـإدراك ماهية الروح إدراكا كاملا.

وكما أن معرفة ماهية الحياة متوقفة على مستوى علمي، فكـذلك مـا عنـد الإنسـان مـن العلم لا يستمر معه إلا بفضل من الله. ويقول القرآن إننـا لـو شـئنا أن نرفـع مـن قلبـك القرآن الذي أوحيناه إليك لفعلنـا، ولا تجـد مـن يـدافع عنـك ليعيـده. ولكـن الرحمـة العظيمة من ربك هي التي ثبّتَتْهُ في نفسك نصا وفهما. وإن فضل الله عليك لكبير.

بيان المعنى العام:

83- وإذا أنعمنا على الإنسان...يؤوسا.

يعتني القرآن بتحليل أحوال النفس الإنسانية، ليكون فـي ذلـك الكشـف مـا يوقظـه إلـى تحصين نفسه مما يضر به عن غفلة منـه. والإنسـان يتقلـب فـي حياتـه بـين أوقـات المسرات والتوفيق، وبين أوقات الشدة والبلايا. ينال مـن نعـم الله عنـدما يفـتح لـه مـن خيرات الدنيا وتنسيه ضروب الإنعام ربـه الـذي أنعـم عليـه. ويجسـم القـرآن صـورة إعراضه بالذي يلتفت سريعا بعد أن كان مقبلا، ويمضـي إلـى حـال سـبيله فـلا تـرى منه إلا جانبه. وهذا ضعف في الإنسان. ذلك أنـه عنـدما تأتيـه النعمـة تسـتولي عليـه وتغطي عنه وضعه الحقيقي: أنه محتاج إلى واهبها ليـوالي عليـه فضـله، ويمكنـه مـن الاستمتاع بما أنعم عليه، بشكر النعمة والعبادة. فيجمع بين البعـد عـن ربـه وبـين عـدم القيام بما يقتضيه الفضل الإلهي من إخلاص العبادة والشكر.

وكذلك تضيق النفس الإنسانية إذا لم يعمرّها الإيمان، فإنـه إذا مسـه الشـر وذهبـت عنـه النعمة لا يستيقظ بل يثقل عليه وضعه ويعمر اليـأس قلبـه. فهـو فـي الحـالتين منفصـل عن المدد الرباني الذي يمكن النفس من توازنها.

والنبع الذي ترتوي منه النفس ويشفيها من سقامها هو القـرآن، فظهـر بهـذا صـلة هـذه الآية بقوله تعالى في الآية السابقة: ونُنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة.

84- قل كل يعمل على شاكلته ....أهدى سبيلا.

هكذا افترق البشر إلى مؤمن تزيده النعمة إقبالا على ربـه وشـكرا لـه، ويبتلـى فيقـوى تعلقه بالرحمة ويعظم رجاؤه، فهو في الحـالين أقـرب إلـى ربـه . وإلـى كـافر بينـت

علل نفسه الآية السابقة . فيوجه الله خطابــه لنبيــه ﷺ، قــل للنــاس جميعــا : كــل فــرد يسير على الطريقة التي اختارها لنفسه، أي إنــه مســؤول عنهــا . والله هــو العلــيم بمــن كان سائرا على طريق الهدى، ومن كان ســائرا علــى طريــق الضــلالة. وتبعــا لعلمــه ولطفا بخلقه أرسل رسله لهداية الناس إلى الحق.

85- ويسألونك عن الروح ....وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.

يتابع القرآن الكشف عن طبيعة الخلــق الإنســاني. فيصــل مــا طبــع عليــه مــن بطــر النعمة وشدة الجزع من النقمة، وتأثير الإلف فيه، يصل ذلــك بــالجواب عــن ســؤال أهَــمَّ الناس ولم يجدوا له جوابا، وذلك تــابع لمــا فطــر عليــه الإنســان مــن حــب المعرفــة، وجهاده لينكشف له كل شيء. وهذه الفطــرة فــي الإنســان هــي ســر اســتخلافه، وبهــا استطاع أن يمضي فاتحا مجاهيل الكون، ثم يمضي بما حصــل عليــه مــن معلــوم لينفــذ إلى حقيقة المجهول عنده . فسجّل القرآن أنه ســئل ﷺ عــن الــروح، قبــل الســؤال ولــم يعنف السائل، ولكنه أجابه بما أتاه من ربه، ولنتابع النص الدقيق:

أولا: من السائل؟ اختلفت الروايات : فــذهب بعضــهم إلــى أن قريشــا اتصــلت بــاليهود في المدينة لما كان بين الفريقين مــن صــلات، وطلبــوا مــنهم أن يســاعدوهم بمغلقــات من العلم الذي عندهم ليسألوا عنه النبي ﷺ ليشــكّكوا فــي صــدقه. وذهــب بعضــهم إلــى أن اليهود سألوه عن الروح في المدينة فأجابهم بما أنــزل عليــه فــي هــذه الآيــة. وهــذه الرواية تفهم على أن اليهود سألوه في المدينــة بعــد أن ســأله القرشــيون وأجــابهم بهــذه الآية، إذ الآية مكية. وفي إبهام السائل فــي الــنص القرآنــي مــا يغنينــا عــن تعيينــه إذ تعيينه لا يزيد ولا ينقص لا في تصور الواقع ولا في الجواب.

ثانيا : ما هي الروح المســؤول عنهــا ؟ وردت الــروح فــي القــرآن بمــا يفيــد القــوة الخفية المثبثة في الجسم التي تقترن بهــا الحيــاة بمــا يصــحبها مــن آثــار فــي الإرادة والحركة، وتسلب من الجسم فيفارق الإنســان الحيــاة . وأطلقــت الــروح أيضــا علــى أشراف الملائكة ومنه قولــه تعــالى : يــوم يقــوم الــروح والملائكــة صــفا[1]– تعــرج الملائكة والروح إليه[2] – وأطلقت على جبريل –ومنــه قولــه تعــالى : نــزل بــه الــروح الأمين[3] .

والأرجح أن السؤال كان عن ماهية الروح بالإطلاق الأول.

---

[1] سورة النبأ آية 38
[2] سورة المعارج آية 4
[3] سورة الشعراء آية193

ثالثا: ما هو الجواب الذي أجاب بــه القــران عــن هــذا السـؤال ؟ الجــواب، قــل يــا محمد: الروح شيء مخلوق لله اختص بعلمه. ويكون القــرآن لــم يســعفهم ببيــان ماهيــة الروح، ولكن الآية أفادت أن الروح ليس شــيئا متخــيلا، ولكنــه حقيقــة موجــودة فعــلا. ثم أضافت الآية قوله تعالى : وما أوتيتم من العلــم إلا قلــيلا . ومــا اطلعــت عليــه مــن كلام المفسرين في بيان المراد من ذلك لم يثلج لــه الصــدر، ولــم يصــل إلــى الكشــف عن سره. والذي تفتّح لي من تأملي والله أعلــم : أن القــرآن يشــير إلــى مــنهج علمــي، حاصله أن الإنسان ممكن من المعرفة، ولكن بلوغه للتعــرف علــى مــا هــو مجهــول لا يحصل دفعة واحدة، ولكنه بناءٌ متتابعٌ، تكــون كــل مرحلــة تُعــدُّ لمرحلــة أســمى منهــا وأعمق .وكلما بلغ العقل البشــري مســتوى تطلــع إلــى مــا وراءه . خــذ لــذلك مــثلا مجهود العلماء للتعرف على كوكب المــريخ. خطــت العلــوم الفيزيائيــة مراحــل هامــة، واندمج العلم الإلكتروني فــي البحــوث، ونجــح المســبار الأول فوصــل إلــى القمــر، ونزل الإنسان على سطحه، فكان ما تحقق فعليا فاتحــا للقيــام بالتجــارب للوصــول إلــى المريخ، ثم إنه بعد النزول عليه، وأخذ عينــات منــه وتحليلهــا، ومتابعــة تطوراتــه، قــد يصل العلم في يوم من الأيام للكشف عــن جميــع أســراره. فــأقول : إن الســؤال عــن ماهية كوكب المريخ كان مطمحا للعلماء منذ أكثــر مــن قــرن. وجــواب تســاؤلاتهم فــي بداية البحث: ما أوتيتم من العلم إلا قلــيلا. ويكــون الكشــف عــن أمــر الــروح، كــذلك متوقفا على بلوغ مستوى علمي، وليس أمرا مستحيلا.

والذي أعتقده أيضا أن الروح ليس كائنا أزليا، بــل هــو مخلــوق لله ؛ تــاريخ خلقــه مــن عالم الغيب، وكذلك ما يجري على الروح قبل اتصــاله بالجســد وبعــد فراقــه لــه مــن عالم الغيب، ولا يمكن أن نجد تعبيرا أدق على كل هــذا مــن قولــه تعــالى : مــن أمــر ربي– فكل المحاولات لتجاوز مــا هــو فــي مقــدور الإنســان بالمقــدمات المبلغــة هــو تحديف وإسقاط للخيال الذي لا يقوم على أساس .

86–87، ولئن شئنا لنذهبن بالذي...إن فضله كان عليك كبيرا.

الذي ظهر لي في هذه الآية والله أعلم أنهــا مــع ســابقتها تــدعو العلمــاء أن لا يزدهــوا بما عندهم من العلم، وأن يتواضعوا، لأن ما آتاهم الله من العلــم هــو قليــل بالنســبة لمــا يجهلونه. يتبين ذلك أن كل عبقري مختص في باب من العلــم يــدرك أفضــل مــن غيــره أن ما يجهله أكثر مما يعلمه، ويقضي حياتــه قبــل أن يــتمكن مــن الإجابــة عــن جميــع تساؤلاته. وإذا كان هذا حاله في ميدان اختصاصــه، فــإن جهلــه ببقيــة الفــروع العلميــة أظهر وأعظم. وفي السؤال عن الروح والإجابــة عنــه بالإجابــة القرآنيــة الحكيمــة مــا

يهدي إلى ما ذكرناه. ثم يزيد القرآن تأكيدا لهـذه التربيـة التوجـه بالخطـاب إلـى النبـي ﷺ، وقد آتاه القرآن الذي ينقضـي الكـون ولا تنقضـي عجائبـه، فيقـول لنبيـه: إن مـا عندك من علم الوحي ثبت في نفسك بفضـل منـي، ولـو شـئنا أن نحـول بينـك وبينـه فلا تجد له أثرا في نفسك لفعلنا، وفوق ذلك لا تجـد مـن يمكنـه أن يـدافع عنـك فيعيـد لك ما كنت مالكا له، ولكن الرحمة من ربك الذي تولاك هـو الـذي يثبّتـه فـي صـدرك. وما أجمل هذا الامتنان الذي ختمت به الآيـة : إن فضـله كـان عليـك كبيـرا. فموقـع كلمة كان تفيد دوام هذا الفضل.

وهذه النسق القرآني يتكرر أكثر من مـرة، فيخاطـب رب العـزة رسـوله بهـذا النـوع من الخطاب الوارد في هذه الآية : ولئن شئنا لنـذهبن بالـذي أوحينـا إليـك- وكقولـه: ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منـه بـاليمين[1] . والـذي اسـتقر فـي فهمـي والله أعلم أنه محقق لهدفين :

الهدف الأول: أن يقضي على كل ظاهرة تطلع فـي الحاضـر أو المسـتقبل تغلـو فـي تقديس الرسول ﷺ تقديسا يرفعه إلى مقـام العبـادة أو الألوهيـة، فهـي تأكيـد لبشـريته، وأن ما هو عليه من سامي المقام لا يخرجه عـن كونـه عبـدا لله، وبهـذا يتحقـق النقـاء في التوحيد، ولا تسقط أمته فيما سقط فيه النصارى.

الهدف الثاني: إبراز أن مضمون النصوص علـى تلـك الطريقـة مـن الصـياغة تحقـق عظم الأمر الذي يريد القرآن اجتثاثه، فهو مرفـوض إلـى درجـة أن محمـدا لـو فعلـه لكانت عقوبته شديدة، وفي هذا أشد التحذير. وفـي هـذا المقـام يقـوم الـنص القرآنـي بتحسيس العلماء سوء آثار زُهُـوِّهمْ بمـا عنـدهم، واسـتكبارهم بمعـارفهم، لمـا يـؤدي إليه من توقف سير العلم من ناحية، ولأنه يقطع الصلة بيـنهم وبـين النـاس فـلا يـؤدون دورهم في الإصلاح. ولهذا نجد الآية تختم بالتنويه بمقام رسول الله عند ربه .

قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ

---

[1] سورة الحاقة آية 45

يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

ظهيرا: تعاون الإنس والجن.

صرفنا : نوعنا في البيان.

لن نؤمن لك : لن نصدقك .

الأرض : أرض مكة.

تفجر : تحدث شقا كبيرا ينساب منه الماء بقوة.

كسفا : جمع كسف وهو القطعة من الشيء.

زعمت : قلت قولا نستبعده.

القبيل : الجماعة الذين هم من جنس واحد.

الزخرف : الذهب .

بيان المعنى الإجمالي :

أعلن الله في كتابه أن القرآن معجز سما لفظا ومعنى، وطاقات المخلوقات من الإنس ومن الجن عاجزة عن الإتيان بكلام مثل القرآن في نظمه ومضامينه. بل إنهم لو تركوا كل شيء وتعاونوا على معارضة القرآن بمثله لفشلوا فشلا ذريعا. فمما اختص به هذا القرآن، أنه عرض بمتنوع العرض للمقصد الواحد، فكان في كل موقع يأتي تعبيره بطريقة تتناسب مع الموضع الذي هو فيه ومع ما تقدم عنه أو تأخر، ويأنس التالي والسامع بما يسمعه .ومع ذلك فإن أكثر الناس امتنعوا من الإذعان لما جاء به ورفضوا كل شيء إلا الشدة في الكفر .

فما كان جوابهم عن حثهم للتأمل في القرآن والاهتداء به ؟ قالوا : لن نؤمن لك ولن نصدقك أبدا حتى تحقق لنا ما نعرضه عليك : أن تنشق الأرض فيتدفق منها نبع فياض لا ينقطع ماؤه. أو أن تنقلب طبيعة جبال مكة فيكون فيها جنة من نخيل وأعناب تتخللها المياه الجارية، نرضى بهذا وإن كنت أنت الذي تملكها. أو أن تنزل علينا، كما ادعيت، قطعا من السماء التي هددتنا بها. أو أن يأتينا وفد من الملائكة يصحبهم الله. أو أن تتميز علينا ببيت من ذهب مزين بأنواع الزخارف. أو أن تصعد إلى السماء، ولا نؤمن بأنك بلغت السماء إلا إذا عدت تحمل كتابا كاملا نستطيع أن نقرأ محتوياته.

أوحى الله لنبيه ما يجيبهم به جوابا بشقين:

أولهما: أنزه الله عما قلتم تنزيها من يأتي مـــع الملائكـــة، أو أن يكـــون تقـــديره لمجـــاري الأمور في الكون على مقياس ما تطلبون.

وثانيهما: إن ما دعوتكم إليه لا يعدو أنني بشر مرسل من عنـــده لأبـــين لكـــم مـــا ينقـــذكم من الضلال ويهديكم سبل السلام.

بيان المعنى العام :

88- قل لئن اجتمعت الإنس والجن ..لبعض ظهيرا.

تفتتح هذه الآية مجموعة الآيات في هذا المقطع لتكـــون المُتَوِّجـــةَ لـــه .فـــي هـــذه الآيـــة تنويه بالقرآن بإثبات أنه من عند الله، لا مدخل لأي كان فـــي نظمـــه. ويقـــيم دلـــيلا علـــى ذلك من أول الأمر فيقول : بأعظم تأكيد وأكملـــه لـــو اجتمـــع كـــل المكلفـــين مـــن البشـــر ومن الجن وبذلوا كل طاقاتهم ليتغلبوا على جميـــع المشـــاكل ويحـــاولوا أن يقـــدموا نصـــا يبلغ مستوى مماثلا لمستوى القران، ما اســـتطاعوا أن يـــأتوا بمثلـــه فـــي الـــنظم والســـعة في المضامين التي لا تقف عند حدود الزمان الذي أنـــزل فيـــه، بـــل تمضـــي مـــع حيـــاة الإنسان ليجد فيها كل جيل حلا لمشـــاكله، وخطابـــا غيـــر بعيـــد عنـــه. إنهـــم عـــاجزون؛ ولو تعاونوا على ذلك الأمر فإن تعاونهم يؤدي بهـــم إلـــى الفشـــل الـــذريع. فصـــدر الآيـــة يتعلق بإثبات العجز لجنس الإنس ولجنس الجـــن بـــدون تعـــاون وخاتمتهـــا تثبـــت العجـــز مع التعاون.

89- ولقد صرفنا للناس ....أكثر الناس إلا كفورا.

إعلان لبعض وجوه إعجاز القرآن؛ يبدو ذلك فـــي ترديـــد التصـــوير للمقصـــود بضـــروب من البيان تكون خصائصها في موقعها أوفق وأكمل وأرشـــق، بصـــفة لـــو حاولـــت تقـــديم أو تأخير أو إبدال كلمة بأخرى لاختل الـــنظم وســـقط عـــن حـــد البلاغـــة . ومـــن ذلـــك ورود مضمون القصة الواحدة في أكثر من سورة، وهي فـــي كـــل موقـــع يـــأتي نظمهـــا وخصائصها التعبيرية متسقة مـــع مـــا تقـــدمها ومـــا لحقهـــا، دون أن تغمـــط الحقيقـــة، أو تجد مللا من عودة عرضها .

ورغم هذه المعجزة الظاهرة التي تنادي بصدق الرسول ﷺ فـــإن أكثـــر النـــاس امتنعـــوا عن أي شيء إلا عن شيء واحد هو العناد والإصرار على الكفر.

90- وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا.

هذه الآية وما يتلوها محققة لمـــا ختمـــت بـــه الآيـــة الســـابقة مـــن أن إصـــرارهم علـــى الرفض جعل القرآن ما يزيدهم إلا كفرا، يوضـــح ذلـــك الإصـــرار مـــا ســـجلته الآيـــات التالية من المقترحات التي ربطوا إيمانهم بتحقيقها فقالوا له :

أولا: لن نطمع في الإيمان بما تدعونا إليه، ولــن نصــدقك فــي أنــك مرســل مــن عنــد الله، حتى تنشق لك الأرض فيتفجــر منهــا نبــع غزيــر متــدفق فــي الأرض لا ينقطــع نميره، في أرض مكة المعروفة بتضاريسها الجبلية وعدم وجود أي نهر فيها .

91-ثانيا: أو أن تحول شيئا من تضاريس الجبال إلى سهل، وإن كنت أنت الذي تملكه، فيكون لك منه جنة تتكاثف فيها أشجار النخيل والعنب، وتتخلل أرضها أنهار لا تنضب، تنساب خلالها فتسقي جميع الأشجار، مما يبقي على خضرتها ونضارتها. وكلا المقترحين يصب في معنى واحد، هو تحويل طبيعة أرض مكة إلى ما عرفوه في أرض الشام. وهما معا يدلان على شدة تعلقهما بالمادة والأرض. ومن ضعف مستواهم العقلي جعل الدليل على صدق الرسول ﷺ أنهارا تجري وجنات من نخيل وأعناب، التي هي منبثة في أرض الله، دون أن يكون لوجودها أثر في سمو البشر من المادة الميتة إلى آفاق التوحيد، والمبادئ السامية، والسلوك الذي يهدي البشر إلى حسن الاستخلاف في الكون .

92- أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا.

ثالثا: أو أن تحقق فعلا مــا زعمتــه، والــزعم يطلــق بمعنــى القــول المســتبعد صــدقه وتحققه، وأوعدتنا من إسقاط قطع من الســماء علينــا، كمــا جــاء فــي قولــه تعــالى :إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا مــن الســماء[1] . وهــذا الوعيــد المــذكور في الآية قد يكون أوعد به النبي ﷺ قبل نزول الآيــة إن كانــت ســورة ســبأ نزلــت بعــد سورة الإسراء كما هو عند البقاعي وغيره .

رابعا: أو أن تأتي بفوج من الملائكة مــع الله، يقــدمون علينــا ونــراهم ويثبــت صــدقك بأنك مرسل من عند الله مؤيد بملائكته الذين منهم جبريل الذي ينزل عليك بالوحي.

93-أو يكون لك بيت من زخرف...هل كنت إلا بشرا رسولا.

خامسا: أو أن يكون لك بيت من ذهب، واختار القــرآن التعبيــر عــن طلــبهم بــالزخرف عوض الذهب، لأن الشأن في الــذهب أن لا تتخــذ ســبائكه علــى طبيعتهــا، بــل يعمــل فيها الفن أجود ما يؤثر به في المعادن لتقبله لــذلك، ولأن المهــرة مــن الفنــانين يجــدون من قيمة الذهب ما يضمن لهم وفاء قيمة صناعتهم .

سادسا: أن تخترق الأبعاد فترقى إلى الســماء. وادعــاؤك أنــك ارتقيــت إلــى الســماء لا نصدق به إلا إذا أتيتنا بكتاب كامل مــن الســماء نســتطيع قراءتــه. وفــي هــذا إظهــار لطعنهم في القرآن بأنه ليس من عند الله لمّا نزل منجما.

---

[1] سورة سبأ آية 9

أجبهم يا محمد جوابا قاطعا للجاجهم وعنادهم: مقتتحا بتنزيه الله أن يكون طوع مقترحاتهم ينفذ ما يرغبون فيه، أو أن يتحرك كتحرك الناس ويضم إليه ملائكته فيقبل عليهم ويخاطبونه. ثم من ناحية أخرى أعرفكم بأني بشر كسائر البشر، طاقاتي هي الطاقات البشرية، والذي يأمر الأشياء فتستجيب لأمره هو الله وحده، ولكن الله فضلني على البشر بتحميلي رسالة الهداية إليكم.

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

مطمئنين :غير مضطربين عليهم السكينة.

الشهيد : المخبر بالأمر الواقع كما وقع.

خبير : عليم بما يجري في بواطنكم.

بصير : لا يخفى عليه شيء من ذواتكم وأفعالكم.

أولياء : أنصارا.

الحشر : جمع الناس من أماكن متفرقة إلى مكان واحد .

مأواهم : منزلهم ومقرهم.

خبت النار: نقص لهيبها.

السعير : لهب النار .

الجزاء : العوض عن العمل.

يروا : يعتقدوا.

قتورا: شديد البخل .

بيان المعنى الاجمالي :

رغم ما يقتضيه النظر بعد التأمل في مضامين الرسالة المتناسقة مع العقل والفطرة يثور سؤال : ما الذي منع الناس قديما وحديثا من الإيمان؟ إنهم لم يقبلوا أن يكون الرسول بشرا مثلهم . ولوكان المرسلون غير بشر لكانوا ملائكة، والملائكة لا يستطيعون القيام بدور الرسالة التي تقتضي من الرسول أن يختلط بالناس ليبلغهم وليبين لهم وليكشف لهم الشبه التي تعترضهم، ويعيش معهم كما يعيشون ويتنقل كما يتنقلون . ولو كان الملك هكذا لما آمنوا به ووقعوا في لبس هل هو ملك أو بشر؟ وفوق كل ذلك فإنه يكفيني أن يكون الله حاكما بيني وبينكم، فإنه سبحانه عليم بما تنطوي عليه الصدور، ولا يغيب عنه أي عمل يقوم به الإنسان. فهو يعلم المبطل من المحق والمصلح من المفسد. والناس قسمان مهتد وضال .أما المهتدي فهو الذي أقبل على ما جاءه من ربه فأعمل فيه عقله وسار فيه فرزقه الله ألطافه فكان هو المهتدي بحق. والضال هو الذي جاءه الهدى فأعرض عنه وجعل بينه وبين الحق حجابا من العناد والمكابرة فحرمه الله ألطافه فكان من الضالين لأنك لا تجد لهم نصيرا من دون الله يحولهم عما محضوا أنفسهم إليه . ثم يوم القيامة يحشرهم ماشين من كل مكان على وجوهم وقد فقدوا جميع حواسهم فهم عمي وبكم وصم، ينتهي بهم السير إلى جهنم التي من جملة وقودها جلود هؤلاء المحشورين. كلما خفتت نارها باحتراق الجلود يعيد الله لهم جلودا فيزداد لهبها. إن جزاءهم هو الجزاء العادل يوازي كفرهم بالآيات والأدلة الواضحة، ولتصريحهم باستحالة البعث خلقا جديدا بعد أن تتحلل أجسامهم فينقلبون إلى كتل من العظام، أو إلى مسحوق متناثر .

وعجب من أمرهم ألــم يتــأملوا فــي حقيقــة يعترفــون بهــا، وهــي أن الله هــو خــالق السماوات والأرض على عظمها ودقــة قوانينهــا وانتظــام ســيرها، أفــلا يكــون قــادرا على أن يخلق مثلهم بعــد انحــلال أجســامهم ؟ فــإن خلقهــم مــن جديــد أهــون بكثيــر بمقاييس العقل البشري من خلقها أوّلا. وثانيــا إن الله قــد جعــل لهــم أجــلا تنتهــي فيــه حياتهم، وهذا مما لا يرتاب ولا يشك فيه أحد، فإذا كانــت حيــاتهم التــي بــين جنــوبهم لا يتحكمون فيها ويسلبها الله متى يشاء فــإن إعــادتهم للحيــاة أمــر معقــول جــدا. ولكــنهم رفضوا كل شيء إلا أمرا واحدا هو التصميم على الكفر بنعم الله وعدم شكرها.

قل لهم يا محمد: إن نفوسكم طبعت على الشح حتى إنكــم لــو ملكــتم خــزائن رحمــة الله، لقام مرض الشح في نفوسكم فحملكم على الإمساك عن العطــاء خشــية مــن نقصــان مــا

تملكون بالإنفاق منه. فتخيلكم أن مـــا اقترحتمـــوه شـــيء لا يمكـــن تحقيقـــه لكثرتـــه هـــو ناشئ عن النقص الذي جبلتم عليه، فإن الإنسان من طبعه أن يشح بما عنده.

بيان المعنى العام :

94- وما منع الناس أن يؤمنوا...أبعث الله بشرا رسولا.

يواصل القرآن الكشف عن أغوار النفس، وإظهار مـــا كمـــن فيهـــا، ليجلـــي الأوهـــام ثـــم ينفيها. إن المتأمـــل ليعجـــب مـــن إصـــرار المشـــركين علـــى شـــركهم وانحـــرافهم إلـــى مقترحات لا تمت إلى جوهر الدين الـــذي يبشـــر بـــه رســـول الله ﷺ، والتـــي لا تعـــدو أن تكون قلبا لسنن الكون أو نقضا لمقتضيات العقـــل. فمـــا الـــذي حـــولهم عـــن التأمـــل فـــي طبيعة ما يدعو إليه، ووزنه بميزان الفطرة والعقـــل؟ أتـــى الجـــواب مـــن القـــرآن؛ بـــأنهم يعجبون من تكليف بشر مثلهم يحمـــلُ رســـالة الله إلـــى العـــالمين، ويقـــدمون اســـتبعادهم هذا في صورة سؤال إنكاري. هذه سنة الكافرين المكـــذبين للرســـل حكاهـــا القـــرآن عـــن قوم نوح وعن كثير من الرسل الذين جاؤوا بعده .

95-قل لو كان في الأرض ملائكة...ملكا رسولا.

تولى القرآن تأييد رسوله بالجواب المفحم .يقول القرآن : إن الرسول إما أن يكون بشرا، أو يكون ملكا كما تتوهمون. إذ الرسول مهمته أن يتصل بالناس ويعرض عليهم وينفي الشبه التي تعلق بأذهانهم. ولا يقع هذا الاتصال والتمازج إلا إذا كانت الملائكة تعيش على سطح الأرض وتمشي مطمئنة ثابتة لا تجد فرقا بينها وبين الناس في حركاتها تمشي كما يمشي الناس. ومعنى هذا أن تتحول طبيعة الملائكة من الخلقة التي هم عليها إلى خلقة أخرى منافية لخصائصهم، وبهذا لا يكون الملك ملكا.

96-قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ...خبيرا بصيرا.

وحجة ثانية مؤيدة في الرد على مقترحاتهم وعنـــادهم. قـــل لهـــم: يكفينـــي دلـــيلا علـــى صدقي وعلى مخالفتكم لمـــا تقتضـــيه الفطـــرة والعقـــل، يكفينـــي الله الـــذي يحـــق الحـــق ويبطل الباطل حاكما لا ترد حكومته ولا يطعن فـــي علمـــه. إننـــا جميعـــا عبـــاده، وهـــو العليم بما يجري في النوايا وما يختلج في الضمائر، يعلم مـــن همّـــة نشـــر الخيـــر والحـــق والعدل، ومن همّة المراوغـــة واتبـــاع الشـــهوات، والمجادلـــة بالباطـــل لـــدحض الحـــق . وحكمه سبحانه حكم حق عادل لأننا جميع من خلقـــه، هـــو العلـــيم العلـــم الكاشـــف عمـــا تخفيه النوايا وعما تستبطنه العقول، ولا يخفى عنه شـــيء مـــن الفعـــال ومتقلـــب جميـــع الأحوال.

97- ومن يهدي الله فهو المهتدي .زدناهم سعيرا.

ولما وسع علمه كل ما احتضنه الضمير من خير أو شــر، فــإن النــاس علــى قســمين : قسم جاءه الهدى من ربه فأعمل فيه عقلــه، وأرهــف ســمعه، ووزن مــا جــاءه بــالتعمق في مضامينه، فأسعفه الله بالألطاف المساعدة علــى تمكــن مــا هيــأ نفســه لقبولــه مــن الهدى، فكان المهتدي بما قام به مــن جهــود، وبعــون مــن الله علــى أن تكــون جهــوده منتجة. وقسم بمجرد ما جاءه الهدى أعرض عنه، وكوّن بينــه وبــين الحــق حجابــا مــن العناد والرفض، وعطل عقله فلم يتدبر شيئا ممــا جــاءه، فحرمــه الله ألطافــه ولــم يرفــع عنه ما اكتسبه، وخلّاه لما اختاره لنفسه مــن الضــلال، ومــن يخذلــه الله فلــن تجــد لــه نصيرا يأخذ بيده ويساعده على الإيمان . ثم إن هــؤلاء ســيجمعهم الله يــوم القيامــة مــن جميع الأمكنة الذين هم فيهــا، ويــأتون ماشــين علــى وجــوههم، فجمــع الله لهــم بــين الإهانة وبين العذاب، إذ الرجل تتحمل من الأرض مــا لا يتحملــه الوجــه اللطيــف فــي تركيبه، وكون المحشور ساقطا منكبا على وجهــه مظهــر إهانــة. وقــد ســأل الصــحابة رسول الله ﷺ : كيف يمشون على وجــوههم ؟ فقــال: إن الــذي أمشــاهم علــى أقــدامهم قادر أن يمشيهم على وجــوههم. وأضــافت الآيــة إلــى الحشــر علــى الوجــوه ســلب أبصارهم فيحشــرون عميــا حيــارى لا يميــزون طــريقهم، ولا ينفســون عــن الامهــم بالنطق لأنهم بكم، ولا يتصلون بغيرهم لأنهــم صــم. فيكونــون فــي المحشــر مســلوبي الحواس، ثم يساقون إلى منزلهم المقدر لهم الذي كتــب لهــم الخلــود فيــه: جهــنم، هــي تضطرم نارا، كلما احترقت جلودهم فخمدت نــار جهــنم مــن وقــود الجلــود بــدلهم الله جلودا غيرها فتزداد تأججا واشتعالا.

98- ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا ...لمبعوثون خلقا جديدا.

يثبت القرآن العدل الإلهي الكامل، فــإن الــذين كفــروا بالأيــات الواضــحة واطرحوهــا، وقابلوا عناية الله بهم ببعــث الرســل إلــيهم وتأييــدهم بــالحجج والمعجــزات، بالإنكــار للحق ومواصلة الكفر، ثم نفوا نفيا قاطعا أن يحاسب الناس علــى مــا قــدموا ببعــثهم يــوم القيامة، مستبعدين ذلك بأنه لا يتصور أن تعود لهــم الحيــاة بعــد أن تحولــوا إلــى كتلــة من العظام أو إلى أجزاء دقيقة متنــاثرة . ممــا يفيــد حســب قصــورهم الفكــري عجــز الخالق على إعادة الخلق من جديد.

99- أولم يروا أن الله الذي خلق ...فأبى الظالمون إلا كفورا.

إن استبعادهم للبعث استبعادا بلغ درجة إنكارهم لــه قــد صــيرهم كحالــة النعامــة التــي تدس رأسها في التراب إذا أطبــق عليــه الصــيادون. عجيــب أمــرهم ألــم يقــنعهم مــا يوجبه النظر من أن الله خلق الســموات والأرض، وهــم لا ينســبون خلقهــا إلــى آلهــتهم

ويعترفون أنه من خلق الله .وخلق السماوات والأرض بعظم أحجامها ودقة قوانينه، وانتظام حركاتها انتظاما سائرا دون اختلال، إذا تأمل العقل في ذلك فإنه لا يستطيع أن يستبعد قدرة الله على أن يخلق عبادا مثلهم يحشرون إليه يوم القيامة . وكلمة مثلهم تحتمل أنها مخلوقات جديدة لا تختلف عنهم(صورة كالأصل) ويحتمل أن يخلقهم مما بقي من أجسامهم فيجمعها بأمره ويعيد لها الحياة، والأول أولى في نظري. لأن بقاء أجزاء لا تفنى بعيد في نظري سواء أكان عجب الذنب (أسفل عظم في العمود الفقري) أو غيره من الأجزاء .

هذا من ناحية، ودليل آخر لم يلحظوه من أنفسهم: أن الله جعل بتقديره لكل نفس أجلا لا تتعداه، وزمانا تنتهي فيه الحياة. وهذا أمر لا شك فيه، إذ أنه لا يعرف أحد متى يموت، فإذا كانت الحياة في ظاهر الأمر ملكا لصاحبها ولا يدري متى تسلب منه، أفلا يدل ذلك على أن المالك الحقيقي لها ليس صاحبها وإنما هو الله خالقها ؟ وإذا كانت مملوكة ومخلوقة له فلا ريب أن تكون طوع أمره فمتى أراد أن يعيدها للجسم أعادها إليه والبناء المادي هو أهون بالتقدير الإنساني من الروح.

ومع وضوح الدليلين وقوتهما في إثبات البعث، إلا أن المشركين رفضوا كل دليل وامتنعوا من قبول أي حقيقة إلا حقيقة واحدة وهي الكفر بالنعم لا الاعتراف بها ولا شكرها. وأقاموا على عبادة أصنامهم .

100-قل لو أنتم تملكون خزائن ...وكان الإنسان قتورا.

جواب جامع لما عرضه القرآن من وجوه عناد المشركين وإسقاط شبهاتهم واحتجاجاتهم، هو أن ما اقترحوه على رسوله كان نابعا من تصورهم الفاسد وما طبعوا عليه من خوف الفقر وحب الكنز فظنوا أن ما اقترحوه لا يمكن تحقيقه ويعجز الرسول لأن ما اقترحوه شيء كبير جدا . فالأنهار والجنات والبيت من الذهب المزخرف والاحتجاج بخلق السماوات والأرض وإمدادها بما تواصل به مسيرتها، كل ذلك مبني على ما طبعوا عليه من خوف الفقر، الخوف المتمكن من نفوسهم، حتى إنهم لو ملكوا خزائن الرحمة التي لا تنفد والتي في تواصلها من مبدأ الخليقة حتى وصلت إليهم، وسينال منها من بعدهم شاهد على سعة الرحمة الإلهية سعة لا يحيط بها الوصف ولا يحدها حتى الخيال . ومع ذلك فهم لو قدر لهم أن يملكوا خزائن الرحمة لأمسكوا عن العطاء، وخافوا من الإنفاق. فأين الإنسان المبني على الشح وخوف الفقر من سعة الرحمة الإلهية والفضل الذي لا تحده حدود. وإنه من طبع الإنسان أنه شحيح شديد البخل.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا (103) وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104) وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105)

بيان معاني الألفاظ :

البصائر : الحجج المفيدة للعلم.

المثبور : الذي أصابه الثبور وهو الهلاك .

يستفزهم : يستخفهم ويقلقهم.

اسكنوا الأرض : أرض الشام.

وعد الآخرة : يوم القيامة.

لفيفا : الجمع المختلط الذي لف بعضه ببعض.

بيان المعنى الإجمالي :

إن ما اقترحته قريش من المعجزات ليؤمنوا، لا يحقق إيمانهم .ذلك أن موسى ﷺ أوقف فرعون على تسع آيات، ومع ذلك كان جوابه : أنك يا موسى مسحور مختلط العقل . إن بني إسرائيل يعلمون ذلك، فاسألهم إن أردت . كان جواب موسى: إنك يا فرعون متيقن من أن الأيات التي شاهدتها لا يمكن أن تأتي إلا من رب السماوات والأرض لأنها آيات واضح صدقها وإعجازها، لكنك يا فرعون مُهْلَكٌ. فدفعه استكباره إلى التسلط على موسى وقومه، وأراد أن يقلقهم بإخراجهم من أرض مصر. فعاجله الله بالعقوبة وأغرقه مع جنوده، ونصر الله بني إسرائيل وأباح لهم سكنى أرض الشام، وأعلمهم بأنهم سيحاسبون على ما يفعلونه وسيأتي بهم جماعات لا يربط بينها نسب ولا قبيلة .

إن هذا القرآن الذي رفضه المشركون هو كتاب حق صدق لا باطل فيه ولا ريب ولاشك، هو منزل من عند الله. ومضامينه كلها حق تهدي إلى الصراط المستقيم، ولست بقاهر أحدا على الإيمان به، ولكنك تبشر به المؤمنين ليزدادوا طمأنينة وانشراحا، وتنذر به الكافرين حتى يكونوا على علم من مصائرهم الخاسرة.

بيان المعنى العام :

101 ـ102: ولقد آتينا موسى تسع آيات....وإني لأظنك يا فرعون مثبورا..

قصة موسى مع فرعون مواصلة للرد على المشركين بطريقة أخرى، حاصلها : أن الخوارق والآيات على كثرتها لا تنشئ الإيمان في القلوب التي استكبرت عن الحق، وأبت النظر فيها . وهذه هي السنة الماضية مع المرسلين في أقوامهم . فهذا موسى عليه السلام آتاه الله تسع آيات معجزات، ظاهرٌ أنها بتقدير الله لخروجها عن طوق البشر : 1 – بياضُ يده كلما أدخلها وأخرجها من جيبه -2-انقلاب العصا حية -3-الطوفان – 4- الجراد – 5- القمل – 6- الضفادع -7-الدم – 8-الرجز " الدمل "- 9- القحط .وقد تقدمت في سورة الأعراف . ونظمها الفيروزآبادي في قوله :

عصا، سنة، رجز، جراد، وقمل *** يد، ودم، بعد الضفادع، طوفان –

هذه المعجزات التسع قدم بعضها موسى دليلا علـى كونـه مرسـلا مـن عنـد الله، إلـى فرعون وملئه من أول الأمر. وبعضها أخبر به قبـل حصـوله ليرتـدعوا ويحـذروا مـن التكذيب بآيات الله، وحصلت. وهي من الأمور التـي مـا يـزال بنـو إسـرائيل يروونهـا متيقنين حصولها، فاسألهم إن أردت يخبروك بذلك . وفـي هـذا تعـريض بهـم، إذ أنهـم عملوا على غش أهل مكة لما سألوهم عـن نبـوة محمـد ﷺ، كتمـوهم الحقيقـة وعملـوا على الدس وتلقين الشبه والإمعان في التضليل.

إن تلكم الآيات التسع لم تهد فرعون، بل أمعـن فـي المكـابرة وقـال: إنـي لأظنـك يـا موسى رجلا قد أثر فيك السحرة فاختلت مداركك، وهذا مـا بـدا لـي فيـك بعـد التأمـل فيما جئتَ به. أجابه سيدنا موسـى عليه السلام: لقـد تيقنـت يـا فرعـون أن المعجـزات التـي شاهدتها يستحيل أن تكون من تأثير السحرة، إذ لا يقـدر عليهـا غيـر الله. والـذي دفعـك للقول: بأن تظـن أنـي مسـحور مغالطـة. إنهـا حجـج مفيـدة للعلـم اليقينـي أنزلهـا المتصرف في الكـون كلـه سـماواته وأرضـه، ولا تـدخل تحـت قـدرة مـن قـدرات المخلوقين .والذي أظنه أن الله سيهلكك، جزاء تضـليلك نفسـك واسـتكبارك عـن قبـول الحق النازل من الله . والظاهر أنه لم يجزم بأن الله سـيهلكه بنـاء علـى أنـه لـم يتلـق وحيا من الله بأنـه هالـك لامحالـة، ولكـن ظـن موسـى تبعـا لسـنن الله فـي الـذين يستكبرون عن هداية الله أنهـم آيلـون إلـى الـدمار . وفـي ذكـر هـذا وعيـد مـبطن للمشركين: أن سنة الله ستنفذ فيهم.

103 ـ104: فأراد أن يستفزهم من الأرض ....جئنا بكم لفيفا.

أفحم موسى عليه السلام فرعون، وزال ما كان في نفسه من حــذر مــن بطشــه، وواجهــه بأنــه مهلك. فاستشاط غضبا وعزم على إجلائهم مــن أرض مصـــر . وتــأتي النهايــة عاجلــة: أغرق الله فرعون وجنده الذين كان يتقوى بهم ولــم يبــق مــنهم أحــد. ثــم إنــه بعــد أن طهرت الأرض من المتمردين المستبدين الذين أخــافوا المــؤمنين، توجــه الخطــاب لهــم خطاب الأمن، كأنه تهنئة بالنصــر فقــال الله لهــم: امضــوا إلــى أرض الشــام واتخــذوا منها سكنا وإقامة. ولا تظنوا أن ما أنعمت به عليكم يعفـيكم مــن الحســاب يــوم القيامــة، إنا بعظمتنا نحضركم جماعات، لا تقوم بينها رابطــة نســب ولا قبليــة، وســيجزى كــل فرد بما قدم .

وإذا كانت قصة بني إسرائيل وقصة موسى مع فرعون تكــرر ذلــك فــي القــرآن، ولكــن الذي نلفت إليه الأنظار أن القرآن يصوغها فــي كــل مــرة حســبما يقتضــيه المقــام دون أن يكون بين مختلف طرق العرض أي تنــاقض. بحيــث تــؤدي القصــة الغــرض الــذي وردت من أجلــه . وذلــك مــن إعجــاز القــرآن . وفــي هــذه الســورة تهــدد القصــة المشركين الذين عزموا على إخــراج الرســول ومــن معــه مــن مكــة كمــا تقــدم فــي قوله:(أو يثبتوك) بأن مصيرهم سيكون كمصير فرعون وجنده.

105-وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ...إلا مبشرا ونذيرا.

ثم رجع الكلام إلــى القــرآن المنــوه بــه فــي الآيتــين 87/88- والــذي أتبــع بإنكــار المشركين الاقتناع به مؤيدا ومنا قشــتهم فــي ذلــك. فأثبتــت هــذه الآيــة شــدة ارتبــاط القرآن بالحق من ناحيتين : الأولى أنه أنزله ملتبســا بــالحق،هو والحــق شــيء واحــد، فلا شك فيه ولا ريب ولا مخالفة للواقع ؛ والثانية أن مضــامينه هــي الحــق الــذي ينفــع الناس في الدنيا والآخرة . وهذا القرآن الــذي أيــدك بــه لا يقهــر النــاس علــى اتباعــه، ولكنك تبشر من اتبعه باستقامة أمره فــي حياتــه وبحســن العاقبــة يــوم القيامــة، وتنــذر الذين رفضوه بالخسران المبين في الدارين .

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

مكث :متمهلا .

خروا : سقطوا سجدا، مع صوت هو التسبيح

وعد مفعول: وعد منجز .

بيان المعنى الإجمالي :

نزل القران ملتبسا بالحق، ونزله رب العزة مفرقا لا جملة واحدة لتتلو يا محمد آياته على الناس، لتقرأه مؤديا له حق الأداء في غير عجلة. وبعنايتنا نزلنا ه متتابعا.

والتفت القرآن إلى المشركين معرفا لهم حقيقـتهم بقولـه : سـواء آمنـتم بـالقرآن أو لـم تؤمنوا به، فإنكم جهلة لا وزن لكم، ولا يزيـد إيمـانكم القـرآن قـوة وصـدقا ولا يـنقص منه كفركم . وإن العلماء الذين تمكنوا من الكتـب السـابقة وتحقـق عنـدهم مـا وعـد الله به من بعثة محمد ﷺ ومعه القرآن، إنهـم إذا سـمعوا القـرآن امـتلأت نفوسـهم بهجـة فيخرون ساجدين مسبحين تفيض ألسنتهم بالتسبيح لله والحمد لـه علـى مـا أنعـم علـيهم، فبلغهم الوقت الـذي خـتم فيـه رسـالاته للعـالمين، وتفـيض عيـونهم بـدموع الفـرح. ويواصلون تلاوته والتأمل فيه فيتضاعف خشوعهم به.

بيان المعنى العام :

106- وقرآنا فرقناه....ونزلناه تنزيلا.

ومع إنزال القرآن كما جاء في الآية -105 - فرقنا القرآن فرقناه، بحكمتنا أنزلناه منجما، لم ننزله عليك مرة واحدة، فاستطاع المسلمون أن يألفوه شيئا فشيئا، وأن يسيروا معه وأن يسير معهم في حياتهم، وأن يحولهم من الوضع الجاهلي الذي كانوا عليه، إلى وضع جديد في غير إرهاق، بنى صرحه العقدي والتشريعي والتهذيبي موزعا على السنوات التي قضاها ﷺ والتي سيقضيها بعد نزول الآية . فكان وعيهم له ميسرا، ومن ناحية أخرى لتقرأه عليهم وهم آخذون عنك طريقة أدائه، فتقرأه متمهلا بدون عجلة على النحو الذي ينبغي أن يتلى به، كما جاء في قوله تعالى: (كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا)[1] وبذلك يثبت في قلوبهم ويرسخ في حافظتهم. وكان تنزيله على ذلكم النحو بعنايتنا فنزلناه متتابعا.

---

[1] سورة الفرقان آية32

107 – 109، قل آمنوا به أو لا تؤمنوا...ويزيدهم خشوعا.

تتابعت الآيات تقيم الحجة على المشركين بصدق الرسالة، ومزايا القرآن، وأنه منزل من عند الله، وأنه والحق شيء واحد، وأن تفريقه هو الحكمة إلى آخر ما فصّل. بعد ذلك تخاطب هذه الآية الثابتين على الشرك : إن كفركم لا يؤثر في انتصار الإسلام ولا يُوهِنُ من أمر رسالته شيئا، فسواء آمنتم أو لم تؤمنوا لا يضرك يا محمد ولا يضر الدعوة، وإنما ضرره على أنفسكم أيها المشركون . وماهي منزلتكم الفكرية إن هي إلا منزلة تافهة بالنسبة للذين أسرعوا للإيمان بالإسلام من الذين كان حظهم من العلم موفورا، بل إنهم آمنوا به بناء على ما وجدوه في كتبهم، وما بشر به من قبل موسى وعيسى. والآية على الصورة التي عرضت بها يفهم منها تعريض بالمشركين بأنهم جهلة.

لقد غمر القرآن هذه الصفوة من العلماء بقداسته، ونفذ إلى أرواحهم فعظم شوقها إلى باريها، واهتزوا استبشارا بحضورهم مشهد بعثته، فخروا لله سجدا تعطرت ألسنتهم بتسبيحه مثنين على فضله الذي تم ببعثة النبي ﷺ، لتمتد الهداية الإلهية للعالمين. وابتهلوا معلنين ما استقر في نفوسهم: إن وعد الله لا يخلف تحقق فعلا. وقد اشتد إحساسهم بالبهجة ففاضت عيونهم بدموع الفرح والرضا. وفي التعبير بالخرور الذي أصله السقوط ما يشير إلى اندفاعهم للسجود اندفاعا كان متنفسا طبيعيا عندما يكون المؤثر بالغا من القوة مستوى رفيعا متساميا. وكذلك قوله للأذقان فالأذقان لا تمس الأرض، ولكنه تجسيم لذلكم الاندفاع من المشاعر الباطنية الجياشة . وهم إلى جانب ذلك وجدوا في القرآن النهر المتدفق فعكفوا عليه، ليضاعف خشوعهم لله، إذ هو كلام ربهم الذي تطمئن به القلوب وتخشع. يدل على هذا قوله تعالى ويزيدهم خشوعا، دون وزادهم خشوعا بل مستمر دفقه.

بإجماع العلماء يسن السجود عند تلاوة قوله تعالى: ويزيدهم خشوعا – لينتظم المؤمنون في مظهر واحد، مظهر السجود لله. وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الجهر : رفع الصوت بالكلام .

المخافتة : الإسرار

ولي : نصير

بيان المعنى الإجمالي :

هو الله الواحد له الأسماء الحسنى الدالة على الكمـال والجـلال، فـادعوه بـأي اسـم مـن أسمائه التي آذن في ندائه بها. وخذ مستوى وسـطا بـين الجهـر وخفـض الصـوت فـي صلاتك، إذ الإسلام يقيم المسـلمين علـى التوسـط . وقـل الحمـد لله، الـذي تعـالى أن يلحقه نقص، لم يكن له ولد كما يزعم النصارى، ولـم يكـن لـه شـريك يصـرف معـه أي شيء من أمر الكون، وليس له نصـير يـدافع عنـه ويرفـع عنـه الـذل والحاجـة، واعتقد أنه أكبر من كل شيء. وكبره تكبيرا كثيرا.

بيان المعنى العام :

110-قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ...بين ذلك سبيلا.

قل لأمتك إن الله تميز بأسمائه الحسـنى التـي كنـا بيناهـا فـي سـورة الأعـراف آيـة 180- والتي يجب الاقتصار على ما ورد منها، فإذا تحـدثتم عـن ذاتـه العليـة، فسـواء سميتموه في كلامكم (الله) أو سـميتموه (الـرحمن) فالكـل سـواء، لأنهمـا مـن أسـمائه الدالة على الكمال والجلال. ومعظم المفسرين رأوا أن موقـع هـذه الآيـة هنـا سـببه :أن نزولها كان عقب نزول الآية السابقة . إذ كان النبي ﷺ يتهجـد حـول الكعبـة وذكـر فـي سجوده : " يا الله "يا رحمن " فسمعه أبو جهـل وقـال : إن محمـدا يـدعو إلـى التوحيـد وها هو يدعو إلهين. فنزلت الآية.

والذي وقع في قلبي :أن هذه الآية مرتبطة بفاتحة السورة التي ورد فيها أن الله أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأراه من عظيم آياته مالم يبلغه أحد من رسله الأكرمين في حياتهم، فقد امتزج في المشهد آيات عظمة الله، واسم الجلال والعظمة هو" الله". ثم أنعم عليه بمظاهر التكريم فقدمه للصلاة بالأنبياء، وبلغه مدى لم يبلغه أحد من العالمين، وهذا أوسع مظهر من مظاهر الرحمة، والا سم الدال على هذه الصفة " الرحمن" فكان خاتمة السورة: قل ادعوا الله أو الرحمن .

واصلت الآية بالتوجيه إلى المسـتوى الصـوتي فـي الصـلاة، والإسـلام مبنـي علـى التوسط، فقال تعالى: **ولا تجهـر بصـلاتك،** لا ترفـع صـوتك كثيـرا فـي قراءتـك، ولا تخفضه خفضا لا يسمع، بين الرفع والخفـض اتخـذ طريقـك، وبهـذا تتمـتع المـؤمنين

الذين معك قراءتك، ولا يصل صوتك للمشركين الذين يتخذون كلام الله هزوا . روي أن أبابكر رضي الله عنه كان يخافت بقراءته فسئل لما ذا؟ فقال: أناجي ربي، وهو يعلم حاجتي . وكان عمر يجهر فسئل لماذا؟ فقال: أنا أطْرُدُ الشيطان، وأوقظ الوسنان(من أخذه النعاس). فلما نزلت الآية قيل لأبي بكر: ارفع صوتك قليلا، وقيل لعمر: اخفض أنت قليلا. والمناسبة متصلة بأول السورة أيضا إذ أن الصلاة فرضت ليلة الإسراء.

111- وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا....وكبره تكبيرا.

تكرر الأمر بالقول في هذه السورة واحدا وعشرين مرة. والأمر بالقول، مع أنه من المعلوم أن النبي ﷺ مكلف بالتبليغ وإعلام الناس بما ينزل عليه من الله، يدل على شدة الاهتمام بما تبع " قل " وختمت السورة بكلمة " قل" فما هو هذا الأمر المهم الذي ختمت به الآية وأكد عليه بالأمر ؟ هذا الأمر هوما تجيش به النفس فتمتلئ بالمعاني التي كثيرا ما يعجز اللسان عن التعبير عنها، فلا يبلغ المستوى المؤدي للمضمون. فأسعد الله المسلمين بتوفيقهم إلى تعبير يزيد تلكم المعاني وضوحا ونورا ويثبتها في النفوس. ويتضمن أمورا :

الحمد لله : الثناء على الله المنزل للقرآن، والباعث للرسل، والذي ختمها برسالة محمد ﷺ وأنزل معه القرآن، الذي نوهت به السورة أيما تنويه، والمفيض للألطاف التي بها يتم الاهتداء إلى الصراط المستقيم، زيادة على النعم الدنيوية التي لا نحصي لها عدا .

التنزيه عما سوغه الخيال من إلحاق النقائص به سبحانه مما يظن معه أصحابه أنهم يمجدونه به ، كإثبات الولد عند النصارى الذين يقدسون ولده مبالغة في تقديسه، أو إثبات شركاء له يكونون هم الوسطاء بينه وبين عباده باعتبار أن الإنسان الملوث بالآثام غير مؤهل للاتصال المباشر به، وكتقسيم الآلهة حوله، يختص كل واحد منهم بناحية من النواحي كإله النور وإله الظلمة ونحو ذلك من التخيلات الفاسدة، أو ما جنح به الخيال المريض: أن لله أولياء يمنعونه من أن تتسلط عليه قوة ليبقى على عزته بهم، كالملك الذي يحمي ملكه بالجيش وقادته. وهؤلاء أحط المفكرين في الله، إذ تفكيرهم يؤدي إلى أن الله ذليل غير عزيز بذاته، وإنما يكتسب عزته من حماته، فلذلك قرنت الآية قولهم بلازمه : ولي من الذل .

واعتقدْ وانطقْ واملأ نفسك بعظمة الله التي تتظلل بها، وترى آثارها في كل ما يدخل تحت حواسك في هذا الكون المترامي. فإذا شاهدت جمالا متميزا يخلب

نظرك فقل : الله أكبر، وإذا نظرت في الســماوات ونظامهـــا فقــل: الله أكبـــر، وإذا كنـــت عالما فانكشفت لك عجائب الخلق فـــي كبيـــرة أو صـــغيرة فقــل: الله أكبـــر. وإذا كنـــت في ساحة الجهاد فقل الله أكبر من كل القوى التـــي يتقــوى بهـــا عـــدوك، والـــزم التكبيـــر هكذا كلما أردت أن تتقوى في جميع المشاهد فبـــالتكبير يطـــرد الضـــعف. وكبـــره تكبيـــرا يليق بعظمته وكماله وجلاله.

اللهم لك الحمد كما يرضيك وكما يليق بفضلك وجلالـــك، والله أكبـــر كبيـــرا والشـــكر لـــك على ما يسرت -

فقد أتممت ليلة الجمعة بعد صلاة العشاء بيان ما فتحته علـــي فـــي فهـــم ســـورة الإســـراء 5 ربيع الأنور 1433-2012/1/27.

سورة الكهف

الاسم المشهور لهذه السورة **سورة الكهف** وهكذا كتبت في المصاحف وهذا الاسم هو المطابق لما أخرجه البخاري ومسلم والترمذي. وعند ابن مردويه "سورة أصحاب الكهف" وهي السورة الثامنة عشرة حسب ترتيب المصحف، وحسب ترتيب النزول السورة الثامنة والستون نزلت بعد الغاشية وقبل الشورى عند جابر بن زيد. وعند البقاعي بعد الغاشية وقبل النحل. وهي من السور المكية واستثنى بعضهم آيات منها نزلت بالمدينة.

ورد في فضلها أحاديث كثيرة. عن أنس بن مالك رضي الله عنه: من قرأ بها أعطي نورا بين السماء والأرض، ووقي بها فتنة القبر. وعن إسحق بن عبد الله بن أبي فروة، إن رسول الله ﷺ قال : "ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك ملأ عظمها ما بين السماء والأرض لتاليها من الأجر مثل ذلك " قالوا : بلى يا رسول الله. قال : سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى، وزيادة ثلاثة أيام وأعطي نورا يبلغ السماء، ووقي فتنة الدجال[1].

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكتاب : القرآن

---

[1] الجامع لأحكام القرآن ج10ص346

عوج : عدم استقامة.

قيم : صفة مبالغة من القيام. بمعنى موالاة التعهد والتوجيه.

ماكثين : مستقرين فيه.

كبرت : تعجب من عظم شناعتها.

كلمة: مقالتهم: اتخذ الله ولدا.

باخع : قاتل.

الأثر : ما يبقى بعد ذهاب صاحبه.

الحديث : القرآن.

أسفا: حزنا.

صعيدا: التراب.

جرزا: قاحلا أجرد.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بالثناء على الله، فله الحمد الكامل، توالت نعمه، وأجلها نعمة إنزال القرآن على قلب سيدنا محمد الذي بلّغه للعالمين. إنه الكتاب الهادي إلى الطريق المستقيم فالمهتدي به لا ينحرف عن الحق. وهو الكتاب الذي يكون مع الإنسان في جميع ما يعرض له، فيساعده على الفوز في الدارين. إنه يقيم الإنسان بين قطبين: قطب الخوف من الضلال بإنذاره العذاب الذي يوقعه الله فلا مفر منه، وبين قطب فتح الأمال بالبشارة بالنسبة لمن جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة، وأن الله سيجازيهم بالأجر الحسن الذي لا سوء معه، الأجر الممتد إلى أبد الأبدين يحيط بهم من جميع الجوانب الروحية والجسدية. وينذر الذين قالوا : إن الله اتخذ ولدا، من مشركي مكة وكذلك من اليهود والنصارى. ما أشنعه من قول اختلقوه، وهو صادر عن جهل منهم ومن آبائهم، إن مقالاتهم عن الله أو عن الرسول، أوفي القرآن، أو في الدين الإسلامي أقوال كلها كذب وافتراء. هوّن على نفسك يا محمد ولا تحزن من إصرارهم على الكفر، أبْق على قواك لتواصل الدعوة إلى الله. إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ليقبلوا عليها ويعملوا فيها، ونحن نختبرهم بذلك ليظهر المحسن من المفسد وسينتهي الكون وما فيه من جمال، وينقلب ترابا لا حركة فيه ولا حياة، ثم يوقفون جميعا لمحاسبتهم على عملهم. فلا تحزن عليهم هي سنة الله ماضية فيهم.

بيان المعنى العام :

1—3، الحمد لله الذي أنزل على عبده...ماكثين فيه أبدا.

ترتبط فاتحة السورة بخاتمة سورة الإسراء (وقل الحمد لله) وتُذكّرُ من البداية بالتصور والتطبيق الذي يجب أن يعمر نفس المؤمن ويعيش به ومعه: الثناء على الله بما أنعم. وأفضل نعمه وأجلها وأبلغها أثرا في حياته القرآن المنوه به قريبا في الآيات -88/89/106/107/108- من سورة الإسراء. ولذا ربطت الآية بين حمد الله وبين أخص موجبات الحمد: إنزال القرآن على رسوله الذي شرفه بنسبته إليه عبدا. ومقام العبودية يشْعُرُ بفضله المقربون من خلقه. قال تعالى: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون)[1] ثم إن هذا القرآن يختص بمزايا :

أولا: أنه الهادي إلى الصراط المستقيم، فلن تجد في هدايته انحرافا، فالملتزم لهداه يتضح له مساره، الآمن والواضح بدون منعطفات، في حياته الدنيا والآخرة "ولم يجعل له عوجا".

ثانيا: أنه يصحب البشر موقظا لهم، مما يجعله واقفا عليهم يحفظهم من الزلل والحيرة والشبهات. ويشجعهم على الاستقامة، ويردعهم عن اتباع سبل الضلال والفساد. "قيما"

ثالثا: أنه يزيل سجوف الغفلة عن مآلهم المحجوب عنهم في الحال، الذي هو حلول العذاب بهم في الدنيا بتسليط جند الإيمان عليهم يهزمونهم ويقيمون عليهم حدود الله، والعذاب الأخروي إذا هم لم يؤمنوا ويستقيموا. إنه عذاب شديد لا يقدرونه حق قدره الآن ولا يستطيعون له ردا، لأنه من لدن الله ذي البطش الشديد.

رابعا: أنه يبشر. والبشارة هي للذين جمعوا بين الإيمان الصحيح والقيام بالأعمال الصالحة، وبم يبشّرهم ؟ يبشرهم بأن الله قد كتب لهم أجرا وثوابا لا نقص فيه ولا خلل يبهج النفس لحسنه وكماله، مع خلودهم فيه يحيط بهم من جميع الجوانب. عبر القرآن عن هذه الإحاطة التي تشمل النعيم المعنوي والنعيم الجسمي بقوله ماكثين فيه.

4—5، وينذر الذين قالوا اتخذ الله...إن يقولون إلا كذبا.

عود لتفصيل أحد موجبات الإنذار بالعذاب " لينذر بأسا شديدا من لدنه" وهو في الآن نفسه مرتبط بالآية التي ختمت بها سورة الإسراء " الذي لم يتخذ ولدا" تصرح الآية بأن من أقبح ما صدر عن المنذرين ادعاؤهم أن الله قد اتخذ ولدا. لما جمع هذا القول من ضروب النقص، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. والذين قالوا اتخذ الله

---
[1] سورة النساء آية 172

ولذا معظمهم عند نـزول الآيــة مشــركو مكــة، وتشــمل مــا سـيقوله النصــارى عنـد مواجهتهم بالدعوة إلى الإســلام، وكــذلك اليهــود، لأن القــرآن لا تقتصــر دلالتــه علــى الواقع عند نزوله، بل تمتد لما يصلح له الــنص إلــى أبــد الآبــدين. ثــم يبطــل القــرآن قولهم المنكر هذا، وأنه اختلاق لا أساس له. إن مقــالتهم تلــك كانــت رشــح جهلهــم. إن ما نسبوه إلى الله من الولد منفي لا أصل لــه، ومــا عنــدهم ولا عنــد آبــائهم مــن دليــل قريب ولا بعيد عنه.

عظم قبح هذه المقالة وما أشنعها، تحركت فــي لهــواتهم دون أن تســتند إلــى شــبهة ولا إلى فكر، ثم أخرجوهــا مــن أفــواههم. إنهــم فــارغون لا يؤمنــون بقــيم ولا يراقبــون ألسنتهم، فلا يقولون إلا أقوالا لا أصل لها، كاذبة، ســواء فيمــا صــوروا بــه الخــالق، أو فيما يرمون به الرسول ﷺ ، أو فيما يروجونه عن الإسلام.

6-فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا.

تحذير للرسول من أن شدة حزنه وغمه من إعراض قومــه عــن الإيمــان قــد يصــل بــه ذلك إلى درجة الهلاك. فهو ينظر إليهم وقــد تولــوا عنــه، تشــهد آثــارهم الدالــة علــى عصيانهم وإعراضهم، فيتجدد أســاه لــذلك. لقــد كــان ﷺ محبــا للنــاس حريصــا أشــد الحرص على هدايتهم، كل همه أن يحولهم من الجاهلية العمياء إلى نور الإسلام.

7—8:إنا جعلنا ما على الأرض زينة...صعيدا جرزا.

تفيد الآية لفت الأنظار إلى ما جعله الله علــى ســطح الأرض مــن كائنــات تشــكل فيمــا بينها صورة جميلة للكون، يظهــر ذلــك بالمقارنــة بــين ســطح الأرض علــى مــا هــو عليه، وبينما لو كان أجرد لا نبات فيــه ولا حيــوان. إنــه فــي الصــورة الأولــى حــي أنيس تتكون من مجموعه صورة تستهوي الإنسان، فينفعــل معهــا. وهــو فــي الصــورة المفترضة الثانية يمثل الموت والوحشة، ينفر منها ويبتعد عنها.

فإذن الصورة الأولى تغريه بالتأثير فيها، ويعمل فعلا. ولكــن المهــم لــيس العمــل كيفمــا كان، ولكنه العمل الذي يؤديــه علــى الصــورة الحســنة الكاملــة. وهــذا الأداء المعتبــر حسنا عند الله هو الأداء الذي يجمع بين تقدير الإنسان أنــه محاســب علــى مــا اســتخلف فيه، من ناحيتين:

1) ربط ما يعمل فيه بمبدعه فيشكره على ما يسر له العمــل فيــه مــن أجــزاء الكــون، ويتجنب الإسراف والفساد.

2) الالتزام بقيم خلقية في الانجاز مــن التجويــد والصــدق وعــدم الغــش، والإخــلاص ونحو ذلك.

يقول ابن عطية: أن والده رحمه الله كان يقول: أحسن العمل: أخذ بحق مع الإيمان، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم، والإكثار من المندوب إليه.

وقد يظن الإنسان أن تأثيره في الكون هو تأثير باق مستمر إلى أبد الآبدين. وهذا غرور وخطأ كبير، فإن كل ما على الأرض وما عمل فيه الإنسان سينتهي إلى عدم، يزول كل شيء فلا النبات ولا المباني ولا الحيوانات بباقية. إذ قدر الله أن يتحول سطح الأرض إلى تراب لا يعمره شيء خال من كل حركة حياة.

وقبل أن أنتقل إلى الآية التالية فإن سؤالا يثور، ما صلة هذه الآية بسابقتها؟ أجد في نفسي صعوبة للإجابة عن ذلك، لم يكشفها من سبق من المفسرين كشفا مقنعا. وقد أشار الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور إلى ذلك. وإن كان تحليله وما تضمنه من معان نفيسة جدير بالاهتمام، فإن الربط لم يتبين لي بعد التأمل في كلامه. ولعل ما انقدح في ذهني بعد التأمل هو أن النبي ﷺ كان متأثرا أشد التأثر لعدم إيمان قومه، وأن ظاهر الآية السابقة تسلية له ﷺ. وهذه الآية تؤكد تلكم التسلية : هذه هي السنة التي يسير عليها الكون، فقد جعلنا ما يحويه الكون زينة يتسابق الناس للنيل منها. ولكن القيمة هي كون العمل حسنا أو سيئا. ولا يخرج قومك عن هذا القانون. فنحن أنزلنا عليك الهدى كما جعلنا ما على الأرض زينة لها، والناس بين مقبل على هدايتك، وبين معرض عنها، كشأنهم في زينة الحياة الدنيا بين محسن ومفسد. وأن الفناء سيلحقهم جميعا وتظهر النتيجة السارة لمن أحسن عملا والخيبة لمن أفسد. فلا تحزن عليهم.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكهف : الغار الواسع في الجبل.

الرقيم : كتاب كان مع أصحاب الكهف.

أوى الفتية إلى الكهف : اتخذوه مسكنا.

أمرنا :حالنا.

الرشد : الخير.

ضربنا على آذانهم : جعل آذانهم لا تسمع الأصوات.

بعثناهم :أيقظناهم يقظة المفزوع.

الحزب : الجماعة الذين توافقوا على شيء واحد.

أحصى : أدق في تقدير الزمن.

نقص : نسرد عليك خبرهم مجموعا، لا مفرقا.

النبأ : الخبر المهم.

زدناهم هدى : قوينا الهدى فيهم.

ربطنا على قلوبهم : ثبتناهم ثباتا لا تردد فيه.

الشطط : الإفراط في مخالفة الصواب.

سلطان بين : حجة واضحة.

بيان المعنى الإجمالي :

إيذان من أول الآية بالانتقال من الغرض السابق لكلمة "أم" لتنبيه السامع كي يستعد لما يلقى إليه. أحسبت أيها المتعجب من قصة أصحاب الكهف والوثيقة الضابطة لشرعهم، أنه أمر عجب حق ؟ إن ما يجري في الكون من التصرف الإلهي لا يعد معه أمر هذه القصة مستغربا. استمع إلى ما تم في هذه الأمر: ذهب شبان أصحاب قوة ورأي وخلق ودين إلى كهف في الجبل واتخذوه مسكنا يأوون إليه، فرارا من فتنة التسلط الغاشم على الإيمان. توجهوا إلى الله أن يؤتيهم رحمة خاصة من عنده وأن ييسر لهم أسباب الخير في إقامتهم تلك. تقبل الله خالص دعائهم وسلب منهم اليقظة فناموا نوما عميقا قُطعت فيه مداركهم عن الإحساس بالأصوات. ثم إنه بعد المدة المقدرة بعثهم من نومهم فزعين، وسيترتب على ما تم اختلاف الناس في المدة التي قضوها نائمين فمنهم مصيب ومنهم مخطئ، والله يعلم، بمجرد إخبار كل فريق عن وجهة نظره المصيب الذي كان أضبط إحصاء.

أخذ الله بعزته وجلاله يسرد في قرآنه القصــة الحقيقيــة لأهـل الكهـف فقـال : إن أهـل الكهف فتية أقوياء نبلاء على خلـق رفيـع، آمنـوا بـربهم إيمانـا صـحيحا وتفضـل الله عليهم فزادهم إلى إيمانهم توفيقا في الـرأي والعمـل. يظهـر ذلـك عنـدما أعلنـوا فـي شجاعة بعد أن قـوّى الله عـزائمهم وثبّـتهم، ربُّنـا هـو رب السـماوات والأرض، لـن ننادي ولن نتوسل ولن نطلب أحدا غيره، إننـا تـدرك مقـدار الخطـأ البـين والمناقضـة للصواب لدعوة غيره إلها.

ثم التفتوا إلى قـومهم منفصـلين عـنهم مشـيرين إلـيهم بقـولهم هـؤلاء قومنـا جعلـوا لأنفسهم آلهة لا تمت إلى الله بصلة. عجب أمرهم! إنـه لـم يسـتندوا فـي دعـواهم إلـى حجة واضحة ، بل كلامهم مخالف للواقع فهم كذبـة، وإنـه لا يوجـد ظلـم أقـبح ممـن يفتري الكذب على الله.

بيان المعنى العام :

9-أم حسبت أن أصحاب الكهف...من آياتنا عجبا.

افتتحت الآية بلفظ " أم "وهـي كلمـة يـؤتى بهـا للإضـراب أي الانتقـال عـن الكـلام السابق إلى غرض جديد. وتُعدُّ السـامع لمـا يـرد عليـه بعـدها، بإيقاظـه إلـى أن مـا سيذكر أمر هام. وذلك يحتمل أحد أمرين :

الاحتمال الأول: الاستغراب من بحث الناس في لهفة عـن خبـر أهـل الكهـف واعتبـاره أمرا عجبا، مع أن ما يشاهدونه في الحياة ويتكرر علـى أنظـارهم أشـد إثـارة للتعجـب. ذلك أن أصحاب الكهف استصحبوا الحياة التي كانت فـيهم زمنـا طـويلا، أي إنهـم بقـوا أحياء مدة طويلة، ومن القواعد المسـلمة : الأصـل بقـاء مـا كـان علـى مـا كـان، إذ الاستمرار لا يقتضي سببا جديدا يحـدث أثـرهُ، بينمـا الانتقـال يبحـث لـه عـن سـبب مؤثر. فاشتغال الناس بخبر أصحاب الكهف هو غفلـة عجيبـة مـنهم عمـا هـو أمـامهم من الآيات البينات عن قدرة الله بتصرفه في الكـون بحكمتـه، وخاصـة بالهـدم والبنـاء. فيكون معنى الآية: أحسبت، المخاطب به كل مـن يصـح أن يتوجـه لـه الخطـاب، أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا آية عجيبة من آياتنا. ففي الكون آيات أعجب.

الاحتمال الثاني: السؤال عن علمه بأن أصـحاب الكهـف والـرقيم كـانوا أمـرا عجبـا، أي إثبات أن أمرهم عجب. فيتهيأ لمتابعة خبرهم.

وأصحاب الكهف الذين لزموا الكهـف (المغـارة الواسـعة فـي الجبـل) زمنـا طـويلا، وكان معهم رقيم. قيل في معنى الرقيم أنه من الـرقم، أي الكتابـة، إثبـات مرقـوم عليـه أصول دينهم، أو الشرع الذي تمسكوا بـه، أو أسـماؤهم وتـاريخ اختفـائهم. وقيـل هـو

اسم مكان الجبل الذي كان فيه الكهف أو البلـد المجـاور إلـخ كمـا قيـل إن الـرقم كـان على لوح أو على لوحين من رصاص أو من حجـر. وكـل هـذه الاحتمـالات تصـورات ليس عليها دليل ظني فضلا عن كونـه يقينيـا. وتدقيقـه لا يزيـد العبـرة وضـوحا، ولا ينقص منها. فلنعتمد أنهم لجأوا إلى مغارة في جبل تحجـبهم عـن أعـين النـاس، وأنهـم كانوا يصحبون كتابا، مدونٌ فيه ما وصلهم من الحـق ليكـون مرجعـا لهـم يتدارسـونه. وكذلك هم جماعة من الأمم السالفة، قـد يكونـون نصـارى، وقـد يكونـون مـن أتبـاع الديانات السابقة الذين فروا من العسف ورضوا بالعزلة ليثبّتـوا علـى إيمـانهم فـي وقـت عمت فيه فتنة المؤمنين. ثم إنه لمـا جـرى فـي بعـض الأعـراف دفـن المـوتى فـي الكهوف، واشتهرت قصة أصحاب الكهف، أخـذ كثيـر مـن النـاس فـي مختلـف بقـاع الأرض ينسبون ما يعثرون عليه إلى هـؤلاء الفتيـة. فقـد رأيـت مغـارة فـي الأردن يجزم الناس هناك بأنها لأصحاب الكهف، ويقـول الشـيخ محمد الطـاهر ابـن عاشـور : يوجد مكان بضاحية سكرة قرب ضـاحية المرسـى كهـوف صـناعية حقـق لـه بعـض علماء الآثار من الرهبان النصارى بتونس: أنهـا كانـت مخـابئ لليهـود يختفـون فيهـا من اضطهاد الرومان القرطاجنيين[1] وكثرت ادعـاءات مكـان معـين لهـم مـن الأنـدلس إلى مملكة الروم الشرقية.

10-إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا....من أمرنا رشدا.

أخذ القرآن في ذكر قصة أصـحاب الكهـف، فافتتحهـا بقولـه: اذكـر إذ قصـد الفتيـة، عبر عنهم بالفتية، إشارة إلى أنه قـد اكتملـت فـيهم صـفات الرجولـة مـن قـوة البنيـة وصلاح التفكير، ونبل الأخلاق. وسجل أول ما سـجل مـا يعبـر عـن صـفاء عقيـدتهم وحسن توكلهم على الله فقالوا : ربنا مكّنا من رحمة خاصـة عظيمـة تناسـب مـا هـديتنا إليه من التمسك بدينك، وقدّر لنا الأحوال التي نكـون فيهـا آمنـين علـى ديننـا تتيسـر لنا الأسباب لتكون حياتنا حياة مطمئنـة، مـوفقين للحـق. يقـول ابـن عطيـة : وينبغـي لكل مؤمن أن يجعل دعاءه في أمر دنياه هذه الآية فقط، فإنها كافية.

11- فضربنا على آذانهم....سنين عددا.

تقبل الله دعاءهم، فأعقبه بتقدير ما يحقـق مـا طلبـوه مـن فضـله، بتـدبير حكـيم منـه سبحانه. وأول شـيء أن الله غطـى علـى حواسـهم بنـوم ثقيـل فصـل بيـنهم وبـين الأصـوات. وعبـر عنـه بالضـرب علـى الآذان بـالنظر إلـى أن الإنسـان توقظـه

---

[1] التحرير ج 15 ص264/265

الأصوات وينام عندما لا تبلغه المسموعات. واستمر وضعهم على هذا النحو مستغرقين في النوم سنين كثيرة ومعدودة ستتكشف عند قيامهم من نومهم.

12- ثم بعثناهم لنعلم....لما لبثوا أمدا.

وبعد مدة طالت أيقظهم الله فزعين، شأن النائم الذي أفاق بعد أن طال نومه، وهنا يأخذ الناس في تقدير زمن نومهم وانقطاعهم عن الناس في كهفهم، ويختلفون ففريق على صواب في تقديره، وفريق بعيد عن الصواب، مما يدل على شدة اهتمام الناس بأمرهم، و قوة عنايتهم بتقدير الزمن الذي قضوه في كهفهم منقطعين عما تضطرب به حياة مدينتهم. ليظهر في الوجود أي الفريقين المختلفين كان أشد إحصاء، وأضبط للتقدير الصحيح، وكل ما يقع في الكون يعلمه الله في الأزل، كما يعلمه علما واقعيا عند حدوثه.

13-نحن نقص عليك نبأهم بالحق...وزدناهم هدى.

الخبر من الله الذي لا يغيب عن علمه صغيرة ولا كبيرة، وكل علم سوى علمه منقوص. فابتدأت الآية بكلمة " نحن " المفيدة لعظمة المتكلم، فاستمعوا للحق الذي تولينا تعريفكم به في قصة أهل الكهف. إن الجامع للحديث عنهم: أنهم فتية تحقق منهم الإيمان الواضح النقي بأنهم مرتبطون بربهم الذي تولاهم وأسعدهم بعونه " بربهم" وتفضلنا عليهم فأضفنا إلى إيمانهم توفيقا للرأي السديد والعمل الصالح.

14- وربطنا على قلوبهم إذ قاموا...لقد قلنا إذا شططا.

وثبتناهم ثباتا عصمهم من الشك والتردد، فنزعنا منهم الخوف وقوينا قلوبهم على الجهر بالحق. يبدو هذا التثبيت والتأييد والقوة في الموقف الشجاع الذي وقفوه، فقالوا: ربنا الذي نعبده ونطيعه ونتقرب إليه: هو رب السماوات والأرض، هو رب الكون كله. نحن ثابتون على هذه العقيدة إلى أبد الآبدين، لن نحيد عنها، ولن ننادي ولن نتقرب ولن نتوسل إلى أحد غيره. إننا ندرك ما نقول إدراكا بينا واضحا، لو خرجنا عن ذلك لكنا أفرطنا في القول الخطأ المخالف للحق والصواب.

15-هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة...ممن افترى على الله كذبا.

أشاروا لقومهم مستحضرين لهم باسم الإشارة "هؤلاء" لإظهار الفرق بينهم، اتخذوا بخيالاتهم آلهة من دون الله، أي أصناما لا رابطة بينها وبين الله. يقولون ما لهم انحرفوا إلى هذا الحد، إنه ليس لهم أي دليل من العقل، العقل الذي به البرهان والحجة. وانتفاء البرهان العقلي لا يبقى معه إلا أن إعطاء هذه الآلهة صفة الألوهية

أمر مخالف للواقع كما هو مخالف للمعقول. وإن أشـد النـاس ظلمـا للحـق مـن افتـرى كذبا على الله.

وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الاعتزال : التباعد عن الشيء.

ينشر لكم من رحمته : يشملكم برحمته.

مرفق : ما ينتفع به.

تزاور : تميل.

تقرضهم : تنصرف عنهم.

الفجوة : المتسع داخل الكهف.

المرشد : من يبين للحيران الطريق الذي يرفع حيرته.

الوصيد : العتبة عند مدخل الكهف.

اطلعت : وقع بصرك عليهم وأنت تشرف عليهم من مكان مرتفع.

ملئت رعبا: عمر مشاعرك الرعب والخوف.

بيان المعنى الإجمالي :

لما قررنا أن ننفصل عن قومنا وعما يعبدونه مـن دون الله، فلنـذهب إلـى الكهـف نعبـد الله فيه ونقيم شرعه، وربنا كريم سـيعمنا برحمتـه، وييسـر لنـا الأسـباب التـي تكـون حياتنا معها رضية ناجحة.

يصفهم القرآن وهم في الكهف كأنك تراهم، ووضـع بـاب الكهـف مـن الشـمس وضـع متميز يتقبل النور والدفء والتطهير، دون أن تـنعكس أشـعة الشـمس علـى أجسـامهم، تميل عنهم إلى جهة اليمين عند طلوعها وإلى جهـة الشـمال عنـد غروبهـا. هـو وضـع من آيات الله. لقد هـداهم لاختيـار هـذا الكهـف كمـا هـداهم إلـى العقيـدة الصـالحة

والتوفيق في الأعمال، فهم المهتدون. ومن لم يعنه الله بهدايتــه فهــو ضــال لا يجــد مــن يبين له طريق الهدى والرشد.

إنك تظنهم إذا رأيتهم من علو أنهم غير نائمين، والواقع أن النوم استولى عليهم، وتجدهم يتحركون فيتقلبون في وضعهم من اليمين إلى الشمال. ومن ناحية أخرى فإن كلبهم ساكن معهم في مدخل الكهف ماد ذراعيه. إنها صورة لو اطلعت عليها لتملكك الخوف ورعبت منها، ولم يكن لك إلا قرار واحد وهو أن تفر من ذلك المكان.

بيان المعنى العام :

16- وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون...مرفقا.

انتقل القرآن في بيان القصة إلى المستوى الذي تــم الانفصــال بيــنهم وبــين قــومهم بعــد أن سجلوا عليهم ضلالهم وكذبهم. عند هــذا الحــد خاطــب بعضــهم بعضــا بقــول هــو خلاصة ما انتهى إليه الأمر : إذ قــررتم قــرارا لا رجعــة فيــه أنكــم تنفصــلون عــنهم، وأن تقطعوا العلاقة معهم ومع مــا يعبدونــه مــن دون الله، فإنــه تبعــا لــذلك لــم يبــق وجه للمقام معهم، فلنتوجه إلى الكهــف ونحــن آملــون فــي عــون الله فتشــملنا رحمتــه، وتعمنا بصفة لا نخشى معها ضيقا ولا إشــكالا. وإنــه سيســعدنا فــي حياتنــا بالأســباب التي يصحبنا بها الرفق واليسر.

17-وترى الشمس إذا طلعت...فلن تجد له وليا مرشدا.

يعرض القرآن مشهدهم وهم في الكهف غيــر متبــع للتفاصــيل التــي لا أثــر لهــا فــي العبرة، جاعلا التالي كأنه ينظر إليهم، لم تفصله عــنهم القــرون المتطاولــة؛ تــراهم فــي كهفهم وضوء الشمس ينفذ إلى داخل الكهــف مــع ألطــاف، فــلا تتكســر الأشــعة علــى أجسامهم فتؤذيها بحرها، ولكن تقــوم بوظيفتهــا المطهــرة للــداخل مائلــة إلــى اليمــين صباحا وإلى جهة الشمال مساء. ومــع الإضــاءة المطهــرة وغيــر المؤذيــة تــراهم فــي فسحة الكهف الداخلية "فجوة منه". ولما كان القصــد مــن القصــة لــيس التســلية، وإنمــا الاعتبار والاطمئنان إلى أن رعاية الله تقــدر للصــالحين الخيــر والحفــظ، لفتــت الآيــة النظر إلى أمرين:

1)إن وضع باب الكهف من الشمس من آثار قــدرة الله وحســن صــنيعه. وهــدايتهم إلــى هذا الكهف من آثار عنايته التــي تتعــدى النــواحي الماديــة إلــى التوفيــق إلــى طريــق الرشد والثبات عليه. إنها ألطاف تحف بالإنســان فــإذا هــو يختــار مــا هــو أوفــق لــه وأفضل عاقبة، وإذا هو منعطف إلى الخير مشمئز مــن الشــر، يجــد راحتــه فــي طاعــة الله والتقرب منه. يسمو في مراتــب الكمــال بصــفة متتابعــة. وفــي المقابــل فــإن مــن

يحرم الهداية أي الألطاف المساعدة، ويُترَكُ لنفسه واختياراته لـن يُلفِـي فـي حياتـه مـن يبين له طريق الرشد ويسعده على اتباعه.

18 -وتحسبهم أيقاظا وهم رقود...ولملئت منهم رعبا.

يواصل القرآن عرض المشهد فيعرض صـورتهم فـي الكهـف؛ إنـك إذا ثبّـتَّ بصـرك فيهم، تجد من عجيب أمرهم أنك تظن مـن ملامحهـم أنهـم فـي حـال يقظـة وراحـة، والواقع أنهم نائمون. فلقوة لطف الله بهم يخـدعك بصـرك. وممـا يزيـد هـذه الصـورة بيانا، أنهم يتحركون مرة إلى اليمين ومـرة إلـى الشـمال، لـئلا تتـأثر أجسـامهم تـأثرا غير مناسب، إذا هي استمرت على وضع خاص. والكلـب مـاد ذراعيـه بمـدخل الكهـف على الهيئة التي يكون عليها الكلاب في وقت راحتهم. فالجو كله سكون وطمأنينة.

في هذا الجو الساكن الهادئ، يحرك التصوير القرآنـي التـالي المتتبـع للمشـهد، حركـة سريعة تخرج به من الهدوء إلى التفاعل معـه، فيقـول: إنـك لـو قـدر لـك أن تشـرف عليهم فتراهم على تلك الصورة لتملكك الرعـب وفـررت مـنهم. ولمـاذا يرتعـد النـاظر إليهم خوفا ؟ يرى بعضهم أن صـورتهم قـد تغيـرت تغيـرا مرعبـا فطالـت أظـافرهم واسترسلت شعورهم. ولم يرتض المحققون هذا لأنهم لـو تحولـوا إلـى صـورة مرعبـة لتفطنوا لأنفسهم لما استيقظوا على ما سيأتينا في الـنص، وهـو مـا لـم يحصـل. ويـرى الشيخ ابن عاشور أن المطلع عليهم يظنهم جماعة مـن اللصـوص كمنـوا فـي الكهـف، لأن من شأن الشطار أن يختفوا في الكهوف، فيمتلئ المطلـع علـيهم رعبـا، ويفـر قبـل أن يتفطنوا له. ويرى ابن عطية: أن الله أنزل علـيهم مـن المهابـة والخـوف مـنهم مـا يدخل الرعب على المطلع علـيهم ويفـر. وتخـريج ابـن عطيـة أقـرب لـروح الـنص القرآني. وأزيد هذا التخريج بيانا فأقول : إن الجـو العـام بمـا فيـه مـن سـكون وأخـذ النوم من جميعهم أخذا يجعل الناظر إلـيهم متحيـرا هـل هـم رقـود أو أيقـاظ، والكلـب على مدخل الكهف لا يتحرك ولا يتفطن للمطلع، الكلب الـذي لـه مـن قـوة فـي حاسـة الشم ما يجعله ينتبه لكل وارد، ومع ذلك هـو هـادئ سـاكن لا يتحـرك ولا ينـبح، هـذه صورة عجيبة لم يتعود بها الإنسان في حياته، تثير فـي نفـس المطلـع وهـو فـي مكـان غير آهل الخوف والرعب، فالاختيار الأوفـق: أن يفـر. وهـو تصـوير بـديع يتفاعـل به القارئ مع المشهد حتى لا يكون العرض القرآني المعجز تصويرا ميتا للمشهد.

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوٓا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى

ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا ۝

بيان معاني الألفاظ :

الورق : الفضة.

أزكى طعاما: أطيب طعاما.

وليتلطف : ليكن حذرا حتى لا يتعرفوا عليه.

لا يشعرن : لا يعلمن.

يظهروا عليكم : يغلبوكم.

الرجم: الرمي بالحجارة إلى تحقق القتل.

الملة : الدين.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد نومهم الطويل تحركوا متيقظين، وأخذوا يتساءلون كم مدة قضيناها نائمين، قدروها بيوم أو بعض يوم، ثم أعرضوا عن الاستمرار في الاهتمام بهذا الأمر وقالوا: الله أعلم مفوضين الأمر إليه. وتحولوا إلى ما يهمهم وقد أحسوا بالجوع. فاتفقوا على أن يبعثوا أحدهم بما معهم من فضة ليختار لهم طعاما جيدا، وأوصوه أن يكون حذرا فلا يحدث أي مشكلة في تعامله يتبعها إيقافه وبحثه، ولا أن يتكلم إلى أي شخص يلقاه عن أمرهم. وذكّروا بعضهم بأن الحذر متأكدٌ لأن الملك وزبانيته لو عرفوا مكانهم لقتلوهم رميا بالحجارة أو لأجبروهم على ترك دينهم والدخول في ملة الكفر بالله وعبادة الأصنام، وتلك هي الخسارة الكبرى التي ليس بعدها فلاح.

بيان المعنى العام :

19—20، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم...ولن تفلحوا إذا أبدا.

على ذلكم النحو العجيب مما فصله القرآن في شأنهم، تم تحريك حواسهم فاستيقظوا ونهضوا من نومهم، ليكون هذا التحول مفضيا إلى التساؤل بينهم، فاللام في قوله تعالى "ليتساءلوا بينهم" يعبر عنها بلام الصيرورة وليست للتعليل، كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا[1] شأن النائم بعد فترة من يقظته يعود له

---

[1] سورة القصص آية 8

نشاطه الفكري، وأول ما يتساءل عنه ليتبينه، كم طال أمد نومــه ؟ قـد يكـون هـذا بـين النائم وبين من كان نائما معــه، أو مــع نفســه. ويسـجل الحـوار الـدائر بيـنهم، قـال بعضهم لبثنا نائمين يوما كاملا، وقال آخرون :لا، بل لبثنــا نــائمين بعـض يـوم. ويشـير التسجيل إلى جدية هؤلاء الفتية، إذ البحث فــي هـذا أمـر لا فائــدة منــه. وربكـم أعلـم بالضبط الدقيق للزمن الذي قضيتموه نــائمين ؛ أي إن هــذا أمـر لا يترتــب عليــه نفـع لنا، وهو ما يُلمع إلى وثوق صلتهم بــربهم، واستحضـــارهم أنـــه معهـم وهــو المحصــي لما يتقلبون فيه.

ثم إنك تراهم أيها التالي لقصتهم أنهم أعرضوا عن مواصــلة الحـديث فــي مـدة نــومهم، وعنوا بما ينفعهم. قالوا: ليتوجه أحدنا حاملا معــه شـيئا مــن الفضــة التــي معنــا إلــى المدينة ليكون وكيلنا علينا لشراء ما نحن في حاجة له مــن القــوت، ويبـدو أنهـم أحسـوا جميعا بالجوع عنـدما اسـتيقظوا. فاختـــاروا أحـــدهم، أو تطـوع أحـدهم للقيـام بـذلك؛ وأوصوه بثلاثة أمور: أن يتخير من القوت أجوده وأحســنه فيشـتري منــه مــا يكفـيهم – أن يتوخى اللطف في التعامل فلا يثير مشــاكل قـد تعرضــه للمســاءلة فيفتضــحوا – أن لا يعلم أي أحد عنهم. لما توقعوه أن يلتقي بأحد من معارفــه فيجـره الحـديث معــه إلــى إمكان اكتشاف أمرهم. وهذه الوصــايا الـثلاث بالتأمـل فيهــا نجـد أن أكبـر همهـم أن يسلموا من الطلــب الــذي يتوقعونــه. ذلـك أن شــأن المسـتبدين فـي الحكـم، أنهـم لا يرضون إلا بالطاعة العمياء لمــا يقـررون. فهـم يعلمـون أن الملـك الكـافر الظــالم لا يرضى منهم إلا أن يكونوا مطبقين لما اختــاره مــن عبــادة غيــر الله. فلــذلك كــان ثلثــا الوصايا التكتم عليهم والحذر من كشف أمرهم. وحققــوا هــذا المعنــى بمــا صــرحوا بــه وهم يتواصون بالحذر مــن الســلطة الغاشــمة : إنهـم إن يتمكنــوا مـنكم فســألكم أحـد أمرين لا ثالث لهما : إمــا أن يقتلــوكم رميــا بالحجــارة، وإمــا أن يجبــروكم علــى أن تعلنوا بصفة صريحة أنكم تــركتم ديــنكم وعــدتم إلــى ديــنهم. وتلــك هــي الخســارة العظمى والدمار الأبدي.

<u>لطيفة :</u> ذكر الزركشي أن الفاء الأولــى فــي قولــه تعــالى فليتلطــف نصــف حــروف القرآن التي عددها 340740 حرفا. البرهان ج 1 ص250-

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ

وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

العثور : الظفر بالشيء بعد الطلب له.

وعد الله : إحياء الموتى.

التنازع : الجدال القوي.

رجما بالغيب: إلقاء للكلام من غير مستند.

لا تمار : لا تجادل.

الظاهر : الذي لا يوجب متابعة الاحتجاج.

الاستفتاء : طلب الفتوى بالإخبار عن أمر علمي يعلمه الخواص.

غدا: زمن مستقبل.

الرشد : الهدى والخير.

بيان المعنى الإجمالي :

وعلى ذلكم النحو العجيب الذي مكثوا في كهفهم نياما محفوظين بحفظ الله، تم أيضا انتباه الناس لأمرهم. وقد استفاد الذين عثروا عليهم علما تجريبيا واقعيا مفاده أن ما وعد الله به من بعث الأموات أحياء وعد حق. وأن يوم القيامة سيحصل في اللحظة المقدرة يقينا.

واذكر ذلك المشهد وقد اهتموا بهم اهتماما بالغا فكل يقدم الحل الأمثل في نظره في التعامل مع أهل الكهف، وقد غابوا عن الأنظار. فقال بعضهم: لنبن عليهم بناء يحفظهم، وقال أهل السلطة في البلد: نقيم عليهم مسجدا.

ثم اختلف الناس الذين تتبعوا القصة من القرآن في عددهم، فسيقول بعضهم هم ثلاثة رجال ورابعهم كلبهم، وسيقول آخرون خمسة رجال وسادسهم كلبهم، وهم كمن يأخذ حجرا فيرمي به هدفا بعيدا عنه لا يراه فقلما يصيبه. وسيقول آخرون سبعة وثامنهم كلبهم، ولا فائدة من تتبع ما سيقولونه، فالله وحده هو العليم بحقيقة أمرهم وعددهم. وقد يُطلع الله بعض المقربين على عددهم. ولذا فلا تدخل معهم في جدال لا فائدة من ورائه، إلا إذا كان ردا مسكتا واضحا كقولك: الله أعلم

بعددهم. والمشركون وأهل الكتاب سواء في جهلهم بعـددهم، فـلا تعُـدْ لأي مـنهم تطلـب منه ما عنده من العلم إذ لا علم لهم. ومن الأدب الذي نـزل مـع هـذه القصـة مـا أمـر الله به نبيه المؤمنين أن يتبعـوا كلامهـم عـن الأمـور التـي سـيفعلونها فـي المسـتقبل بقولهم " إن شاء الله " وأن يذكروا الله إذا نسوا التصريح بالمشيئة.

وثنى القرآن بدعوة الرسول أن يقول أيضا: إني راج أن يواصـل ربـي مـا خصـني بـه من القيام بأمر إبلاغ رسالة الإسلام التي هي أقرب إلى الخيـر وإلـى نفـع البشـرية مـن معرفة قصة أهل الكهف. وإن كانت قد تضمنت قدرا غير قليل من الحق.

بيان المعنى العام :

21-وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا...عليهم مسجدا.

ينتقل المشهد من الحديث عن أهل الكهف إلى ما اتصل بـه بعـد أن بعثـوا أحـدهم إلـى المدينة. ويطوي القرآن ما وقع للوكيل الـذي قصـد المدينـة ليشـتري الطعـام. ويبـرز المشهد على غير ما كان متوقعا؛ يفجأ التالي أنه على ذلكـم النحـو العجيـب مـن صـنع الله فيهم بإيقاظهم بعد نوم طويـل، يـتم العثـور علـيهم مـن سـكان المدينـة. تعـددت الروايات التي حاول أصحابها الكشف عن الطريقـة التـي تـم بهـا الأمـر، ومـا وقـع لأصحاب الكهف بعد ذلك، وهـي روايـات تعطـي تصـورا لتسلسـل أحـداث القصـة، ولكنها لا تستند إلى نص ولا إلى وثيقة. ولـذلك أعرضـت عنهـا كمـا أعرضـت عـن كثير من التفاصيل التي عمرت بها كتـب التفسـير، واقتصـرت علـى مـا يـدل عليـه النص القرآني وحده.

إن الحديث عنهم تناقله أهل المدينة الأخلاف عـن الأسـلاف، وإذا بهـم يعثـرون علـيهم بصنع الله المتصرف في أحداث الكون. وتكون عاقبـة العثـور علـيهم مـا حصـل لهـم من علم مشاهد يقترن إلى ما استقر في عقيدتهم مـن إحيـاء المـوتى والبعـث " ليعلمـوا أن وعد الله حق " كما يعلمون بصورة من مشـاهدة أصـحاب الكهـف كيـف إن نـومهم المدة الطويلة وهم غائبون عن الحياة تبعه إحيـاؤهم ليرتـب علـى حيـاتهم الجديـدة مـا رتبه سبحانه. فهو أمر قريب من قيام الساعة وبعـث النـاس لتكـون لهـم حيـاة أخـرى. وبذلك اجتمع لهم مع العقيدة اليقينية فـي البعـث، وضـوح التصـور للكيفيـة التـي مـا كانت واضحة عندهم. وهذا كما جاء في سـورة البقـرة مخاطبـا لإبـراهيم: قـال أولـم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي -آية260-

وفي هذا الظرف الذي عثر أهل المدينة على أهـل الكهـف اختلفـوا فـي شـأنهم. ويبـدو من النص أن أهل الكهـف بعـد العثـور علـيهم اختفـوا مـن المشـهد، ولا أسـتطيع أن

أجزم بضبط طريقة اختفائهم، إذ هي حسب فهمي من الأسرار التي طويت في القصة ولم يكشف عنها. ولكن الذي سجله القرآن هو اختلاف الناس حول الوضع الغامض وما يتحتم اتخاذه لعلاجه. فمما سجله القرآن من الحلول المقدمة قول بعضهم: ابنوا عليهم بنيانا يحفظهم ويحميهم من الفضوليين وممن لا يقدرهم حق قدرهم، والله أعلم بهم فلا نجزم في أمرهم ومقامهم عند ربهم برأي مؤكد. وتقدم أصحاب السلطة برأي أدق حاصله : أن يكون البناء على شكل مسجد، معبد، مكان مقدس بقداسة المدفونين فيه. وهذا ما جرى عليه النصارى وقبلوه.

<u>ملاحظة : إن</u> اتخاذ المساجد على قبور من يظن بهم الصلاح هو كما قلنا ثقافة نصرانية. وكذلك نجده في البوذية، وفي ديانات أخرى. والإسلام قطع مع هذه التقاليد. فقبر رسول الله ﷺ في غرفة عائشة لا في المسجد وبجواره قبر أبي بكر وعمر، وكذلك قبور العلماء كأئمة المذاهب والصالحين. فمالك مثلا، رضي الله عنه قبره بالبقيع كبقية المسلمين. ولكننا نجد معادلة في حياة المسلمين: أنه كلما زاد ضعف الفهم للتوحيد، انتشر بناء المساجد على القبور وظهرت القباب. بل أبلغ من ذلك أن حصل الظن ببعض المعتوهين والمختبلين ومن يسيل لعابهم على صدورهم، ظُن بهم درجات عالية من الصلاح، وبنى الجهلة على قبورهم مساجد، وتقربوا إليهم بالقرابين. ولا أقول هذا شرك، ولكنه إيمان مدخول ومرض في العقيدة،. أخرج البخاري بسنده إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قالت: ولولا ذلك لأبرز قبره. غير أني أخشى أن يتخذ مسجدا. علق عليه ابن حجر بقوله : وهذا قالته عائشة قبل أن يوسع المسجد النبوي، ولهذا لما وسع المسجد جُعلت حجرتها مثلثة الشكل محددة حتى لا يتأتى لأحد أن يصلي إلى جهة القبر مع استقبال القبلة [1]– كما أخرج عن عائشة أيضا أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي ﷺ فقال : إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك التصاوير، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة[2]،وخرج مسلم بسنده إلى جندب ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : ألا، وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم **وصالحيهم** <u>**مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك**</u>[3].

22-سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم...ما يعلمهم إلا قليل.

---

[1] فتح الباري ج 3ص444.

[2] الفتح ج2 ص70/71

[3] إكمال الإكمال ج2 ص234

انتقل الحديث عن أهل الكهف في الزمن الذي تم فيه من أمرهم ما تم، إلى أثر القصة في السامعين لها بعد أن سجلها القرآن. فقد أكسبت بذلك رواجا في المجالس. وأخذوا يتحدثون عنهم، وتساءلوا عن عددهم، وعن الزمن الذي قضوه نائمين، وقدموا فروضا لا تستند إلى دليل فبعضهم سيقولون: هم ثلاثة من الرجال، والرابع الكلب في عدد الذين ضمهم الكهف. وعُد الكلب بالنظر إلى أنه جرى عليه ما جرى عليهم من النوم والحفظ. وسيقول آخرون: خمسة والسادس الكلب، وتقدير الفريقين لا يستند إلى دليل، ولكنه كلام يلقى، كما يرمي الراجم بحجر شيئا بعيدا عنه لا يراه فلا يصيبه إلا قليلا. والغيب مستور لا يعلمون من أمره شيئا. وقد أصبح هذا التعبير" رجما بالغيب مثلا يجسم التخرص. وسيقولون : سبعة وثامنهم كلبهم. ويرشد القرآن النبي ﷺ إلى الموقف الذي يتعين اتخاذه في هذه القضية وفي أمثالها. إن العلم الحق المضبوط هو العلم الإلهي، فالله هو المتفرد بعلم الأشياء على حقيقتها، وإن علم الناس المبني على التخمين لا قيمة له، فلا فائدة من مواصلة عرض أقوالهم. وهو سبحانه يُطلع من يشاء من عباده، وهم قلة، على العدد الصحيح.

22- فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا...منهم أحدا.

ولما كان الله لم يقم دليلا على عددهم، وضبطه عند الله، وذلك لا ينقص من عبرتها جهله، ووقتك أثمن من أن تناقشهم فيما افترضوه أو ترد عليهم فيما احتجوا به، فأعرض عن متابعة لغطهم ولغوهم، وقف عند ما هو يقيني ظاهر، كقولك الله أعلم بعدتهم ؛ والمشركون يستوون في جهل عددهم مع أهل الكتاب فلا تعد لأحد منهم تسأله عما يعلم من شأنهم. وعلى ذلك تكون هذه الوصايا منهج الإسلام في كل ما لا دليل عليه من العقل أو النقل.

23--24-ولا تقولن لشيء إني....لأقرب من هذا رشدا.

في اتباع ما سبق من قصة أهل الكهف بهذه الآية توقف لإبراز الاتصال. وكل الذين تتبعت كلامهم مجمعون على أن الرابطة، هي أن المشركين لُقنوا من أهل الكتاب أن يسألوا النبي ﷺ عن خبر أهل الكهف، وسألوه فعلا فوعدهم: أنه سيخبرهم غدا. وأبطأ عليه الوحي ثلاثة أيام، أو خمسة عشر يوما، ثم أتاه جبريل فأنزل عليه سورة الكهف. فتكون هذه الآية على ما روي عتابا لجزمه بأن موعد الإجابة سيكون غدا. وهذا العتاب هو تعليم لأمته المنهج في الالتزامات: أن لا يلتزم المؤمن إلا بما يعلم أنه مُمكن من الوفاء به. فإن كان غير متيقن من ذلك فليقل إثر

كلامه : إن شاء الله. ويكون نسج الآية المبني على الإيجاز ينحل إلى :ولا تقولن لشيء إن فاعل ذلك غدا إلا، تقول : إلا أن يشاء الله. أي إلا مع ذكر المشيئة. وليس المراد من قوله تعالى "غدا" اليوم الموالي ليومك، ولكن هو دال على المستقبل قريبا كان أو بعيدا.

ووسع الله على نبيه وعلى المؤمنين أن يذكروا " إن شاء الله" بعد مدة إن غلبهم النسيان عن ذكرها مقارنة للكلام.

وذكرها بعد مدة ينحل إلى قسمين: قسم مجمع عليه، وهو أن ذكرها بعد مدة يحقق التزام المؤمن بالأدب مع الله المالك لما يستقبل من الأمور. فلا يجزمٌ بفعل شيء في المستقبل ليس هو في ملكه ولا في طوقه. وقسم مختلف فيه وهو حل الالتزام إذا أتبع بقوله " إن شاء الله " وخاصة في الأيمان فالذي عليه الجمهور أن الاستثناء ينفع المستثنى وتنحل يمينه إذا وصله بالاستثناء. فإذا قال الحالف : والله سآتيك غدا إن شاء الله، تحلل من يمينه في الوقت. فغدا كأنه لم يحلف وبهذا قال مالك وأبو حنيفة والشافعي؛ وإن كان المروي عن مالك أن قوله هذا، ليس مستندا إلى الآية التي تنحصر دلالتها على ذكر الله عند طروّ النسيان على الإنسان، ومستند قوله من السنة. وفهم علماء آخرون أن الاستثناء تنحل به اليمين وإن انفصل عنها بزمن، قدره عطاء بحوالي، خمسة عشر دقيقة (قدر حلب الناقة الغزيرة) وعند قتادة: ما لم يقم من مكانه، وعند الإمام أحمد ينفعه ما دام لم يتحول عن الموضوع الذي كان يتحدث فيه عندما أقسم.

كما أمر النبي ﷺ بقول "إن شاء الله" فيما يعد به من الأمور المستقبلية، أضافت هذه الآية إرشادا آخر له ولأمته حاصله : أن ييسر له من أسباب الخير والهدى ما يكون أولى وأنفع. وارتبط هذا الأدب بقصة أهل الكهف التي دعا إليها وعدُه بإجابتهم عنها غدا، وفيها إيماء: أن الوظيفة التي كلف بها من هداية البشرية إلى العقيدة الصحيحة، والتشريع المحقق للعدالة، والأدب العالي في العلاقات البشرية، ذلك أبلغ في الخير من معرفة قصة أصحاب الكهف.

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

غيب السماوات والأرض : ما غاب علمه عن الناس فيهما.

أبصر به وأسمع: ما أتم علمه بالمبصرات والمسموعات.

بيان المعنى الإجمالي :

كشف القرآن عن المدة التــي قضــاها أهــل الكهــف نيامــا، فحــددها بثلاثمائــة ســنة، وذكرت الآيــة أنهــم زادوا عليهــا ثلاثــين ســنة. ويــرى بعــض حــذاق المفســرين أن ثلاثمائة من السنين هي بالحســاب الشمســي، وأن ثلاثمائــة وتســعة هــي عــدد الســنين القمرية. وقل للذين يقدمون تقديرات تختلف عــن هــذا التحديــد: إن التحديــد الحــق هــو ما حدده القرآن، فالله العالم وحده بكل ما يجــري فــي الســماوات والأرض، فمــا أشــمل وما أوسع ما يعلمه الله من المبصــرات والمســموعات. وإن المشــركين لــيس لهــم ولــي يعينهم من دون الله. فهو المتفرد بالتصــرف والحكــم فــي الكائنــات جميعــا، ولــيس لأي أحد نصيب في ما يحكم به وينفذه.

بيان المعنى العام :

25- ولبثوا في كهفهم...وازدادوا تسعا.

في مستوى قيام أهل الكهف من نومهم، تساءلوا عن المــدة التــي قضــوها فــي ســباتهم؛ وأنهم فوضوا ضبطه لله "لبثنا يوما أو بعض يوم" بــل ربكــم أعلــم بمــا لبثــتم" وهــذه الآية تفيد أنهم بقوا في كهفهم على الحالــة العجيبــة التــي كــانوا عليهــا ثلاثمائــة ســنة بزيادة تسع سنين. وفهم بعــض الحــذاق مــن هــذا التعبيــر القرآنــي المعجــز، أن مــدة مكثهم ثلاثمائة سنة بالحساب الشمسي للسنين، ولما كانــت الســنة القمريــة تــنقص أيامهــا عن السنة الشمسية، فإنه يضاف لكل مائة سنة ثلاث ســنوات، فكــان العــد إن نظــر فيــه للسنوات الشمسية ثلاثمائــة ســنة، وإن نظــر فيــه للعــام القمــري كــان تســع ســنوات وثلاثمائة.

26- قل الله أعلم بما لبثوا...في حكمه أحدا.

لما حقق القرآن مدة لبثهم في الآية الســابقة أعقبــه يــرد مقــالات أهــل الكتــاب الــذين قدموا مددا أخرى. فأمر الرسول ﷺ أن يقــول بوضــوح كامــل : الله أعلــم بالمــدة التــي بقوا فيها نائمين. وكل أقوالكم المخالفة، أقوال باطلــة نشــأت عــن جهــل لاعــن علــم. والله سبحانه هو الذي تفرد بعلم كــل الكائنــات والأحــوال التــي حــدثت فــي الســماوات وفي الأرض. وإذا استحضر الإنسان سعة علــم الله لكــل حادثــة فــي الســماوات أو فــي الأرض، فإنه يعجب لاشك من سعة العلم الإلهي. فمثلا كــل ورقــة عنــد بروزهــا وعنــد

نموها وفي حركتها وعند سقوطها وعند تحولها فتاتـا فـي الأرض، لـم تغـب أي حالـة من تلك الحالات عن بصـر الله وسـمعه مـن بدايـة الكـون إلـى أن يـرث الله الأرض ومن عليها. فجاء التعبير القرآني عن ذلك في صـيغة تعجـب: أبصـر بـه وأسـمع: مـا أوسع معلوماته البصرية والسمعية ! وبهذا العلـم الواسـع وضـبط كـل جزئيـة تحـدث في كون الله، فإن المشركين ليس لهم رعايـة مـن غيـر الله. إن آلهـتهم التـي عبـدوها من دون الله لا تـدرك أنفسـها فضـلا عـن أن تـدرك غيرهـا وحاجاتـه، وأن تسـعده بالعون عند الاضطرار. ولا يوجد من يشركه الله فـي حكمـه، فهـو وحـده المتصـرف، لم يفوض شيئا من التأثير والخلق لغيره. وعلى هذا الأسـاس تفهـم قصـة أهـل الكهـف. كلها حدثت عن علم شامل ورعايـة لكـل جزئيـة ولكـل مرحلـة مـن مراحلهـا، وكـل لطف حف بهم هو من ولايته وفضله، لا شريك له.

وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

التبديل : التغيير بالنقص أو الزيادة، ومنه إخفاء بعضه.

التلاوة : القراءة.

ملتحدا : ملجأ، ينجيك من عقابه.

اصبر : احبس.

الغداة : ما بين طلوع الفجر وشروق الشمس.

العشي: المساء.

لا تعد عيناك عنهم : لا تعرض عنهم

أغفلنا: جعلناه غافلا.

فرط: ظلم واعتداء.

أعتدنا : هيأنا.

السرادق : كلمة أصلها فارسية تفيد الخيمة أو ما يحيط بها.

يستغيثوا : يطلبوا الغوث.

المهل : دردي الزيت.

مرتفق : ما هو رفق للإنسان.

بيان المعنى الإجمالي :

إن القرآن الذي أوحيناه إليك، عليك أن تواصل قراءته على الناس كما أنزل إليك بدون زيادة ولا نقص ولا إخفاء ولا تحوير، إن كلام الله لا يتجرأ أي كان على تبديله. هو كلام من لا يجد أحد ملجأ ينجيه من عقابه.

واحبس نفسك يا محمد مع الذين طهرت عقائدهم من الشرك، وأعمالهم من الخبث، وهم متعلقون بربهم يدعونه صباح مساء يبتغون رضاه. واعص وارفض دعوة الذين طبعنا على قلوبهم فكانوا سادرين في غفلاتهم لا يذكرون ربهم، يقودهم هواهم ويتّبعون دواعي غرائزهم، وكانت كل حياتهم ظلما وسبقا إلى الشر.

وقُلها صراحة تقمع بها أطماع المشركين أن يستنزلوك: جاءني الحق الواضح من ربكم، وكل ما سواه باطل. ولست مسيطرا عليكم فمن شاء أن يتبع ما أنزل إلي من الهدى فباب الإيمان مفتوح، ومن اختار الاستمرار على الكفر فله ذلك. ومع ذلك فلتعلموا أن ربنا أعد للظالمين بكفرهم نارا من صفاتها أنها تحيط بهم إحاطة الخيمة بساكنيها، تطبق عليهم فلا يستطيعون الخروج منها. وتحترق أكبادهم عطشا فيستغيثون طلبا للري، فيستجاب لاستغاثتهم بماء ضارب لونه إلى السواد هو كدردي الزيت كدرٌ تعلو حرارته على حراة الماء، يشوي وجوههم بمجرد ما تقترب شفاههم منه. ما أسوأه من شراب، وما أسوأ جهنم مكانا يرتفقون فيه ويستريحون!

بيان المعنى العام :

27-واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك...من دونه ملتحدا.

لهذه الآية تعلق بقصة أهل الكهف. بيان ذلك أن الله يقول لنبيه: واصل تلاوة ما أنزلناه عليك من القرآن، على النحو الذي تلقيته عن جبريل بدون زيادة ولا نقصان، ولا تلق بالا لما يعرضونه عليك، ويطلبونه من إجابة عن أسئلتهم في قصة أهل الكهف وغيرها. فإن ما جاءك من القرآن هو ما أردت إبلاغه للناس بواسطتك، وكلامي لا يقبل التبديل. فلا تَضف ولا تُنقص ولا تكتم ولا تحور، إنك لا تجد ملجأ، ولا حاميا ولا من ينجيك سواه، فبلغ ما أنزل إليك بشجاعة وعزم كما أنزل، سواء أرضي به المشركون أم سخطوا.

28- واصبر نفسك مع الذين يريدون وجهه...أمره فرطا.

يواصل القرآن تأييد رسول الله ﷺ وتثبيته، أمر في الآية السابقة بأن يصدع بما أنزل عليه مطابقا لما أنزل عليه، وفي هذه الآية يرشده الوحي إلى حبس نفسه مع الذين أنار الإيمان قلوبهم، وحرر عقولهم، فهم يتصلون بربهم اتصالا لا ينقطع من الفجر إلى العشي. ولا أفهم من هذا أنهم منقطعون عن الدنيا مشتغلون بالذكر فقط، ذلك أن الإنسان ما دام يعمل في الدنيا مستحضرا رقابة ربه عليه ملتزما بأحكام الإسلام فهو في عبادة. إن دواعي الغريزة والأنانية وحب الخير لنفسه تدعوه بطرق عديدة من الإغراء ليسلك المسالك التي ترضي الشيطان، وتدعوه رقابته لربه وعمق إيمانه للاستقامة مستحضرا دوما أنه في حضرة ربه، يطلع عليه، ويجزيه بالطمأنينة والرضا والسكينة والعون. ولا يشغله عمله عن القيام بما يزيده قربا من ربه من القيام بالفرائض، والنوافل، وحضور مجالس العلم والذكر.

والذين هداهم الله فأسرعوا بالدخول في دين الله، منهم أصحاب الحظ الاجتماعي المرموق كأبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، ومنهم الفقراء كسلمان وآل ياسر. وكان المجتمع الجاهلي فارغا من كل القيم إلا القيم المادية كالثراء والقوة والجاه. وكانت الطبقة الفقيرة مسحوقة محتقرة، تمنعهم كبرياؤهم من الجلوس معهم. فكان من تعلات رؤوس الشرك أن مركزهم الاجتماعي لا يسمح لهم بالجلوس مع المستضعفين وطلبوا من رسول الله ﷺ : أن يبعدهم من مجلسه حتى يربط أول خيط بهم. ولغلظ حاستهم الاجتماعية ما دروا أن الإسلام قد جاء ليقلب الموازين التي كانت تسود مجتمعهم، جاء ليعيد للإنسان كرامته وقيمته الإنسانية، هذه القيمة التي يتفاوت فيها البشر تبعا لمواهبهم، ولاستقامتهم، ولدورهم الصالح في المجتمع. فلا يعلو ثري معدم من الأخلاق، ولا ينزل فقير من المال غني بخلقه وأدبه. والرسالة التي جاء بها محمد هي إقناع البشر جميعا بأنهم عباد الله، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم. فكان مقترح المشركين من قريش بإبعاد الفقراء من مجلسه مقترحا مناقضا لأصل الدعوة ولقيمة الإنسان في الإسلام. فهذه الآية مع غيرها تؤكد تلكم المفاهيم. أمر الله رسوله أن يحبس نفسه ويلازم هؤلاء المؤمنين الصالحين، وإن كانوا فقراء ما دام صفاء أرواحهم قد برزت آثاره في إقبالهم على الله صباحا ومساء. ثم ضاعف التأكيد بالنهي عن ضد موقف حبس النفس ومعهم، فنهاه عن مجاوزة النظر إليهم إلى الذين جمعوا زينة الحياة الدنيا، التي عرفها القرآن في قوله تعالى : (المال والبنون زينة الحياة

الدنيا)[1] فيؤول معنى لا تعْدُ عيناك، أي لا تعـرض عـنهم مفضـلا مـن كـان ذا مـال وعزة إذا كان خاويا من الفضائل. ولا تطع، واغض ولا تتبـع مـن كـان عقلـه وقلبـه لا يذكر الله أبدا، وعلى ذلك أن الأشـرار تـدعوهم الفطـرة فـي أول حيـاتهم للتفكـر فـي الله، ثم لا يزالون يواصلون طرد هذه الخـواطر الفطريـة عـنهم حتـى تغيـب تمامـا، ويصبحون في غفلة عنها، وعندما ينقطع خـيط اتصـالهم بـربهم ينطلـق مـارد الهـوى فيتولى قيادتهم وتنقلب حياتهم إلـى اللهـث وراء المتعـة الماديـة كيفمـا اتفـق، فيكـون أمركُل فرد منهم فرطا، ظلما لنفسه وظلما لأسـرته، وظلمـا لمـن يتعامـل معـه، إذ هـو مأسور لنفعه وشهواته.

29- وقل الحق من ربكم فمن شاء...وساءت مرتفقا.

أمر النبي ﷺ أن يعلن ويصرح تصريحا واضحا يقطـع علـى المشـركين كـل أطمـاعهم أن يستنزلوا النبي ﷺ ليذهب فيما يرغبون فيه. قـل: إن الـذي جـاءني مـن ربكـم هـو الحق، وكل ما سواه باطل. وإذ تبين الحق وجـلا فـإن إيمـانكم أو كفـركم بمـا جـاءني من الحق لا يغير موقفي مما جاءني، فـأنتم بالخيـار بـين قبولـه والإيمـان بـه، وبـين الإعراض عنه والكفر بـه. فكونـوا يائسـين يأسـا لا انتظـار بعـده أن أهـادنكم فيمـا ترغبون فيه من التنازل عما أمرنـي بـه ربـي فـي الأصـول أو الفـروع. واعلمـوا أن جزاء من أعرض فظلم نفسه، وظلم الحقيقة، مقرر ثابت هـو النـار التـي تطبـق علـيهم فتحيط بهم كما تحيط الخيمة وما حولها بساكنيها.

ثم عرجت الآية على فعل النار فيهم وهم " تهكما بهم " في السرادق الذي لا مخرج منه، تسمع صوت الاستغاثة منهم، لا تبحُّ حناجرهم من تكرار النداء طلبا للغوث، لتمكينهم شيئا يخفف عنهم حر النار. وما بقي في أذهانهم من الحياة الدنيا أن الماء هو الذي يخفف النار ويطفئها، فتقع الاستجابة لاستغاثتهم بماء أشبه ما يكون بدردي الزيت في لونه الضارب إلى السواد، وفي خاصيته. تلكم الخاصية هي أن الماء مهما أوقدت النار تحته لا تزيد درجة حرارته عن مائة درجة، أما الزيت والدردي فحرارتهما تعلوان على مائة درجة، فيشويان وجوههم كما تشوى بالنار. وسلط الشيُ على الوجوه لأن الوجه أشد إحساسا بألم الحرق. وتستأنف الآية كصوت ينطلق في المشهد يعلن النكال بهم، ما أسوأه من شراب! وما أسوأ مكانهم في جهنم! يرتاحون فيها" تهكما بهم ". بئس شرابهم شرابا، وبئس جهنم وسادة يتكئون عليها.

---

[1] سورة الكهف آية 48

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا نضيع : لا نحرم أجر من أحسن عملا. أي نمكنهم منه.

عدن: إقامة.

أساور: جمع سوار حلي يحيط بالمعصم.

سندس : صنف من الثياب رقيق يلبس فوق الجلد.

الإستبرق : ثياب من حرير أغلظ من السندس، أو منسوجة من ذهب وحرير.

بيان المعنى الإجمالي :

إن من جمع بين الإيمان الواضح، والعمل الصالح، يحقق الله لـه بفضـله وعدلـه كتابـة جميع ما قام به من عمل حسن في صورته وقصده ويجزيه عنه.

يميزهم الله بأن جزاءهم سيكون جنـات يقيمـون فيهـا إقامـة أبديـة، مـن صـفتها أن الأنهار تتخللها فترويها ريًا متواصلا، يزيدها جمالا ولطفـا. ويكسـوهم ربهـم ثيابـا مـن حرير ناعم رقيق " سندس" وفوقه ثيـاب خضـر مـن حريـر مخـتلط بالـذهب. وهـذا تقريب للبشر بما يعرفونه في الدنيا، ولكن ما أعدَّ لهم هـو فـوق مـا تـدل عليـه الألفـاظ بمدلولاتها المعروفة في هذه الدار الدنيا. والجو كلـه أنـس وراحـة، فهـم متكئـون فـي مجالس رائقة على الأرائـك. وبصـفة عامـة نعـم الثـواب الـذي حصـل لهم،ونعمـت الراحة التي يستمتعون بها.

بيان المعنى العام :

30-إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات...من أحسن عملا.

وصفت الآية السابقة جزاء الكافرين، وشأن القـرآن أن يـزاوج بـين التهديـد والرجـاء، وبين ذكر النقمة للكافرين، والتكريم للمؤمنين. وعلـى هـذا النسـق فصـلت هـذه الآيـة جزاء المرضيِّ عنهم، فبينـت :إن الـذين جمعـوا بـين صـفاء العقيـدة فتحقـق مـنهم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخـر والقـدر خيـره وشـره، ثـم اسـتقاموا فكانت أعمالهم مطابقة لما شرعه الله فقـاموا بمـا أمـروا بـه، وانتهـوا عمـا نهـى الله

عنه، وتخلقوا بما أرشدهم إليــه رســول الله ﷺ مــن رضـــيّ السـلوك :ان الله قـد تكفـل بإحصاء ما قدموا إحصاءً لا يهمل شيئا منه، وكيف يهمل مــا هــو حســن فــي صــورته بمطابقته لشرعه، وما كان حسنا في أصله، بصــدوره عــن صــفاء الإيمــان. والإحصــاء يدل على جزاء ما قدموه صغيرا وكبيرا.

31-أولئك لهم جنات عدن....وحسنت مرتفقا.

فصلت هذه الآية ما أجمل في الآية السابقة، فحققته في نواح ثلاث:

الناحية الأولى: المقر هو جنات يقيمــون فيهــا إقامــة لا تنقطــع " عــدن" ومقابلــة جمــع المؤمنين العاملين للصالحات بجنات عدن، يــدل علــى اختصــاص كــل مــؤمن بجنتــه. ومع الإقامة الأبدية، وصفت بالجمال والنضــارة تبعــا لمــا تخللهــا مــن أنهــار تسـقيها وتلطف جوها. وتمــلأ نفوســهم رضـــى إذ هــم ينظــرون إليهــا مــن مكــانهم المرتفــع الكاشف، لما تفيده من تحتهم من علوهم علوا تمتد بــه أبصــارهم إلـــى الآفــاق الفسـيحة المتناسقة.

الناحية الثانية: المظهر العام للمنعمين في تلكم الجنــات. تلحــظ أيــديهم وقــد حلاهــا الله بأساور من ذهب، وترى لباسهم من حريــر أخضــر مطعــم بالــذهب فــوق لبــاس مــن حرير رقيق يلي الجلد.

الناحية الثالثة :حلت عليهم الطمأنينة والرضى فهم فــي مجــالس راحــة وأنــس، متكئــين على الأرائك وهو جمع أريكة، والأريكة سرير عليه قبة وستائر من نسيج.

وتختم الآية بنظرة عامة تنطق بما أوتوه من نعيم وفضــل بلــغ أقصـــى مــا يطمــح إليــه الإنسان من جزاء. نعم الثواب صيغة مدح للثواب الــذي أعــده الله لهــم، وحســنت تلــك الأرائك مرتفقا، عكس ما قدر لأصحاب النار في الآية السابقة : وساءت مرتفقا.

۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

حففناهما بنخل : أحطناهما بنخل.

أكلها : ثمرها.

لم تظلم : لم تنقص عما هو متوقع.

الثمر : المال الكثير.

الصاحب : الرجل الآخر في المثل.

الحوار : مراجعة الكلام بين متكلمين.

أعز : أعظم عزة. ضد الذل.

النفر : عشيرة الرجل الذين يؤيدونه، والمقصود هنا الأولاد.

ظالم لنفسه : مشرك.

تبيد : تهلك.

أبدا : أمدا طويلا كما يبقى أمثالها.

منقلبا : المكان الذي يرجع إليه.

بيان المعنى الإجمالي :

لفت القرآن عقول المخاطبين بما يقرّب لهم العاقبة بضرب مثل لرجلين أحدهما كافر مستكبر والآخر مؤمن واثق بربه دار بينهما حوار. كان الكافر ثريا مستغنيا بما يتصرف فيه من أملاك، له جنتان نمت فيهما أشجار العنب وأحاط بكل جنة أشجار النخيل، وبين الجنتين مزارع للحبوب والبقول، أثمرت كل جنة ما هو المأمول منها من غير نقصان. ومع ذلك آتاه الله أموالا كثيرة.

انتفخ كبرياء بما جمعه فخاطب صاحبه المؤمن بقوله: أنا أكثر منك مالا ولي من الأولاد والأتباع ما يمكن لعزتي فلا يستطيع أحد أن ينال مني. ودخل جنته وهو متغطرس محجوب عن الحقيقة بكفره فقال : أعتقد أن هذه الجنة لا يمكن أن تفنى، ولا اعتقد في البعث ولا في يوم القيامة، وحتى على ظنك لو بعثت فسأجد جنتين خيرا من هاتين الجنتين أتقلب فيهما.

بيان المعنى العام :

32--34، واضرب لهم مثلا رجلين...وأعزّ نفرا.

من أنواع البيان القرآني ضرب الأمثال المعبرة عن واقع متحقق، أو صورة قريبة التحقق، ليكون ذلك أوقع في نفس المخاطبين وأشد تأثيرا. فهذا المثل يمكن أن يكون موجها إلى المستكبرين الذين طمعوا في طرد ضعفة المؤمنين، كما يمكن أن يكون مقصودا به المؤمنين لتثبيتهم، والكافرين لتهديدهم.

هذا المثل يصور رجلين :أحدهما متغطرس بما جمع مــن مــال، ومــا لــه مــن أتبــاع، كافر بالله والمعاد. والآخر مؤمن متعلق بربه. جـرت بينهمــا محــاورة. ســجلها القــرآن للعبرة. يسير العرض حسب المراحل الآتية :

أولا: يصف القرآن ثروة المستكبر: إنــه يتصــرف فــي جنتــين قامــت أشــجار العنــب فيهما، وكل جنة تحدق بأطرافها نخيــل باســقة، وبــين الجنتــين مــزارع تنبــت مختلــف الحبوب والبقول. ولنلاحظ دقة التعبير القرآني، جعلنــا لأحــدهما، وجعلنــا بينهمــا، فهــو يوحي من طرف خفي إلى أن الجنتين وإن كــان يتصــرف فيهمــا صــاحبهما إلا أن هــذا الخصب الواضح في الجنتين، هو من الجعل الإلهــي ولا يملــك المتصــرف فيهمــا شــيئا من التأثير الباطن الذي يسّر أن تكونا على ذلك الوضع.

ثم يضيف إلى الصورة الجميلة في تنظيم الجنتين، أن الخصب والإثمار ظاهرة فيهما، فقد أثمرت كل واحدة من الجنتين الإثمار المنتظر منهما، ولم تنقص شيئا عن ذلك المستوى شيئا، إذ انضم إلى خصوبة الأرض مياه متدفقة من نهر يمد العروق بما تتطلبه من ريّ.

ومع هاتين الجنتين كان هذا الرجل يملك أموالا أخرى من الذهب والفضة وغيرهما " وكان له ثمُر "

ثانيا: يثنّي القرآن بعد ذلك ببيــان أثــر هــذه الثــروة علــى صــاحبها، فيصــوره وهــو يخاطب الرجل المؤمن الذي لا يــرى قيمــة للثــراء، ومتــاع الحيــاة الــدنيا، وأن القيمــة الحقيقية هي في رضا الله. فيلتفت الغني المتغطــرس إلــى الرجــل الصــالح، ويقــول لــه في غلظة وكبرياء : أنا أكثر منك مــالا، وأنــا أعــز منــك بالعــدد الــوافر مــن أولادي وأتباعي الذين يقومون لنصرتي، فلا يلحقنــي ذل أبــدا. وكأنــه يشــير إلــى أن صــاحبه مستضعف لا يجد من يدافع عنه ويتقوّى به إذا طلبه من يريد إذلاله.

35--36، ودخل جنته وهو ظالم...خيرا منهما منقلبا.

ثالثا : سجل القرآن بعد ذلك وقد عظم اعتــزازه بمــا أوتيــه وهــو داخــل لجنتــه التــي ضاعفت إحساسه بثروته وزادت في كبريائه وغطرسته، وحجبــه كفــره الــذي ظلــم بــه نفسه فأعماه عن العاقبة :إني معتقد أن هــذه الجنــة التــي تــوفر لهــا التربــة الصــالحة، والماء النمير، هي جنة باقية خالدة لا تفنى. وأفــرد الــدخول إلــى " جنتــه" ولــم يقــل: إلى جنتيه لأن الدخول يكون من إحدى الجنتين. وأكد قصــر نظــره بنفــي قيــام الســاعة وطرح هذه العقيدة من فكره، وتهكما من صاحبه أضــاف : إنــه لــو فــرض أنــا ســنعود بعد الموت إلى ربــي (أي حســب معتقــدك) فــإن مــآلي لا يختلــف عــن حاضــري، فسأكون في مقام رغد أجد عنده جنتين خيرا من جنتي هاتين أتمتع بهما.

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ :

النطفة : اللقيحة التي لقحت فيها البييضة بالحيوان المنوي.

حسبانا : يطلق بمعنى هلاكا مقدرا، أو سهاما قصارا، أو اسم جمع يدل الصاعقة، أو الجراد. والمعاني الأربعة تتلاءم مع الآية.

زلقا : لا تثبت عليها الرجل عند المشي.

غورا: غارقا في طبقات الأرض لا يبلغ وجهها.

بيان المعنى الإجمالي :

رد المؤمن على عنجهية المشرك بثقة فقال له : عجبا لك كيف تكفر بالله الذي خلقك من عناصر التراب التي تحولت في داخل أبويك فأفرزاك نطفة من بييضة الأم ولقاح الأب، واستزجتا ثم والى عليك عنايته حتى تطورت إلى رجل مكتمل الخلق والقوة. لكني أنا، أنا مؤمن بأن الله هو ربي لا شريك له. ولا أشرك بربي أحدا من الكائنات. لقد كان الواجب عليك أن يمتلئ قلبك من عظمة الله وتفرده بالتدبير والتصرف، عندما انبهرت لجمال جنتك ،وأن تقول : ما كان لهذه الجنة أن تبلغ ما بلغت إلا بفضل مشيئة الله، فإنه لا قوة تؤثر في الكون إلا قوته.

وواصل إن كنت تعتبرني أقل منك ثراء وولدا، فإن هذا لا يضيرني، فأنا آمل في فضل ربي، أرجوه أن يرزقني جنة خيرا من جنتك، وأن يرسل على جنتك من السماء ما يسحقها سحقا فلا يبقي فيها شجرا ولا نباتا، تزلق الأقدام على أرضها ولا تثبت. وعسى أن يذهب الماء الذي كان يرويها في باطن الأرض، فلا تستطيع أن تطلبه فييبس كل ما فيها عطشا.

بيان المعنى العام :

37—41، قال له صاحبه وهو يحاوره....فلن تستطيع له طلبا.

بعد تسجيل القرآن على المشرك المتغطرس مقاله، ودخائـل نفســه، ثنّــى بـرد المـؤمن في محاورته له الذي لم يسكت على الباطل، ولم يلنْ في الحـق، فقـال لــه : عجبــا لــك كيف تكفر بالله، ألم تنظر في خلْقك ! لقد خلقـك الله مـن عناصـر مـن التـراب تحولـت إلى نبات وإلى لحوم وألبان ثم دخلت في تركيـب والـديك فكنـت جـزءا منهـا ببيضـة من الأم وحيوانا منويا من الأب، ثم التلقـيح بينهمـا، ثـم والـى عليـك عنايتـه وألطافـه حتى بلغت مستوى الرجولة والقوة التي أنـت عليهـا. لكـن أنـا أعتـرف بـأن الله هـو ربي، ولا أشرك به سبحانه أحدا في الخلق والتـدبير والتصـرف. وكلمـة "لكنـا" مركبـة من كلمتين "لكنْ" أنا" فأدغمت الكلمتان وليست لكنّ ألحقـت بهـا ألـف كمـا قـد يتبـادر. وتقرأ بدون ألف عند الوصل. ثم واصل كلامه محرضا لــه علــى تغييـر موقفـه منكـرا عليه تصريحاته، معرفا له بما كان ينبغي عليه أن يصـرح بــه لمـا دخـل جنتـه، كـان عليه أن يقول: ما شاء الله. هو مـن بـاب الاقتصـار علـى معنـى مـا شـاء الله كـان. اعترافا بأن النضرة والخضرة، والأشجار المحملة بالثمـار، والمـاء المتفجـر الـذي عـمّ ريُّهُ للجنتين ما كان ليجتمع كل ذلـك لـولا أن الله شـاء ذلـك، فهـو الميسـر للأسـباب. وإن قواك لتضعف عن إنشائهما، فالقدرة والقوة المسخرة هي قدرته سبحانه.

ثم أضاف: إن استكبرت علي فحسبتني، لما كنـت أقـل منـك مـالا وولـدا، أقـل شـأنا منك، فإن ذلك لا يضرني، ولا أراه موجبا لتفضيلك علــي. إن مـا يعمـر بــه قلبــي مـن الإيمان والتعلق بالخير والتواضـع لله هـو فضـل دائـم يصـحبني فـي حيـاتي وبعـد مماتي، وأنا آمل منتظر فضل ربي علي فهو قـادر علـى أن يرزقنـي جنـة خيـرا مـن جنتك. أما ما هزك الطرب لجمعه فأنت مهدد فيـه، فـالله قـادر علـى أن يرسـل علـى جنتك من الآفات ما يمحقها، صواعق مـن السـماء أو قـذائف متتابعـة لا تبقـي فيهـا لا شجرا ولا ترابا فتتحول إلى أرض لا تثبت الأقـدام عليهـا. وأن يـذهب المـاء الجـاري في أعماق الأرض بعيدا فتيبس الأشجار والنبـات، ممـا أنـت مُـزْدَهٍ بــه. وتعجـز عـن استخراجه بعد أن ابتلعته الأرض في جوفها.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أحيط بثمره : عم الفساد ممتلكاته.

خاوية : خالية.
العرش : السقف.
فئة :الجماعة التي يلجأ إليها.
الولاية: الرئاسة. ومنْ قرأها الولاية فهي بمعنى الموالاة والنصرة.
عُقْب :آخرة الأمر. ما يرجوه المرء من سعيه

بيان المعنى الإجمالي :

يبدو المشهد في سرعة وقد ذهب المال وخربت الجنـــة، وهـــو قـــابع فـــي ركـــن يقلّـــبُ كفيه حسرة وندما، ويستحضر ما كان ينفقه فيهـــا راجيـــا مضـــاعفة أموالـــه، فتتضـــاعف حسرته وأساه، ويقول يا ليتني لم أنزلق إلى الشـــرك وأتخـــذ إلهـــا مـــن دون الله. ويتـــراكم حزنه لما خاب ظنه في القوة التي كان ينتظر منهـــا أن تحميـــه وتســـاعده، لـــم يجـــد مـــن النفر الذين تبجح بهم أحدا ينصره، لا أمل له في قريـــب يـــدافع عنـــه .فـــي هـــذا المشـــهد يتحقق أنه لا ولي إلا الله الحق، وأن مـــا عـــداه زائـــف لا حقيقـــة لـــه، وأن ثوابـــه هـــو الثواب الحقيقي الدائم وكذلك العاقبة التي يمكن منهـــا الصـــالحين، هـــي العاقبـــة الحســـنة، وما عدا ذلك باطل وبهرج ليس له ثبات ولا دوام.

بيان المعنى العام :

42—43، وأحيط بثمره فأصبح يقلب..وما كان منتصرا.

بلغ المثل الذي ضربه الله أن كل واحد من الرجلين كشف عما في نفسه، وارتسمت صورة الكافر شامخا بأنفه مستكبرا لا يخشى الله ولا يقيم في حسابه وزنا للتصرف الإلهي. وبدون مقدمات يعم جنتيه وما يملكه من أموال فساد ماحق، فلم يبق له من ممتلكاته شيء. وإذا صورته صورة البائس الحسير الذي يقلب كفيه ندما على ما أنفقه في عمارة الجنتين. ينظر إلى الخراب وقد عم كل ما يملك، مُجسِّمًا كأنه السقف سقط على الأرض ثم انقلبت الجدران عليه. وبجانب منظر الخراب المفزع نفس تأكل ذاتها ندما على انحرافها وكفرها، ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا، حقّ عليه العذاب وذهب المال وعصفت العواصف بالأشجار والثمار فما بقي من ممتلكاته شيء، وغاب ما كان يتبجح به من كثرة أولاده ومواليه، لم يجد منهم جماعة تنصره وقد حلت الكارثة الماحقة. وما كان له أي طريق ينتصر به فهو مهمل للحسرات والكآبة والخسران.

44-هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا.

تتجمع الصورة فيشير إليها القـــرآن بقولـــه: هنالـــك. يبـــدو للنـــاظر المتتبـــع لمـــا ســـاقه المثل من تفصيل كأنه في مكـــان محصـــور، تظهـــر الولايـــة والنصـــرة مختصـــة بـــالله

الموصوف بأنه حق. بمعنى أن ما عداه زائف لا حقيقة لـــه، وهـــو أضـــعف مـــن أن يُعـــدّ بمساعدة. فإن ثواب الله سبحانه أفضل وخيـــر مـــن جميـــع أنـــواع الثـــواب الـــواردة مـــن غيره، إذ هي منقوصة فـــي ذاتهـــا، لا دوام لهـــا ولا ثبـــوت. ومـــا يقـــدره للإنســـان فـــي عاقبته أفضل أيضا.

في هذا المثل ما يوقظ المشـــركين الـــذين طلبـــوا أن لا يشـــرك النبـــي ﷺ فـــي مجالســـه ضعفة المسلمين، وأن يصانع كبريـــاءهم فيطـــردهم مـــن مجلســـه، فيـــه تجســـيم للعاقبـــة الخاسرة للمستكبرين، وأن المال بيد الله يعطيه من يشـــاء وينزعـــه ممـــن يشـــاء، وســـيحل بهم من الخسران ما حل بهذا المشرك الغليظ المستكبر.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحياة الدنيا: الأمد الذي يبقى فيه نظام الكون. ومدة حياة كل فرد.

اختلط به نبات الأرض : وفرة النبات والتفاف بعضه على بعض.

هشيما : محطما مفتتا.

تذروه :يتفرق متطايرا.

الباقيات الصالحات : الأعمال الصالحة التي يبقى ثوابها.

بيان المعنى الإجمالي :

جبلت النفوس على حب الحياة الدنيا ونعيمها، وهذا لا مانع منـــه، ولكـــن ذلـــك قـــد يـــؤثر في تقدير الأمور تقديرا خاطئا يتبعه التعلق بالحياة الـــدنيا تعلقـــا يغفـــل بـــه الإنســـان عـــن ربه، فأيقظه القرآن بمقارنة بين الحياة الـــدنيا وبـــين المـــاء النـــازل مـــن الســـماء الـــذي يسري في الأرض فتصبح الأرض مخضرة، ومـــا يـــزال ينمـــو نباتهـــا وتتشـــكل ألوانـــه مع الخضرة بالزهور فيبهج النفس، ولكن بعـــد مـــدة لا تطـــول تجـــف العـــروق والأوراق والأغصان، وتفتت ويسفيها الريـــاح فتتطـــاير فـــي الجـــو هبـــاء منثـــورا. ويكـــون ذلـــك مظهرا من مظاهر القدرة الإلهية. وهكذا الدنيا بالنسبة للآخرة.

إن من أفضل مباهج الحياة الدنيا المال والبنون. فهي نعم تعطي للحياة زينة وجمالا. ولكنها نعم غير باقية تفنى الآمال فيها بفنائها. وفي المقابل فإن الأعمال الصالحة لا يضيع شيء من أجرها، ثوابها عند الله، وصاحبها على أمل العون من ربه في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام :

45- واضرب لهم مثل الحياة الدنيا....على كل شيء مقتدرا.

يشد الواقع الحاضر الفكر فيظنه باقيـا، ويمضـي علـى غفلتـه تلـك، فيوقظـه الـوحي بضرب المثل القريب ليؤلف منه نظيرا يقرب الحقيقـة التـي لـم ينتبـه إليهـا. إن الـذي يحجب العقل عن استحضار المآل هو ما يحيط به مـن نعـيم، فـيظن أن ذلـك النعـيم لا يزول. ولكنه زائل غير باق. فيقرب القرآن ما تقدمـه الحيـاة الـدنيا للبشـر مـن ترفيـه، وما يحضره من أنواع النعيم، بالماء النـازل مـن السـماء، يسـري فـي طبقـات الأرض فيخرج بسببه مختلف أنواع النبات، ومـا زال الـريُّ يجـري فـي العـروق حتـى ينمـو ويلتف بعضه على بعض ويكسو وجـه الأرض بخضـرته اليانعـة، وبزهـوره المشـكلة الألوان، فتراه يحدثك بالحياة وبالجمال.

وفي وجه آخر من هذا المشـهد الجميـل تـذهب الخضـرة، ويجـف الـرواء، وتتكسـر الفروع ثم تتفتت، فتطير هباء في الجـو. والحالتـان تمـثلان مظهـرا يـدل علـى كمـال القدرة الإلهية، والتصرف في الكـون بالبنـاء والهـدم، ويخضـع النبـات إلـى الـزوال والموت كما خضع إلى الحياة. وهكذا أمر البشر، نعيم الحيـاة بالنسـبة لكـل فـرد زائـل، والأرض وما عليها والسماوات وما تحويه أمرها إلى زوال.

46- المال والبنون زينة الحياة الدنيا... وخير أملا.

إن الذي يغشي على بصائر المشركين هو ما جمعوه مـن مـال، ومـا رزقـوا مـن أولاد. وقد رأينا صورة ذلك في المستكبر صاحب الجنتين " **أنا أكثـر منـك مـالا وأعـز نفـرا** " وهذا يبين من ناحية أخرى ما ورد في الآيـة السـابقة التـي تمـت فيهـا المقارنـة بـين الحياة الدنيا وما تنبته الأرض. فلفتت هذه الآية النظر إلـى مقارنـة بـين المـال والبنـين من ناحية، وبين الأعمال الصالحة من ناحية أخرى. نعـم للمـال وللبنـين قيمـة إيجابيـة في الحياة، ولكنها قيمة ظاهرية غير نافـذة إلـى الهيكـل الحقيقـي، همـا زينـة يلفتـان النظر، محبوبان للـنفس، وخيـر منهمـا الأعمـال الصـالحة، ذلـك أن المـال والبنـين زائلان لا يتصفان بالبقاء السرمدي، ولا بالنفع الـدائم، بينمـا الأعمـال الصـالحة ثوابهـا مدخر عند ربك الذي لا تضيع الودائـع عنـده، ومـن المقـرر أن العـاملين للصـالحات سيلقون عونا في الدنيا ورضا من ربهم. قـال تعـالى: **مـن عمـل صـالحا مـن ذكـر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**[1].

---

[1] سورة النحل آية97

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

بارزة : ظاهر وجهها وقد فني كل ما عليها.

وعرضوا : أُحْضروا غير محجوبين بحاجب.

الزعم : القول الخاطئ والاعتقاد المخطئ.

موعدا :حياة بعد الموت.

مشفقين : خائفين.

لا يغادر : يسجل ولا يترك.

الإحصاء : العد.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يا محمد يوم نُفِّتت الجبال فتسير هباء، وترى، كأنك تشاهد، مظهر الأرض وقد زال كل ما كان على ظهرها من نبات وحيوان، وجُمع المشركون كلهم فلم يتخلف منهم أحد،؛ ثم عرضوا صفا كحال المجرمين الحاملين لوثائق اعترافاتهم بما فعلوه وما اعتقدوه، ثم يخاطبون من رب العزة خطاب التقريع والتنديم : ها أنتم قد جئتمونا مضطرين لا خيار لكم ولا قدرة، كحالتكم يوم خلقناكم أول مرة في الدنيا، إذ ما كان لكم اختيار في يوم خلقكم الأول ، بل إنكم كَذَّبْتُمْ بدعواكم أنه لا بعث.

ومن شؤون الآخرة أن الله يضع الكتاب المحصي على البشرية عامة ما صنعت، ويمكن كل مجرم من كتابه الخاص، فيرى كل من تمكن منه الرؤية على وجوه المجرمين الخوف مما حواه، ويقولون في حسرة وتعجب : ما الذي جعل هذا الكتاب بلغ من الدقة في التسجيل أنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا سجلها ووثقها ! وجدوا كل أعمالهم ناطقة بما صنعوه. والله لا يظلم أحدا، فقد بعث إليهم الرسل وبين لهم الخير والشر، وما سجل في صحائفهم إلا ما صدر عنهم فعلا.

بيان المعنى العام :

47- ويوم نسير الجبال وترى الأرض....فلم نغادر منهم أحدا.

الأيات السابقة تشير إلى الحياة الأخرى. وهنا تصـــريح بـــبعض مـــا يـــتم يـــوم البعـــث. اذكر يا محمد اليوم الذي نسير فيه الجبال مما يفيـــد أنهـــا تتقلـــب هبـــاء تتحـــرك حركـــة كثبان الرمل، ولا يقف المشهد عنـــد الجبـــال التـــي كانـــت راســـية عاليـــة قممهـــا، بـــل الأرض كلها تبدو جرداء لا نبات ولا حيـــوان. والحـــال أننـــا حشـــرناهم وجمعنـــاهم مـــن الأماكن التي كانوا فيها، ولم نبق أحدا. دُعُوا فأجـــابوا الـــداعي، كمـــا يجلـــب المغنـــاطيس جزيئات الحديد إليه.

48-وعرضوا على ربك صفا لقد....أن لن نجعل لكم موعدا.

جلبوا من مراقدهم ليتم عرضهم على خـــالقهم، كمـــا يعـــرض المجرمـــون علـــى القضـــاء يحملون وثائق اعترافاتهم. ثم يواجهون بخطـــاب مـــن الله، فيـــه تقريـــع وتهديـــد وإثـــارة للندم على ما اعتقدوه من أنهم غير مبعوثين. مع تذكير بأن خلقهـــم فـــي هـــذا اليـــوم هـــو كخلقهم يوم وجدوا في الدنيا، ويقع الإضـــراب عـــن الكـــلام الأول ليواجهـــوا بمـــا كـــانوا يقولونه معتقدين له: أنه لا حياة بعد الحياة الدنيا.

49- ووضع الكتاب فترى المجرمين..ولا يظلم ربك أحدا.

يتلو الحشر العام والحضور في المجمع المقـــدر، وضـــع الكتـــاب العـــام الحـــاوي لجميـــع ما عمله البشر في حياتهم الدنيا. نســـخة مـــن الكتـــاب مســـجلٌ فيهـــا أعمـــال كـــل فـــرد، ويفتضح المجرمون فكل من تصح منه الرؤيـــة يشـــاهد الفـــزع الـــذي عليـــه المجرمـــون، وقد استولى عليهم الخوف مما تضـــمنه الكتـــاب الحـــاوي لأعمـــالهم، هـــم يقولـــون فـــي أسف وحيرة وتعجب :ما الذي جعل هذا الكتاب مختصـــا بتســـجيل كـــل أعمالنـــا، عجبـــا له لم يترك صغيرة من أعمالنا التي فعلناها فـــي الـــدنيا، ولا كبيـــرة، إلا حفظهـــا ووثقهـــا! ويحقق القرآن أنهم استوعبوا في سرعة عجيبـــة هـــي مـــن أحـــوال الآخـــرة، إذ وجـــدوا كل أعمالهم حاضرة أمامهم. ويأتي التعليق المقرر للحقيقـــة الســـرمدية التـــي ذكـــروا بهـــا في الدنيا فلم يذكروا : إن ربك يـــا محمـــد لا يظلـــم أحـــدا، أمـــر ونهـــى وبعـــث رســـله، ويثبت في كتاب أعمالهم ونياتهم ويعرضها عليهم فيقروا بها.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ

عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

فسق: خرج عن الطاعة إلى المعصية.

الذرية : النسل.

الولي : القريب الصديق المعتمد عليه.

ما أشهدتهم : ما أحضرتهم.

المضلين: الشياطين.

العضد : العظم الذي بين المرفق والكتف. وشاع إطلاقه بمعنى المعين على العمل.

موبقا: مهلكا، مكان هلاك.

ظنوا : الظن هنا بمعنى التحقق.

مواقعوها : واقعون فيها.

المصرف : مكان للتخلص.

بيان المعنى الإجمالي :

تذكير بقصة خلق آدم. اذكر يا محمد مجددا ما تم يوم قلت للملائكة اسجدوا لآدم سجود تكريم بطريقة تناسب الملائكة، وليست بوضع الجبهة على الأرض إذ الملائكة ليست لهم جباه ولا مفاصل، ولكنه سجود يتناسب مع خلقهم ومع تنزيه الله سبحانه. وأن الملائكة أطاعوا وسجدوا، وأن إبليس الذي كان من الجن وليس من جنس الملائكة وشمله الأمر، عصى ربه ولم يسجد مستكبرا. وحسد آدم حسدا سرى في ذريته، وتمكنت عداوتهم للجنس البشري. فالعجب من الذين يتخذون الشيطان وذريته عمدة يتبعونهم ويأتمرون بأوامرهم، مع هذا العداوة المتأصلة المستحكمة. ما أسوأها صفقة يستبدلون فيها طريق الهدى بسلوك مسالك الضلالة.

كيف يعبدون الشياطين !والشياطين ما كانوا مخلوقين يوم خلق الله السماوات والأرض، وكذلك ما تسلسل من ذرية الشياطين تم خلقهم بقدرة الله وحده، إذ لا يتصور أن يكون الشيطان مصدر الشر والخبث، مساعدا لله مصدر الكمال والخير.

واذكر أيضا عارضا، مشهدا من مشاهد يوم القيامة. يوم يقول الله يوم الحشر للمجرمين: اطلبوا من شركائي الذين ادعيتم باطلا أنهم آلهة فعبدتموهم في الدنيا

وتقربتم إليهم لنصركم والشفاعة لكم. وصـــدرت مـــنهم صـــيحة الفاقـــد للنصـــير مســـتغيثة بهم، ولشد ما كانت خيبتهم لم يسمعوا مـــنهم جوابـــا، بـــل جعـــل الله بيـــنهم فوهـــات مـــن النار. ثم ظهرت لهم نار جهنم تستعر فحصل لهـــم اليقـــين أنهـــم يقعـــون فيهـــا ويكونـــون جُزْءا منها تتوقد بهم، وحل اليأس محل الأمل، وأحيط بهـــم لـــم يجـــدوا عـــن جهـــنم أي ملجأ ولا مخلص.

بيان المعنى العام :

50-وإذقلنا للملائكة اسجدوا...للظالمين بدلا.

انقسم هذا التذكير في الآية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: أمر الله ملائكته بالســـجود لآدم فأطـــاعوا وســـجدوا. وقـــد تقـــدم ذلـــك فـــي سورة البقرة. وكان الأمر شاملا لإبليس، باعتبـــار أنـــه كـــان يعـــيش مـــع الملائكـــة، وإن كان عنصره من مارج من نار، وعنصـــر الملائكـــة مـــن نـــور. وظهـــر الفـــرق بينهمـــا بخروجه من الطاعة إلى المعصية " فَفسق عن أمر ربـــه " فـــتم تســـجيل موقـــف إبلـــيس الوقح، الموقف الذي زاد في شناعته أنه كان مـــدركا لوضـــعه : إن الـــذي خلقـــه وتـــولاه بعنايته هو الذي أمره "ربه" ومع ذلك خـــرج مـــن دائـــرة الطاعـــة إلـــى دائـــرة العصـــيان والاعتراض.

القسم الثاني :الإنكار على من يعتمد إبليس ونسله مع ما طبعـــوا عليـــه مـــن الشـــر ومـــن عداوة بني آدم، وخبثهم بالوسوسة مـــا يوقعـــونهم بـــه فـــي الضـــلال والكفـــر. يتبعـــونهم معرضين عن الاعتمـــاد علـــى هدايـــة الله، مـــع أن الله يـــدعوهم إلـــى الطريـــق الراشـــد الأمن الذي يسعدهم في الدنيا والآخرة.

القسم الثالث : التقويم لاتخـــاذهم الشـــياطين أوليـــاء مـــن دون الله : هـــو أســـوأ حاضـــرا وعاقبة، وضلال مبين باستبدال النور الـــذي يـــأتيهم مـــن الله باتبـــاع الشـــيطان وتزيينـــه. فما أسوأه بديل للذين ظلموا أنفسهم : بئس للظالمين بدلا.

51- ما أشهدتهم خلق السماوات...المضلين عضدا.

استدلال على مضمون الآية الســـابقة التـــي تنكـــر علـــى المشـــركين تعلقهـــم بالشـــياطين وانصرافهم عـــن هدايـــة الله التـــي تفضـــل بتـــوجيههم إليهـــا عـــن طريـــق رســـوله ﷺ. وحاصل ذلك : إن الشياطين الذين تتعلقـــون بهـــم وتـــأتمرون بمـــا يـــدفعونكم إليـــه مـــن الشرك والضلال، هم محدثون سبق العدم عليهم، ومـــا وُجـــدوا إلا بعـــد خلـــق الســـماوات والأرض، فما كانوا موجودين يوم نفذت الإرادة القـــدرة الإلهيـــة إحـــداثهما، فضـــلا عـــن مشاركتهم لله في الخلق، فما أشهدتهم تدل علـــى نفـــي مشـــاركة الشـــياطين فـــي الألوهيـــة

والخلق على أبلغ وجه. ومـا كانـت الشـياطين بمسـاعدة لله علـى خلـق الشـياطين ولا حاضرة، فهم غائبون، لا أثر لهم لا فـي خلـق السـماوات والأرض ولا فـي خلـق مـا يتتابع من نسلهم.

وكيف يكون الكامل في ذاته وفي تصرفه، الحكـيم الـذي يقـدم لعبـاده مـا يهـديهم إلـى الرشد والحق، كيف يكون مستعينا بمـن محـض نشـاطه للشـر والإغـواء ؟ومـا كنـت متخذ المضلين عضـدا. علـى معنـى أن مفـيض الخيـر لا يعقـل أن يسـتعين بمـن لا ينشط إلا في التضليل والإغـواء. إنـه لا يـتم التعـاون إلا بـين المتجانسـين تعـالى الله علوا كبيرا، الله هو الخير المطلـق والشـيطان هـو الشـر المطلـق. وتكـون الآيـة ردا على المشركين وعلى الطبيعيين وعلى كل متخرص يقول بغير علم ولا دليل.

52- ويوم يقول نادوا شركائي...وجعلنا بينهم موبقا.

واذكر أيضا مشهدا من مشاهد يوم القيامـة، هـذا المشـهد يخاطـب الله فيـه المشـركين بما يحدث فيهم داعية لمناداة شركائهم الذين كـانوا يسـتندون إلـيهم فـي الـدنيا، هـؤلاء الذين كانوا يزعمون أنهم شركاء لله في الخلـق، أحقـاء بالعبـادة والتقـرب والاسـتغاثة ؛ اطلبوا منهم أن يقبلوا عليكم لنصرتكم وليشفعوا لكـم. وتنطلـق حنـاجرهم مناديـة داعيـة مستغيثة، وتخيب آمالهم فلا من مجيب، ممـا يضـاعف حسـرتهم علـى الضـلال الـذي كانوا عليه. ويقترن بذلكم الألم النفسي أن الله يجعل بـين المشـركين وبـين آلهـتهم، إثـر دعائهم، فوهات من نار جهنم. سـتزيد الآيـة التاليـة تفصـيلا لمـا يتبـع هـذا الكشـف الحاصل إثر النداء.

53- ورأى المجرمون النار...ولم يجدوا عنها مصرفا.

انفتحت تلكم الفوهات مـن جهـنم، ورأى المجرمـون، بـالكفر والإعـراض عـن هدايـة الله، نار جهنم تستعر، وهي محيطة بهم مـن كـل جانـب، وبمـن كـانوا يعظمونـه مـن الآلهة وهم في مواقع الذل يحـيط بهـم مـا أحـاط بهـم. فتيقنـوا أنهـم سـيقعون فيهـا فتحويهم وينقلبون جزءا منها، كما قـال تعـالى: وقودهـا النـاس والحجـارة [1]- وعبـر عن تحققهم ذلك بالظن استهزاء بهم. ولم يجدوا فـي ذلكـم الموقـف الحـرج أي مخلـص ولا منفذا للنجاة " ولم يجدوا عنها مصرفا"

---

[1] سورة البقرة آية 24

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

صرفنا : نوعنا ولم نجعلها نمطا واحدا.

الناس : اسم جامع لكل من يبلغه القرآن في الحاضر والمستقبل.

الجدل : المنازعة في القول، قد تكون بحق وقد تكون بالباطل عنادا.

الأولين : الضالين قبل عهد البعثة المحمدية.

سنة الأولين : الحالة المألوفة.

قبلا :جمع قُبُل بمعنى أنواع من العذاب.

دحض الحق : إزالته وإبطاله.

الهزو : السخرية.

أكنة: جمع كنان وهو الغلاف الساتر.

ما قدمت يداه : ما قدم من السوء عقيدة وعملا.

القلوب : المدارك.

الأكنة : جمع كنان بمعنى الغطاء الحاجب.

يفقهوه : يدركوا باطنه.

بيان المعنى الإجمالي :

نوع القرآن الأمثلة الواقعية التي تقرب هداية الإسلام إلى العقول وإلى القلوب، وبالنظر إلى طبيعتها فإنه كان من المفروض أن يقبلها المخاطبون بها، ولكن ما فطر عليه الإنسان من النزاع لتثبيت ما هو عليه ولو بالباطل، جعلهم يجادلون ويحاولون رد الحق الذي جاء به الإسلام عقيدة وتشريعا.

إن الذي منع الكافرين من الإيمان والدخول في دين الله، وإدراك أنهم على ضلال يحتم عليهم طلب المغفرة، بعد ما وضح لهم من الهدى بضرب الأمثال، وبيان الرسول والدلائل التي ترفع الشك في صدقه، إن الذي منعهم هو انتظارهم أن يحل بهم ما حل بالأمم السابقة من أنواع العذاب المستأصل الذي ذكره القرآن، أو يستقبلوا أنواعا أخرى لا عهد للبشرية بها.

وما بعث الله رسله إلا ليغرضوا بأتم بيان وأوضحه ما يبشر بالسعادة المتقين، وينذر بالعذاب الكافرين الرافضين. وما بعثوا ليشغلوا أنفسهم بالجدال مع الذين صمموا على الرفض، والجدال بالباطل، والعزم على هدم الحق. وضموا إلى ذلك الاستهزاء بما توعدهم القرآن وما أنذرهم من سوء مصيرهم.

إنه لا يوجد ظلم أشد من ظلم الذين تفضل الله عليهم بعنايته وأرسل لهم رسله، وعرض على عقولهم وحواسهم الآيات البينة، ومع ذلك أعرضوا عن الالتفات إليها وتدبرها. وبلغ من غفلتهم أن ما قاموا به من سيء الأعمال أصبح نسيا منسيًا لا تلومهم نفوسهم عليه. صمموا على الكفر والعناد فجازاهم الله من جنس تصميمهم أن جعل قلوبهم محجوبة بحجاب لا تستطيع أن تعقل أسرار آيات كتابه، وأصم آذانهم عن الاستماع لدعوة رسوله. ولذلك فإنك وإن بالغت في دعوتهم إلى الهدى فإنهم لا يهتدون.

بيان المعنى العام :

54-ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن...أكثر شيء جدلا.

غير بعيد عن هذه الآية ضرب القرآن مثلا واصل تفصيلاته من آية 32إلى اية 43 وأتبعه بمثل آخر آية 44- وضرب الأمثال طريقة قرآنية تساعد على التأثير على السامعين بالبيان والخوف والرجاء. وهي متنوعة المواضيع مختلفة الأسلوب في العرض تحرك مدارك غير المعاندين الرافضين لقبول ما يقصد إليه القرآن في الغرض الخاص، أو في الهداية الشاملة لاتباع طريق الحق. ونظرا إلى أن الأمثال منغرسة في الواقع تقيم مقارنة بين الواقع وبين الحقيقة التي يعمل القرآن على تركيزها في العقول والقلوب، ونظرا إلى أنها متنوعة، ونظرا إلى أنها تكررت تكرُرا يغطي جوانب عديدة، فإنه كان من المنتظر أن يحصل الاقتناع بما يدعو إليه الإسلام من عقيدة وتشريع. ولكن لم ينفع فيهم تنويع الأمثال وتعددها، فثار فيهم ما فطر عليه الإنسان من غريزة الأنانية وحب الذات، الأمر الذي يدفعه إلى رفض ما يرد عليه مما يغير النمط الذي يسير عليه، فكان عامل الغريزة المنحرفة حاجبا عن

تبين ما في هذه الأمثال من تقريب لما ورد على لسان رسـول الله ممـا يغيـر مـا ألفـوه. والمجادلة قد تكون حسنة مقبولة إذا كان هدفها إظهـار الحـق أو دحـض الباطـل، وبهـا يقنع الصالحون المنحرفين وبها تتم هداية الضالين، وقـد تكـون ذميمـة إذا كانـت بـدافع التصميم على الباطل ومحاولة دحض الحق.

55- وما منع الناس....أو يأتيهم العذاب قبلا.

تكميلا لما أفادته الآية السابقة تكشـف هـذه الآيـة : أنـه بـالرغم مـن تعـدد الأمثـال، وتنوع البيان، ومنطقية هـذا الـدين ومسـاوقته للفطـرة واعتمـاده قـوانين العقـل، فـإن السؤال المحير الناشئ هو، ما الذي منع الكافرين من قبـول الـدين الإسـلامي ولمـاذا لـم تستيقظ ضمائرهم فيدركوا فساد ما هم عليه، ويُعجّلـوا بطلـب المغفـرة عـن ذنـوبهم؟ إن الذي منعهم هو الذي منع من كـان قـبلهم مـن الأمـم التـي رفضـت دعـوة الرسـل وأعرضوا عما شـاهدوه مـن الآيـات والـدلائل القائمـة علـى صـدقهم ؛ هـو العنـاد والاستكبار عن قبول الحق إلـى أن يتسـلّط علـيهم العـذاب. علـى معنـى أن الكـافرين بالقرآن ليس لهم ما يبرر امتناعهم من قبول هدايـة الله، إلا أمـر واحـد، هـو أن تتحقـق فيهم سنة الله في الذين كانوا قبلهم من المكـذبين، أي إنـه يستأصـلهم بنـوع مـن أنـواع ما سلطه الله على الأمم السـابقة كالطاغيـة، والعاصـفة، والـريح الصرصـر، والغـرق، والرجة، مما ذكره القرآن جزاء للمكذبين. أو يسلط علـيهم أنواعـا أخـرى مـن العـذاب التي منها القتل كما تم في بدر.

56-وما نرسل المرسلين إلا مبشرين....وما أنذروا هزؤا.

الآيتان السابقتان كشفتا عن داء الجدل المستحكم من الكافرين، كلما قام برهان ورفعت الشُبهُ وتجلت الحقيقة. ظهروا بمظهر استيلاء العناد عليهم والمكابرة وعدم الرضوخ للحق، مع أن رسل الله للبشرية لم يبعثهم ربهم للجدل ولا ليصرفوا جهودهم للمعاندين المصممين، وإنما بعث رسله لينبهوا الخلق بعاملي البشارة لمن اتبعهم وعمل صالحا، والإنذار من سوء العاقبة لمن أعرض عنهم وأساء. فوظيفتهم هي إخراج الناس من غفلتهم وبيان العقيدة والتشريع بيانا مقنعا. ولكن الذين كفروا يصرفون جهودهم للجدل، وتقديم أباطيلهم بضروب من التلبيس ليشغلوا الرسل عن مهمتهم، وليقلقلوا الحق الذي معهم حتى ينحرف عن مساره، إذ الدحض في أصل معناه، يقال في الرجل إذا انزلقت ولم تثبت في المكان الذي تحولت إليه.

و يجمعون إلى جدلهم بالباطل لإزالة تأثير الهـدى، اتخـاذهم آيـات القـرآن ومـا نـزل فيه مـن النـذر الموقظـة مجـالا للسـخرية والاسـتهزاء والاسـتخفاف، ممـا يصـرف الدهماء والعوام عن الإيمان.

57- ومن أظلم ممن ذكر بآيات...فلن يهتدوا إذا أبدا.

تفتح الآية بالسؤال الإنكاري (من) فكانت صـياغتها مثيـرة للـذهن ليبحـث ويتأمـل فـي الساحة ويقارن بين أوضاع البشر ليتبين مـن أشـد النـاس إغراقـا فـي الظلـم، فينتهـي إلى الإقرار بأن أشدهم ظلما لنفسه وللحقيقـة، هـو الـذي تـم تحريـك ذهنـه ومداركـه بالأدلة والآيات البينات؛ فأسـرع لاتخـاذ موقـف غريـب هـو عـدم الالتفـات إليهـا، ورفض التأمل فيها. ووجه الغرابة أن ما جاءه مـن ربـه ينبهـه إلـى فسـاد مـا قدمـه وسوء عمله. فهي آيات توقظه وتكشف له مـآلات أفعالـه التـي كانـت محجوبـة عنـه. وشأن العاقل أنه إذا نُبه أن ينتبه، فإعراض المشركين عـن مراجعـة أنفسـهم عـن قبـائح أعمالهم ظلم لنفوسهم، فصورتْهُم الآية في صورة من بلغـت بـه الغفلـة بالناسـي، لذاتـه تقبيحا لشأنهم وتقريعا لهم.

إن هذا الموقف الرافض قد استولى عليهم فـأقفلوا عقـولهم عـن التـدبر فـي آيـات الله، وبمجرد ما يقرع أسماعهم صـوت رسـول الله يـدعو إلـى ربـه ويبلـغ آياتـه وهـداه، ينصرفون عنه. جازاهم الله عن تصـميمهم علـى الـرفض والعنـاد أن حـرمهم ألطافـه، وغطى على عقولهم بغطاء صـفيق لا يمكـنهم مـن النفـاذ إلـى فهـم أسـرار القـرآن، وأصم آذانهم عن سماع صوت الحق.

إن من سنن الله في الخليقة، أنهم إذا عزموا على مـنهج فـي الحيـاة، وتواصـل تطبـيقهم له، والعمل به، وصمموا على الالتزام به وأصـروا علـى التمسـك بـه، فإنـه مـع هـذه الخلفية لا يتحولون بعد انغراس ذلك، بالاختيار والعمـل والتطبيـق. وعلـى هـذا النحـو يعلم الله نبيه ﷺ أن هؤلاء المشـركين لا يهتـدون لا فـي الحاضـر ولا فـي المسـتقبل، وستنتهي حياتهم الدنيا وهـم علـى ضـلالهم، فـلا تحـزن ولا تبتـئس، فتلـك سـنة الله الماضية في البشر.

وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغفور : شديد الغفران لكثرة ما يغفر ولقوة غفرانه الذي لا يدع أثرا للذنب.

موئلا : منجى.

بيان المعنى الاجمالي :

إن ربك الذي تولاك بعنايته، وواصـــل أســـداد إنعامـــه عليـــك هـــو الكـــريم الـــذي يغفـــر ذنوب التّائبين مهما عظمت. و هو الـــرّحيم بعبـــاده تشـــمل رحمتـــه مـــا لا يحصـــى مـــن النّعم، من الخيرات التي يوصلها لهم، و مـــا يـــدفع عـــنهم مـــن الشّـــرور والآلام. و مـــن عظيم رحمته إمهاله بعدم تسليط العقوبة فـــي الحـــال، عســـى أن يـــؤمن الكـــافر و يتـــوب العاصي.

و لولا رحمة ربك لسحقهم بمجرّد مـــا يظهـــر مـــنهم مـــن الكفـــر أو المعاصـــي. دون أن يجدوا منجى ينجّيهم. و تقوم أمـــام أنظـــاركم شـــواهد مـــن القـــرى التـــي أهلكناهـــا مـــع ساكنيها لما صمّموا على الشّرك واستمرّوا عليه. تحقّق إهلاكهم في الموعد المقرر.

بيان المعنى العام:

58 -وربك الغفور...لن يجدوا من دونه موئلا.

إذا كانت الآية الســـابقة حققـــت أن الله طبـــع علـــى قلـــوب المعانـــدين وأســـماعهم، فإنـــه سبحانه مع ذلك يتولى المـــذنبين فيســـتر علـــيهم ذنـــوبهم، ويمحـــو آثارهـــا الســـيئة مـــن صحائفهم، إذا هم أقلعوا وتابوا. إن مغفرة ربك يا محمـــد مغفـــرة عظيمـــة شـــملت عـــددا لا يحصى من المذنبين، وأنواعا مختلفـــة مـــن الـــذنوب والتجـــاوزات مـــا عـــدا الشّـــرك بالله. وبهذا تكون هذه الآية مؤكـــدة لمضـــمون الآيـــة الســـابقة، أن مـــا حـــل بهـــم مـــن الطبع على قلوبهم وعلـــى أســـماعهم كـــان جـــزاء مـــا رغبـــوا فيـــه وعملـــوا عليـــه، إذ أعرضوا عن التعرض لمغفرته ورحمته. ومـــن ناحيـــة أخـــرى فـــإن موقـــع هـــذه الآيـــة جار على ســـنة القـــرآن فـــي الهدايـــة أن يقـــرن بـــين الترغيـــب والترهيـــب، والبشـــارة والنذارة.

ورحمته سبحانه شملت حتى الكافرين، فإنه ســـبحانه لـــم يعـــاجلهم بالعقوبـــة، بـــل أفســـح لهم المجال، ليقلعوا عن ضلالهم، وعندها يغفر لهـــم مـــا ســـبق. "قـــل للـــذين كفـــروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد ســـلف"[1] فإمهـــالهم محقـــق للرحمـــة، وقبـــولهم محقـــق لوصـــف الغفور.

و ليس الإمهال إلا رحمة منه، لا مطمع لهم فـــي النجـــاة والانفـــلات مـــن العقوبـــة، فـــإن الله قد ضرب لهم الموعد الذي يجزيهم فيه، عمـــا قـــدموا. وهـــو موعـــد لا يجـــدون منـــه نجاة ولا ملجأ يحميهم. يتحقق في الزمن الذي قدره وفي المكان الذي أعده للحساب.

---

[1] سورة الأنفال آية 38

59-وتلك القرى أهلكناهم...لمهلكهم موعدا.

يحقق ما جاء في الآية السابقة، من أن المشركين لا ينفلتون من عذاب الله. ما جرى على أهل القرى الذين أهلكهم الله ومحقهم، وهي معلومة لهم حاضرة في أذهانهم، تبعا لما شاهدوه من خراب ديارهم، ولما تكرر على أسماعهم من أهل الكتاب عن أخبار قوم نوح وفرعون وغيرهم. وحقق أن استئصالهم كان بسبب ظلمهم. وأن الله قد حدد لكل شيء أجله. وما حدده لا يختل ولا يتقدم ولا يتأخر عن موعده.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفتى : الشاب، والمقصود به هنا التابع للخدمة.

لا أبرح : أواصل السير ولا أفك عنه.

مجمع البحرين : روايات عديدة في تحديده من أرض فلسطين قد يكون مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية. أو ملتقى البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، أو هو مضيق جبل طارق.

أمضي : أسير.

حقبا : زمنا طويلا.

السرب : النفق.

الغداء : طعام النهار.

النصب : التعب.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر هذه القصة العجيبة إذ أعلم موسى عليه السلام فتاه وهما مسافران: أن سفرهما هذا سيستمر حتى يصلا إلى مجمع البحرين. وإذا لم يبلغاه عن قرب فسيواصلان متابعة الطريق حتى يصلا إليه. وبلغا فعلا مجمع ما بين البحرين دون أن يعلما أنه الموعد

الذي سيلقى فيه موسى الخضر عليه السلام الذي سيأخذ عنــه العلــم الــذي فاتتــه معرفتــه. ونــام موسى وبقي غلامه يقظان.

وتحرك الحوت في ذلك المكان وعادت لــه الحيــاة وســلك طريقــه إلــى البحــر وأخــذ يعوم في الماء. نسي موســى أن يتفقــد الحــوت، ونســي الفتــى أن يخبــر موســى بمــا حصل. فأنشأ السير من جديد إلى أن لحق التعبُ موســى عليه السلام مــن الســير، وقــد ارتفــع النهار، فطلب من غلامه أن يعد الغداء وقال له : لقــد انهكنــا الســير. وتــذكر الفتــى مــا كان نسيه، فأعلم نبيه أنه لما اتخذا من الصخرة مكانا اســتراحا فيــه وأخــذ موســى فيــه حظه من النوم، في ذلك المكان تحرك الحوت وخرج مــن المكتــل وتوجــه إلــى البحــر وعادت إليه الحياة كاملة، وأخذ يسبح في البحر علــى طبيعتــه كأنــه لــم يفــارق الحيــاة أصلا. وواصل : إنه لأمر عجب.

بيان المعنى العام:

60 - وإذ قال موسى لفتاه...أو أمضي حقبا.

اذكر للناس هذه القصة العجيبة التي تكشف عن نظــام فــي الكــون الــذي لا يبلــغ إلــى الإحاطة به إلا رب العالمين. قد يقربنا مــن إدراك مشــاهدها مــا رواه الإمــام البخــاري رضي الله عنه في صحيحه. آثرت أن أنقله عنه.

روى البخاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قــال: حــدثني أبــي بــن كعــب أنه سمع رسول الله ﷺ يقــول: إن موســى قــام خطيبــا فــي بنــي إســرائيل، فســئل أي الناس أعلم ؟ فقال: أنا – فعــتب الله عليه إذ لم يردَّ العلــم إليــه (أي لــم يقــل: الله أعلــم) فأوحى الله إليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منــك. قــال موســى: يــا رب كيــف لي به ؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل فحيثمــا فقــدت الحــوت فهــو ثــمَّ. فأخــذ حوتا فجعله في مكتل، فانطلق وانطلــق معــه فتــاه يوشــع بــن نــون، حتــى إذا أتيــا الصخرة وضعا رأسيهما فناما، واضطرب الحوت في المكتــل فخــرج منــه فســقط فــي البحر – فاتخذ سبيله في البحر سربا – وأمسك الله عــن الحــوت جرْيَــةَ المــاء فصــار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صــاحبه أن يخبــره بــالحوت، فانطلقــا بقيــة يومهمــا وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقــد لقينــا مــن ســفرنا هــذا نصبا.– قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكــان الــذي أمــر الله بــه. فقــال لــه فتاه : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نســيت الحــوت ومــا أنســانيه إلا الشــيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبــا– قــال : فكــان للحــوت ســربا ولموســى ولفتــاه عجبا. فقال موسى : ذلك ما كنا نبــغ فارتــدا علــى آثارهمــا قصصــا – قــال : رجعــا

يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوبا، فسلم عليه موسى. فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام ! قال: أنا موسى. قال موسى بني إسرائيل ؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا- قال : إنك لن تستطيع معي صبرا - يا موسى إني على علم من علم الله علّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه، فقال موسى - ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا- فقال له الخضر :فإن اتبعتني فلا تسألن عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبا السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا. قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا -قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا -.قال : وقال رسول الله ﷺ، وكانت الأولى من موسى نسيانا قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة فبينا هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله. قال له موسى: أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا- قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا - قال وهذا أشد من الأولى- قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا- فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض - قال : مائل، فقام الخضر فأقامه بيده. فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا - لو شئت لاتخذت عليه أجرا - قال هذا فراق بيني وبينك - إلى قوله - ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا- فقال رسول الله ﷺ : وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما ؛ قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ -وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا - وكان يقرأ - وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين[1].

المشهد الأول: يخاطب موسى عليه السلام فتاه وهما يسيران، فيعلمه من أول الأمر أنهما سيواصلان سفرهما إلى أن يبلغا مجمع البحرين، أو أن يتابعا السير أزمانا. ومجمع

---

[1] فتح الباري ج10ص 25/24

البحرين مكان أوحى الله إلى موسى أنه يجد الخضر عنـده، وهـذا الرجـل الصـالح قـد حصل على علم من عند الله لا يعلمـه موسـى. والـذي فهمتـه مـن هـذه الآيـة أن الله أعلم موسى أنه سيجد الخضـر فـي مجمـع البحـرين، وأن موسـى ﷺ لا يعلـم علـى وجه الدقة المسافة التي سيقضيها حتى يبلـغ ذلـك المكـان، وأن الله قـد أقـام لـه أمـارة عليه، هي أن تعود الحياة للحوت الذي تزود به، فيكـون المعنـى أنـه سيواصـل السـير إلى أن يبلغ مجمع البحرين الذي يحيا فيه الحوت، فـإن كـان غيـر بعيـد ظفـر ببغيتـه، وإن كان بعيدا واصل السير إلى أن يلقاه. وفي هذا المشهد من العبر:

1)أن علم الإنسان مهما بلـغ هـو علـم محـدود، وأن وراء كـل منزلـة منزلـة أسـمى تتحرك الهمم الرفيعـة لبلوغهـا، فـإن موسـى ﷺ وهـو مـن الرسـل أولـي العـزم المقربين، تاقت همته العلمية إلى الاستزادة من المعرفـة، والسـفر ليلقـى الرجـل العـالم الذي يكشف له ما جهله.

2) أن السفر مساعد على تحصيل العلم. ذلك أن الله كما خـص كـل ناحيـة مـن نـواحي الكون بمنتجات لا تجـدها فـي غيرهـا، فكـذلك المعرفـة والـذكاء وزعتهمـا الحكمـة الإلهية في الكون، ونال كل قوم ما كتب لهم. والسفر يكشـف لطالـب العلـم مـا يضـمه لمخزونه المعرفي فيكتمل. وكانت الرحلـة فـي طلـب العلـم بابـا مـن أبـواب النبـوغ العلمي في الحضارة الإسلامية.

3) الأدب الذي يستفيده التالي في التعبير عن العلاقـات البشـرية، فالـذي كـان يصـحبه موسى عليه السلام هو معين خادم له سواء أكان عبـدا أو حـرا، بـدليل أنـه طلـب منـه أن يعد لهما غداءهما ممـا اسـتحقظ عليـه. وسـماه القـرآن فتـى : أي شـاب. ثـم إن موسى راعى كرامته البشرية، وأنه إنسان يصـحبه لا دابـة يركبهـا، فعرفـه بقصـدهما، ولم يقل احمل وسر ورائي.

61-فلما بلغا مجمع البحرين....في البحر سربا.

المشهد الثاني: موسى وفتاه يواصلان المسير، حتى توقفا عند صخرة على البحر. ويبدو في المشهد موسى، وقد هدهده النسيم اللطيف البحري فأثقل جفونه ونام. وبجانبه فتاه يقظان لم يأخذه ما أخذ سيده. ما كان أحدهما يظن أن ذلك المكان هو المكان المقصود.

و بينما هو نائم اضطرب الحوت في المكتل، وعادت له الحياة، واتخذ لنفسه طريقا إلى البحر فأخذ يعوم في الماء كشأنه قبل أن يكون زادا. ولما كانت حياة الحوت تمثل النقطة المرجعية في سفرهما، فإنه مع ذلك نسي موسى أن يتفقد الحوت بمجرد ما أفاق.ونسي غلامه أن يعلمه بما حصل.

62-فلما جاوزا قال لفتاه...من سفرنا هذا نصبا.

أفاق موسى ﷺ، وما كان يظن أنه بلغ المكان الموعــود، فــنهض مواصـــلا ســيره مــع غلامه. وظهر على موسى الإعياء، وصَــحبه الجــوع وقــد طلــع النهــار. فطلــب مــن فتاه أن يعد لهما الغداء. وتلطّف ﷺ فــي مخاطبــة غلامــه معلــلا طلبــه ذلك بأنــه قــد تعب من مواصلة السير.

63- قال أرأيت إذ أوينا إلى....في البحر عجبا.

أفاق الفتى من غفلته وخاطب سيده قائلا: أخبرني هــل أبصــرت تلــك الصــورة الغريبــة عندما كنا على الصخرة، فقد استولى علــي النسـيان وذُهِلْــتُ، فنسـيت أن أخبــرك بمــا حصل. لقد أثر في الشيطان بما ملأ به مشــاعري مــن المشــاغل، والتفكيــر فيمــا أحيــاه في نفسي من الأمور التي حركها لتستولي على مــداركي، حتــى نسـيت أن أخبــرك بمــا جرى للحوت، فقد اتخذ الحوت طريقه عائدا إلى البحر الــذي تــم اصــطياده منــه. وإنــه قد تملكني العجب مما رأيت وشاهدت.

و قد يتساءل المتابع لهذه القصة كيف يمكن أن ينســى الفتــى إخبــار ســيده بهــذا الأمــر العجب بمجرد ما أفاق؟ يوضح ذلك أن قانون التــذكر قــانون معقــد. إن اشــتغال الــذهن اشتغالا يصرفه عن تذكر الأمر المهم غير مستبعد، قد تجــد المســافر وقــد حــزم أمتعتــه وسار إلى المطار، فلما حضر للتسجيل وجــد نفســه قــد نســي تــذكرة الســفر.وقد وقــع مرة بحضوري أن الأب دخل إلى المنزل ليلا، ولما سئل عــن ابنــه الــذي يصــحبه مــن المدرسة تفطن عندها أنه نسيه.

قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

ارتدا: رجعا من الطريق الذي سلكاه.

قصصا: يتابعون الطريق بانتباه حتى لا يخطئا.

آتيناه رحمة : رحمناه بتوفيقه، وجعلناه سبب رحمة للناس.

علما : وحيا يقينيا.

أتبعك : أصاحبك.

رشدا : خيرا.

تحط: تتمكن.

خبرا: علما.

ذكرا: أبين لك باللسان.

بيان المعنى الإجمالي :

لم يعنف موسى فتاه، وتهلّل وجهه للخبر، وقال إن المكان الذي عاد فيه الحوت حيا إلى البحر هو المكان الذي نريده. فلنعد ملتزمين الطريق الذي سلكناه بعد نومي، حتى نبلغ مجمع البحرين وسارا. فوجدا عنده رجلا صالحا تخيره الله وأفاء عليه من القرب ما نسبه به إلى نفسه (من عبادنا) وميزه بما أعطاه من العلم الخاص الذي لم يمكن منه البشر بما أوتوه من قوى العقل والإدراك.

عرض موسى على هذا الرجل الصالح العالم، أن يصحبه ليأخذ عنه العلم الذي خصه به الله والذي فيه خير كثير.

كان رد الخضر: يا موسى إن الشرط الذي يبلغ به طالب العلم المعرفة الواضحة غير متوفر فيك، يا موسى إنه الصبر، وأنت لا تستطيع أن تصبر على أمور تراها أمام ناظرك، ولم يبلغ مستوى علمك إدراك كنهها. إذ شأن الإنسان أن تتحفز جميع قواه أمام المجهول وتنبعث غريزة حب المعرفة قوية دافعة حسب الطبع.

ولما كان موسى من الرسل أولي العزم، لم ير في جواب الخضر ما يحرمه من التعلم منه، فهو من أشد الناس صبرا. فقال له: كن مطمئنا فستجدني بفضل الله وعونه صابرا لا أشوش عليك متعجلا. وأيضا فسأكون لك مطيعا لا أعصيك فيما تطلبه مني، فقد جمعت بحمد الله الوصفين الأساسيين في التعلم " الصبر والطاعة "

كان جواب الخضر بعد هذا التأكيد: أن الشرط بيني وبينك: أنك تسكت ولا تبادر بالسؤال عن أي شيء أقوم به، وتنتظر الوقت الذي أراه أنا مناسبا لأبين لك سر عملي، علّةُ وغاياته.

بيان المعنى العام :

64- قال ذلك ما كنا نبغ ... آثارهما قصصا.

المشهد الثالث : قبل موسى عذر فتاه ولم يعنفه، بل صرح له أنها بشارة منه لما كان يطلبه وسافر من أجله، وبدت علامات الاستبشار على وجهه، لقد تحققت

الأمارة التي أوحى الله بها إليه : أن الخضر تجده فـي المكـان الـذي يعـود فيـه زادكـم من الحوت إلى البحر حيا. وتبرزه الآية وقـد ولـى ظهـره وقفـل راجعـا متبعـا الخـط الذي سار فيه متثبتا من ذلك حتى لا يخطـئ المكـان الـذي خرجـا منـه بعـدما أخـذه النوم.

65- فوجدا عبدا من عبادنا....من لدنا علما.

المشهد الرابع: اللقاء المرتقـب عنـد مجمـع البحـرين، بـين موسـى وبـين الخضـر، ويصوره القرآن بأنه عبد من عباد الله، كرّمه الله فنسبه لنفسـه تشـريفا لـه وتمييـزا مـن عبادنا) وتفصل الآية شيئا مـن مزايـاه أن الله أسـبغ عليـه رحمتـه فقـدر أن يكـون موفقا فيما يختاره، وينتفع به غيره من آثار تلكـم الرحمـة. ومـع الرحمـة فـي السـلوك والاختيارات ونفع الناس به، علمه الله بـوحي منـه علمـا صـادرا مـن مكنـون العلـم الإلهي الذي لا ينال بالحواس ولا بالعقـل. وهـو العلـم اللـدُني. وسـيظهر لنـا بمتابعـة القصة خصائص هذا العلم.

66- قال له موسى هل أتبعك...مما علمت رشدا.

بعد التعرف المطوي في القصة، يفتتح التسجيل لما دار بينهما.

موسى: هل تسمح لي بأن أتبعك وأصـحبك علـى أن أتعلـم منـك ممـا علمـك الله مـن الخير، فمصاحبة موسى للخضر مشروطة بأن يعلّمه ولا يكتمـه مـا خصـه الله بـه مـن العلم. هذا العلم الذي هو غير علـم التشـريع وإصـلاح المجتمـع الـذي مكـن الله منـه موسى بما أوحاه إليه وبما تضمنته التوراة. وإنما هـو علـم آخـر مغيّـب عـن البشـر لا يدرك سره إلا بتبصير من الله.

67-68، قال إنك لن تستطيع...على مالم تحط به خبرا.

الخضر: بكل تأكيد لن تستطيع أن تصبر علـى مـا ستشـاهده معـي، يشـير إلـى شـدة غرابته وخروجه عن المألوف المتعـارف. ذلـك أن موسـى ﷺ يطبـق الشـرع الـذي يحكم بالظاهر، فيقبل ويقر ما ظاهره معروف، ويـرفض مـا ظـاهره منكـر. والخضـر مفتوح عليه، فقد يفعل ما هو في النظـر الأول منكـر وفـي العاقبـة حسـن ومعـروف، وبالعكس. ويبدو هذا التأكيد لفظـا بكلمـة (إنّ) وكلمـة (لـن) ووصـياغة بـدخول النفـي على صبرا المفيد أن كل رتب الصبر منفيـة. وواصـل بأنـك معـذور إن كـان صـبرك لا يتحمل السكوت عما ترى. إذ كيف تستطيع أن تسـكت صـابرا علـى أمـور لا تقرهـا عند حدوثها لكونها منكرة، ولا تعلـم مآلاتهـا الصـالحة إذ هـي مـن الغيـب المسـتور. فكيف تصبر على ما لم تبلغ العلم به ؟ ويؤول الاستفهام إلى: أنت لا تصبر.

69 - قال ستجدني إن شاء الله...ولا أعصي لك أمرا.

موسى: كن مطمئنا فإنك ستجدني ملتزما بالصبر، لا أغير عليك شيئا مما تقوم به. كان الخضر يخشى أنه إن صحب موسى، وهو مكلف بإنجاز ما يراه الأصلح من الأفعال الخفية مصلحتها عمن لم يحصل له العلم الذي علمه الله إياه، قد يفسد عليه أمره بالإسراع إلى الإنكار، خاصة وشخصية موسى ﷺ كما قدمها القرآن في أكثر من موقف شخصية شديدة في الحق. وعطف موسى على التزامه بالصبر وعدم العجلة، أنه سيظهر منه في صحبته الطاعة له. فعبر موسى عن عزمه على أن يتعلم من الخضر" وهو من الرسل أولي العزم "، وأنه لذلك أظهر أنه ملتزم بالوصفين الأساسيين للتعلم، الصبر على تحصيل العلم، بعدم التسرع لإدراك الغايات من أول الأمر، وثانيا الطاعة للمعلم الصالح الذي يرعى ما يبلغ من يأخذ عنه العلم، مستوى التحصيل والاقتناع.

70 - قال فإن اتبعتني...حتى أحدث لك منه ذكرا.

الخضر :أكد ما عرضه أولا، بعد سماعه ما يطمئنه من موسى أنه لا يفسد عليه بعجلته وتدخله فيما يقوم به، فبين ما يعنيه من قوله : **إنك لن تستطيع معي صبرا-** فقال : إنك إن صحبتني فلا تسألني عن أي شيء يحصل مني، وإن بدا لك أنه غريب وغير مقبول، وانتظر الوقت الذي أراه مناسبا لأكشف لك عن مبانيه وغاياته فأحدثك بما يعرفك بما قمت به ما يكشف غوامضه وعلله " لاحِظْ واسكُتْ "

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخرق : الثقب والشق.

الإمر : الفظيع

ولا ترهقني : ولا تكن شديدا علي.

زاكية: طاهرة.

نكر: لا تقبله العقول وتستهجنه.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن قبل موسى شروط الصحبة، أخذا يسيران على سيف البحر، وكانت سفينة قريبة منهما فطلبا من نوتيتها أن يحملوهما معهم. وبمجرد ما ركبا انتحى الخضر ناحية وأحدث ثقبا فيها. سارع موسى بالإنكار عليه إن فعلتك هذه ستعرض السفينة وركابها للغرق فكيف تسيء إليهم، وهم قد أحسنوا إلينا، إن هذا أمر فظيع. ذكّره الخضر بما سجله عليه من أول الأمر: أنه لا يستطيع أن يصبر على ما يراه مما هو مرفوض بداهة. طلب منه موسى أن لا يؤاخذه، لأنه نسي وصاته، وأن لا يعامله بشدة.

صفح الخضر عنه وسارا معا حتى لقيهما غلام، فأسرع الخضر وقتل ذلك الغلام، لم يصبر موسى على كبيرة قتل غلام لم يقتل نفسا، وغير مكلف، وصفحته ما تزال غير ملوثة بالآثام. وصرح بأنه هذا أمر منكر.

بيان المعنى العام :

71–73 :فانطلقا حتى....ولا ترهقني من أمر عسرا.

المشهد الخامس : بعد أن تم الاتفاق بينهما والالتزام من كل طرف للآخر: موسى بالصبر وعدم المبادرة بالسؤال، والخضر بالتعليم والبيان في الوقت الذي يراه مناسبا.

الصورة : اصطحبا وسارا على سيف البحر، ومرت بجانبهما سفينة فطلب الخضر من نوتيتها أن يحملاهما على سفينتهم. وبمجرد ما استقرا على ظهرها أخذ الخضر آلة حادة وأحدث بها ثقبا ؛ وموسى يشهد ويستغرب كيف إن أصحاب سفينة حملوهم معهم ولم يشترطوا عليهم مقابلا لحملهم، وأحسنوا قبولهم، والسفينة مورد رزقهم، كيف يحدث فيها ما يعرضها وركابها إلى الغرق والموت. وموسى رسول من رسل الله قويت فيه ملكة النهي عن المنكر ؛ فبادر بالاعتراض على الخضر وقال له في صيغة المنكر لفعله: إن ما فعلتهُ غير مقبول كيف تخرق سفينة أكرمنا أصحابها، فتجازيهم بتعريضهم للغرق، إن هذا أمر فظيع غير مقبول.

وبمقدار ما كان يلوح على موسى من الغضب، كان في المقابل يبدو على الخضر الهدوء، فأجاب : أسألك لأثير ذاكرتك، ألم أخبرك عندما طلبت أن تصحبني، أنك لا تملك القدر من الصبر الذي تستطيع به عند مصاحبتي ومشاهدة ما أصنع، أن تسكت وتنتظر ؟

اعترف موسى بتسرعه، وطلب من معلمه الصفح وعدم المجازاة والمؤاخذة على تسرعه بالاعتراض، وعلى نسيانه ما التزم به، ففي مضمون كلامه ما يدل على أن

نسيانه قد يعرضه لإقصائه عن مصاحبة الخضر. لا تُضيّق علي ولا تعاملني بشدة.

74- فانطلقا حتى إذا لقيا....لقد جئت شيئا نكرا

المشهد السادس: قبل الخضر ما اعتذر به موسى، ونزلا من السفينة وواصلا السير. ويعترضهما في طريقهما غلام، فَيُقْدِمُ الخضر على لي عنقه وقتله، وتملك العجب موسى من فعل الخضر. فهذا غلام ما يزال في بواكير صباه غير مكلف وبالتالي لم يرتكب ذنبا، وما تزال صفحة أعماله نقية، ولم يقتل نفسا حتى يؤاخذ بالقصاص. ولم يحتمل موسى وهو الرسول الكريم أن يُهْدَرَ أصل من أصول شريعته وشرائع جميع المرسلين (التعدي على الحياة)، فبادر بإنكار هذا الفعل وخاطب الخضر بقوله : كيف سمحت لك نفسك أن تقتل نفسا طاهرة في غير قصاص ؛ إن ما فعلته أمر منكر. وعبر عن الأول بأنه "إمْر"، وعن هذا بأنه منكر. فاختلف في أي التعبيرين كان أشد ؟ الأول خرق السفينة وهي تسير في البحر بركابها فظيع " لأن فيه هلاك جماعة لا فرد" ولم يتحقق ضرره ولكنه متوقع، وأما هذا الفعل قد تحقق ضرره في الخارج والقتيل واحد. فاختلفت الأنظار تبعا لذلك.

الفهـــــرس